مريم العذراء

تأليف الأب المرحوم يواكيم نمنم

مقدّمة الكتاب

لم نبغِ من وراء هذا الكتاب عرض آراء أو نظريّات لاهوتيّة بل وضعنا نصب أعيننا الشعب فكتبنا له ما كتبنا. وكنّا إذا اعترضتنا آراء متضاربة انفردنا برأي وأهملنا الباقي لأنّ المقصود الفائدة الروحيّة العمليّة لا المناظرات أو الجدل.

ومن حيث الأماكن التي شاهدت أحداث حياة البتول فقد التزمنا جانب الآراء المنبثقة من "**مدرسة الكتاب المقدّس**" للآباء الدومينيكان في القدس وخاصّة رأي الأب "**لاغرنج**" لأنّنا وجدنا فيها قناعة أقوى ودليلاً أقرب إلى المنطق والتقاليد الشائعة محلّيًّا.

أمّا سبيلنا إلى الهدف فقد سلكنا إليه كلّ الطرق، وحاولنا ألاّ نهمل شاردة أو واردة ما دامت تلقي بأنوارها الكشّافة على تفاصيل حياة العذراء وما دامت توصّلنا إلى معرفة أوسع بها وحُبّ أعظم لها.

واستندنا قبل كلّ شيء إلى الكتاب المقدّس، وتعاليم الآباء، وتحاديد الكنيسة الرسميّة، والصلوات الطقسيّة، ونظنّ أنّنا أوّل مَن حاول أن يسند الحجّة بدليل الصلوات الطقسيّة على هذا النطاق الواسع. فإذا ما التزمت تلك المصادر جانب الصمت حينئذ لجأنا إلى المصادر غير الرسميّة بل إلى فرضيّات اقتطفناها ممّا انتشر على أقلام كتّاب تحدّثوا عن البتول.

وحاولنا ما استطعنا أن نلبس الكتاب حلّة شرقيّة فوصفنا التقاليد الشرقيّة في المنزل وفي العمل. وعرضنا مناسبات الأفراح والأحزان كما ترى في هذه البلاد منذ أقدم العصور حتّى اليوم. وألمحنا إلى تاريخ بعض حكّام بلاد الشام. واعتمدنا في العموم على الآباء الشرقيّين فسردنا لهم نصوصًا كثيرة.

ومن كلّ ذلك استخلصنا عِبرًا ودروسًا لحياة مسيحيّة مثلى، فشجبنا ما يجب شجبه وأيّدنا ما رأيناه أهلاً للتأييد في سلوك الجماعات والأفراد.

وكتابنا هذا ليس إلاّ المواعظ التي ألقيناها في كنائس سوريا ومصر ولبنان والسودان وتركيا وفي مختلف كنائس الطوائف بحلب، سيّما في أخويّة ميلاد العذراء منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة. ولولا إلحاح بعض مَن سمع تلك المواعظ لمَا تجرّأنا وأقدمنا على عمل نعتقد بأنّ غيرنا أطول منّا باعًا به. على أنّه لمِن دواعي فخرنا أن نضمّ صوتنا إلى الأجيال التي غبّطت وسوف تغبّط البتول. وما ابتغينا من وراء ذلك إلاّ إرضاءها ونقل صورة المسيح إلى النفوس تلك الصورة التي سبقت مريم ونقلتها إلى نفسها. ولكي يتسنّى لنا ذلك طالعنا كلّما وصلت إليه يدنا من كتب ومجلاّت ونشرات، ولم ننس أن نطلب إليها في صلواتنا أثناء وضع هذا الكتاب أن تتكلّم هي عن نفسها وتحبّب ذاتها إلى القلوب.

المؤلّف

للأب يواكيم نمنم ق. ب.

الجزء الأوّل
طفولة العذراء

١
ابنة يواكيم وحنّة

إنّها من نسل داود

تنحدر مريم من سلالة ملكيّة: يهوذا وداود. وقد أنزلت الحروب الويلات بهذه الأسرة فهدّتها وحطّمت عروشها. فهاجر مَن هاجر وسُبيَ مَن سُبيَ. لكنّ الروح النبيلة ما زالت تسري في دماء أبنائها، فتدفعهم في أن يطمحوا دومًا إلى المجد الذي كان لهم يوم حملوا مشعل عبادة الإله الواحد إلى عالم شعوبُه وثنية تحني الركب والأعناق لغير الإله الحقيقيّ.

لا بدّ لنا في معرض حديثنا عن حياة العذراء مريم، من أن نعود إلى الأصول التي سبّبت نموّ تلك الدوحة ذلك النموّ العجيب، فالإنسان وليد أسرته وبيئته، ومريم لم تتجرّد قطّ من الجوّ الطبيعيّ والأدبيّ والروحيّ الذي عاش فيه أجدادها وآباؤها وأقرانها.

قال القدّيس لوقا في إنجيله (فصل ١: ٣١-٣٢) أنّ المسيح هو من الدم المنحدر من جدّه داود: **"وسيعطيه الربّ الإله عرش داود أبيه"**.

وجاء في أعمال الرسل (٢: ٢٠) وفي رسالة القدّيس بولس إلى الرومانيّين (١: ٣) أنّ المسيح هو مَن زرع داود بالجسد. ولكن أين نحن من حلقات تلك السلسلة الطويلة: فليس في الكتاب المقدّس ما يروي الغليل، وجلّ ما فيه هو أنّ المسيح من نسل داود.

إنّ التقليد هو المعين الثانيّ بعد الكتاب المقدّس لحقائقنا المسيحيّة فلنعد إليه في تثبيت إنتساب مريم لنسل داود. لقد أشار الكتاب وردّدت أفواه الخطباء مرارًا اسمي والدَيْ مريم كشخصين من سلالة الملك داود.

نعم كانت سلالات الملك داود قد أضاعت حقوقها شيئًا فشيئًا منذ زمان السبي البابليّ. ولمّا عظم شأن المكابيّين تقلّص امتياز عشيرة داود فباتت على مستوى واحد مع عامّة الشعب.

ولمّا انتقل صولجان الملك إلى هيرودس الأجنبيّ واستولت مملكة روما بالحديد والنار على بلاد فلسطين بدأ عصر الإنحطاط الأخلاقيّ في الآداب والدين. وكان هذا التدهور الأخلاقيّ إشارة إلى أنّ أسابيع دانيال سائرة إلى الإنتهاء.

فراح اليهود يتوقّعون بفارغ الصبر ظهور **"ماسّيا"** بن داود متأمّلين أن يحقّق لهم ولبلاد فلسطين ملكًا يحرّرهم من نير روما ويرفع لهم عرشًا على العالم.

من هذه أسرة داود المباركة كان يواكيم وحنّة والدا العذراء مريم كما سبق وأشار الكتاب والخطباء. ولقد بخل علينا التاريخ بتفاصيل كنّا نتمنّى لو كانت ضافية شافية. إلاّ أنّ التقاليد الكنسيّة والصلوات الطقسيّة تعوّض علينا ما بخل به التاريخ عندما ترسم لنا صورة جليّة رائعة عن فضيلة هذين الزوجين الخضوعين الصبورين ما شاء لهما الله

خضوعًا وصبرًا. إذ تقول: إنّ يواكيم نشأ من سبط يهوذا من نسل الملك النبيّ داود وأنّ والده فاربافير هو سليل ناثان بن داود وتدّعي أنّ حنّة هي بنت الكاهن متَّان من قبيلة هارون. وكان لها أختان هما مريم وصوفيا تزوّجتا في بيت لحم فأنجبت الأولى صالومي والثّانية ولدت أليصابات أمّ يوحنّا المعمدان.

إنجيل يعقوب المحرّف

وهناك تقليد محلّيّ قديم يُرجَّح أنّه اعتمد على ما ورد في الإنجيل المحرَّف المنسوب إلى القدّيس يعقوب، وهو كتاب غير رسميّ كتبه أحد المسيحيّين بدافع من تقواه فسرد لنا فيه ما وصل إليه من حوادث ومعلومات عن والدَيْ العذراء مريم والحبل العجائبيّ بها.

وقد استندت الكنيسة الشرقيّة أوّلاً ثمّ الكنيسة كلّها، لإكرام والدَيْ مريم يواكيم وحنّة وإحياء ذكرى الحبل بمريم سنويًّا، إلى هذا الكتاب الذي يعود تاريخه إلى مطلع القرن الثّانيّ للميلاد. ومن القرائن يبدو أنّ الكاتب مسيحيّ من سكّان مدينة القدس كان يعيش بالقرب من مكان الحوادث. فالكتّاب ومؤلّفو الصلوات الطقسيّة والخطباء الدينيّون والرسّامون رجعوا في أكثر معلوماتهم إلى هذا المصدر التقيّ.

قصّة العقر

ولقد ورد في هذا الكتاب: إنّ الله ابتلى يواكيم وحنّة بالعقر، شأنهما في ذلك شأن زكريا وأليصابات، والدَيْ يوحنّا السابق. وكان اليهود قبل مجيء المسيح ينظرون إلى العقر، كأنّه لعنة من الله وعقوبة كالمرض والفقر والموت. ومردّ ذلك إلى أنّ الشعب اليهوديّ كان يترقب مجيء المسيح. وكان علماء شرح الكتاب قد بيّنوا أنّ المسيح سيولد من امرأة. فحتّم على كلّ ابنة أن تتزوّج وتنجب أولادًا. ولذلك لم تقرّ اليهوديّة الرهبانيّة أيّ الزهد في الزواج، خوفًا من أن يقف التبتّل عقبة أمام مجيء المخلّص. ولكي يروّجوا للزواج وإيلاد البنين، نشروا بعض الشائعات تحمل اللعنة والغضب والاحتقار على مَن يحجم عن الزواج أو مَن يُحرم من نسل.

فلمّا مرّ عهد الشباب على يواكيم وحنّة، وانصرم زمن الحبل، وانقطع أملهما من ذلك، شعرا بأنظار الناس ترميهما بالاحتقار والازدراء. فوجدت حنّة أنّ أفضل طريقة لتجنّب الناس واتّقاء سهام ازدراءاتهم هو أن تنعزل في بيتها وتنقطع عن المجتمعات حيث قد تثار بشأن عقرها، أسئلة تمسّ شعورها بسوء أو تنال من كرامة زوجها، فقرّرت أن تجمع في بيتها بعض البنات تشرف عليهنّ في غزل الصوف. وهكذا انصرفت حنّة لتلهو عن مصابها وتتجنّب لذعات ألسنة الأشرار، إلى خدمة بيتها وغزل الصوف والصلاة.

هذا ما ورد في إنجيل القدّيس يعقوب المحرَّف وهو يتّفق كلّ الاتفاق مع الأخلاق والعادات التي كانت منتشرة في ذلك العصر بين اليهود. فيذكر لنا القدّيس يعقوب أو مَن حمل اسمه أنّ حنّة كانت تركع تحت شجرة بقرب دارها وتصلّي متضرّعة إلى الله أن يرفع عنها العقم.

أمّا يواكيم فكان يحقّ له بموجب الشريعة التي أقامها الفرّيسيّون أن يتقاضى حنّة الطلاق بسبب عقرها. ألا أنّه وهو الرجل الصدّيق قد أحبّ امرأته حنّة واحترمها لفضائلها الممتازة وأخلاقها الدمثة ولطفها ووداعتها. ولذلك لم يشأ أن يستخدم الشريعة بحقّها، وفضّل أن يتحمّل المحنة على أن يُحمّل حنّة مرارة وعار الطلاق. واستمرّا يعيشان في الصلاة والصوم والإحسان تشدّ أحدهما إلى الآخر محبّة متبادلة ويراودهما الأمل في أن يُرفع عنهما العار. ويُذكر أنّ يواكيم جاء يقدّم في أحد الأعياد الكبرى قربانًا لله في الهيكل فرفضها رئيس الكهنة وقال له: أنت لا تستحقّ أن تقدّم قربانًا لأنّك لم تنجب ولدًا. ولا ريب في أنّك لم تنل بركة الله بسبب خطاياك الخفيّة.

وقال له رجل: لماذا تريد أن تقدّم قربانك قبلي؟ أفلا تعلم أنّك لا تستحقّ أن تشترك معنا في تقديم القرابين إذ أنّك لم تقم ذريّة لإسرائيل.

لقد ضاق يواكيم صدرًا بملاحظات الناس وانتقاداتهم. ولعلّه لمح بين مَن التقى بهم في الطريق ذات يوم رجلاً يهمس في أذن رفيقه وهو يشير إليه بإصبعه: هذا عاقر. هذا ملعون من الله. فلكي يتخلّص من كلّ ذلك ويتفادى الغمز واللمز ابتاع لنفسه قطيعًا من غنم وانحدر به يرعاه في الشعاب التي تقطع جبال يهوذا بين مدينة القدس ونهر الأردن. وهنالك في ذلك الجوّ الهادئ تفرّد للصلاة. وكنت تسمعه، والزفرات تنبعث من نفسه الخاضعة لإرادة ربّه، يقول: اللهمّ ارفع عنّي العار.

هذه القصص وإنْ لم تكن من الكتاب المقدّس ولا من مجموعة الكتب الرسميّة التي فرضتها الكنيسة على المؤمنين إلاّ أنّها ألهمت الآباء القدّيسين الذين ألّفوا الصلوات الطقسيّة في شأن حبل حنّة وميلاد العذراء. وهي إنْ دلّت على شيء فإنّما تدلّ على أوضاع اجتماعيّة راهنة في البيئة التي عاش فيها يواكيم وحنّة، وتدلّ على ما علق بأذهان المسيحيّين الأوّلين عن حياة يواكيم وحنّة بعد أن أغفلها التاريخ والكتاب. ولن نتورّع من أن نرجع مرارًا إلى هذه التقاليد غير الرسميّة وما غايتنا إلاّ التقوى، والتقوى تنهلّ من موارد العِلم والقصص وتغرف من الغدير النمير المتدفّق وتستوحي من العندليب الصدّاح.

نهاية المحنة

ولقد اكتفى الله بامتحان فضيلة صديقيه وصفيّيه. وإنّ الله يمتحن محبّيه وأولياءه، ليزيدهم فضلاً وتمسّكًا به فقد سمع يواكيم صوتًا في ضميره يقول له: إنّ حنّة سوف تحبل. فانثنى راجعًا بأغنامه إلى مدينة القدس. ولعلّ وصوله إليها كان في ساعة مالت فيها الشمس إلى المغيب. وقد انتشر في أجواء تلك المدينة نسيم منعش لطيف دفع حنّة إلى الخروج من بيتها. فوقفت في أعلى السفح المشرف على الوديان التي انحدر فيها زوجها يواكيم بالأمس. وقد بدا عن شمالها جبل الزيتون مخضوضرًا شامخًا. بينما ظهرت من بعيد جبال مؤاب وقد انعكست عليها ألوان البحر الميت فألبستها ثوبًا أزرق شفّافًا وأضفت أشعّة الشمس على الغيوم اللطيفة التي تجمّعت آنئذ فوق الجبال لونًا ذهبيًّا فأصبحت وكأنّها تيجان مرصّعة. بهذا المشهد الرائع الأخّاذ علّقت أنظار حنّة، حينما

قرع أذنيها جلجال أجراس أغنام تقترب، وبدا الراعي في مقدّمتها منهوك القوى مبهور الأنفاس بسبب وعورة الشعاب وشاهق الإرتفاع. فراحت تتساءل هل هو يواكيم الزوج المخلص الحبيب؟ وتفرّست بملء عينيها فزال الشكّ. نعم هو. واقتربا. وكان اللقاء. وفي غمرة العناق، همست حنّة في أذن يواكيم بالبشارة السعيدة: إنّ الله بشّرني بولد. فهتف يواكيم: لقد زال عنّا العار. في هذا المكان بنت القدّيسة هيلانة في مطلع القرن الرابع كنيسة لتخلّد اللقاء والبشرى. وما تزال هذه الكنيسة قائمة إلى اليوم في مدخل باب مدينة القدس الشرقيّ.

بدء الاحتفال بالذكرى

ولقد مرّت فترة طويلة قبل أن يباشر المسيحيّون بتمجيد الحبل بمريم. ذلك ولا شكّ يعود إلى أنّ الإنجيل خلا من ذكر تلك الموهبة السامية التي مجّد الله بها يواكيم وحنّة، وإلى أنّ التقليد ينحصر عادة في مكان نشوئه، فيحتاج إلى بعض الوقت لينتشر ويعمّ في الكنائس جمعاء.

ويرتفع أوّل صوت من جزيرة سلامين من بلاد اليونان فنسمع القدّيس إبيفانيوس أسقف الجزيرة في أواخر القرن الرابع يعلن بأنّ الحبل بمريم تمّ حسب الناموس الطبيعيّ فهي من رجل وامرأة. وقد فنّد بذلك أقوال الذين ادّعوا بأنّ الحبل بمريم جرى من الروح القدس وليس من يواكيم.

وفي القرن السادس ينشد رومانوس لمولد العذراء، وهو أعظم مَن أبدع ترنيمًا في كنيسة الله، أبياتًا يأتي فيها على ذكر عقر يواكيم وحنّة وتنهّداتهما وصلواتهما إلى الله وأخيرًا عطف الإله الخالق الذي وهبهما ثمرة هي مريم والدة الله ومغذية حياتنا.

وفي القرنين السابع والثامن بدأ الاحتفال رسميًّا بعيد حبل حنّة. وأكثر الصلوات في ذلك الوقت كانت نسج خيال وإيمان القدّيس أندراوس في جزيرة كريت ويوحنّا أسقف أوبه. ولا يزال هذا الاحتفال يزداد انتشارًا جيلاً بعد جيل.

موضوع العيد

أمّا موضوع العيد في الكتب الطقسيّة الشرقيّة فيختلف عنه في الكنيسة اللاتينيّة. فبينما تحتفل الكنيسة اللاتينيّة في الثامن من كانون الأوّل بالحبل البريء من دنس الخطيئة الأصليّة، تحتفل الكنيسة الشرقيّة بحبل القدّيسة حنّة أمّ والدة الله وذلك في اليوم التاسع من شهر كانون الأوّل. والكنيسة اللاتينيّة عيّدت لمريم ثمرة الحبل، بينما الكنيسة الشرقيّة مجّدت بطقوسها واقع الحبل العجائبيّ. ولم يبرح عن ذهن المرنّمين والخطباء في ذلك اليوم أن يباركوا مقدّمها الميمون.

طقس العيد

ونحن لا نفتأ في يوم العيد نهتف مرارًا وتكرارًا: "**اليوم قيود العقم تنحلّ لأنّ الله يستجيب ليواكيم وحنّة فيعدهما وعدًا جليًّا أن يلدا على غير أمل فتاة الله التي وُلد منها**

غير المحصور نفسه لمّا صار إنسانًا آمرًا الملاك أن يهتف إليها: السلام عليك يا ممتلئة نعمة، الربّ معك".

وهكذا يتبيّن لنا إيمان مسيحيّي الشرق بهذا الحدث الخطير وهو يدور في التقليد والطقوس الكنسيّة حول النقاط التالية:

آ- صلوات يواكيم وحنّة العاقرين.

ب- تحطيم قيود العقم المرّ.

جـ- وعد الله وعدًا جليًّا بالحبل بمريم.

د- العظمة التي تمّ الحبل بها.

كما يعود دائمًا هؤلاء المرنّمون إلى الإنجيل المنسوب إلى القدّيس يعقوب إذ أنّه المصدر الأوّل. ولا يغرب عن أذهانهم عقم يواكيم وحنّة ولا عظمة الابنة التي سوف تصبح أمّ الله بالجسد فينشدون لها ويرنّمون:

"إنّ الذي فجّر الينابيع من الصخرة الصلدة وهب أحشاءك يا حنّة ثمرة منها يتفجّر ينبوع الخلاص".

"يا لعظمة السرّ! إنّه يثير إعجاب الملائكة والبشر ولقد كشف عنه منذ الأزل وها هو يتمّ اليوم في أحشاء حنّة: مريم الابنة الإلهيّة يتمّ الحبل بها" (من صلوات طقس العيد).

وهكذا نرى أنّ مريم هي في النهاية موضوع التبجيل والتمجيد في هذا العيد.

مساهمة الفنّ

ولقد ساهم الفنّانون بطريقتهم للتعبير عن حبل حنّة وتمجيد هذا السرّ. قال القدّيس باسيليوس: إنّ ما يُسمعه الكلام للأذن يدلّل عليه الرسم الصامت بالتمثيل.

وقد ساهم بقسط وافر بعض الرهبان، في تمثيل موضوع العيد، فرسموا لنا عددًا كبيرًا من الأيقونات المقدّسة والصور على الخشب أو القماش أو الفسيفساء. مستندين هم أيضًا إلى ما ورد في الإنجيل المنسوب إلى القدّيس يعقوب، شأنهم في ذلك أيضًا شأن الكتّاب والخطباء والمرنّمين.

وإنّنا لنكتفي بالتوقّف عند واحدة من تلك الرسوم الكثيرة، وهي فسيفساء دير الدفنة الواقعة على بُعد عشرة كيلومترات من أثينا. فهي تمثّل لنا:

أوّلاً- القدّيسة حنّة في الوسط واقفة وقفة عابد يصلّي بلهفة. والدليل يداها وعيناها المرتفعة إلى السماء. فهي تصلّي وتطلب إلى الله أن يزيل عنها عار العقم.

ثانيًا- أمامها بركة تتدفّق منها المياه. وبعض الأشجار. وقد بنت عصفورة على أحد غصونها عشًّا لصغارها.

كلّ ذلك يذكّرنا بما ورد في الإنجيل المنسوب إلى القدّيس يعقوب. من أنّ حنّة إذ نزلت إلى بستان دارها للترويح عن النفس من غصّة العقم. رفعت عينيها إلى السماء. فلاحظت وجود العصافير الصغار فصرخت. ويل لي! لمن أشبه؟ لا طير السماء. فإنّها بنت أعشاشًا لصغارها. ولا تربة الأرض فإنّها أنبتت أشجارًا ولا أشبه هذه المياه المتدفّقة.

ثالثًا- عندئذ يظهر لها ملاك من السماء ويطير نحوها حاملاً إليها البشرى السعيدة.
رابعًا- بالقرب من ذلك رسم آخر. فيه يواكيم جالس في علّيقة وهذه تدلّ على الصحراء التي اختفى في طيّاتها ضنًّا بكرامته من لذعات الناقدين.
خامسًا- بالقرب منه ملاك يحمل له البشارة أيضًا.
وهكذا يصف لنا الفنّانون بطريقة التمثيل: حزن الزوجين العقيمين. صلواتهما الحارّة. والبشرى السعيدة التي يحملها ملاك السماء لهما.
فيتبيّن من كلّ ذلك أنّ الكنيسة الشرقيّة في الذكرى السنويّة لهذا الحدث العظيم. توقّفت لتتأمّل في كلّ ما أحاط بحبل القدّيسة حنّة بوالدة الله من تفاصيل دقيقة. بينما الكنيسة اللاتينيّة وقد تأخّرت أجيالاً عن الكنيسة الشرقيّة. أفادت من توسّع عِلم اللاهوت وأعطت للعيد صفة لاهوتيّة فأرادت أن تبرهن به على أنّ مريم بريئة من دنس الخطيئة الأصليّة منذ أن تمّ الحبل بها في أحشاء أمّها القدّيسة حنّة.

نستخلص ممّا ذكر

أوّلاً- إنّ الله لا يبطئ في مكافأة صبر عبيده.
ثانيًا- إنّ الله وهب يواكيم وحنّة أثمن الهبات وهي العذراء مريم.
ثالثًا- إنّ سبب احتقار اليهود للعاقر هو: انتظار مجيء المسيح وبسبب ذلك انتشرت بعض الآراء الخاطئة منها أنّ اليهود لم يفهموا إلاّ الولادة بالجسد. فلمّا جاء المسيح لم يعد ثمّة من سبب لكلّ تلك الآراء وقد علمنا بدلاً عنها معنى الولادة الروحيّة ونفهم ذلك من الحديث الذي دار بين المعلّم ونيقوديموس.
رابعًا- بعد أن جاء المسيح المخلّص أصبح العقم الروحيّ لا الجسديّ لعنة. فإنّ الحياة الرهبانيّة التي هي زهد عن الدنيا أنجبت القدّيسين والشهداء والعلماء للكنيسة، أنجبت راهب الصلاة والتقشّف. راهب المدرسة الساهر على تثقيف أبناء الله. أنجبت راهبة المستشفى ودار العجزة والميتم. كما أنّها ساعدت على وجود نخبة ممتازة من أبناء الشعب تتعاون مع رجال الدين في حقل خلاص النفوس.
وتحتفل الكنيسة بتذكار القدّيسَيْن الصدّيقَيْن جدَّيْ الإله يواكيم وحنّة في اليوم التاسع من شهر أيلول. ومن البديهيّ أن نلاحظ أنّه اليوم التالي لميلاد العذراء مريم. فبما أنّ يواكيم وحنّة يستمدّان كرامتهما خاصّة من تلك الولادة كان من الطبيعيّ أن تمجّدهما الكنيسة حالاً بعد الولادة. إنّها نوع من التهنئة.
هذا وإنّنا كلّ يوم في نهاية الذبيحة الإلهيّة نطلب إلى الله بشفاعة القدّيسَيْن الصدّيقَيْن جدَّيْ المسيح الإله يواكيم وحنّة أن يرحمنا ويخلّصنا.

٢
البريئة من دنس الخطيئة الأصليّة

معنى العبارة

أرى لزامًا عليّ قبل المباشرة بتحليل هذا الموضوع أن أبيّن معنى العبارة **"حبل بلا دنس"** دفعًا لكلّ التباس قد تتعرّض إليه.

إنّ كلّ حبل ضمن زواج شرعيّ هو حبل بلا دنس. ويعتبر الحبل الغير الشرعيّ فقط حبلاً مدنّسًا. لأنّه ناتج عن زنى.

أمّا الحبل الناتج عن عقد زواج شرعيّ فهو عمل مقدّس. بل هو من أقدس الأعمال. لأنّ الإنسان يشارك به الله الخالق في عمل الخلق. فهو إذًا أبعد ما يكون عن الدنس.

ولقد أجمع علماء اللاهوت على أنّ أعظم أعمال الله خارج ذاته الإلهيّة هو عمل الخلق. والرجل والمرأة يتعاونان مع الله في إيجاد خليقة جديدة.

ولكي يفهم البشر أهميّة هذا العمل ويحيطوه بالاعتبار اللائق رفع السيّد المسيح عقد الزواج إلى مقام سرّ من أسرار الكنيسة المقدّسة. فكما أنّ العماد سرّ مقدّس. والكهنوت سرّ مقدّس. والقربان سرّ مقدّس. كذلك الزواج هو سرّ مقدّس أيضًا.

الحبل بمريم

ولا بدّ لنا من الإشارة أيضًا في مطلع هذا الحديث إلى أنّ الكلام حين يدور حول **"الحبل بلا دنس"** لا يقصد منه **"الحبل الإلهيّ"** أيّ حبل مريم بيسوع ابنها. ولكنّ المقصود حصرًا هو حبل القدّيسة حنّة بمريم البتول. وليس من علاقة البتّة بين الاثنين. فالواحد مستقلّ تمامًا عن الآخر.

ومن جهة ثانية لقد كان من الممكن أن يتمّ الحبل بمريم بدون الخطيئة الأصليّة وأن تلد يسوع بدون أعجوبة البكارة. كما أنّه كان من الممكن أن تستمرّ العذراء مريم باكرًا وهي حبلى وأن يتمّ الحبل بها مع وجود الخطيئة الأصليّة.

الحبل طبيعيّ

هذا وأنّ الحبل بالعذراء المجيدة تمّ بصورة طبيعيّة وبالطرق التي رسمها الخالق لتوالد وتكاثر الجنس البشريّ. فلا فرق بينها وبين أيّة امرأة تمّ الحبل بها في هذا المعنى.

فمن الخطأ الظنّ بأنّ عبارة **"الحبل بلا دنس"** تعني أنّ الحبل بمريم تمّ بقوّة وفعل الروح القدس. إذ إنّ الحبل بقوّة وفعل الروح القدس لم يتمّ إلاّ بشخص المسيح في أحشاء مريم.

فالحبل الأطهر بمريم كان طبيعيًّا كسائر الناس. ولو بأعجوبة من الله. فيها مُنح يواكيم المتقدّم في السنّ وامرأته حنّة العاقر ولدًا في شيخوختهما.

فالميّزة الخاصّة التي تُميّز الحبل بمريم هي أنّه تمّ دون أن تتلوّث نفسها بدنس الخطيئة الأصليّة.

وحينما بشّرها جبرائيل بالحبل الإلهيّ وقال لها أنّها **"ممتلئة نعمة"** أراد بذلك أنّها ممتلئة من كلّ نعمة منذ اللحظة الأولى التي تمّ الحبل بها في أحشاء أمّها القدّيسة حنّة.

وامتلاؤها بالنعمة منذ اللحظة الأولى من وجودها يعني أمرين:

أوّلاً- إنّها معصومة من الخطيئة الأصليّة.

وثانيًا- إنّ الحبل بها كان طاهرًا ونفسها وُجدت مقدّسة بالنعمة المبرّرة مصدر وأساس كلّ باقي النعم ومجموعة المواهب السامية.

الخطيئة الأصليّة

أمّا قصّة الخطيئة الأصليّة وتسرّبها إلى نفوسنا فقد ورد ذكرها في الفصول الأولى من سفر الخليقة ولمّا يمض بعد طويل زمن على وجود الإنسان وتنعّمه بسعادة الجنّة.

كان الله، بعد خلقه الإنسان الأوّل، قد أخضعه لتجربة توخّى من ورائها أن ينعم آدم ونسله من بعده بسعادة يستحقّها بفضل إيمانه بالله وخضوعه لأوامره وتمسّكه به، إذ إنّ الله يأبى، أن ينعم الإنسان، بسعادة، هي منّة وهبة. لأنّ السعادة على اختلاف ألوانها لا تكتمل شروطها إلاّ إذا كانت وليدة مجهود وإنتصار. شعوب كثيرة حاصلة على استقلالها اليوم وقليل مَن يشعر منها بنعمة الاستقلال. أمّا التي جاهدت وبذلت الدماء لتحرير الوطن وانتزاع الاستقلال فهي التي ذاقت لذّة الحريّة والتحرّر والاستقلال. وهي أصلاً خطّة الله مع خلائقه العاقلة نقرأها في صفحات كثيرة من الكتاب المقدّس. فتراه يحترم إرادة الإنسان الحرّة. وقد قيل: **"إنّ الله الذي خلق الإنسان بدون إرادته لا يخلّصه بدون إرادته"** وأنّ الحسنة التي تقدّم للإنسان حتّى بدافع المحبّة يشعر بأنّها تحطّ من كرامته الشخصيّة ويفضّل عليها الرغيف الذي حصل عليه بمجهود من عنده.

هكذا أراد الله للإنسان أن يستحقّ سعادته بنفسه. غير أنّ الإنسان الأوّل لم يسم إلى مجد الجهاد والنصر على التجربة، فاستسلم صاغرًا إلى وساوس إبليس الذي كان هو أيضًا قد ذاق مذلّة الانخذال والخيبة حينما عرضه الله لتجربة مماثلة.

وقد علّق الله على طاعة الإنسان الأوّل وخضوعه لأوامره إبقاءه على النعم التي وهبه إيّاها. وقد كانت كنزًا ثمينًا من العطايا والمواهب. فقال له: **"من جميع شجر الجنّة تأكل وأمّا من شجرة معرفة الخير والشرّ فلا تأكل فإنّك يوم تأكل منها تموت موتًا"** (تكوين ٢: ١٦- ١٧).

وقد تضاربت الآراء وتعدّدت في أمر تلك الشجرة ونوعها. وعلى ما يبدو أنّها ليست سوى تعبير عن احترام الإنسان لخالقه وخضوعه لأوامره. وكلّ ما أراد الله أن يحفظ لنفسه هو حقّ التشريع وأن يدرك الإنسان أنّ لا حقّ له بتعريف الخير والشرّ على هواه لأنّ الله احتفظ لذاته بحقّ وضع تلك المبادئ وحدودها وصفاتها.

ومن الطبيعيّ أن يفرض الله إرادته على الإنسان وأن يطالب خليقته، وهي مدينة له بكلّ شيء، باحترام كامل وطاعة غير مشروطة واستسلام تامّ لإرادته.

فكان جواب آدم رفض التبعيّة لله والكبرياء والتمرّد.

فلمّا رأى الله كيف فضّل آدم التمرّد على الطاعة والتكبّر على الخضوع والاحترام، رماه حينئذ بأقسى العقوبات: الألم والشقاء والموت، وأقفل في وجهه أبواب السماء وفتح أمامه أبواب جهنّم مسكن المتمرّدين.

تلوّث البشريّة

ولم تقتصر هذه العقوبات على شخص الإنسان الأوّل. ولكنّها أُنزلت به وبنسله من بعده.

فكلّ نفس تولد لآدم تتحمّل معه تبعات تلك التجربة. إذ تولد ملوّثة بشرّ الخطيئة الأصليّة.

وبولس الرسول يردّد صدى تلك الخطيئة ونتائجها الوخيمة إذ يقول: **"بخطيئة إنسان دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت"** (روما ٥: ١٢).

وكان الواقع المرّ والنتيجة المشؤومة! لقد حلّت اللعنة بآدم فطرد من فردوس سعادة خلق لها. فأصبح لا يأكل لقمة الخبز إلاّ مجبولة بدم القلب وأحاقت بعقله ظلمات الجهل وبإرادته الضعف والوهن وبجسده الشهوات. وبينما كان من الواجب أن يخضع الجسد للروح لتخضع الروح لله، اضطرب كلّ النظام القائم فتمرّدت الطبيعة على الإنسان لأنّ الإنسان تمرّد على ربّه.

ويقول القدّيس أغوسطينوس: **"هذا الإنسان الذي كان من الواجب عليه أن يصير روحيًّا حتّى في جسده قد أصبح جسديًّا حتّى في روحه"**.

وفي الكتاب المقدّس صدى أليم للخطيئة الأصليّة التي تئنّ من وطأتها النفوس:

"الخليقة كلّها تئنّ وتتمخّض. ولكنّ الخليقة ستُعتق من عبوديّة الفساد إلى حريّة مجد أبناء الله" (روما ٨: ٢١- ٢٢).

"الجميع أخطأوا فيعوزهم مجد الله. ويبرّرون مجّانًا بنعمته بالفداء الذي هو بالمسيح يسوع. وقد جعله الله كفّارة بالإيمان بدمه لإظهار برّه بمغفرة الخطايا السالفة" (روما ٣: ٢٣- ٢٦).

"هاءنذا بالآثام حُبل بي وبالخطايا ولدتني أمّي" (مزمور ٥٠).

"كما أنّه بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت هكذا أصاب الموت جميع الناس لأنّهم جميعهم أخطأوا... بسبب زلّة واحدة قد مات كثيرون... إنّه بزلّة واحد كان على جميع الناس القضاء... إنّه بمعصية إنسان واحد جُعل الكثيرون خطأة" (روما ٥: ١٢- ٢٠).

هذا هو الطالع المشؤوم الذي تحمله كلّ نفس حين دخولها الدنيا. تُخلق أثيمة في نظر الله، ملوّثة بدنس الخطيئة الأصليّة، مكبّلة بقيود الحرمان من حريّة أبناء الله، سهلة الانقياد لإبليس، سهلة التمرّد على النظام الذي وضعه الله، كئيبة لأنّها لا تعيش ولا تجني إلاّ للموت.

نجاة مريم

ولم يُستثنَ من حالة الشقاء هذه إلاّ نفس واحدة هي نفس العذراء مريم. وُلدت وحدها معصومة من دنس الخطيئة الأصليّة.

ويصوّر لنا أحد الآباء القدّيسين بطريقته الخاصّة كيف نجت نفس العذراء مريم من الخطيئة الموروثة فيقول: إنّ البشر جميعًا يولدون في مجرى سيل مياهه ملوّثة. فحينما

تخلق نفس في هذا المجرى، تصلها مياه السيل القذرة فتلوّثها. ولمّا خلقت نفس العذراء وسالت مياه السيل باتجاهها، رفعها الله قبل أن تمسّها، فمرّت المياه دونها.

وهكذا أصبحت مريم العذراء الخليقة الوحيدة بين البشر معصومة من التلوّث إذ تمّ الحبل بها بدون الخطيئة الأصليّة. فهي بريئة ومعصومة من الخطيئة الأصليّة ومن كلّ ما يترتّب على تلك الخطيئة من نتائج مباشرة.

هذا هو معنى العبارة "**الحبل بلا دنس**".

أسباب الإنعام

أمّا الأسباب التي حَدَت بالله ليسبغ هذه النعمة على مريم دون البشر أجمعين فهي:

أوّلاً- إنّها ستحمل في أحشائها قدّوس القدّيسين، فلا يجوز لهذا الهيكل المقدّس أن يتدنّس.

ثانيًا- إنّها ستصبح أمّ يسوع مخلّص العالم. فكان من اللائق أن تنجو أمّ الله من قيد الخطيئة الذليل.

ثالثًا- إنّها سوف تساهم في خلاص وافتداء البشريّة من الخطيئة والموت الأبديّ. فيجدر بها أن تكون هي خالصة من الخطيئة والموت.

رابعًا- كان من الواجب أن تكسر شوكة إبليس، لئلاّ يترقّع عليها ويدّعي بأنّه أخضعها يومًا إلى نيره وسلطانه.

دليل الكتاب

ولنا في الكتاب المقدّس الدليل على أنّ الله صانها من وباء الخطيئة الأصليّة وأفاض على نفسها فيضًا من النعم والمواهب فضلاً عن النعمة المبرّرة. وللدلالة على ذلك نحصر كلامنا بنصّين الأوّل من العهد القديم والثّانيّ من العهد الجديد.

أوّلاً- وردت في سفر التكوين (٣: ١٥) إشارة إلى هذا الإنعام الاثيل الذي خصّ الله به مريم: "**واجعل عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها فهو يسحق رأسك وأنت ترصدين عقبه**".

وقد علّق شرّاح الكتاب المقدّس منذ أقدم العصور على هذا النصّ فأكّدوا بأنّ تلك المرأة سوف تشارك المخلّص في المعركة الخلاصيّة ضدّ إبليس على مدى الأجيال. بل إنّ الآباء بعد أن اكتشفوا في حوّاء رمزًا لمريم البتول أقاموا مقابلة بين حوّاء الأولى وحوّاء الثانية فوجدوا في النصّ إشارة إلى نعمة البراءة من دنس الخطيئة الأصليّة.

وفي وعد الله للمرأة وعد بالنصر الساحق على إبليس: "**وهذه تسحق رأسك**". والنصر الذي يؤتيه الله تحرّر من عبوديّة الخطيئة. وعن هذا قال بولس الرسول: "**مَن يعمل الخطيئة يصبح عبدًا للخطيئة**". وبالطبع لن يكون النصر كاملاً إلاّ إذا عصم الله مريم من شرّ الخطيئة الأصليّة.

ثانيًا- أمّا النصّ الثّانيّ فنلتقطه من فم جبرائيل الملاك رسول البشائر العظمى:

"**السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة نعمة، مباركة أنت على جميع النساء**". وإنّ القدّيسة أليصابات أكّدت لمريم نفس ما أعلنه جبرائيل حينما دخلت مريم عليها لتعوّدها في أيام حبلها بيوحنّا السابق.

دليل الآباء

وإنّ الآباء وجدوا أيضًا في نصوص الكتّاب السالفة إشارة إلى البراءة من دنس الخطيئة الأصليّة.

وإنّ ما كان إشارة وتلميحًا أصبح برهانًا واضحًا ودليلاً صريحًا على لسان القدّيس أفرام السوريّ (+ ٣٧٣) وعلى أقلام آباء الكنيسة اليونانيّة بعد قرار مجمع أفسس (٤٣١) ونخصّ منهم القدّيس بروكلوس خليفة القدّيس يوحنّا فم الذهب على كرسيّ القسطنطينيّة (٤٣٤- ٤٤٦) وثيودوت أسقف أنقره (٤٣٠- ٤٣٩) ثمّ القدّيس صفرونيوس بطريرك أورشليم (٦٣٤- ٦٣٨) وأندراوس الكريتيّ (+ ٧٤٠) ويوحنّا الدمشقيّ الذي رقد بالربّ حول منتصف الجيل الثامن.

ويتّضح من كتابات هؤلاء الآباء أنّ نفس مريم وُجدت منذ اللحظة الأولى من حياتها بريئة من دنس الخطيئة الأصليّة.

فيقول بروكلوس بأنّها "**جُبلت من طين طاهر**". ويقول الدمشقيّ: "**بأنّ مريم ابنة القدّيسَيْن يواكيم وحنّة نجت من سهام إبليس الملتهبة**". وقد وجدت الكنيسة في أقوال الآباء "**التقليد المقدّس**" الذي تكوّن على مدى الأجيال والقائل بأنّ مريم بريئة من دنس الخطيئة الأصليّة منذ اللحظة الأولى من وجودها.

وأجمل ما نقرأ بين ما خلّفه لنا الآباء القدّيسون كلمة القدّيس أفرام التي بها أقام مقابلة بين حوّاء ومريم: "**أنت أيّها السيّد وأمّك وحدكما كاملا الجمال من كلّ وجه، لا عيب فيك ولا شائبة في أمّك، بينما باقي البشر ليس لهم أن يدّعوا بشيء من هذا الجمال**".

دليل العيد الطقسيّ

وجاءت الطقوس البيزنطيّة منذ الجيل السابع والثامن تحتفل بعيد الحبل بوالدة الإله. وانتقل العيد إلى صقلّية في الجيل التاسع وإلى إيرلنده في العاشر وإلى الكنيسة جمعاء في الجيل الثانيّ عشر.

دليل العلماء

وأيّد وجود هذا الإنعام علماء اللاهوت خاصّة منذ الجيل الثانيّ عشر بكتاباتهم وتعاليمهم نخصّ منهم بالذكر دون سكوت (١٢٧٤- ١٣٠٨) وهو من كبار علماء اللاهوت ومن أهمّ مَن دعا إلى عقيدة الحبل بلا دنس، فقد بيّن أنّ عقيدة الحبل بلا دنس لا تناقض تعليم الرسول بولس القائل بأنّ المسيح هو فادي البشريّة كلّها بدون استثناء (روما ٣: ٢٣، ٥: ١٢ و١٩). فعصمة العذراء من الخطيئة هي أوّل وأجمل ثمار الفداء. والفداء في مريم لا يمحو خطيئة موروثة أو مرتكبة، ولكنّه يقف سدًّا منيعًا دون امتداد

الخطيئة إليها. فاستحقاقات المسيح الفادي برّرتها سلفًا وصانتها من الخطيئة الأصليّة. لأنّه من غير المعقول أن لا تفيد مريم من عمل الفداء الذي تجسّد المسيح في أحشائها ليقوم به. كان يليق بالكلمة المولود أزليًّا من آب قدّوس أن يولد على الأرض من أمّ كلّية القداسة. وأخيرًا إذا كان المسيح وحده بارًّا وقدّيسًا بذاته، فإنّ مريم قدّيسة باستحقاقات ابنها الإلهيّ.

أثر الإنعام

أمّا الفرق القائم بين العذراء والبشر بالنسبة لعمل الفداء هو أنّنا نحن بحاجة إلى نعمة المعموديّة لتمحو من نفوسنا الخطيئة الأصليّة والخطايا الشخصيّة إنْ وُجدت، بينما جنت مريم من الفداء فائدة وقائيّة. والوقاية أفضل من الدواء. وهكذا تمتّعت العذراء بمجموعة الفضائل التي كانت لآدم قبل السقطة المشؤومة، إنّها "**الممتلئة نعمة**".

فمن أوّل دقيقة تكوّن جسدها الطاهر وانضمام النفس إليه عاشت مريم في اتّحاد مع الله، كما عاش آدم قبل الخطيئة. وعرفت توازنًا كاملاً يسيطر على جميع قواها النفسيّة والجسديّة. بينما احتلّ هذا التوازن في نفوس البشر بسبب الخطيئة المشؤومة ولم يبق للعقل والإرادة من قوّة على الجسد، بينما استمرّا في شخص مريم مسيطرين على الجسد وأمياله ونزواته. ولا تنتابها غيبوبة في العقل والضمير، ولكنّ أفكارها دومًا صاحية، واضحة، حاضرة.

الناحية الإيجابيّة من الإنعام

هذا هو وجه مريم البهيّ! إنّها بريئة من دنس الخطيئة الأصليّة. على أنّ إعجابنا بها ومدحنا لها وإكرامنا لشخصها يكون ناقصًا إذا لم ننظر إلى الناحية الإيجابيّة ولم نأخذ بعين الاعتبار الكامل الشامل الإنعام التي نالت أنّه لم يرتدّ سيل الخطيئة الملوّث القذر بعيدًا عن مريم حتّى تدفّق غدير رقراق صاف من النعم الإلهيّة غمر نفسها الطاهرة. ومن المقرّر أنّه لم تمرّ دقيقة واحدة على وجودها وهي محرومة من كنز النعم، إنّها دومًا "**ممتلئة نعمة**".

ولمّا ظهرت لبرناديت وسألتها هذه عن اسمها أجابت مريم: "**أنا البريئة من دنس الخطيئة الأصليّة**" وكانت تستطيع أن تستبدل العبارة بما يرادفها بالمعنى أنا "**الممتلئة نعمة**".

فمريم وُلدت قدّيسة بينما نولد نحن خطأة.

وقد بدأت مريم حياتها حيث ينتهي عادة القدّيسون. وقد حصلت مريم على الكافي من النعم، بل على الفائض بل على أفضل ممّا حصل عليه أعاظم القدّيسين. ولقد قرّر علماء اللاهوت بأنّ هذه النعمة الأولى وحدها تفوق جميع ما للقدّيسين والملائكة. وقد أعلنت الكنيسة بصلواتها أنّ مريم تفوق الكروبين والسروفين كرامة وقداسة ومجدًا. وصلوات الكنيسة ليست سوى صدى وتعبير عن عقيدتها. فصاغت لها في رتب طقوسها أجمل الترانيم، معلنة أنّها وحدها بريئة من كلّ عيب وأنّها حصلت على هذه الطهارة والنقاوة

لأنّها ستصبح السماء الثانية والهيكل الذي يحلّ فيه العليّ. حتّى كانت سنة ١٨٥٤ فأعلنها البابا بيوس التاسع عقيدة من عقائد إيماننا حين قال:

تحديد العقيدة

"تمجيدًا وتعظيمًا للثالوث الأقدس، الآب والابن والروح القدس، بسلطة يسوع المسيح والقدّيسَيْن الرسولَيْن بطرس وبولس وسلطاننا الخاصّ، نعلن ونصرّح ونحدّد كحقيقة موحاة أنّ الطوباويّة مريم العذراء حُفظت مصونة من كلّ وصمة الخطيئة الأصليّة منذ أوّل لحظة من الحبل بها. وذلك بإنعام فريد ونعمة من لدن الله، وبالنظر إلى استحقاقات يسوع المسيح مخلّص الجنس البشريّ".

تأييدها

وأيّدت العذراء مريم نفسها هذه العقيدة بظهورها سنة ١٨٥٨ بجبال البيرنه للابنة برناديت.

ومنذ ذلك تحوّلت "**لورد**" القرية المنسيّة إلى مدينة عظيمة يحجّ إليها كلّ سنة مئات الألوف من الزوّار آتين من أطراف الدنيا حاملين إلى أقدام البتول آلام نفوسهم وأوجاع أجسادهم. فتريهم كلّ يوم تقريبًا أعجوبة شفاء أو ارتداد خاطئ أو نيل مطلب.

الاحتفال بالعيد

وتحتفل الكنيسة البيزنطيّة بهذا العيد الذي اعتبر من أعياد السيّدة في اليوم التاسع من شهر كانون الأوّل من كلّ سنة. وقد اعتبرته كنيستنا الملكيّة من الأعياد الممتازة بقرار من مجمع عين تراز سنة ١٨٤١. وهكذا تطوّرت كنيستنا بتطوّر الزمن وتطوّر الإيمان وتطوّر الاحتفال الطقسيّ بالعيد. وهذا دليل على حيويّة الكنيسة البيزنطيّة الملكيّة لبقائها عضوًا حيًّا في جسم الكنيسة المقدّسة الجامعة.

وللعيد تقدمة تقع في اليوم الثامن ينشد الطقس فيها "**هلمّ نعقد اليوم مصفًا روحيًّا لنسبّح المسيح. ونقدّم بشوق لتقدمة العيد هديّة النشائد المقبولة لوالدة الإله فخر جنسنا...**".

ومن تقاريظ اليوم التاسع: "**إنّ الذي أنبع من الصخرة ماء. قد منح جوفك يا حنّة ثمرة وهي السيّدة الدائمة البتوليّة...**".

ومن صلوات مساء العيد أيضًا: "**إنّ أقوال الأنبياء السابقة قد تمّت. لأنّ الحبل المقدّس يستقرّ في الحشا. والسلّم الإلهيّة تنتصب. والعرش العظيم للملك يُهيّأ ومكان اجتياز الإله يُعدّ. والعوسجة الغير المحترقة قد أخذت في الإفراغ. وخزانة طيب التقديس تفيض الآن أنهارًا. مزيلة عقم حنّة المتألّهة العقل التي بإيمان نغبّطها**".

ومن صلوات صباح العيد: "**يا آدم تجدّد. ويا حوّاء ابتهجي. لأنّ الأرض الجافّة الجديبة قد أخرجت ثمرًا كلّيّ النضارة...**".

وأيضًا "**إنّ يواكيم وحنّة قدّما للكهنة قديمًا قرابين فلم تقبل منهما لأنّهما كانا عقيمَيْن. فصلّيا أمام الربّ فاستجاب صلاتهما وأعطاهما القدّيسة...**".
بعد هذا نقف لنتطلّع إلى مريم بإعجاب مكبّرين معظّمين. إنّها بكر الخليقة. إنّها وحدها جميلة ولا عيب فيها. إنّها وحدها لم تغضب الله ولم تعرف التمرّد. إنّها دومًا طائعة، دومًا مستعدّة لتعمل إرادة الله. إنّها والخطيئة ضدّان. إنّ هيكل نفسها طاهر لم يتدنّس ولم ينحطّ. وإنّ جبينها علم شامخ وقلبها مشعل متّقد خفّاق لا ينبض إلاّ بحبّ الله.
سعيدة يا مريم! ونحن أولادك نتمنّى لو شاركناك في طهارتك ونقائك. فاطلبي إلى الله أن يخضع إرادتنا لإرادته وقلوبنا لحبّه وضمائرنا لوصاياه وأن يطهّر نفوسنا من كلّ خطيئة.

٣
ميلاد العذراء

الاستعداد للولادة

ما إنْ شعرت القدّيسة حنّة ببوادر الحبل حتّى أخذت تهيّئ للولد المنتظر جهازه، فغزلت ونسجت وخاطت له لوازمه، والمراقب عن كثب كان يستطيع أن يرى حنّة، وقد أمسكت بيديها قميصًا صغيرًا تنمنمه وتزركشه بألوان زاهية من الزهور والطيور، والفرح يطفح على وجهها ثمّ تتوقّف هنيهة عن العمل لترفع عينيها إلى السماء وتصلّي ثمّ تعود إلى العمل. وفي غمرة من الفرح، نذرت الولد الجنين لله عربون الشكر والامتنان.

المبادئ السليمة

ولا أخالها مدّة أشهر الحبل تلجأ إلى البصّارة أو العرّافة لتتكهّن لها عن الولد المرتقب. إنّه عطيّة الله، أذكرًا كان أم أنثى. وعطيّة الله هبة كريمة. وهل تغيّر البصّارة شيئًا في أمور تتعلّق بإرادة الله، لا بإرادة مسكينة دفعها الفقر والعوز إلى احتراف التبصير لسدّ الرمق والاكتفاء بالقليل الذي يدرّه عليها هذا العمل السخيف! ولو إنّها استطاعت شيئًا لغيّرت من فقرها وبؤسها، وبحثت عن باب للرزق أشرف لها وأفضل يكفيها مؤونة التنقّل من باب إلى باب لاستدرار عطف الناس.
ولم تكن حنّة في حالتها الراهنة كبعض النساء اللاتي يطلن السهر ويتعاطين الميسر والمسكر، ففي هذا إرهاق لا يخلو من خطر على حياة الجنين، إنّه يضعف نموّ الحياة الطبيعيّة.
وقد اتّخذت حنّة الفطنة والتعقّل خطّة لها في المأكل والمشرب وساعات العمل والراحة: عمل بدون إرهاق، وراحة بدون كسل. فتراها تعمد دومًا إلى حياة الهدوء والاتزان. لاسيّما وهي حبلى عن شيخوخة، وهي جدّ موقنة بأنّ الولد وديعة الله لدى

والديه، وأنّ الولد وأمّه يمرّان في مرحلة خطيرة من الحياة، فالاستهتار إثم وعاقبته شرّ جسيم.

أمّا الذين يعبثون بمبادئ الأخلاق والنظم التي سنّها الخالق، إنّما يجنون على مستقبل الجنين.

إنّنا نعيش في مجتمع كثرت فيه الآفات والويلات. ولهذا يموت كثير من الأطفال قبل أن يتفتّحوا على الحياة. وإنّ العاهات المزمنة التي يحملها بعض الناس رزءًا ثقيلاً مدى الحياة، إنْ هي دلّت على شيء، فإنّما تدلّ على استهتار الأهل وخاصّة الأمّ بنواميس الحياة في هذه الفترة من الحبل بالذات. ولهذا يعيش بعض الناس عالة على المجتمع وعلى نفوسهم، يئنّون من ألم، وما كان الأنين ليجدي إلاّ زيادة في تحسّس الألم. وليسوا، على كلّ حال، بأهل ليكونوا عبّادًا لله، لأنّ إلهنا إله أحياء لا إله أموات وأصحاب بلايا وعاهات يشكون ويضجّون.

ولم يكن إلاّ على صواب ذلك القائل: إنّ تربية الطفل يجب أن يباشر بها قبل ولادته بعشرين عامًا.

أمّا القدّيسة حنّة فلم يكن ليغرب عن بالها أنّها حامل، تهيّء لله عابدًا، وللمجتمع عضوًا كاملاً مفيدًا وصالحًا للقيام بأعباء الحياة.

الولادة

فلمّا تمّت للقدّيسة حنّة أيّام حبلها، ولدت ابنتها مريم. وكان يواكيم واقفًا يترقّب البشرى، فطفح قلب الوالدَيْن فرحًا وبهجة، واجتمع إليهما الأهل والأصدقاء. وما إنْ ظهر الولد حتّى راحت النساء تهلّل وتزغرد، فالفرح مزدوج: قيام حنّة بالسلامة، وولد عن شيخوخة.

ولعلّ بيت يواكيم كان في ذلك اليوم أسعد بيت في العالم. وكنت تسمع يواكيم وحنّة يردّدان آيات الشكر والتسبيح لله الخالق.

وتردّد الكنيسة معهما جذلة منذ قرون نشيد الفرح والشكران: "**إنّ يواكيم وحنّة من عار العقر أطلقا. وآدم وحوّاء من فساد الموت اعتقا، بمولدك المقدّس أيّتها الطاهرة. فله يعيّد شعبك أيضًا، وقد أنقذ من تبعة الزلاّت صارخًا إليك: العاقر تلد والدة الإله مغذّية حياتنا**" (قنداق العيد).

لقد حقّق الله آمال حياتهما ورزقهما تلك الفتاة الإلهيّة. إنّها جميلة كالصباح لطيفة كالنسيم العليل، جذّابة كالحياة. وإذا كان كلّ طفل جميلاً، لِما يتمتّع به من نعومة وبراءة فما أجمل وأبهى وأسنى تلك التي لم تعرف نفسها الخطيئة التي تشوّه النفس والجسد معًا.

إنّه يوم فرح في السماء وعلى الأرض. السماء فرحت لأنّ أمّ العليّ وُلدت، والأرض ابتهجت لأنّ خلاص العالم بدأ يتحقّق. "**ميلادك يا والدة الإله بشّر بالفرح لكلّ المسكونة**".

إنّها الأمل المنتظر والربيع المبشّر بالمواسم الكثيرة والصيف الخيّر.

لم يترقب العالم قطّ مثلما ترقب مولد الفتاة هذه. إنّها محطّ آمال قلوب أجيال من البشر.

لقد اعتادت الشعوب أن تقيم أيّام فرح وأعيادًا صاخبة ومهرجانات فخمة لمناسبة مولد وليّ العهد. ولكنّ الفرح بمولد الطفلة مريم يجب أن يفوقها بهجة وروعة وعظمة، بالقياس للنتيجة التي ستتمخّض عنها هذه الولادة.

ومع ذلك فقد بقي يوم مولدها مجهولاً، إلاّ من بعض الأهل والأقرباء والجيران. لقد كتب لها الله منذ مولدها حياة الصمت والهدوء والعزلة عن أنظار الناس. إنّها اللؤلؤة الثمينة المختفية داخل صدفتها لا تجلب إليها الأنظار.

وتحتفل الكنيسة البيزنطيّة كما تحتفل الكنائس الشرقيّة بعيد ميلاد البتول في اليوم الثامن من أيلول بورع وتقوى. وفي اليوم التاسع ثاني العيد تحتفل أيضًا بتذكار جدَّيْ المسيح يواكيم وحنّة. وكأنّها تريد أن تجعل منه يوم تهنئة بالمولودة الجديدة. وإنّ الكنيسة القبطيّة تصنع ذِكرًا خاصًّا في هذا اليوم لصورة مريم التي رسمها وصوّرها القدّيس لوقا.

مكان ولادتها

ولقد أحاط المسيحيّون الأوّلون مكان ولادتها بإكرام عظيم. فقد بُنيت كنيسة في المكان الذي عاش فيه يواكيم وحنّة، وفيه تمّ الحبل بالعذراء البريئة من دنس الخطيئة الأصليّة، وفيه ولدت حنّة ابنتها مريم، وفيه قضت مريم سنيّ طفولتها وأخيرًا فيه توفي الصدّيقان يواكيم وحنّة.

وقد أثبت لنا الأب نقولا فندرفليت وهو من جمعيّة الآباء البيض المكلّفين بحراسة هذا المكان المقدّس في كتابه: "**مكان ولادة القدّيسة مريم**" إنّ هذا المكان هو الذي رأت فيه العذراء نور الحياة. وكتب مطّلع في أحوال العاديّات الفلسطينيّة "**إنّ التقليد الشرقيّ هو التقليد المحلّيّ الوحيد الصحيح، وهو يشير إلى أنّ العذراء مريم رأت نور الحياة في مدينة القدس بالقرب من بركة المخلّع**...".

والتقليد المحلّيّ يدلّ على المكان بالقرب من "**باب ستي مريم**" وعلى بُعد مئة وعشرين مترًا من هيكل سليمان ومن قلعة الأنطونيا. فالمكان إذن واقع شرقيّ القدس، داخل سور المدينة ويسمّى اليوم "**كنيسة القدّيسة حنّة**" أو "**مدرسة الصلاحيّة**"، لأنّ صلاح الدين كان قد احتلّها بعد الحروب الصليبيّة وحوّلها إلى مدرسة شرعيّة. ومنها يشرف الإنسان على وادي يوشافاط وعلى بستان الزيتون وكنيسة الجسمانيّة.

وبعد الحفريّات التي أشرف عليها الآباء البيض يمكن القول: "...**إنّ التقوى المسيحيّة تستطيع بأمان أن تكرّم مولد البتول في مكان القدّيسة حنّة**".

ففي عهد قسطنطين الملك شُيّدت كنيسة فوق مغارة مهد البتول.

واليوم تقوم، على أنقاض كنائس أبعد عهدًا، كنيسة رومانيّة كبيرة تعود إلى القرن الثانيّ عشر. وقد أحدثت فيها بعض ترميمات حفظت لها هندستها الأصليّة. ويستطيع المصلّيّ أن ينـزل درجًا من داخل الكنيسة يصل به إلى مغارة واسعة تحت الكنيسة حيث أُنشئت عدّة هياكل يذكّر أحدها بقبر يواكيم وحنّة، وهيكل كبير قام في مكان ولادة العذراء، وتحت هذا الهيكل الكبير عرض تمثال للطفلة العذراء في لفائف السرير،

وتمثال آخر فوق الهيكل كما ظهرت في لورد وأعلنت عن نفسها أنّها البريئة من دنس الخطيئة الأصليّة.

وقد شرّف السيّد المسيح هذا المكان المقدّس باجتيازه به، وفيه صنع أعجوبة شفاء المخلّع الذي كان مضجعًا هناك عند البركة.

ومن الطريف أن يرى الناظر، في أعلى أعمدة كنيسة القدّيسة حنّة، نعلين منقوشتين في حجر، يربط بينهما ملفّ للدلالة على عقد الزواج الذي يربط شخصين أحدهما بالآخر ما زالا سائرين في هذه الحياة. ولا بدّ من أنّ المهندس الذي وضع تصميم هذه الكنيسة أراد بالنعلين إشارة إلى عقد الزواج المقدّس الذي كان قائمًا بين يواكيم وحنّة اللذين حملت الكنيسة اسمهما.

وقد وضعت حكومة فرنسا المكان تحت إشراف جمعيّة الآباء البيض. وهؤلاء حوّلوا تلك البقعة إلى مدرسة إكليريكيّة يُمنح فيها العِلم لطلاّب الكهنوت من طائفة الروم الكاثوليك. وإنّ لها الفضل الكبير في خدمة الطائفة في هذا المضمار، لأنّها إلى اليوم أعطت كنيستنا العدد الأكبر من أساقفتها وكهنتها وبعض الرهبان الكهنة من الرهبنة الباسيليّة الحلبيّة.

وقد علّق بتاريخ الكنيسة حادث بطوليّ جدًّا. وذلك أنّ راهبات حبيسات كان قد نما إليهنّ خبر وصول جيش صلاح الدين الأيّوبيّ، وإنّ سقوط مدينة القدس بات أمرًا لا يقبل الشكّ. فدعت رئيسة الدير راهباتها وأطلعتهنّ على المصير الذي ينتظرهنّ بعد دخول الجيوش المنتصرة، وقالت إنّها تفضّل الموت على خسارة طهارتها. وما كان منها إلاّ أن أخذت موسى وجدعت بها أنفها، وهكذا فعلت باقي الراهبات. فلمّا دخل الجنود الدير ووجدوا حالة الراهبات وفهموا معنى التضحية لم يمسّوهنّ بأذى. وحافظت عروسات المسيح بهذه الطريقة على طهارتهنّ.

اسم مريم

وكانت العادة أن تعطى الطفلة البنت اسمًا في اليوم الخامس عشر من تاريخ مولدها فأجرى القدّيس يواكيم الحفلة التقليديّة ومنح ابنته اسم **"مريم"**.

ويُرجَّح أنّ مريم اسم منحدر من اللغة الآراميّة أو السريانيّة، ومعناه السيّدة أو الأميرة.

وهي على كلّ حال سيّدتنا وسيّدة العالم بل سيّدة القدّيسين والملائكة وأميرة التقوى والفضيلة.

ومنذ أن دعاها والداها بهذا الاسم الكريم، ما فتئت الشفاه تردّده بحبّ وتقوى.

هذه هي البتول تظهر عظيمة ممجّدة في يوم مولدها. ويُذكر أنّه في ١٢ أيلول من عام ١٦٨٣ انتصر يوحنّا سوبيسكيّ ملك بولونيا إنتصارًا رائعًا على أعدائه بشفاعة اسم العذراء ومريم وذلك أنّه تقدّم من المناولة الطاهرة مع بعض مئات من جنوده في صبيحة عيد مولدها، ثمّ سار على رأس مئة ألف مقاتل حتّى أسوار مدينة فيينّا، فبطش بجيش يفوق جيشه أضعافًا بالعدد والعدّة، ولم يعرف جيشه هذا الانخذال في كلّ المعارك التي

خاضها بعدئذ لأنّ الملك يوحنّا كان يشجّع جنده دائمًا بقوله: **"باسم مريم اتبعوني"** حتّى يتمّ له النصر.

٢
تربية العذراء

جوّ البيت

لقد عنيت القدّيسة حنّة بابنتها العذراء مريم عناية الأمّهات القدّيسات بخير البنين والبنات.

وكان يليق بالتي ستصبح أمّ الله أن تحاط بأفضل رعاية عرفها طفل في العالم لأنّ التربية يجب أن تكون متناسبة ومتكافئة مع الرسالة التي ينتدب لها الإنسان أو المهمّة التي سوف تُسند إليه.

وفي سنّ الطفولة كانت العذراء مريم ضعيفة ككلّ الأطفال. لكنّها تضمّ بين جوانحها نفسًا جبّارة تفوق نفوس جميع الأطفال في هذه السنّ.

ومع ذلك فهي تتلمّس الحياة وتكتشفها تدريجيًّا. وأوّل ما اكتشفت أباها وأمّها. وما إنْ تكبر سنة جديدة حتّى نراها تعانقهما وترتمي في حضنيهما.

ومنذ حداثتها شعرت بالجوّ الجميل الصافيّ الذي تعيش فيه.

ولقد تضافرت كلّ الأسباب في بيت يواكيم وحنّة لتوفّر لمريم هذه التربية العالية من هدوء وأسباب صحّيّة وحنان وفضيلة.

فهي تعيش في بيت القدّيسَيْن الصدّيقَيْن يواكيم وحنّة، حيث لا مكان للنزاع الذي يهدم كيان العائلة ويهدّد حياة الأطفال بالتشرّد. وحيث لا مكان لمحبّة الذات والاثرة التي تثير الحفيظة والبغضاء والحقد. وإنّما الاتفاق والوئام وعطيّة الذات الكاملة. فيواكيم وحنّة لا يعيشان إلاّ لإسعاد هذه الطفلة. هو يعمل خارج البيت لجلب المال وهي تقوم بإخلاص في خدمة زوجها وابنتها داخل بيتها.

وقد بذلت حنّة من قلبها لتوفّر لمريم الطفلة صحّة الجسد. لأنّ الجسد هو آلة الروح. وسيصبح غدًا هيكل الله، ومنه سوف يستمدّ المخلّص حياته وغذاءه.

ولمّا تقدّمت مريم في السنّ وأخذت تميّز بين الخير والشرّ تعاون الوالدان ليدرّباها على العادات النافعة من أصول اللياقة وحبّ المثابرة على العمل والمسؤوليّة والصدق في الكلام والصبر والرويّة ومحاسبة النفس والتدقيق في كلامها وتوجيه تفكيرها. وساعداها تدريجيًّا لتفهّم الحياة ومشاكلها ومعالجتها بهدوء وبفطنة ولتكوين الآراء الصحيحة عن الدين والإنسان النافع وعلّماها حبّ الفضيلة والشرف وفكرة الإله الواحد التي حملها شعبها منذ آلاف السنين بين شعوب وثنيّة.

حياة الصلاة

ولقد اعتادت مريم منذ صغر سنّها على حياة التأمّل وترديد بعض آيات الكتاب المقدّس وكانت تنتهي من كلّ ذلك إلى صلوات وعبادات لله الخالق.

حبّها لوالديها

وكان والداها القدّيسان مثالاً لها وللغير في كلّ فضيلة.

فكانت تحبّهما محبّتها لله وتعظّم مقامهما، لأنّها لم تلاحظ قط في سلوكهما إلاّ كلّ احترام ومحبّة لله. وكان تقديرها لهما يزداد كلّما سمعت بعض الناس من حولها يشتمون ويلعنون أو يعبثون بأحاديثهم بالقيم الأخلاقيّة ومبادئ الدين. وكان قلبها يتميّز غيظًا كلّما سمعت الشتائم غيرة منها على مجد الله كما كانت تتجنّب بعض أترابها اللواتي كنّ لا يحترمن اسم الله وذكره الكريم.

حبّها لأجدادها

وكانت تعرف أنّها من نسل داود تلك الأسرة التي كان لها ماضيها المجيد. فكانت تستفسر من والديها عن أجداد تلك الأسرة وتزداد حبًّا لهم وتعلّقًا بهم وخاصّة بداود مؤسّس تلك الأسرة الكريمة. فعرّفاها إلى أنّه كان راعيًا في بيت لحم ثمّ انتخب ملكًا على شعبه وهو الذي تغنّى بالمزامير وأنشدها على قيثارته. وراحت تحفظ الشيء الكثير من تلك المزامير وخاصّة تلك التي تتحدّث عن المسيح المنتظر. وكانت تكنّ في قلبها احترامًا زائدًا لداود النبيّ لأنّ من نسله سيولد المخلّص.

وكانت تشعر بغصّة كلّما رأت الرومانيّين يعيثون في البلاد فسادًا وينشرون تماثيل آلهتهم الكاذبة وعباداتهم الوثنيّة ويبتزّون بالضرائب الباهظة أموال شعبها. إنّها ابنة تلتهب غيرة على مسقط رأسها أورشليم حيث رأت نور الحياة لأنّها المدينة التي أقام بها جدّها داود وجعلها عاصمة لبلاده فأدرّ الله عليها بركاته الغزيرة.

ولكنّها تسمو مع ذلك بأفكارها لترى، بناء على مواعيد الله، ذلك الوقت الذي تنبّأ عنه دانيال النبيّ **"وقت تعود فيه الحريّة لشعبها والصولجان لنسل أجدادها"**. وهي تعلم أنّ الملك لن يكون لفاتح يستولي على مزارع ومدن فإنّ مملكة المسيح المنتظر روحيّة تتوخّى إقامة سلطان شأنه خلاص النفس والسعي وراء ملكوت السماوات بحياة فضلى.

حبّها للكتاب المقدّس

ولا تكفّ أبدًا عن مطالعة الكتاب المقدّس وخاصّة تلك الآيات التي أنزلها الله مبشّرًا بمجيء المخلّص. فتحفظها حرفيًّا وتحوّلها إلى صلوات حارّة وتسأل الله أن يحقّق للعالم ومواعيده بإرسال المخلّص.

وكان والداها قد حبّبا إليها هذه الطريقة في المطالعة والتفكير وكانا قدوة لها وللغير في حبّ الأخلاق السامية والوطن الذي هو البيت الكبير لكلّ إنسان.

التربية السيّئة

ما أقلّ الوالدين الذين يدركون معنى المسؤوليّة العظمى الملقاة على كواهلهم. وما أكثر الذين يخلّفون أولادًا ويرمون بهم في الشوارع وعلى أبواب الملاهيّ. أو يسلّمونهم إلى الخادمات ليستسلموا هم للهو وليتردّدوا على النوادي. والخادمة أمّية غالبًا. وهي أقلّ الناس أهليّة لهذا العمل الدقيق الشاقّ؛ نحن لا نحتقر الخادمة إذ نقول هذا فهي أخت لنا دفعها العوز إلى العمل ولكنّها بحكم جهلها لا تستطيع أن تربّي. والولد يعرف أنّ لا سلطة لها عليه فلا يطيعها بل كثيرًا ما يضربها ويهينها. وهي تعرف أيضًا أنّ الحرمان ساقها إلى بيت النعمة هذا فتعطي الولد كلّ ما يريد شرط أن يغمض عينيه ولا يخبر سيّدتها بما تمتدّ إليه يدها. وكم من رذيلة تعلّمها الأولاد من بعض الخادمات! وهل أكون مبالغًا إذا قلت بأنّ بعض أولاد الأغنياء وهم الطبقة التي يجدر بها أن تتحلّى بالأخلاق العالية والتوجيه الاجتماعيّ الصحيح هم أولاد خادمات من حيث التربية.

تربية الوالدين أوّلاً

هنالك مَن يعتقد خطأ بأنّ التربية هي للمدرسة. فتهدّد الأم ولدها بالشكوى إلى مدير المدرسة أو إلى أستاذ الصفّ. مع أنّ التربية في الأساس تعود على الوالدَيْن ثمّ على المدرسة. بل إنّ الولد هو لوالديه حتّى حينما يتردّد إلى المدرسة. والمثاليّة أن يتعاون الأولياء مع المدرسة ليجتثّوا من نفس الولد جذور الرذائل ويستعاض عنها ببذار الفضائل. ومن السخف أن يشجّع الوالدون أولادهم على التمرّد على إدارة المدرسة أو على المعلّم لأنّهم بذلك يدفعونهم في طريق الدّلال الهدّام، الأمر الذي يجعلهم في المستقبل القريب يتمرّدون حتّى على ذويهم ويسيئون إلى الناس.

العشرة السليمة

لست من دعاة التمييز بين الطبقات الإجتماعيّة. ولكن لا يجوز للولد أن يعاشر إلاّ مَن سلمتْ أخلاقهم وارتفع مستوى تفكيرهم. إنّ بعض أخطاء الصغر لا تنسى. ورُبَّ خطيئة لازمت الحياة. الشارع ليس مدرسة وأولاد الشارع لا يصلحون لأن يكونوا زملاء صالحين. وما فائدة نصائح وإرشادات المعلّمين إنْ كان الوالدون لا يراقبون عن كثب أصدقاء أولادهم؟ لذلك وجب على الأولياء أن يتحرّروا بين وقت وآخر عن رفقة أولادهم في المدرسة وفي بيوت الأقارب والأهل والأصحاب.

ومن أدهش ما لاحظت إلى الآن أنّ الوالدين يصمون الغير بالشرّ وينصّلون أولادهم من كلّ سوء. وقد يكون خير الآباء نفعًا مَن يشكون في أولادهم فيعاملونهم بالحيطة والحذر. ولعلّهم بعد كلّ ذلك لا يكونون إلاّ مقصّرين.

ضرورة التجانس

هذا ولا بدّ من التجانس بين الحياة التي يقضيها الطفل في البيت والحياة التي يقضيها في المدرسة والحياة التي يقضيها مع الرفقة. وإلاّ اختلّ التوازن. إذ إنّنا نرى بعض الأولاد يتعلّمون من والديهم أمثلة سيّئة بينما تُلقى عليهم في المدرسة دروس في الأخلاق

المسيحيّة المثلى. كما نرى بالعكس أولاد أُسر تفخر بالأخلاق وتلقن أولادها دروسًا عمليّة في المبادئ المسيحيّة يعاشر البعضُ منهم خارج بيوتهم مَن فسدت أخلاقهم وانحطّت قيم الأخلاق عندهم.

الولد صورة لوالديه

على الوالدين أن يقتنعوا بأنّ تهذيب النفس بالأخلاق والمبادئ المسيحيّة لهو أفضل ما يبذلونه لأبنائهم من عناية في الصحّة وإنفاق في المال لتحصيل العِلم. وليذكروا دومًا أنّ الأخلاق تنتقل بالوراثة كما تنتقل الأسباب الصحّيّة في الدم والعضل.

إنّ حياة الإنسان صورة طبق الأصل عن السنين التي قضاها طفلاً ويافعًا في بيت والديه.

مريم تستعدّ لرسالتها

أمّا مريم فقد أتقنت الدروس الأخلاقيّة في بيت والديها. تعلّمت على الهدوء فعاشت بهدوء. تعلّمت على التفكير فتدبّرت أمور حياتها، وفي أشدّ المشاكل والأزمات عرفت أن تعود إلى الله بالصلاة والتأمّل.

كان كلّ ذلك تمهيدًا للدعوة الشريفة التي سيدعوها إليها الله. وإنّ مريم كانت تستعدّ بنشاط للرسالة التي سوف تضطلع بها وتلقى على عاتقها. لم تكن مريم إلاّ بشرًا ولكنّ نفسها امتلأت بالفضائل حتّى وجدها الله أهلاً لأن تصبح أمًّا لابنه.

رسالة المسيحيّين

إنّ الأولاد المسيحيّين مدعوّون لشرف سام جدًّا بعد أن اقتبلوا سرّ العماد المقدّس. فإنّ أنفسهم تحوّلت إلى هياكل يسكن فيها الثالوث الأقدس "**أما تعلمون أنّكم هيكل الله وإنّ روح الله ساكن فيكم؟**" (كورنتس الأولى ٣٠: ١٦).

إنّ الأهل والأقارب هم الذين يطبعون في نفوس أولادهم المبادئ الأخلاقيّة العالية، وهم الذين يحبّبون بأقوالهم إلى أولادهم حياة النعمة وبغض الخطيئة. وقد ذكرت الرسالة المخلّصيّة عن المرحومة ماري جاهل دبانة من أهالي حيفا أنّها كثيرًا ما كانت تردّد هذه العبارة: "**إنّني أفضّل أن أرى بيتي يحترق على أن أسمع ولدًا من أولادي يكذب كذبة واحدة**". وهذا القول يشبه قول والدة القدّيس لويس ملك فرنسا لابنها: "**يا بنيّ إنّي أفضّل أن أراك جثّة هامدة أمامي من أن أراك تعمل الخطيئة المميتة**".

أثر المحيط الإجتماعيّ

وهل مَن يشكّ في أثر المحيط الإجتماعيّ في تربية الأطفال؟ لقد اعتدنا أن نقول للطلاّب في عِلم الجغرافيا بأنّ المناخ يمهّد للنبات بمعنى أنّ النبات تابع للمناخ. ولا يختلف القول بشيء عن الإنسان إبّان نموّه ونشأته. ولذلك يمكننا أن نقول بأنّ الإنسان وليد البيئة الإجتماعيّة التي يعيش فيها فهو يتأثر بها لدرجة أنّ بعض الكتّاب اعتبروها

تبعيّة من نوع العبوديّة لا قبل للإنسان عليها ولا تخلص من سيطرتها فهي التي تعرقل أو تسهّل نموّ الطفل أخلاقيًّا.

في هذا المحيط المعيّن المحدود الصفات المعروف بأخطائه ينشأ الإنسان كما ينشأ النبات في مناخ معيّن فينطبع ويتطبّع ويجد الطريق للدعوة الخاصّة التي دُعي إليها في الحياة، ممهّدة له سبيل طوارئ الحياة. وعلى كلّ حال فالإنسان لا يخرج من مدرسة الحياة إلاّ بالموت. إنّ التربية لا حدّ لها تدوم ما دامت الحياة.

في عالم الجغرافيا يتغيّر النبات بتغيّر المناخ. وقد قسّم العالم إلى مناطق كبرى اعتبر في وضعها البُعد عن خطّ الإستواء والبُعد عن التأثيرات البحريّة ودرجة الإرتفاع عن سطح البحر. وقد يُمعن الجغرافيّ في تقسيم هذه الخطوط الكبرى للمناخ حتّى يصل إلى أدقّ الصفات المناخيّة. فيبدو لنا حينئذ كلّ من النبات والحيوان والإنسان متلبّسًا بهذه الصفات المناخيّة التي تميّزه عن سواه.

وكذلك يعيش الإنسان في عالم من العوامل الأخلاقيّة هي بمثابة المناخ له أو البيئة الإجتماعيّة. فيها يُصنع، لأنّه فيها مغرق. فيتلبّس بصفاتها كما يتلبّس بأخطائها. وإنّ أثر العائلة على الفرد بيّن لأنّه عميق الجذور ويعود إلى التراث البعيد الذي خلفه الأجداد والآباء من سيّئ وصالح وهو ينتقل عن طريق الدم والتكوينات الجسمانيّة. فيخرج الطفل حاملاً في جسمه وقلبه صورة والديه وأجداده ليضيف إليها انطباعاته المدرسيّة التي يستمدّها من الكتب والأستاذ والرفقة. وبعد أن يدخل معركة الحياة للكسب يتأثّر بالمحيط المهنيّ.

ضرورة التقشّف

وعلى نور هذه المبادئ تبدو لنا ضرورة التقشّف في التربية. إنّ التربية البشريّة تتوخّى بالأساس إنتصار الروح على الغرائز بحيث تصبح النفس سيّدة الجسد ومصدر حيويّته ونشاطه. فلكي نضمن للنظم الأخلاقيّة حقّ الطاعة بالرغم من الانفعالات الحيوانيّة التي تدعو لمتعة وقتيّة لا بدّ للطفل من نشاط رجوليّ بل لا بدّ له من التقشّف.

لا نظام أخلاقيّ بدون تقشّف لأنّه لا تقدّم ولا رقيّ في حياة الروح بدون جهاد وتضحية. كلّ ارتقاء في أيّ نظام كان، يفرض تصميمًا يقضي ببذل مجهود وتضحية ما هو أقلّ لما هو أفضل. وهذه السيادة للأفضل تدعو لقهر ميول الجسد وتساعد على محاربتها. فأين ذلك من مدنيّة تدعو للبذخ والرفاهيّة كأنّها تنطوي على كلّ السعادة.

هل حسب أولياء الأطفال والقائمون على تربيتهم المحاذير والمساوئ التي تنتهي إليها الأخلاق ضمن نظام حياة شأنه السعي وراء ما يُرضي الحواس وما يلذّ لها؟

بالطبع لا بدّ من حدّ أدنى من الرفاهيّة ليعيش الإنسان حياة إنسانيّة. والإنسان لا يعمل في حياته إلاّ ليضمن لنفسه هذا الحدّ الأدنى.

وإنّ حرمان الإنسان من كلّ عمل عضليّ لا يتّفق ومجموعة أجهزة الإنسان المتّزنة. التمارين الجسديّة مفيدة وضروريّة. أمّا أعمال الرياضة البدنيّة المرهقة فليست بالطريقة المثلى ولكنّ العمل اليوميّ هو أفضل أنواع الرياضة.

كلّ تربية تقوم في محيط لا يتذوّق معنى المجهود ولذّة الإنتصار على الصعوبة هي تربية واهية سائرة إلى الإضمحلال. كالمحيط الذي يسعى فيه الإنسان إلى حياة هادئة ضمن جنّة من الملذّات.

الشريعة القائلة بأن يبذل الإنسان الأقلّ ليدفع عن نفسه التعب شريعة تلقائيّة تدفع الإنسان بالوقت ذاته إلى حياة أقلّ.

ومثل الزارع الذي يختار عادة البذار في محيطات أكثر صلابة من الأرض التي ينوي زرعها فيها مثل فيه الكثير من الحكمة.

أليس أولاد الفلاّحين والعمّال هم الأكثر عددًا والأصلب عودًا.

إذًا كلّ ما يميل إليه الإنسان بدافع من الغريزة هو زائل.

الحياة جهاد دائم. ومَن تخلّى عن الجهاد تخلّى عن النصر في أوّل معركة تالية.

وإنّ أوهى أساليب التربية هي التي تتوخّى التخلّيّ عن المجهود والتعب.

الولد الوحيد

ونرى في هذا المجال أن نُبدي ملاحظة لها أهميّتها في حياة الطفل الأخلاقيّة هي أنّ مريم البتول وُلدت وحيدة لوالديها وقد حظيا بها عن شيخوخة.

والولد الوحيد ابن الشيخوخة على العموم مائع، عربيد، مزعج، عنيد، محبّ لذاته، يثور لأتفه الأمور، مطاليبه لا حدّ لها، وقد يبادر أحيانًا إلى تحطيم الأواني الثمينة أو تمزيق ملابسه وشدّ شعره. حتّى ليجعل من بيت والديه جحيمًا لا يطاق يتمنّى فيه الأهل لو بقوا محرومين من نسل ومن ولد.

أمّا مريم فقد كانت على العكس وكما يجب أن تكون سهلة الإنقياد، لطيفة جدًّا، ومصدر سعادة والديها بأخلاقها العالية.

الراديو، السينما والتلفزيون

وهذه ملاحظة أخيرة لها صِلة جدّ وثيقة بتربية اليوم كما لها صداها العميق في ناشئة اليوم إنّها الملاحظة التي تدور حول المساوئ الناجمة عن الراديو والسينما والتلفزيون.

كيف لا نسجّل على مدينتنا خطأ فاحشًا يكمن في الاستعمال المضرّ لأجمل الاختراعات كالسينما والراديو والتلفزيون. كيف لا نسجّل على مدينتنا خطأ ترك تلك الاختراعات بين أيد طمّاعة بالمال، عاكفة على استغلال أحطّ الشهوات. فأضحت بذلك آلات هدم للأرواح. كيف يستطيع عقل طفل أن يقاوم ذلك الفحش من الصور والألحان المثيرة التي انطبعت عميقًا في دماغه البكر. إنّه لَمِن المؤسف جدًّا، بل إنّ القلب ليذوب أسى ومرارة عندما تتحوّل تلك الاختراعات البنّاءة إلى آلات للهدم.

إنّها إحدى المشاكل الإجتماعيّة المستعصية في حقل التربية. وعبثًا يحاول المصلحون حلّها بحرمان الأطفال منها والنهي عنها أو بالوسائل السلبيّة.

فلكي يعود المرء إلى تذوّق حياة التأمّل والإختلاء والصمت الضروريّ للتفكير، عليه أن يندفع وراء حبّ الجمال والفنّ وأن يبتعد عن الموبقات والضجّة. لأنّ الإنسان لا يسعد

إلاّ إذا عاد فسيطر سيطرة تامّة على قواه وأهوائه ليوجّهها التوجيه الصحيح وليفيد منها للبناء.

إنّ السينما والراديو والتلفزيون هي للجميع. ولكنّ البرامج المذاعة ليست للجميع. على الوالدين أن يسهروا ليضعوا تحت نظر وسمع أولادهم ما هو من مستواهم، مراعين في ذلك السنّ والثقافة ودرجة التفتّح على الحياة.

وعلى ذلك تعود بي الذاكرة إلى حادث غريب. فقد دعيت يومًا إلى حفلة أقامها فريق من رسل القربانة عرضت فيها ألوان من الموسيقى والتمثيل والخطب. ولشدّ ما كانت دهشتي حينما وقف بعضهم ينشد أغنية اكتسبت شعبيّة الأندية والشوارع: **"عزيزتي أحبّك. عزيزتي أعبدك عبادتي لعصير البندورة..."**.

فقلت لمدير الحفلة: هل نحن في مرقص أم في حفلة لنخبة من الطلاّب جمعتهم محبّة القربانة والتقوى والأخلاق السامية. فكان جوابه: إنّها أغنية شائعة. فقلت: وهلاّ للشائع أثره على الأخلاق؟ كان على منظّم الحفلة أن يسهر على نبذ أمثال هذه الأغنيات المخلّة بالآداب.

التربية فنّ

إنّ التربية فنّ من أدقّ الفنون حساسيّة لأنّ موضوعها نفوس بريئة قابلة للتطبّع بكلّ ما يتّصل بالحواس. ومن الخطأ القول: دعوه فالذي لم يربّه والده يربّيه الزمان. وإنّ الشاب بجهله يبني. تلك ادّعاءات مَن قهر على أمره وتخلّى عن واجب التربية. فإنّ الإختبار شيء والسقوط شيء آخر. التجربة شيء والتلوّث شيء آخر. إنّ الحياة مدرسة يعوزها العقل والتبصّر والمرشد والضمير والدين والمبادئ الأخلاقيّة السليمة وإرادة مصمّمة على الخير. على هذا يمكن الاعتماد في التربية لأنّها بناء يستند إلى أساس من كلّ المبادئ الصحيحة وعليها يعتمد الوطن والكنيسة وحياة الفرد والجماعة.

٥
تقدمة العذراء
"أوف الربّ نذورك"

في الحادي والعشرين من شهر تشرين الثانيّ من كلّ سنة، تحتفل الكنيسة جمعاء في مشارق الأرض ومغاربها بذكرى تقدمة العذراء مريم للهيكل. وإنّ الذكرى هذه تحمل في ثناياها للمؤمنين فرحًا وعبرًا.

وموضوع الذكرى مزدوج، فهنالك ذكرى وفاء والدَيْ البتول بنذرهما، وذكرى تقدمة مريم نفسها للربّ في هيكله.

ونقتصر في كلامنا هنا على وفاء يواكيم وحنّة بنذرهما لله، تاركين لفصل آخر موضوع تقدمة مريم نفسها لله.

مصدر العيد

علينا أن نعود إلى ذكريات **"وتقاليد"** لنتعرّف إلى أوان البدء باحتفالات هذا العيد وإلى التفاصيل التي رافقته منذ نشأته. وذلك بسبب موقف الكتّاب موقف الصمت من هذا الحادث الجلل.

فلا ضير علينا إذًا أن نعود إلى **"التقليد"** حينما لا نجد نصوصًا مكتوبة أو تحديدات صادرة عن سلطة الكنيسة العليا.

إنّ للوحي مصدرَيْن: الأوّل هو الكتاب المقدّس في العهدَيْن القديم والجديد والثاني هو **"التقليد"** أيّ الوحي الذي لم يُكتب وبقي متداولاً في الكنيسة ينتقل شفهيًّا من جيل إلى جيل على لسان علمائها وآبائها وسلطاتها، وهو الوحي الأصيل. لأنّ أكثر الوحي نزل في البدء شفهيًّا ثمّ سجّل تحت إشراف الروح القدس وإلهامه. هكذا فعل السيّد المسيح، فقد كان يعظ ويعلّم، ولم يكتب شيئًا. ولكنّ الرسل سجّلوا تعاليمه فيما بعد.

ونحن نستمدّ معلوماتنا، عن عيد تقدمة العذراء، من هذا **"التقليد القديم المقدّس"**. وقد اعتبر الطقس الكنسيّ دومًا مصدرًا هامًّا من مصادر **"التقليد"** ومعبّرًا عنه.

ونحن نرى أنّ الكنيسة منذ أقدم العصور كرّمت تقدمة العذراء للهيكل وأقامت لها عيدًا خاصًّا ورتبة كاملة.

وقد أيّدت الكنيسة بطقوسها هذا المصدر التقليديّ ولو أنّها لم تؤيّد كلّ التفاصيل التي أوردها الإنجيل المحرّف الذي ذكرناه في الفصل الأوّل من كتابنا هذا.

وفاء النذر

وقد أفاد كاتب الإنجيل هذا أنّ يواكيم وحنّة قدّما ابنتهما مريم لهيكل الربّ برًّا بنذر كانا قطعاه، والطفلة جنين. وسبب النذر، إنّ حنّة أمّ البتول مريم، لمّا كانت عاقرًا وكانت تتضرّع إلى الله أن يرأف بها وينزع عنها عار العقر، نذرت للربّ أن تقف لخدمته الولد الذي يولد منها. فلمّا منَّ الله عليها، في أيّام شيخوختها، بتلك الابنة المباركة، بادرت مسرعة إلى الوفاء بنذرها، في وقته المعيّن وضمن الشروط التي وضعتها، دون أن تحوّر أو تبدّل فيها شيئًا.

وعلى كلّ حال، فليس نذر مريم بالأمر الغريب، لأنّ الشعب اليهوديّ كان يكثر بسهولة من إبراز النذور. وقد وضع الله تشريعًا مفصّلاً عن النذور نقرأه في سفر الأحبار (٢٧).

عمر مريم يوم التقدمة

بقي أن نعرف في أيّة سنّ قُدّمت العذراء للهيكل. لعلّ ذلك حدث حينما تمّت لحنّة والدتها أيّام تطهيرها، لأنّ تلك الحفلة كانت فرضًا واجبًا حتّى بعد ولادة البنت (أحبار ١٢: ٦- ٨).

أمّا إنجيل القدّيس يعقوب المحرّف فقد ذكر أنّ يواكيم وحنّة قدّما ابنتهما لمّا بلغت الثالثة من العمر. وهي السنّ التي ذكرها مرارًا وصريحًا طقس عيد دخول السيّدة إلى الهيكل. ونحن ننسج على منواله.

ففي الأودية الأولى من قانون يوم العيد تنشد لها الكنيسة: "**إنّ والدة الإله بالجسد لمّا قُدّمت للربّ عجلة ذات ثلاث سنين تقبّلها زكريا كاهن الله ووضعها في الهيكل بفرح...**".

أمّا أن تُسمّى مريم "**بعجلة**" فهذا من الفنّ اليونانيّ الغنائيّ، إذ كانت العجلة معبودة الشعب. وقد اشتهرت خاصّة في مصر عبادة الإله ابيس، وهو عجل يحمل بقعة بيضاء في جبينه. فهو إذًا أفضل أنواع العبادة، بل هو نوع من التقريظ الخاصّ بالآلهة.

وفي الأودية الثالثة: "**افرح اليوم يا يواكيم، وابتهجي يا حنّة، بالروح، مقدّمين للربّ المولودة منكما، كعجلة ذات ثلاث سنين، عفيفة بريئة من كلّ عيب**".

وفي نفس الأودية: "**لنمدح بالترنيمات المرتّلة عروس الله التي هي بالجسد ذات ثلاث سنين، وبالروح كثيرة السنين...**".

وفي الأودية الرابعة: "**يا يواكيم وحنّة افرحا الآن لأنّكما قدّمتما إلى هيكل الربّ النقيّة الصائرة أمًّا للمسيح الإله ملك الكلّ المولودة منكما كعجلة ذات ثلاث سنين**".

وأخيرًا يكرّر القانون نفس العبارة في الأودية الخامسة: "**لتُفتح مداخل مجد إلهنا وتتقبّل أمّ الإله كمثل عجلة جزيلة الثمن ذات ثلاث سنين**".

هكذا يظهر جليًّا الأثر العميق الذي تركه الإنجيل المحرّف في نفوس واضعي رتب الطقس البيزنطيّ.

وقد احتفلت كنيسة أورشليم بعيد تقدمة العذراء منذ القرن السادس. وفي الشرق بأسره منذ القرن الحادي عشر. وقد جعله البابا سكستس سنة ١٥٨٥ عيدًا للكنيسة جمعاء.

العيد في الطقس البيزنطيّ

وقد جعل في الطقس البيزنطيّ من الأعياد الكبرى الممتازة، وله تقدمة تقع في اليوم السابق للعيد، وخدمة تدوم خمسة أيام فقط. لعلّ ذلك بسبب صوم عيد الميلاد الذي يدوم شهرًا كاملاً.

إلاّ أنّنا نجهل ما هو سبب وقوع هذا العيد في هذا اليوم بالذات.

الموكب

على أنّنا نستطيع أن نتخيّل كيف كان في صباح أحد الأيّام وضع بيت يواكيم وحنّة. لقد انتشر فيه جوّ من البهجة والسرور وقد عجّ بالأهل والعذارى، وحنّة منهمكة في استقبال ضيوفها، وعيون الجميع ترنو بعطف متزايد إلى الطفلة مريم في ملابسها الواسعة الفضفاضة المنمنمة بالأشغال التي رُسمت عليها.

وانطلق الموكب اللطيف نحو هيكل سليمان وهو على بعُد مئة متر ونيّف من البيت، تسير في مقدّمته رفيقاتها الأبكار المكرّسات مثلها لخدمة الهيكل، حاملات المصابيح، يترنّمنّ بمزامير جدّهنّ داود الملك.

وقد تخيّل واضع طقس العيد هذا الموقف البهيج فراح يصفه وينشد:

"إنّ الشمس قد حجبت أشعّتها لدى معاينتها سحابة النور داخل قدس القدّيسين" (من قانون تقدمة العيد).

وتشترك السماء في الفرحة: **"لتفرح اليوم السماء من فوق ولتقطر السحب سرورًا... فها إنّ المولودة بحسب الوعد من حشا عاقر عديم الثمر، المنذورة مسكنًا لله... تُقدَّم اليوم إلى الهيكل تقدمة لا عيب فيها...".**

وتُستدعى أرواح يهوذا ويَسَّى وداود وباقي الأجداد لتشترك في بهجة العيد لأنّها من نسلهم ولأنّها تتمّ النبوءات وتحلّ الرموز:

"سِرْ يا داود إلى هيكل الله. وتقبّل ملكتنا بفرح وسرور..." وأيضًا **"أيّتها الطاهرة النقيّة، إنّ داود يتقدّم المصافّ متهلّلاً معنا..."** ثمّ **"قل لنا يا داود. لِمَن هذا العيد الحاضر؟ هو للتي مجّدتها في كتاب المزامير. إنّها الابنة فتاة الله البتول قائلاً عنها سرّيًّا: تسعى إلى الملك عذارى في أثرها مع نسيباتها...".**

"ليفتخر داود ويَسَّى القدّيسان. وليتباه يهوذا... لأنّه قد خرج من أصلهم ثمر...".

ثمّ يُستدعى الأنبياء والرسل والشهداء: **"هلمّ أيّها الأنبياء والرسل والشهداء مع طغمات الملائكة وجميع الأرضيّين لنكرّم بالنشائد العذراء النقيّة...".**

والأنبياء يشتركون: **"يا أشعيا النبيّ تنبّأ لنا. مَن البتول الحامل في الحشا المتفرّعة من أصل يهوذا والمولودة من زرع داود الملك؟...".**

ثمّ ينضمّ الملائكة والبشر إلى الموكب: **"اليوم تحفّ بالأمّ الملكة البرايا بأسرها: السماء والأرض وطغمات الملائكة وجمهور البشر هاتفين: إنّ فرحنا ونجاتنا تدخل إلى الهيكل".** وأيضًا **"إنّ مواكب الملائكة تجذل اليوم مع جماهير البشر أجمع وتبادر أمامك حاملة المصابيح...".**

وتُرى العذارى الأبكار يسِرْن في مطلع الموكب: **"إنّ الشابات يتقدّمن اليوم مسرورات وحاملات المصابيح أمام المصباح العقليّ ويُدخلنها إلى قدس الأقداس...".**

وبالطبع قلبا يواكيم وحنّة يطفحان بالفرح وهما يُقدّمان ابنتهما:

"إنّ حنّة البريئة من العيب قد ابتهجت ابتهاج الأمّهات لأنّها قدّمت لله في الهيكل هديّة جزيلة الثمن، أمّا يواكيم فيعيّد معها بفرح وسرور".

"اليوم يواكيم وحنّة يقدّمان بحسن عبادة التي ولّداها على غير أمل. منجزين ما وعدا به...".

ويُنادى بالكهنة أيضًا لينضمّوا إلى الموكب: **"يا كهنة الله. البسوا درع العدل واستقبلوا بابتهاج ابنة الإله الملك...".**

وتلبّي الأمّهات الدعوة فيسِرْن في الموكب: **"أيّها الأمّهات بادرن بحسن عبادة نحو الأمّ..."** (من قانون يوم العيد).

هذا هو الموكب الضخم الذي تصوّره بمخيّلته واضع طقس العيد فشاهده سائرًا متهاديًا في ركب البتول وهي في طريقها إلى الهيكل.

في الهيكل

وما إنْ يصل الموكب إلى أروقة الهيكل حتّى يهبّ زكريّا فيستقبله ويمدّ يديه فيأخذ مريم من والديها ويقدّمها لله بتلاوة بعض الصلوات التقليديّة.

ويذكر واضع الطقس اسم زكريا مرّات في هذا العيد. واسم زكريا هنا على العموم يعني الكاهن. وهو لا يستطيع أن يُدخل مريم إلى قدس الأقداس فاجتيازه من حقّ رئيس الكهنة وحده فإذا ذُكر فإنّما هو من قبيل المبالغة بالاحترام والتمجيد.

وهكذا برَّ يواكيم وحنّة بنذرهما لله وأصبحت البتول مريم من هذا اليوم المبارك خاصّة ربّها وخادمة وعابدة له في هيكله.

عبر العيد

وبعد هذا، نرى أن نأخذ من تصرّف يواكيم وحنّة اللذين برّا بنذرهما لله، عبرًا لحياتنا المسيحيّة.

صفات النذور

أوّلاً- هل يكون كلّ نذر مقبولاً لدى الله؟ لا يمكن ولا شكّ أن يكون موضوع نذر إلاّ ما هو صالح أو مفيد. فلا يجوز لأحد أن ينذر بأن يسيء إلى غيره، كما فعل يفتاح الذي سمح بموت ابنته أو كما فعل هيرودس إذ دفع برأس يوحنّا المعمدان ثمن الفجور والرقص.

ثانيًا- على الناذر أن يبرَّ بوعده. وهو أمر خطير، لأنّ النذر عقد بين الإنسان وربّه مباشرة.

ثالثًا- على الناذر أن يفكّر مليًّا قبل أن ينذر، لأنّ النذر عبادة، والعبادة تستند إلى العقل في الدرجة الأولى. وكلّ نذر عُقد بغير تفكير ورويّة هو نذر باطل من أساسه، لأنّ الله يريد منّا عمل إنسان، والإنسان يتميّز بعقله. وكلّما استخدم الإنسان عقله ازدادت عبادته كمالاً. وهكذا مَن يرتكب خطيئة بغير تفكير، كما يحدث للنائم أو للطفل، لا يحسبها الله عليه خطيئة. ولذلك أيضًا كان عِلم الدين ضرورة وفرضًا واجبًا على الإنسان.

رابعًا- لا بدّ من تضحية ليكون للنذر معنى. إنّ الخروف لا يتحوّل إلى ذبيحة إلاّ إذا ابتاعه الإنسان بماله أو ربّاه بنفسه وقدّمه لله. وإنّ زنبقة لا تمجّد الله إلاّ إذا زرعها الإنسان وتعهّدها ثمّ قطفها وقدّمها لله. وغنيّ عن البيان أنّ كلّ ما في الدنيا هو ملك الله. ولا يعتبر الشيء هديّة أو ذبيحة إذا أخذ من صاحبه وأُعيد إليه. لأنّ الشيء لا يعتبر ذبيحة إلاّ إذا مثّل شخصيّة صاحبه.

فالخروف أو الباقة من الزهور يمثّلان شخص الإنسان حينما يبذل هذا الإنسان من قواه العقليّة أو الجسديّة ما يجني به المال، وبهذا المال يبتاع خروفًا أو باقة من زهور

ليقدّمها لله. وفي هذه الحال فإنّ الخروف أو باقة الزهور تمثّل لله في النذر ما بذل الإنسان من نفسه ليحصل عليها. فكأنّ الإنسان يذيب شيئًا من قواه العقليّة أو الجسديّة على مذبح الله.

خامسًا- لا بدّ من أن يتقيّد النذر بالشروط التي أقرّها الدين ورسمتها الكنيسة. فليس للإنسان الفرد أن يضع شروط النذر العامّة، لأنّ النذر من قواعد الدين، والقواعد أوحى بها الله وسلّم أمر السهر عليها إلى الكنيسة. فنرى بعض الناس يجعلون من عماد أولادهم موضوع نذر، فينذرونهم إلى كنيسة ليس لها إيمانهم أو طقسهم، كأنّ شروط العماد هي رهن إرادة فرد. كلاّ، فإنّ للكنيسة وحدها حقّ تعيين الكنيسة التي يتعمّد فيها الطفل، واختيار الكاهن الذي يمنح السرّ، والشروط القانونيّة التي يجب أن يتقيّد بها هذا العمل المقدّس.

تجديد المواعيد

هذا وإنّ بعض جمعيّات المرسلين كجمعيّة الآباء البيض الذين أسّسهم الكردينال لافيجري، وجمعيّة المرسلين البولسيّين، اختاروا هذا اليوم ليجدّدوا فيه مواعيدهم لله، فاتّخذوا ذكرى تقدمة العذراء السنويّة ليجدّدوا مواعيدهم على مثال العذراء ومعها. وكذلك فهناك عدد من الكهنة في العالم يجدّدون في مثل هذا النهار تقدمة حياتهم لله ويحتفلون به احتفالاً مؤثّرًا جدًّا.

ما أحسن وأجمل أن نقدّم نحن أيضًا ذواتنا لله مع العذراء مريم في مثل هذا النهار، لأنّنا نحن أيضًا ملك الله وهو سيّدنا وربّنا، ولا يجوز أن يملكنا غير الله أو أن تعبد نفوسنا سواه.

اللهمّ املكني كما ملكت مريم

واملك على الذين نحبّهم وعلى الذين آمنوا بك واتّبعوك، وعلى العالم أجمع، لأنّ لك الملك والمجد إلى الأبد آمين.

٦
مريم في الهيكل

وقف القدّيس يوحنّا فم الذهب على منبر كنيسة أنطاكية يخطب في جمع المؤمنين الغفير الذين اعتادوا أن يتلقّوا من فمه لآلئ المواعظ. وكان ذلك اليوم يوم ذكرى تقدمة العذراء إلى الهيكل، فراح يشرح لهم موضوع الحادث. فصُوّر للجموع أنّ ملائكة السماء أطلّت من الشرفات السماويّة لدى وصول الطفلة مريم إلى الهيكل فأُعجبوا بجمال نفسها، فصرخ بعضهم: مَن هذه السائرة إلى هيكل الربّ؟ فأجاب بعضهم الآخر: هذه أمّ إلهنا.

التقدمة

لنرجع الآن بالفكر إلى يوم التقدمة ولنقترب من هذا الجمع الصغير الذي توقّف في أحد أروقة الهيكل لنراقب عن كثب ما يجري. حنّة تقدّم ابنتها مريم وبالقرب منها الشيخ الصدّيق يواكيم يشعّ وجهه نورًا وبهجة، وأحد الكهنة يتقبّل الابنة الصغيرة، ومن حولهم وقف عدد من الأبكار والعذارى يسبّحن الله ويباركنه.

تنذر نفسها

ولكنّ الذي يسترعي الانتباه فوق هذا كلّه هو وجه مريم المشرق الذي ينمّ على أنّ نفسها تطفح نعمة وسرورًا؛ فإنّها على صغر سنّها لا تخشى التضحية. ويعتقد بعضهم أنّها في هذا الوقت عينه قدّمت ذاتها بذاتها نذرًا لله. ولم يكن في مضمون هذا النذر خدمة الهيكل طوال الحياة، كالنذور الرهبانيّة التي يقدّم بها الرهبان والراهبات ذواتهم. بل هو انقطاع عن العالم وانصراف تامّ إلى عبادة الله، وذلك للقيام بدراسة وحفظ الكتاب المقدّس والصلاة والتأمّل والإختلاء لسنين معدودات.

تتردّد على الهيكل

ورُبَّ مستوضح يقول: كيف جاز لوالدَيْ البتول أن يسلّماها للهيكل وهي في الثالثة من عمرها؟ وليس الجواب بالصعب إذا عرفنا أنّ بيت يواكيم وحنّة لا يبعد إلاّ عشرات الأمتار عن موقع هيكل سليمان. وبالنسبة للعذراء مريم كان الهيكل أشبه شيء بمدارس الحضانة القريبة من بيوت الأطفال، يذهب إليها الطفل ضحى النهار ليعود منها بعد ساعات معدودة إلى بيته. كذلك يظنّ أنّ حنّة كانت تأخذ ابنتها مريم في النهار إلى الهيكل ثمّ تعود بها عند الظهر إلى بيتها لتعيدها بعد الغذاء إلى الهيكل وتستردّها لدى الغروب. هذا ما نقرأه بين السطور في صلوات طقس عيد دخول السيّدة إلى الهيكل.

والذي يؤيّد اعتقادنا هذا، هو أنّه ليس من دليل على وجود مساكن في الهيكل خُصّصت بالنساء أو بالبنات. ولكنّنا نعلم بوجود رواق خاصّ دُعي **"رواق النساء"** كانت تتردّد إليه النساء للعبادة والصلاة. ونعلم من الإنجيل المقدّس بأنّ حنّة النبيّة ابنة فانوئيل كانت تتردّد باستمرار إلى هذا المكان منذ عشرات السنين، حتّى قال عنها القدّيس لوقا: **"إنّها لا تفارق الهيكل"** (٢: ٣٧).

ولعلّ مريم منذ دخولها الهيكل راحت ترافق خطوات هذه الأخت المتقدّمة المحترمة المتمرّسة بالعبادة والتقشّف وقراءة الكتاب المقدّس.

تتمتّع بكامل قواها

ولعلّ آخر يقول: هل تستطيع طفلة في الثالثة من عمرها أن تقدّم ذاتها لله؟ نعم إذا كانت الطفلة هي مريم العذراء. وهذا رأي بعض الآباء القدّيسين وغيرهم من كبار علماء اللاهوت أيضًا نظير المعلّم **"سوارز"** فيقولون: إنّ البتول مريم كانت تتمتّع منذ أيّام طفولتها بكلّ قواها العقليّة، وإنّها بدخولها إلى الهيكل وتقدمة ذاتها لخدمة الربّ، لم تكن تأتي عمل طفل لا يدري ما يفعل ولكنّها قدّمت ذاتها تقدمة صحيحة كاملة.

ولنا في القدّيسة تريزيا الطفل يسوع مثل حديث العهد جدًّا. لقد كتبت عن نفسها بأنّها "**منذ العام الثانيّ من عمرها شعرت بدافع نحو ختن العذارى**".

وإنّه لَمِن الثابت أنّ مريم نذرت طهارتها لله نذرًا كاملاً. يشهد على ذلك جوابها للملاك جبرائيل وهو يقترح عليها أن تصبح أمّ المخلّص فتقول له: "**كيف يكون لي ذلك وأنا لا أعرف رجلاً؟**".

وإنّ القدّيس أوغوسطينوس استعمل كلمة نذر أيضًا حينما تكلّم عن تقدمة العذراء ذاتها لله.

ونذر العذراء لا يشير أبدًا إلى عادة كانت منتشرة لدى الشعب في ذلك الوقت. فإنّها لم تتعلّم في الهيكل أن تنذر عفّتها لله. ولا أخذت ذلك عن العابدات رفيقاتها. فالقرار اتّخذته هي بدافع من تقواها وحبّها لله ومن وحي الروح القدس الذي أراد أن تكرّس قلبها لواحد، هو ربّها وولدها.

ولكنّ الشعب اليهوديّ كان يحترم جدًّا الطهارة والأطهار. ولقد فرض أن تكون أبكارًا البنات اللاتي يرافقن تابوت العهد ويضربن بالصنوج. وفي مراثي أرميا تقف الأبكار إلى جانب الكهنة. وإنّ الأرملة إذا أبت الزواج مرّة ثانية يُنظر إليها نظرة وقار كأنّها عادت إلى طهارة صباها.

أمّا أن ترفض صبيّة الزواج محبّة بالله وإكرامًا له مدى الحياة، فهذا الأمر لم يكن لليهود عهد به.

ولعلّنا نجد في عمل إبراهيم الذي رضي أن يقدّم ابنه إسحاق ذبيحة، بناء على طلب الله، أفضل مثال على عمل مريم التي قدّمت ذاتها لله بدافع من الروح القدس.

تضحية إبراهيم

وإليك تفصيل ذلك. كان الله قد وعد إبراهيم أبا الآباء بأن يجعل نسله عدد نجوم السماء والرمال المبعثرة على شواطئ البحار، فآمن إبراهيم مع أنّه لم يكن له ولد. ثمّ رزقه الله ولدًا، فجدّد له الله المواعيد نفسها. ثمّ قال له الله يومًا: يا إبراهيم خذ ابنك وحيدك إسحاق وقدّمه لي ذبيحة على جبل الموريا. فرضي إبراهيم وسار بابنه إسحاق إلى الجبل. فلمّا وصلا أنزل الحطب من على ظهر الغلام، ثمّ بنى هيكلاً من الحجارة وسدَّف الحطب فوقه ثمّ شدّ يدي الغلام بحبل إلى ظهره واستلّ سكّينًا ليذبحه. وإذا بصوت يناديه: لا تفعل! فالتفت. وإذا بكبش عُلّقت قرناه في علّيقة، فأخذه وقدّمه لله. وهكذا نجا الصبيّ وأصبح إبراهيم بمجيء المسيح أبًا لشعوب كثيرة.

وإيمان إبراهيم هو الظاهرة البارزة في هذا الحادث. لقد رضي أن يضحّي بوحيده لله. والتضحية به معناها أن يبقى بدون نسل وأن يُحرم هو من الشرف الذي كان وعده به الله وقطع له به عهدًا، أن يكون أحد أجداد المسيح.

تضحية مريم

وهذا الذي حدث لمريم أيضًا، فإنّها بنذرها الطهارة رضيت أن تعزل نفسها عن أولئك النساء اللاتيّ كان يجب أن يأتي المسيح من واحدة منهنّ مباشرة أو بطريق غير مباشر. وكما أنّ الله كافأ طاعة إبراهيم بأن حفظ له حياة إسحاق ومنحه أن يكون أحد أجداد المسيح، كذلك كافأ طاعة مريم والتضحية التي صمّمت عليها بنذر العفّة بأن اختارها لتكون أمّ المخلّص.

الهيكل مدرسة

وفي الهيكل تجد مريم مدرسة لها فيها تتعلّم وتتربّى، وديرًا فيه تخلو إلى إله آبائها. وفيه تمارس وتتقن العبادة والتأمّل.

مدرسة. نعم! هنا تشرع بقراءة الكتاب المقدّس. فتتصفّحه باحترام لأنّه كتاب الوحي. فيه يُعلن الله للبشر أوامره ووصاياه. فيه قصّة الخليقة وخطيئة آدم الإنسان الأوّل. فتفهم لأوّل مرّة أنّ المرأة الأولى أغرت الإنسان الأوّل فجرّته إلى معصية الله. وتنقبض فجأة ملامح وجهها حينما تسمع الله يدعو آدم إلى المحاكمة ويملي عليه نصّ الحكم الذي شمل البشريّة كلّها. وتعود ملامحها فتنبسط كأنّها استبشرت خيرًا حينما يعد الله البشر بمخلّص ينجّيهم من الموت الأبديّ.

ولقد وصف بولس الرسول حالة البشريّة رازحة تحت وطأة الخطيئة وما نجم عنها من المصائب بقوله: "**الخليقة كلّها تئنّ وتتمخّض، ولكنّ الخليقة ستُعتق من عبوديّة الفساد إلى حريّة مجد أبناء الله**". هذا مشهد موجز لتاريخ البشريّة. وينزل الله اللعنة بالحيّة، بإبليس المتقمّص في جسم حيّة ويقول لها: "**ملعونة أنت من بين جميع البهائم... وأجعل عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها فهو يسحق رأسك وأنت ترصدين عقبه**" (تكوين ٣). هل شعرت مريم من نفسها وهي تقرأ هذه الآيات بأنّها موضوع النبوءة وإنّها هي التي سوف تسحق رأس إبليس الحيّة بولادتها مخلّص العالم الذي سيسحق إبليس والشرّ والخطيئة؟

وتطالع مريم كلّ يوم صفحة جديدة من الكتاب. وإذا استعصت عليها المعاني التجأت إلى أحد الكهنة أو الكتبة أو المعلّمين أو إحدى العابدات لتستفسر منهم ما عزّ عليها فهمه. وها هي قد وصلت إلى أشعيا النبيّ فتقرأ: "**ها هي العذراء تحبل وتلد ابنًا وتسمّيه يسوع**" فتجثو على الأرض ومن أعماق نفسها تقول للعذراء التي ذكرها النبيّ: سعيدة أنت أيّتها العذراء وهنيئًا لك! وترفع عينيها إلى السماء فتقول: "**إلى متى أيّها الربّ إلى متى؟**".

هذه هي المدرسة وهذا هو الكتاب.

الهيكل دير

في الهيكل وجدت مريم الدير الذي فيه تخلو إلى الله إله آبائها إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فتتأمّل في سرّها بدعوة الله لإبراهيم وتعيد إلى ذاكرتها ذبيحة ابنه إسحاق

وتتصوّر في ذهنها ملائكة الله تصعد وتنـزل على السلّم التي رآها يعقوب، فلا يلبث قلبها أن يختلج من وقت لآخر كلّما مرّت أمامها رموز الكتاب التي كانت تنوّه عنها أو تصفها.

الهيكل مكان إختلاء

وأخيرًا في الهيكل أتقنت مبادئ العبادة والتأمّل. فهنالك في جوّ من هدوء أروقة سليمان وتحت نظر العليّ كانت تستسلم للصلاة أيّامًا تقضيها في أحلام حارّة وتأمّلات بريئة مشعّة. هنالك تعلّمت أن تصغي إلى روح الله يهمس في أذني قلبها زفرات الحبّ الخالص لربّها.

كلّ هذا وكثير غيره لا نجزم على أنّه حدث ضرورة ولكنّنا لا نعجب لسماعه ونسبته إلى مريم، لأنّ حياة مريم مع يوسف ويسوع كما نقرأها في الإنجيل وكما حفظها لنا "**التقليد**" لا تُفهم بدون هذه الحياة الداخليّة الطويلة المدى التي تمرّست أثناءها على ممارسة الفضائل.

عطيّة ذاتها

وقد استولى الله على شخص مريم بل وعلى كلّ ما فيها. فاستسلمت له بكلّ جوارحها لا تبتغي إلاّ رضاه وعمل إرادته، ممارسة أسمى الفضائل، سائرة من كمال إلى كمال، متّجهة نحو ذروة الجمال والنعمة الإلهيّة.

وبذلك أصبحت مريم مثال البنات المتعبّدات والرهبان والراهبات وكلّ نفس مسيحيّة تبغي الكمال في خدمة الله وحبّه. لقد وهبت نفسها لله مرّة واحدة، فلم تستردّها، ووقفت على حبّه وخدمته حياتها، فلم تندم على عطيّتها. وفي خطاب وجّهه القدّيس أمبروسيوس إلى البنات البتولات قال: **"ها هي المرآة الصافية التي بها نشاهد الحقائق. هوذا مثال الكمال الحقيقيّ الذي أقدّمه لكُن لكي تسرْن على مثالها وتقتفين أثرها، وتتعلّمن الفضائل من هذه العذراء الأكثر قداسة والأجمل طهرًا من الخلائق كلّها"**.

محاذير الضجّة

هكذا نرى أنّ مريم قضت أيّام طفولتها ومطلع شبابها في حياة، أين منها حياة عالم اليوم، عالم امتلأت أرجاؤه بالضجيج والصراخ والصخب. هل يسمع العامل صوت رفيقه في المعمل؟ هل تفهم شيئًا عن تعليقات الأخبار أمام المذياع، هلاّ سمح الناس لنفوسهم بساعة من الهدوء المريح في بيوتهم؟ كلاّ، فهم يتهافتون على دور السينما وأماكن القصف واللهو ولا يرتدّون. إنّ حضارة اليوم جعلت من الضجيج شرطًا طبيعيًّا لوجودها، كأنّ الناس يخشون أن يسمعوا صوت الله يكلّمهم. مع أنّ الله لا يُسمع صوته إلاّ في ساعات إختلاء النفس إلى ذاتها. لقد تضافرت كلّ الأسباب في عصرنا الحاضر لتمنع الإنسان من الإصغاء إلى دقات قلبه وزفرات روحه.

معمل الرجال

فالرجال العظام لم يتخرّجوا إلاّ من مدرسة العزلة المثمرة، وأنّ الأفكار العبقريّة البكر لا تنشأ وتنمو إلاّ في خلوة العقل المستنير. هنالك يقرّر الإنسان ويعزم على العمل والإنتاج، وكلّ نشاط خارجيّ بدون هذه الحياة الداخليّة ليس إلاّ ضجيجًا أجوف مصطنعًا، لا هدف له، تسوده الفوضى، وتتّحم به الأهواء.

كتب إرنست بسيخاري حفيد رنان الملحد إلى أحد أصدقائه من عزلته في الصحراء الكبرى الأفريقيّة، وذلك بعد ارتداده إلى الله: **"الآن في وحشة الصحراء أنا سعيد لأنّني أشعر بأنّي أعيش مع الثالوث الأقدس"**.

ما أحسننا لو انقطعنا كلّ يوم ولو بضع دقائق، عن العالم الخارجيّ، لنخلو إلى نفوسنا فنكتشف ما كمن في أعماقنا من كنوز، ونسمع صوت الله يهمس في ضمائرنا هداية ونورًا.

ولقد تأمّل القدّيس أندراوس، من جزيرة كريت، حياة مريم في الهيكل، فقال عنها أنّها قدس الأقداس **"لأنّ كلمة الله الكاهن الأوّل دخل فيه ليقدّم، سرّيًّا ولفائدة الجميع، ذبيحته التي هي طقس عبادة"**.

ويقول أيضًا: **"بسبب حبّها المضطرم يمكن اعتبارها الهيكل الذهبيّ الذي قدّمت عليه ذبيحة المسيح الحمل، الذي سوف يضحى عن الجميع بخورًا وذبيحة معطيًا الحياة لجميع متناوليه"**.

وفي ثاوطوكيون صباح الإثنين من كلّ أسبوع تنشد الكنيسة للتي عاشت في ظلّ الهيكل: **"إنّ القائد الزعيم جبرائيل أدّى التحيّة والسلام من السماء إلى التي تربّت في الهيكل حول قدس الأقداس**، واتّشحت بالإيمان والحكمة والبتوليّة الكاملة قائلاً: **"السلام عليك يا مباركة، السلام عليك يا ممجّدة. الربّ معك"**.

الجزء الثانيّ
عروس الناصرة
٧
يوسف يطلب لنفسه رفيقة

من المحتمل أن يكون يواكيم وحنّة قد توفيا بعد مدّة من تقدمة ابنتهما إلى الهيكل. ولا بدّ أنّهما سلّماها إلى أيد أمينة ترعاها وتسهر عليها. أمّا البتول فلبثت في الهيكل بين العابدات تخدم وتتكمّل في الفضيلة والقداسة.

من سلالة داود

وفجأة، يظهر على مسرح حياة مريم العذراء رجل يسمّى يوسف ويعرّفه الإنجيل المقدّس: **"رجل صدّيق"**؛ هو خطيب مريم من بيت لحم من سبط يهوذا ومن عشيرة داود. أيّ من السلالة الملكيّة التي وُلدت منها مريم العذراء والتي منها سيأتي المسيح: **"وأنت يا بيت لحم افراثا لست الصغيرة بين مدن يهوذا لأنّ منك يأتي المخلّص الذي**

يرعى شعبي". ولكنّه فقير الحال، ضيّق اليد. إنّه عامل مجهول لا شأن له بين الكبار، ولا مركز اجتماعيّ بين قومه.

وجدها في الهيكل

ولعلّنا نتلمّس هنا أحد الأسباب الهامّة التي دفعت بالقدّيس يوسف، ليبحث له عن رفيقة للحياة، في الهيكل، حيث تتربّى بعض البنات اللاتي تيمّن عن طفولة فتحوّل لهنّ الهيكل إلى بيت ومدرسة والكهنة والعابدات إلى آباء وأمّهات وخدمة الهيكل وعبادة الله إلى عمل يوميّ مقدّس.

مدفوعًا بيد سرّيّة

ولكنّنا، إذا أمعنّا النظر في فصول الأناجيل المقدّسة، حيث تسرد علينا قصّة ميلاد المسيح وفكّرنا في بعض المواقف الحرجة والأزمات النفسيّة التي انتابت الرجل، نجد أنّ يوسف بحث كثيرًا عن الرفيقة التي سيتّخذها له، وأنّه اهتدى إليها أخيرًا، فوجدها في هيكل سليمان، مدفوعًا، من جهة، بيد سرّيّة رسمت له مهمّة رفيعة في الحياة، هي إرادة الله التي قرّرت أن تجعل منه الأمين على الكلمة الابن وعلى أمّه الطاهرة. وبحافز من الأخلاق العالية، من جهة ثانية، كانت تجعله أن يقدّر أنّ السعادة في الزواج هي بين يدي المرأة الفاضلة. وإنّ الذين يعيشون تعساء في بيوتهم يجنون عواقب استهتارهم يوم راحوا يطلبون السعادة في الزواج في غير أبوابها. فبحثوا عنها لدى الابنة الوريثة للمال الكثير أو الصبيّة الجميلة المنظر أو المتقنة لفنون الإغراء. وفاتهم أنّ المال لا يحقق كلّ أسباب السعادة وأنّ الجمال زهرة تذبل وأنّ الإغراء سحر كثيرًا ما تكمن وراءه الأخلاق المنحطّة.

أمّا مريم العذراء فلم ينقصها شرف الحسب والنسب، إنّها من يهوذا وداود. ولم ينقصها الجمال فإنّ الكتاب المقدّس يصفها بأجمل وأبهى التعابير؛ وما سفر نشيد الأناشيد إلاّ قصائد صيغت إعجابًا بجمال مريم وطلعتها البهيّة. كيف لا والخطيئة التي تشوّه الجمال لم تعرف إلى نفسها سبيلاً.

ولكنّ الذي استهوى يوسف هو أخلاق مريم؛ فتعلّق بها وراح يعلّل النفس بما يصبو إليه الشباب في الحياة الزوجيّة الشرعيّة الهنيئة، من عيشة رضيّة مع فتاة عشقتها نفسه، لتنجب له نسلاً محبوبًا.

مواعيد الله لبيت داود

كلاهما من بيت داود ولهذا البيت مركز دينيّ واجتماعيّ منفرد، ممتاز؛ لأنّ ذكر داود مؤسّس أوّل دولة لأمّته، وواضع أركان صهيون، ومهيّئ بناء الهيكل، ما يزال حيًّا في النفوس. ولكنّ الذي جعل لقبيلة داود ميزتها الخاصّة هو وعد الله بأنّ من نسله يأتي المسيح المخلّص. فالمواعيد تنتهي كلّها إلى نسل داود. فكلّ فرد من أفرادها ينتظر أن يكون صاحب الشرف في ولادة المخلّص. ولكنّ سلطان هذه القبيلة كان قد أفل نجمه ولم

يبق منه إلاّ تلك الذكريات والآمال. حتّى إنّ كلّ إنسان من السبط، مهما تردّى وضعه، كان يحمل في قلبه هذا الوميض من الأمل الثابت. لأنّ الله أمين في مواعيده.

فكان لا بدّ لمريم، إذا ما حان موعد زواجها، أن تفكّر بشاب يساعدها على تحقيق تلك الآمال المشروعة، والرسالة الشريفة السامية.

فلمّا تقدّم يوسف يطلب يد مريم، كان له ما يشفع به، نسل داود، على مثال، العذراء، وتقواه وحسن أخلاقه. وإنّ الإنجيل المقدّس وجد فيه **"الرجل الصدّيق"** وهي الصفة الشائعة عنه التي تُعتبر أميز صفاته.

مشكلة النذر

أمّا المشكلة الكبرى فهل يقبل أن يعيش عفيفًا بعد زواجه من مريم العذراء قد نذرت عفّتها لله نذرًا كاملاً للحياة.

لم تكن حياة الطهارة والعفاف مجهولة لدى الشباب اليهوديّ، عكس ما كانت عليه لدى البنات. إذ كان يستطيع يوسف أن يجد أمامه أمثلة عديدة عن شباب قرّروا أن يمتنعوا عن الزواج ويحجموا عن ملذّات الحياة المحلّلة، في سبيل الله. وكثير من الأتقياء اختاروا هذا الطراز من التقشّف والتجرّد عن الدنيا. واتّخذوا بعض الأنبياء مثالاً لهذه الحياة السامية منهم: الياس النبيّ وتلميذه أليشع ثمّ أرميا وهو أحد الأنبياء الذين عاشوا في الجلاء ولدى مجيء المسيح انتشرت هذه الفكرة انتشارًا واسعًا جدًّا حتّى إنّ جماعة الساندة كانت تفرض على أعضائها حياة العزوبيّة والطهارة. وقد ذكر المؤرّخ يوسيفوس وهو معاصر للرسل أنّ عدد الساندة بلغ أربعة آلاف عضو. وقد كشفت الحفريّات شماليّ غربيّ البحر الميت سنة ١٩٥١- ١٩٥٢ عن مقبرة دُفن فيها ١٢٠٠ من الساندة.

أمّا يوسف فكان يستطيع أن يحبّ حياة الطهارة ويصمّم على التجرّد عن الدنيا ولو لم يكن من جماعة الساندة. ولعلّ الروح القدس هو الذي ألهمه أن يكرّس هو أيضًا طهارته لله.

سنّ مريم:

وكانت مريم تستطيع أن تعقد زواجًا بعد الثانية عشرة من عمرها شأن قريناتها في ذلك العصر.

وكانت العادة، أن تعقد البنت زواجًا في سنّ العشرين. والتقليد الكنسيّ المقرّر ذكر أنّ مريم خطبت ليوسف وهي في الرابعة أو السادسة عشرة من العمر.

حفلة الزفاف

وبعد مضي سنة أو أكثر على العقد، جرت حفلة كبرى، اشترك فيها الأهل والأصحاب، فزُفّت مريم إلى يوسف وعاشا حياة وديعة تحت سقف واحد.

وكانت العادة أن يبقى كلّ من العريسَيْن في بيت والديهما في الفترة الممتدّة بين العقد والزفاف. ولكنّ وعدهما عهد ملزم. حتّى أنّ البنت إذا بحثت عن غير عريسها وأُغويت به، اعتُبرت زانية، خارجة على النظام (تثنية ٢٢: ٢٣).

تلك كانت العادات والتقاليد المحلّيّة

أمّا يوسف فبعد أن بحث كثيرًا عن رفيقة للحياة تؤمّن له بيتًا منتظمًا وحياة هادئة، وجدها في شخص مريم ابنة يواكيم وحنّة.

خطبها من رئيس الكهنة

وتقدّم يومًا إلى رئيس الكهنة وطلب منه يد مريم فخطبها له وسلّمه إيّاها جوهرة ثمينة. فأخذها آنيًا إلى خاصّته وأدخلها بيته. وابتدأت حياتهما السعيدة.

مشكلة المساكنة

ويتساءل البعض كيف يجوز ليوسف أن ينفرد في عيشته مع خطيبته.

لا يخلو الجواب من بعض الصعوبة، سيّما وأنّ التقاليد الشرقيّة المحلّيّة لدى المسيحيّين لا تسمح حاليًّا بمثل هذه الحريّة. والخطيب في محيط الأسر المحافظة لا يجالس خطيبته إلاّ بمحضر من أهلها ولا يخرج معها منفردين بل لا يجوز أبدًا للخطيبة أن تزور خطيبها في منـزله إلاّ في ظروف رسميّة ونادرة جدًّا.

والأسر التي شذّت عن هذه القواعد السليمة التي خلّفها السلف الصالح تحت ستار الحضارة ورحابة الصدر كثيرًا ما تدفع ثمن هذه الحريّات الزائفة غاليًا.

أمّا موقف العذراء فسليم جدًّا ولا غبار عليه. ولا بدّ من أن نسلّط أنوار التاريخ على هذا الموضوع لنفهمه. كانت العادة عند اليهود كما هي اليوم عندهم وعند بعض الشعوب غير المسيحيّة في الشرق أن تُعقد الخطوبة أوّلاً. والخطوبة عقد زواج مستكمل الشروط القانونيّة والدينيّة بين الطرفين بحضور مسؤول شرعيّ عنه. أمّا زفّ العروسة فيؤجّل إلى وقت آخر رهن ظروف خاصّة لدى كلّ مذهب وطائفة. فمريم العذراء بعد عقد الخطوبة هي زوجة شرعيّة ليوسف لأنّهما تعاقدا على أن يعيشا معًا مدى الحياة ولا ثالث بينهما. فبما أنّها زوجته كان يستطيع أن يأخذها متى شاء. كما فعل، لأنّ مريم كانت يتيمة الوالدَيْن ولم يكن له مَن يقوم بخدمته. وما فعله يوسف كان ضمن حقوقه المشروعة التي يقرّها الدين والضمير. ولا غرابة إذا أخذها فهي زوجته وما من أحد يحول بينهما. فمريم إذًا كانت خطيبته لأنّها لم تُزفّ إليه بعد وزوجته لأنّ بينهما عقد زواج قائم.

ومن المحتمل أن تكون مريم العذراء قد حلّت ضيفة في بيت أحد الأهل أو الأقرباء، المقيمين في الناصرة. ومنهم أبناء خالتها من جهة أليصابات والدليل على ذلك أنّ أليصابات كانت متزوّجة برجل من قبيلة هارون التي منها زكريّا الكاهن ويعقوب، أو لدى أولاد عمّها سمعان ويهوذا من قبيلة داود. أو لدى أُسرة لها قرابة معها ومع يوسف لأنّ كليهما من قبيلة داود. وفي هذه الحالة كانت تقضي ليوسف حاجاته حتّى يوم جاء

الملاك جبرائيل وأزال مخاوف يوسف من وضع حبل مريم: **"يا يوسف بن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأنّ المولود منها إنّما هو من الروح القدس"**.

أيوسف شيخ أم شابّ؟

سؤال آخر يتوارد إلى الخاطر. هل كان يوسف شيخًا أو شابًّا؟

ليس من الأمور النادرة في الشرق أن يتزوّج شيخ بفتاة. وداود الملك لم يتورّع في آخر أيّامه من أن يأخذ لنفسه فتاة حديثة السنّ وهو شيخ عاجز.

وإلى اليوم نرى بعض الأغنياء يستغلّون فقر فتيات يغرونهنّ بالمال والحلى والأثاث ويتّخذونهنّ لهم زوجات. ولكن هل يقرّ المنطق مثل هذه الأعمال؟ وهل يوسف من الناس الذين ينقادون للهوى والشهوة على حساب العدل والرحمة؟

يقرّر بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنتس: بأنّ الزواج يعطي للرجل حقًّا على المرأة، وللمرأة حقًّا على الرجل وبأنّه لا يجوز لأحد أن يرفض هذا الواجب إلاّ بموافقة الفريق الآخر. فيتّضح من كلام الرسول العظيم أنّ بين الزوجين حقًّا متعادلاً متبادلاً. فكيف يقوم هذا التعادل والتبادل حينما تقصّر الطبيعة بسبب تقدّم السنّ. وكيف يقوم العدل بين طالب ومعدم. وهل يستعاض عن ذلك بالمال والمجوهرات والأثاث. أو ليس هناك خطر أكيد على عفاف الشابّة؟ إنّ العدل وليد المنطق. والمنطق لا يقبل بالظلم وبتعريض أقدس ما في الإنسان لأجسم الأخطار.

بقي أن نعرف كيف اعتقد المسيحيّون أنّ يوسف كان شيخًا متقدّمًا بالسنّ في حين أنّ مريم لم تتجاوز الرابعة عشرة أو السادسة عشرة من العمر؟ ومن المقرّر أنّ هذه الفكرة قد انتشرت عن طريق الصور والرسوم خاصّة في الأجيال المتوسّطة.

فقد كان المصوّرون يمثّلون يوسف شيخًا والعذراء كإحدى حفيداته وليس كزوجته. إنّ هذه الصور والرسوم تشوّه عواطف مريم وتُسيء إلى حبّها.

أمّا الجواب على ذلك فهو:

أوّلاً- منذ أقدم الأزمان تمتدح السنّ المتقدّمة في الشرق. فالشيخ يحاط بالإحترام والتجلّة والخدمة. حتّى أنّ الرجل إذا تجاوز الأربعين من العمر حُتّم عليه أن يرسل لحيته للدلالة على الوقار والكمال. ومنها بقيت العادة لدى رجال الدين؛ حتّى وفي الغرب كانت اللحية دليلاً على حياة التفكير. فالعلماء والأطبّاء والفلاسفة يرسلون لحاهم. وحلاقة شعر الذقن دليل على الجهل في العصور الغابرة. وما أسرع ما يتغيّر عمل وسلوك الإنسان بتغيّر التفكير ووجهات النظر. فاليوم اعتُبر الشعر الطويل كالأظافر الطويلة نوعًا من القذارة فألقى به الإنسان بعيدًا عنه.

ثانيًا- إنّ موقف يوسف من مريم وقد قرّرت أن تعيش معه زوجة طاهرة ربّما كان الدافع أيضًا لاعتبار يوسف رجلاً تجاوز سنّ الشباب، التي لا يملك فيها الإنسان نفسه، إلى سنّ الشيخوخة سنّ الكمال وضبط النفس.

فيكون المقصود إذًا من هذه الرسوم والصور إقناع السذّج أو مَن خشنت طباعهم بأنّ يوسف بقي بتولاً في الزواج. ولكنّ الطريقة كانت ساذجة جدًّا تحمل معها خطرًا هو أن يفكّر بعض الناس بحبل غير شرعيّ.

ثالثًا- ولعلّ أسهل الفرضيّات أن يظنّ الإنسان أنّ أحد المصوّرين رسمه هكذا فنقل الرسم عنه مَن جاء بعده، دون نقد أو مناقشة، كما نرى ذلك في كثير من الرسوم والصور.

هذه فرضيّات تقرّب لعقولنا سبب الدوافع التي حَدَتْ بالمسيحيّين الأوّلين إلى الاعتقاد بأنّ يوسف كان متقدّمًا في السنّ عندما خطب مريم عروسة. وإنّه لَمن غير المعقول أن يرضى بالظلم وهو "**الصدّيق**" بشهادة الوحي.

وفي العصر الحديث قام تيّار معاكس يناهض هذه الفكرة. فصوّر يوسف شابًّا يتمتّع بكامل قواه الجسديّة والعقليّة. وأمامي كتاب عنوانه "**يوسف الرجل الصدّيق**" لأحد الإخوة المريميّين أثبت المؤلّف فيه كلمة للكاتب فلكس بواسه يقول فيها: "**إنّي حاقد عليك أنت يا مَن جعلت منه شيخًا وهو في مطلع الشباب وخذلته حتّى في زواجه. إنّي حاقد عليك لأنّك جمعت بين جمجمة صلعاء ووجه نضر، ولأنّك حوّلت الزواج الأكثر انسجامًا إلى اتّحاد مضحك بين عمرين مختلفين**".

مشاكل الزواج

جدير بالشباب من طالبي الزواج أن يتّخذوا لهم القدّيس يوسف مثالاً في بحثه عن رفيقة الحياة. عليهم أن يلجأوا إلى الله أوّلاً بالصلاة لأنّه هو أساس البيت. والكتاب يقول: "**باطلاً يتعب البنّاؤون إنْ لم يبنِ الربّ البيت. وباطلاً يسهر الحرّاس إنْ لم يحفظ الربّ المدينة**". ثمّ أن يبحثوا عنها في بيت الكرام والأشراف. البيت مدرسة البنت، فيه تتعلّم من أمّها وخالتها. ولا يجوز أن يتّخذ قاعدة المثل السائر "**وردة تخلف شوكة وشوكة تخلف وردة**". إلى هذه الساعة ما وجدنا ولن نجد أصدق من قول السيّد المسيح: "**لا يجتنى من العوسج عنب ولا من الشوك تين**". وهل يجوز لشاب أن يخاطر بمستقبله وسعادته وتأمين نسله بينما حقّ الاختيار أمامه مفتوح على مصراعيه. وما نقوله عن الشاب يقال تمامًا عن الشابّة.

الطلاق أكره الحلال عند الله بل حرام لدى الكاثوليك والندامة لا تجدي بعد فوات الأوان لأنّ عقد الزواج هو للحياة. وليس الطلاق عند الذين قبلوه قاعدة بل مصيبة من أكبر المصائب الإجتماعيّة. لأنّ غاية الزواج إيلاد البنين. وها هو الطلاق يجعل منهم أطفالاً مشرّدين لا عون لهم ولا مرشد فيملأون السجون بإجرامهم. هذا ما قرّره الرأي العامّ العالميّ بحقّ الطلاق.

وأمّا الهجر فمصيبة أيضًا لأنّ الأولاد يُحرمون من حنان أحد الوالدَيْن وتنفث في أرواحهم سموم البغضاء والحقد نحو الفريق الذي ابتعدوا عنه. فيكون الأولاد ضحيّة الآباء. وقد عرفنا في المدارس شبّانًا أذكياء ولكن كان ينقصهم القلب ليعيشوا بسلام مع معلّميهم ورفاقهم الطلاّب. فكانوا أشبه شيء بجلف لم يروّض ولم تُصقل أخلاقه.

وإذا قبل الفريق المظلوم بما قُسم له قضى الحياة في بيت كأنّه جحيم: النزاع الدائم والشتائم والمسبّات وربّما الضرب الأليم إذا كان الرجل من الذين لم يخرجوا في عقليّتهم عن البيئة البدائيّة والعشائريّة.

وما أكثر الدعاوي الواردة إلى المحاكم الكنسيّة التي لا تفتأ تنظر في الخلافات العائليّة ومردّها كلّها إلى انعدام التفاهم. والتفاهم ذهنيّة تتكوّن إبّان الطفولة والترعرع في البيت الوالديّ على مبادئ الدين والمذهب الذي ينتمي إليه الإنسان وفي البيئة الإجتماعيّة التي يتفتّح عليها منذ نعومة أظفاره. ونحن نحبّذ زواج الإنسان من محيطه الإجتماعيّ ومن أبناء دينه فهو أضمن للتفاهم.

٨
عذراء الناصرة

إنّ حبّنا للعذراء مريم وتعلّقنا بها ورغبتنا في أن نضعها دومًا، نصب أعيننا، مثالاً يُحتذى به، وحافزًا يُسيِّر خطانا نحو المخلّص الفادي الذي هو الغاية، يحملنا على البحث والإيغال في التنقيب عمّا ورد في الكتاب والتقليد بخصوص الحبيبة مريم وأن نستنتج ممّا ورد.

فبعد أن خطب يوسف لنفسه مريم العذراء من الهيكل أخذها وابتعد بها إلى الناصرة. فلمّا وصلا لم تقم الدنيا ولم تقعد، لا طبول ولا زمّور ولا ضجيج. إنّهما من عشّاق الصمت والهدوء. وتلك هي مظاهر والمظاهر لا تليق بهما لأنّها جوفاء. وبعد فلنكن منصفين، أليسا من ممهّدي السبيل لآخر؟ فهل يجوز اغتصاب مجد الآتي وتحويله لهما. وأخيرًا إنّهما يحملان رسالة من السماء فما شأنهما برضا البشر. أمّا أولئك بعض مَن تزعّموا الشعوب فإنّهم بحاجة إلى الضجيج حاجة الإنسان إلى الخبز والماء للبقاء. ولولاه لتحطّمت كراسيهم وانهارت إلى الحضيض.

فلننتقل الآن بالفكر ألفي سنة إلى الوراء ولندخل مدينة الناصرة ولنقترب من بيت يوسف ومريم. بيت لا يختلف في ظاهرة في شيء عن باقي بيوت الناصرة. ولنلتمس من العذراء السماح لنا بأن نزيح عن هذا البيت ستر الحقارة والفقر والسذاجة التي اختفى وراءها. هنا يعيش يوسف ومريم. هنا راحت حياة العروسَيْن تتتابع في هدوء الناصرة كتعاقب الليل للنهار ولكنّها لم تخل من الأعمال العظيمة. داخل جدران هذا البيت الحقير في مظهره تقوم أعمال يقف عندها الجبابرة معجبين، إنّها بطولات صامتة لا يطّلع عليها إلاّ الله، إنّه نعم المطّلع!

جذور البتوليّة

لقد تفوّقت مريم على بنات جنسها بإرادة لا تتعلّق إلاّ بالخير فلا مكان في عقلها للتردّد ولا في إرادتها للوهن والضعف. إنّها تعرف ما تريد ولقد صمّمت عليه ولا رادّ لِما

قرّرت. تريد الله وفي سبيله تهون كلّ تضحية وتحلو كلّ مشقّة. لقد نذرت طهارتها لله ولمّا تبلغ بعد وقرّرت أن تظلّ وفيّة لنذرها حتّى في حالة عقد زواج.

نظر اليهود إلى البتوليّة

ولكي ندرك معنى التضحية في حياة عذراء الناصرة علينا أن نذكر طريقة تفكير اليهود آنئذ في أمر البتوليّة. كانت الشريعة الأولى التي أنزلها الله أن: **"انموا واكثروا واملأوا الأرض"**. وكان على الشعب اليهوديّ أن يتكاثر لينشر فكرة عبادة الإله الواحد الحقيقيّ ربّ السماوات والأرض. ولمّا دعى الله إبراهيم وعده بنسل كنجوم السماء ورمال البحار عددًا. وغمَّ إبراهيم أن يُحرم من نسل وأن تبقى سارة عاقرًا حتّى أتمّ الله وعده بمولد إسحاق. ولم يكن أحطّ في نظر اليهود من امرأة عاقر. ذلك لأنّ مجيء المسيح كان متوقعًا تنتظره الشعوب بفارغ الصبر ولأنّ اليهود لم يفهموا إلاّ الولادة بالجسد شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الشعوب حتّى أيّامنا هذه. فلمّا جاء المسيح كشف لنا عن الولادة الروحيّة: **"إنّ المولود من الجسد جسد هو أمّا المولود من الروح فهو روحيّ ويدوم إلى الأبد"**.

وإنّ البتوليّة لم يعرفها إلاّ نخبة من الأشخاص الذين دعاهم الله إلى رسالات سامية كالأنبياء العظام الياس وأليشع وأرميا ويوحنّا السابق وجماعة من الساندة الذين زهدوا في الدنيا.

الناحية السلبيّة

أمّا اعتبار البتوليّة امتناعًا عن العلاقات الزوجيّة فقط يعيد إلى الذاكرة تلك الاعتقادات القديمة الخاطئة التي رأت في العلاقات الزوجيّة دنسًا. ولهذا أوجدت بعض طقوس خاصّة للتطهير. منها صلاة إدخال المرأة إلى الهيكل بعد ولادتها. وهذه الأفكار انتقلت إلى الكنيسة مع اليهود المرتدّين إلى المسيحيّة.

الناحية الإيجابيّة

أمّا مريم العذراء فشغفت بالبتوليّة لأنّها تكريس الذات لخدمة الله وحبّه. فإذا ضحّت بشرف الأمومة رغبت في أن تكون بكلّيتها لله. وهذه الفكرة ليست ببعيدة عن الأفكار التي تعلّمتها في الهيكل والمنتشرة بين قومها آنئذ وهي أنّ أفضل استعمال للشيء هو أن يُضحّى به لله. وعلى ذلك كانت تقدّم البواكير من المحاصيل الزراعيّة والمنتوجات الحيوانيّة حتّى والبشريّة.

وأسمى ما في هذا النذر ليس أن تضحّي مريم بأميالها. فإنّها لم تعرف الحرب التي تكلّم عنها بولس الرسول في رسالته إلى أهل رومية حيث يصف ثورة الجسد على الروح. إنّ بطولة مريم ليست في مادّة النذر. ولكن بما أنّها من نسل داود ومن هذا النسل الشريف سيولد المسيح رضيت عن طيبة خاطر أن تضحّي بشرف ربّما يكون من حظّها وهو أن تكون المدعوّة لتصبح أمّ المخلّص. وإذا ما ذكرنا الثقافة الخاصّة التي حصلت

عليها مريم في درس الكتاب المقدّس في الهيكل ندرك بأنّ انتظار المسيح المخلّص كان في عقلها أمرًا واضحًا وأنّه كان موضوع تأمّلاتها وصلواتها. وآمالها كانت كلّها متّجهة نحو ذلك اليوم المشهود العظيم الذي فيه يأتي المخلّص.

في هذه الظروف يبدو نذر مريم واضح البطولة لأنّه دليل على التضحية العظمى، تضحية الذات على مذبح حبّ الله الخفيّ. هنا يكمن المعنى الحقيقيّ لنذرها. إنّه تفان واتّضاع، إنّه بذل الذات لخدمة الله. ومَن يدري إنْ لم تكن هذه التضحية الكاملة هي التي لفتت أنظار الله عليها ليختارها أمًّا لابنه.

ولعلّ مريم العذراء لم تفهم الآية التي لأشعيا النبيّ إلاّ حينما بشّرها الملاك بالحبل الإلهيّ: **"ها هي العذراء تحبل وتلد ابنًا"** فإنّ عيون اليهود كانت مغمضة عن معنى الآية هذا.

وهكذا أصبحت مريم بكلّيتها لله خالقها. فمن الآن وصاعدًا لا تعيش إلاّ له في هيكل قلبها حيث تشعر بوجوده وتناجيه وتستمدّ من هذا الوجود معنى لوجودها وحياتها.

الكشف ليوسف

بقي أن تكشف مريم لزوجها القدّيس يوسف عن نذرها هذا، وهو صاحب حقّ شرعًا ودينًا. وليس أبسط من نفوس القدّيسين فلا ملابسات ولا تلاعب ولا حيل. ولقد قيل أفضل الحيل ترك الحيلة. فكاشفته بصراحة عن عزمها وطلبت إليه أن يرضى باحترام بتوليّتها تكرّمًا منه وتفضّلاً. لأنّها نذرتها للعليّ وتريد أن تحتفظ بها له.

فأصغى يوسف لكلامها بتأنّ وتفكير عميق وراح يزن الأمور بميزان العقل والتقوى: إنّها تطلب منه تضحية كبرى، تضحية لذّة الزواج. وإنّ النزول عند إرادتها يهدم أبراج سعادته ويحرمه من نسل وتقرض له ذريّة ربّما يأتي منها المسيح. ولكن أليس الله أحقّ من الإنسان بحبّ الخلائق. وهل يجوز للإنسان أن يقف عائقًا في طريق نفس تسعى إلى الله بدعوة خاصّة. وهكذا ارتفع يوسف إلى سموّ فضيلة مريم العذراء فقرّر أن يوافقها على طلبها وأن يكون لها أخًا محبًّا وملاكًا حارسًا.

فلمّا سمعت مريم جواب يوسف ازدادت به تعلّقًا واحترامًا وإكرامًا. فأكبرت فيه التقى والورع والنقاوة والتفاهم والتجرّد الكامل وشكرت الله الذي قيّض لها هذا الملاك ليكون رفيق حياتها وحافظًا لبتوليّتها.

العبر

لا بدّ لنا من أن نتوقف قليلاً لنتّخذ لنا عبرًا من بيت الناصرة.

وظيفة الروح

أوّلاً- يعتقد بعض الناس بأنّ الطهارة فضيلة جسديّة. واعتقادهم هذا يدلّ على جهل في صلب الموضوع وجوهره إذ أنّ للنفس دورًا مهمًّا تلعبه في ضبط وتنظيم ما يتطلّبه الجسد. إنّ الإنسان المتّزن لا يخضع أبدًا للغريزة ولا يذعن لجموحها. وهكذا يتّضح بأنّ

الطهارة فضيلة النفس أكثر ممّا هي فضيلة الجسد. والنظام لدى الإنسان استكانة الجسد للروح. فإذا اضطرب هذا النظام وانقلب إلى فوضى ينحطّ الإنسان إلى درجة الحيوان.

وظيفة الجسد

ثانيًا- لا يسوغ للإنسان مع ذلك أن يستهين بوظيفة الجسد ويغمّط قدرها لأنّه آلة ثمينة في خدمة الروح. فالطهارة لا ترضى ببتر أحد أعضاء الجسد. ومَن فعل خالف الوصيّة الخامسة من وصايا الله. ولا نندب ما في الإنسان من ميول شهوانيّة. الندب لا يجدي فتيلاً ولا يُنشئ، إنّ ما يجدي ويُنشئ هو أن تُعطى النفس مكانها الصحيح من شخص الإنسان، كلّ إنسان حسب حالته ودعوته بحيث نجنّب النفس كلّ ما من شأنه أن يعاكس إرادة الله. ومعنى هذا أن يحرم غير المتزوّجين على نفوسهم كلّ عمل. والمتزوّجون أن يسمحوا لنفوسهم بما هو ضمن قانون الزواج. ومن البديهيّ القول أنّ لا خطيئة حيث لا معرفة ولا إرادة. ولا مجال للتجربة والإختبار لأنّ التجربة قد تؤدّي بالإنسان إلى الموت.

ضرورة العِلم

أمّا المعرفة فسبيل إلى الخلاص والإنتصار. والجهل يودي بالإنسان لأنّه ظلام. ولكن لا بدّ من فطنة بالغة في التفتّح على الحياة والإقبال عليها. وبالتالي لا يجوز أن نسبق الزمان. فالعقل يفتقر إلى السنّ ونموّ الجسد للتفتّح الطبيعيّ. ولقد راجت في عصرنا أساليب جديدة تدعو الصغار للإطّلاع على ما هو من شأن المراهقين والمتزوّجين، والسينما أحد تلك الأساليب الجديدة الخاطئة. إنّ في ذلك لخطرًا مباشرًا على الأخلاق.

محاسن البتوليّة في المجتمع

إنّ البتوليّة استطاعت أن تحقّق ما لم تحققه أيّة قوّة أخرى في العالم. هذا العاجز مَن آواه حينما نبذه أولاده ونساء أولاده سوى الراهبة. هذا اللقيط مَن احتضنه عندما أُلقي به أمام باب الدير إلاّ الراهبة. فإنّها إذ خرجت تفتح الباب عند الصباح وجدت طفلاً ابن أيّام قلائل في لفائفه يبكي. إنّه ثمرة لذّة طائشة مُحرّمة. فرموه قبيل الصباح لأنّهم يعلمون بأنّه هنا يعيش. وسيتيسّر له مَن يحتضنه ويربّيه. لقد تخلّى عنه الذي أنجبه بالخيانة فوجد له أمًّا تحضنه وتحنو عليه.

أسباب المناعة

ثالثًا- ينكر بعضهم على الإنسان أن يكون قادرًا على ضبط النفس، مؤكّدين أنّ الشهوة أقوى من أن يتغلّب عليها ويكبح جماحها.

نحن لا ننكر أنّ الطبيعة البشريّة حلّ بها الضعف منذ أن عصى الإنسان الأوّل ربّه، فانقلب فيه النظام وضاع التوازن وأصبح سقوطه أمرًا سهلاً. ولكنّ الله لم يتركنا إلى

أهوائنا ولم يسلّمنا إلى أعداء الخلاص بل علّمنا أساليب الحرب الروحيّة وزوّدنا بقوّة من عنده للمقاومة والدفاع. ما شأن آلاف الجنود العزّل أمام جنديّ واحد مدجّج بالسلاح؟

ولكنّ هؤلاء الذين أنكروا على الإنسان قوّة المقاومة لا يؤمنون بمفاعيل النعمة والأسرار المقدّسة وحكمة أساليب الحرب الروحيّة. فهنالك المناولة وتُسمّى **"زاد الأقوياء"** وهنالك الصلاة وخاصّة توفير جوّ أدبيّ هو أشدّ ما يحتاج إليه الإنسان ليعيش طاهرًا عفيفًا وقد عرفه بعض الآباء بأنّه إرادة الإنسان. وهو يقضي بأن يعيش الإنسان بعيدًا عن أسباب الزلل وأن يقاوم دومًا وبدون هوادة كلّ فكر يمسّ بزنبقة الطهارة، وأن يتجنّب كلّ سبب جرّه سابقًا إلى الخطيئة، كالمعاشرات المنحطّة وحضور الأفلام السافلة والتردّد إلى البيوت المشبوهة والمطالعات المثيرة والأحاديث البذيئة. وبالإضافة إلى كلّ هذه عليه أن يخلق لنفسه جوًّا من الأفكار العالية يرتاده عادة، واضعًا نصب عينيه أمثلة القدّيسين وخاصّة مثال مريم عذراء العذارى.

وإذا حدث بعد كلّ هذا أن سقط الإنسان في خطيئة، فكرسيّ الإعتراف هو المرهم ورحمة الله لا حدّ لها ولنتذكّر بأنّ السيّد المسيح لمّا رزح تحت ثقل صليبه ثمّ قام، ما فعل إلاّ لكي يعلّمنا أن نقوم ونجدّد العزم. وخبرة الماضي تحمل في ثناياها عبرة للمستقبل.

في سبيل الهدف الأسمى

رابعًا- يحتجّ بعض الناس على نذر التبتّل، مدّعين أنّه انتحار، ويقصدون بهذا القول أنّه لا يجوز للإنسان أن يحرم نفسه متعة الحياة. لقد فات هؤلاء أن **"ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان"**. فحياة في الروح هي أسمى من حياة الجسد. وإنّ التضحية بلذّة جسديّة في سبيل مبدأ أسمى هي حقيقة يقرّها كلّ فرد ومجتمع. فالجنديّ يموت في سبيل الوطن. والطبيب يحرم نفسه لذّة النوم في سبيل مداواة مريض. والأم تسهر الشهور والسنين في خدمة أولادها. فلم لا يحرم الإنسان نفسه اللذّة الجسديّة في سبيل الله وملكوت السماوات؟ وعلى كلّ هي دعوة خاصّة من الله لم يدع إليها كلّ إنسان، بل فئة قليلة من الناس.

العذراء المثل الأعلى

لقد انبثقت حضارات وآداب وفنون من البتوليّة وانتشرت انتشار الحياة الرهبانيّة تطالعك في كلّ بلد من بلاد العالم حيث جماعات وشعوب تعشّقت النور والزهد والمحبّة.

وممّا لا شكّ فيه أنّ بتوليّة مريم هي التي دفعت بالكثير من النفوس للتشبّه بها واقتفاء آثارها.

وإنّ أبناء الكنيسة وحدهم في العالم عرفوا هذا النوع من الزهد والتحرّر. وديانة توحي لأبنائها بمثل هذه البطولات لا شكّ أنّها ديانة الله الحقيقيّة. إنّها أنشأت القدّيسين والشهداء على مدى الأجيال. ودفعت بالمرسلين والرهبان لنشر الدين وفتح المدارس وتربية الناشئة وخدمة العاجز واليتيم والمريض. إنّ بطولات المتبتّلين منتشرة تحت كلّ سماء. وعين الله مرتاحة لصفوف هؤلاء الجنود الشجعان والروّاد البواسل الذين انتشروا في كلّ مكان يعلنون أنّ الله أحقّ من الناس بأن يُخدم. والبذل في سبيله هو سعادة على

الأرض وهو ضمان لسعادة السماء. **"مَن ترك أبًا وأمًّا... يأخذ مئة ضعف هنا ويرث الحياة الأبديّة"**.

قصّة

وصل في أحد الأيّام سائح أميركيّ إلى إحدى جزر المحيط الهادئ وساقته أقدامه إلى مستشفى للراهبات جمعن فيه مساكين أصيبوا بمرض البرص. فلمّا قرع باب المستشفى وجد أمامه رئيسة الدير صبيّة في مقتبل العمر وميعة الصبا أشرق وجهها نعمة وجمالاً وعرف منها أنّها ابنة أسرة كريمة جدًّا من نبلاء فرنسا وإنّها لم تناهز الثلاثين من العمر وإنّها تحمل شهادات عالية. وسارت به تتنقل بين مهاجع المرضى وأسرّتهم. ومن المعروف عن مرض البرص أنّه يسبّب رائحة منتنة جدًّا لا تطاق؛ وكانت الرئيسة الراهبة تداعب المرضى بكلمات لطيفة جدًّا. فهناك مريض أكل المرض منه جلد يديه وهنالك مريض آخر لم يبق المرض من أنفه إلاّ القاعدة وآخر أتى المرض على وجنتيه فأصبح مشوّهًا قد لا يتعرّفه أقرب الناس من أهله أو أصدقائه. وكنت تسمع الراهبة تسمّي الواحد من هؤلاء بأخيها والثانيّ بصديقها والثالث بابنها. وكان المرضى يدعون الله أن يطيل بعمرها ويأخذ بيدها ويكافئها على عملها. ورجعت بالسائح حتّى باب المستشفى. وقبل أن يودّعها قال لها عفوك يا سيّدتي لا بدّ أنّك تتقاضين مرتّبًا كبيرًا جدًّا مقابل أتعابك والإرهاق الذي تتحمّلينه بجوار هؤلاء المرضى. فقالت أحسنت ظنًّا أنّ مرتّبي باهظ جدًّا. فقال لها لا بدّ أنّه يتجاوز الألف دولار شهريًّا. فأجابت بل هو أكثر بكثير. قال لها إذن ألفان فقالت بل أكثر بكثير. فقال عشرة آلاف. فقالت ضاعف المبلغ أضعافًا ولعلّك لن تدرك مرتّبي الحقيقيّ. فقال لها بربّك قولي لي ما هو مبلغ هذا المرتّب؟ فأشارت بيدها إلى الصليب الذي تدلّى على صدرها وقالت له: إكرامًا لربّي هذا وهذا هو مرتّبي. فأعجب بها وانسحب يعظّم ويكبّر إيمان شباب ضحّوا بملذّات الحياة في سبيل المريض والعاجز واللقيط بدافع من حبّ الله.

هذه معالمنا- هذه شريعتنا- هذه مثلنا- هذه حقيقتنا التي أوحى بها نذر العفّة والبتوليّة بوحي من حبّ الله.

٩
رسالة السماء

ومضت أيّام وتعاقبت أسابيع وبيت الناصرة ساكن هادئ. لا شيء يعكّر صفو هذا الجوّ اللطيف وينال من هذه الحياة الرتيبة. فتارة تنهمك العذراء مريم في القيام بأعباء البيت وطورًا تنكبّ على الصلاة والتأمّل. بيد أنّ هذه السكينة غدت بغتة نشاطًا باديًا وحركة دائبة في ذلك اليوم الميمون.

مريم تطالع الكتاب

فنحن في اليوم الخامس والعشرين من شهر آذار. وهو مطلع عهد جديد للبشريّة كلّها. وقد أطلقها أنشودة شاعر القياصرة **فرجيل** عندما كشف الستار عن **"ذلك الطفل المختار فرعًا من أصل إلهيّ"**. بينما استسلمت مريم في صباح ذلك اليوم إلى التفكير وتركت العنان لنفسها تغوص في بحر من التأمّلات ثمّ تعود إلى الكتاب تأخذه بين يديها وتقلّب صفحاته باحترام مفرط وتتوقف مليًّا وهي تقرأ الفصل السابع من أشعيا النبيّ:

يؤتيكم السيّد نفسه آية. **"ها إنّ العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عمّانوئيل"** هذه هي **"الآية العلامة"**. وقد سبق الله فجعلها لبيت داود أحد أجدادها الأوّلين: **"عذراء تحبل وتلد"**. وتثابر على المطالعة المقدّسة إلى الفصل التاسع فإذا هي أمام كشف آخر عن المنتظر الآتي: **"قد وُلد لنا ولد، أعطي لنا ابنًا، فصارت الرئاسة على كتفه، ودُعي اسمه عجيبًا، مشيرًا، إلهًا جبّارًا، أبا الأبد، رئيس السلام"**.

وتتساءل مريم عن هذه النصوص الغامضة وهذه العبارات الخفيّة. فمَن هذه العذراء المدعوّة لتلد إلهًا؟ وتمنّت مريم لو حظيت بالشرف في أن تصبح له خادمة أو أمة. وضمّت يديها إلى بعضهما وراحت تصلّي بحرارة إلى الله عسى أن يعجّل في بزوغ فجر ذلك اليوم السعيد وأن **"يهطل الصدّيق"** فترتوي البشريّة المتعطّشة وتعمّ البهجة أرجاء الدنيا.

انحدار جبرائيل

في تلك اللحظة غمرتها هالة من نور: لقد انحدر إليها جبرائيل الملاك من السماء ليحمل جواب ربّ السماء على صلواتها وطلباتها. فيحيّيها: **"السلام عليك يا مريم يا ممتلئة نعمة!"**.

يقول الإنجيل المقدّس بأنّ مريم اضطربت لدى سماعها هذا الكلام **"وراحت تفكّر ما عساه أن يكون؟"**.

ثلاثة عوامل اجتمعت لتلقي الرعب والهلع في قلب مريم: وجودُها في بيتها منفردة وحدها، ودخول شاب تجهله عليها، ومبادرته لها بتحيّة قد تخفي وراءها تملّقًا وإغواء.

وشعر جبرائيل بما عراها من اضطراب وانتابها من دهش، حتّى أنّها استعدّت لتقصي الشرّ وتدفع عنها أيّ مكروه. فهدّأ روعها وأعاد إليها رباطة جأشها حين فاه بهذه العبارة الناعمة: **"لا تخافي يا مريم أنا جبرائيل الملاك رسول ربّي إليك. لقد وجدت نعمة أمام العليّ. لقد نلت حظوة عند الله"**.

ولكنّها تتفرّس في وجه الملاك مرّة وتفكّر في نفسها مرّة أخرى.

الخبر اليقين

وبكلمة خاطفة أجمل جبرائيل أقوال أشعيا ودانيال والمزامير وباح لها بإرادة السماء **"ها أنتِ تحبلين، وتلدين ابنًا وتسمّينه يسوع. إنّه يكون عظيمًا، وابن العليّ يُدعى. وسيعطيه الربّ الإله عرش داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الدهر، ولن يكون لملكه انقضاء"**. (أشعيا ٧: ١٤، مزمور ٨٨، دانيال ٧). وتذكّرت مريم لدى سماع هذا

الكلام كلّ ما قرأته في الكتاب المقدّس وجال بذهنها المزمور: "**أنت ابني وأنا اليوم ولدتك**" (مزمور ٢٠: ٧).

ولكنّها ما تزال غارقة في بحر من الذهول والاضطراب. ألم تكن تعتبر نفسها أمة الله تضرع إليه أبدًا ليحدب عليها ويكلأها بعنايته؟ وتساءلت في عجب وذهول: هل في مكنتي تحمّل هذه المسؤوليّة الجسيمة؟ وهل هناك حلّ معقول لهذه المشكلة المعقّدة؟ ألم أنذر البتوليّة لله مدى الحياة؟ وتبدي بسذاجة عظيمة حيرتها وعميق قلقها وتبادر جبرائيل الواقف بإجلال أمامها بقولها: "**كيف يكون ذلك، وأنا لا أعرف رجلاً؟**".

الروح القدس

فيجيبها جبرائيل مطمئنًا: "**الروح القدس يأتي عليك، وقدرة العليّ تظلّلك، ومن أجل ذلك، فالقدّوس الذي يولد منك يُدعى ابن الله**". ثمّ يؤيّد كلامه بواقع يمتّ إلى مريم بصِلة "**ها إنّ أليصابات نسيبتك، قد حُبلت هي أيضًا إبّان شيخوختها، وهذا الشهر هو السادس لتلك التي تُدعى عاقرًا**".

كانت مريم تعرف حسنًا أنّ المسيح يأتي من داود ولكن لم يدر في خلدها أنّ السيح يولد من عذراء. ففهمت الآن أنّ الحبل هو من الروح القدس الذي يظلّلها، كما ظلّل العالم والمياه في بدء الخليقة فجعلها خصبة مريعة. فما هي بحاجة إلى رجل ولا علاقة بشر في هذا الصدد. فاللقاح هو روح الله وهكذا تتمكّن من الإحتفاظ بنذر العفّة والتبتّل فتصبح أمًّا لذلك الإله المتأنّس.

وفي صلوات رتبة العيد تقول البتول للملاك: "**... ما بالك تنطق بكلمات تفوق إدراك الإنسان؟ ... إنّي لا أعرف لذّة ولا زواجًا فكيف إذًا ألد ابنًا؟ فيجيبها الغير المتجسّد: حيث يشاء الله يغلب نظام الطبيعة...**".

فسرّي عنها واضمحلّت كربتها وذهب عنها الخوف وانقشعت غمامة الاضطراب من سماء نفسها. ولم يعُد في وسعها إلاّ أن تقول الكلمة الحاسمة: جوابها للملاك. التاريخ يقف ليسجّل الرفض أو القبول. آدم البشريّة يمرّ ثانية أمام النور والنار. ومن المقرّر أنّ الله يحترم في الإنسان إرادته، إنّ الله الذي خلق الإنسان بدون إرادته لا يخلّصه إلاّ بإرادته.

جواب مريم

وتجيب مريم بصوت متهدّج وفي تواضع وخفر "**أنا أمة الربّ، فليكن لي حسب قولك**". وهكذا جاء أخيرًا جواب مريم بل جواب البشريّة. لقد اعتزمت أن تنقذ البشريّة من أوصابها وتنتشلها من دياجير الجهل التي تتسكّع فيها. وكان حريًّا بها أن تذعن لمشيئة الربّ لأنّ خلاص العالم كان منوطًا بجوابها في ذلك الموقف الحرج، ولا أدلّ على ابتهاج المسيحيّين بتلك الحادثة من قرع الأجراس مرّتين في كلّ يوم. وإنّ ذلك الصوت المجلجل المنبعث من الكنائس لدليل جليّ على إجلالنا لحادث البشارة وجواب مريم الذي أعطى الكلمة الفصل لإسعاد البشريّة وإنقاذها.

يتلقّف جبرائيل بغبطة عظيمة الجواب المعبّر عن مطلق إرادة مريم، والممثّل لرغبة البشريّة ويعود به إلى السماء بعد أن سلّم الرسالة بأمانة وحدثت أعجوبة العجائب. لقد تمّ تجسّد الفادي المخلّص في حشا البتول الطاهرة بقوّة الروح القدس، وتحوّلت مريم إلى هيكل يسكن فيه الأقنوم الثّانيّ من الثالوث الأقدس، وأصبحت بيت قربان حيّ يقيم فيه الكلمة. وتركع مريم ساجدة مناجية الكلمة الذي تجسّد فيها، وقد هيمن عليها الحبور: "**أنا لحبيبي وحبيبي لي. هو الذي يرعى بين السوسن**" (نشيد الأناشيد ٦: ٢). أفلا يحقّ لها أن تتهجد وتصلّي آناء الليل وأطراف النهار؟ ألن تغدو بعد أشهر معدودة أم منقذ البشريّة؟ فيأتيها الجواب يا أمي "**جميلة أنت يا خليلتي جميلة ولا عيب فيك!**" (نشيد الأناشيد ٤: ١).

الحدث العظيم

إنّ حادث البشارة جمع كلّ أسباب العظمة إذ يتدخّل به الله والملائكة وسلطانة الملائكة والغاية هي خلاص البشر. هنا يلتقي العهد القديم بالجديد. الواحد رمز والثّانيّ واقع. وإنّه حقًّا لمشهد مؤثّر جدًّا. منه يبدأ الخلاص، وفي نشيد عيد البشارة إشارة إلى ذلك: "**اليوم بدء خلاصنا، وظهور السرّ الذي منذ الأزل. فإنّ ابن الله يصير ابن البتول وجبرائيل يبشّر. فلنهتف معه لوالدة الإله: السلام عليك يا ممتلئة نعمة، الربّ معك**".

ويقول بولس الرسول في رسالته إلى أهل غلاطية: "**لمّا بلغ ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة مولودًا تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبنّيّ**" (٤: ٤- ٥).

حدث يهدي البشريّة إلى طريق الخلاص. لقد شاء الله أخيرًا أن يتحرّر الإنسان من ربقة عبوديّة الشرّ وأن يحطّم إغلال الخطيئة التي كان يرسف بها. وبذلك أُعيدت العلاقات المقطوعة إلى سابق عهدها. وهنا تظهر جليّة أهميّة الدوافع التي أهابت بالعذراء مريم لترضى بيوسف زوجًا على الرغم من نذر بتوليّتها لله.

مريم كشفت عن الحادث

ويجدر بالذكر أنّ الصفحات النيّرة التي سطّرها لنا القدّيس لوقا الإنجيليّ عن فجر الخلاص والبشارة وطفولة المسيح لا بدّ أنّه استوحاها من مريم العذراء نفسها هي التي "**كانت تحفظ الكلام بقلبها**" (لوقا ٢: ١٩) لأنّ بشارة الملاك لمريم بالحبل الإلهيّ لم يطّلع عليه ثالث. والوصف الحيّ الذي ساقه الإنجيليّ يجعلنا نعتقد كأنّنا أحد الشهود العيان في بيت الناصرة. ومن المعلوم لدى علماء شرح الكتاب أنّ مريم هي أحد مصادر الإنجيل المقدّس وهذا ما يسمّى بالإنجيل الحيّ الأوّليّ. وكان ينقل باحترام زائد حتّى سجّله لنا الإنجيليّون في كتب أربع تمثّل لنا وديعة الإيمان الأساسيّة.

تواضعها

غير أنّ تواضع مريم جعلها تمتنع عن سرد كثير من التفاصيل بشأنها، لكي تختفي هي ولا يظهر إلاّ شخص المسيح الذي هو الغاية.

فالكبرياء أخرجت إبليس من عداد الملائكة العباد، لأنّه ترفّع وبترفّعه خرج عن طريقه. وطريق الخليقة عبادة الخالق. فلمّا أبى العبادة طرد من السماء كنيسة الله وتلبَّس بالخزيّ والعار.

فالعبادة الحقيقيّة محبّة خالصة لله وتمسّك مثاليّ بوصاياه. والمحبّة الخالصة هي أن يخرج الإنسان عن ذاته أيّ أن لا يفكّر بها بل يتناساها ويستهين بها. وهكذا يتّضح كلام المعلّم: **"مَن أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه"**.

"مَن أحبّ نفسه يهلكها".

"اذهب ضحّ بكلّ ما لك وتعال اتبعني".

"مَن لا يحمل صليبه ويتبعني فلا يستحقّني".

وهكذا يبدو جليًّا جواب مريم العذراء للملاك: **"أنا أمة الربّ"**. وهنا يكمن سرّ حبّها المتزايد والمتواتر لله. فهي إنّما تختبئ ليظهر يسوع. ويسوع فحسب.

فإنّها تتوارى عن الأنظار ليبقى يسوع وحده أمام الباحثين المؤمنين والعباد. وهذا ما دفعها لأن تجعل الإنجيل المقدّس مقتضبًا جدًّا حين يلهج بذكرها. مع إنّها هي أحد المصادر التي رجع إليها القدّيس لوقا.

لقد نافست الخليقة كلّها بحبّها لله لأنّها نافستها كلّها بتواضعها.

ولهذا رأت الكنيسة في مريم أنّها **"باب الحكمة"** والبطولة الكاملة والحبّ الأسمى.

نعمة عظيمة

وأجمع علماء الكنيسة على أنّ مريم نالت نعمة التقديس غير مرّة في حياتها وخاصّة حينما قال لها الملاك **"السلام عليك يا ممتلئة نعمة"**. إنّ الحبل بالمخلّص كان لها ينبوعًا من آلاء تفجّرت في فؤادها ونبراسًا غمر بنوره الأبلج أرجاء نفسها.

ونلاحظ أنّ جبرائيل جعل من العبارة ممتلئة نعمة **"اسم علم لمريم"**. فمن جملة أسمائها أنّها **"ممتلئة نعمة"**.

والحقيقة أنّها **"ممتلئة نعمة"** لأنّ الله اتّخذ من جسدها جسدًا وسكن فيها. وأيّ نعمة أعظم من هذه؟

وإن كان، حسب مبادئ الكيمياء، العنصر الأقوى يحوّل إليه العنصر الأضعف. فالمسيح بنـزوله في حشاها سوف يحوّلها إليه.

مدّة تسعة أشهر تلبس مريم المخلّص الجنين ناسوتها. تغذّيه بجسدها ودمها.

ولكنّ المسيح أيضًا يبادلها التأثير أضعافًا.إنّه بدوره يلبسها اللاهوت.

إنّ الذي يتّحد بالله يصبح شبيهًا له بالروح. ولكن مَن استطاع أن يتّحد بالمسيح مثل أمّه؟

كلّما اقترب الإنسان من مصدر حقيقة أو حياة ازداد اشتراكًا في مفاعيلها. ومريم العذراء قد لامست ملامسة مباشرة داخليّة السيّد المسيح الذي كان يستمدّ منها الطبيعة

البشريّة. ولهذا تراها قد حازت منه فيضًا من النعم لا مثيل له. وبما أنّ المسيح هو مصدر كلّ نعمة لكلّ بشر فمريم كانت أقرب الناس إلى هذا الكوثر المتفجّر قداسة وبرًّا: **"ومن امتلائه كلّنا أخذنا"** (يوحنّا ١: ١٦).

المناولة الأولى

ثمّ ألا يمكننا اعتبار التجسّد أوّل مناولة متبادلة بين الابن وأمّه. يسوع يتناول من أمّه ليأخذ منها حياة جسديّة ومريم تتناول من ابنها لتأخذ منه حياة إلهيّة.

ويهتف الأب أولييه **"ما أعجب تلك المناولة التي تنقل إلى نفسك، يا مريم أمّي، روح المسيح وحياته وفضائله حتّى لأعتبر أنّك أصبحت والمسيح واحدًا. لأنّه فيك وأنت ذائبة فيه... فأنا أسجد يا سيّدي يسوع لبحر العطايا وغزير النعم التي وضعتها فيها لخدمة كنيستك كلّها"**.

هيكل الله

لقد حوّلها إلى هيكل، إلى قدس أقداس لا يشتمل على الرموز فحسب بل على المسيح الحقيقيّ بعينه. وهكذا جعلها مصدرًا للنعم لأنّ ينبوع النعم يقيم فيها.

وهي تستطيع أن تعلن بجرأة أعظم من جرأة بولس الرسول: **"أحيا لا أنا بل المسيح حيّ فيّ"**.

وفي ثاوطوكيون اللحن الأوّل للقيامة تنشد الكنيسة للبتول مريم: **"لمّا حيّاك جبرائيل أيّتها البتول تجسّد مع صوته سيّد الكلّ فيك أيّها التابوت المقدّس كما قال داود الصدّيق وظهرت أرحب من السماوات إذ حملت خالقك. فالمجد للذي سكن فيك. المجد للذي أتى منك. المجد للذي حرّرنا بولادته منك"**.

مرجع تاريخيّ

ولقد تضاربت الآراء واختلفت التأويلات بصدد تاريخ هذا الحادث. ويرجع السبب في ذلك إلى أنّ جلّ الشعوب كانت تتّخذ تاريخًا لمجرى أحداثها تاريخ روما بنفسه. فقد كانت تؤرّخ من تأسيس المدينة أيّ روما.

ذيونيسيوس

فلمّا جاء ذيونيسيوس الصغير (+ في روما ٥٤) أراد أن يجعل مرجعًا للتاريخ ميلاد المسيح. وكانت الفكرة جريئة وجميلة جدًّا. ومن الأسف أنّه أخطأ في التدليل على ميلاد المسيح إذ جعله يتّفق وسنة ٧٥٤ لبدء تأسيس روما. فأخطأ بذلك إذ كان الفرق بين سنة الميلاد وسنة ٧٥٤ أربع سنوات على الأقلّ. فإنّ هيرودس الكبير الذي وُلد المسيح في عهده مات سنة ٧٥٠ لروما وذلك قبل الفصح. فيكون ميلاد المسيح في أقصى حدّ قد وقع سنة ٧٤٩. وبذلك يكون جرى حادث البشارة بين سنة ٧٤٤ وسنة ٧٤٩.

أمّا ٢٥ آذار وهو اليوم المتّفق عليه في الشرق والغرب للاحتفال بذكرى البشارة فقد يعود للجيل السابع للميلاد. وقد قرّر أحد الكتّاب بأنّ سنة البشارة والميلاد هي ٧٤٩. فيقول بأنّ يوم ٢٥ آذار كان سبتًا وأنّ بلاد فلسطين بأسرها كانت قدّست ذلك النهار بصوم لذكرى "**استير**" وفرض على اليهود أن يتجمّعوا في كنائسهم ليقرأوا قصّة تلك الملكة التي اعتُبرت رمزًا لمريم التي هي أيضًا بدورها أنقذت شعبها من عتوّ هامان.

طقس العيد

أمّا طقس عيد البشارة فمن المقرّر أنّ مدينة الناصرة باشرت الاحتفال به في النصف الأوّل من الجيل الرابع. وكانت المناسبة تدشين الكنيسة التي شيّدت على اسم البشارة. ويُعتقد بأنّ مدينة القسطنطينيّة احتفلت به قبل مجمع أفسس عام ٤٣١. أمّا فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى ومصر فقد احتفلت به في وقت مبكر جدًّا. أمّا في الغرب فقد احتفلت به إيطاليا في رافين في منتصف الجيل الخامس. ورومة في عهد البابا القدّيس غريغوريوس الأوّل (٥٩٠- ٦٠٤).

ويتشعّب موضوع العيد إلى ثلاثة فروع أوّلاً- بشارة الملاك جبرائيل لمريم. ثانيًا- الحبل الإلهيّ بالمسيح. وثالثًا- أمومة مريم الإلهيّة.

وإذا اعتبرت الكنيسة البيزنطيّة يوم ٢٥ آذار عيدًا من أعياد السيّدة من الدرجة الأولى فيها تُكرّم ذكرى مزدوجة هي البشارة والتجسّد الإلهيّ، فقد اعتبرت يوم ٢٦ آذار عيدًا مزدوجًا أيضًا فيه تحتفل بإكرام الملاك جبرائيل رسول البشارة العظمى وتُكرّم خاصّة مريم التي حُبلت بالكلمة وأصبحت بذلك أمّ الله.

ولعيد البشارة تقدمة تقع في اليوم السابق للعيد ومحفل روحيّ يقع في اليوم التالي له.

وقد نسجت الكنيسة أجمل التقاريظ ورفعتها للأمّ البتول.

ومن صلوات التقدمة: "**اليوم جبرائيل بشّر المنعم عليها قائلاً: افرحي أيّتها الفتاة التي لا عروس لها. لا تعجبي من صورتي الغريبة ولا تخافي. فأنا رئيس الملائكة. إنّ الحيّة خدعت حوّاء قديمًا. أمّا الآن فأنا مبشّرك بالفرح وهو أنّك ستلدين الربّ وتلبثين بغير فساد أيّتها الطاهرة**".

وهذه أيضًا "**اليوم انكشف السرّ الذي منذ الدهور وابن الله يصير ابن بشر... آدم قد اشتهى قديمًا أن يصير إلهًا فخاب قصده. فصار الإله إنسانًا لكي يصير آدم إلهًا... فيا إلهنا يا مَن تأنّس بتحنّن مراحمه المجد لك**".

وأيضًا "**أيّتها النقيّة. إنّ الربّ الساكن دائمًا في السماوات يسكن في مستودعك لأنّه يفد ليلبس علانيّة طينة الأرضيّين ويجعلها سماء**". "**اليوم يظلمُ عتو الثعبان إذ يحلّ رباط لعنة الأب الأوّل. ولذلك نهتف إليك: افرحي يا ممتلئة نعمة**". "**أيّتها النعجة النقيّة إنّ حمل الله يفد ليسكن في مستودعك ويرفع خطايانا**". "**أيّتها البتول إنّ جبرائيل رئيس الملائكة قد هتف إليك افرحي لأنّك تحملين في أحشائك الفرح الذي فقدته حوّاء بالمعصية**".

وقنداق التقدمة: "**بحلول الروح القدس الكلّي قدسه قد جعلت بالمعادل للأب في الجلسة والمساويّ له في الجوهر...**".
ومن الأودية الثامنة لقانون التقدمة: "**إنّ الربّ خالقنا لمّا شاهدك وردة بين الرياض وسوسنة ذكيّة العرف. أحبّ جمالك أيّتها النقيّة وسرّ أن يتجسّد من دمائك...**".
ومن صلوات العيد: "**في الشهر السادس أرسل رئيس الأجناد إلى الناصرة مدينة الجليل يحمل للنقيّة بشرى الحبور. فلمّا وقف أمامها هتف قائلاً: افرحي يا ممتلئة نعمة، الربّ معك... افرحي يا معيدة دعوة آدم ومنقذة وفرح العالم وبهجة جنسنا**".
ومن صلوات العيد أيضًا: "**اليوم تباشير الفرح. اليوم العلويّات تتّحد مع الأرضيّات. وآدم يتجدّد. وحوّاء تُعتق من الحزن... إنّ كيفيّة التنازل غير معروفة وطريقة الحبل غير موصوفة. ملاك يخدم العجب. بطن بتوليّ يتقبّل الابن. الروح القدس يُرسل. الآب من العلوّ يُسرّ...**".

العبر

بعد هذا نرى في حادث البشارة أمثولات يجوز أن نتوقف عندها لنتّخذ لنفوسنا منها عبرًا.
أوّلاً- إنّ الذين يحبّهم الله لا يرفعهم دومًا إلى المراتب العالية لأنّ المراتب طريق خطر قد يؤدّي ببعض الناس إلى الكبرياء والهلاك. وإنّ كثيرًا من الناس رغبوا عن الدنيا واختاروا حياة الخلوة والإنفراد ليكونوا بكلّيتهم لله. والحياة الرهبانيّة تعبير عن هذه الرغبة المقدّسة.
ثانيًا- نرى أنّ الله اختار لمريم الحياة الخفيّة. إنّ العجب ليستولي على العقل حينما تنعطف السماء إلى مريم أمّا نحن فنعجب من نقائصنا وخاصّة حينما يطّلع عليها الناس. وذلك لأنّنا لم نقف ولا مرّة أمام الله لنحاسب نفوسنا في ما هو لنا وما هو له. وأن يكفّ أشخاص عن متابعة نشاطهم بسبب نقائصهم دليل على الكبرياء، لأنّ أساس عملنا ليس نشاطنا الشخصيّ وإنّما نعمة من الله: "**يا مريم لقد وجدت نعمة أمام الله**".
ثالثًا- مريم لا تتردّد في الجواب. "**هاأنذا أمة الربّ. فليكن**". ذلك لأنّ مريم لا تتهرّب من المسؤوليّة. فالتملّص من الواجب خيانة أحيانًا.
رابعًا- في جواب مريم يتجلّى تواضعها العميق: "**هاأنذا أمة الربّ**" أيّ الجارية التي تُبتاع للعمل أو على الأقلّ الخادمة التي تؤجّر نفسها للخدمة. وفي الحالتين أرادت مريم أن تعبّر عن عميق تواضعها. إنّها تزن نفسها بميزان الحقيقة. والحقيقة هي الله. وفي الواقع أين الخليقة من الخالق؟
يوم وصل داود النبيّ إلى عرش مملكته تطلّع إلى ذاته فرأى نفسه حقيرًا بالنسبة للكرامة التي رفعه إليها الله فقال: "**مَن أنا أيّها الربّ وما بيتي حتّى أتيت بي إلى ها هنا؟**".
كذلك مريم العذراء يرفعها الله إلى أعلى الرتب فترى نفسها مغمورة بنعمه فتعيد باعتراف صريح صادق النعم لصاحبها. أمّا هي فليست إلاّ أمة الربّ.

ولهذا اعتبرت مريم أفضل العباد. لأنّ العبادة الحقيقيّة هي إعلان ما لله. والتواضع هو إحدى قواعد العبادة الأساسيّة.

١٠
دومًا بتول
"السلام عليك يا زهرة البتوليّة- السلام عليك يا إكليل العفّة"
(من رتبة الاكاثستوس)

لقد قرّرت الكنيسة، على مدى الأجيال، أنّ مريم العذراء بقيت بتولاً، قبل الولادة وفي الولادة وبعد الولادة. وهو إنعام امتازت به دون جميع البشر.

ولإيضاح ذلك علينا أن نميّز بين كون مريم بريئة من دنس الخطيئة الأصليّة ونفسها مفعمة بالنعمة المبرّرة وبطائفة لا حدّ لها من النعم منذ وجودها، عن كونها كلّية الطهارة والقداسة إذ أنّها لم ترتكب في حياتها أيّة خطيئة مميتة أو عرضيّة أو هفوة إراديّة.

فمريم هي الدائمة البتوليّة. وهذا يعني أنّها اجتنبت كلّ خطيئة ضدّ الطهارة والحشمة حتّى التافهة. وقد نذرت أن تبقى على الطهارة، لتحفظ لجسمها كمال العفاف والبتوليّة حتّى في حالة زواج شرعيّ. واحتاطت لذلك بكلّ الوسائل الفعّالة والقادرة أن تحفظ لها نقاءها وبتوليّتها.

إيمان الكنيسة بها

والبتوليّة الدائمة هذه موضوع عقيدة دينيّة في الكنيسة وقد أقرّها بتحديد خاصّ مجمع القسطنطينيّة عام ٥٣٣ ومجمع اللاتران ١١٣٠. وعبّرت الكنيسة عن إيمانها هذا بوضوح وصراحة: أنّ مريم أمّ يسوع بقيت بتولاً في حبلها بابن الله يسوع المسيح ولبثت بتولاً بعد ولادتها المخلّص. فهي إذًا بتول قبل الولادة وفي الولادة وبعد الولادة.

والكنيسة تردّده في قانون الإيمان: "**ونؤمن بأنّ يسوع المسيح وُلد من مريم العذراء**" وقد اعتبر دومًا في الكنيسة أنّ مريم نعمت ببتوليّة كاملة وذلك بمفعول أعجوبة خاصّة من الروح القدس الذي جعلها أمًّا وهي بتول.

وقد أضحت البتول مريم رمزًا للكنيسة البتول مع أنّها عروس المسيح.

الرموز

وإنّ الأنبياء سبقوا ورمزوا إلى هذه "**الأمّ البتول**".

أوّلاً- "**بالعلّيقة المتوقدة بالنار وهي لا تحترق**" (خروج ٣: ٢)؛ كذلك البتول فإنّها أشبه شيء بزجاج تخترقه أشعّة الشمس فتنشر من خلاله الدفء والحياة ولا يتحطّم ولا يتلوّث.

ثانيًا- بالجبل الذي انقطع منه حجر "**باليدين**" (دانيال ٢: ٣٤) فسحق أبواب الجحيم. كذلك البتول التي تلد ولادة عجائبيّة بكلّ معانيها.

وهناك تصريح أشعيا النبيّ: **"ها إنّ العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عمّانوئيل"** الذي تفسيره الله معنا (أشعيا ٧: ١٤). هكذا يعلنها النبيّ صريحة **"أمّ وبتول"**.

شروط عقد الزواج

ولقد ضمّ علماء الكنيسة أصواتهم إلى القدّيس توما فقرّروا أنّ مريم ويوسف عقدا زواجًا حقيقيًّا ثمّ صمّما على الحرمان من ممارسة حقّ الزواج. وقد عرّف علماء الدين الزواج: عقد بين رجل وامرأة يهب أحدهما الآخر حقًّا دائمًا لأعمال من شأنها إيلاد البنين وتربيتهم. هذه هي الغاية الأولى من سرّ الزواج وعقده. أمّا العيشة المشتركة والعون المتبادل فهما غايتان ثانويّتان مكمّلتان للزواج. ويستطيع الزوجان أن يعرضا عن استعمال حقّ الزواج بتصميم مشترك أبدًا أو لمدّة ما، بواسطة نذر العفّة دون أن يمسّا بحقوق الزواج الصحيح.

هذا ما فعلته مريم بالاتفاق مع يوسف؛ ارتبطا برباطات زواج حقيقيّ ولكنّهما عقدا العزم على البتوليّة. وأجمل وأسمى ما في الزواج أن يقوم على ارتباط النفوس والقلوب. إنّها علاقات تدوم مع الحياة. أمّا ارتباط الحواس والأجساد فإنّها من الأمور التي يستطيع الإنسان أن يستغني عنها أو أن يضحّي بها في سبيل الله أو سبيل أيّ مبدأ شريف آخر. ومن المسلّم به أنّ مريم أصبحت أمّ يسوع بقوّة وفعل الروح القدس.

ثلاثة اعتراضات

وإنّ آباء الكنيسة ومعلّميها بيّنوا معنى العبارة: إنّ مريم **"وضعت ابنها البكر"** أيّ ابنها الأوّل. وهذا تؤيّده التقاليد الشرقيّة الراهنة. وقد وجدت بين العاديّات كتابة نقشت على حجر جاء فيها بأنّ إحدى النساء ماتت على أثر ولادتها ابنها البكر. فالولد البكر إذًا يعني الولد الأوّل الذي لم يسبقه آخر. فيسوع هو ابن مريم الأوّل البكر.

وأمّا عبارة **"ولم يعرفها حتّى ولدت ابنها البكر"** فلا تعني أبدًا أنّ يوسف عرف مريم بعد ولادتها يسوع. وتدلّ القرائن دلالة قاطعة إلى أنّ **"الصدّيق"** لم يكن من مجموعة الناس العاديّين. ألا يتبيّن من الأناجيل المقدّسة ذاتها أنّه بطل في تجرّده وعفافه وصبره وتفهّمه؟ أفما رأى العجائب والغرائب في ميلاد المسيح؟ عبثًا يحاول البعض أن ينزعوا من العبارة غير ما يريد كاتبها. إنّ معناها الصحيح يتّضح من قراءتها السليمة: إنّ يوسف لم يعرف مريم حتّى يوم ولادتها. لأنّ الكاتب كان يريد أن يبيّن واقع الحبل الإلهيّ دون أن يهتمّ بما يعقب ذلك. فالعبارة إذًا تدلّ على بقاء وضع راهن حتّى الوقت المعيّن ولا تحتوي على فكرة تغيّر هذه الحالة فيما بعد.

أمّا عبارة **"إخوة المسيح"** التي وردت في إنجيل القدّيس متّى في الفصل الثّانيّ عشر فتتّضح من اللغات والتقاليد الشرقيّة أيضًا، فهي تعني أولاد العمّ والخال أو أولاد العمّة أو الخالة أو فقط أحد الأقارب.

هكذا يسمّي الكتاب المقدّس لوطا أخا إبراهيم (تكوين ١٣: ٨ و١٤؛ ١٢: ١٤، ١٦) ولابان أخا يعقوب (تكوين ٢٩: ١٠، ١٥). ومَن يراقب عن كثب يلاحظ بأنّ هؤلاء

المدعوّين إخوة للمسيح لا يقال عنهم قط أنّهم أولاد مريم أو أولاد يوسف. ولقد اعتدنا ونحن نتكلّم اللغة العربيّة أن نقول لكلّ امرأة أو رجل **"يا خالتي"** أو **"يا خالي"** **"يا عمّتي"** و**"يا عمّي"**؛ ولكلّ إنسان من عمرنا **"يا أخي"** أو **"يا أختي"**. وقد سمعنا مرارًا آباءنا يقولون لنا: اذهب إلى فلان وقل له يا عمّي، والدي يبغي مواجهتك.

دليل الكتاب

ويؤيّد الكتاب كلّ التأييد تعاليم وإيمان الكنيسة بشأن الدائمة البتوليّة. هذان القدّيسان متّى ولوقا يقولانها صريحة. فالملاك جبرائيل يحيّيها عذراء ويبشّرها بأنّ الحبل يتمّ بقوّة العليّ. وأشعيا النبيّ في الفصل السابع يتكلّم عن **"عذراء تحبل وتلد"**.

دليل الآباء

وجاء آباء الكنيسة بتصاوير ورموز عديدة يوضحون بها إيمانهم بالدائمة البتوليّة، فيقولون مثلما أنّ المسيح خرج من القبر دون أن يمسّ أختامه الموصدة ومثلما دخل على التلاميذ الأطهار والأبواب مغلقة ومثلما أنّ شعاع الشمس يخترق البلّور دون أن يحطّمه، كذلك خرج المسيح بصورة عجيبة جدًّا من بطن أمّه دون أن يمسّ بتوليّتها بأذى.

أمّا القديس أغناطيوس من أنطاكية تلميذ الرسل فيكتب في الجيل الأوّل للميلاد: **"أعظّم يسوع المسيح ابن الله الذي وُلد حقيقة من العذراء"**.

والقدّيس يوحنّا الدّمشقيّ يقول: **"إنّ مريم كانت وحدها دون سواها دائمًا بتولاً بعقلها ونفسها وجسدها"**.

وقال القدّيس كيرلّس الأورشليميّ: **"لقد شاء أن تحبل به عذراء ذاك الذي جاء إلى الأرض ليبدع فيها نفوسًا عذراء"**.

دليل الطقس

والكنيسة البيزنطيّة في طقس المدايح تشيد ببتوليّة مريم الدائمة بعبارات تكرّرها بالفخر والفرح:

"السلام عليك يا مَن شاهدها رئيس الملائكة كتابًا للمسيح ختمه الروح.
السلام عليك أيّتها العذراء عروس الله يا منـزّهة عن كلّ عيب.
السلام عليك يا مَن لم تختبر زواجًا وبها تألّهنا.
السلام عليك يا والدة الإله النقيّة، الكاملة الغبطة الدائمة البتوليّة.
السلام عليك يا مَن هي وحدها في النساء جميلة بلا عيب.
اقبل اللهمّ استعطاف التي حبلت بك على الأرض بلا زرع.
السلام عليك يا عروسة لا عروس لها".

مثال جذّاب

بالحقيقة لم يكن لائقًا بالله أن يولد إلاّ من عذراء لا دنس بها.

وبذلك أصبحت مريم العذراء منذ ألفي سنة مثالاً حيًّا لملايين من الكهنة والرهبان والراهبات والمتعبّدين الذين قدّسوا الطهارة فجعلوها لهم مبدأ حياة وعبادة. وإنّ مريم البتول تهيب بالمسيحيّين بدافع حبّها لهم- والمحبّة تشبّه واقتفاء- أن يقدّس الطهارة كلّ حسب حالته. إلى هذا الكوثر الصافيّ ترد كلّ نفس رفيعة عطشى إلى النور والحياة والحقيقة فترتوي.

وأجمل ما في الأمر أنّ مريم جعلت بتوليّتها مثالاً حيًّا للبطولات الصامتة.

قصّة

أذكر أنّي بينما كنت يومًا في طريقي من مدرسة "**القدّيسة حنّة**" إلى كنيسة القيامة عرّجت على كنيسة لراهبات صهيون لزيارة القربان المقدّس. هذه الكنيسة شُيِّدت على المكان الذي فيه كُلّل المسيح بالشوك وجُلد وحُكم عليه بالموت في دار بيلاطس. ولمّا دخلت الكنيسة وجدت إحدى الراهبات تقوم بتزيين الهيكل. فوضعت عليه باقات من الزهور المختلفة الأشكال والألوان في آنية ثمينة لا تقلّ زخرفة وجمالاً عن الزهور ذاتها. وسرعان ما انتقل انتباهي إلى الراهبة ذاتها. فإنّها كانت كلّما مرّت أمام بيت القربان المرفوع على الهيكل تطأطئ رأسها جاثية على ركبتيها كأنّها أمام مصوّر يلتقط بعدسته حركاتها، أو أنّها في يوم نذورها. وأخيرًا انحصر كلّ انتباهي بيدها حينما رأيتها تعود حاملة كاسًا صغيرة فيها بنفسجة ضُمّت إلى ورقة خضراء واحدة، فوضعتها وراء بيت القربان. حينئذ شعرت بحافز خفيّ يدفعني لأسألها: ما معنى هذه الزهرة بعد أن زيّنت الهيكل بزهور لا تحصى. فأجابت هذه الزهور تقع تحت أنظار كلّ مَن يدخل الكنيسة فيشاركون المسيح برؤيتها. أمّا هذه البنفسجة فلا يراها إلاّ هو وحده. أكرّم بها نفسًا عظيمة في تقواها! لقد جعلت لربّها بنفسجة رمز حبّها وتأبى أن يشاركه فيها أحد.

أليست الطهارة أيضًا هي بنفسجة من مجموعة الفضائل؟ إنّ أعمال الإنسان في خدمة ربّه يراها الله والبشر. أمّا الطهارة فهي الفضيلة التي اختفت عن أعين البشر وتجلّت لعين الله. فهو وحده يرى تلك البطولات الصامتة التي تبذل يوميًّا في حلبة الجهاد. هذا والطهارة ليست امتناعًا عن الزواج أو عن أعمال محرّمة فحسب بل هي فضيلة حبّ تدفع الإنسان ليكون بكلّيته لله. "**إنّ المتزوّج يهتمّ بزوجته أمّا البتول فيهتمّ بما لله**" (كورنتس الأولى ٧: ٣٣).

ضرورة عقد الزواج

أمّا عقد زواج مريم على يوسف فكان ضروريًّا لأسباب عديدة:

أوّلاً- وقت نفسها ويسوع ابنها من قدح الناس والمسّ بشرفها.

ثانيًا- ضمنت لنفسها حاميًا لبتوليّتها.

ثالثًا- وجدت لها وليسوع سندًا وذودًا.

رابعًا- شرّفت بذلك الحالة الزواجيّة إذ أضحت مثالاً حيًّا للمتبتّلين وللمتزوّجين معًا.

وفي ثاوطوكيون اللحن السابع للقيامة تنشد الكنيسة للبتول مؤكّدة بتوليّتها الدائمة: "**بما أنّك كنز قيامتنا يا جديرة بكلّ تسبيح انشلي الواثقين بك من قعر جبّ الزلاّت فإنّك أنت خلّصت الحاملين تبعة الخطيئة بولادتك الخلاص. يا مَن هي قبل الولادة عذراء وبعد الولادة عذراء**".

١١
الأمّ الإلـهيّة

لكي نفهم معنى "**الأمومة الإلـهيّة**" علينا أن نجرّدها من معناها الخاصّ بشخص مريم. لأنّ كلمة الله لم يتجسّد قبل كلّ شيء ليفيض على نفس مريم وابلاً من النعم بالرغم من أنّها أعزّ الخلائق عليه، ولكنّه تجسّد من أجل البشر أجمعين: "**من أجلنا ومن أجل خلاصنا نزل وتجسّد**". والأمومة الإلهيّة في ترتيبها الصحيح وفي نطاق خلاص البشر ليست إلاّ إحدى الوسائل المؤدّية إلى سرّ الخلاص.

أمّا السبب الذي أراد به الله أن يتّخذ هذه الوسيلة ولم ينـزل الكلمة من السماء بجسد صنعه الله كما فعل حينما جبل بيديه جسم الإنسان الأوّل آدم (تكوين ٢: ٣) وآثر أن يولد على الأرض بجسم يتّخذه من امرأة (غلاطية ٤: ٤) ذلك لأنّه أراد أن يكون من السلالة التي جاء يخلّصها، يخلّصها بإصلاح ما فسد فيها من الداخل وليس كمَن يتطلّع إليها من علُ أو يرمي إليها بالحسنة؛ ليس تخليص الغريب للغريب ولكن تخليص الأخ للأخ. وهكذا بشر كامل من سلالة البشر جاء يخلّص البشر. وإله كامل ومن سلالة الإله المهان يعيد لله مجده المنتقص. فهو إذن وسيط كامل يجمع في ذاته الفريقَيْن المتخاصمَيْن.

تقتصر رسالة مريم جوهريًّا على أن تربط بين المخلّص والجنس البشريّ. فمريم ليست غاية في ذاتها ولكنّها واسطة في سرّ التجسّد. لأنّ الذي نزل على الأرض "**لم يأتِ ليدعو صدّيقين بل خطأة**" (مرقس ٢: ١٧) والذي يترك الخراف الأمينة ليذهب وراء الخروف الضالّ (متّى ١٨: ١٢) لم يأتِ أوّلاً ليوفّر للبتول الفرح الناتج لها عن كونها البريئة من دنس الخطيئة الأصليّة ولكنّه جاء لخلاص العالم.

وأمّا أن تكون مريم واسطة فهذا لا ينقص شيئًا من مقامها الساميّ. فلا يجوز أن نعتبرها محض واسطة تقوم بوظيفتها ثمّ يُستغنى عنها استغناء الكاتب عن الريشة التي يستخدمها مدّة ثمّ يرمي بها وينبذها نبذ النواة.

وقد هيّأ الله لتلك الواسطة كلّ الأسباب التي جعلت منها أفضل خليقة. وفي عالم الوجود لا يفوقها مجدًا وقداسة إلاّ الله وحده. ويكفي أن نعود إلى الوقائع لنفهم المعاني السامية التي اشتملت عليها تلك الأمومة. فإنّها أمومة مقدّسة، إلهيّة، فريدة من نوعها، عذراء، إجتماعيّة.

أوّلاً- أمومة مقدّسة

إنّها لأقدس الخلائق قاطبة ليس فقط لأنّ الله **"عمل بها عظائم"** (لوقا ١: ٤٩) بل **"لأنّها آمنت"** أيضًا (لوقا ١: ٤٤). فمن جهة الله لقد أفاض عليها كلّ النعم وبنوع يفوق كلّ قداسة القدّيسين. وقد تدخّل في الأمر بطريقة عجائبيّة. أمّا من جهة العذراء فإنّها تفتح قلبها على مصراعيه للرسالة السماويّة ليعمل الله بها ما يشاء. ويتبيَّن لنا ذلك من دراسة قريبة لتلك الوقائع:

١- مقدّسة من جهة مريم: إنّ التي يرسل إليها الله ملاكه هي قدّيسة: **"إنّها ممتلئة نعمة"** (لوقا ١: ٢٨) وهي لذلك موضع عطفه ومحبّته. ونحن نعلم أنّ ذلك العطف وتلك المحبّة حملا الله على أن يصونها من دنس الخطيئة الأصليّة وأن يفيض عليها تمام النعم. وأنّ مريم تعيش في حالة من القداسة: إنّها عذراء (متّى ١: ١٨، ٢٣. لوقا ١: ٢٧) وإنّ طهارتها من صنع إرادتها وموضع نذر (لوقا ١: ٣٧). وهذه الطهارة تحقق للقداسة شرطها الأساسيّ لأنّها ابتعاد عن الخلائق وتجرّد عن الدنيا غايته الإنتساب تمامًا بالنفس والجسد إلى الله. وأخيرًا إنّ العمل الذي تفتتح به نفسها لله هو مقدّس إذ أنّه صادر عن إيمان وطاعة وتواضع (لوقا ١: ٣٨).

وهكذا يبدو لنا حادث البشارة، بعد أن ألقينا الأضواء الكشّافة على الأعمال، نتيجة طبيعيّة لقداسة مريم الكاملة. وهكذا أيضًا تبدو قداسة مريم بعد أن تمّ الحبل بها بالكلمة وما يكسبها ذلك من نعمة، ليس إلاّ امتدادًا لقداسة حياتها السابقة للبشارة. وفي الواقع أنّ أمومة مريم الإلهيّة هيّأت لها بإيمانها حتّى إذا وافت الساعة كانت على أتمّ الإستعداد لتتقبّل رسالة السماء وتستوعب بذلك الإيمان كامل إرادة الله. وقد جعل الإيمان عملها استحقاقيًّا إذ أنّها بمطلق إرادتها قبلت عرض الملاك جبرائيل. هكذا يتّضح أنّ أمومة مريم هي نتيجة إيمانها ومكافأة لذلك الإيمان بل إنّها الشعاع المنطلق والثمرة الناتجة عن ذلك الإيمان.

بالطبع إنّ ما حدث يوم البشارة عند تجسّد الكلمة في حشا البتول كان الله قد هيّأ له مدّة آلاف السنين. ولنا صورة عن تلك التهيئة في العهد القديم. كما وأنّه قد هيّأ له من قريب جدًّا حينما حفظ نفس البتول من دنس الخطيئة الأصليّة وما رافق تلك الصيانة من تدرّج روحيّ نحو كمال القداسة. وبالطبع نحن لا نجهل أنّ تلك النعم مجّانيّة لسببَيْن: أنّ الله هو مانحها وهو الذي يعمل على انتشارها وعلى استثمارها.

٢- مقدّسة من جهة الله: إنّ قداسة حادث البشارة يفوق كلّ آمال البشر. وقد قرّر الله أن يقطع سلسلة مواعيده مع البشر ويجعل حدًّا لآمالهم ويرسل فجأة ملاكه على الأرض ليحمل أقدس البشائر. الروح القدس هو الذي يقوم بالعمل: **"الروح القدس يحلّ عليك"** (يوحنّا ١: ٣٥). ومعروف من الكتاب أنّ مهمّة التقديس تعود للروح القدس. وتدخل الروح هنا فريد من نوعه وعجائبيّ. فهو الذي يعوّض بشكل فائق الطبيعة عمّا يعود للبشر في النظام المقرّر. وهكذا تتحوّل مريم إلى هيكل مقدّس بل إلى قدس الأقداس الحقيقيّ الذي سبق ورمز إليه قدس الأقداس الموسويّ. وقد أُحيط حادث البشارة بهالة من القدسيّة أيضًا هو أنّ العليّ يظلّلها: **"قوّة العليّ تظلّلك"**. فتحقّق للبتول رغبتان عزيزتان: الرغبة في أن تصبح أمًّا فلا تقف عائقًا في طريق مجيء مخلّص العالم

والرغبة في القداسة التي كانت بها قد كرّست نفسها بالتمام والكمال لله. ولكنّ تتميم هاتين الرغبتين كان أكثر ممّا يستطيع أن يتوقّعه بشر بل أنّ العذراء نفسها لم تكن لتتوقّعه.

ثانيًا- أمومة إلهيّة

ونريد بذلك أنّ الله هو مثالها ومبدؤها وغايتها.

١- إنّه مثالها. بمعنى أنّ أمومة مريم لم تُدع أمومة إلهيّة إلاّ لأنّها على مثال الأبوّة الإلهيّة. فقد جعل الله من البنوّة البشريّة للكلمة صورة لأبوّته الإلهيّة. وهذا هو الدافع للإمتيازات الفريدة التي جمّل بها الأمومة الإلهيّة. فقد وهب مريم قداسة كاملة حتّى تكون شبيهة بالآب السماويّ. فأراد أن تكون ولادة الكلمة الزمنيّة عذريّة على صورة الولادة الأزليّة. وإنّ ابن الآب وابن مريم ليسا ولدين بل ولد واحد وهو الشخص نفسه الأقنوم الثّاني من الثالوث الأقدس المتجسّد في حشا البتول. وهنا وجه التشابه الأساسيّ بين هاتَيْن الأبوّتَيْن.

٢- إنّ الله هو مصدر هذه الأمومة الإلهيّة. لأنّ المولود منها إنّما هو من الروح القدس. وهي أقرب الوجوه شبهًا بالميلاد الثّانيّ الذي فيه الإنسان يولد بالعماد للحياة الروحيّة الأبديّة. فهو ليس من مشيئة لحم ولا من تقرير بشر وإنّما من الإيمان والروح القدس وأنّ: **"الكلمة صار جسدًا وحلّ فينا"**.

٣- إنّ الله هو غاية هذه الأمومة. فالعذراء ليست فقط أمًّا بإرادة الله ولكنّها أمّ الله. وهذا هو السبب الجوهريّ الذي سمح باستعمال عبارة **"أمومة إلهيّة"**. فإنّ الله يتدخّل في الأمر ليجعل من العذراء صورة شبيهة بالأبوّة الإلهيّة حتّى يجعلها أهلاً لابنها وكفوءًا لرسالة المخلّص.

وهكذا نلتقي مع الفكرة التي انتهى إليها القدّيس كيرلّس الإسكندريّ: إنّ مريم ليست والدة اللاهوت وإنّما والدة الابن الذي هو الله. وبالتالي ليست أمّ بشر اتّحد بالله ولكنّها أمّ بشر هو شخصيًّا ابن الله منذ البرهة التي تمّ فيها الحبل. ولا شيء يحطّ من مقام مريم ألاّ تكون أعطت ابنها الطبيعة الإلهيّة والشخصيّة الإلهيّة. فكلّ امرأة أمّ، في النظام الطبيعيّ القائم، لا تعطي ولدها النفس والشخصيّة، ومع ذلك فهي أمّ حقيقيّة له. أعني أمّ الشخص وليست فقط أمّ الجسد. كذلك مريم ليست أمّ جسد يسوع فقط ولكنّها والدة الشخص الموجود في هذا الجسد وهذا الشخص هو إلهيّ. وننتهي إلى العبارة التالية: مريم ليست أمّ جسد يسوع فحسب ولكنّها أيضًا أمّ يسوع الإله.

ثالثًا- أمومة فريدة من نوعها

إنّ العلاقة القائمة بين الله ومريم هي الأساس في أمومة مريم الإلهيّة وهي التي رفعتها فوق جميع الخلائق. بالطبع إنّها أبعد ما تكون عن العلاقات القائمة بين الأقانيم الثلاثة. فإنّ تلك العلاقات في جوهرها إلهيّة. وبعيدة جدًّا عن العلاقة القائمة بين الكلمة وناسوته أو بين المسيح وأشكال الخبز والخمر التي يتحوّل إليها المسيح بكلام التقديس. ومع ذلك فهي أشرف علاقة يمكن تحقيقها بين الخليقة والخالق بل هي أقرب العلاقات

التي تجمع بين شخصيّة إلهيّة وشخصيّة بشريّة. وإليها يعود أن تكون مريم أشرف الخلائق. وتلك العلاقة أشبه شيء بما يطبعه العماد في نفس المسيحيّ. إنّه وسم لا يُمحى يضمّنا إلى المسيح ويجعلنا أبناء الله ويستحقّ لنا رضاه ونعمته مع بعض الفوارق:

١- إنّ مريم بأمومتها تصبح أمّ الله بينما بالعماد يصبح المعمّد ابن الله.

٢- إنّ العماد يبقي الإنسان خاضعًا لله وأمّا الأمومة الإلهيّة فقد جعلت المسيح خاضعًا لأمّه. ويشهد على ذلك القدّيس لوقا **"وكان خاضعًا لهما"** (٢: ٥١). بالطبع هذه الصفة المميّزة للعذراء بالنسبة إلى ابنها ليست إلاّ شرفيّة فقط. لأنّ المسيح لا يمكن أن يعتبر أقلّ من العذراء بشيء، أمّا بالنسبة للمعمّدين فهي أرفع بكثير.

٣- إنّ الأمومة الإلهيّة تستند إلى ولادة حقيقيّة بينما يستند طابع العماد إلى البنوّة الروحيّة فقط.

٤- إنّ المعمّد يصبح ابن الله بسبب سرّ التجسّد. أمّا الأمومة الإلهيّة فهي مشاركة ومساهمة في إتمام هذا السرّ. وبالتالي إنّ المعمّد يصبح بالعماد شبيهًا بابن الله بالتجسّد بينما العذراء هي التي جعلت المسيح شبيهًا بالطبيعة البشريّة.

على أنّه من الخطأ الجسيم اعتبار الأمومة الإلهيّة عاملاً يزيد أو يتمّم شيئًا في الألوهيّة. كلاّ! إنّ الله كامل في كلّ صفاته ولا يحتاج إلى غير نفسه ولا تستطيع خليقة مهما سمت أن تزيد على جوهره شيئًا. غير أنّ الخليقة تفيد من علاقاتها بالله وأمّا الخالق فلا يفيد شيئًا. حتّى إنّ اتّحاد الكلمة بجسده لا يفيد منه إلاّ طبيعة المسيح البشريّة. أمّا شخص المسيح فلا يفيد من هذا الاتّحاد شيئًا.

رابعًا- أمومة عذراء

ومعنى ذلك أنّ المسيح المولود أزليًّا من الآب السماويّ وُلد ولادة زمنيّة من البتول شبيهة بالولادة الأزليّة. وإنّ المسيح الذي يعلّق أهميّة خاصّة على الطهارة لم يشأ أن يهدم بولادته شيئًا من طهارة العذراء. وأخيرًا إنّ براءة مريم من الخطيئة الأصليّة لم يصنها من الخطيئة فقط ولكن أيضًا ممّا ينتج عن تلك الخطيئة في النفس والجسد. فالعذراء لم تعرف أوجاع الولادة ولا فساد القبر إذ أنّها من العقوبات التي أنزلها الله بالخطيئة الأصليّة (تكوين ٣، ٦، ١٩). فبقاء مريم طاهرة كانتقالها إلى السماء ما هما إلاّ سرّ بقائها سالمة الجسد في الحالتين. سرّ ينجم عن أمومتها الإلهيّة.

خامسًا- أمومة إجتماعيّة

هو القدّيس أغوسطينوس الذي جمع في عبارة واضحة معنى هذه الأمومة: **"إنّ والدة رأس الجسم السرّيّ هي في الوقت نفسه والدة الأعضاء"**. بالطبع إنّ المسيح لا يصبح رأس هذا الجسم السرّيّ بالمعنى الكامل إلاّ بعد أن يستحقّ للمجموعة البشريّة الخلاص بآلامه. كذلك مريم لا تتحوّل أمًّا للبشر إلاّ تدريجيًّا وبمدى تحمّلها ومشاركتها في آلام المسيح. ولكنّ البشارة تهبها الصفة الأساسيّة التي تدعوها لتصبح أمّ البشر.

إنّ أمومتها هي حبّة الخردل التي أُلقيت في الأرض وعنها سوف تنشأ الكنيسة. ذلك أنّ الكنيسة تنشأ من اتّحاد مريم العذراء بابنها الإلهيّ ومن اتّحاد الله بالإنسان والمخلّص بالمخلَّصين. وهكذا تبدو العذراء في أساس هذا المجتمع الدينيّ الذي هو كنيسة المسيح: كنيسة واحدة تجمع بين الابن والأمّ، كنيسة مقدّسة تجمع بين مصدر كلّ قداسة وكلّ نعمة والشفيعة الوسيطة في توزيع فيض القداسة والنعم.

١٢
ممتلئة نعمة
(لوقا ١: ٢٨).

إنّ مجموعة النعم التي تحلّت بها نفس العذراء مريم تعود إلى أنّها والدة مخلّص العالم. فلمّا جاءها الملاك جبرائيل يبشّرها بالحبل الإلهيّ ناداها بالمرادف لاسمها: **"السلام عليك يا ممتلئة نعمة"**.

فنرى لزامًا علينا أن ننعم النظر في تلك المجموعة السامية من النعم والبركات التي جذبت إليها أنظار العليّ أو بالحريّ تلك الصفات الجلّى والخلال السامية التي زيّن الله بها شخص مريم قبل أن يحلّ **"كلمته"** في حشاها.

النعمة المبرّرة

إنّ النعم التي نالتها هي هبات مجّانيّة أسداها لها الله، بها استطاعت أن تشترك في طبيعته وفي حياته الداخليّة. والنعمة هي أسمى وأجمل من كلّ صفة طبيعيّة مهما كانت رائعة. حتّى إنّ أدنى درجة من درجات النعمة المبرّرة هذه في نفس طفل حصل عليها بالعماد المقدّس تفوق كثيرًا خيرات الدنيا مجتمعة.

نعمة البراءة

فمريم بطبيعتها وبكمال عقلها وقوّة إرادتها ودقّة شعورها تحفة من تحف الخالق. وبفضل تنـزّهها عن وصمة الخطيئة الأصليّة ونتائجها المشؤومة تسمو عن الدنايا والميول المنحطّة. وقد كان الجسد فيها خاضعًا للنفس. والتوازن كاملاً لا يعرف الإضطراب والفوضى.

فمريم إذًا **"ممتلئة نعمة"** لأنّها لم تخضع خضوع سائر البشر للميول السافلة التي تسلّطت على الإنسان وملكت عليه نفسه بسبب ابتعاده عن خالقه.

والنعمة هذه أشبه شيء بنهر يتفجّر من قلب الله فينقله المخلّص باستحقاقاته إلى نفوس البشر ثمّ يعود النهر فيرتدّ إلى الله بشكل استحقاقات وصلوات وتضحيات ارتداد المياه إلى المحيط الواسع الذي تبخّرت منه.

كمال النعمة في المسيح

أمّا كمال النعمة هذا فهو مطلق في نفس المسيح وغير قابل للإزدياد أو النموّ. لأنّ نفس المسيح منذ أوّل لحظة اتّحدت **"بالكلمة"** وبسبب ذلك الاتّحاد تمتّعت بأنوار المجد وبرؤية الله الخالق.

تزايد النعمة في نفس مريم

بينما كانت النعمة في نفس مريم قابلة للنموّ والإزدياد حتّى ساعة انتقالها. وعلى هذا الأساس ميّز علماء اللاهوت مراحل ازدياد النعمة في نفس مريم كما يلي:

أوّلاً- لدى الحبل بها.

ثانيًا- لدى حبلها هي بالمخلّص.

ثالثًا- لدى دخولها المجد السماويّ.

في كلّ من هذه المراحل كانت نفس مريم تكتسب كمالاً جديدًا فائضًا.

وأجمل ما نتبيّن من الكتب الروحيّة على الإطلاق القاعدة السامية القائلة: بأنّه ليس من نعمة وهبها الله لبشر لم تحصل عليها مريم سواء أكانت النعمة مماثلة أم أكثر كمالاً.

هذا وأنّ ظروفًا عديدة ساعدت بالإضافة إلى المراحل الثلاث الكبرى على ازدياد النعمة في نفس مريم.

ففي ميلاد المسيح نمت وكبرت فيها فضيلة التواضع ومحبّة الفقر ومحبّة الله.

وفي تقدمة المسيح للهيكل بينما كان سمعان الشيخ يمزّق بنبوءاته عن المسيح غشاء المستقبل ويكشف تارة عن مجد المسيح وتارة عن الخنجر الذي سيطعن قلب مريم التي كانت تزداد إيمانًا بالله وبالمخلّص وخضوعًا لمّا يخبّئ لها المستقبل ما دام هذا المستقبل خطّته أصبع الله.

وفي الهرب إلى مصر تشارك مريم يسوع ابنها في آلامه فيزيدها ذلك نعمة أيضًا.

وفي حياة الناصرة تزداد فيها حياة النعمة بسبب قربها من المسيح وخدمتها له وإرضاعه ومداعبته وتربيته.

ولكنّ النعمة ازدادت بنوع خاصّ حينما وقفت عند أقدام الصليب تقدّم ذبيحة حياتها مع ذبيحة حياة نجلها. لقد شعرت مع المسيح وهو يهرق آخر نقطة في سبيل كلّ خاطئ.

وأخيرًا ازدادت فيها النعمة حينما حلّ الروح القدس عليها وعلى الرسل الأطهار في يوم الخمسين أيّ يوم العنصرة.

وسوف نعالج كلاً من هذه المراحل بالتفصيل في مكانها من هذا الكتاب.

الإنسان عرضة للسقوط

أمّا الآن فنحصر كلامنا فيما فعلته مريم من جهّتها تجاوبًا مع هبات الله المجّانيّة لها.

تمرّ على كلّ إنسان ساعات يصحو فيها بعد غفوة وينهض بعد كبوة وينتصب ضميره له حاكمًا. والحاكم المطّلع بكافّة واجباته يوبّخ ويؤنّب تارة وينصح ويرشد تارة أخرى. فيسمع الإنسان في أعماق نفسه صوت ذلك الحاكم المنصف يصوّر له ما هوت إليه أخلاقه وما زلّت إليه القدم. ويشعره حينئذ بسوء العاقبة التي انحدر إليها وهول المصير

الذي ينتظره. فيتململ الإنسان وينتفض انتفاضة الطير الذي بلّله القطر. والطير من طبعه أن يحلّق وأن يغرّد على الأغصان فإذا به مبلّل الجناح، لا يستطيع إلى الطيران سبيلاً. وما يزيد الإنسان أسفًا وكمدًا أن يرى أثواب غيره نقيّة، ناصعة البياض فيزداد لوعة وينتابه الغمّ والأسى.

ولقد شعرت بعض النفوس بألم أشدّ حينما بدت لها ملائكة الله بين الخلائق ترفرف دومًا حول الحمل لا يهيض لها جناح ولا تتلوّث لها قدم.

ونحن قد وقفنا مرارًا في الحياة ننظر بإعجاب إلى الأمّ السماويّة ومع الإعجاب تخالج نفوسنا فكرة حسد لتلك التي خصّها الله ببحر من النعم زخرت بها نفسها فحالت دونها ودون عالم الخطيئة والدنس.

لم تتقاعس مريم عن العمل

وعند هذا نتساءل هل عاشت مريم على الهبات والعطايا؟ وبالتالي هل اكتفت بنعم الله وتقاعست عن العمل وراحت تنتظر حسن المكافأة؟ وبمعنى آخر هل فرض علينا الجهاد والتعرّض للتعثّر والسير في طريق انتشرت من حولها الأشواك، بينما زرعت طريق مريم بالورود والزنابق وصفت لها الأيّام من العواصف والمحن؟

كلاّ بالطبع إنّ مريم تلقّت الكثير من الوزنات ولكنّها لم تقعد عن العمل، بل تاجرت بها وأعادت إلى الله أضعاف ما نالت. فاستحقّت بذلك فخر **"العبد الأمين"** وفرح المجد السماويّ.

مارست جميع الفضائل

ولقد مارست جميع الفضائل بشكل بطوليّ. أحبّت الله فوق كلّ شيء. وكان حبّها له يفوق جميع ما يسمو إليه البشر المؤمنون به حتّى والقدّيسون والشهداء. ذلك لأنّ نفس مريم هيكل مقدّس حفل بجميع الصفات التي جعلت منها أفضل عابد لله يقف نفسه على خدمته. ومن المسلّم به أنّ الله يتمجّد بعمل واحد يقوم به موهوب أكثر ممّا يتمجّد بعشرة أعمال صادرة عن شخص تافه. كما أنّ الله يتمجّد بصدّيق بلغ الكمال أكثر ممّا يمجّده مئات من العباد الفاترين والمتردّدين في العبادة. في عالم الروح صفة العمل تفوق قيمة الكميّة والعدد.

وعلى هذا كانت استحقاقات مريم أكثر كمالاً. فإنّ قلبها كان يزداد كلّ يوم توسّعًا وتعمّقًا لاستيعاب إرادة الله ورغائبه والعمل بها.

وبما أنّ مريم عاشت دائمًا في حال النعمة وبما أنّ عقلها لم يُظلم بالخطيئة وإرادتها سعت دائمًا إلى الخير الأسمى فقد كانت جميع أعمالها صالحة وأهلاً للمكافأة.

وهكذا كانت فضيلتا الإيمان والرجاء تزدادان كلّ يوم كمالاً في حياة العذراء مريم.

فضيلة الإيمان

أمّا الإيمان فكانت ترفده ثلاث من مواهب الروح القدس الحكمة والفهم والعِلم. ولذلك كان إيمانها عميقًا، حازمًا، وثيقًا وسريعًا.
وفي كلّ حادث مهمّ من الأحداث التي مرّت على مريم يظهر هذا الإيمان على جليّة وضعه: ففي البشارة كان إيمانها سريعًا لا يتحمّل أيّ تردّد: "**ها أنذا أمة الربّ فليكن لي حسب قولك**".
وحينما استقبلتها نسيبتها القدّيسة أليصابات تقول لها: "**الطوبى للتي آمنت بما قيل لها من قبل الربّ**" نراها تجيبها "**بأنّ العليّ صنع بي العظائم**".
ولمّا وُلد الطفل يسوع، في المغارة والفقر المدقع يكتنفه والبرد الشديد يحيق به، لم تكفّ عن إيمانها بأنّه هو كلمة الله المتجسّد.
ولمّا فرّ من وجه الطاغية هيرودس كانت تؤمن كلّ الإيمان أنّه ملك الملوك وربّ الأرباب.
وفي طفولته ونعومة أظفاره حينما كان يبكي ويبرد ويجوع كانت تعتقد اعتقادًا راسخًا بأنّه الربّ القدير ومخلّص العالم.
وحينما تحمله إلى الهيكل في اليوم الثامن لإتمام الشريعة تؤمن به أنّه هو ربّ الشريعة.
وعلى الجلجلة وقفت عند أقدام الصليب وابنها معلّق عليه مؤمنة بأنّ الظفر لن يكون لليهود وإنّما سيحرزه ولدها آخر الأمر: "**إنّه حمل الله الرافع خطيئة العالم**".
ولعلّ أقوى فعل إيمان صدر عنها حينما وثقت به، وهو على الصليب، أنّه ينتزع أكبر إنتصار بأعظم تضحية.

فضيلتا الرجاء والمحبّة

أمّا فضيلة الرجاء فكانت تزداد وتتوسّع كلّما تقدّمت في السنّ ودنت من أيّامها الأخيرة. وقد استمدّت من تقواها حبًّا بنويًّا تمكّن من عواطفها كلّها فجعلها تشعر دومًا بأنّها ابنة الله (روما ٧: ١٦) وإنّها تستطيع أن تثق به وتتّكل عليه.
وبما أنّها كانت تعيش في حال النعمة فإنّ رجاءها وُجد دائمًا نشيطًا مستعرًا حرارة ونورًا. فلا شهوة منحرفة ولا رغبة فارغة ولا عمل طائش كان يستطيع أن يخفّف من سرعة انطلاقها نحو الله. أمّا غيرتها على خلاص النفوس فكانت تسمو مع تيّار ذاك الإندفاع الحثيث. وقد وضعت الكنيسة كلمة سفر الأمثال على لسانها: "**أنا أمّ المحبّة**" للدلالة على أنّ رغبتها في خلاص النفوس لا يضاهيها سوى حبّها لله بالذات.

حياة الصلاة والإختلاء

وقد ساعد على هذا النموّ المطرد في الفضائل الإلهيّة حياة الصلاة والإختلاء التي امتازت بها. وإنّ الصلاة تبلغ أقوى مفعول لها كلّما انبعثت من قلب وضيع، واثق بالله، أمين لا على المثابرة في طلب الأشياء الدنيويّة الفانية وإنّما على الإزدياد في الفضائل حسب قول المعلّم: "**اطلبوا أوّلاً ملكوت الله وبرّه والباقي يزاد لكم**". ولصلاة مريم

مقاييس هي تواضعها العجيب وثقتها بالله ومثابرتها على الأعمال الصالحة تبذلها عن سخاء وكرم. وكانت مريم بصلاتها الدائمة تنال من الله جميع النعم الحاليّة والفعّالة. وكان الله يهبها ذاته كلّ يوم أكثر فأكثر.

وهكذا استحقّت مريم أن تجلب إليها عطف الله فأسبغ عليها غزير النعم وعديد البركات. ولذا تنشد لها الكنيسة البيزنطيّة في إحدى صلواتها في ثاوطوكيون اللحن السادس: **"لقد استحققتِ مواهب عظيمة، يا أمّ الله البتول النقيّة، لأنّك ولدتِ بالجسد أحد الأقانيم الثلاثة، المسيح معطي الحياة لخلاص نفوسنا"**.

انطلاق سريع نحو الكمال

ونتساءل ما هي أسباب انطلاق نفس العذراء بهذه السرعة في طريق الكمال؟

والجواب المباشر عن الأسباب التي دفعت بمريم في انطلاقها السريع نحو الكمال هو أنّها لم تصطدم في طريقها بأيّ عائق يعرقل انطلاقها ويحول دون سيرها البطوليّ في طريق المثاليّة والقداسة. ولكنّ الذي جعلها تعدو عدوًا حثيثًا هو أنّ السرعة البدائيّة في نقطة الإنطلاق كانت قويّة جدًّا. ونعني بذلك النعمة المبرّرة الأوّليّة. وهي أشبه شيء بالأجسام التي تسقط من علُ، إذ تكون سرعتها متناسبة والبعُد والثقل. ومن المقرّر في عِلم الطبيعيّات أنّ الجسم الذي سرعته عشرون في الثانية الأولى تصبح أربعين في الثانية وستّين في الثالثة وثمانين في الرابعة وهكذا دواليك. والنفوس في انطلاقها نحو الله تزداد سرعتها كلّما قاربت الهدف، لأنّها تخضع حينئذ لجاذبيّة غايتها الله. وفي الحقيقة لا يحلّ الوهن بالإنسان عند تقدّمه في السنّ إلاّ في حواسه وفي مختلف أجهزته الجسمانيّة. أمّا الحياة الروحيّة وخاصّة في الأبرار فتراها تزداد قوّة ونشاطًا كلّما تقدّم الإنسان في السنّ بعكس السنوات الأولى من الحياة. إنّهم كالنسر الذي يجدّد شبابه (مزمور ١٠٢: ٥).

الوسائل الفعّالة

بقي أن نعرف ما هي الأسباب التي اتّخذتها مريم العذراء لتسعى نحو كمال القداسة؟ الجواب بالعمل الذي يستحقّ الثواب وبالصلاة وقبول الأسرار. وتزداد مريم حبًّا لله ليس من حيث الكميّة ولكن من حيث شدّة المحبّة. شأنها في ذلك شأن العِلم الذي يزداد رسوخًا بازدياد انعام النظر والتدقيق وشأن الحرارة التي تزداد توقّدًا وشدّة تدريجيًّا. لأنّ الأعمال الصالحة والصلاة والأسرار من غايتها أن تجعل الإنسان أكثر كفاءة وأهليّة لازدياد النعمة. إذ إنّ الإنسان يزرع والإنسان يسقي وأمّا الله فهو الذي ينمي (كورنتس الأولى ٣: ٦، ٩ وكورنتس الأولى ٩: ١٠). فبواسطة أعمالها الصالحة وصلواتها الحارّة واتّحادها بالله كانت مريم تتحوّل يومًا بعد يوم إلى إناء أكثر جدارة وكفاءة لقبول النعمة التي هي هبة مجّانيّة من الله. ولعلّه ليس من مقياس يستطيع أن يقيس حبّها لله في آخر أيّامها سوى كنـز النعمة الذي أفاضه الله على نفسها.

الجزء الثالث
لقاء القدّيسين

١٣
مغزى الزيارة لأليصابات

كان رئيس الملائكة جبرائيل أطلع مريم العذراء حينما بشّرها بالحبل الإلهيّ على أوضاع أليصابات.

وإنّ الخالة القدّيسة كانت قد تعرّضت لحالات صحّيّة خاصّة بسبب حبلها العجيب بالقدّيس يوحنّا السابق. فإنّ تقدّمها بالسنّ وخوفها الناتج عن فرحها بالجنين يفرضان عليها أن تتّخذ احتياطات كثيرة مشدّدة تسمح لها بشيء من الدلال أيضًا. على كلّ حال لقد وجدت مريم في الموقف الراهن واجبًا مقدّسًا وملحًّا.

فهبّت دون أن تستعدّ لهذا السفر الشاقّ الإستعداد اللازم، وجمعت حوائجها الضروريّة واتّجهت نحو عين كارم.

مريم تمتثل لإرادة الله

إنّ شعور مريم مرهف جدًّا. فكانت حسّاسة لأقلّ إشارة تصدر عن السماء. لقد فهمت من كلام الملاك جبرائيل بأنّ الله يدعوها لخدمة نسيبتها. وحيث أنّ الله يريد فهي تقرّر بسرعة وبدون تردّد. الطريق شاقّ. لا بأس. يكفي أن يكون الله قد تكلّم. لقد اعتادت أن تلبّي كلّ طلب دون إبطاء حينما يبدو لها أنّه من الله. لقد اعتادت الامتثال لإرادة الله منذ كانت في بيت والديها وتمرّنت على الإصغاء لإيحاءات روح الله فتقول لربّها مع صاموئيل: تكلّم يا ربّ فإنّ أمتك مستعدّة، ولو كلّفها ذلك مشاقّ السفر وعناء الخدمة. ثمّ أليست هي أيضًا تبحث عمّن تبوح له بسرّ قلبها، بفرحتها الكبرى؟ ذلك طبيعيّ. ومريم لا تعيش على هامش الحياة. إنّها بشر مثلنا.

"وفي تلك الأيّام قامت مريم، وانطلقت مسرعة إلى الجبل، إلى مدينة في يهوذا" (لوقا ١: ٣٩).

لقد تناست مريم بيتها وخطيبها حينما دعاها واجب المحبّة والخدمة. لا يحلو لها إلاّ أن ترى أليصابات سعيدة مبتهجة وأن تسمع منها قصّة الولادة المنتظرة السارّة وتشاطرها فرحتها الكبرى وحبورها العظيم: ولد عن شيخوخة.

قد يكون من السهل أن يشارك الإنسان الحزانى في أحزانهم. ولكن يشقّ كثيرًا على بعض الناس أن يشاركوا السعداء في سعادتهم، أن يفرحوا مع مَن آتته الدنيا أو مع مَن لمع نجمه أو كثر ماله. ولعلّك تلتقي بمَن يبحث عن القدر الأعمى أو الحظ السعيد ليعزو إليه نجاح الناجحين وتفوّق المتفوّقين وذلك ليجرّدوا الإنسان من فضل واجتهاد ونشاط وفطنة، هذا إنْ سلم المحظوظ من شرّ افتراءاتهم وأراجيفهم.

أمّا مريم فتبتهج لحبل خالتها وتفاجئها بزيارتها لها. فإنّها تعرف ما كان للعقم من وطأة على نفس أليصابات. فقد عزلها عن الناس في وحدة من الحياة مرّة. فراحت مريم تحمل لبيت خالتها التهانيّ والبركات. مستمدّة شعورها هذا من أنّها هي أيضًا امرأة وأمّ على مثال نسيبتها.

لقد أصبحت منذ مدّة قصيرة أمّ الله المتجسّد وملكة أرفع وأسمى من جدّها داود. ولكنّها مع ذلك تريد أن تخدم لا أن تُخدم. إنّها تعرف أن تحبّ الله وأن تجلس عند قدميه تتأمّل بسناء مجده كمريم أخت لعازر وتعرف أيضًا أن تبذل وتخدم كمرتا أختها. فلا تحجم عن أداء أيّة خدمة يوميّة. ولا تمتنع عن القيام بأيّ عمل مفيد. وكلّ ذلك تقوم به ببشاشة ونشاط. وتقوم به بدافع من محبّتها لله وللقريب، تلك المحبّة التي جعلتها طابعًا لكلّ أعمالها. إنّها تقدّم ذاتها تقدمة كاملة. تعمل بقلبها ويديها. إنّها عطيّة الذات الكاملة. ولعلّ الإنجيليّ أراد أن يُفهمنا كلّ ذلك حينما قال: **"وانطلقت مسرعة"** لأنّ السرعة دليل على الإهتمام الزائد. ألا ترى أنّ هذه العبارة توحي بقوّة الإرادة والمحبّة.

ونتبع مريم العذراء إلى بيت خالتها القدّيسة أليصابات **"ودخلت بيت زكريّا وسلّمت على أليصابات. فلمّا سمعت أليصاباتُ سلام مريم إرتكض الجنين في بطنها، وامتلأت من الروح القدس"** (لوقا ١: ٤٠- ٤١).

عين كارم

لقد اقتربت مريم العذراء من عين كارم وهي بلدة صغيرة تقع على بُعد ستّة كيلومترات غربيّ مدينة القدس. وقبل أن تصل المدينة بعشرات الأمتار بدت لها بيوتها المبعثرة هنا وهناك بين أشجار التين واللوز والرمّان منحدرة على سفحَيْن من الجبال تنتهي كلّها إلى ضفّتي الوادي حيث تجري مياهُ النبع تحت جسر من الأشجار الوارفة المكمدّة الأوراق.

في هذه البلدة يعيش زكريّا مع زوجته أليصابات نسيبة مريم العذراء. هواء عليل معطّر برائحة تنبعث من أشجار البلسم التي انتشرت هنا وهناك. وقد انبسطت بين الأشجار مساحات واسعة فيها أنواع من البواكير والخضار ترويها مياه العين فيعبق الجوّ بشذا الورود وعبير الأزهار والثمار اليانعة. وزائر هذه القرية يودّ له أُتيح له البقاء طويلاً. وأطيبُ ما ينعم به الإنسان فيها هو الهدوء وهذا الجوّ البارد اللطيف. ولا يغادرها الإنسان إلاّ وفي نفسه حنين العودة إليها.

هنا تقضي مريم العذراء ثلاثة أشهر في بيت زكريّا وأليصابات. وقد شاد الآباء الفرنسيسكان كنيسة جميلة تذكارًا لهذا البيت المبارك.

إرتكض الجنين فرحًا

فلمّا دخلت أمّ الله وسلّمت على أليصابات إرتكض الجنين في بطنها وامتلأت من الروح القدس. وقد اعتقدت الكنيسة بأنّ هذه الإختلاجة ليست ما تشعر به النساء عادة وإلاّ لما ذكرها الإنجيليّ. ولكنّها تشير إلى أنّ يوحنّا تطهّر من الخطيئة الأصليّة وامتلأ

من النعمة المبرّرة وأنّ وجود المخلّص في بطن أمّه هو علّة هذه الإختلاجة وما نتج عنها.

تقدّست نفس يوحنّا

مفاجأة سارّة مصدرها وجود يسوع الخفيّ. هو الذي ألهم أليصابات وأثار في نفسها إعجابًا مقدّسًا وطهّر نفس يوحنّا السابق من وصمة الخطيئة الأصليّة وألهم مريم نشيد الحبّ والشكر والإتّضاع.

ولا بدّ أن يكون وجود مريم في بيت زكريّا لطّف الجوّ الحزين الذي خيّم عليه بعد إصابته بالبكم نتيجة تردّده في الإيمان بكلام الملاك.

ونتساءل الآن: إنْ كان هذا مفعول اقتراب المسيح من يوحنّا السابق، فما الذي لا يفعله وجوده في حشا أمّه الطاهرة مدّة تسعة أشهر؟

ومهمّة مريم في عالم غير مؤمن ومشكّك في حقائق الدين هي أن تقرّب منه المسيح مصدر كلّ تفكير سليم وطهارة وحبّ.

مريم وسيطة

ثمّ ألا يجوز لنا أن نرى في هذا الحادث المهمّ دليلاً على وساطة مريم؟ إنّ الله، مصدر كلّ نعمة، قرّر أن تصل نعمه إلى البشر عن طريق فتاة قدّيسة هي العذراء بنفسها. وفي الحقيقة أنّها الوسيطة العامّة لتوزيع جميع النعم. ولهذا لن تزور مريم بعد اليوم نفسًا إلاّ لتحمل إليها أيادي تفيض نعمًا وبركات ولن تهب ذاتها إلاّ لتهب يسوع غاية الخلائق.

المحبّة الأخويّة

وهكذا حملت مريم العذراء إلى بيت زكريّا وأليصابات أنواع المحبّة الأخويّة الروحيّة منها والماديّة. فأضحت بذلك مثالاً حيًّا لممارسة الفضيلة الأولى في الدين: محبة الله والقريب. والمحبّة إنّما هي الوصيّة العظمى بل الوصيّة الأولى. وقد قال السيّد المسيح إنّها الوصيّة الجديدة وشعار أتباعه. ويقول بطرس الرسول أنّها أساس جميع الفضائل. وبولس يفيض في وصفها ولا يملّ من أن يحضّ الذين يوجّه إليهم رسائله على ممارستها: "**إنّها رباط الكمال**"، وإلى أهل تسالونيكي يقول: "**أمّا المحبّة الأخويّة فلا حاجة لكم أن أكتب إليكم فيها لأنّكم أنفسكم قد تعلّمتم من الله أن يحبّ بعضكم بعضًا وأنتم تفعلون ذلك نحو جميع الإخوة. وإنّما نسألكم أن تزدادوا أكثر فأكثر وأن تحرصوا على أن تكونوا هادئين تعملون ما يغنيكم**" (٤: ٩- ١١).

آفة الشرق

وكأنّي ببولس الرسول يلمس مرض الشرق في الصميم، فيحاول معالجته. وخطيئة الناس في هذه البلاد ليست الامتناع عن حضور الصلوات والقدّاس أو الإبتعاد عن كرسيّ الإعتراف أو طاولة الخلاص. إنّ خطيئتنا الجسيمة هنا هي النميمة والافتراء. قد

لا ينجو إنسان من شرّ الناس. فتراهم يتدخّلون بما لا يعنيهم من أمور الغير. وتراهم يحكمون على الناس بما يعرفون وبما يجهلون ولا يتورّعون بعض الأحيان عن أن يقدحوا في سمعة المكرّسين والمنذورين. لا بل يسلقون رجال الدين بألسنة حداد ولأتفه الأمور. مسكين ذلك الكاهن ومسكينة تلك الراهبة اللذان عيّنا مديرَيْن لمدرسة! إنّهما أصبحا الضحيّة. يكفي أن يعمدا إلى معاقبة ولد لذنب أتاه حتّى تقوم القيامة على المدير أو المديرة فينادى بالويل والثبور وبعظائم الأمور.

وبولس الرسول حثّ المسيحيّين على احترام المكرّسين: **"ونلتمس منكم أيّها الإخوة أن تعتبروا الذين يتعبون بينكم ويرئسونكم في الربّ ويعظونكم وأن تحبّوهم غاية المحبّة من أجل عملهم وسالموهم"** (تسالونيكي ٥: ١٢- ١٣).

وأوصى الرسول أيضًا برعاية الضعفاء والحدب عليهم: **"ونسألكم أيّها الإخوة أن تعزّوا صغار النفوس وتسندوا الضعفاء وتتأنّوا على الجميع"** (تسالونيكي ١: ٥ و١٥).

أمّا ضحايا النميمة والافتراء فجلّها من بنات البيوت. ينسبون إليهنّ أقبح الأمور وأشنع الأراجيف، مع أنّ الله حذّر من شرّ ذلك: **"لا تدينوا لئلاّ تدانوا"** و**"مَن أقامك على غيرك حاكمًا يا مَن تدين أخاك؟"** ولقد احتفظ الله لنفسه بالدينونة الأخيرة وجعل موضوع التهمة ثلم محبّة القريب وأنذر المخالفين لوصيّة المحبّة بعقاب رهيب.

على أنّ البعض ترفّعوا عن الدنايا وسموا إلى مجد المحبّة بل تفوّقوا على سواهم بممارسة فضيلة المحبّة حتّى البطولة.

فهذا سلوفياف، رجل روسيّ توفي سنة ١٩٠٠، أحبّ إخوته الروس فأراد لهم أن يعودوا إلى وحدة الكنيسة كلّهم مرّة واحدة وتمنّى على مثال بولس الرسول أن يصبح لعنة من أجل خلاص إخوانه. وقد فاجأه يومًا الأمير **"موجووه"** بهذا السؤال: **"ولكن ماذا تعمل بأمر خلاصك أنت؟ فأجابه سلوفياف: أمر خلاصي الفرديّ وأيّة أهميّة له؟ علينا أن نفكّر بخلاص مجموع الإخوة"**.

يوسف بن يعقوب

ولنا في حياة يوسف بن يعقوب مثال طيّب عن الشخص الذي لا ينتقم لذاته حينما تسنح له الفرصة: إنّ العفو عند المقدرة من شيم الكرام بل إنّه في كلّ وقت فضيلة. فبالرغم من أنّ إخوته عرّضوا حياته للموت حينما رموه في بئر، وبالرغم من أنّهم باعوه لتجّار إسماعيليّين وحرموه من حنان والده حسدًا وخِسّة، وبالرغم ممّا جرّ عليه وجوده في مصر من الأخطار على حياته، إلاّ أنّه غفر لهم ومدّهم بالغذاء وحماهم، بل انتشلهم من الموت.

العالم مشحون بالمنازعات

وإذا ما بدا جوّ العالم مشحونًا بالمنازعات ملبَّدًا بالبغض والجفاء ما ذلك إلاّ لأنّ الحبّ ينقصه. والحبّ هو الحرارة التي تنبعث من قلوب تستعر بالمحبّة الأخويّة.

العالم بحاجة إلى سواعد تخدم.

والعالم بحاجة كبرى وماسّة إلى قلوب تنبعث منها الحرارة والحياة.
والعالم ظمآن إلى الله. فأين النفوس التي امتلأت من الله لتحمله إلى البشر؟
ولقد سردت الرسالة المخلّصيّة في أحد أعدادها قصّة حياة المرحومة ماري جاهل دبّانة من حيفا وممّا ذكرت عنها أنّ فتاة فقيرة جاءت إليها يومًا منتحبة باكية شرفها المضيع وفضيحتها. فما كان من الفقيدة إلاّ أن اتّصلت بالشاب الآثم وألحّت عليه بالزواج من الفتاة حفظًا لعرضها ومستقبلها. على أنّ الشاب أبى محتجًّا بضيق ذات يده وعجزه عن القيام بنفقات الزواج. فدفعت إليه كميّة من الدراهم وقالت له: تزوّجها يا هذا وصن عرضها. فأبدى رفضه ثانية محتجًّا بافتقاره إلى خزانة. فأجابته فورًا: هذه خزانتي خذها. وهكذا استلم الشاب المبلغ والخزانة وتزوّج بالفتاة.

شروط العمل الرسوليّ

وما أحرانا أن نستنتج من زيارة مريم لنسيبتها أمثولة نتّخذها قاعدة حياة لنا في محبّة القريب وخدمته. إنّ مريم لم تعط يسوع إلاّ بعد أن ملكته. والإنسان لا يعطي ما لا يملك. كذلك نحن لا نستطيع أن نصبح رسلاً للمسيح ونحمل تعاليمه ومحبّته إلاّ إذا كانت فينا أوّلاً، ولقد بيّنها بولس الرسول بقوله: **"حياتي هي المسيح"** (فيلبي ١: ٢١) **"وأنا حيّ ولكن لا أنا، بل المسيح حيّ فيّ"** (غلاطية ٢: ٢٠).
بذلك يصبح الإنسان رسول عالم متعطّش للمسيح تائق إلى مَن يلقنه تعاليم الخلاص بعد أن يمارسها ويختبرها بنفسه. هذه الحياة الداخليّة هي وحدها كفيلة في أن تكون مصدر العمل والنشاط. فخارجًا عن قلب الإنسان عبثًا نفتّش عن مصدر للتضحية. فعلى القادة أن يستقوا من هذا الينبوع حيث يختفي المسيح ويكمن سرّ النجاح. ولنتّخذ من مريم العبرة عن العمل الفعّال والمحبّة الأخويّة الصادقة.

ذكرى الزيارة

ولأهميّة العبرة المنبثقة من هذه الذكرى الكريمة أمر السعيد الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم بمنشور بطريركيّ تاريخه ١ نيسان ١٨٤٤ بإقامة عيد خاصّ بها في يوم الجمعة من أسبوع الفصح المجيد وأدخله في طقوس الكنيسة الملكيّة.
وهذا هو قنداق العيد: **"لقد دهشت صفوف الملائكة من حنوّك يا والدة الإله. عند مشاهدتها إيّاك ذاهبة بكلّ سرعة واحتشام من الناصرة إلى بيت زكريّا في اليهوديّة. لتخدمي والدة المعمدان وهي حبلى في شيخوختها. مساعدة إيّاها مدّة ثلاثة أشهر بتواضع عميق ومحبّة وافرة فصرخت إليك: السلام عليك يا عروسة لا عروس لها"**.

١٤
طوبى للتي آمنت

لمّا دخلت مريم بيت زكريّا سلّمت على أليصابات. وهكذا التقت مريم بنسيبتها وأمّ المسيح بأمّ سابقه. وكانت عينا مريم تشعّان نورًا ووجهها يفيض بشرًا وحياة. وفي كلمات التحيّة نبرة صوت مكّنت أليصابات من أن تكشف السرّ المكنون في حشا البتول. وشعرت بأنّها أمام والدة المسيح المنتظر، فلم تتمكّن من كبت ما جال في خاطرها. ويقول الإنجيل المقدّس: ما إنْ طرق مسامع أمّ يوحنّا السابق حنين هذا الصوت حتّى صرخت بصوت جهير وقالت لمريم: **"مباركة أنت في النساء، ومباركة ثمرة بطنك، طوبى للتي آمنت بأنّه سيتمّ ما قيل لها من قبل الربّ"** (لوقا ٢: ٤٠- ٤٥).

السعادة في الإيمان

إنّ كلمة **"طوبى"** تعني السعادة والغبطة. فتكون أليصابات قد كشفت لمريم عن أنّها قد وجدت سعادتها عن طريق إيمانها. وإنّ ثقتها بالله هي التي بعثت في نفسها هذه السعادة. وكأنّها تردّد مع داود النبيّ: **"أمّا أنا فبالبرّ أعاين وجهك وأشبع عند اليقظة بصورتك"** (١٦: ١٥).

وغدًا يعلن بولس الرسول: **"إنّي واثق بمَن آمنت"**. إنّ قلب مريم وأفكارها عالقة بالله لأنّ نفسها كانت ممتلئة بالله. ولكنّها مع ذلك لا ترى الله عيانًا. إنّها مثلنا على الطريق المؤدّية إلى **"مملكة النور"**.

إيمان مريم

ولذلك كان لها فضل مؤمن:

حينما بشّرها الملاك بالحبل من الروح القدس.

وحينما قال لها سمعان: **"إنّ هذا الولد، قد جُعل لسقوط ونهوض كثيرين في إسرائيل وهدفًا للمخالفة"**.

وحينما تكثر العجائب والغرائب في المغارة.

وحينما يثور هيرودوس يريد نفس الصبيّ وإهلاكه.

وحينما تفرّ إلى مصر ويسوع لا يتجاوز سنّه أشهرًا معدودة.

وحينما يقول الطفل اليافع لأمّه: **"أما تعلمين أنّه يجب عليّ أن أكون فيما لأبي؟"**.

وأخيرًا حينما تقف عند أقدام الصليب.

لمّا بشّرها الملاك بالحبل من الروح القدس

كان عليها أن تؤمن دون أن ترى، مكتفية بشهادة الملاك بعد أن ألقى الروح القدس في حشاها الطاهر بذار متمنّى جميع الأمم (حجاي ٢: ٨). والفرق بيننا بالنظر إلى الإيمان أنّها هي كانت تغوص في نور الله، بينما نحن نؤمن إيمان مَن يسير في ليل حالك يؤدّي إلى نهار وضّاح. هذا ما يُفهم من كلام أليصابات: **"طوبى للتي آمنت بأن سيكون لها ما كُلّمت به من قبل الربّ"**.

وحينما قال لها سمعان: "إنّ هذا الولد، قد جُعل لسقوط ونهوض كثيرين في إسرائيل وهدفًا للمخالفة".
أخضعت مريم عقلها وإرادتها لإرادة الله "**لأنّ البارّ بالإيمان يحيا**" (روما ١: ١٧؛ غلاطية ٣: ١١، عبرانيّين ١٠: ٣٨). إذ إنّ الإنسان يتّصل بخالقه عن طريق الإيمان. وكلّما عظم شأن هذا الإيمان ازدادت النفس اتّصالاً بربّها: "**وبغير إيمان لا يستطيع أحد أن يرضي الله لأنّ الذي يدنو إلى الله يجب عليه أن يؤمن بأنّه كائن وأنّه يثيب الذين يتبعونه**" (عبرانيّين ١١: ٦). ولذا يُعتبر الملحد كمَن فقد صوابه.

وحينما تكثر العجائب والغرائب في المغارة
قد أعدّ الله مكافأة حتّى في هذه الحياة للذين يؤمنون به، تلك هي عطيّة الفرح، تشجيعًا منه لأولئك المؤمنين به ليتابعوا السير بنشاط: "**مئة ضعف في هذه الدنيا**" قبل بلوغ الحياة الأبديّة. وبولس الرسول يقول: "**افرحوا بالربّ دائمًا وأقول أيضًا افرحوا**" (فليبي ٤: ٤). هذا الفرح شعرت به مريم في صباح الميلاد وفي بيت نسيبتها القدّيسة أليصابات. وتلك البهجة مصدرها إيمان الإنسان وثقته الكاملة بالله. والفرح الحقيقيّ لا يكون خالصًا وثابتًا إلاّ في الله. لأنّ الله وحده يستطيع أن يملأ قلوبنا.

وحينما يثور هيرودوس يريد نفس الصبيّ وإهلاكه
إنّ طريق السماء لا تخلو من أشواك ومحن. وبأساليب شتّى يصوّر لنا الكتاب المقدّس الطرق التي بها يمتحن الله محبّيه ويبلوهم. لا حبًّا منه للبلوى ولا لنحيب المبتلّين ولكن ليزيدهم به إيمانًا وتعلّقًا وثوابًا. ويسوع نفسه سوف يقول: "**ليس تلميذ أفضل من سيّده**". وقد أخضع السيّد المسيح لكلّ أنواع العذابات في نفسه وجسده. بل كانت حياته كلّها ألمًا من فقر المهد إلى آلام الجلجلة. وقد دعانا إليه وأشار إلى الطريق أنّها صاعدة ضيّقة وعرة.

وحينما تفرّ إلى مصر ويسوع لا يتجاوز سنّه أشهرًا معدودة
تلك هي طريق الصعاب في هدوئها ووحشتها إلاّ من دقّات قلب الإنسان ومن ذلك القبس الذي يسمّى الإيمان. فهو الذي يقود النفس حسب الخطط والتصاميم التي رسمها لها الله. ولقد طوّب الكتاب المقدّس الذين يسلكونها: "**طوبى للذين بك عزّتهم فإنّ في قلوبهم مراقي إليك**" (مزمور ٨٣: ٦). وقد شرعت مريم بالإرتقاء فيها منذ مطلعها ولن تتوقف إلاّ حينما تبلغ الجلجلة.

وحينما يقول الطفل اليافع لأمّه: "أما تعلمين أنّه يجب أن أكون فيما لأبي؟"
وفي الحقيقة أنّ لا إيمان بدون تجرّد. فصَمتُ مريم أمام جواب ابنها في الهيكل كان أفضل جواب على إخضاعها العقل لإرادة الآب وإلى ما تنطوي عليه تلك الإرادة المقدّسة. إنّها تعرف حسنًا أنّ "**من الأفضل أن يُطاع الله**". فآثرت التجرّد عن سلطتها

الوالديّة ووقفت حبّها وحنانها على نجلها وذلك امتثالاً لإرادة الآب السماويّ. ومعنى هذا أنّ على الإنسان أن يقلع عن طريق تفكيره الخاصّ وعن طريقة معيشته وشعوره لاعتناق طرق الله ونواياه. ذلك ما فعله المجوس يوم بارحوا بلادهم وتوجّهوا مع النجم إلى عالم المجهول يقودهم نور من السماء.

وأخيرًا حينما تقف عند أقدام الصليب

على أنّ أخطر تهديد لإيمانها بدا على الجلجلة. وكان في مقدور هذا الموقف أن يطغي على إيمانها فيطفئ شعلته، لأنّ يسوع كان على الصليب وهي أمّه. ولكنّها استمدّت من إيمانها قوّة استولت على كلّ مشاعرها. حتّى إنّها لم تسقط على الأرض بل لبثت واقفة متجلّدة بقرب الصليب. لأنّها شريكته في الفداء والخلاص **"واعين الجميع إيّاها تترجّى"**.

سرّ إيمانها

على أنّ مريم ما تزال تشعر بكامل السعادة والفرح بالرغم من أنّها غائصة في بحر من المحن والبلايا. أمّا مصدر سعادتها فهو في إيمانها وسرّ إيمانها ينطوي وراء شعورها وتقديرها بأنّها الأمّ الإلهيّة وبأنّ عظمتها ليست إلاّ صورة انعكست عليها عظمة ابنها.

وهكذا يتبيّن من شهادة نسيبتها لها أنّ إيمانها هو إحدى القواعد العاملة على إسعادها. وفي الحقيقة أنّ الروح القدس هو الذي أوحى لأليصابات لتقول لمريم: **"طوبى للتي آمنت بأن سيكون لها ما كُلّمت به من قبل الربّ"**. فإيمان مريم إذًا عامل لهذه السعادة وباعث لها.

وأليصابات أوّل مَن اكتشف أنّ مريم تحمل **"الكلمة"** في حشاها. وقد كان الأمر إلى تلك الساعة سرًّا بين مريم وجبرائيل. فأحسّت فورًا أنّ أمامها أمّ المسيح: **"مباركة ثمرة بطنك. من أين لي هذا أن تأتي أمّ ربّي إليّ؟"**.

ولقد ثبت لديها كلّ ذلك حينما ارتكض الجنين في بطنها ابتهاجًا وحبورًا. فما إنْ طرقَ سلام مريم أذنيها حتّى اختلج الطفل إختلاجة الفرح.

زكريّا يتردّد

وبهذا الإعتراف بيّنت أليصابات خطأ زوجها زكريّا حينما جاءه هو أيضًا الملاك وبشّره بولد فلم يؤمن بل ارتاب في كلام الملاك وأنشأ يغالطه ويعجب من كلامه حتّى جرّ على نفسه البكم طوال المدّة التي كان فيها يوحنّا السابق في بطن أمّه.

أمّا مريم فوجدت من إيمانها ما يكفي لإستيعاب الدعوة التي دُعيت إليها. لقد تفتّح قلبها وتمدّد حتّى شمل فكر الله كاملاً.

وإنّ دخول مريم المؤمنة إلى بيت زكريّا رمز لدخول مريم إلى عالم مشكّك غير مؤمن.

أراد زكريّا أن يرى أوّلاً ليؤمن ويثق بأقوال الملاك جبرائيل. أمّا مريم فآمنت فورًا دون أن تشترط على الملاك ما يؤيّد أقواله.

لقد طرحت بعض الأسئلة مستفهمة مستوضحة. أمّا زكريّا فيملي الشروط ليؤمن. كيف يتسنّى الحبل لزوجته الهرمة وقد جاوزت عهد الحبل؟ وينتظر جوابًا شافيًا تؤيّده إشارة حسّيّة.

مريم مثال المؤمن

أمّا مريم فقد اعتادت في حياتها أن تستسلم لكلّ ما هو لله. وقد اكتشف بعض الكتّاب في نذر مريم لبتوليّتها أنّها قطعت على نفسها الطريق عن كلّ مساعدة أو عون أو عطف بشريّ. فباتت لا تتوقع من بشر عونًا. ولهذا تراها سهلة الإنقياد والإيمان. نقول هذا لئلاّ يعتقد أحد بأنّ إيمان مريم كان أمرًا زهيدًا لا يعتدّ به. لقد كان زكريّا كاهنًا وأنّ الله الذي دعاه ليصبح أبًا للسابق لا بدّ أنّه وجد فيه الصلاح والإستقامة والقداسة، ومع ذلك تراه لا يؤمن بسهولة. وفي الواقع أنّ في جمال الوعد وعظمته ما يثير الظنون والشكوك ويبعث على الإرتياب في نفس زكريّا الذي فقد كلّ أمل في النسل.

أمّا مريم فلم يخامرها الشكّ بكلام الملاك لأنّها اعتادت أن تسمع إيحاءات الله. فلم تسمح قطّ للإدّعاء أن يلج هيكل نفسها أو يسيطر على تفكيرها. وإذا ما شعرت بضعفها ولمست حقارتها بالنسبة لعظمة الخالق ما كانت إلاّ لتزداد إيمانًا وثقة به تعالى.

للشعوب إيمانها

وإذا كان إيمان الفرد يؤثّر في تفكيره الخاصّ وأعماله الخارجيّة وتكييف حياته، فللشعوب أيضًا إيمانها كمجموعة. وربّ مراقب يظنّ أنّ العالم فتر في إيمانه أو كاد الإيمان أن يفلت منه ليحلّ محلّه الإلحاد والمادّيّة والتخلّي عن المبادئ السامية. ولكنّ الحقيقة هي نقيض الظاهر. ونرى أن نستشهد ببيان للبابا بيوس الثانيّ عشر ومركزه يجعل منه حجّة ومرجعًا فيقول: **"إنّ الإيمان اليوم أشدّ قوّة منه في أيّ وقت مضى. بل إنّه اليوم أشدّ مراسًا من عهود الإضطهادات حيث استشهد كثير من المسيحيّين"**. والواقع الذي يشهد له كثير من المدقّقين في الأوضاع الإجتماعيّة أنّ الإيمان اليوم يكتسب تعمّقًا وتمرّسًا وقناعة أفضل ممّا كان عليه في العهود الماضية والأزمنة الغابرة.

بالطبع هنالك شعوب سارت إلى الإلحاد والمادّيّة تحت ضغط الشيوعيّة الملحدة. ولعلّ للشيوعيّة أنصارًا وأتباعًا انتشروا في كلّ أرجاء العالم يحملون مبادئها ويدعون لها. ولكنّ تاريخ الكنيسة عرف أمثال هذه الحركات الإجتماعيّة التي انحرفت عن الإيمان وظهرت كأنّها تريد أن تجرف العالم وراءها. ولكنّها ما لبثت أن تقهقرت واضمحلّت أمام التعقّل والحركات البنّاءة التي تعتمد على المنطق وتعاليم الدين والكنيسة. ولا يمضي طويل وقت حتّى يعقب تلك الحركات الهدّامة نشاط بين الشعوب ينهض بها نحو مبادئ أسمى وأخلاق أفضل وتمسّك بالعقائد أقوى. وما سبب ذلك إلاّ لأنّ الشعوب تكون قد أجرت خبرتها على تلك المبادئ فوجدتها وبالاً على الفرد والجماعة وشرًّا مقيتًا ينبغي

استئصال شأفته. ويلبث الإيمان وحده قوّة الشعوب وعصب كلّ حضارة بنّاءة سليمة. والشعوب المؤمنة باقية ما بقي الله مصدرها وغايتها.

١٥
تعظّم نفسي الربّ

كان الملاك جبرائيل قد كشف لمريم العذراء عن أمر حبل نسيبتها القدّيسة أليصابات: **"وها إنّ أليصابات نسيبتك قد حبلت هي أيضًا بابن في شيخوختها. وهذا الشهر هو السادس لتلك التي تُدعى عاقرًا. إذ ليس من أمر مستحيل على الله"**. ومنذئذ راحت مريم تقابل بين ما في هذا الحدث وحدث آخر سبق ذكره في الكتاب المقدّس، وهو قصّة حبل حنّة زوجة القانة والدة النبيّ صاموئيل. وأخذت تردّد الصلاة التي تلتها حنّة شكرًا لله الذي أنعم عليها بولد في شيخوختها. وعلى الطريق الذي استغرق أربعة أو خمسة أيّام بين الناصرة وعين كارم كانت تراجع في ذهنها هذين الحدثين العجيبين وتنشد لله الشكر عن حنّة وأليصابات.

والقلب الصافيّ ينشد.

والضمير المتحرّر ينشد.

وأجمل الإنشاد هو تعظيم الله الخالق.

وفي السماء ليس للملائكة إلاّ مهمّة واحدة هي تعظيم الله.

وبعد أن تتمجّد البشريّة لن يكون لها عمل إلى الأبد إلاّ تعظيم الله.

والنفس على الأرض إذا ما استطاعت أن تحوّل وجودها إلى حياة تعظيم تكون قد باشرت سعادة السماء.

التعظيم إنشاد النفس

أمّا **"تعظيمة العذراء"** فليست إلاّ نفثة عبّرت بها أمام نسيبتها القدّيسة أليصابات عن حالة نفسها التي كانت دومًا تنشد ودومًا تعظّم. لأنّ قلبها خلا لله. وضميرها لم يعرف قيود الخطيئة ووجودها لم يكن إلاّ تعظيمًا دائمًا لتمجيد الخالق.

ولمّا كان تعظيم الله هو أسمى ما تتوخّى الكنيسة من صلواتها وعباداتها وطقوسها، أخذت على نفسها أن تردّد وتكرّر كلّ يوم تعظيمة العذراء. والكنيسة اللاتينيّة أحاطتها بأبهى ما عندها من موسيقى والرهبان جعلوها رمزًا ومثالاً لحياتهم.

وإنْ كان هدوء النفس هو الذي يدفع الإنسان لينشد ويتغنّى، فمريم كانت تحمل ربّ المجد في حشاها. إنّه روح لروحها وقلب لقلبها ووتر لقيثارتها. وأيّ جوّ أصفى من أن يكون الإنسان مع الله والله مع الإنسان. فلقد ملأ المخلّص نفس مريم فلم يعُد لها إلاّ أن تنشد وأن تنشد له وحده لأنّه هو أسمى الوجود. إنّه الصلاح غير المتناهيّ وهو غاية الخليقة.

أليصابات تنشد

وحينما تفيض نفس مريم بالتعظيم كان هنالك مَن هي أهل لتفهمه وتعيه وتشاركها في إنشادها. كانت هنالك أليصابات التي رفق الربّ بها وعطف عليها في شيخوختها فامتلأت هي أيضًا من نعم الله وفاضت نفسها بالإنشاد شكرًا.

وأجمل بنا أن نخرج من وقت لآخر عن تلك الصلوات الرتيبة المقروءة لنرخي العنان لنفوسنا ونتركها على سجيّتها تنشد وتعظّم الله الخالق عفويًّا.

وإنْ كانت الكلمات التي يستعملها الإنسان حينما ينشد صورة لأخلاقه وأفكاره، فمريم غائصة في بحر من التواضع، لا تنفكّ عن التفكير في عظمة الله الذي تنازل وانعطف إلى حقارتها. ولهذا كانت "**التعظيمة**" تعبيرًا صادقًا لعظمة الله وتواضع مريم أمام القدّيسة أليصابات.

"**تعظّم نفسي الربّ**"
"**وتبتهج روحي بالله مخلّصي**"
"**لأنّه نظر إلى حقارة أمّته**"
"**فها منذ الآن تغبّطني جميع الأجيال**"
"**لأنّ القدير صنع بي عظائم**"
"**فإنّ اسمه قدّوس**" (لوقا ١٠: ٤٦- ٤٩).

التعظيمة صدًى لتواضعها

هكذا بعد أن عادت مريم إلى نفسها وقاستها بمقياس الحقيقة وجدتها حقيرة ذليلة أمام عظمة الخالق الجوّاد فراحت تعظّمه وتنسب إليه كلّ ما فيها. راحت تعيد العطايا لعاطيها والهبات لواهبها. إنّها هبات وعطايا مجّانيّة لم تستحقّها بفضل أو فضيلة. على أنّها تتقبّل الهبات والعطايا بالشكر وتقابلها بما يليق بها من أخلاق وسلوك. إنّه ردّ فعل طيّب كريم من قبلها. ولذلك تغبّطها أليصابات بقولها: "**طوبى لتلك التي آمنت أن يكون لها ما كُلّمت به من قبل الربّ**".

تعظّم مريم الربّ المخلّص كلّما فكّرت بأنّ الأجيال كلّها سوف تعظّم ما فعل الله لها وبها بعد أن أحاطها برحمته شأنه مع الذين يخافونه (لوقا ١٠: ٤٨- ٥٠).

ولقد تعلّمت مريم من الكتاب المقدّس يوم كانت في الهيكل بأنّ الكبرياء عدوّة الله وإنّها كانت خطيئة لوسيفوروس في السماء فجرّت عليه الغضب واللعنة. ومنذئذ أخذ الله يشتّت المتكبّرين المتغطرسين ويحطّم عروشهم ويكسّر صوالجهم ويرفع المتواضعين ويغمر الجياع بالخيرات، بينما يرسل الأغنياء فارغي الأيدي (لوقا ١: ٥٠). هكذا تبيّن لمريم أنّ الله ينـزل العقاب في هذه الدنيا وفي الآخرة بكلّ متكبّر وكلّ عات متصلّف وإنّ عدل الله يشمل الخلائق بأجمعها.

تنذر بتهديم العروش

ربّ قائل إنّ هذه الآيات تثير ريح ثورة تهدّد العروش وتدعو إلى قلب الأنظمة الراهنة. ذلك صحيح إذا ما أخذنا بعين الإعتبار ذلك النظام الوثنيّ الذي قام على العبوديّة والرقّ وازدراء مَن أذلّهم المجتمع وأضعف من شأنهم. أجل هذه هي الثورة التي أذكى الدين الجديد نارها وأوقد جذوتها.

ولا أحد ينكر أنّ الأنظمة الراهنة في العالم منذ أجيال لا تصلح لخدمة المجتمع، فإنّ الله خلق الجميع متساوين في الحقوق، فلا يجوز لقلّة ضئيلة أن تنعم برخاء العيش بينما يموت الآلاف والملايين من الفقر المدقع والمسكنة. وليس من العدل في شيء أن تتخم شراذم الأثرياء من لذيذ الطعام بينما تظلّ جموع الفقراء معوزّة تتضوّر جوعًا وترتدي الأسمال البالية. تلك الأنظمة الفاسدة هي من آثار عصور الظلام يوم كانت القاعدة أن يتسلّط القويّ على الضعيف والغنيّ على الفقير. فجاء الدين المسيحيّ يهدم قواعد عروش قامت على حطام شعوب أُذلّت وحضارات امّحت.

تبشّر بالثقة

وبعض آيات التعظيمة أشادت بروح الثقة بالله الآب السماويّ الذي يُعنى بأدنى الخلائق. فإنّ فقيرًا معدمًا له أمام الله ما لملك عظيم. التعظيمة صرخة أمل بنظام جديد من شأنه إعادة الحقّ لأولئك الذين قضى عليهم اليأس والقنوط وزُجّ بهم في عالم من العوز والذلّ والفزع. إنّها نفحة حريّة جديدة وفرح وسلام لأولئك المحرومين البائسين ومشعل وضّاء ينير سبيل المعوزين المكروبين.

تنشد عظمة الله

لقد أنشدت مريم لأنّ نفسها كانت مفعمة بفكرة الله فلم تعُد تتمكّن من ضبط ذاتها فطفحت نفسها بهذا النشيد. وما بدا منها لم يكن إلاّ تعبيرًا عن أحاسيس قلبها وتأمّلاتها في حياتها السالفة وخاصّة في الأيّام الأربعة التي قضتها في الطريق بين الناصرة وعين كارم. كانت تتأمّل بعظمة الله وبدورها كخادمة حقيرة له، بحبلها البريء وبرحمة الله وحنانه وإشفاقه على البشر، بعهد جديد يبشّر المساكين وينذر المتجبّرين وأخيرًا بوعد الله لإبراهيم وذرّيته بالرحمة.

مريم الجسر بين العهدين

وهكذا تعلن مريم عن ذاتها أنّها هي همزة الوصل بين العهد القديم والعهد الجديد. فيسوع لم يأتِ إلى العالم لينقض ولكن ليبني: **"لا تظنّوا أنّي جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. إنّي ما جئت لأنقض بل لأكمّل"، "الحقّ أقول لكم أنّه إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول من الناموس ياء ولا نقطة حرف حتّى يتمّ الكلّ"** (متّى ٥: ١٧- ١٨). إنّ المسيح هو تلك الثمرة المنعشة التي تلوح على غصن من أصل يَسّى. فالثمرة هي يسوع والغصن هو مريم والشجرة هي إبراهيم ونسله. وهكذا يرتبط ماضي البشريّة بحاضرها وهكذا تتّضح وحدة الديانة التي أوحى بها الله. ديانة تبدأ في جنّة عدن مع

الإنسان الأوّل كما يصفها سفر التكوين وتمتدّ على مدى الأجيال فيتلقاها إبراهيم أمانة ثمينة ليسلّمها وعودًا ومواثيق لإسحاق ويعقوب حتّى تنتهي كلّها إلى يوحنّا مولود زكريّا وأليصابات آخر أنبياء العهد القديم والسابق للمسيح المخلّص متمّم الديانة ومكمّلها.

الدين الحقّ

هذا هو الدين الحقّ. الدين الوحيد الذي أوحى به الله. هذا طريق الخلاص المؤدّي إلى السعادة الأبديّة. والقول بدين ليس لإبراهيم والمسيح ادّعاء باطل. ذلك لأنّ الله لا يخدع ولا يغشّ. لقد تعالى عن كلّ عيب وبريء من أيّة هفوة. فما كان إذًا يستطيع أن يجعل للبشريّة طريقَيْن متناقضَيْن جوهريًّا. فلا بدّ من القول بدين واحد صحيح أنزله الله، يبدأ مع الإنسان الأوّل ولا ينتهي إلاّ مع آخر إنسان يؤمن بالكتاب المقدّس وبرسالة السيّد المسيح ابن الله ومخلّص العالم. وإنّ الكنيسة المسيحيّة وحدها تحقّق هذا المبدأ لأنّها تستوحي إيمانها من العهد القديم والجديد ولأنّها تؤمن برسالة المسيح كاملة.

نشيد الشكر

ليس أوقع في النفس من هذا النشيد الذي عبّرت به مريم عن عواطفها نحو الله الخالق. وهي تعلم بأنّ الله رفعها إلى هذه الدرجة السامية عطفًا منه ورحمة: **"لأنّه نظر إلى تواضع أمته فها منذ الآن تغبّطني جميع الأجيال"** وبما أنّها تأبى أن تكون هي موضوع الإكرام والتجلّة والتعظيم فتوجّهها إلى الله. إنّه نشيد عرفان الجميل والشكر بأسمى معانيه. لقد تجسّد الكلمة ليروي النفوس العطشى إلى الله. وإنّ الله لم يخلف بمواعيد ولم ينكث بعهود وعد بها الإنسان. لقد آثر ارتداء بشرتنا من امرأة، من الجنس البشريّ، من نسل آدم الخاطئ الأوّل.

في التعظيمة عدد وافر من الكلمات والتعابير التي وردت في الكتاب المقدّس ولكنّه ليس بالأمر الغريب، فإنّ مريم هي ربيبة الهيكل وتلميذة رجال الدين في أروقته. ولذلك كان نشيدها صدًى له. وليس العجب في أن تتفجّر نفس مريم تفجّر الينبوع نحو الله. إنّما العجب أن تحوّل مريم كلّ شيء إلى الله بينما يدَّعي الإنسان بما ليس له أو يطالب بما لا حقّ له فيه.

وبديهيّ أنّنا لا نغمط الإنسان حقًّا ولا نستخفّ به مثقال ذرّة حينما ننسب ما لله لله. لأنّ الإنسان آلة ثمينة بين يدي خالقه. فمن يديه تعالى يستمدّ الإنسان كرامته وثوابه ومن خضوعه له ومرونة تقلّبه بين يديه يزداد فضلاً وفضيلة.

هنا يكمن العدل والصدق: الله كلّ شيء والإنسان آلة وواسطة.

الحكمة شرط في خدمة القريب.

وأخيرًا وما أحسن قول الإنجيل المقدّس بأنّ مريم: مكثت عند أليصابات ثلاثة أشهر ثمّ عادت إلى منـزلها.

الفطنة تعلّم الإنسان أن يحضر وأن يغيب، أن يتكلّم وأن يصمت. لأنّ الفطنة وليدة الحكمة والتعقّل. فمكثت مريم عند نسيبتها ما دام وجودها ضروريًّا للخدمة. وبذلك أعطت المثال الأعلى للمحبّة الأخويّة في الأمور الروحيّة والخدمات الماديّة.

فعلى كلّ مَن يبتغي إرضاء الله ويروم اتّباع السيّد المسيح أن يقتفي آثار العذراء بمحبّته وخدمته للقريب في سبيل الله معتمدًا على الحكمة والمنطق.

العودة

فبعد أن قامت مريم بما تعيّن عليها من واجبات حان لها أن تعود إلى منزلها حيث تنتظرها واجبات أخرى ومهام سامية وأزمات عائليّة. فسلكت طريق العودة إلى الناصرة حيث مكث يوسف يترقّب إيابها بشوق بالغ وصبر زائد.

الجزء الرابع
في مهبّ العاصفة

١٦
مشكلة الحبَل

وتعود مريم إلى الناصرة بعد غياب دام ثلاثة أشهر. ثلاثة أشهر مرّت أيضًا على حبلها بالكلمة. وكان قد فاتها أن تسأل جبرائيل الملاك كيف تتصرّف مع خطيبها في الكشف عن أمر هذا الحبل الإلهيّ. وقد خفي الأمر عن يوسف بسبب ابتعاد مريم عن بيت الناصرة. أمّا الآن بعد ثلاثة أشهر فالحبل أبعد من أن يتوارى عن العيان.

الخطوبة عقد زواج

علينا أن نعرف بأنّ مريم ليست إلاّ خطيبة يوسف. ولكنّ الخطوبة هذه كانت عقد زواج لا ينقصه سوى أن يبدي يوسف رغبته في زفّها إليه. وإنّ يوسف وحده يملك حقّ بقائها وحقّ طلاقها. والقدّيس متّى حينما كشف لنا عن المرارة التي كانت تحزّ في نفس يوسف لمّا رآها حبلى أراد أن يطلعنا بالوقت عينه على الحقوق التي تعود إلى الزوج أثناء الخطوبة. ويقول الإنجيليّ بأنّ يوسف "**فكّر بتخليتها سرًّا**" والتخليةُ معناها الطلاق أيّ الهجر. وهذا يعني بأنّهما كانا متزوّجين.

وفي الحقيقة أنّ الخطوبة حسب التقاليد اليهوديّة ليست إلاّ عقد زواج ينقصه زفّ العروسة لعريسها. وبموجب هذا العقد كان يستطيع الخطيبان أن يتمتّعا بحقوق الزواج متى شاءا ذلك.

عقوبة الخيانة

أمّا الشريعة فكانت صارمة قاسية ترشق بأقسى العقوبات الصبيّة التي تخون العهود وتقتصّ منها لتكون عبرة لسواها. وربّما كان قصاصها أحيانًا عقوبة الموت والرجم دون رحمة ولا شفقة. وإنّ خيانة الخطيبة لا تقلّ خطورة عن خيانة المرأة المتزوّجة. ولكنّ الشريعة لم تحرّم قيام علاقات ودّيّة بين الخطيبَيْن. حتّى أنّ الولد الناشئ في عهد الخطوبة لا يعتبر أمرًا مخلاً بالآداب أو محطًّا بالأخلاق.

وبديهيّ أنّ الأمر في نظر الكنيسة يناقض موقف الشريعة الموسويّة في ذلك. فالخطوبة عندنا اليوم ليست إلاّ سبيلاً للتعارف والإطّلاع. فهي لا تسمح إلاّ بالمجاملات وتبادل الآراء والتودّد البريء.

والخطوبة عند اليهود أشبه شيء برشم الطفل. فالرشم عماد كامل لا ينقصه إلاّ حفلات وطقوس تكميليّة. كذلك الزفاف لم يكن إلاّ حفلة متمّمة لعقد الخطوبة. وفي ضوء هذه المعلومات نفهم جواب مريم للملاك: **"كيف يكون هذا وأنا لا أعرف رجلا؟"** ذلك أنّ مريم كانت عقدت زواجًا شرعيًّا على يوسف ولكنّها اتّفقت معه على أن لا يتمتّعا بهذا الحقّ استنادًا إلى نذر بتوليّتها لله وإلى موافقة القدّيس يوسف البتول على استمراره.

وفي هذه الظروف جاءها الملاك يحمل إليها بشرى الحبل من الروح القدس. وانتقلت إلى عين كارم ولمّا يمض طويل زمن على تلك البشارة. وبعد مرور ثلاثة أشهر عادت إلى منـزلها في الناصرة حيث كان ينتظرها يوسف بشوق ولهفة.

ولكن سرعان ما بدا له أمرُ الحبل. فكادت الغصّة تودي بحياته حزنًا وغمًّا. ولعلّها أقسى محنة ألمّت به.

صمت مريم

أمّا مريم فلاذت بالصمت. لقد كان هذا دأبها وديدنها. ولكن هل في ماضي حياتها ما يحمل على الشكّ بها أو يثير الظنون من حولها؟ ألا يعلنُ كلّ ما فيها أنّها بريئة من الدنس طاهرة الذيل؟ إنّها بريئة في ناظريها. والعيون التي خلقها الله للإنسان ليرى بها قد تكون في معظم الأحيان منافذ لقلبه وضميره ولما يجول في خاطره. منها يرى الناس ما اختفى. وتلك السذاجة البريئة ألا تفيض من وجهها كما تفيض من وجوه الأطفال الذين لم يدركوا بعد ولم يبلغوا سنّ الرشد؟ إنّها صريحة في كلامها وتعابيرها. لا تردّد ولا وقاحة في الجواب. لا بكاء لأتفه الأسباب ولا صراخ. وإنّما هدوء وفرح سماويّان.

اختارت جانب الصمت لأنّها تعرف بمَن وثقت. إنّ العليّ يعرف أن يجد لهذا المأزق الحرج مخرجًا. ليس لها أن تتدارك الأمور أو تبحث عن حلّ لم تعلن عنه السماء ولم يشر الله إليه. ومع ذلك فهي لا تجهل ما للشريعة من صرامة. وفي الحقيقة أنّ الكتاب المقدّس فرض على الرجل في هذه الحالة أن يمسك المرأة الخائنة بناصيتها ويسوقها إلى باب المدينة وهنالك يعلن أمر الخيانة ثمّ ينـزع نعله من رجله ويضربها على وجهها وقد حتّم أيضًا على جميع المارّة أن يأخذوا حجرًا ويرموا به الخائنة للعهود. وهكذا تموت رجمًا بالحجارة. كأنّ الشارع أرادها عبرة ضنًّا بمقام الطهارة الساميّ من أن يلوّث بالأوحال ويدنّس بالأرجاس.

كانت مريم تعرف كلّ ذلك. ولكنّ الموت لا يفزّع إلاّ المجرمين الضعفاء. أمّا الأبرياء فيفكّرون بما هو أهمّ من الموت وأسمى من البقاء في الحياة. ومريم كانت تفكّر بأمور ثلاثة: شرف الجنين الذي تحمله وشرفها هي ابنة القدّيسَيْن يواكيم وحنّة وسليلة داود وربيبة الهيكل وأخيرًا شرف هذا الرجل الذي انحدر مثلها من أسرة عريقة في النبل كريمة طيّبة الأرومة. ولقد وافقها على نذر طهارتها تكرّمًا منه ومحبّة لها.

ترقب جواب السماء

وكان يكفي مريم لتبدّد الشبهات ولتبعد كلّ هذه الشرور عن الطفل الإلهيّ وعن الزوج المخلص وعن نفسها أن تشرح بصراحة حقيقة موقفها. وكلّ صبيّة غيرها كانت تصرّفت هذا التصرّف الذي يبدو حكيمًا. ولكنّ مريم اختارت جانب الصمت بالرغم من أنّ هذا الصمت محفوف بأشدّ المخاطر وأهول المصائر. البطولة التي جبلت من عناصرها هذه النفس القدّيسة قضت أن ترقب قرار السماء. وبينما كانت تترقّب الجواب راحت تفكّر في نفسها: إنّ يوسف رجل صدّيق ولا يعقل أن يتّخذ بحقّها قرارًا طائشًا يجرّ عليها العارّ والفضيحة. وإنّ الله كذلك إله كليّ الصلاح ورحيم لا يمكن أن يتخلّى عنها وعن يوسف. وثقتها بالله عظيمة حتّى السيطرة على كلّ تردّد أو ارتياب. إنّها لواثقة كلّ الثقة بأنّ النور سينحدر من السماء ليكشف الموقف على حقيقته وتظهر هي بريئة قدّيسة بطلة على حقيقتها.

وممّا لا شكّ فيه أنّ مريم ويوسف عاشا ساعات وأيّامًا أشبه شيء بنـزاع المحتضر. بل إنّ النـزاع أقلّ منها هولاً. وممّا كان يضاعف الموقف تأزّمًا هو صمت مريم فكانت هواجس يوسف تزداد حدّة وشدّة وأمسى عطف مريم على زوجها مرًّا كلّ المرارة. فكان يوسف يمضي أيّامه منغّص العيش محزون النفس قد أقضّ الهمّ مضجعه وقرَّح الحزن أجفانه. إنّها المصائب نصيب الإنسان في الحياة. وإذا كان الخبز هو الطعام الأساسيّ الذي لا غنى عنه للإنسان فكذلك محن الحياة لا ينجو منها أحد. ومن قواعد الدين أنّ الله لا يطالب أحدًا فوق طاقته بل كلاً حسب حالته ومقدرته. ولذلك كان لا بدّ من محنة نادرة لنفسَيْن نادرتَيْن. وإنْ كنّا نحن نتطلّع إلى الأبطال والقدّيسين لنتحمّل التجربة فمريم لم تكن لتتطلّع إلاّ إلى نفسها ولا تستمدّ النور والقوّة إلاّ من الله ومن قلبها.

وليس أشدّ على الإنسان من أن يشعر بأنّه وحده أمام مشاكل الحياة ومشاقها وقد تخلّى عنه أهله ورئيسه وأصدقاؤه. إنّها لوحشة مخيفة. ولكن إذا عرف أن يخرج منها أصبح رجلاً. إنّها المحنة المضاعفة التي تنشئ الأبطال الصناديد.

على أنّ الشريعة قائمة وتنفيذها واجب. فيوسف ما كان يستطيع أن يترك في بيته امرأة خانت العهود والمواثيق كما يشير الظاهر. ومع ذلك كان يشعر في أعماق نفسه بأنّ فضيلة مريم أرفع من أن تغلب وتقهر. هذا وأنّ الصدّيق لا يحكم على أحد قبل أن يبدو له دليل الإثم واضحًا.

كتاب الطلاق

في تضاعيف هذه الأحوال قرّر يوسف أن لا يشهرها بجرّها أمام المحاكم بل أن يطلق سبيلها وذلك بأن يسلّمها كتاب طلاق حيث لا يذكر الأسباب الموجبة لهذا الهجر على أن يفعل ذلك بحضور شاهدَيْن.

من شرائع الغاب

هكذا أوحت الحكمة والدين والتقوى. أمّا تلك العادات والتقاليد التي انتشرت في الشرق قديمًا ولا تزال قواعدها تتّبع في بعض المناطق إلى اليوم فلا يقرّها العقل ولا يقبل بها الوجدان. وطريقتهم أن يقتل الرجل الابنة أو الزوجة أو الأخت الخائنة وحجّتهم في ذلك أنّ الشرف الملوّث لا يُغسل إلاّ بالدم.

قد تجد هذه التقاليد سبيلاً للمعذرة في عهود سادت فيها شريعة الغاب حيث تسلّط القويّ على الضعيف ونعم الرجل دون المرأة بامتيازات حمتهُ وبرّأت جرائمه وتصرّفاته. كذلك كانت الحال في موضوع الأخذ بالثأر. فكان الأخذ بالثأر فضيلة وكان من واجب الموتور أن يلاحق القاتل ليثأر للمقتول. أمّا اليوم فهو رذيلة لأنّ مبدأ تنازع البقاء أصبحت تحميه الهيئة الإجتماعيّة وليس الفرد وأصبح لكلّ دولة محاكمها. وقضت الشرائع أن تكون كلّ هذه الأمور من اختصاص المحاكم التي شكّلت وأنشئت لإقامة العدل بعيدًا عن النـزوات الشخصيّة؛ لأنّ الحاكم لا يخضع ولا يجوز أن يخضع إلاّ لأمور ثلاثة: علمه وذمّته والقانون.

ثمّ إن كان الزنى يلوّث وهو كذلك؛ فلماذا تلوّث الدعارة النساء دون الرجال؟ هل الوصيّة السادسة من وصايا الله هي للنساء دون الرجال؟ وهل عند الله وزنان ونظرتان؟

هذا وناهيك عن الملابسات التي ترافق كثيرًا من الحوادث. في ملفّات القضاء دعاوى تقشعرّ لها الأبدان وترتعد لها الفرائص. هنالك مَن يقتل أخته مدّعيًا بغسل الشرف الملوّث وفي أعماقه رغبة في أن يستولي وحده على الميراث. وهنالك مَن يقتل زوجته بإيحاء من وشاية كاذبة مدّعيًا عليها بالزنى. وهنالك مَن يقتل ابنته بدافع من واش طلب يدها فرفضت وردّته خائبًا. فراح يثير الشكوك حولها ليكرهها على القبول به قرينًا فلمّا أبت دفع بمَن يثير هواجس الوالد على ابنته.

قصّة

وفي محكمة استئناف حلب دعوى كانت قائمة قبل أقلّ من عشرين سنة لحادث وقع في أطراف الشمال ذهبت ضحيّته صبيّة بريئة وكان السبب أنّها رفضت يد شاب طلبها للزواج فأوغر صدر أخيها عليها مثيرًا في رأسه الشكوك حول سلوكها. فما كان من الأخ الطائش إلاّ أن ارتكب جريمة قتل راحت ضحيّتها أخته الشريفة.

في سلوك يوسف أمام مشكلة الحبل عبرة ودرس وخطّة عمل لكلّ مَن وجد في أمثال هذه الظروف الحرجة والمزالق الخطرة. فاللجوء إلى الله أفضل وأقرب السبل لاستيحاء حلّها وتدبّرها بالفطنة والرويّة.

١٧
جواب السماء

لقد أعلن الملاك جبرائيل لمريم بأنّ حبلها هو من الروح القدس وأنّ المولود منها يُدعى ابن الله (لوقا ١: ٣٥).
وإنّ القدّيس متّى في الفصل الأوّل من إنجيله بيّن بأنّ المولود الإلهيّ هو ابن مريم. وهكذا يحصر بنوّة المخلّص بأمّه الطاهرة دون يوسف. أيّ أنّ المسيح لم يكن له أب بحسب الجسد.

قلق يوسف

ولكن من أين ليوسف معرفة هذا السرّ؟ بل لولا الوحي لَما أدركه بشر.
فجواب السماء يأتي ليضع حدًّا للشكوك التي ساورت نفس يوسف ويدلّل على أنّ حبل مريم بالمسيح الفادي تمّ بدون أن تمسّ بكارتها بل لبثت بتولاً طاهرة بالرغم من حبلها بالكلمة. كان على الله إذًا أن يبدّد هواجس خادمه الأمين فيرسل له ملاكًا. ولعلّه هو الملاك جبرائيل حامل رسالة البشارة.
ويقول القدّيس متّى عن يوسف المرتاب في أمر حبل مريم: **"وفيما هو يفكّر في ذلك"**، دليل على أنّ أفكار يوسف كانت تجمّعت كلّها حول هذا الموضوع تبحث عن حلّ مُرضٍ وتفسير مقنع له.
وأحبّ أن أتصوّر يوسف كيف كان يغادر البيت إلى عمله باكرًا ولا يعود مساء إلاّ متأخّرًا. ولعلّه أجهد نفسه أحيانًا كي لا تتلاقى عيناه بعيني مريم لئلاّ ينحني عليها باللائمة أو تستفزّه هواجسه فيطرح عليها سؤالاً يمسّ شعورها الرقيق وبراءتها الملائكيّة.
أمّا مريم فكانت تشعر بكلّ الآلام التي يسبّبها كتمان الواقع عن يوسف فكانت تتألّم وتغتمّ كثيرًا لأنّها تسيء إلى صدّيق مرهف الشعور دقيق الحسّ، إلى رجل أحبّته بعد الله وعوّلت على قضاء العمر بصحبته. وهو لم يسئ إليها قطّ بل عاملها أطيب المعاملة وبذل كلّ ما بوسعه لإسعادها وهنائها. فكانت كلّ يوم بعد غيابه تركع وترفع عينيها إلى السماء تستدرّ عطف الله عساه تعالى يسمح بأن تنقشع سحابة الغموض وينجلي الموقف فيعرف يوسف حقيقة حبلها الإلهيّ.
ورجع يوسف في أمسية يوم من دكان النجارة والإرهاق بادٍ عليه. لقد نهكت قواه الأفكار المتضاربة والهموم المتلاحقة. فبعد أن قام بغسل يديه وقدميه وتبديل ملابس العمل، جلس لتناول الطعام. وكان قد أسدل على البيت جوّ من الصمت رهيب. ومدّ يوسف يده وأخذ لقمة ووضعها في فمه. ولكنّها غصّت في حلقه. فتباعد عن طبق الطعام وراح فاستلقى على فراشه.
وكان الليل قد طلع من مرج ابن عامر وتسلّق جبل الجليل وغشى مدينة الناصرة الممتدّة على سفحه. ومع الظلام هدأت كلّ حركة. الناس في بيوتهم راقدون والطيور جاثمة على غصون الأشجار. فأوصدت مريم باب الدار. ولم يبق إلاّ السراج الموقد في

إحدى الزوايا يرسل وميضًا باهتًا على أطراف الغرفة. وبذلك أُتيح لمريم بعد أن تمدّدت هي على فراشها أن تراقب يوسف يتقلّب على فراشه كمَن يتقلّب على أحرّ من جمر الغضا. ومن أين لعينيه النوم؟ وهو لا يذوق طعم الكرى إلاّ غرارًا وقلبه يقطر دمًا وينضح ألمًا وحرقة لِما حلّ بمريم من رزء جلل وخطب عظيم. ويرى نفسه مضطرًّا إلى أن يُقدم على اتّخاذ قرار صارم لمجازاتها. غدًا لدى طلوع الفجر سيسلّمها كتاب الطلاق، أعني التشريد لها والحرمان من رفيقة حياة له. وعند هذا ينتفض من فراشه كأنّه ينـزع كابوسًا عن صدره. فيمسح عينيه ويلقي نظرة من حوله، ثمّ يعود فيسند رأسه إلى الوسادة ويرسل تنهّدات عميقة ويُصعد زفرات حرّى. لقد انهارت السعادة التي كان يحلم بها. كان يتصوّرها في العيش مع هذه المخلوقة التي خيّبت آماله وسوّدت وجهه. وممّا يزيده أسى وحسرة أنّه لا يستطيع أن يقنع نفسه بغير براءتها وعفّتها.

قلق مريم

ومريم نفسها تتململ على فراشها مكدودة شجيّة. حقًّا إنّ الإنجيل المقدّس لا يحدّثنا إلاّ عن اضطراب يوسف وقلقه. ولكنّها هي أيضًا مضطربة. أليست هي المرأة المرهفة الشعور الدقيقة الحسّ أكثر من كلّ امرأة؟ وهي بشر تتمسّك بالرصانة والرزانة والشرف والكرامة الإجتماعيّة. ومع ذلك فهي تفضّل أن يظلّ السرّ مكتومًا لأسباب عديدة:

أوّلاً- هل عرض الواقع كافٍ لإقناع يوسف وإزالة هواجس نفسه؟ إنّ الأعجوبة التي حدثت لدى مريم لم يُسمع بمثلها قط، وهي أسمى وأعجب من كلّ ما سرد الكتاب المقدّس من اجتراحات وعجائب.

ثانيًا- هل يجوز لمريم أن تفشي سرّ الله. إنّ الله لم يرَ ذلك موافقًا بعد. فكيف تسمح هي لذاتها بإفشائه. وبعد مناقشة وصراع بينها وبين نفسها وجدت أنّ حقوق الله أرفع من حقوق يوسف. ومن الأفضل الخضوع والرضى بمشيئته. وهكذا قرّرت ألاّ تبوح بسرّها. فالتجأت إلى الله لأنّه لم يبق غيره يمكنه أن يحلّ مشكلتها المعقّدة في الأجل المعيّن. إنّها تثق بالله ثقة بطوليّة.

لو أنّ مريم كانت تقرأ الإنجيل كما نقرأه نحن اليوم لهان الأمر. ولكنّها هي التي كانت تكتبه يومًا بعد يوم دون أن تعرف ما يلي الساعة من أمور.

وكانت الظواهر كلّها في غير صالحها: حالتها المثيرة لشكوك يوسف وتغيّبها مدّة ثلاثة أشهر مريبة جدًّا. فلم يبق إلاّ أن تلجأ إلى الله. هو الذي دفع بها إلى هذا المأزق. وليس لمريم البحث عن حلّ. ولكن على الله إيجاد الحلّ الملائم.

وفي الواقع لن يبطئ الحلّ. لقد جاءت ساعة الله. ولله ساعات ومواعيد مع البشر ربطها بالحوادث والأحداث الطبيعيّة غالب الأحيان.

إزاحة الستار

ونعود إلى الإنجيل المقدّس لنستمع للقدّيس متّى في مطلع كتابه يقصّ علينا ما حدث ليوسف:

"وفيما هو يفكّر في ذلك إذا بملاك الربّ تراءى له في الحلم قائلاً: يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ امرأتك مريم فإنّ المولود منها إنّما هو من الروح القدس".

وهكذا أزاح الله الستار عن السرّ.

وهكذا ارتاح ضمير يوسف وانبسطت أسارير وجهه فقام من مكانه. ولا بدّ أن تكون مريم قد شعرت هي أيضًا بما حدث فنهضت من فراشها. وأحبّ أن أتصوّر بأنّ يوسف ركع أمامها ليقدّم السجود للكلمة المتجسّد في حشاها الطاهر في بحر ذلك الليل بعد أن مرّت العاصفة وساد الهدوء والسكون واتّضح ليوسف أنّ مريم بريئة وأنّ حبلها بالمخلّص بريء لم يمسّ مريم بل أبقاها على بتوليّتها فهي بتول حتّى في الحبل.

أمّا أن تأتيه الرؤيا في الحلم فهذا لا ينال أبدًا من حقيقتها وأهميّتها. لأنّ الله سبق وأعلن مرارًا بهذه الطريقة أرادته للآباء والأنبياء والقدّيسين كما نقرأ ذلك في الكتاب المقدّس (عدد ١٢: ٦).

الحلّ الأفضل

وأخيرًا نحن على حقّ إذا انتهينا إلى الحقيقة الأولى التالية: حينما يكون الإنسان مرتاح الضمير ولا لائمة عليه وينتج مع ذلك عن عمل شرعيّ مشاكل وعراقيل في الحياة الفرديّة أو العائليّة أو الإجتماعيّة عليه أن يرجع إلى الله. إنّ الله قادر أن يتدخّل بأمور حياتنا. إنّ الإنسان ميّال بفطرته إلى الحلول البشريّة يستمدّها من حكماء الدنيا أو من نفسه ويتناسى أنّ حلّ الله للمشاكل هو الأفضل وأنّ حلّ السماء لا يبطئ ولا يخيب. ولعلّها عبرة نستخلصها من تطوّرات حياتنا الماضية: إنّنا كلّما اتّكلنا على الله تقلّبنا في النعم الغزيرة وانتقلنا من نعمة إلى أفضل منها.

في التجربة خبرة

أمّا الحقيقة الثانية هي أنّ في التجربة تكمن الخبرة. والخبرة شيء ثمين في الحياة. إنّها جزء من المعرفة. واعتاد الناس أن يطلبوا الحكمة من صاحب الخبرة.

وقد يستخدم الله أحيانًا ظروفًا عاديّة أو أشخاصًا لا وزن إجتماعيّ لهم بل وحشرات لينقذ إنسانًا من مصيبة أو يخلّص مجموعة من البشر من كارثة أليمة.

قصّة

يُحكى أنّ قطارًا من النوع السريع غادر يومًا واشنطن في الولايات المتّحدة باتّجاه سان فرنسيسكو. وكان من القطر التي لا تتوقف إلاّ في محطّة من أربع محطّات. وكان الوقت غسقًا. فراح القطار يقطع المسافات الشاسعة بسرعة خاطفة. فخيّم الظلام واستغرقت الأرض في ليل حالك. ولم يبقَ أمام المسافرين إلاّ أن يستسلموا إلى الرقاد. فكنت لا تسمع إلاّ صوت المحرّك يجرّ عربات القطار وأزيز العربات عندما تمرّ فوق نقط اتّصال القضبان الحديديّة. وبقي قائد القطار وحده ساهرًا، يراقب عن كثب مجموعة المفاتيح والأزرار والمحرّكات، التي تجمّعت أمامه على اللوحة، مرتاحًا إلى الإشارات

والرموز التي كانت تدلّ كلّها على أنّ كلّ شيء سائر على ما يرام. وبغتة تنبّه إلى حركة غريبة لم يكن ليعهدها من قبل. وهي أشبه شيء بحركة شرطيّ السير يفعلها حينما يريد أن يقطع السير. فيمدّ ساعديه بقوّة وصلابة. والغريب أنّ الحركة اختفت كما ظهرت كومضة العين. ففرك القائد عينيه وأنعم النظر في كلّ الإشارات والرموز على اللوحة أمامه فلم يكن هناك ما يشير إلى خطر أو شيء غير عاديّ. ومع ذلك فليس ما يحمله على الشكّ بنفسه لأنّه كان منتبهًا كلّ الإنتباه، يقظًا كلّ اليقظة، مهيمنًا على حواسه بأجمعها. وبينما كان يفكّر هكذا إذا بالحركة تتكرّر ثانية. فاضطرب الرجل وأنعم النظر بكلّ ما حواليه. فلم يجد ما يحمله على الشكّ بشيء. وبينما هو كذلك وإذا بالحركة تتكرّر للمرّة الثالثة. حينئذ لم يجد بدًّا من التوقف. لأنّه أحسّ بخطر جسيم يهدّد القطار ومَن فيه من الركاب. وما إنْ توقف القطار، حتّى هبّ الركاب من نومهم مذعورين، وقدّروا أنّ الخطر جسيم جدًّا. فمنهم مَن نزل سريعًا من عربته وآخرون رموا بأنفسهم من نوافذ غرفهم وأخذت النساء تعوّل. واختلطت جلبة الرجال ببكاء الأطفال ونحيب النساء. أمّا السائق فنـزل وجاء ووقف أمام العربة. وشدّ ما كان عجبه عظيمًا حينما رأى على أحد القنديلَيْن فراشة لصقت ببلوره. وكانت الفراشة كلّما وصلت القاطرة إلى تقاطع القضبان الحديديّة واهتزّت فتحت جناحيها وأطبقتهما، وبسبب قوّة النور كان الجناحان يظهران كاليدَيْن الكبيرتَيْن. فهدأ روع القائد. على أنّ الدهشة استفزّته حينما تطلّع إلى الأمام ورأى الجسر القائم على أحد روافد نهر الأوهايو، ولم يكن يبعد أكثر من خمسة أمتار، قد تهدّم بفعل فيضان ما وجرفته المياه. ولو أنّ القطار جاز المسافة المتبقّية لسقط وأودى بحياة جميع المسافرين. كانت الفراشة سبب خلاص الجميع.

١٨
يوسف الصدّيق

إنّ كلمة "**الصدّيق**" معناها البارّ أيّ الرجل الذي يعرف الشريعة وينفّذ رسومها عن طيبة خاطر وبدافع من حبّ الله. وهي الصفة التي نعت بها الإنجيل المقدّس ذاك الذي اؤتمن على الصبيّ وأمّه.

فماذا قصد الإنجيليّ في هذا الظرف بالذات بهذه التسمية أو بهذه الصفة حينما أطلق لقب "**صدّيق**" على يوسف؟ وما معنى ذلك بالتدقيق؟

قبل الإجابة عن ذلك نرى أن نورد النصّ الكامل للحادث، ليكون أمام نظر القارئ.

نصّ الإنجيل

"١٨ وأمّا مولد يسوع المسيح فكان هكذا.
لمّا خُطبت مريم أمّه ليوسف، وُجدت، من قبل أن يسكنا معًا، حبلى من الروح القدس.
١٩ وإذ كان يوسف رجلها صدّيقًا، ولم يرد أن يشهرها، عزم على تخليتها سرًّا. ٢٠

وفيما هو يفكّر في ذلك، تراءى له ملاك الربّ في الحلم، وقال له: **"يا يوسف ابن داود، لا تخف أن تأخذ امرأتك مريم، فإنّ الذي حُبل به فيها إنّما هو من الروح القدس. ٢١ وستلد ابنًا فتسمّيه يسوع، لأنّه هو الذي يخلّص شعبه من خطاياهم".**
٢٢. وكان هذا كلّه ليتمّ ما قال الربّ بالنبيّ القائل: ٢٣ **"ها إنّ العذراء تحبل وتلد ابنًا ويُدعى اسمه عمّانوئيل"** أيّ الله معنا. ٢٤ **فلمّا نهض يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الربّ، فأخذ امرأته. ٢٥ ولم يعرفها حتّى ولدت ابنها البكر وسمّاه يسوع"** (متّى ١: ١٨- ٢٥).

موضوع البحث

فإذا نحن أنعمنا النظر في هذا النصّ للقدّيس متّى بدا لنا أنّ يوسف **"صدّيق"** من حيث المهمّة التي سوف يضطلع بها لدى مجيء المخلّص، وتلك المهمّة تتلخّص في أن يأخذ إلى بيته زوجته مريم، ليمنح الصبيّ المولود من حشاها، اسم يسوع.

ولكن ألا تبدو هذه الوظيفة كأنّها مخالفة للآية ١٩ من الفصل ذاته، حينما بين القدّيس متّى أنّ يوسف تردّد في القيام بتلك المهمّة، بل أنّه حاول أن يتنصّل منها باستناده إلى الشريعة التي تنصّ بأنّ الزوجة التي تخون العهود الزوجيّة تُشهّر وتُطلّق. غير أنّه لمّا كان **"صدّيقًا"** فقد أعرض عن التشهير والطلاق، وعمد إلى وسيلة أقلّ صلابة وأكثر اعتدالاً، فعزم على تخليتها سرًّا.

وهنا وقف شرّاح الكتاب المقدّس موقف التردّد والحيرة وراحوا يتساءلون: ترى، هل دُعي يوسف صدّيقًا لأنّه عزم على تخلية مريم؟ فإذا كان ذلك هو السبب الدافع إلى تلقيبه بالصدّيق فإنّه يُعتبر صدّيقًا لأنّه يتمّ الشريعة، أو إنّه ينفّذ مضمون الشريعة بحقّ زوجته حرفيًّا، خشية أن يثير سخط الله عليه.

وراح المفكّر يتحرّى العلاقة القائمة بين أن يكون يوسف صدّيقًا وبين أن يقرّر بألاّ يشهّر مريم فلا يهديه البحث والتحرّي إلى ما يقنع به نفسه فيتساءل: هل ذلك عطف منه أو هي مزيّة من مزايا العدل والإنصاف التي تتحلّى بها نفسه؟ أو بمعنى آخر هل اعتُبر يوسف صدّيقًا بارًّا لأنّه عمد إلى تدبير الأمور سرًّا لكيما يزيل الشبهة عن مريم؟ ففي هذه الحالة لا يكون هذا العمل عدلاً بل عطفًا، وهو عمل لا يتعلّق بالله مباشرة ولا صلة له بالشريعة، فهو يختصّ بمريم وحدها. أو بمنطق أوضح، إنّه عمل مخالف لإرادة الله وللشريعة.

حينما وضع الله الشريعة أوضح بذلك إرادته وفرض العمل بها وتنفيذها. وإنّ الشريعة لا تقبل السريّة لأنّها أصلاً لا تطبّق على ما انطوى عليه الضمير واختفى عن الحواس إنّما شأنها الأعمال الظاهرة. ولذلك كان لا بدّ من تشهير المجرم وإنزال العقوبة به حتّى تصبح الشريعة رادعًا والعقوبة كفّارة وتعويضًا وعبرة.

فإذا ما أراد يوسف أن يكتم الأمر خالف الشريعة وبالتالي خالف إرادة الله وهضم حقّه. فلا يكون الرجل البارّ العادل كما وصفه الإنجيليّ.

العدل والرحمة

في منتصف القرن الثانيّ للميلاد قام القدّيس يوستينوس يثبت أنّ يوسف صدّيق بارّ نحو الشريعة، متمّم لها، إذ يقرّر بأن يطلّق مريم زوجته الزانية ولكن في نفسه من الصلاح ما يدفعه إلى الرحمة بها، فيمتنع عن تشهيرها ويبعدها سرًّا. وهكذا تخفّف الرحمة من وطأة الشريعة القاسية، وينتصر الحنان والشفقة على العدل والقانون.

إلى هذه الرحمة استند بعض خطباء الكنيسة كالقدّيس يوحنّا فم الذهب وأمبروسيوس وأغسطينوس فجعلوا يوسف مثالاً لبعض المتزوّجين الذين يغارون على كرامة زوجاتهم: **"تأمّل بسلوك يوسف الفطن نحو التي خدعته فعلاً. بينما أنت لا تعتمد إلاّ على الظنون!"**.

تلك نظريّة تقليديّة قديمة جدًّا وقد شاعت منذ قرون في الكنيسة وما تزال متّبعة حتّى في أيّامنا هذه لدى بعض شرّاح الكتاب المقدّس والخطباء.

على أنّ تلك النظريّة وإنْ كانت مقبولة وشائعة تحوّل أنظار الناس عن فضيلة يوسف التي هي البرّ بالشريعة. جاعلة منه مثالاً للرحمة، وهذا لا يجوز، لأنّ الإنجيليّ ينبّهنا في هذه المناسبة إلى وجود فضيلة البرّ في يوسف وليس إلى فضيلة الرحمة. فضلاً عن أنّ تلك النظريّة بعيدة كلّ البعد عن نصّ الإنجيل المقدّس وروحه. لأنّه لا يجوز ليوسف أن يبدّل ويحوّر في شريعة كلّ قيمتها في أن تكون عملاً رسميًّا مشتهرًا. فإنّ المشترع قصد من ذلك أمرين: أوّلاً العقوبة وثانيًا العبرة. فما قيمة شريعة يدبّر الإنسان حيلة لإتمامها بما يشبه الحلول الصبيانيّة أو أعمال السذّج؟ وهل يجوز للقدّيس متّى أن ينعت عملاً بأنّه عادل وليس هو سوى شكليّات وظواهر؟

العدل والبراءة

أمّا اليوم فيعود الشرّاح إلى نظريّة القدّيس إيرونيموس القائلة بأنّه من المترتّب على يوسف أن يطلّق زوجته ويشهّرها. وبهذا وحده يمكن وصفه بأنّه صدّيق بارّ. إذ أنّه لا يعقل أن يكون الإنسان صدّيقًا بارًّا بالشريعة ويطمّس معالم جريمة زوجته. ولكنّ يوسف، على حدّ قول القدّيس إيرونيموس، كان يعرف جيّدًا بأنّ مريم طاهرة قدّيسة، فلمّا أدهشه الحادث وأذهله، ستر بصمته الأمر، الذي خُفي عليه سرّه.

ولكنّ هذه النظريّة أيضًا لا يمكن الأخذ بها. إذ أنّها تحوّل أنظار الناس عن فضيلة يوسف التي هي البرّ بالشريعة. ولذلك فهي أيضًا لا تستحقّ كسابقتها إلاّ الإهمال. لأنّه من غير المعقول أيضًا أن يوصف يوسف بالبرّ إذا هو قرّر أن يبعد زوجته التي يعرف أنّها بريئة أو على الأقلّ لم يثبت جرمها. إذ الأصل في عرف القانون أن يُعتبر كلّ إنسان بريئًا إلى أن يقوم الدليل على إجرامه. فإذا كان يوسف مقتنعًا من براءة مريم وجب عليه أن يبحث ويستهدي لا أن يعمل ويظلم.

فأين السبب الذي يسمح له شرعًا بأن يهجر زوجته؟ موقف غريب يقحم فيه يوسف الصدّيق. فلا يجوز أن يوصف بالبرّ ذاك الذي يدفع بين يدي القدر الأعمى زوجة يعرفها بريئة.

وهكذا ننتهي إلى النتيجة التالية: إمّا أن تكون مريم مذنبة فتستحقّ عقوبة التخلية، فلا نفهم حينئذ لماذا يقرّر يوسف أن يتمّه بالسرّ، فيخالف الشريعة بعمله هذا نصًّا وروحًا. أو أن يكون يوسف مقتنعًا من براءتها، فلا نفهم لماذا نسب إليه شرّاح الكتاب المقدّس فضيلة الرحمة وهو القاسي الظالم.

ونرى أن نعرض على قرّائنا مطالعة خاصّة لهذا النصّ لعلّهم يجدون فيها منطقًا أدقّ وأقرب إلى الفهم.

العدل فقط

يبدو من قراءة النصّ أنّ ليوسف رسالة خاصّة وحيدة هي أن يتبنّى هذا الصبيّ المولود من مريم، ولذلك طُلب إليه أن يعطيه اسم يسوع. وهي وظيفة محصورة بالأب دون الأم في الشرع اليهوديّ.

وبناء على هذه الرسالة يطلب الملاك من يوسف أن يأخذ مريم أمّ المخلّص إلى بيته. فالرسالة التي حملها الملاك إلى يوسف تدور حول أبوّته الشرعيّة للمخلّص. أمّا الإعلان عن الحبل الإلهيّ فليس هو المقصود مباشرة وإنّما يذكره الملاك ذِكرًا عارضًا في هذه المناسبة. ولذلك لا يذكر الإنجيليّ عن يوسف أنّه صدّيق حينما يعلن عن الحبل، لأنّ ذلك من شأن مريم، والروح القدس على لسان أليصابات غبّط مريم على إيمانها بالحبل: **"طوبى للتي آمنت أن سيتمّ ما قيل لها من قبل الربّ"**. فالمديح في موضوع الحبل الإلهيّ موجّه إلى مريم، لأنّها هي التي آمنت بأمومتها. ولكن حينما يتحدّث الملاك جبرائيل إلى يوسف عن أبوّته الشرعيّة للمخلّص، ينعته إذ ذاك بالصدّيق. فهو إذًا صدّيق، ليس لأنّه يطبّق الشريعة التي بموجبها يطلّق مريم في حالة الخيانة، إنّها أرفع من أن توصم بالخيانة؛ ولا لأنّه يعاملها بالرحمة، فليس في الموضوع ما يستدعي الرحمة؛ ولا لأنّه يبدو صدّيقًا عادلاً مع بريئة، إذ أنّه لا مكان للعدل مع البراءة؛ ولكن لأنّه لا يريد أن يُعتبر أبًا طبيعيًّا للطفل الإلهيّ ويأبى أن يرى فيه الناس غير الأب المربّي.

فإذا ما تردّد وخاف من أخذ مريم زوجته إلى بيته فما ذاك إلاّ ليحفظ للمسيح أبوّة الله له. فيقرّر أن يخليها سرًّا ويترك لله أن يبيّن للناس أنّه ابنه وكلمته المتجسّد من مريم البتول.

لهذا نعته الإنجيليّ بالصدّيق. إنّه يحفظ لله حقوقه على مسيحه، ويأبى أن يسلبه إيّاها حتّى ولو كان ذلك ظاهريًّا وفي تقدير الناس ونظرهم.

إنّه الصدّيق لأنّه لعب دورًا له أهميّته السامية بالنظر لرسالة المخلّص الإله الإنسان. وهكذا فإنّه بتردّده وخوفه، حمل البشر على معرفة الحقيقة وهي أنّ للمسيح أبًا هو الله، وأمًّا هي مريم؛ أمّا يوسف فهو الأب المتبنّي والمتكفّل بحياة الطفل وأمّه.

الجزء الخامس
الزوجة المخلصة

١٩
الزوج

"فلمّا نهض يوسف من النوم صنع كما أمره ملاك الربّ فأخذ امرأته ولم يعرفها" (متّى ١: ٢٤- ٢٥).

هذا كلّ ما وسع الإنجيل المقدّس أن يقوله في أمر زواج يوسف ومريم. وهذا الإيجاز كاف للإيمان. لأنّ الإنجيليّ لا يلقي عظة ولا يكتب كتابًا يحضّ به على التقوى وإنّما أراد أن يثبت بتوليّة مريم. فإذا توخّينا مزيدًا من المعلومات علينا أن نستوحيها من إيماننا وتقوانا أو أن نستمدّها من التاريخ العامّ والمحلّيّ أو من الحياة البشريّة العاديّة. فإنّ يوسف ومريم لم يكونا إلاّ بشرًا ومن أفراد أمّة معيّنة ومن سكّان منطقة محدودة.

زوج امرأة بتول

فالقدّيس متّى بيّن لنا نوع العلاقات التي تربط بين يوسف ومريم: إنّها علاقات زواجيّة مع حفظ البتوليّة.

حادث فريد من نوعه. لقد شاء الله أن تبقى أمّ الكلمة بتولاً في الزواج. حادث فريد حيث أنّ الله سلّم إلى حريّة بشر أمانة مقدّسة ما بعدها من قداسة هي مريم البتول.

النعمة الخاصّة

وبالطبع يفرض ذلك وجود نعمة خاصّة من الله. نعمة أيّدت مقاصد الزوجين على أن يمتنعا عمّا يتيحه الزواج من حقوق مشروعة في الجسد. ولكنّ نعمة الله لم تحرمهما حقّ الحريّة لأنّهما باستخدامهما هذه الحريّة وتجاوبهما مع هذه النعمة الخاصّة استحقّا ما استحقّا من ثواب أمام الله.

وهذا يعني أنّ يوسف ومريم مارسا في حياتهما مجموعة الفضائل الإلهيّة والأدبيّة بأكملها حتّى تمكّنا من حفظ البتوليّة وإرضاء الله إرضاء كاملاً.

وأستعرض الآن فضائل يوسف زوج مريم تاركًا لما بعد الحديث عن فضائل البتول، زوجة يوسف.

أوّلاً- يوسف الزوج البتول

لقد تمّ عقد الزواج بين يوسف ومريم. وكانا قد تعاهدا المحافظة على البتوليّة. على أنّ اتّفاقًا كهذا بحدّ ذاته لا يجتثّ الأميال الشهوانيّة التابعة للطبيعة البشريّة. فالإنسان بالرغم من نذوره لا يزال معرّضًا لإحساسات جسديّة ولتجارب شديدة تكاد أحيانًا تعصف بكلّ مقرّرات الإرادة ومقاصدها. لأنّ القرار أو النذر هو بدء العمل وليس غاية العمل.

وإنّ الذي يزيد يوسف فضلاً هو أنّه يعيش تحت سقف واحد مع مريم الصبيّة الجميلة.

الحبّ البريء

فحُتّم عليه أن يجدّد يوميًّا قراره لله. وإنّ ما ساعده على ذلك هو الحبّ البالغ البريء الذي كان يحمله لمريم. فإنّه كان يستمدّ من حركاتها ومظاهرها حافزًا قويًّا للتمسّك بقواعد الأخلاق والحياء والحشمة.

فلقد أحبّ مريم بكلّ ما يوحي الحبّ البريء، الحبّ النـزيه، الحبّ الذي هو عطيّة الذات للشخص المحبوب.

وليس الحبّ الشهوانيّ الذي يطمع بالغير ويؤثر الذات واللذّة والحسّ.

الحبّ خدمة

حبّ يوسف لمريم يقوم على الخدمة والتضحية. إنّه حبّ روحيّ يسمو بالإنسان عن حبّ الجسد إلى حبّ الأخلاق والنفوس. شأنه في ذلك شأن الراهبة التي تحبّ اللقيط فتتبنّاه أو المريض فتُعنى به أو العاجز فترعاه. ولا ترى فيه مشرّدًا أو جريحًا أو منبوذًا ولكن إنسانًا متألّمًا ونفسًا مات المسيح لكي يفتديها.

إنّ الحبّ الحقيقيّ أسمى من العاطفة والشعور والإحساس. الحبّ الحقيقيّ لا يقوم على أن ينظر الإنسان إلى إنسان آخر خاطئ مثله كما تبادل آدم وحوّاء النظرات بعد المعصية. ولكن أن يتبادل الحبّ اثنان معًا ليسموا معًا.

وبالنتيجة أن ّالحبّ الحقيقيّ هو تناسي الذات وخدمة الغير وأن يتمنّى السعادة كلّ منهما للآخر وأن يعمل ما في وسعه ليهنأ الآخر في عيشه. إنّه عطيّة الذات والتجرّد. ولهذا اعتُبر الحبّ المتبادل بين يوسف ومريم نموذجًا مثاليًّا للحبّ في الزواج وفي حالة التبتّل. ولهذا أيضًا يمكن اعتبار بيت الناصرة بيتًا مثاليًّا للمتزوّجين وديرًا مثاليًّا للرهبان والمتعبّدين. وإنّ يوسف ومريم معلّمان ساميان للحبّ الحقيقيّ.

إنّ الحبّ أشبه شيء بميزان يبيّن لكلّ ما له وما عليه. أمّا الشهوة فليست إلاّ منحدرًا لا يرضي إلاّ الجسد ولا تستطيع بانحدارها إلاّ أن تهدم وتخرّب وتجرف كالسيل المتدفّق في الشعاب.

الحبّ إسعاد الغير

الحبّ الحقيقيّ لا يعني الحصول على السعادة. إنّها بحث عن إسعاد الغير. نحبّ لكي يسعد الناس ويهنأوا.

وحينما نفكّر هكذا نكون قد رجعنا إلى مصدر أساسيّ وأوّليّ للدين السليم ولمجتمع يسوده السلام والنظام.

يتبيّن من كلّ ما سبق أنّ الحبّ هو الذي أهاب بيوسف لأن يعيش مع مريم حياة البتوليّة والطهارة.

الحبّ الدنس

وما أبعد أفكار المجتمع الراهن عن معنى الحبّ الصحيح والطهارة الحقيقيّة! في المجتمع الحبّ هو طريق الدنس والدعارة. ذلك لأنّهم شوَّهوا معنى الحبّ ولم يحسنوا إدراك كنهه.

في المجتمع لا يؤمنون بطهارة أحد لأنّهم لا يؤمنون بوجود النعمة وبمفاعيلها أو لا يسعون إلى تلك الوسائل سعي الواثق بأنّها تستطيع أن تكون عونًا للإرادة التي صمّمت على حفظ الطهارة والعفاف.

الأخطار

أمّا أن يعيش الإنسان طاهرًا فأمر لا يستغني عن النعمة. لأنّ الطهارة فضيلة يشقّ على الإنسان الحفاظ عليها. فغرائز الجسد المنحطّة وميوله السافلة والخطيئة الأصليّة التي أضعفت شدّة المقاومة والحرب الداخليّة بين الجسد والروح والعلاقات مع الجنس الآخر ورفه الحياة ورخاؤها والتجارب الخارجيّة عوامل تجمّعت لتجعل من اتّزان الإنسان حالة متخلخلة يصعب معها الإنتصار والظفر على وساوس الشيطان وإثارات العالم والجسد. فينادي حينئذ المنادون أنّ الفضيلة المعرّضة لأشدّ الأخطار لا يمكن الدفاع عنها ولا المحافظة عليها بهذه الوسائل الواهية.

ضرورة النعمة

ما أبعد هؤلاء عن الواقع! وإنْ كانوا كثيرين. إنّهم لا يؤمنون بإمكانيّة حياة طاهرة لأنّهم لم يدخلوا في حسابهم عامل النعمة.

إنّ الطهارة فضيلة فائقة الطبيعة لا يمكن المحافظة عليها إلاّ بنعمة سماويّة.

ومن المؤسف أنّ كثيرين لم يتوقفوا إلاّ عند الصعوبات والعراقيل التي ترافق الطهارة. وكان الأجدر بهم أن يتأمّلوا في جمالها وعظمة نتائجها في خلاص البشر وبناء مجتمع سليم الأخلاق والصحّة، ثاقب النظر، حصيف الرأي سديده، قويّ عند العمل. كان عليهم أن يجرّبوا الواسطة أو الوسائط التي يوحي بها الدين وتعلّمها الكنيسة قبل أن يحكموا بعدم المقدرة والخذلان.

إنّ الله الذي أوجد الوصيّة أوجد السبل للمحافظة عليها والعمل بها. فمَن تطلّع إلى الواجب وأهمل النعمة التي تساعد على القيام به كمَن أرسل أعزل إلى ساحة الوغى.

هذه النعمة تمنح لكلّ مَن يطلبها بتلهّف وتُعطى لكلّ مَن يخلق الجوّ الملائم للطهارة وتوهب لكلّ إرادة طيّبة بترت أسباب الضعف والسقوط وتهيّأت لكبت نزعات الجسد الخبيثة.

لا يجوز للإنسان أن يرمي بنفسه في المهالك وينادي بالويل. لا بدّ من التيقّظ والسهر واتّخاذ كلّ وسيلة تبدو فعّالة مجدية.

ويجب أن نعرف أنّ الأمور كلّها مهمّة، خطيرة النتائج. فلا شيء طفيف تافه: **"مَن كان أمينًا على الصغائر كان أمينًا على الكبائر"**.

ثانيًا- يوسف الزوج المخلص

حينما قرّر الثالوث الأقدس أن يسلّم ابنه الوحيد والعذراء الطاهرة ليوسف لا بدّ أنّه وجد فيه صفات نادرة وفضائل سامية. وحينما دعاه الله إلى هذه المهمّة الشريفة عرف هو أن يسمو بأخلاقه ليصبح أهلاً لها: الشرف يقضي: إنّ الذي أُعطي كثيرًا يطالب بأكثر.

لقد لبّى يوسف الدعوة وقبل الرسالة والأمانة. فعليه الآن أن يقوم بواجباته بدون تلكّؤ ولا توان، بل بكرم وإخلاص ونشاط.

نعم أخلص يوسف لربّه ولزوجته وللمسيح.

أخلص لربّه

لأنّه كان يطيع جميع الأوامر التي تُملى عليه. بعد البشارة يأتيه الملاك ويقول له أن يأخذ امرأته مريم لأنّ المولود منها من الروح القدس فيأخذها فورًا. ويأتيه الملاك ثانية ويأمره بأن يأخذ الصبيّ وأمّه ويهرب إلى مصر فيفعل حالاً ويسير عبر الصحراء مقاسيًا الظمأ ومكابدًا عذاب المسير تحت الشمس المحرقة وهو جذلان فرح لأنّه يُذعن لمشيئة الله ويستكين لأوامره.

وبعد موت هيرودس يعود الملاك فيأمره بالرجوع إلى أرض فلسطين فيرجع بدون تلكّؤ ولا تردّد.

وإذا أضفنا إلى الحوادث السابقة خضوعه للشرائع المدنيّة، لأنّ **"لا سلطة إلاّ من الله"** كسفره مع مريم إلى بيت لحم، وخضوعه للشرائع الدينيّة كختانة المسيح وتقدمته وزيارته للهيكل، يظهر يوسف الرجل المخلص لجميع ما تعيّن عليه ويتوجّب من قبل الله تمجيدًا له. والإنجيل المقدّس يبيّن بوضوح بأنّ كلّ أمر وواجب يقابله يوسف بطاعة ملؤها الإخلاص الشديد والخضوع العجيب.

وهل يجوز ليوسف أن يكون إلاّ مخلصًا بعد أن دُعي ليعيش مع يسوع ومريم. هل يستطيع إلاّ أن يتشبّه بهما ويحذو حذوهما في التحلي بالفضائل والتمسّك بوصايا ربّه.

أخلص لزوجته

في أشدّ المواقف عامل مريم بالعدل المستنير بالرحمة: **"لم يرد أن يشهرها بل همّ بتخليتها سرًّا"**.

أجابها إلى طلبها بأن تبقى بتولاً. فضحّى بذاته لإسعادها ولم يخالف لها قط رغبة.

عاش وعمل لتكون سعيدة بقربه.

أخلص للمسيح

فكان له الأب المربّي الأمين. عمل ليقدّم الغذاء واللباس والسكن. وقد عاش حياة كريمة من عمل يديه وعرق جبينه، صادقًا بأقواله، شريفًا في معاملاته، لا تؤخذ عليه لائمة لائم، لئلاّ يمسّ شرف المسيح بأذى، بل تُرك له في المجتمع الذي عاش فيه شهرة

الرجل "**الصدّيق**" وهو أفضل ميراث خلفه لولده. لأنّ الصيت الحسن والسمعة الطيّبة والذكر العطر أفضل ما يتركه الإنسان ميراثًا لأفراد عائلته.

وقد قال عنه القدّيس فرنسيس السالسيّ: "لقد كان ليسوع ومريم ما كان يوسف لفرعون أنّه "**المقرَّب من الله**" أنّه قيّم يؤمّن حاجات العائلة بدون نقصان ويقيها غائلة الحاجة والجوع.

لقد رضي أن يتحمّل مسؤوليّة خطيرة جدًّا حينما شاء أن يكون الحارس والحامي. فإنّه بأتعابه وعرق جبينه أمّن كلّ حاجات العائلة من طعام ومستلزمات وضرورات. بل إنّه المسؤول عن سلامتهما والذود عن حياتهما وكرامتهما. لقد اكتشف المغارة في بيت لحم وهرب بهما إلى مصر أمام تهديد هيرودس كما رجع بهما حينما زالت أسباب الخطر. ولذلك يرسل الله له وليس لمريم ملاكه وعليه يُنـزل إيحاءاته. وله المسيح الشاب يخضع ويتمّ الأوامر. ولا نظير لحبّه لهما وخدمته سوى حبّه لله وتمسّكه بوصاياه.

٢٠
الزوجة

لقد خرج يوسف ومريم من المحنة الناتجة عن الحبل الإلهيّ أعمق إيمانًا وثقة بالعناية الربّانيّة وأكثر تعلّقًا الواحد بالآخر؛ خرجا من التجربة ليدخلا في فرح المحبّة والنصر.

العالم وإبليس يدفعان ثمن التجربة ملذّات. أمّا الله فيجعل من الفرح الثمن والمكافأة.

نعم إنّها طريقة الله في مكافأة عبيده: لا يضع إكليلاً على رأس مجّانًا ولا يرضى أن تكون حياة الإنسان منّة أو هبة أو عطيّة. يريد الإنسان عاملاً معه، شريكًا في كسب نعمته. وفي الواقع أنّ الله لم يكلّل ابنه بالمجد إلاّ بعد أن تكلّل رأسه بالشوك.

على أنّ الحياة في واقعها ليست تجارب ومحنًا متواصلة. لقد رتّب الله أن تكون حياة الإنسان سلسلة من الأعمال العاديّة المتتالية الرتيبة. وشاء أن تكون سعادة السماء مكافأة لهذه الحياة الرتيبة شريطة أن يكون الإنسان عادة في حالة النعمة وأن يُتقن هذه الأعمال لأنّها تُستخدم لتمجيده.

وهكذا يصبح كلّ عمل عظيمًا أمام الله، على قول بولس الرسول: "**إنْ أكلتم أو شربتم أو مهما عملتم قدّموه لمجد الله**" وهذه الآية معناها أنّ أبسط الأمور التي تتكرّر معنا بحكم حاجة الطبيعة يمكننا أن نقدّمها لله فتصبح تمجيدًا وتسبيحًا له.

غير أنّ هذه الحياة اليوميّة تختلف حسب حالة كلّ إنسان ودعوته وبيئته. هنالك المحامي والتاجر وهنالك العامل والراهب وهنالك الأعزب والمتزوّج. كلٌّ يمجّد الله ضمن حدود الحالة التي دُعي إليها.

ولكي نتبيّن حياة مريم كزوجة في بيت الناصرة نرى أن نستعرض ما امتازت به من حيث طرق تفكيرها وحبّها لله ولزوجها وللواجب.

الزواج لمريم ضرورة

ولا بدّ من القول أوّلاً بأنّ مريم العذراء لم تتزوّج طمعًا بما يوفّر الزواج من ملذّات. لم يخطر الزواج على بالها إلاّ استبعدته عنها. ولم ترغب فيه إذ كانت قد نذرت بتوليّتها. لكنّ الله هو الذي أراد لها الزواج وكان يكفي أن يُبدي لها إرادته حتّى تقبل بالزواج من كلّ قلبها. وقد كمنت وراء مشيئة الله حكمة إذ كان قد قرّر بأنّ التي يتّخذ منها الكلمة جسدًا يجب أن تكون عذراء. ولكن كان لا بدّ من المحافظة على سمعة هذه البنت وتغطيتها ولو أنّها أرفع من أن تمسَّها الشكوك بأذى. وكان عقد الزواج وحده يستطيع أن يقيها لواذع الألسنة وإثارة الشكوك من حولها. وهكذا تمّ ما أراد الله لها.

زوجة طاهرة

يقول القدّيس أوغسطينوس: **"لقد أصبحت مريم بالزواج خاصّة يوسف كما أصبح يوسف بالفعل نفسه خاصّة مريم لأنّ الواحد وهب نفسه للآخر"**. وقد اتّفقا أن يهب الواحد للآخر طهارته، وأن يتخلّى كلّ واحد منهما للآخر عن حقّه في الزواج. هذا هو العقد الذي ربط بينهما وجمع بين قلبيهما. بالطبع كان على الله أن يمدّهما بنعمة خاصّة ويؤيّدهما بعون من عنده ليثبتا في مقاصدهما، لأنّ الوضع دقيق وخطير جدًّا. وهكذا وجدت مريم لها عونًا على الحياة وسترًا يقيها كلام الناس ويبعد عنها الظنون ويحسم كلّ سبيل للشكّ والريبة.

زوجة نجّار

وقد رضيت أن تصبح زوجة لعامل نجّار. فكانت تصغي إليه يحدّثها عن أعماله في دكّانه، عن نجارته، عن زبائنه وعن مرابحه. وإنّ الرجل ليشعر بسعادة إذ يسرّ إلى زوجته بتفاصيل حياته وأعماله. وكانت تشجّعه وتبارك عمله وتظهر له شيئًا من الإعجاب بمهارته ومثابرته على العمل. وتقرّ له بالعرفان والشكر. ومن المسلّم به أنّ السعادة في مطلع الحياة الزواجيّة تقضي بأن تتفهّم الزوجة دورها في البيت وذلك بأن تتزوّج رجلها وعمله.

البيت السعيد

فكانت حريصة كلّ الحرص على بناء بيت سعيد على أُسس من الوحدة الروحيّة.

فحاولت أوّلاً أن تتفهّم ذهنيّة رجلها.

ونحن نعرف أنّ بعض النساء بسوء تفهّمهنّ هذا الواجب يسمحن بأن يتصدّع البناء منذ تأسيسه وهيهات أن يرأب!

أمّا مريم فمنذ الساعات الأولى عكفت على اعتبار يوسف بأنّه رجل. رجل يهتمّ بأمور أهل بلدته وحالة السوق ونشاط التجارة والسياسة والرأي العامّ. فلم تفرض عليه أن يفكّر مثلها كامرأة. للمرأة عالم من التفكير وللرجل عالمه.

وفضيلة مريم دفعتها لأن تسعى لتوحيد القلوب والأرواح وذلك بأن أضافت صفاتها الخاصّة إلى صفات يوسف. قامت بعمليّة تطعيم كما يفعل البستانيّ حينما يطعّم شجرة مثمرة بغصن جديد من عنده.
وكانت مريم دقيقة في ترتيب بيتها وتهيئة الطعام، تسعى لإرضاء زوجها في ذوقه ورغباته حتّى الطفيفة.
إنّ التفاهم بين الرجل والمرأة سدى لحمته هذه الأعمال اليوميّة البسيطة التي تقوم بها المرأة مع الانتباه لِما يُرضي الزوج ويجلب عطفه ومحبّته.
وإنّ مريم من دون ريب سعت بكلّ الطرق المشروعة لتجلب إليها زوجها فيحبّها. وأخلصت له الحبّ فشعر في قربها بأنّ الحياة سعيدة وأنّ الزواج ثمرة من ثمار الجنّة حينما يعيش الإنسان بقرب امرأة فاضلة، فيتحوّل البيت الزواجيّ إلى فردوس على الأرض.
وبهذه الطريقة استطاعت مريم أن تلج إلى قلبه وتتمكّن من عواطفه. فاستولت عليه كاملاً لتقدّمه لله قربانًا مثلها على مذبح الواجب وخدمة الله وعبادته.
وبذلك حوّلت بيتها إلى معبد يقوم فيه كلاهما بواجب العبادة مشتركَيْن متّفقَيْن.
إنّهما يتعاونان على الحياة ويحترم أحدهما الآخر ويتبادلان الآراء ويتشاوران. إنّهما قلبان ينبض كلّ منهما لسعادة الآخر. ما أجمل تلك الأحاديث التي تدور بينهما! بل أجمل منها تلك الصلوات التي يجتمعان ليرفعاها للربّ. وفي السبوت تراهما سائرَيْن إلى الكنيسة لمشاركة الشعب بالصلوات الرسميّة كما يشاركانه في الأعياد والحفلات.
في بيتها تقوم بالخدمات المترتّبة على كلّ امرأة في بيئة هي أقرب إلى حياة الفلاّحين والمزارعين منها إلى حياة المدن الكبرى.

عين مريم

وهنالك تقليد شائع في الناصرة بأنّ مريم كانت تحمل جرّتها على رأسها أو على كتفها وتذهب بها إلى عين البلدة لتملأها بالماء. وقد سُمّيت تلك العين إلى اليوم **"عين مريم"**. وأظنّ بأنّ مريم كانت تخرج إلى العين برفقة غيرها من البنات والنساء كما هي العادة المنتشرة إلى اليوم في القرى التي تعيش على مياه نبع تأتي إليه البلدة كلّها لتستقي.
وربّما كانت مياه العين تتدفّق إلى حوض من حجر تُسند إليه الجرّة لإملائها. وربّما كان هناك أكثر من جرن حول العين تردّه الماشية خاصّة عند المغيب بعد أن تعود من مراعيها.
هنالك بين زمرة لطيفة من أمّهات الزلف وقفت مريم تنتظر دورها وتتبادل معهنّ أطراف الحديث.
ولعلّه في أمسية أحد الأيّام تجمّعت البنات والنساء من حولها يصغين لها تسرد عليهنّ قصّة من الكتاب المقدّس. لأنّ مريم وإن كانت تتميّز في داخلها بحياة روحيّة عميقة ففي الظاهر لم تكن تختلف بشيء عن بنات جنسها في ذلك العصر. إنّها إحدى نساء بلدة

الناصرة، زوجة نجّار، صبيّة جميلة يبدو على وجهها قبس من الحشمة والحياء، تفيض بالأنوثة، لا تفرط بالكلام.

هذه هي مريم الزوجة في بيتها مع زوجها ومهامها اليوميّة لا تختلف عن باقي النساء المتزوّجات إلاّ بتفهّمها الكامل لِما يجب أن تتحلّى به الزوجة الصادقة والمخلصة.

وبهذا تنتصب مريم مثالاً حيًّا للمتزوّجين في علاقاتهم. فيتعلّم الرجل أن يتوخّى من زوجته هذا الحبّ الخالص فتكون مصدرًا لسعادته. كما تتعلّم المرأة أن لا تتبذّل أمام الرجال فيرون فيها المتعة لا غير.

محاذير الحبّ في الزواج

ويمكننا أن نؤكّد بأن ّالحبّ المسيحيّ ما زال إلى أيّامنا هذه لدى السواد الأعظم من المسيحيّين بعيدًا عن التفكير الصحيح. إنّهم يعيشون على الحبّ ولكنّهم ينظرون إلى المرأة نظرة احتقار وحذر.

ومردّ ذلك إلى اللعنة القديمة التي لحقت بالمرأة بسبب إغرائها الرجل على مخالفة أمر الله. فانتقلت الفكرة من العهد القديم إلى لغة المسيحيّين وتقاليدهم وآرائهم، حتّى اعتبروها نجسة في الحبل والولادة. وهذا ما أفسد معنى الحبّ الصحيح.

غايات الزواج

في تعريف الزواج وغاياته راح آباء الكنيسة وعلماؤها يعطون الأهميّة الأوّليّة إلى النسل وتخفيف الشهوة أكثر ممّا إلى التفاهم المتبادل بين المتزوّجين.

مع أنّ الدين المسيحيّ والعهد القديم من قبله سعى لإفساح المجال أمام تنمية شخصيّة المرأة. وقد أشاد الكتاب المقدّس بزمرة رائعة من النساء الفاضلات والكنيسة تفاخر بقدّيساتها على مدى الأجيال.

ولكن لمّا كانت الآراء المنتشرة عن الطهارة والزواج من جهّة هي من صنع الرجال وكانت الأحوال الإجتماعيّة فاسدة من جهة ثانية جعلت المرأة تابعة للرجل فتردّت الأفكار عن الأمّ وعن الزوجة بنوع خاصّ نتيجة لتردّي الفكرة عن المرأة عمومًا.

وهكذا، عوضًا عن أن يهتمّ الرجل بشأن المرأة بحدّ ذاتها، توجّهت أفكاره إلى ما يمكن أن يفيد منها في إنماء الجنس البشريّ وتوجّهت خاصّة إلى الأخطار التي تشكّلها بالنظر لضعف إرادة الرجل أو إلى الإنتصارات التي يحرزها أمام إغرائها.

تحرير المرأة

والذي أبقى على الأوضاع القديمة في عصرنا هو انقسام الكتّاب والمفكّرين إلى أحزاب وشيع. فمن منتصر لها يحاول تحطيم القيود التي تكبّلت بها منذ آلاف السنين إلى مقاوم لكلّ نهضة تحرّريّة تسعى لإرجاع الحقوق التي انتزعتها أنانيّة الرجل من المرأة باستعباده لها.

ولعلّ البعض في وقتنا الحاضر انساقوا مضطرّين إلى اتّباع رأي بدا لهم تحرّريًّا من بعض الوجوه مع إبقاء المرأة عمومًا ضمن قيود الماضي، فميّزوا بين المرأة عامّة فحذّروا منها وحكموا عليها أن تبقى في القيود لئلاّ تنطلق فتهدم. وبين الأمّ والزوجة فافسحوا أمامها شيئًا من الحريّة. ولكن فات هؤلاء أنّ التفريق في شخصيّة المرأة عمل خاطئ لأنّ شخصيّتها واحدة أكانت أمًّا لأولادها أم سيّدة في منزلها أم حبيبة لوالديها. ولقد قدّسها سرّ الزواج فجعلها بذلك صورة للتجسّد الإلهيّ. والحبّ الزواجيّ كفيل بأن ينمّي الحبّ الإلهيّ في النفوس المسيحيّة لأنّه يقوم على أساس سرّ من أسرار الكنيسة. والسرّ كوثر تتفجّر عنه النعم.

الطهارة أفضل

ولعلّ إعجاب المسيحيّين بمريم العذراء هو الذي حوّل أنظارهم عن المرأة كزوجة وأمّ إلى فضل الطهارة ونذر العفاف. وهكذا بقي طيّ النسيان شرفُ الحياة الزوجيّة وفضلُ الأمومة.

وليس من الغريب بعد هذا أن نلاحظ بأنّ النساء اللاتي رُفعن على الهياكل لم يكنّ إلاّ من الأرامل أو من الأبكار أيّ اللاتي انتصرن على الحبّ.

أثر الرهبان

وممّا لا شكّ فيه أنّ الرهبان هم الذين نشروا فكرة تحبيذ البتوليّة واحتقار الملذّات الدنيويّة حتّى المشروعة منها وتوجيه جميع القوى الروحيّة وتركيزها حول شخص مثاليّ هو مريم البتول. وقد هانت لهم كلّ الصعاب الناتجة عن البتوليّة حينما وقفت مريم العذراء مثالاً حيًّا أمامهم. والبتوليّة تنمو وتزدهر في جوّ بتوليّ يستطيع أن يحوّل ميول الجسد ويرتفع بها إلى أجواء لا أسمى ولا أشرف ولا أبهى.

تقدير البتوليّة

ومجتمعنا الحاضر يبدو أكثر تفهّمًا للبتوليّة وخاصّة إذا ما كرّست تلك القوى الروحيّة لتربية النشء وخدمة القريب في المستشفى أو في دار العجزة. ويعترف الناس في هذه الأحوال بفضل البتوليّة على الزواج. وهذا لا يمنع بالطبع أن يكون بين المتزوّجين مَن هم أكثر طهرًا وتضحية من الراهب الذي نذر وتزهّد. على أنّ الحياة الرهبانيّة تقدّم شروطًا أوفر لضمان الطهارة من البقاء في العالم إذ أنّ جوّ الدير مشبع بالتأمّلات والصلوات والمناولات ضمن الحصن المقفل بوجه الجنس الآخر. وكلّها وسائط كفيلة بمساعدة الإرادة القويّة المصمّمة على حياة الطهر والعفاف. أمّا الحياة في حالة الزواج وفي الأسرة فتجرّ وراءها من المهام ما يجعل حياة الطهر والعفاف في الظروف العاديّة صعبة المنال.

النعم الخاصّة بالمتزوّجين

ولكنّ الله حينما رفع الزواج إلى درجة سرّ علّق به نعمًا من شأنها أن تقدّس المتزوّجين وأن تحملهم على تقديس الفراش وتحمّل الأعباء الناتجة عنه وأن يلدوا البنين ويربّوهم التربية اللائقة بأبناء الله ليصبحوا أعضاء في كنيسة المسيح. ويستطيع الزواج أن يخلق قدّيسين لأنّه سرّ أيّ ينبوع للنعم. وأفضل ما يتوخّى المتزوّجون هي العلاقات الطيّبة ضمن حدود التفاهم المتبادل وعلى أساس الحبّ المسيحيّ الخالص ولهم في ذلك مثال حيّ في يوسف ومريم عروسَيْ الناصرة.

٢١
زوجة العامل

كانت العذراء زوجة رجل عامل نجّار. وقد عرف الناس أوّل ما تعرّفوا إلى يسوع أنّه ابن يوسف النجّار من الناصرة (متّى ١٣: ٥٥).

نوع عمل يوسف

ولعلّ مهمّة يوسف لم تكن تنحصر في نوع معيّن من النجارة كما هو الحال اليوم. فإنّ كلّ فئة من النجّارين في وقتنا الحاضر لها اختصاص في ناحية معيّنة من النجارة. فهناك نجّار البنايات الجديدة. ونجّار الأثاث لفرش البيوت. ونجّار يقوم بعمل بعض القطع التي تحتاج إلى مزيد من الفنّ والمهارة كالفسيفساء وصنع الأواني وحفر الأخشاب الثمينة وما يشبه ذلك. أمّا يوسف فكان نجّارًا مهمّته شاملة لكلّ حاجات الضيعة. فهو الذي ينجّر لبيوت الناصرة الأبواب والشبابيك. وهو الذي ينجّر ما يلزم لسكّة الفدّان وهو الذي يعمل الاسقالة الضروريّة للبناء. حتّى أنّ بعض الكتّاب يفترضون أنّه كان نجّارًا بناء. كما أنّه يقوم بعمل عربات الجرّ بكافّة أنواعها والنوارج للدراسة وكلّ ما يلزم للعناية بحيوانات الفلاحة والدواجن.

ولعلّه كان ينتظر الموسم ليأخذ بدل أتعابه من غلال الموسم كالحبوب والزيت والزيتون والتين كما هي العادة إلى اليوم في أكثر القرى.

وهكذا كان يوفّر لبيته مؤونة الشتاء حيث أنّ أكثر الأشغال التابعة للزراعة تتوقّف في هذا الفصل عن العمل. فالأمطار والعواصف تحول دون الفلاحة والزراعة. وأكثر سكّان الناصرة والقرى المجاورة لها هم من الفلاّحين والمزارعين. فتتراكم الأشغال على يوسف النجّار. لأنّ الفلاّح الذي توقّف عن عمل الفلاحة والزراعة يستغلّ هذه الفرصة ليصلح ويجدّد آلات العمل. فيجني يوسف منها الربح الوافر.

أسرة سعيدة

وهكذا عاشت مريم عيشة هنيئة سعيدة مع رجل عامل يكدح نهاره لكسب معيشته ومعيشة عائلته. ذلك أنّ السعادة لا تتهادى دومًا في بيوت الأغنياء وليست وليدة مال أو ثروة طائلة أو وجاهة. إنّها وليدة واجب يتمّه الإنسان بدقّة وتفان في سبيل مبدأ أسمى.

وأيّ مبدأ أسمى من السعي لعمل إرادة الله وخدمته وحبّه وتوفير اللازم من المال لأحبّ وأقدس شخصَيْن.

العمل عبادة

من هذا العامل يمكننا أن نتعلّم أسلوب حياة ومبدأ عمل. إنّه يعيش ليفيد الناس منه ويعمل ليكسب رغيف الخبز الذي منه يستمدّ قوّة لعبادة الله ويمدّ مريم بما تعبد الله ويسوع لينمو ويكبر. إنّه يكسب حيث يصعب الكسب. ولكنّه يعمل بدون حقد. لأنّه لا يعمل إلاّ لواحد أحد، هو ربّ السماوات والأرض، الذي يكافئ مكافأة كاملة **"كيلاً مهزوزًا فائضًا"**.

العمل المتقن

وهذا المبدأ يجعله يتقن عمله دومًا ويتحمّس ليكون عمله أفضل ممّا سبق من حيث الدقة وكمّيّة الإنتاج.

لا يفتح الإنسان عينيه على الحياة إلاّ ليفتح قلبه. ولا يتعلّم أن يرى إلاّ ليتعلّم أن يحبّ. وعامل الناصرة يعلّمنا أن نكون واقعيّين لا متهوّسين، منتجين لا مدّعين، مفيدين لا هدّامين.

العمل خدمة

العمل في نظر عامل الناصرة خدمة والمهنة خدمة والوظيفة خدمة أيّ كلّها أعمال وتضحيات.

في ذلك يكمن سرّ حلّ كلّ مشاكل العمل في المجتمع. ويمكن حصرها في عبارة واحدة هي احترام الغير في ما له. فقشرة الشجرة ليست الشجرة: إنّها عامل من عوامل وقايتها فقط.

وكانت أنظار مريم تقع يوميًّا على يوسف العامل وهو عائد مساء من دكّان النجارة. فترى وجهه ويديه وملابسه وملامحه وحركاته وقد اتّصفت كلّها بطابع واحد هو طابع الرجل العامل. فيوسف إذًا ليس ذلك العجوز المرهف، النظيف الملابس، البهيّ الطلعة كما نراه في صور يقال إنّها تُقويّة. إنّه أبعد ما يكون عن تلك التشويهات والتزييفات. فإنّه أحد عمّال القرية حيث يشقى الإنسان في أعمال طويلة ومرهقة. ويكفي أن نلقي نظرة واحدة على يديه لنرى أنّهما قد تحجّرتا قساوة وصلابة.

العبر

ومن سلوك هذا العامل يشعّ نور قد يكون هدى لكثير من العمّال وأرباب العمل في عصر أكثر مشاكله هي مشاكل العمل.

العمل واجب

أوّلاً- هي الأمثولة التي يعلّمها القدّيس بولس: "نوصيكم أيّها الإخوة باسم ربّنا يسوع المسيح أن تجتنبوا كلّ أخ كسلان.... فإنّكم تعلمون كيف ينبغي أن تقتدوا بنا لأنّنا لم نخالف الترتيب فيما بينكم ولا أكلنا خبز أحد مجّانًا بل اشتغلنا بالتعب والكدّ ليلاً ونهارًا لئلاّ نثقل على أحد منكم لا لأنّه ليس لنا سلطان ولكن لنجعل أنفسنا مثالاً لكم لتقتدوا بنا. فإنّا لمّا كنّا عندكم وصيناكم بهذا أنّه إنْ كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل. وقد بلغنا أنّ فيكم قومًا يسلكون على خلاف الترتيب غير مشتغلين بل متشاغلين بما لا يعنيهم. فنوصي أمثال هؤلاء ونسألهم بالربّ يسوع المسيح أن يشتغلوا بهدوء ويأكلوا من خبزهم (تسالونيكي الثانية ٣: ٦- ١٢).

محاذير الكسل

وهكذا يبيّن بولس الرسول بأنّ العمل واجب وأنّ إهمال هذا الواجب يجرّ شرّين: أوّلاً يحرم الكسلان من الطعام وثانيًا يوقع الكسلان في رذيلتي النميمة والافتراء وهما الآفّة الكبرى للمجتمع الشرقيّ. حيث ترى بعض الناس لا يهتمّون إلاّ بأمور غيرهم. ولكي يجدوا دومًا سوقًا رائجة لأحاديثهم ولإرواء تلك الرغبة في التكلّم عن الغير ينسبون للقريب ما ليس فيه بل ما قد يكون فيهم.

ويضيف بولس الرسول أيضًا قوله: "**نسألكم... أن تحرصوا على أن تكونوا هادئين تعملون ما يعنيكم وتشتغلون بأيديكم**" (تسالونيكي الأولى ٤: ١١). فالرسول يحضّ على العمل اليدويّ على مثال القدّيس يوسف لأنّ العمل اليدويّ عظيم الشأن والمنـزلة. ولكن هذا لا يعني أبدًا أنّ العمل العقليّ حقير. إنّ العمل العقليّ هو أيضًا عظيم الشأن والمنـزلة. على أنّ العمل العقليّ لا يكون مجديًا بدون العمل اليدويّ.

صفات العمل

وأجمل من ذلك قول الرسول أيضًا: "**مهما فعلتم فافعلوه من قلوبكم فعلكم للربّ لا للناس. عالمين أنّكم ستأخذون من الربّ جزاء الميراث. اخدموا الربّ المسيح**" (كورنتس ٣: ٢٣- ٢٤).

تلك هي القواعد التي يعتمدها العامل المسيحيّ في عمله:

آ- أن يضع طابعًا من قلبه على عمله وذلك لأنّه إنسان والعمل الذي نعمله من قلوبنا يكون أكثر دقّة وبما أنّه عمل الربّ يستحقّ أن يتمّم بنشاط.

ب- أن نفعل أعمالنا كما لو كنّا نفعلها للربّ لا للناس. وهذا هو التراث المسيحيّ أن يرى الإنسان وراء القشور اللباب ووراء المظاهر الجوهر، أن يرى الله الغاية الأخيرة.

ج- إنّ المكافأة أكيدة وثمينة، هي من الله وهي الميراث السماويّ. أيّها العمّال لا تستبدلوا الغالي بالرخيص. اعملوا لله. "**اخدموا الربّ يسوع**".

احترام العامل

ثالثًا- من القدّيس يوسف نتعلّم أن نحترم الغير. إنّ وجود الطبقات الإجتماعيّة كان أحد الأسباب التي جعلت فئة ضئيلة من الناس محترمة ومبجّلة بينما ظلّ السواد الأعظم محتقرًا أو على الأقلّ غير مكترث به. إنّ الأيادي الناعمة البيضاء ليست دومًا أيادي بريئة ولا مقدّسة تستحقّ التقبيل والتبجيل. إنّ يدي القدّيس يوسف تستحقّ التقبيل لأنّهما يدا عامل بهما يخدم الله في هيكل العالم العظيم، وبهما يتمّ الواجب الذي فرضه الله عليه.

علينا أن ننفض عنّا تلك العقليّة التي نحملها في نفوسنا وهي أن ننحني أمام الجاه والمال. ولنتعوّد أن ننحني أمام عامل بثياب العمل ونحترمه. لقد عاش مخلّص العالم في بيت يوسف العامل وليس في قصر إمبراطور روما العظمى.

لنطلبنّ إلى يوسف أن يعلّمنا معنى الشجاعة وقوّة الإرادة ومغزى الحياة. كان عاملاً فأصبح معلّمًا للحياة.

وما أحسن ما قاله القدّيس منصور في هذا المعنى: **"لنحبنّ الله بتعب سواعدنا وعرق جباهنا"**.

٢٢
جمال مريم
"كلّك جميلة يا مريم" (نشيد).

حينما ينشد المسيحيّ لمريم: **"كلّك جميلة يا مريم"** يفكّر بالطبع بجمال نفس مريم. ولكن من المقرّر أنّ جمال النفس ينبعث عبر الجسد ويظهر على تقاطيع الجسم وملامح الوجه لأنّ الجسم هو شريك النفس بل هو المرآة التي تنعكس عليها أخلاق الإنسان وعواطفه.

جمال نفسها

وذكرت التقاليد القديمة أنّ وجه مريم كان يطفح جمالاً. لأنّ جمال نفسها كان يتدفّق على وجهها. ولم يكن جمال مظهرها الخارجيّ سوى برقع شفّاف يتراءى من خلاله جمال الفضيلة السامية الذي تضفيه القداسة على عقلها وقلبها وكلّ ذاتها. فكلّ أعمالها موسومة بطابع الجلال والطهر الفائق، وشخصها كان في كلّ شيء المثال الأنثويّ الأعلى، لأنّها كانت متكمّلة بكنوز النعمة التي أفرغتها يد الله في صدرها العذريّ المقدّس.

وكم كنّا نتمنّى لو أنّ العذراء تركت لنا صورة لشخصها أو رسمًا عنها. ولكنّ وضع مريم الإجتماعيّ والبيئة التي عاشت فيها في زمن معيّن من التاريخ لم يسمح بوجود أمثال هذه الصور أو الرسوم. فجلّ ما نملك هو رسوم أو تماثيل لملوك البلاد أو الأمراء. أمّا لعامّة الشعب، ومريم هي من العامّة، فلا أثر لرسومهم وصورهم.

نحن نجد هنا وهناك رسومًا أو صورًا معروضة في بعض الكنائس منسوبة للقدّيس لوقا وقد قيل فيها: **"إنّها لم تُرسم بيد إنسان"**. وفي صلاة الباركليسيّ يقف المتقدّم أمام

صورة والدة الإله ويرنّم بالتعظيمة التالية: "**لتخرس شفاه الكفرة الذين لا يسجدون لأيقونتك المكرّمة الهادية التي رسمها لوقا الرسول الجزيل القداسة**".

ولعلّ من أجمل تلك الصور وأشهرها هي صورة عذراء روما المسمّاة: "**مخلّصة الشعب الرومانيّ**" الموجودة في كنيسة القدّيسة "**مريم الكبرى**". وفي إحدى كنائس مدينة القدس أيقونة للعذراء مريم يقال أنّها من رسم القدّيس لوقا الإنجيليّ. ومن المعروف أنّ القدّيس لوقا كان طبيبًا ومؤرّخًا وأنّ ثقافته كانت عالية وتسمح له بأن يكون مصوّرًا ورسّامًا. ومَن أنعم النظر في إنجيله يرى أنّه دقيق الملاحظة يصف المشاهد وصف فنّان، فلا يستبعد أن يكون مصوّرًا كما عُرف عنه في التقليد المقدّس الذي يرجع إلى مطلع الكنيسة.

على كلّ حال إنّ ما عُرف عن مريم وما بقي معروفًا إلى وقتنا الحاضر أنّها كانت جميلة جدًّا. وقد أجمع رأي المؤمنين على ذلك كما أجمع عليه رأي الآباء والقدّيسين. وقد أنشدت لها الكنيسة أجمل الأناشيد وتغنّت بجمالها الفائق.

مصادر جمالها

وإنّ ما يحملنا على الاعتقاد بأنّ مريم كانت تتمتّع بجمال فائق هي الأسباب التالية:

أوّلاً- قد اعتبرتها الكنيسة، خاصّة في طقوسها، أنّها هي حوّاء الجديدة. وحوّاء قبل سقوطها في الخطيئة كانت جميلة جدًّا لأنّها خرجت من يد الله. ولكن بعد أن تمرّدت على الله تشوّهت نفسها فتشوّه جسدها ووجهها.

ثانيًا- كانت جميلة لأنّها وُلدت بريئة من دنس الخطيئة الأصليّة وكان الله قد أفاض على نفسها كنزًا من النعم. فكان ينعكس جمال نفسها في عينيها وعلى جبينها وعلى كلّ ملامحها الخارجيّة. وكتب القدّيس بولس عن ابن الله "**الكلمة**" يقول: "**إنّه ضياء مجده وصورة جوهره**" (لوقا ١: ٣).

كذلك العذراء بما أنّها والدة المخلّص لا بدّ أنّ الذي تحمله في حشاها يشعّ على محيّاها، بل على كامل ظاهرها، ضياء مجده وصورة جوهره.

ثالثًا- كانت جميلة لأنّها كانت معدّة لأن تصبح يومًا ما أمّ الله:

آ- إن الله الذي بيديه يصنع خليقته لا بدّ أنّه جعل من جسم مريم أجمل الأجسام لأنّ الكلمة سيتّخذ منه لذاته جسدًا. فكان عليه أن يجعل من مريم مثالاً كاملاً، مشرقًا، متّزنًا.

هذا وأنّ الله وهب بعض النساء الشهيرات في العهد القديم جمالاً أخّاذًا ليقمن بالدور الذي دعاهنّ إليه أمثال سارة ورفقة وراحيل ويهوديت وأستير وغيرهنّ، اللاتي اعتبرن رسمًا يرمز إلى العذراء مريم. أفما كان من اللائق جدًّا أن تفوقهنّ جمالاً تلك التي تحقق الرموز وتصبح المحرّرة والمخلّصة لجنس البشر؟ ثمّ أنّ الله حينما أمر بصنع مضرب الشهادة وتابوت العهد والهيكل عدّد كلّ التفاصيل التي تجعل منها بيتًا فخمًا جدًّا، مشرقًا أشدّ الإشراق، لائقًا بعظمته الإلهيّة. وكلّ تلك الأبّهة لم تكن إلاّ رمزًا لمريم لأنّها الهيكل الحقيقيّ الحيّ وتابوت العهد الجديد المكرّس لله منذ أن تمّ الحبل بها.

ب- إنّ اتّحاد المسيح بأمّه الطاهرة هو أقرب اتّحاد يمكن أن يقوم بين إله وبشر. واتّحاد المسيح بأمّه لا بدّ أن ينتج عنه صفات وميزات خاصّة تزيّن حتّى جسد العذراء. ولذلك كان للعذراء تلك الصفات التي جعلت من منظرها الخارجيّ أجمل منظر لنساء العالم.

ج- سبق ووصف كتاب المزامير المسيح بأنّه أجمل بني البشر: "**إنّك أبهى جمالاً من بني آدم وقد انسكبت النعمة على شفتيك**" (مزمور ٤٤: ٣). ومن المقرّر أنّ الابن يشبه عادة شكل أمّه. فكم يكون هذا الشبه شديدًا ودقيقًا حينما نكون أمام حادث فريد من نوعه وهو أنّ العذراء تعاونت مع الله لتعطي المسيح ابنها الجسم الجميل الذي كان له؟ وقد وصفها كتاب الأناشيد: "**جميلة في النساء**" (أناشيد ٥: ٩).

د- كلّ الذين ظهرت لهم العذراء بعد صعودها إلى السماء بهرتهم بمنظر جمالها الخلاّب بل شدّ ما لفت انتباههم جمال مريم الفائق. وهذه برنديت تقول: "**إنّي لم أرَ قطّ جمالاً كهذا... إنّ القدّيسة العذراء جميلة لدرجة أنّ الذي يراها مرّة لا يتمنّى إلاّ الموت حتّى يعود فيراها...**". وعن الظهور في لورد جاءتنا تفاصيل أوسع عن جمال مريم: تحيّتها جميلة وإشارة الصليب التي تصنعها جميلة وابتسامتها جميلة.

وإنّ الذين حاولوا من أرباب الفنون أن يمثّلوا مريم تمثيلاً صحيحًا كان ينقصهم ريشة من السماء وقلب صاف كقلب مريم وطهارة الملائكة حتّى يقرّبوا رسومهم من صورتها الواقعيّة. وقد وصفتها برنديت كما شاهدتها: وجه بيضويّ الشكل وعينان زرقاوان. وهذه من ميزات الجمال.

إنْ كان هذا جمالها الظاهر فأيّ جمال هو جمال تلك النفس التي منها انبثق جمال الجسم والملامح والوجه.

وبما أنّ الإنجيل المقدّس بل العهد الجديد كلّه أعرض عن بسط ملامح طلعتها المشرقة وجمال محيّاها الصبوح، معتبرًا جمال الروح أروع ونقاء القلب أبهى وأقدس وأنّ "**كلّ مجد ابنة الملك في الداخل**" رأينا أن نسمح لنفوسنا بأن نعود هذه المرّة أيضًا إلى الأناجيل المحرّفة لأنّ فيها شيئًا عن ذلك الوصف.

في التقليد الكنسيّ

ونقرأ في الإنجيل المنسوب للقدّيس **يعقوب**: "**كان وجهها ناصعًا كالثلج، مشرقًا كالبدر، يبهر المتأمّل بتألّق طلعتها**".

وهذا نصّ آخر أدقّ وأكمل في وصف جمال العذراء، يعود تاريخ كتابته إلى القرن الثانيّ، وضع في اللغة اليونانيّة، وقد أوحى للرسّامين البيزنطيّين رسم أيقونات والدة الإله نخصّ منهم إبيفانيوس الذي عاش في أواخر القرن الثامن ونيقوفورس الذي عاش في القرن الرابع عشر: "**كان للعذراء القدّيسة قامة معتدلة، ممشوقة، كاملة الاتّزان، يعلوها وجه بيضويّ الشكل، حنطيّ اللون، وشعر أشقر ناعم، وعينان كبيرتان برّاقتان، بحدقتين خلعت عليهما ثمرة الزيتون لونها الأسود الوقور، وحاجبان كملت**

فيهما حنيةُ ودقةُ القوس، وذراعان ناحلتان طويلتان حملتا النعومة في أصابع راحتيهما. وكان كلّ ما في شخصها يشعّ جاذبيّة ونعومة وجمالاً".

وقد وصفها الدمشقيّ بالعبارات التالية: "**كيف أتصوّر مشيتك الرصينة وثوبك الفضفاض ونعومة محيّاك ورزانة الشيوخ المجسّمة في جسدك الغضّ الفتيّ؟!... مشية رصينة لا خفّة فيها ولا استرخاء. وثياب خلعت عليها الحشمة من مهابتها وشاحًا فأبعدت عنها الزخرف والرخاء. ومحيّا كسته الرفعة بسمة لطف وأناقة ونقاء"**.

أمّا القدّيس أفرام السوريّ فيقول: "**إنّك حقًّا أنت وأمّك، أيّها المسيح الوحيدان الكاملا الجمال من جميع الوجوه. لأنّه ليس فيك، أيّها السيّد، ولا في أمّك أدنى أثر لأقلّ وصمة**" (من الأناشيد النـزيبيّة).

في عالم الفنّ

وقد حفظ لنا تاريخ الأيقونات وصفًا لعدد من الصور التي مثلت لنا جمال مريم.

وقد أبدع الرسّامون البيزنطيّون مدّة أجيال في إبراز صور العذراء على أكمل وجه وبألطف الرموز. فبدت العذراء في تلك الصور سيّدة كريمة وملكة قديرة عليها من المهابة والحشمة ما يوحي أنّها حقًّا والدة المسيح الإله وسيّدة الخلائق.

وقد مثلوها أكثر الأحيان برفقة ابنها يسوع. فهي تارة تحمله على ساعديها أو تحتضنه أو تضمّه إلى صدرها بحنان فائق ومحبّة عظيمة وطورًا يبدو المسيح على صدرها الوالديّ قائمًا بقوّته الذاتيّة تحيط به هالة من نور. ذلك ولا بدع لأنّ التصوير البيزنطيّ ما هو إلاّ تجسيد فكرة لاهوتيّة عميقة: العذراء لبثت عذراء وبلغت أسمى درجات القداسة بعد الله بفضل أمومتها الإلهيّة وما يقتضيه هذا المنصب الرفيع من امتيازات فريدة، وقد ألمع الرسّامون إلى فضائلها الفائقة الوصف والمواهب العديدة التي أسبغها الله عليها بعلامات ورموز طريفة كالنجوم الثلاث المرسومة على كتفيها وأعلى جبينها للدلالة على بتوليّتها الدائمة قبل الولادة وفيها وبعدها.

فلاخرناس

وقد نالت أيقونة "**العذراء الوسيطة المتشفّعة**" شهرة في كلّ بلاد الشرق مدّة أجيال قبل أن تأخذ طريقها إلى أنحاء العالم. وهي معروفة في القسطنطينيّة "**بعذراء فلاخرناس**" وتُسمّى أيضًا "**سيّدة الظهور**" أيّ ظهور الفداء. تنتصب العذراء فيها رافعة يديها للصلاة والشفاعة والوساطة لبني البشر وابنها يشعّ على صدرها وهو الكلمة المتجسّد من أحشائها الطاهرة.

وقد وُجدت هذه الصورة في إنجيل ربولا من سوريا وهو يرتقي إلى القرن السادس كما وُجدت على جدران أديرة الأقباط في مصر وحتّى في البلاد العربيّة قبل الإسلام فرُسمت على أحد أعمدة الكعبة. وقد أخبر أبو الوليد أحمد ابن محمّد الأزرقيّ المؤرّخ العربيّ الغسّانيّ قال: "**رُسمت هذه الصورة على العمود المحاذي لباب الكعبة وقد مثل عيسى بن مريم- عليهما السلام- جالسًا في حضن أمّه مُتّكئًا على صدرها الوالديّ"**.

ولمّا استولى الرسول العربيّ على مكّة سنة ٦٣٠ أمر بإبادة كلّ ما وُجد في الكعبة من أصنام ورسوم ما خلا صورة مريم وابنها التي جعل عليها كفّيه إذ كان المدمّرون منهمكين في العمل.

سيّدة المعونة الدائمة

ومن أجمل صور العذراء وأشهرها صورة "**سيّدة المعونة الدائمة**". وقد نُقل عنها عدد كبير من الصور والأيقونات المرسومة بالزيت على قطع من قماش أو على الخشب وانتشرت في عدد كبير من كنائس الدنيا حتّى وفي البيوت ومنها نماذج معروضة أيضًا في المتاحف.

والمشهور عن هذه الصورة منذ أجيال أنّ القدّيس لوقا الإنجيليّ هو الذي رسمها. وقد نُسبت للقدّيس لوقا الإنجيليّ خطأ والأرجح أنّها من رسم رجل يُسمّى لوقا، عاش في القرن الرابع، فتوهّم الناس أنّه لوقا الإنجيليّ. بيد أن واضعها مهما كانت صفاته فإنّه أبدع في رسمها حتّى جذبت إليها على مدى الأجيال ملايين المؤمنين وأجرت بقوّة العذراء عددًا لا يُحصى من العجائب الباهرة.

وكانت الصورة موضوع عبادة أوّلاً في مدينة القدس مدّة أربعة أجيال تقريبًا ثمّ انتقلت لتجعل مقامها في مدينة القسطنطينيّة. ومعروف أنّه في منتصف القرن الخامس أهدت الإمبراطورة أفدوكسيا هذه الصورة العجائبيّة إلى إمبراطورة القسطنطينيّة بلخاري نسيبتها. وقد جرى احتفال نادر المثيل لدى وصول هذه الصورة أو بالحريّ هذه الذخيرة الثمينة إلى عاصمة بيزنطية عن طريق البحر إذ هبّ شعب المدينة كلّه لاستقبال صورة "**أمّ المعونة الدائمة**".

وشادت الإمبراطورة بلخاري بدافع من تقواها كنيسة جديدة على اسم العذراء ووضعت فيها هذه الصورة الشهيرة وعيّنت لها عددًا من الرهبان يقومون بحراسة شرف حولها بالتّناوب. وراح الشعب يعظّم البتول ويقيم لها ألوانًا من الزيّاحات والتطوافات وراحت العذراء تسكب على الجميع بركاتها ونعمها.

وسارع الرسّامون، بناء على طلب الشعب، فنقلوا عنها نسخًا وُزّعت على الأسر. وبعض هذه النسخ أخذت طريقها إلى شواطئ جديدة وبلاد جديدة.

وحلّت الأيّام السود وتكاثف الظلام على مدينة القسطنطينيّة بدخول محمّد الثانيّ في ٣٠ أيار ١٤٥٣. فأراد أن ينتقم من الشعب وأن يمسّه في أدقّ عواطفه، فمزّق الصورة الغالية إلى قطع. وهكذا زالت الصورة من الوجود.

ولكنّ العناية الإلهيّة كانت، كما ذكرنا، قد سمحت بأن ينقل عن الصورة عدد كبير من النسخ وأنّ بعض تلك الصور وجدت طريقها إلى بلاد أوربة الغربيّة ومنها صورة محفوظة في فرنسا يعود تاريخها إلى الجيل الرابع عشر أو مطلع الخامس عشر.

ومن المرجّح أنّ الصورة الأصليّة رُسمت في جزيرة كريت وربّما في نفس عاصمة الجزيرة كلنديا. ويُعتقد بأنّ الرسّام يونانيّ الأصل لأنّه رسم على الصورة شكل صليب يونانيّ وكتب عليها بالحروف اليونانيّة. ومنها نسخة طبق الأصل أخذت طريقها إلى

روما. أمّا كيف وصلت هذه الصورة من جزيرة كريت إلى روما فالأمر مدوّن على مخطوط قديم محفوظ في مكتبة الفاتيكان ذُكر فيه أنّ أحد التجّار سرقها من إحدى كنائس الجزيرة حول عام ١٤٩٦ وجاء بها إلى روما. ومضت مدّة طويلة قبل أن تجد لها كنيسة تأوي إليها. وأخيرًا اكتُشف وجودها في كنيسة القدّيس متّى في روما حيث انتشرت عبادتها انتشارًا واسعًا بين الشعب وذلك في عهد البابا ألكسندروس السادس. ثمّ عادت تلك الصورة فغابت عن الأنظار سنة ١٧٩٨ بتهدّم الكنيسة نفسها على أثر اجتياح جيوش **نابوليون بونابرت**. غير أنّ عناية الله كانت قد هيّأت مرّة ثانية أن يُنقل عن تلك الصورة قبل الفاجعة ثلاث نسخ موجودة حاليًّا في مكتبة الفاتيكان. وعن هذه يأخذ الرسّامون حاليًّا ليصوّروا النسخ الكثيرة المنتشرة في العالم.

رموز الأيقونة

أمّا الصورة الأصليّة فهي قطعة من فنّ وتحفة من أروع التحف. والصورة تزخر بالعبر والتعاليم بل أنّ فيها دروسًا لاهوتيّة عميقة جدًّا ومنها نتعلّم:

أوّلاً- أنّ مريم هي أمّ المسيح. والدليل على ذلك أنّ مريم تحمل يسوع على ساعدها كما تدلّ عليه أيضًا الحروف اليونانيّة المكتوبة فوق رأسها.

ثانيًا- أنّ مريم هي أمّ المخلّص. يشير إلى ذلك وجود رئيسَيْ الملائكة مخائيل وجبرائيل يقدّمان آلات عذاب المسيح وهي المسامير وخشبة الصليب والحربة والإسفنجة. ووجود هذه يشرح السبب الذي هلع له قلب يسوع فأبعد رأسه وانضمّ إلى صدر أمّه. وبهذه الحركة سقطت من رجله فردة حذائه.

ثالثًا- أنّ مريم هي والدة المخلّصين. والدليل حركة مريم تضمّ بين يديها يدي الطفل يسوع. وفي هذا إشارة إلى وساطتها.

رابعًا- أنّها أمّ المعونة الدائمة. والدليل أنّها لا تلتفت إلى يسوع ولكنّها تنظر إلينا لتؤكّد لنا وساطتها وشفاعتها.

فالصورة إذًا لوحة ناطقة غنيّة بالتعاليم اللاهوتيّة المريميّة. منها نفهم أنّنا نستطيع عند الأخطار أن نرتمي في أحضان مريم وعلى صدرها. إنّها ملجأ وحماية.

على كلّ حال إذا كانت مريم هي أمّ المعونة الدائمة يجب علينا نحن أيضًا أن نلجأ إليها بصورة دائمة.

الجزء السادس
العذراء والطفل يسوع

٢٣
أوغسطس قيصر

"في تلك الأيّام صدر أمر من أوغسطس قيصر، بإحصاء جميع المسكونة. وجرى هذا الإحصاء الأوّل إذ كان كيرينيوس واليًا على سوريا. فأخذ الجميع ينطلقون، كلّ واحد إلى مدينته لكي يكتتبوا، وصعد يوسف أيضًا من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهوديّة إلى مدينة داود التي تُدعى بيت لحم، لأنّه كان من بيت داود ومن عشيرته، لكي يكتتب مع مريم امرأته، التي كانت حبلى" (لوقا ٢: ١- ٥).

أسباب الإحصاء

أمّا أسباب هذا الإحصاء فيكشف لنا عنها التاريخ العامّ للإمبراطوريّة الرومانيّة. كانت الإمبراطوريّة منذ أن وضعت أُسسها وهي في حرب دائمة تارة مع الشرق وطورًا مع الغرب. هنا حرب تخوضها جيوش روما بغية التوسّع والسيطرة وهناك شعب يثور لينفض عنه النير فترسل له جنودًا أشاوس يكسرون أجنحته ويحصون عليه أنفاسه. وهنالك في شمالي أفريقيا قرطاجة تطمع بمنافسة روما فيُبعث الأسطول لحصارها وتشتيت فلول المتمرّدين الطامعين. وهناك غزاة يتحرّشون بحدود البلاد المترامية الأطراف فيُطردون ويُؤدّبون وتشاد الحصون في طرقهم وتحالف القبائل الضاربة في البوادي والصحاري على الحدود لردّهم كلّما سوّلت لهم نفوسهم الغزو والسلب ومن تلك القبائل الغساسنة الذين حموا الحدود ضدّ غزوات الجنوب. وهكذا بعد مرور نيّف وسبعمائة سنة هدأت الأحوال وخضعت الشعوب وساد السلام ولم يبق بعد استقرار الأحوال إلاّ تنظيم هذه الدولة العظيمة. فقضت الظروف أن يبدأ أوغسطوس قيصر بإحصاء عامّ يشمل كلّ بلد وكلّ شعب. والإحصاء لا يجري إلاّ في فترة هدوء وسلام.

وكان في روما هياكل غصّت بالآلهة تفتح وتغلق يوميًّا يتردّد إليها المصلّون في ساعات معيّنة من النهار أو الليل. ولكن كان هنالك هيكل للإله جانوس إله الحرب. فكان هذا الهيكل مفتوحًا دائمًا وكان الإله جانوس مجنّحًا. وكان جناحاه مفتوحَيْن للدلالة على موقف الإله موقف صلاة يدعو لروما بالنصر. واتّفق لأوّل مرّة بعد مرور مئات السنين أنْ هدأت الحرب واستتبّ الأمن في أطراف الإمبراطوريّة الشاسعة فأُنزل الجناحان وأُغلق الهيكل دون المصلّين منذ عام ٧٦٤ لقد ساد السلام وأصبحت روما سيّدة العالم.

ولادة المسيح

وكان على المسيح أن يولد في بيت لحم بموجب النبوءات وبخاصّة نبوءة ميخا (٥: ١) التي لم يكن يوسف ومريم ليجهلاها.

فهل ينتقل يوسف ومريم إلى بيت لحم ليمهّدا للنبوءة أن تتحقّق؟ إنّ بقاء يوسف ومريم في الناصرة يقلب تلك النبوءات من أساسها ويقف حجر عثرة في طريق مولد المسيح في بيت لحم. فهل يجوز أن يمدّا يد العون لله في الظروف الراهنة؟

لم يفكّر أحد من يوسف ومريم بوضع النبوءات موضع التنفيذ. إنّهما يؤمنان بالله ويحترمان أوامره وقراراته. إذا كان لا بدّ للمسيح من أن يولد في بيت لحم فمن الأفضل ليوسف ومريم أن يترقبا الحدث الربّانيّ فيكون لهما علامة من السماء.

في ذلك دليل على الطاعة لله وعلى انتظار أوامر الربّ، وفي ذلك دليل على الإيمان بالعناية الربّانيّة، إيمانًا نيّرًا مطّلعًا، إنّه إيمان نادر، ولن يحاول إنسان بحجّة انحجاب السماء أن يضع نفسه موضع الله.

إصبع الله وراء الأحداث

سيولد المسيح في بيت لحم. وأيّ شيء يمنع الله من أن يسخّر الدنيا لهذا الحدث العجيب!

وفي الواقع "**صدر أمر من أوغسطس قيصر بإحصاء جميع المسكونة**".

لقد ترك لنا السلف عبارة سرت سير المثل الجاريّ بين الناس لأنّها تضمّنت حكمة عميقة: "**الإنسان يفكّر والله يدبّر**".

أراد أوغسطس أن يحصي رعاياه لغايات سياسيّة أو عسكريّة أو لجباية الأموال. إنّه لا شكّ عمل من وحي فطنة الحكومة آنئذ. هذه هي الناحية الظاهرة للعيان ويجوز أن نسمّيها الناحية البشريّة لهذا الإحصاء.

وقد تحرّكت الدنيا أيّ سكّان المملكة الرومانيّة لتخضع للمرسوم الإمبراطوريّ. ولم يبق مقاطعة قريبة أو بعيدة إلاّ اضطرب سكّانها ومنها مقاطعة يهوذا وفي يهوذا يوسف ومريم.

فرض العِلم الصحيح ليكون التاريخ صحيحًا أن تردّ الحوادث إلى أسبابها وعللها. ولكن على الأرض لا أحد يستطيع أن يسجّل تاريخًا صحيحًا ما زال الإنسان يجهل السبب الأوّل والعلّة الأخيرة لكلّ ما يحدث في الدنيا. نسجّل في المذكّرات وفي كتب التاريخ ردَّ فعل الشعوب والحوافز الدافعة لبعض الرؤساء أو القادة والتأثير المتبادل بين الحريّات والإرادات. ولكن أين لنا أن نكشف عن ذلك "**الذي يملك السماوات؟**" وهو مدبّر الكون وموجّه الشعوب ومسخّر الأفراد والجماعات.

وهنالك قادة ينسبون لأنفسهم بعض الإنتصارات والأمجاد ولكنّ "**الساكن في السماء يهزأ بهم**" إذ أنّه يغيّر فجأة وجه الدنيا. فتذوب شخصيّاتهم الواهية ذوبان الشمع أمام لهيب النار وتنطمس معالم حضارات أقاموها لتعود فتقوم على أنقاضها حضارات أخرى ليس لها حظّ أكبر في السيطرة والبقاء. ويتساءل الكتّاب والشعراء ويتقصّى البحّاثة عمّا درس وعفا: أين مجد روما وآداب اليونان؟ أين أشور وفارس والفراعنة؟ طواهم الزمان فباتوا صفحة من كتاب التاريخ. وننتهي إلى الصفحة الأخيرة من كلّ حقبة من الزمن بقول الشاعر خليل مطران:

"يسخّر ربّك الدنيا لفان   له ولربّه فيه مرام"

نعم إنّ تصميمًا واحدًا سوف ينفّذ بكامل حذافيره هو تصميم الله والناس أفرادًا وجماعات مسخّرون لكتابة وريقاته. إنّ الله وحده يستخدم البشريّة لصالحه وتتميم إرادته. وحده يتحكّم في أمور البشريّة تحكمه في أنواع الخليقة الجماد والنبات والحيوان.

وأمر قيصر ليس إلاّ فصلاً كتبه الله وسخّر إمبراطور روما لتنفيذه: إنّه واحد من مراسيم الله وقراراته.

وهكذا ينكشف السرّ عن تدخّل الله في أمر مكان ولادة المسيح ليحقق نبوءة، يتدخّل الله عن طريق إنسان.

إرادتان تظهران للوجود: إرادة قيصر يقضي بالإحصاء العامّ للشعوب الخاضعة لسكّان روما وإرادة الله الذي سبق وقرّر أن يولد المسيح في بيت لحم. إنّ الله هو الذي أوحى إلى قيصر روما أن يجري الإحصاء لإمبراطوريّته، ليدفع بمريم إلى بيت لحم. أوغسطس يتّخذ بحريّة مطلقة قرارًا يجهل سببه الأخير. والله يستغلّ هذا القرار ليحقق ما سبق ورسم من تصاميم.

يهمل التاريخ هذه الحوافز الخفيّة وكثيرًا ما يجهلها لأنّها لا تتّضح إلاّ إثر وقوع الحوادث. أمّا المسيحيّ فكلّما أنعم النظر في تاريخ البشريّة يقول في قرارة نفسه: إنّ أصبع الله وراء الحوادث، إنّه هنا!

الصعب ليس أن نؤمن بعد وقوع الحوادث بتدخّل العناية الربّانيّة، ولكن أن نؤمن بهذا التدخّل حينما لا شيء يدلّ عليه أو يكشف عنه. وبالتالي لا شيء يسمح باستدراكه وتبيانه قبل وقوعه.

هذه هي العبرة الأولى التي تشعّ عن المرحلة الأولى من ميلاد المخلّص. عبرة هي الإيمان والثقة بالعناية الربّانيّة.

لله كلمته يقولها في حياتنا.

نعم إنّ الله يحترم حريّة الناس لأنّه أراد أن يكون الإنسان حرًّا ولكنّ الإنسان لا يستطيع أن يخالف خطط الله أو يبدّلها أو يحوّرها أو يعبث بها لأنّ الله سبق وعرف أين تتّجه الأفكار البشر وإلى أين تسوقهم نواياهم. فلا قدر عند الله ولا محتوم. إنّه عارف بأدقّ الطرق التي سوف يسلكها البشر.

ولكنّ الناس يعتقدون بأنّهم هم الذين يوجّهون أنفسهم وبعضهم يعتقد بأنّهم يوجّهون الشعوب والعالم وأخيرًا هنالك جماعة تعتقد بأنّها تستطيع أن تغيّر طرق الله وتفسد عليه مناهجه.

كلمة الله هي الأخيرة

هذه هي واجهة الحياة أيّ ظاهرها فقط. ولكن لله دومًا الكلمة الأخيرة لأنّ العالم يسير في طرق مهما تشعّبت وتباعدت لا بدّ أنّها كلّها منتهية عند نقطة واحدة كانت هي نقطة انطلاقها أيّ الله: **"نحن منه وإليه"**.

لعلّ بعض أناس أتقياء عائشين بخوف الله وساعين لنشر مجده وإرادته يسحقون أحيانًا وينخذلون وبذلك يبدو حقّ الله كأنّه مخذول أيضًا. ولكن ليس هذا إلاّ الظاهر أيضًا. أمّا الحقيقة فإنّ التاريخ إذ يعيد النظر فيما سبق من حوادث يسجّل في هذه الخسارات الموقّتة إنتصارات لله.

نعم إنّها إنتصارات لأنّها في النتيجة تضع موضع التنفيذ خطط الله في خلقه.

وتاريخ حياة المسيح ليس إلاّ مثالاً حيًّا لسنّة الله هذه في خلقه. وما مجيء مريم العذراء إلى بيت لحم إلاّ أحد الحوادث التي تبرهن على تدبير الله لعالم يسوده الاضطراب.

ومن هنا ثواب يوسف ومريم إذ أنّهما وثقا ثقة تامّة بأنّ الله سيتدخّل في حينه وبالطرق التي يستنسبها.

بعض الناس عن تقوى خاطئة يقدّمون خدماتهم للعناية الربّانيّة ويحاولون أن يسندوها بمهارتهم وعلمهم وأساليبهم ويتمنّون أن تسير الظروف طبق رغباتهم لخدمة الله ويستنفذون كلّ طرق الدفاع والمنطق لتبرير أعمال الله.

هؤلاء الأشخاص وإنْ كانوا أتقياء إلاّ أنّ إيمانهم بالعناية الربّانيّة مشكوك فيه لأنّه يحمل على الاعتقاد بأنّهم يؤمنون بمقدرتهم في خدمة الله أكثر من إيمانهم بمقدرة الله في عون خليقته. وموقف هؤلاء لا يخلو من السذاجة وقلّة التبصّر.

إنّ الله يسخّر الدنيا لتحقيق مآربه ولا يقف في طريقه أيّ عائق.

أمّا يوسف ومريم فقد آمنا بالله ووثقا به حتّى أنّهما يترقّبان الظروف ليتعرّفا إلى ما يريده الله ويتبيّناه.

بالطبع نحن لا نعجب اليوم حينما نقرأ في الإنجيل تسلسل الحوادث ولكنّ يوسف ومريم كانا يعرفان النبوءة بأنّ المسيح يولد في بيت لحم ومع ذلك لا يقومان بأيّة حركة من شأنها أن تساعد على تحقيق النبوءة.

وإنّ الكنيسة وريثة هذا التصرّف الحكيم هي أيضًا تنتظر ساعة الله لأنّه سيّد قراراته وطرقه وموعده مع البشر.

وقد يستخدم الله أحيانًا ظروفًا صعبة ليستخرج منها بالنتيجة خيرًا عظيمًا.

قصّة

يُحكى أنّ رجلاً إنكليزيًّا كان متديّنًا جدًّا. ولكنّ ثلاثة من أصدقائه كانوا يستهزئون به. أمّا هو فما كان يزداد إلاّ تقى وتمسّكًا بإيمانه. ونوى في أحد الأيّام السفر للتجارة. فبكّر إلى الكنيسة حيث حضر الذبيحة واقتبل القربان المقدّس ثمّ ودّع عياله ولكن ما إنْ خرج من بيته باتّجاه الميناء ليستقلّ الباخرة حتّى زلقت رجله فوقع وانكسرت ساقه. فحُمل إلى بيته وتعطّلت التجارة. فجاءه أصحابه يشمتون به ويقولون: أين إلهك الذي تؤمن به وتتّكل عليه؟ أهكذا أقعدك بعد أن حضرت القدّاس وتناولت! فأجابهم: لا تتكلّموا هكذا. إنّ الله لا يريد بنا إلاّ خيرًا. أمّا الباخرة فما أقلعت من الميناء حتّى هبّت عليها عاصفة هوجاء فقلبتها وابتلع اليمّ جميع ركّابها. فوصل الخبر إلى أصدقاء الرجل ففهموا حينئذ أنّ الله لا يريد بخائفيه شرًّا. لأنّ المصيبة التي حلّت بالرجل كانت السبب في نجاته وحده من الموت غرقًا.

٢٤
من الناصرة إلى بيت لحم

المسكونة

"**صدر أمر من أوغسطوس قيصر بإحصاء جميع المسكونة**" والمسكونة أو الدنيا هي البلاد الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسّط وكانت آنئذ خاضعة كلّها لأمر روما ولإمبراطورها أوغسطس قيصر. وكانت فلسطين تابعة لروما وخاضعة لسلطانها وكان حاكم بلاد يهوذا عادة من اليهود أنفسهم يصدر قرار بتعيينه من روما بناء على تعليمات وتوصيات ترد من الواليّ الرومانيّ المقيم في القدس.

هيرودس

والتاريخ يبيّن لنا بأنّ هيرودس عند إجراء الإحصاء العامّ هذا لم يكن معتبرًا من قبل إمبراطور روما كملك حليف ولكن كحاكم مقاطعة فقط مع لقب ملك تكرّم به سيّده عليه. فإذا ما ارتأى الإمبراطور خلاف ذلك جرّده من كلّ سلطة.

يمين الولاء

وقد طلب الإمبراطور أوغسطس من اليهود يمين الولاء للدولة فتنكّر ستّة آلاف فرّيسيّ لهذا الطلب. حينئذ وجد الإمبراطور فرصة مناسبة لإجراء إحصاء عامّ ففرضه. وإنّ طلب الإمبراطور لليمين يتّفق تمامًا والسنة التي تمّ فيها ميلاد السيّد المسيح.

وكانت العادة في مصر أن يجري مثل هذا الإحصاء كلّ أربعة عشر عامًا في عهد أوغسطس قيصر. ولعلّ مثل هذه العادة انتشرت في بلاد الشرق المجاورة.

الإحصاء

وكان اليهود أنفسهم يجرون أمثال تلك الإحصاءات على أساس القاعدة القائلة بالرجوع إلى موطن الأجداد. فيقول القدّيس لوقا في الفصل الثّانيّ عن الإحصاء الذي أمر به أغوسطس بأنّه الأوّل وأنّه "**جرى إذ كان كرينيوس واليًا على سورية. فأخذ الجميع ينطلقون كلّ واحد إلى مدينته لكي يكتتبوا. وصعد يوسف أيضًا من الجليل من مدينة الناصرة، إلى مدينة داود التي تُدعى بيت لحم، فإنّه كان من بيت داود ومن عشيرته لكي يكتتب مع مريم امرأته**".

وهكذا نرى أنّ الإنجيل المقدّس مصدر ثقة يرجع إليه في تبيان بعض الحوادث التاريخيّة والجغرافيّة.

القافلة

بناء عليه انطلقت القافلة الصغيرة في صباح أحد الأيّام من مدينة الناصرة قبل الشفق وقبل صياح الديك متوجّهة نحو بيت لحم مسقط رأس الأجداد يهوذا وداود وسليمان. فكان يوسف يسير على قدميه وبيده مقود يجرّ به حمارًا جلست عليه مريم. وملابسه تشير إلى أنّه رجل عامل في إحدى القرى الفلسطينيّة. والتحفت مريم بملابسها حتّى

كادت تختفي كليًّا عن الأنظار. الطقس بارد والقرّ في أشدّه، إذ الفصل شتاء. وبالرغم من أنّ البلاد تقع في المنطقة المعتدلة الحارّة وبالقرب من البحر إلاّ أنّ الرياح شماليّة أو التي تأتيها من المناطق الصحراويّة تحمل إليها الهواء الجافّ البارد فتهبط درجة الحرارة دون الصفر. ولا تخلو سنة من سقوط الثلوج على جبل الجليل ولو أنّها لا تعتم أن تذوب حالاً بسبب الرياح الغربيّة البحريّة.

هذا وأنّ مريم حبلى والطريق شاقّ بعيد: مئة وأربعون كيلو مترًا تقريبًا تفصل الناصرة عن بيت لحم. وكان لا بدّ للمسافر من أن يقطع السهول والوديان والجبال. وليس ذلك بالأمر اليسير في وقت لم تكن فيه أيّة وسائل للسفر حتّى ولا الطريق المعبّدة. أكثر الطرق هي ما يُسمّى بطرق القوافل أيّ أنّ الناس طرقتها بمرورها عليها مدّة أجيال.

مرج ابن عامر

فبعد أن تركت القافلة الناصرة راحت تنحدر على السفح الجنوبيّ لجبل الجليل متوخّية الشعاب المنتهية إلى مرج ابن عامر الفسيح وهو يتّصل بالسهل الساحليّ غربًا وغور بيسان شرقًا كما أنّه يفصل جبل الجليل في الشمال عن سلاسل الكرمل ونابلس في الجنوب. وهو من أخصب سهول فلسطين وأكثرها أمطارًا. يجري في جنوبه نهر المقطع الذي يصبّ في البحر بين عكّا وحيفا. ومن الجهة الشرقيّة يظهر جبل طابور كحارس أمين على مدى الأجيال لهذه الحقول الخصبة الواسعة والبساتين الخضراء وكروم التين والعنب.

أمّا سكّان الجليل فكانوا خليطًا من الشعوب. ولذلك سُمّيت المنطقة بجليل الأمم. أكثرهم وثنيّون وفيهم بعض اليهود. وهم يتعاطون خاصّة الزراعة وصيد الأسماك. فبحيرة طبريّة تعجّ بالأسماك وعلى شواطئها التفّ جماعة من الصيّادين النشيطين الأشدّاء. من بين هؤلاء، بعد حين، سيختار السيّد المسيح بعض رسله.

الخانات

وكانت القافلة كلّما قطعت نحوًا من عشرين كيلو مترًا تتوقّف لتقضي الليلة، في راحة ضروريّة لمتابعة المسير، داخل الخانات التي انتشرت على طول الطرق وعلى مسافات تقريبًا متساوية تحطّ فيها قوافل التجّار أو المسافرين أو المتنقلين. والخانات أماكن راحة وأمان يجد فيها الإنسان شبه فندق لراحته واسطبلاً لحيواناته. يتكوّن الخان من دار واسعة مستطيلة الشكل يحيط بها رواق طويل يمتدّ أمام الغرف. هنا يجد الإنسان مأوى أمينًا لحياته وأمواله وعلفًا لحيواناته. نجد أمثال هذه الخانات على الطريق بين حلب ودمشق. ومنها بالقرب من حلب خان تومان وكان المحطّة الأولى لقوافل الحجّاج أو التجّار أو المسافرين.

وهكذا فُرض على يوسف أن يسير طوال النهار جارًّا وراءه الحمار الذي ركبت عليه مريم وأن يؤمّن مساء مكان راحة في إحدى غرف الخان لزوجته الحامل.

السامرة

وفي اليوم الثانيّ أو الثالث من السفر وصل يوسف ومريم إلى جبال السامرة الممتدّة من وادي اللجون في الشمال إلى جبال القدس في الجنوب وهي صخريّة قاحلة وقد تظهر فيها من حين إلى آخر بعض الوديان حيث يجري جدول أو تتكسّر مياه أحد السيول فترى أشجار الفواكه على ضفّتي الوادي الخصيب وبعض بيوت المزارعين والحيوانات الحلوبة والدجاج والبطّ.

وترتفع السامرة في الشمال والجنوب فيتكوّن منها جبلاً عيبال وجرزيم وكلاهما لا يتجاوزان ألف متر ارتفاعًا عن سطح البحر الأبيض المتوسّط. وتقع مدينة سيخار بين هذين الجبلين في منخفض واسع تنتشر فيه أشجار الزيتون والرمّان والتين وفيه من الحبوب والبقول أنواعها المختلفة وخاصّة حقول السمسم. وبئر يعقوب قريبة من هذه المدينة.

وقد شاهد يوسف ومريم في طريقهما آثار عاصمة السامريّين وهي تقع في الشمال الغربيّ من نابلس الحاليّة وكان هيرودس يعيد بناءها من جديد لأنّ جان هركان سنة ١٠٧ عند اجتيازه بها قد هدّمها وحوّلها قاعًا صفصفًا.

وكان السكّان من بقايا الإسرائيليّين الذين لم يجلّهم عن أرضها الأشوريّون، انضمّ إليهم جماعات من المهاجرين الغرباء أقامهم الفاتحون لإبقاء المنطقة خاضعة لسلطانهم.

وكان السامريّون قد تخلّوا عن وثنيّة أجدادهم واقتبسوا فكرة عبادة الإله الواحد. ولكنّهم خالفوا اليهود في الإيمان بمجموعة الكتب والأسفار الموحى بها فلم يؤمنوا إلاّ بالكتب الخمسة الأولى من العهد القديم كما أنّهم أعرضوا عن هيكل سليمان واستعاضوا عنه بهيكلهم في جرزيم الذي كان قد تهدّم سنة ١٣٢ قبل الميلاد على يد جان هركان أيضًا.

جبال القدس

وتسير القافلة في يومها الخامس دائمًا باتجاه الجنوب فتصل إلى الشمال من جبال اليهوديّة أو الخليل وهي المنطقة المسمّاة بجبال القدس. تتألّف من سلسلة أنجاد قاحلة يشتهر منها جبل الزيتون المشرف على مدينة القدس وعلوّه ٨٢٦ م ويُدعى أيضًا جبل الطور.

وما أن تدخل القافلة حدود مملكة يهوذا حتّى تهتزّ مريم فرحًا وتأخذ بأطراف الحديث لتذكر يوسف بالأجداد وأمجادهم وبداود وسليمان خاصّة.

العاصمة

وهكذا يقتربان من عاصمة المملكة أورشليم أيّ القدس. المنطقة وعرة صخريّة، عديمة المياه، يتراوح ارتفاعها بين ٧٠٠- ١٠٠٠م عن سطح البحر. وخارج الوديان لا

تجد إلاّ الجفاف والمزروعات القليلة. في وسط هذه المنطقة وعلى ارتفاع ٧٨٤ مترًا بُنيت مدينة القدس.

كان عدد سكّانها عادة لا يزيد على ٤٠٠٠٠ نسمة. ولكن في أيّام الاحتفالات كان يؤمّها زوّار يربو عددهم على المليون. والمدينة منتشرة على أكمّتين من الجبال يفصل بينهما واد. على الأكمّة الغربيّة انتصبت أهمّ القصور. أمّا على الأكمّة الشرقيّة فامتدّ هيكل سليمان يخيّم عليه ظلّ قلعة أنطونيا الرهيب. من هناك كان الحكّام الرومانيّون يراقبون كلّ حركة في الهيكل ويهدّدون بالدخول إلى أقدس مقدّسات اليهود إذا سوّلت لهم نفوسهم الإنتفاضة والثورة. ثمّ تتدرّج البيوت باتّجاه وادي قدرون حيث كانت سابقًا مدينة داود. والوديان من الجهة الشرقيّة شكّلت دومًا خطّ دفاع طبيعيّ عن المدينة المقدّسة.

ومن مدينة القدس يرى المتطلّع نحو الشرق جبل الزيتون وعليه تقوم بيت فاجي وبيت عنيا وتمتدّ صحراء يهوذا من هذه القمم الجبليّة حتّى مجرى الأردن والبحر الميت.

لغة البلاد

وكانت يهوذا قد احتفظت بمركزها الدينيّ الساميّ. وبقي الشعب فيها متمسّكًا بإيمان الأجداد سليمًا.

أمّا اللغة المتداولة فهي اللغة الآراميّة. واللغة الآراميّة مزيج من اللغة السريانيّة الشرقيّة التي كان يتكلّم بها سكّان ما بين دجلة والفرات واللغة السريانيّة الغربيّة التي كانت منتشرة في البلاد الواقعة شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط في بلاد الشام وفلسطين. وإنّ اللغتين امتزجتا معًا أيّام كان اليهود الفلسطينيّون مشتّتين في أشور وبابل. فلمّا عادوا من الجلاء بقوا يتكلّمونها. ولكنّ علماء الناموس كانوا يتقنون اللغة العبرانيّة على اعتبار أنّها اللغة المقدّسة. أمّا اللغة اليونانيّة فكانت اللغة الرسميّة يستعملها الحكّام الرومان كما كانت تسمع من فم الزوّار اليهود المنتشرين في المهجر. ولم تخل المدينة ممّن تكلّم بها أيضًا كما هو الحال إلى اليوم بين الجالية اليونانيّة وخاصّة بين الكهنة والرهبان.

ولعلّ وصول يوسف ومريم إلى مدينة القدس كان في ساعات بعد الظهر. ومن المحتمل أن تكون العذراء مريم قد زارت هيكل سليمان وبيت والديها وتذكّرت تلك الأيّام الحلوة التي قضتها بينهما.

وأخيرًا لم يبق أمامهما إلاّ مسافة ثمانية كيلو مترات ليصلا إلى بيت لحم. فغادروا مدينة القدس بعد غياب الشمس ليقطعا المرحلة الأخيرة من هذه الرحلة حيث قادتهما يد الله السريّة لتتمّ النبوءات.

٢٥
من باب إلى باب

عند هبوط الليل وصلت القافلة إلى ضواحي مدينة بيت لحم. ويقول القدّيس لوقا أنّه **"لم يكن لهما موضع في النـزل"** (لوقا ٢: ٧).

الموقف ملحّ

وممّا لا شكّ فيه أنّ أمر السكنى كان ملحًّا أقصى الإلحاح نظرًا لحالة مريم التي كانت تحسّ بالمخاض مبشّرًا بوضع وشيك جدًّا.

فراح يوسف يبحث عن مأوى أو مرقد ما، إلى أن وجده في خان كان معدًّا لاستقبال المسافرين هم وحيواناتهم معًا، إذ أنّه يتّسع لقوافل كاملة. ولكن يا للأسف فإنّ موجات من البشر تدفّقت في ذلك الحين من كلّ أنحاء اليهوديّة وممّا وراء الحدود أيضًا وكلّها من الأسر التي تعود بأصولها إلى بيت لحم. فنشط يوسف يبحث بين الجمال والسلع حتّى بين الأجساد الممتدّة على الأرض، عن مكان هادئ منعزل، فلم يجد مرقد عنـزة.

فعاد إلى مريم ليقول لها: لا مكان لنا في البلدة! وهل يستطيع أن يستأجر غرفة، وقد ارتفع أجر الغرف في تلك الأيّام إلى حدّ فاحش؟

وبينما كان يوسف يعرب عن حيرته وجزعه لمريم لاحظ بالرغم من الظلام أنّ ملامح مريم تشير إلى أنّ التعب أرهق قواها، فلم ير بدًّا من أن يعيد الكرّة ويبحث من جديد لعلّه يهتدي إلى مكان موافق.

ومرّ يوسف من باب إلى باب يقرع ويطلب ويسترحم، ولكنّ بيت لحم اتّسعت لدنيا من العالم إلاّ لمسيحها.

باب المعذرة

وقد أنحى بعض الكتّاب باللائمة على سكّان بيت لحم الذين فتحوا بيوتهم لجميع الناس ورفضوا أن يأووا يوسف ومريم، فاضطرّوهما إلى أن يبقيا بلا مأوى تحت السماء، فحمّلوهم مسؤوليّة هذا العمل، كما لو أنّ أهالي بيت لحم عرفوا مَن هو الشخص الذي يقرع الباب وما شأنه، وأنّ مريم تحمل المسيح، وضنّوا عليهما بالمأوى.

ولكن لا يجوز أن تحمل الحوادث غير معانيها ولا أن نفسد على القريب استعداداته ونيّاته.

فحبّنا للمسيح لا يسمح لنا بأن نهضم القريب حقوقه أو أن نُسيء إليه.

حالة استثنائيّة

إنّ كثيرًا من حوادث ليلة الميلاد تفسّر وتؤول في كلّ المجالات إلاّ في محيطها الطبيعيّ.

إنّها فرصة نادرة استفاد منها سكّان هذه البلدة الصغيرة الفقيرة. كما أنّه لا يزال سكّان المدن المقدّسة إلى اليوم يستفيدون من تقوى الزوّار، ولاسيّما القادمين من البلاد الغنيّة. فيبيعونهم بعض المصنوعات من خشب الزيتون أو الصدف بأسعار باهظة. وإنّ الزوّار لا يعتبرونها أسعارًا مساوية للأغراض التقويّة التي تقتنى من موطن السيّد المسيح، وإنّما نوع من التكرّم والإحسان. ولذلك ترى بعضهم يغدقون الأموال بسخاء حتّى على خدمة الفندق في القدس حيث ينـزلون، وعلى الدليل، وعلى الأولاد في الشوارع.

واجبات المقيمين في الأرض المقدّسة

ولذلك يجب على سكّان الأرض المقدّسة أن يتّخذوا من تقوى الزوّار وكرمهم سبيلاً ليزدادوا غيرة وعناية بخدمة الكنائس والمعابد، حتّى يجد الزوّار التقوى التي يتوقّعونها من أناس أنعم الله عليهم بالعيش في ظلّ كنيسة القيامة ومهد المسيح. فلا يراوغون ولا يكذبون على الزوّار مستغلّين تقواهم لابتزاز أموالهم. ولا يكونون سماسرة أخلاق يفسدون غاياتهم المقدّسة ويضيّعون عليهم فضل الزيارة.

إنّ لأهالي بيت لحم شتّى الأعذار حينما لا يفتحون لمسيحهم الباب، فالبيوت غاصّة بالناس وساعات الليل قد مضت والفصل شتاء. ثمّ هل اكتشف أهالي بيت لحم السرّ المكنون في حشا البتول مريم وأخيرًا هل يجوز أن نلبّي طلب كلّ قارع. هل جميع الذين يمدّون أيديهم للاستعطاء هم بحاجة إلى العطاء.

واجبات الحكومة

وبعد، أليس من واجب الحكومة أن تقوم بالخدمات العامّة؟ وإلاّ لماذا تجني الضرائب؟ يعتقد بعض الناس أنّ الكنيسة وحدها مكلّفة بمساعدة الفقير واليتيم والأرملة. إنّ الكنيسة تقوم بذلك لأنّها تجد فيه طرقًا للتكفير عن الخطايا وربح الثواب. ولكنّ واجب مساعدة الفقراء وتعليم أولادهم وإيوائهم وإلباسهم وإطعامهم يقع دون شكّ على كاهل الحكومة.

وعلى الحكومة أيضًا يقع واجب شجب الاستعطاء ومنعه لأنّه مذلّ للشخصيّة الإنسانيّة وسبيل إلى إنحطاط الأخلاق. فإنّ بعض الفقراء من الرجال والنساء يشبهون إناء مملوءًا بالجراثيم يتجوّل بين الناس لينفث السموم ويهدم أقدس ما في المجتمع.

بعض اللوم

نعم يمكننا أن نجد سبلاً لمعذرة أهالي بيت لحم ولكنّ بعض الملامة تقع عليهم. عجبًا! أما وُجد شخص واحد يتلمّس من نفسه بعض الشفقة فيضرب بكلّ هذه الاعتبارات عرض الحائط ويفتح بيته لهذين الغريبَيْن؟ ألا تدلّ ملامح يوسف ولهجته على أنّه صادق في طلبه؟ وهذه المرأة التي بقربه في ساعاتها الأخيرة من الحبل ألا تثير في قلوبهم شيئًا من الشفقة والرحمة؟ وإنّ القدّيس لوقا لا يقول أنّه لم يبق مكان، ولكن يقول: لم يكن لهما مكان في المنـزل.

إعالة المحتاج واجب

فهل يموت الفقراء في عللهم لأنّهم لا يملكون أجرة عيادة الطبيب وأجرة العمليّة وثمن الدواء؟

هل يبقى الأولاد الموهوبون من أبناء الطبقة الفقيرة محرومين من أنوار العِلم والمعرفة لأنّ والدهم عامل يكاد مرتّبه أو مربحه لا يكفي أو يفي بما يلزم لبقاء العائلة؟

وجه غرابة

من أغرب ما يلاحظ في المجتمع أنّ جمعيّات أنشأها مؤسّسوها لتعليم أولاد الفقراء والعمّال لا تسمح اليوم بالدخول إلى معاهدها ومدارسها إلاّ لأبناء الطبقة الغنيّة. فأين غاية المؤسّس؟ وأين الدافع لغاية المؤسّس؟ إنّ أولاد الأغنياء يجدون دائمًا مؤسّسات واسعة لهم، أمّا أولاد العمّال والفقراء فمَن يحملهم إنْ لم تحملهم أيادي إخوة المسيح وأخواته الذين، على مثال المعلّم، أرسلهم الله للمتسكّعين في ظلام الفقر والمرض والجهل.

الكنيسة مثال المحبّة

إنّ أجمل ما في الكنيسة أنّها بقيت على مدى الأجيال مثالاً حيًّا لمساعدة اليتيم والفقير والأرملة. فقد حضّت على هذا العمل واعتبرته واجبًا يثاب عليه المجتهد ويعاقب الكسلان بالحرمان من هذا الثواب، ودعت الغنيّ أن يمدّ يده بدافع من المحبّة الأخويّة للفقير الذي لا يستطيع عملاً. أمّا العطاء لِمَن يستطيع أن يربح طعامه بعمل ما فهو إسراف وتبذير وتشجيع على البطالة والكسل.

وعلى هذا الأساس قامت المؤسّسات الخيريّة في كلّ صقع من أصقاع العالم. فهناك المدارس المجّانيّة لأولاد العمّال. وهناك المستوصفات الموقوفة على خدمة المحرومين. وهناك المستشفيات والمطاعم الشعبيّة ورغيف الفقير. وهناك المياتم والمشاغل. وهناك مكاتب تشغيل العامل البطّال. وهناك أخيرًا مأوى للفقراء الغرباء.

أخونا في المسيح

نعم لقد وُجدت المؤسّسات والجمعيّات على اختلاف أنواعها ومذاهبها حتّى لا يبقى المسيح الطفل ثانية بلا مأوى، في نظرنا نحن المسيحيّين: ليس الله ذلك الروح المحض فقط، الجالس في الأعالي، المتعقب الخطأة، المهدّد، الواعد، إنّه أيضًا الإنسان الذي جعل فيه الله مقام سكنه، الإنسان المخلوق على صورة الله، الذي اشتري بفدية، هي دم المسيح بالذات.

نحن نعلم أنّنا إذا كنّا في حال النعمة يسكن الله في نفوسنا، فإنّ الثالوث الأقدس اتّخذ له مقامًا داخل قلوبنا وبالتالي أصبحنا أولادًا لله بالنعمة. فهذا الإنسان الذي أكاتفه في الطريق هو أيضًا ابن الله، وهذا الذي أجلس بقربه في إحدى حافلات المدينة أو ألتقي به على الرصيف هو أخ لي في المسيح، إنّه معمّد أو مدعوّ لقبول سرّ العماد، إنّه على كلّ حال ناعم بعطف الله وحبّه.

واجب أكيد

وبعد؟ إذا قصدني هذا الإنسان يومًا أو إذا احتاج إليّ مرّة، فهل يجوز لي أن أردّه، دون أن أردّ الله. **"إنّ الذي لا يحبّ أخاه الذي يراه، كيف يدّعي بأنّه يحبّ الله الذي لا يراه؟"** (يوحنّا الأولى ٤: ٢٠).

أجل نحن لا نستطيع أن نرى الله دائمًا واضحًا متجلّيًا في إخواننا. فإنّ كثيرًا من الناس تختفي نفوسهم وراء حجاب من النقائص والرذائل: فمنهم أصحاب الأثرة والكذّابون والمنافقون، ومنهم مَن يشوّه صورة الله فيه، منهم مَن يسيؤون إلى معنى التقوى، ومنهم مَن يبتذلون في المحبّة ويستهزئون بها. ولكن هذا ليس بالسبب الكافي لنهمل كلّ رحمة وننطوي على نفوسنا؛ فالمحبّة فضيلة، شأنها شأن الهواء، إنّها تشمل الجميع ولا تستثني أحدًا. فعلينا بعد انتهاج مبادئ الفطنة، ضمن إطار إمكانيّاتنا، أن نعمل الخير مع جميع مَن يحتاجون إليه من إخواننا.

ولقد نكون أحيانًا عرضة للخداع، وقد يستغلّنا بعضهم لمآربهم الشخصيّة. ولكن ذلك لا يعفينا من واجب أكيد. وهذا الواجب هو أنّ كلّ مَن يرفض لأخيه طلبًا بدون عذر مشروع، يرفض طلب الله.

الفرق بيننا وبين سكّان بيت لحم هو أنّهم حينما رفضوا أن يعطوا مأوى للسيّد المسيح، كانوا يجهلون وجوده، أمّا نحن فنعرف على مَن نبخل بالرحمة.

موقف يوسف ومريم من الرفض

ويجدر بنا بعد هذا أن نلقي نظرة على المحتاجين والفقراء من إخواننا، لنرى هل يسلكون السلوك الذي اتّبعه يوسف ومريم حينما لم يجدا لهما مأوى؟

إنّهما لم يرفعا صوتهما، ولم يطلبا النجدة، ولم يثيرا الفتنة والحقد بين الناس. وهما لم يعلنا عن ألقابهما: يوسف من نسل داود ومريم أمّ إله.

وهما لم يجدا مبرّرًا لدعوة عدل الله، ولا دعوة غضب الله. لقد برهن يوسف ومريم عن حكمة فائقة: على الإنسان أن ينظر إلى البشر كما هم في واقع حالهم، ولا فائدة ترجى من تجريم الناس ومقابلة الرفض بالإهانة.

أفهل يفرض واجب المحبّة الأخويّة نحو الجميع على السواء أو يحتّم على كلّ فرد أن يقوم بإعانة هذا المحتاج بالذات؟ وهل الذي يرفض لأحد خدمة ما يُعتبر مقصّرًا أو مذنبًا؟ هذا ما يجب أن نتساءل عنه في الظروف المختلفة، وإلاّ وقعنا في أخطاء جسيمة.

إنّ المحبّة الأخويّة تقضي أن لا نحكم على أحد. والحقيقة أنّه في نزل بيت لحم لم يبق مكان، وخاصّة لامرأة كمريم في وضعها الخاصّ.

فيجدر بنا أن نبحث عن كلّ الأسباب التي نعذر بها مواقف قريبنا السلبيّة نحو مساعدتنا.

موقف بعض الفقراء

أمّا بعض الفقراء أو مدّعي الفقر فلا يتورّعون عن القيام بكلّ ما من شأنه أن يبعد عن الإحسان والمعونة صفاتهما المقدّسة السامية.

نرى بعض هؤلاء يتردّدون على الجمعيّات الخيريّة لأنّ آباءهم كانوا يتردّدون عليها حتّى ولو حسنت حالهم وكفاهم الله شرّ العوز ولكنّ الاستعطاء بقي عادة في هذه الأسر،

فيعمدون إلى تجريد بيوتهم من فرشها وأياديهم من أساورها وحليها لدى موعد زيارة شباب الجمعيّة الخيريّة.

وترى غيرهم لا يحرمون نفوسهم من ارتياد دور السينما مرارًا في الأسبوع، ومع ذلك يستعطون ويستجدّون المساعدة الضئيلة التي خُصّصت لهم.

وكم من مواقف مخزية!

الرجل في الملهى والمرأة واقفة ذليلة على باب الجمعيّة الخيريّة! فلو أنّ رجلها وفّر من مصروفه الخاصّ وإنفاقه على الكماليّات لَما وقفت هي هنا، أو لو أنّه اشتغل يومًا واحدًا بالإضافة إلى الأيّام التي يعمل فيها لمّا وقفت هذا الموقف الذليل. ولو أنّه وفّر بعض المال يوم كان شابًّا ولم يبدّره على الباطل لما وقفت هنا. مسكينة إنّها ضحيّة الرجل! فما أحراهم أن يتحمّلوا مسؤوليّة ذلك الماضي!

ولو أنّ الأمر حسنة تُعطى وكفى لهان الأمر، ولكنّ هؤلاء الذين اعتادوا أبًّا عن جدّ تلقّي الحسنة، اعتادوا أيضًا أن يطلبوها بقحة، وأن يشتموا ويسبّوا القائمين على توزيع الصدقات على أبواب الجمعيّات الخيريّة. يا لها من هزليّات مخزية، تحطّ من كرامة الصدقة التي هي إحدى قواعد الدين. وقد لا يخلو أحد من لذعات ألسنتهم حتّى الرئيس والمولى والمشرف.

الكسب أفضل من الاستعطاء

وكان الأولى بهؤلاء أن يسعوا ليجدوا لهم مخرجًا من الفقر والعوز، فما جدّ إنسان على الطريق إلاّ وصل. وما يمنعهم أن يسهروا الليالي في السعي والكدّ؟ فتلك الساعات التي تقضيها زوجتك وأختك وابنتك على أبواب الجمعيّة الخيريّة، لو أُضيفت إليها الساعات التي تُقضى في دور اللهو والساعات التي تُمضى في البيوت في أحاديث تافهة، لو صُرفت كلّ هذه الأوقات في عمل ما، مهما كان أجره زهيدًا، لدرّ على العائلة أضعاف ما تنال من الجمعيّة الخيريّة.

وتلك التي اعتادت أن تذلّ نفسها وتبذل ماء وجهها هل يخلو دائمًا موقفها من الخطر على آدابها وأخلاقها؟ أو ليس هنالك مَن يغار على المال المبدّر على أقدام المسيح كما في مثل المجدليّة، لا غيرة منه على المال ولكن لأنّه لصّ ولأنّ الكيس عنده؟ وأخيرًا هل يتساوى التوزيع دومًا مع العدل والحاجة؟ أم هنالك أحيانًا دوافع شخصيّة منحطّة.

اللهمّ نسألك أن تقي الفضيلة معاثر الرذيلة!

فكم من خطيئة ضدّ المحبّة الأخويّة تُرتكب باسم المحبّة الأخويّة. وكم من أعراض تُهتك وتكون الحسنة الطريق إلى انتهاكها!

ثمّ على المحتاج أن يطلب ولكن عليه أيضًا أن يقف موقف المتّضع إذا قوبل بالرفض. فلا بدّ للإنسان من أن يستوحي من الروح المسيحيّة الموقف الذي يقفه أمام باب مقفل في وجهه. وعليه أن يعرف أن ليس كلّ شيء ممكنًا ولا كلّ شيء حقًّا وواجبًا.

أخطار مساكنة الأسر

وأخيرًا نجد بعض الناس إلى اليوم يذهبون من باب إلى باب لأنّهم لا يملكون بيتًا. فيضطرّون إلى أن يستأجروا لهم مسكنًا داخل دار تضمّ غيرهم من الأسر الفقيرة. إنّه لأمر مؤلم أن نرى إلى اليوم كثيرًا من العيال تسكن هكذا في دار واحدة. فما أكثر ما ينتج عن هذه المساكنة من مشاكل ونزاعات! فنـزاع الجيران متواصل، وكثيرًا ما يتسبّب عن نزاع الأولاد فيما بينهم، وقد يتسبّب عن أمور تافهة فتتفشّى من جرّاء ذلك أسرار العيال وتكثر أسباب النميمة والافتراء. صور مؤلمة مصدرها الفقر والقلّة. وكم سمعنا أناسًا يطلبون لهم بيتًا، فيرفض مالك الدار لهم الطلب لأنّ لهم أولادًا. فيا للأسف! لقد تحوّلت نعمة الله إلى شيء مكروه منبوذ، بسبب القلّة والفقر.

أسباب الفقر

ونتساءل هل هذا الفقر المؤدّي إلى هذه الآلام والمحن طارئ سمح به الله ليمتحن محبّيه كما يفعل مع يوسف ومريم، أم أنّ هذه الحالة الفقريّة تعود إلى ماضي الأجداد والآباء الذين بذّروا الأموال وخلفوا لأولادهم الفقر والعوز والشقاء.

هناك فقر من الله يكافأ عنه الإنسان بسعادة السماء.

وهناك فقر يختاره بعض الناس زهدًا في الدنيا وطمعًا بالآخرة وتشبّهًا بالمعلّم. إنّه الفقر المحبوب. وقد غبّطه المعلّم بقوله: "**طوبى للفقراء**".

وهناك أخيرًا فقر مكروه من الله والناس منشأه الرذيلة وخاصّة القمار والكسل والفحش.

أمّا يوسف فرضي أن يحلّ في مغارة حقيرة ليكفل لمريم الحيطة التي تتطلّبها حالة الولادة. ورضي بأقلّ من الضروريّ لأنّها إرادة الله التي كتبت للمسيح أن يولد على الحضيض وفي الفقر الكامل.

٢٦
ميلاد المسيح

النبوءات تتحقّق

لم يجد يوسف مكانًا يأوي إليه مع زوجته في فنادق بيت لحم وبيوتها. فنـزل في مغارة للبهائم. ويقول القدّيس لوقا وهو يسرد لنا قصّة ميلاد المسيح المخلّص: "**وفيما كانا هناك تمّت أيّام وضعها فولدت ابنها البكر فقمّطته وأضجعته في مذود إذ لم يكن لهما موضع في النـزل**" (لوقا ٢: ٦- ٧).

وهكذا تحقّق السرّ المقرّر منذ الدهور.

وتمّت نبوءة ميخا النبيّ القائلة: (٥: ١) أنّ المسيح يولد في بيت لحم موطن جدّه داود النبيّ: "**وأنت يا بيت لحم افراثا أنّك صغيرة في الوف يهوذا ولكن منك يخرج مَن يكون متسلّطًا على إسرائيل، ومخارجه منذ القديم منذ أيّام الأزل**".

وهي الآية التي نوّه عنها القدّيس متّى: "**وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغيرة في رؤساء يهوذا لأنّه منك يخرج المدبّر الذي يرعى شعبي إسرائيل**" (٢: ٦).
وكانت النبوءة معروفة جيّدًا لدى اليهود. وفي المستقبل حينما تثور الشكوك حول شخص المسيح يقول بعضهم: "**إنّه النبيّ. ويقول آخرون أنّه المسيح. ويقول آخرون ألعلّ المسيح يأتي من الجليل ألم يقل الكتاب أنّه من نسل داود ومن قرية بيت لحم حيث كان داود يأتي المسيح**".
وقد سخرت العناية الإلهيّة جميع الحوادث وساقتها لتتمّ هذه النبوءة: أوغسطس قيصر يأمر بالإحصاء العامّ. يوسف يخضع للمرسوم الإمبراطوريّ فيتّجه إلى مدينة أجداده وآبائه.

بيت لحم

إنّها مسقط رأس داود الذي بدأ حياته راعيًا في جبالها ووهادها. ولمّا تألّق نجمه توجّه صاموئيل ملكًا على شعبه. في هذه المدينة جاء يسجّل يوسف اسمه واسم زوجته والطفل يسوع وسنّ كلّ منهم ومهنته.
كانت الطريق طويلة: مئة وأربعون كيلو مترًا تفصل الناصرة عن بيت لحم ولكنّ الثمانية الكيلو مترات الأخيرة الفاصلة بين القدس وبيت لحم كانت أكثرها إرهاقًا على مريم لأنّها في عشيّة ولادتها. وما يزيد الموقف تعقيدًا وتأزّمًا هو أنّهما لا يعلمان أين يحطّان الرحال.

المغارة

فلمّا اقتربا من مدينة بيت لحم لم يجدا مكانًا في النـزل يأويان إليه بسبب تدفّق الناس على هذه المدينة. وقد أشار أرميا النبيّ إلى وجود هذا النـزل خارج مدينة بيت لحم (٤١: ١٧). فاضطرّا إلى أن يلجأا إلى مغارة مهجورة كانت تستخدم كاسطبل للحيوانات.
ذلك ما يؤكّده أحد التقاليد المحلّيّة القديمة.
وسكّان بيت لحم وجوارها يشيرون إلى ذلك المكان المقدّس منذ مطلع الجيل الثّانيّ. وأوّل مَن أثبته القدّيس يوستينوس (+ ١٦٥) وهو أوّل شاهد له. والقدّيس يوستينوس فلسطينيّ، من سيخار في السامرة، كان وثنيًّا فاعتنق الدين المسيحيّ، وكانت ثقافته العالية قد أهّلته لأن يبحث في الدين المسيحيّ الجديد، فاعتنقه عن معرفة وقناعة. وفي حديث له مع تريفون يقول: "**لمّا لم يجد يوسف مكانًا يأوي إليه مع العذراء في القرية حلاً في مغارة بجانب بيت لحم. وبينما كانا هناك ولدت مريم المسيح ووضعته في مذود**".
وبعد أقلّ من قرن واحد جاءتنا شهادة أخرى من أوريجانوس (+ ٢٥٤) "**يشير الناس في بيت لحم إلى المغارة التي وُلد فيها المسيح ويشيرون إلى المذود الذي وُضع فيه باللفائف. وما يشير إليه الناس هو معروف جيّدًا لدى سكّان المنطقة وحتّى من الغرباء عن ديننا: إنّ يسوع الذي يعبده ويكرّمه المسيحيّون وُلد في هذه المغارة**".

فلمّا انتصرت الكنيسة جاءت القدّيسة هيلانة ورفعت فوق مكان الولادة الكنيسة الكبرى سنة ٣٢٦ وإنّ زائرًا للأماكن المقدّسة سجّل وجود المغارة سنة ٣٣٣ تحت الكنيسة الكبرى.

والمغارة ما تزال قائمة إلى اليوم. تنحدر إليها بدرج شبه حلزونيّ. وتتّسع المغارة أمام الزائر بطول ١٢ مترًا ونصف المتر وعرض ٣ أمتار و١٥ سنتمترًا. ويشعر الزائر برهبة المكان المثقل بالذكريّات اللطيفة عن طفل المغارة فلا يسعه إلاّ أن يركع أمام المذود الذي فيه أضجعت مريم طفلها. ومقابل المذود هيكل تقام عليه الذبيحة الإلهيّة.

ومن المعروف أنّ استخدام المغاور والكهوف بشكل اسطبلات أو أماكن للسكن ليس أمرًا نادرًا في فلسطين. وأنّ الأوصاف التي وردت إلينا من الجيل الثاني الميلاديّ تنطبق تمامًا على صفات مغارة بيت لحم التي يكرّم فيها مولد المسيح حاليًّا.

ومن غريب الطرق التي اتّبعتها العناية الربّانيّة لحفظ ذكر هذا المكان المقدّس أنّه حينما ثارت الإضطهادات على المسيحيّين أراد الأباطرة الرومانيّون أن يمحوا ذكر المسيح حتّى من الأماكن التي عاش فيها. فوضع الإمبراطور أدريانوس سنة ١٣٥ فوق مغارة المهد تمثالاً للإله أدونيس كما أنّه هو نفسه أراد أن يبعد المسيحيّين عن إكرام القبر والجلجلة فأقام فوقهما تمثالَيْن الواحد للإله جوبيتر والثانيّ لفينوس. وهكذا أصبحت هذه التماثيل من حيث لا يريد واضعوها إشارات تدلّ على الأماكن المقدّسة. وحين تحرّرت الكنيسة في عهد قسطنطين الملك حُطّمت تلك التماثيل وعاد مكان مولد المسيح وصلبه وقبره وقيامته موضوع اعتبار وإكرام وزيارة. وستظلّ هذه الأماكن هكذا إلى آخر الأيّام.

وهكذا في الفقر المدقع وُلد ابن الله مخلّص العالم. ويقول بولس الرسول: "**إنّكم تعرفون نعمة ربّنا يسوع المسيح كيف افتقر من أجلكم وهو الغنيّ لكي تستغنوا أنتم بفقره**" (كورنتس الأولى ٨: ٩).

المولود

وقد تمّت الولادة بدون ألم. وأنّ القدّيس لوقا بكثير من اللباقة والذوق يشير إلى ذلك إشارة خاطفة حتّى يرينا بعد ذلك مريم تبذل كلّ العناية للمولود الجديد.

وها هو الطفل تأخذه مريم تارة بين يديها لتضمّه إلى صدرها وتقبله وتارة أخرى تضعه في المذود على التبن. والطفل ككلّ الأطفال يبكي ويجوع وينام. ومع ذلك فهو "**الكلمة المتجسّد**". هذا الطفل هو ابن الإنسان، له دماغ وأعضاء بشريّة وقلب وروح، وهو إله.

ولقد وجد في مذوده كنه حياته المستقبليّة. لأنّ ما يكون الإنسان عليه في مولده يقرّر له معنى وجوده. أمّا الباقي فيضاف إليه. المحيط الإجتماعيّ والحوادث الخارجيّة تطبع فيه أثرها البنّاء أو الهدّام، الصالح أو الطالح، ولكنّ العنصر الأساسيّ هو الخطوة الأولى التي تقرّر مصير الكائن أيّ ما يكون الإنسان عليه عند الولادة.

والمسيح، مولود الآب ومولود مريم، يحمل في شخصه صفات الآب الإلهيّة وصفات مريم البشريّة. فهو إذًا إله كامل وإنسان كامل. وسوف يحمل معه القدرة الإلهيّة في حياته وتعاليمه وعجائبه ويطبعها بطابع اللاهوت. كما سوف يحمل معه أيضًا ناسوت مريم بكامل الصفات التي كانت لها من حبّ لله وطهارة وتضحية وبذل الذات وخضوع تامّ. فهو يحيا بشريًّا حياته الإلهيّة. والعنصر البشريّ يكون طبعًا تابعًا للعنصر الإلهيّ. وهكذا الإرادة البشريّة تخضع للإرادة الإلهيّة مع المحافظة على كامل صفاتها البشريّة. فإنّ مريم كخليقة بكامل صفاتها البشريّة كانت دائمًا خاضعة لله. ولذلك كانت كلّ أعمال السيّد المسيح الخارجيّة تظهر أنّ البشريّة في المسيح يملكها تمامًا وكمالاً شخصُ المسيح.

هذا الإله المتجسّد لا يستقبله العالم في قصر من قصوره ولكنّ الطبيعة الجرداء تمدّه بمغارة ومذود. ومريم كانت تفكّر بذلك السرير الذي نجره يوسف بيديه من أشهر، وبتلك الملابس الصغيرة التي نسجتها وخاطتها هي له. نعم كانت قد هيّأت ملابس لصبيّ لأنّ الملاك جبرائيل كان قد أنبأها عنه. ولكنّها تركت كلّ شيء حينما غادرت الناصرة فجأة ولم تحمل معها إلاّ بعض اللفائف الضروريّة.

كانت المغارة رطبة، قذرة، باردة. وكانت جرداء إلاّ من أثمن كنوز الدنيا، من المسيح مخلّص العالم.

لم يكن هناك مدفأة ولكن كان هناك قلب مريم.

الوحي يسجّل

حدث لم يشعر به أحد مع أنّ المولود هو ابن الله، ابن ملك الملوك وربّ الأرباب والمنتظر الذي تترقبه الشعوب مخلّصًا للعالم.

قصّة

في الليلة التي كانت ستلد فيها ماري لويز، لبثت باريس كلّها مستيقظة ساهرة ليُعلن لها عن مولد وليّ العهد. ويصف لنا الموقف الشاعر **فكتور هوجو** إذ يقول:

سنة ١٨١١ احتشدت جموع تحيط باللوفر وكانت أنفاس وعيون الجميع عالقة بشرفات القصر تترقّب بلهفة البشرى. وكانت شعوب أوربة، التي أخضعها الإمبراطور لسلطانه ووهبها مجدًا عسكريًّا لفرنسا، تترقب هي أيضًا مولد وليّ العهد. وفجأة ظهر الإمبراطور على شرفة القصر يحمل على ساعدَيْه الممتدّتَيْن وليّ العهد الذي سيخلد اسم **نابليون**. ودوّت مدافع الانفليد وخفقت الأعلام التي انتزعها الإمبراطور في معاركه وإنتصاراته. وبكبرياء وغطرسة عرض المولود الجديد على الجموع وسُمع صوته يدوّي ويردّد: "**المستقبل! المستقبل! المستقبل! هو لي!**".

وأجاب التاريخ: المستقبل هو لله، لا لأحد، لا لبشر ولا لخليقة. المستقبل هو لله وحده دون سواه! فانخذلت الآمال وتحطّم جناحا النسر ولمّا يمض على الحادث عشر سنوات. وبقي المستقبل بين يديّ الله يتحكّم به كما يشاء.

أمّا في مغارة بيت لحم فلم يكن إلاّ الوحي ليسجّل الشيء القليل قائلاً: **"وفيما كانا هناك تمّت أيّام وضعها فولدت ابنها البكر فقمّطته وأضجعته في مذود"**. ومع ذلك فقد أصبحت هذه الولادة بدء التاريخ في حوادث الدنيا. ولقد اضمحلّ كلّ مرجع تاريخيّ غيره. حتّى أنّ الشعوب الوثنيّة وغير المسيحيّة اعتمدته وأصبحت السنة الميلاديّة دوليّة.

سنة الولادة

وها نحن نتساءل عن السنة التي ولدت فيها البتول مريم ابنها سيّدنا يسوع المسيح في مغارة بيت لحم، تلك السنة التي هي الأولى في تاريخ الكنيسة المقدّسة وتُسمّى بالسنة الميلاديّة.

النظام المتّبع حاليًّا للتاريخ هو من وضع أحد الرهبان ويُسمّى ديونيسيوس الصغير. والمعروف عنه أنّه كاتب كنسيّ وُلد في بلاد سيتي، شماليّ البحر الأسود، في أواخر الجيل الخامس للميلاد، وتوفي سنة ٥٤٠. عاش في روما راهبًا في أحد الأديار. وكان يحسن الكتابة باللغتين اليونانيّة واللاتينيّة. فترجم قوانين المجامع المقدّسة من اليونانيّة إلى اللاتينيّة ووضع نظامًا جديدًا للحساب الفصحيّ. وبهذه المناسبة أدخل عادة تأريخ السنين منذ ميلاد السيّد المسيح. ولكنّه للأسف انطلق من نقطة مغلوطة. إنّ السيّد المسيح لم يولد كما ادّعى في ٢٥ آذار من سنة ٧٥٣ من تأسيس روما. لقد أصبح من الثابت اليوم أنّ هيرودس الكبير توفي في آذار أو في نيسان من سنة ٧٥٠. ومعروف أنّ المسيح كان له من العمر بعض الشهور حينما قضى هذا الملك نحبه، لأنّ مجيء المجوس ومقتل أطفال بيت لحم والهرب إلى مصر بموجب شهادة الإنجيل المقدّس كلّها تمّت وهيرودس على قيد الحياة. فمولد المسيح تمّ إذًا في نهاية عام ٧٤٩ أيّ قبل خمس سنوات من السنة الميلاديّة. وربّما كان مولد السيّد المسيح قبل موت هيرودس ببعض السنين. ويعتقد البعض أنّ الإحصاء الذي دفع بيوسف ومريم إلى بيت لحم جرى سنة ٧٤٧ أيّ قبل السنة الميلاديّة بسبع سنوات أو على الأقلّ بخمس سنوات.

يوم الولادة

ونجهل كذلك الشهر واليوم اللذيْن وُلد فيهما السيّد المسيح. ومن الثابت أنّ الشرق كان يحتفل بميلاد المخلّص في اليوم السادس من كانون الثانيّ اليوم الذي تحتفل به الطائفة الأرمنيّة بميلاد وعماد المسيح حتّى وقتنا هذا. أمّا كنيسة روما فكانت تحتفل بميلاد المخلّص في ٢٥ كانون الأوّل على الأقلّ منذ عام ٣٣٦.

ويظهر أنّ وضع العيد في مثل هذا التاريخ من كلّ سنة سببه الاستعاضة عن الاحتفال السنويّ الذي كان يقام هناك إكرامًا للإله الشمس.

وكان الوثنيّون يقيمون في ٢٥ كانون الأوّل احتفالاً كبيرًا جدًّا للإله جوبيتر الإله الشمس. وقد عبده الشرقيّون تحت اسم هيليو. فلمّا تنكّروا لدينهم وآمنوا بالمسيح لبثوا يحتفلون بهذا العيد احتفالهم به في عهد وثنيّتهم، بالرغم من أنّ الاحتفال يمسّ بالدين

الجديد الذي اعتنقوه. فرأت الكنيسة أن تنقل ذكرى مولد المخلّص إلى هذا اليوم لتنسيهم عبادتهم القديمة. وأُفهموا أنّ الشمس الحقيقيّة هي المسيح معبود الشعوب والأمم.
واستُدرج الشرق في أواخر الجيل الرابع لتبنّي هذا الاحتفال الرومانيّ.

في مصر

حتّى نهاية القرن الرابع لم يكن يحتفل إلاّ في اليوم السادس من كانون الثانيّ بمولد المسيح وعماده. حتّى إذا كانت سنة ٤٣٠ انفصل عيد الميلاد عن عيد الغطاس فلبث هذا الأخير في اليوم السادس من كانون الثانيّ بينما انتقل عيد الميلاد إلى يوم ٢٥ كانون الأوّل.

في فلسطين

حتّى أواخر القرن الرابع كانت مدينة القدس تحتفل بمولد المسيح في ٦ كانون الثانيّ ولم يُنقل العيد إلى ٢٥ كانون الأوّل إلاّ عام ٤٣٠. أمّا باقي بلاد فلسطين فلم تحتفل به في ٢٥ كانون الأوّل إلاّ في القرن السادس.

في سورية

لم يحتفل المسيحيّون في سورية بعيد الميلاد إلاّ في أواخر القرن السادس. واحتفلت به أنطاكية حوالي سنة ٣٨٦- ٣٨٨ فأدخله في الطقس القدّيس يوحنّا فم الذهب. أمّا ذكرى عماد المسيح فكان يحتفل بها في ٦ كانون الثانيّ.

في القسطنطينيّة وآسيا الصغرى.

لا ذكر لعيد الميلاد إلاّ في نهاية القرن الرابع وقد أدخله القدّيس غريغوريوس النازينزيّ في طقوس القسطنطينيّة. وقد احتُفل في ٢٥ كانون الأوّل بميلاد المسيح وسجود الرعاة والمجوس. والغطاس هو ذكرى عماد المسيح وقد سُمّي أيضًا بعيد الظهور الإلهيّ أو بعيد الأنوار لأنّ العدد الأكبر من الموعوظين كانوا يتقبّلون العماد في مثل هذا النهار. وقد استبدل نشيد التريصاجيون قبل قراءة الرسائل بنشيد المعمّدين: **"أنتم الذين للمسيح اعتمدتم المسيح قد لبستم الليلويا"**.

ممّا سبق يتبيّن أنّ عيد الميلاد شمل بلاد الشرق كلّها في أواخر القرن الرابع. وبلاد أرمينيا وحدها لم تحتفل بعيد الميلاد في ٢٥ كانون الأوّل إلاّ في القرن السادس عشر.

وفي طقس الكنيسة البيزنطيّة صدى واضح للإستعاضة عن عيد مولد الشمس بعيد الميلاد الإلهيّ. فالصلوات تنشد للشمس الإلهيّة التي أشرقت من بيت لحم خلاصًا للعالم:

"اليوم البتول تلد الخالق، وعدن تقدّم المغارة، والنجم يخبر بالمسيح الشمس للذين في الظلام..." (من صلاة الغروب ليوم العيد).

"أيّها السيّد الشارق كوكبًا من يعقوب..." (من قانون العيد).

"نور أشرق في الظلمة للمستقيمين" (انتيفونا الثانية).

"ميلادك أيّها المسيح إلهنا قد أشرق نور المعرفة للعالم، لأنّ الساجدين للكواكب فيه تعلّموا من الكوكب أن يسجدوا لك يا شمس العدل ويعرفوا أنّك المشرق من العلاء. يا ربّ المجد لك" (ايوليتيكيون العيد).

طقس العيد

وفي رتبة الطقس البيزنطيّ لعيد الميلاد نجد كلّ التفاصيل التي رافقت حادث ميلاد المسيح المخلّص. وفيها خصّ واضعو الطقس بأجمل التقاريظ الأمّ البتول.

وقد أفسح الطقس لعيد الميلاد مجالاً لأوسع الرتب الكنسيّة من بعد رتبة القيامة. فجعل له تقدمة تبدأ منذ اليوم العشرين، فيه دعوة للمؤمنين لأن يستعدّوا ودعوة لقبيلة داود وبيت لحم والمغارة لأن تستعدّ أيضًا لتقبّل ولادة المخلّص.

وله بيرمون في اليوم السابق للعيد وهو يوم صلاة وصيام. وكانت العادة قديمًا أن يسبقه خمسة عشر يومًا من القطاعة والصيام استعدادًا للعيد.

وللعيد خدمة تدوم حتّى اليوم الأخير من شهر كانون الأوّل تتكرّر أثناءها التقاريظ والأناشيد للمولود ولأمّه الوالدة.

ويفيض الطقس بالتفاصيل الدقيقة عن ظروف العيد. والتقاريظ التالية نقتطفها من رتبة يوم العيد لأنّ باقي الصلوات ما هي إلاّ ترداد لها.

أوّلاً- تفاصيل لاهوتيّة تكشف لنا عن طبيعة المولود ورسالته

١- إنّه الكلمة ابن الآب المتأنّس في أحشاء البتول:

"إنّ صورة الآب وشخص أزليّته قد اتّخذ صورة عبد وورد من أمّ لم تعرف زواجًا إذ أنّه لبث إلهًا حقيقيًّا واتّخذ ما لم يكن إذ صار إنسانًا لأجل محبّته للبشر".

"لقد ولدت بلا أب على الأرض مَن هو مولود بلا أمّ في السماء ولادة تفوق العقل والسماع. فإليه ابتهلي يا والدة الإله لأجل نفوسنا".

الآب السماويّ يعلن صريحًا أنّه ابنه قبل أن تلده مريم: **"من البطن قبل كوكب الصبح ولدتك"** (ايصوذيكون العيد).

٢- إنّ الحبل تمّ من الروح القدس:

"يا مَن تجسّد من الروح القدس وتأنّس من مريم البتول أيّها المسيح الإله... يا شعاع الآب لقد أنرت كلّ الخليقة. فكلّ نسمة تسبّحك يا صورة مجد الآب. أيّها الإله الأزليّ والذي قبل الأزل يا مَن أشرق من البتول. اللهمّ ارحمنا".

٣- إنّ مولد المسيح يعيد الخلاص الذي فقده الإنسان الأوّل:

"إنّ يسوع لمّا شاهد مَن هو على صورته ومثاله متهوّرًا بسبب المعصية طأطأ السماوات وانحدر وسكن في المستودع البتوليّ لكي يعيد بذلك جبلة آدم المستوليّ عليه الفساد...".

٤- إنّ الولادة تبقي على بتوليّة العذراء مريم:

"لقد تمّ اليوم عجب عظيم مستغرب ذلك أنّ بتولاً تلد ولا يفسد المستودع. الكلمة يتجسّد ومن الآب لم ينفصل...".

"لقد حملت نار الألوهيّة ولم تحترقي وولدتِ بلا زرع ينبوع الحياة يا والدة الإله الممتلئة نعمة فخلّصي الذين يعظّمونك".

٥- إنّ إبليس قد دُحر والفردوس عاد فانفتح في وجه البشريّة:

"تهلّلي يا أورشليم لأن قد انحلّت اليوم العقالات الزمنيّة التي حكم بها على آدم. فالفردوس فُتح لنا. والحيّة أُبيدت... فلتطرب الخليقة بأسرها مستبشرة لأنّ المسيح قد أتى ليعيد دعوتها ويخلّص نفوسنا...".

٦- إنّ النبوءات قد تمّت بمولده:

"إنّ النبيّ حبقوق سبق فأنبأ عن إعادة الجنس البشريّ... فإنّ الكلمة قد خرج من جبل البتول طفلاً جديدًا لإعادة تكوين الأمم".

"ها إنّ البتول قد حملت في الحشا كما هتف النبيّ قديمًا فولدت إلهًا متأنّسًا ولبثت بتولاً. فبما أنّنا بواسطتها قد تصالحنا نحن الخطأة مع الله، فلنمجّدها بإيمان بما أنّها والدة الإله بالحقيقة".

٧- إنّ الولادة عجائبيّة:

"لماذا تتعجّبين يا مريم ولماذا تنذهلين في داخلك؟ فتجيب قائلة لأنّي ولدت في زمن ابنًا غير محدود في زمن. ولست أدرك كيفيّة الحبل بالمولود. فكيف ألِد ابنًا ولم أعرف رجلاً. مَن شاهد قط ميلادًا بغير زرع. ولكن حيث يشاء الإله يغلب نظام الطبيعة...".

٨- إنّ للمولود طبيعتَيْن:

"إنّ الذي لا يسعه الكلّ وسع في مستودع. والذي في حضن الآب تحمله أمّ على ساعدَيْها... وقد شاركنا في جبلتنا غير منفصل عن جوهره. المسيح وُلد بطبيعتَيْن مريدًا أن يتمّم العالم العلويّ".

٩- وبولادته منحنا الطبيعة الإلهيّة:

"أيّها المسيح لمّا صرت مساويًا لنا بصورة الجبلة الترابيّة... منحتنا الطبيعة الإلهيّة إذ صرت بشرًا ولبثت إلهًا ورفعت شأننا فقدّوس أنت يا ربّ".

١٠- وقد اختصّ بولادته البشريّة لذاته بعد أن اجتذبها إليه:

"إنّ المسيح الإله... قد تأنّس واختصّنا لذاته..."،"إنّ ملك السماوات قد اتّخذ الجسد لكي يجتذب إليه الجبلة الساقطة...".

١١- الولادة تحلّ الرموز:

"إنّ العوسجة غير المحترقة قد صوّرت المستودع الذي حمل الإله الكلمة متّحدًا بصورة البشر ومعتقًا مستودع حوّاء من مرارة اللعنة القديمة...".

ثانيًا- أمّا البتول في المغارة فهي أشبه شيء بعرش ملكيّ:

"إنّي أشاهد سرًّا عجيبًا مستغربًا. فإنّ المغارة قد أمست سماء والبتول عرشًا شاروبيميًّا والمذود محلاً شريفًا اتّكأ فيه المسيح الإله الذي لا يسعه مكان. فلنسبّحه معظّمين".

ثالثًا- تفاصيل عن المغارة والرعاة والمجوس والملائكة:

"لمّا وُلد يسوع من البتول القدّيسة. استنارت الخليقة بأسرها: فالرعاة يسهرون والمجوس يسجدون والملائكة يسبّحون وهيرودس يضطرب...".

"ماذا نقدّم لك أيّها الإله لأنّك ظهرت على الأرض إنسانًا لأجلنا. فكلّ نوع من الخلائق التي أبدعتها يقدّم لك شكرًا. فالملائكة التسبيح. والسماوات الكواكب. والمجوس الهدايا. والرعاة التعجّب. والأرض المغارة. والقفر المذود. وأمّا نحن فأمًّا بتولاً...".

"إنّ المجوس ملوك فارس لمّا عرفوا جليًّا أنّ الملك السماويّ قد وُلد على الأرض انقادوا من كوكب ساطع فبلغوا إلى بيت لحم وقدّموا له هدايا منتخبة ذهبًا ولبانًا ومرًّا وخرّوا له ساجدين لأنّهم أبصروا المنـزّه عن الزمن طفلاً موضوعًا في مغارة".

"اليوم البتول تلد الفائق الجوهر والأرض تقرّب المغارة للغير المقترب إليه. الملائكة مع الرعاة يمجّدون والمجوس مع الكوكب في الطريق سائرون. لأنّ من أجلنا وُلد صبيّ جديد وهو إله قبل الدهور".

رابعًا- يذكر الطقس الاكتتاب بأمر أوغسطس

"... الشعوب اكتُتبت بأمر قيصر وأمّا نحن المؤمنين فقد كُتبنا باسم لاهوتك...".

لم يبق لنا بعد هذا إلاّ أن ننشد مع الكنيسة: **"خلّصنا يا ابن الله يا مَن وُلد من البتول لنرتّل لك هللويا".**

٢٧
أمّ وبتول

بتول في الولادة

لقد وُلد المخلّص ولم يمسّ الأختام. فإنّ مريم العذراء بقيت بتولاً حتّى في الولادة. إنّها بتول قبل الولادة وفي الولادة وبعد الولادة.

بشهادة الكنيسة

تلك هي الحقيقة التي تفرض على إيماننا منذ نحو ألف وخمسمائة سنة. فلقد أثبتتها بالإجماع أصوات الآباء وعلماء الكنيسة والمجامع المقدّسة، ولا نجد في التقليد غير هذا المفهوم.

على مثال الشعاع

وقد اتّفق على أنّ المسيح المخلّص طفر كالبرعم دون أن ينتاب الجوهر أيّ أذى أو أيّ تغيير. لقد خرج من الحشا الطاهر بالطريقة نفسها التي ولج بها، وهو أشبه شيء بشعاع الشمس الذي يمرّ عبر البلّور فلا يغيّر فيه شيئًا ولا يمسّه بضرر.

إنّنا نجد صعوبات بالطبع في فهم هذه الحقيقة. وهي لا تزال إلى اليوم من مجموعة الحقائق التي لم تُحدّد بعد بالتفصيل.

نجهل طريقة الولادة

وأولى تلك الصعوبات ناتجة عن أنّنا نجهل ذلك الإتّحاد الجوهريّ القائم بين النفس والجسد. حتّى أنّ بعضهم يصوّر لنا النفس كبطّانة للجسد أو شيء يختفي وراء الجسد. مع أنّ النفس هي مبدأ حياة الجسد وعنصر جوهريّ في كيان الإنسان. فكما أنّ الإنسان جسد فإنّه هو روح أيضًا. وهذه الروح تملأ جسد الإنسان وتمتدّ حتّى أقصى أطرافه. ويصوّر لنا غيرهم الجسد كغلاف أو كأسمال أو كسجن للجسد. مع أنّه العنصر الحيّ الشفّاف.

فمن الغريب بعد هذا أن نرى الناس يرفضون الإيمان بتجلّي الربّ على طور ثابور وببتوليّة مريم الدائمة، وهما من الحقائق التي تدلّل على أنّ النفس يمكنها أن تشعّ عبر الجسد.

يكشفها الإيمان

وثانية هذه الصعوبات ناتجة أيضًا عمّا خلفه لنا بعض الكتّاب من مطالعات خاطئة أسندوها إلى كتب محرّفة شاعت أن توجد لمريم قابلة تساعدها في ولادتها للمسيح المخلّص. نعم إنّ البتوليّة الدائمة، كانتقال العذراء بالجسد إلى ملكوت السماء، ليست حوادث تاريخيّة وصلت إلينا عن طريق الكتاب المقدّس أو التقليد الشفهيّ المقدّس، إنْ هي إلاّ من الحقائق التي يكشفها الإيمان عن الوحي. وكما أنّ طريقة انتقال العذراء خافية عن عيوننا، كذلك أُغميت علينا طريقة الولادة مع بقاء البتوليّة.

وقد يكون من الخطأ أن نهمل جوهر السرّ لنسعى وراء تفاصيل شاء الله أن تبقى طيّ الكتمان.

حدث بأعجوبة

أمّا جوهر السرّ فهو أنّ مولد المسيح لم يمسّ بكارة مريم بأيّ أذى، بل حفظ لها جسدها بتولاً سالمًا، الأمر الذي يفرض الاعتقاد بضرورة تدخّل خاصّ عجيب من الله في أمر الولادة كما في أمر الحبل.

ولكي نقرّب إدراك هذه الحقيقة من أذهاننا، يمكننا أن نرى فيها شبهًا بمولد المسيح الأزليّ. فكما أنّ الكلمة وُلد من الله ولم يغيّر شيئًا في الله، كذلك المسيح وُلد من مريم ولم يغيّر فيها شيئًا.

مثال للبتوليّة

ثمّ إنّ المسيح يعلّق أهميّة كبرى على البتوليّة، ولذلك لم يهدم شيئًا من هذا الإنعام في أمّه الطاهرة.

إنّـها معصومة من الخطيئة الأصليّة

وأخيرًا أنّ مريم هي البريئة من دنس الخطيئة الأصليّة. وهذه النعمة لا تبعد عنها الخطيئة فقط، ولكنّها تحفظها ممّا يترتّب عليها كنتائج على النفس والجسد. إنّ مريم لم تختبر آلام الولادة ولا فساد القبر، وهما عقوبتان ذكرهما الكتاب المقدّس (تكوين ٣: ١٦ و١٩).

وهكذا يتّضح أنّ سرّ بتوليّة مريم الدائمة والكاملة، على مثال انتقالها بالجسد، ما هما إلاّ سرّ بقاء الجسد كاملاً أيّ سالمًا منـزّهًا عن الفساد، الأمر الذي يبيّن بوضوح العلاقات القويّة التي تربط بين النفس والجسد وتجمع بينهما في وحدة كاملة.

أسباب الإنعام

والآن إذا كان من العبث أن نسعى لمعرفة الطريقة التي تمّ بها هذا السرّ، فإنّه من المجديّ المفيد أن نبحث عن الدوافع التي حدت بالكلمة المتجسّد إلى أن يهب والدته هذا الإنعام الفريد.

فضل البتوليّة

يقول بولس الرسول: إنّ الزواج شيء صالح ومقدّس. ولكنّ الأفضل أمام الله أن يبقى الإنسان بتولاً.

لأنّ البتوليّة في سبيل الله دليل على أنّ الجسد تكرّس له وانقطع لخدمته الخالصة دون سواه.

طغمات المتطوّعين

ولقد قدّس الشعب المسيحيّ البتوليّة وجعل منها أسمى الفضائل واعتبرها الفضيلة البطوليّة، فتحمّس لها، ليس فقط فئة زهيدة من الناس، بل طغمات من المتطوّعين للبتوليّة من الرجال والنساء، سمعوا صوت الله يدعوهم فلبّوا الدعوة بسخاء وأريحيّة.

حبًّا للبتول

وكلّ ذلك للسير إثر البتول الطاهرة محبّة وتشبّهًا بها. وإنّ الله الذي كرّس لذاته جسد مريم بتجسّد الكلمة، كان لائقًا به أن يحفظ لها بتوليّتها يوم البشارة ويوم الولادة.

أجل، إنّه من اللائق بسلطانه العذارى أن تبقى مثالاً حيًّا لطغمات العذارى.

ولو شئنا أن نمعن في البحث عن أسباب ودوافع هذا السرّ، لاتّضح لنا أنّ بقاء مريم بتولاً في الولادة هو أقلّ أهميّة من بقائها بتولاً يوم حبلها بالمخلّص. وبدون هذا الإنعام ما قلّت مريم كرامة ونقاء، ولكنّ وجوده يجعلها أكثر كمالاً وأعظم دليلاً على حبّ الله لها.

أمّا عالم اليوم فينجح عن مثل هذا التفكير النبيل الساميّ. وينـزع نحو التفكير الدنيء الشائن، فيُهيّئ السبل ويصمّم تسهيلات وخططًا تكفل له دوام اللذّة الجسديّة وبقاءها ليتفنّن في المتعة. أما لمستم الدعايات لذلك بالإعلانات والرسوم وفي الأفلام والإذاعات وفي مسابقات الجمال والمنافسات وفي الكتب والروايات وفي الخطب والأحاديث.

الطهارة هي ضحيّة المجتمع ويا للأسف!

تيّار معاكس

ومع ذلك كلّه فقد أخذت تظهر، في عالمنا المسيحيّ منذ بعض السنين بخصوص البتوليّة والزواج، نهضة أصبحت ضروريّة لانتشال ما تبقّى من شأنهما وهكذا نأمل أن تعيد تلك الجهود إلى الطهارة في البتوليّة، وإلى العفاف في الزواج، قيمتهما السامية أمام الله.

وإنّ هذه النهضة تدعو الناس إلى اتّخاذ كلّ الوسائل المؤدّية إلى حفظ القلب بريئًا طاهرًا. ومن هذه الوسائل الوقاية الصحّيّة، والثقافة الجنسيّة، وحدّ أدنى من العِلم، والإطّلاع على المحاذير الدنيئة، واستخدام الحريّة بمفهوم صحيح، وبشيء من الحياء البشريّ، والحشمة واللياقة، واحترام الإنسان لجسده، واحترام البنات والأطفال، لأنّهم أشبه بالزنبقة التي تذبل لأقلّ ملامسة أو مداعبة.

وعلينا أن نعرف أنّ كلّ مقاومة وإنتصار يرفع من شأن الإنسان أمام الله. وأنّ أقلّ فكرة دنسة إراديّة تزيل من النفس نقاءها. وأنّ كلّ انزلاق مهما كان طفيفًا قد يجرّ إلى أوخم العواقب.

ومن البدهيّ أنّ الطهارة ليست في الأساس فضيلة الجسد. ولكن علينا أن نعرف أنّ للجسد دوره الخاصّ في الطهارة: إنّ كلّ ما له علاقة بالجسد له أثره وصداه العميق في النفس. ولذلك كانت للطهارة المسيحيّة من ناحية الجسد أهميّة وضعيّة وحقيقيّة أمام الله.

مثال المعلّم

وإنّ معاملة الله لأمّه الطاهرة يجب أن تكون لنا حافزًا لأن نجد ونسعى لنخضع لله كلّ القوى التي أضعفتها الخطيئة الأصليّة وأقصتها عن سلطان الإرادة. وبالتالي يجب أن تسيطر الإرادة على الطبيعة، حتّى فيما هو غير إراديّ.

ويمكننا أن نبسط مثال السيّد المسيح كأنموذج حيّ للمراهقين في احترام ومحبّة أمّه الطاهرة. فإنّه بولادته العجائبيّة احترم والدته كلّ الإحترام وأبدى لها كلّ أسباب المحبّة. فقد حفظها بتولاً وجعل من ولادته منها فرصة فجّر لها بواسطتها ينبوعًا من النعم، فزادها قداسة وكمالاً.

وفي طقس الكنيسة البيزنطيّة ننشد للعذراء حبلها وولادتها العجيبَيْن "**إنّ الخليقة ترى فيك، يا ممتلئة نعمة، أعجوبة العجائب فتبتهج. لقد حملت بلا زرع وولدت ولادة تعجز البيان**".

"**هلمّ لنمجّد والدة المخلّص التي لبثت بعد الولادة أيضًا عذراء...**".

(من تقاريظ عيد الميلاد).

٢٨
مثال للأمّهات

"**فقمّطته وأضجعته في مذود**" (لوقا ٢: ٧).

لم تنس مريم بالرغم من السرعة التي خرجت بها من الناصرة أن تأخذ معها القماط وجزءًا من الجهاز واللفائف التي كانت قد اشتغلتها بيديها فحملتها معها إلى بيت لحم.

وأنّ القدّيس لوقا لم يغفل هذا الأمر ليدلّ بذلك على اهتمام مريم بمولودها الطفل العجيب.

إنّه ككلّ الأطفال

لقد وُلد المسيح الطفل عاريًا ككلّ الأطفال، فاختلف الجوّ بين حشا مريم الحارّ والمغارة الباردة، فشعر بلسعة الطبيعة.

إنّها ككلّ الأمّهات

وإنّ مريم ككلّ أمّ راحت تراقب أوّل حركات روِاياه وتترقّب أوّل صرخة تنبعث من حنجرته، وتضمّه إلى صدرها. ويبكي الطفل ويشعّ وجه مريم نورًا فتضحك وتنادي يوسف.

ولم يكن هنالك من فرق يميّزها عن سواها من الأمّهات في كلّ ما تقوم به من حركات مع هذا الطفل الصغير.

ألقوا نظرة على عينيها تروا كيف أنّها تتفرّس في وجه ابنها. إنّه طفل صبيّ! فهي تشعر بكبرياء الأمّهات.

وتحني مريم رأسها وتمرّ وجهها في جسم طفلها، هذا الجسم الذي هو منها، وتلصق شفتيها على وجهه وهي سعيدة بأن ترى أوّل نظرة من عينيه وتلتقط أوّل قبلة من خدّه. هكذا تفعل كلّ الأمّهات، وهكذا كانت تفعل مريم مع طفلها. إنّها ترى فيه براءة مزدوجة تشعّ من عينيه، براءة جسمه وبراءة روحه.

والغريزة النسائيّة تدفع بالبنات منذ الحداثة إلى أن يداعبن الدمى ويخطن لها الملابس.

أمّا مريم فتراها الآن وقد أمسكت بيدها اليسرى ابنها ومدّت يدها اليمنى إلى جعبتها تبحث فيها عن لفائف الطفل. ويرى يوسف لأوّل مرّة وجه الطفل المنتظَر فيصرخ بمريم انتبهي لئلاّ يقع الطفل من يدك. وهل يقع طفل من يد أمّه وهي تسنده إلى صدرها أو إلى

ركبتها؟ وراح الطفل يتقلّب على صدره أو على ظهره بينما راحت مريم تفتّش عن اللفائف.

إنّها حريصة الحرص كلّه على طفلها. فعينها دائمًا عليه تتبع كلّ حركة من حركاته.

وتشاء الظروف أن يفرض فقر هذه الأسرة على الطفل، بل يشاء هو، بعد أن اختار لنفسه القلّة والفقر، أن تكون لفائفه من قطعة قماش خشن قصّتها مريم وعملت منها ما يلزم لتدثيره.

وها هي تحلّ لفائفه ثمّ تعود فتقمّطه وتداعبه وتقبّله وتدعو السعادة أن تهدهد له أيّامه.

وتتبادر إلى الذهن خواطر وخواطر... إنّه ابن ملك الملوك وربّ الأرباب. فأين القصر المنيف وأين الحرير والأرجوان وأين الأميرات والخدم والحشم وأين السرير المرصّع؟

حنان الأمّ

ولكنّ الطفل هذا لم يحرم من العطف والحنان. إنّ مريم هنا بقلبها ويديها وابتسامتها، وهذا الغذاء جوهريّ للأطفال.

إنّ مريم هنا بحنين صوتها.

هل راقبت عن كثب أمًّا تقمّط طفلها؟ إنّك تسمع الأمّهات يتمتمن بينما يقمن بعمليّة التقميط. تسمعهنّ يردّدن على الطفل كلمات كلّها عطف وحنان، حتّى لتثور شهوة الغيرة والحسد في نفوس بعض الرجال فيتساءل الواحد منهم هل هذه الثرثارة اللطيفة حقًّا هي زوجته.

وتغنّي الأمّ لطفلها، وتقوم محادثات بين الأمّ المداعبة والطفل الصامت الذي لا يقوى على الكلام. ولذا تراها تسأله وتجيب عنه وهي تضمّه إلى صدرها وتقبّله، كأنّه أحسن الجواب وكأنّها فهمت ما يريد.

لقد نعم الطفل يسوع بهذه المتعة أيّامًا وشهورًا وسنين، فهو ابن مريم البكر، إنّه ابنها الوحيد. فلقد انحنت على سريره بحبّ وشغف، وغذّته بلبن حنانها.

وفي الليلة الأولى من مولده لم يكن له سرير غير المذود، ولا بيت غير المغارة، ولم يكن له مسكن بشر بل مسكن الحيوانات.

وبموجب التقليد الوارد إلينا، كان مسكنه مغارة تُستخدم لمبيت الحيوانات.

أمّا السرير الذي نجّره يوسف بيديه فقد بقي في الناصرة. ولم يجد هذا الطفل الأشياء التي يجدها الأطفال حولهم عند ولادتهم.

فلم يرَ يوسف أمامه غير المذود وهو المكان الذي يوضع فيه علف الحيوانات. فبسط التبن بيديه ودعا مريم لتضع الطفل عليه. والمذود والتبن إذا لم يتوفّر شيء آخر سواهما فهما أفضل من الحضيض. ولا بدّ للإنسان من أن يقنع بالموجود. وهكذا استطاع المسيح أن يقول فيما بعد: **"أمّا ابن الإنسان فليس له موضع يسند إليه رأسه"**.

ثمّ يرفع يوسف عنه عباءته ويضعها على كتفي مريم ليردّ عنها برد الشتاء القارس. ويتّجه بعد ذلك إلى الفتحات في الجدران فيسدّها. إنّه الملاك الحارس لمريم وابنها.

وتشعر مريم بكامل السعادة التي تشعر بها الأمّ أمام سرير طفلها، حتّى أنّ كلّ عذاب يهون في سبيل هذا الطفل الحبيب.

أمّ تنقذ حياة طفلها

وُلد لإحدى الأسر طفل لم يتمّ أيّامه، فقرّر الطبيب الذي دُعي فجأة أثناء الليل لمساعدة القابلة بأنّ الطفل لن يُكتب له البقاء، وأنّه لن يعيش إلاّ ساعات أو أيّامًا معدودة. ولمّا صحت أمّه فهمت معنى الحديث من عيون الحاضرين. فقالت للقابلة بإلحاح ابذلي جهدك ولا تتخلّي عن أيّة حيلة أو وسيلة ليعيش. وكان الطفل أشبه شيء بقطعة لحم تتنفّس، ولا يزيد وزنه عن كيلو غرام واحد. وهبّت الأمّ من فراشها مصمّمة على إنقاذ طفلها وانتشاله من مخالب الموت.

وكان بعض الناس من الأهل والأصدقاء يبدون ملاحظات ويشيرون بوسائل من شأنها تخفيف وطأة المصيبة، حتّى أنّ الوالد نفسه قال: إنّ ما عندنا من أولاد يكفينا، ويمكننا أيضًا أن نأتي بغيره. أمّا والدة الطفل فقد صمّمت أن يعيش ابنها ولو أنّه سادس أخوته. إنّه قطعة من جسمها وشطر من قلبها وروح من روحها. وهل يتخلّى الإنسان عن قطعة من ذاته؟ وقد جاء في الإنجيل المقدّس أنّ المرأة حينما تضع ولدها تفرح فرحًا ينسيها أوجاعها.

وهكذا راحت الأمّ تبذل للطفل كلّ أسباب العناية بموجب توصيات الطبيب والقابلة. فعاش الولد في القطن مدّة ثلاثة أشهر وأوجدت له أمّه جوًّا من الهواء يتلاءم مع رواياه الضعيفة وعضلاته الهزيلة، لأنّ الفصل كان شتاء والبرد قارسًا. وانحنت فوق سريره الأيّام الطويلة وحرمت نفسها النوم عشرات الليالي عناية به حتّى اشتدّ. وغدت لا تصدّق اليوم أنّ هذا الطفل الذي وُلد لها ممسوخًا أصبح أشبه شيء بالأطفال الذين يصوّرون على علب الحليب للدعاية يطفح وجهه صحّة وحياة.

هذا مشهد رائع للحبّ الوالديّ. فهل ينسى هذا الطفل غدًا تلك التي تجشّمت الأتعاب وتحمّلت ضنك السهر وضنى الليالي ليعيش وينعم بالحياة؟ كلاّ! فحبّ الأمّ لا يُنسى.

إنّ حبّ الأمّ غريب الأطوار! رُوي أنّ أمًّا كانت تصلّي إلى الله أن يهبها ولدًا، وقد جمعت في صلاتها روحها المسيحيّة ودلالها الأنثويّ فقالت: **"اللهمّ أعطني ولدًا على أن يكون أزرق العينين ويصبح قدّيسًا"**.

أيّام خطيرة

هذه مريم تسهر على طفلها خاصّة في الأيّام الأولى حيث الحرمان يخيّم عليه فتريد لو عوّض له حبّها من كلّ نقص.

الرضاعة

فكلّما بكى قامت إليه وقرّبت شفتيه من ثدييها وسكبت في فمه اللبن المغذّي والمقوّي والباعث الدفء. وحينما نذكر لبن الأمّ نعني بذلك تلك المادّة الجوهريّة الطبيعيّة وشيئًا

آخر هو روح الأمّ تسكبه في نفس ابنها. ما أكثر ما نسمع بعض الناس يقولون إنّ هذا الولد رضع الحليب من إيمان وتقوى وشرف والدته.

العناية الجسديّة

ففي الأيّام الأولى من حياة الطفل يكون كالزنبقة التي تذبل لأقلّ نسمة. فلا بدّ والحالة هذه من أن تهتمّ الأمّ بجسم ابنها، لأنّ الإنسان في مطلع حياته يشبه النهر عندما يخطّ لنفسه طريقه منذ منبعه، وإلاّ تشعّبت مجاريه وتبدّدت مياهه وتحوّل إلى عامل هدّام للأراضي والحقول، وهدّد القرى والمدن القائمة على مجراه بالخراب.

وهذا الدور هو أحد واجبات الأمّ الأوّليّة والأساسيّة. فإنّها هي التي ترسم للطبيعة البشريّة طريقها وتصاميمها فيصبح الإنسان سعيدًا في ذاته ويصبح خيرًا على المجتمع وعابدًا لله صالحًا ونشيطًا.

تطلق لسانه

ويترتّب على الأمّ بعد ذلك أن تطلق لسان ولدها على الكلام. فإنّ الطفل يسوع لمّا بلغ الأشهر راحت مريم تكرّر على مسامعه كلمة بابا، ماما، الله. وهي الكلمات الأولى التي يتعلّمها كلّ طفل من والدته.

عين يقظة

فما أن يفتح الطفل عينيه صباحًا على نور الدنيا، حتّى تكون أمّه بقربه وقد تعوّدت على ميعاد يقظته، فتراها هناك عند رأسه لتلتقط أوّل نظرة منه. ثمّ تأخذه بين يديها وهي تنادي: يا الله! ثمّ تضمّه إلى صدرها وتعانقه.

وكذلك عند المساء، بعد أن تهدهده تارة على ركبتَيْها وتارة على ساعدَيْها فوق صدرها، تسأل الله أن يحفظه للغد على قيد الحياة.

وينام الطفل. ولكنّ عين الأمّ تتفتّح لأقلّ حركة منه، لأقلّ زفرة يرسلها، فتنحني فوق سريره وكأنّها تسأل أنفاسه عن معنى هذه الحركة أو تلك. وقد تأخذ ابنها بين يدَيْها وتضمّه إلى صدرها لاعتقادها بأنّه يرتاح إلى ساعدَيْها أكثر من فراش وثير.

إنّ الله خلق الأمّ من طينة صلبة وجعل روحها من نسيم الحنان وذلك لخدمة الطفل. هل سمعت في حياتك رجلاً يقول لزوجته: يا امرأة دعي عنك ذلك! فأنا أقوم مقامك. كلاّ! فالرجل لم يخلق ليكون أمًّا، إنّ له مهمّة شريفة سامية غير تلك.

إنّ الأمّ في سبيل ولدها لا تخاف التعب ولا المرض ولا طول السهر وعناء الخدمة، فإذا ما دعاها واجب العمل لإنقاذ حياة ابنها المدنف أو المعرّض للخطر، كانت حياتها في نظرها ظلاً أمام حقيقة وجود طفلها. فالمهمّ عندها أن يعيش ابنها وينعم بالحياة.

قصّة

كان جنود نابليون، بعد عودتهم من البريزينه وهو أحد روافد الدنيبير، عام ١٨١٢ يذكرون بكثير من الإعجاب بطولة النساء الروسيّات. فقد كان النهر يجرف أكوامًا من قطع الجليد وكانت النساء يحملن أولادهنّ على أيديهنّ لدى عبوره. فكنّ كلّما تقدّمن وتوغّلن بين قطع الجليد، يرفعن أطفالهنّ إلى أعلى حتّى كنت ترى سواعدهنّ مشدودة إلى فوق كجذوع الأشجار خوف أن تمسّ المياه المتجمّدة فلذات أكبادهنّ.

فضيلة القوّة

هي الأمّ جلودة كالأبطال في قوّة الإرادة والعزيمة. إنّها جبّارة في نكران الذات والتضحية. فهي مستعدّة دائمًا لأن تنسى وجودها لكي تسعى لإسعاد أولادها والقيام بواجباتها نحوهم، ولكي تزرع في نفوسهم محبّة العمل بقوّة ونشاط وثبات. ولولا فضيلة القوّة في الأمّهات لمَا تمكّنت الأمّ من القيام بمهمّة التربية الشاقة.

وعلى الأمّ أيضًا أن تتزيّن بفضيلة القوّة والحزم لتبعد عن نفسها كلّ مظهر من مظاهر الضعف والرذيلة أمام الأولاد فلا تسمح لنفسها بأيّ عمل لا ترضى عنه في سلوك أولادها. ولكي تقتلع وتجتثّ من سلوك ابنها كلّ ما قد يتسلّل إلى نفسه من هدّام المبادئ والتوجيهات والأفكار. وأخيرًا لكي توبّخ وتعاقب ولدها بدافع من حبّها له.

في هذا الجوّ الملائم من الحبّ والحنان والقوّة والعزيمة يتفتّح الطفل يسوع على الحياة. في ظلّ هذه التي لا تملّ من بذل الذات والتضحية ينشأ مخلّص العالم. أما قيل بصواب: إنّه لا يُبنى جسم إلاّ بفناء جسم؟ وكأنّي بكلّ أمّ تعتنق مبدأ القدّيس يوحنّا السابق حينما قال عن السيّد المسيح: عليه أن ينمو وعليّ أن أتقلّص وأن أزول.

البيت المدرسة

هنا وعند والدته ودون أن يغادر البيت يدخل الطفل أوّل مدرسة. مدرسة البيت. ففيه يتعلّم على والدته أسماء الأشياء ومعانيها والألوان والأصوات والأشخاص وقيمتها. ثمّ تلقي عليه دروسًا أهمّ في مبادئ الأخلاق، فتوجّه ما فيه من قوى نحو الخير وتهدّم ما قد يعود عليه بالفساد وعلى الغير بالأذى.

لا شكّ أنّ مريم العذراء اقتصرت مهمّتها على الأمومة الحسّيّة في المسيح، لأنّ أخلاق المسيح تابعة لشخصه الإلهيّ، فإنّه الكمال بالذات، ومع ذلك فإنّها كانت تسكب دومًا من روحها في روحه كما كانت تستمدّ من روحه نور العِلم وتغترف من ناظريه قبس المعرفة والأخلاق.

كم من مرّة وقفت مريم بقرب سرير ابنها مشدوهة وقد أخذت بمشهد فتّان، هو التقاء نظر الطفل يسوع الصافيّ بالقبّة الزرقاء الصافية، فراح صفاء الواحد ينعكس في الآخر فيتلألآن ويتجاوبان.

ثمّ إنّ مريم العذراء ليست أمام طفل كسائر الأطفال الذين أفسدتهم الخطيئة الأصليّة. نعم، إنّها لا تتخلّى عن شيء من واجباتها الوالديّة ولكنّها مع ذلك فهي أمام طفل يسهّل لها مهمّة العمل والبذل والخدمة.

كان على مريم أن تسمو

غير أنّ ما احتاجت إليه مريم هو أن تسمو هي شخصيًّا بكلّ حركاتها ونزعاتها إلى الشرف الأثيل الذي حصلت عليه بأن تكون أمّ مخلّص العالم. ولم يكن ذلك بالأمر السهل. ونذكر كيف فاجأ السيّد المسيح في هيكل سليمان والدته بالجواب: **"أما تدركين أنّه يجب عليّ أن أكون فيما هو لأبي؟"**.

وكانت مريم تدرك أكثر من كلّ أمّ شرف هذه المهمّة السامية. فلم تنس قط الرسالة التي دُعيت إليها أمام الله وأمام المجتمع وأمام الإنسانيّة. فكانت من جهة تربّي ابنها ومن جهة ثانية تسعى لأن ترتفع إلى مستوى هذه الدعوة والرسالة.

وإنّ مريم العذراء التي وُجدت في الحياة لغاية واحدة هي خدمة ابنها سيّدنا يسوع المسيح لم تنعطف إلى حبّ الخلائق إلاّ بقدر ما يوصلها ذلك إلى حبّ ابنها، شأنها في ذلك شأن سائر الأمّهات، فإنّ حبّهنّ لأولادهنّ يجعلهنّ أقلّ شعورًا نحو أيّ شخص آخر، ولو كان هذا الآخر زوجها. ومن المسلّم به أنّ الحبّ الوالديّ هو الحبّ الوحيد الذي لا ينقلب إلى أنانيّة وأثرة. فغايته الوحيدة خدمة الآخرين والبذل والعطاء في سبيلهم. لأنّ المحبّة الوالديّة تقوم على نسيان الذات وعلى التضحية في سبيل الغير. فتراها تبذل ليس فقط لطفل عاجز لا يدرك معنى البذل، ولكنّها تبذل لِمَن لا يشعر ليقدّر التضحية، تبذل للذي يأخذ دائمًا ولا يعطي أبدًا، للذي تحبّه ولا يعرف أن يحبّها، فليس في الحبّ الوالديّ تبادل ولا مقابل.

تشابه الملامح

وكم من مرّة راحت مريم تبحث في وجه المسيح الغضّ النضر عن ملامحها! أما قيل أنّه من الممكن أن تعرف الأمّ من ملامح ولدها؟ نعم، إنّنا كثيرًا ما نجد في الابن والأمّ نفس النظرات ونفس نبرات الصوت والحركات الجسميّة.

تشابه الأخلاق

ولكن وراء وجوه الشبه الخارجيّة هذه تختفي وجوه شبه خلقيّة: شبه في النفس وشبه في التفكير وشبه في الأخلاق، حتّى استطاع بعضهم أن يقول إنّ الطفل يستمدّ من أمّه مستقبل حياته، لأنّ أثر الأمّ في الحداثة واضح لا ينكره أحد. وقد قال **لاكوردير**: إنّ الأمّ تطبع تأثيرها في الولد ولمّا ينتبه، بل في الوقت الذي يستمدّ من ثدي أمّه الحياة التي سوف تنمّيه تمهره بطابعها. وقد قال صاحب المزامير: **"أنا عبدك وابن أمتك"**.

إنّها تربّي في حجرها رجال العالم. وقد كتب **لامرتين "سعيد الإنسان الذي أعطاه الله أمًّا قدّيسة!"**.

أصبح لها دالّة

وإنّ حبّ مريم لابنها الطفل يسوع وتفانيها في سبيل خدمته قد أهّلها لأن يكون لها دالّة عليه: تطلب فلا يرفض لها طلب. ولذلك يمكننا أن نلجأ إليها لتشفع بنا. وهذا ما عبّرت عنه صلاة من الساعة السادسة: **"إذ ليس لنا دالّة من أجل خطايانا الكثيرة. فتضرّعي أنت إلى الذي وُلد منك، يا والدة الإله العذراء. لأنّ طلبة الأمّ لها قوّة عظيمة على استعطاف السيّد. فلا تعرضي عن ابتهالات الخطأة يا جزيلة الوقار. لأنّ الذي قبل أن يتألّم بالجسد، رحيم وقادر أن يخلّصنا"**.

٢٩
فرح السماء

"وانضمّ بغتة إلى الملاك جمهور من الجند السماويّين يسبّحون الله ويقولون: "المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام، للناس الذين بهم المسرّة" (لوقا ٢: ١٣-١٤).

نعم هذا فرح السماء يثيره ما يحدث على الأرض.

هذا فرح الله

ولكن هل يجوز لنا أن نتكلّم على فرح الله؟ أليس الله هو ذلك الكائن الذي لا يتعجّب من شيء، وكلّ شيء حاضر دومًا نصب عينيه؟ ومع ذلك أظنّ أنّه لا شيء يمنعنا من أن نتكلّم بمناسبة عيد الميلاد الأوّل هذا على فرح الله. وحسبنا أن نقرأ الإنجيل المقدّس حتّى يتجلّى لنا هذا الفرح بأبهى صوره ومعانيه.

فرح الوالدَيْن بمولود

إنّ الفرح الذي ينشأ في قلوب الوالدَيْن لدى ولادة طفل لهما أبعد من أن يناله شيء من التحليل، فما الطفل إلاّ رمز حنان الوالدَيْن، إنّه كبرياء والديه. هذه الكتلة من لحم ليست إلاّ منهما. إنّه التعزية والفرح الناشئان عن رغبة الامتداد والبقاء.

إلاّ أنّ هذا الفرح لا يسلم من نفحة خوف، شأنه في ذلك شأن كلّ ما هو بشريّ. ولكنّ هذا الخوف ترافقه نفحة من أمل، تلك هي الإرادة التي ضمّت على الدفاع عن هذه الحياة الجديدة وعلى الذود عنها والمحافظة عليها.

فرح الآب بمولد الكلمة

وإنّ الله في أبديّته يبتهج حينما يلد أبديًّا صورة جوهره، الابن كلمته. وإنّ الله يجد سعادته في هذه الولادة الأبديّة. ومن المحبّة التي تجمع بين الآب والابن ينبثق الروح القدس. وما الروح القدس إلاّ انفجار فرح الله، إنّه التعبير الأبديّ الحيّ الشخصيّ عن فرح الله.

واليوم أخذ "**الكلمة**" جسدًا بشريًّا ولم ينفكّ عن اللاهوت، عن كونه إلهًا. ولمّا صار ابن الله إنسانًا أصبح ابن مريم.
وها هي الشهور تتلو الشهور منذ يوم البشارة، وقد حان أن يولد الكلمة المتجسّد.

فرح الله بمولد المخلّص

فهل يبقى الله غارقًا في بحر أبديّته، لا يشعر بهذا الحدث العظيم؟ ألا يؤثّر على الأبديّة إلاّ تغيّر الله وهو غير المتغيّر. هل يبقى الله كما هو بعد أن يظهر هذا الابن بين أبناء البشر؟ ألا تتغيّر عن قريب العلاقات القائمة بين الله والبشر بسبب هذا الوحيد الجديد؟ أما تتحسّن العلاقات التي ساءت وتردّت بسبب الخطيئة الأصليّة؟
إنّ انعزال الله عن البشريّة أخذ بالتقلّص والزوال. وقد وصف الكتاب المقدّس بعبارات رمزيّة في سفر التكوين الدالّة القديمة التي كانت قائمة بين الخالق والإنسان الأوّل: ينـزل الله فيتنـزّه في جنّة عدن ويتناول أطراف الحديث مع الإنسان. ثمّ فجأة ينعزل الله بعيدًا ويختفي عن خليقته وتتبدّل علاقاته مع البشر بسبب موقف الإنسان ذاته من ربّه.
ولكنّ الله كان يشعر بوطأة هذه العزلة. وإنّ الأنبياء أعلنوا مرارًا عن ملل الله في عزلته وعن شكوى الله. وإنّ العقوبات ذاتها ما هي إلاّ تعبير عن حبّ الله للبشر.

الدالّة تعود بين الله والبشر

وقد حان للدلالة الأولى أن تعود إلى سابق عهدها فتعقد الخناصر وتسوّى الأمور. والذي يقوم بدور الوساطة هو هذا الطفل المولود ابن مريم. لقد حان لذلك الذي تنبّأ عنه الآباء والأنبياء بوحي من الله أن يظهر في هذه الليلة الخلاصيّة.
وتنعطف عينا الله على إنسان، على طفل، فيسمع منه: "**هاءنذا جئت لأعمل بإرادتك يا الله**".
وما أنْ يسمع الآب السماويّ هذا الصوت حتّى يرسل ملائكته ترفرف في سماء بيت لحم معلنة فرح الآب والروح. وما إنشاد الملائكة ليلة الميلاد إلاّ عبير هذا الحبّ الإلهيّ.
وإنّ الله يبتهج ويسرّ لأنّ الطفل المولود هو منه وهو أجمل أولاد البشر. إنّه البرارة بالذات، إنّه الصورة المولودة في الجسد، الأكثر تمثيلاً لذاته؛ إنّه تحقيق في الزمان لتصميم طال عليه التفكير فوجب أن يصيب الهدف.
وهكذا يمكننا أن نتكلّم على فرح الله. إنّه تعبير عن أبوّة الله. فيوقظ الرعاة النائمين ويوقظ أجيالاً من البشر سوف تولد بعد ليلة الميلاد الخلاصيّة.
ولعلّنا لا نفكّر بفرح الله هذا، حينما تجذبنا، ليلة الميلاد من كلّ سنة، مغارةُ بيت لحم إلى الكنائس، فنفكّر في نفوسنا وننطوي على ذواتنا لنقدّر الفوائد التي نجنيها من مولد السيّد المسيح.
نحن لا ننكر على الإنسان حقّه الطبيعيّ في أن يفكّر في نفسه وأن يدرك ما الذي كان يحلّ به لولا المسيح. فرحنا أشبه شيء بفرح ليلة الإنتصار عند الذين حصلوا على

حرّيتهم بعد خسارتها. فيتغنّون ويصغون ويحيّيون المنتصرين وهم يفكّرون في الأيّام التالية السعيدة.

ولكن لا يجوز لنا أن ننسى فرح الله أيضًا ليلة الميلاد.

وأظنّ أنّ مريم شعرت مع الله بفرحه، فشاركته في مباهج تلك الليلة السعيدة بعد أن شاركته في أبوّة الكلمة المتجسّد مخلّص العالم.

نشيد الملائكة

أمّا نشيد الملائكة فعبارة قصيرة في مبناها ولكنّها عميقة في معناها. لقد ضمّت أسمى المعاني وأعمقها: المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام للناس الذين بهم المسرّة. نعم انحدر الكلمة ليعيد لله مجده الخارجيّ الذي كان قد انخفض مقامه بخطيئة الإنسان الأوّل وبخطايا البشر الفعليّة. جاء يرفع إليه مجدًا لا يوازيه مجد. ثمّ جاء المسيح المخلّص يحمل السلام للعالم، إنّه الثمرة الأولى للخلاص. وهذا السلام ينعم به خاصّة أولئك الذين خلصت نيّاتهم واستقامت ضمائرهم وسعوا السعي الحثيث للإفادة من مولد السيّد المسيح.
إنّ خطيئة آدم هوت بنا من مجد أبناء الله إلى أبناء الغضب، حوّلتنا إلى أعداء الله. أمّا التجسّد الذي لا يُقصد منه إلاّ الخلاص فقد صالحنا مع الله وأعاد إلينا حقوقنا في الميراث المفقود.

وبعد هذا فلنستخلص العبر التالية:

فرح الله في مولد ابنه

أوّلاً- إنّ الله ابتهج لدى مولد ابنه في الزمان وهو يبتهج دومًا لمولد أبنائه البشر.

فرح الله في مولد مسيحيّ

منذ أن جاء ابنه على الأرض يعيد الدالّة القديمة بين الله والبشر، لم يبق ما يستطيع أن يُبعد الإنسان عن الله. ومنذ مولد ابن أُسرة مسيحيّة يفكّر ذووه في أن يجعلوا منه ابنًا لله. ونفسه المخلوقة على صورة الله تستطيع أن تعمل لمجد الله، أن تزيد مجد الله، أن تطمح إلى رؤية الله لأنّها ابنة الله.

وجود الولد يثير مشاكل

ثانيًا- مولد طفل في أُسرة يثير أحيانًا أمورًا معقّدة شائكة للأهل، منها أمور المسكن والغذاء والتربية والتثقيف.

وبعض الأهل يتراجعون خوفًا. وغيرهم يتردّدون أمام المسؤوليّات إذ يشعرون بألم في ضمائرهم.

ولكن فرح الله؟

فعلى هؤلاء أن يُدخلوا في حسابهم أيضًا المسرّة التي فرض عليهم أن يقدّموها لله. مسرّة نفس جديدة، مسرّة طفل جديد، مسرّة نشيد جديد.

هذا لا يعني أنّنا نتجاهل الصعوبات والمعضلات، أو أنّنا ننكر وجودها. وهذا لا يعني أنّ جميع هذه الأمور الصعبة سوف تجد لها حلولاً مرضية. هذا لا يعني أخيرًا أنّ الأهل لن يتألّموا. هذا يعني فقط أنّ الله سوف يكون مسرورًا وممجّدًا.

ما أكثر التضحيات التي تتحمّلها الزوجة في سبيل إرضاء زوجها! كم من تضحية تبذلها حتّى ترى وميضًا من ابتسامة ترتسم على وجهه مساء عند عودته من عمله، حتّى تجعله يشعر بأنّ مجهوده لا يضيع ولا يبقى بدون هدف! أجل إنّ في حياة الزوجة يدخل كلّ ذلك في حساب علاقاتها مع زوجها: ابتسامة الزوج، إرضاء الزوج، فرح الزوج. وبالرغم من أنّ هذا ليس جزءًا من المدخول أو من النفقات ولا من المدفوعات، فهو مع ذلك شيء هامّ وخطير في نفس الزوجة، إنّه يستطيع أن يرفع من شأنها ويُعلي من مقامها.

كذلك الإهتمام بفرح الله يستطيع أن يرفع من قيمة النفس البشريّة والضمير الإنسانيّ فيسنده ويوجد له نورًا يهديه في الأمور المعقّدة من الحياة البشريّة، وذلك في إتمام الواجب: بقرب سرير طفل، أمام اللفائف وفي الليالي الباردة.

فرحه بعابد جديد

ثالثًا- إنّ فرح الله هذا يشهد على عزيمة الأمّهات المسيحيّات بنوع خاصّ. فإنّ الله يتوجّه إليهنّ كما توجّه إلى مريم ليلة الميلاد فوجد في حضنها عابدًا له.

كذلك يتوقّع الله الفرح من الأمّ لأنّها تستطيع أن تلد له عبادًا جددًا، أولادًا يبعثون في قلبه الفرح والغبطة.

كلّ شدّة تزول مع الزمان ولن تخلّف بعدها إلاّ فرحًا، وقبل كلّ شيء فرح الله.

"السلام"

رابعًا- إنّ الفرح يدعو إلى العمل، والعمل لا يستغني عن الفكر، والفكر ينشّط ويكتسب مرونة بالتفكير. والتفكير لا ينشط في جوّ الإضطراب والقلق والفوضى، وإنّما في سماء هادئة صافية يسيطر عليها الفرح والبهجة والسرور. وإنّ الشعوب بحاجة إلى السلام الذي ينشده الملائكة على باب المغارة.

قصّة

"ليلة الميلاد" قصّة صغيرة حدثت في الحرب العالميّة الأولى على الجبهة الفرنسيّة-الألمانيّة.

كان الجنود في خنادقهم مدجّجين بالسلاح لا يضمر الواحد للآخر إلاّ ما يضمر العدوّ لعدوّه: الموت والفناء.

وقد اصطفّ الحلفاء من فرنسيّين وإنكليز في جهة، واصطفّ الألمان في الجهة المقابلة. وكان ذلك في ليلة ٢٤ كانون الأوّل من عام ١٩١٧. وآذنت الساعة الثانية عشرة ليلاً، فتذكّر الجنود كلّهم على مختلف جنسيّاتهم أصوات أجراس الكنائس من تلك الليلة المقدّسة فتوقفوا عن القتال. وراحت فرق الجنود تنشد من خنادقها أنشودة الميلاد: "**المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام**". وكان كلّ واحد ينشد بلغّته الخاصّة. وللحال شعروا بدافع يدفعهم، فخرجوا من الخنادق وتنادوا للتصافح والتصافي. فاجتمعوا في المنطقة الحرام، فتعانقوا وتبادلوا الهدايا. وإنّ أحدهم لم يكن عنده هديّة فقطع زرّ بزّته وقدّمه هديّة. ولكن سرعان ما وصل الخبر إلى القيادة الألمانيّة. فصدرت الأوامر إلى الضبّاط بالإلتحاق بوحداتهم في الخنادق وإعطاء الأوامر للجنود بإعادة إطلاق النار. فعاد القتال والنار.

إنّ الشعوب لا تريد الحرب والقتال ولكنّ القادة الأشرار تحفزهم إلى ذلك شتّى المطامع والغرائز والمجد الباطل.

في نشيد الملائكة نفحة بهجة، وفي ليلة الميلاد عبرة ونزعة إلى حبّ السلام.

٣٠
الرعاة

الإنجيل

"**وكان في تلك البقعة رعاة يقيمون في الحقول ويسهرون في هجعات الليل على قطعانهم. فوقف ملاك الربّ بهم وغمرهم مجد الله بسناه، فاستولى عليهم خوف عظيم فقال لهم الملاك "لا تخافوا! فها أنذا أبشّركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب، اليوم في مدينة داود وُلد لكم مخلّص هو المسيح الربّ، وهذه علامة لكم، إنّكم تجدون طفلاً ملفوفًا بقمط، ومضجعًا في مذود**" وانضمّ بغتة إلى الملاك جمهور من الجند السماويّين، يسبّحون الله، ويقولون، "**المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام، للناس الذين بهم المسرّة!**".

ولمّا انصرف الملائكة عنهم إلى السماء، قال الرعاة بعضهم لبعض "**النمض إلى بيت لحم، وننظر هذا الحادث الذي أطلعنا عليه الربّ**" فأقبلوا مسرعين فوجدوا مريم ويوسف، والطفل مضجعًا في المذود. فلمّا شاهدوا ذلك أخبروا بما قيل لهم عن هذا الصبيّ. وكلّ الذين سمعوا أُعجبوا بما قال لهم الرعاة" (لوقا ٢: ٧- ١٩).

بيت ساحور

هذه قصّة الرعاة كما أوردها الإنجيل المقدّس. وإنْ كان الإنجيليّ لم يذكر مكان ظهور الملائكة للرعاة، فهناك تقليد قديم يدلّ على مكان بالقرب من قرية بيت ساحور القريبة من بيت لحم، كمكان إقامة الرعاة في تلك الليلة المقدّسة، والمكان يقع في بقعة منخفضة شرقيّ بيت لحم. فأيّ وزن يجوز لنا أن نعطي هذا التقليد؟ لقد شُيّدت في ذلك المكان

كنيسة بيزنطيّة حوالي القرن السادس لذكرى ظهور الملائكة للرعاة، وليس من المستبعد أن يكون هو مكان الحادث لأنّه لا يبعد كثيرًا عن بيت لحم. وبذلك يتّضح معنى العبارة الواردة في الإنجيل المقدّس: **"النمض إلى بيت لحم"**.

سيّد الملائكة

كنّا نجهل الوقت الذي وُلد فيه المسيح ولكنّ الملاك بشهادة الإنجيل بشّر الرعاة ليلاً، ولذلك حقّ لنا أن نستنتج أنّ ميلاد المسيح حدث ليلاً. ويتّضح لنا من النصّ أيضًا أنّ المولود هو سيّد الملائكة، وقد جاؤوا يبشّرون الرعاة بأنّ المولود هو المخلّص المسيح الربّ وأنّ الحادث يحمل في طيّاته فرحة لجميع الشعب.

وما انصرف الملائكة حتّى هبّ الرعاة يسرعون إلى بيت لحم ليقدّموا المراسيم للمسيح المولود. وكان هؤلاء الرعاة المساكين أوّل مَن أذاع الفرحة العظمى.

حياة الهدوء

والرعاة لا يجهلون الكتاب المقدّس وما ورد فيه من إشارات ورموز وتصريحات عن مجيء المخلّص وكانت النبوءات تهدهد نفوسهم وهم في غمرة ليل ساكن. وكانوا على استعداد لتلقّي الوحي. فهم يعيشون ليلاً ونهارًا مع أغنامهم في قلب الطبيعة الهادئة. أجل إنّ الله لا يكلّم نفسًا مضطربة، فإلهنا إله الهدوء والسلام. والنفوس العائشة في التأمّل هي وحدها تسمع صوت الله.

وصل الرعاة إلى المغارة متردّدين، يعتريهم الحياء البشريّ، شأنهم في ذلك شأن الفقراء والمساكين كلّما اقتربوا من غنيّ أو قويّ، لقد ألفوا العيش مع مواشيهم، بعيدين عن المجموعات البشريّة، يتسلّقون في الصيف أعالي الجبال، وفي الشتاء يرتادون السهول الخضراء ومواطن الكلأ.

قوم منبوذون

وقد اعتبرهم اليهود من المنبوذين على غرار العشّارين، إذ أنّ طراز معيشتهم كان يحول دون وصولهم إلى الهيكل وإتمام الشرائع. والشائع عنهم أنّهم منحطّو الأخلاق، ولذلك أُخرجوا من المجتمع اليهوديّ ولم تُقبل لهم شهادة أمام المحاكم.

أوّل الفرحين

ومع ذلك كلّه، فالسماء لم تتردّد في أن تحمل أوّل بشارة عن مولد المسيح لهؤلاء الرعاة المنبوذين، فكانوا أوّل مَن متّع النظر برؤية مولود مغارة بيت لحم وأمّه الطاهرة. هكذا يتنازل الله إلى صغار الناس ولا يقيم وزنًا للمركز الإجتماعيّ. إنّ الله يؤخذ بسذاجة القلب، وهؤلاء الرعاة لا يعرفون الرئاء والنفاق، وقد يكون من الغرابة بمكان في نظر أغنياء الدنيا وعظمائها أن يمنح الرعاة أوّل مباهج الفرحة بهذا الحدث السعيد ولكنّ مريم

لم يأخذها العجب، إذ أنّ المغارة هي منزل الرعاة يأوون إليها حينما تقسو الطبيعة صيفًا وشتاء.

ولمّا دخلوا المغارة انحنوا سجدًا للربّ المتأنّس الذي بشّرهم به الملاك. ووجدوا كما قيل لهم طفلاً مضجعًا في مذود يحيط به مريم ويوسف. وسرت همسات إعجاب بينهم، وهم ينظرون إلى الطفل في مذوده، وشجّعهم نظر الوالدة وابتسامتها فاقتربوا منها وأخبروها كيف أنّ ملاكًا هبط عليهم فجأة من السماء وأخبرهم بأمر مولد الصبيّ وبأنّه هو المسيح المخلّص المنتظر، فابتسمت لهم العذراء ابتسامة تعرب عن الشكر العميق. ولا بدّ أنّها أخذت الطفل بين يديها وعرضته على أنظارهم. فتفرّسوا فيه طويلاً ثمّ انسحبوا وعيونهم عالقة بالطفل على صدر أمّه يرضع من ثديها. وأمّا مريم البتول فقد سجّلت في قلبها ما نقل إليها الرعاة عمّا رأوا وسمعوا (لوقا ٢: ١٩).

ها هي مظاهر الفقر كلّها تحيط بهذا المولود: مغارة فقيرة، والدة فقيرة، والد فقير وأوّل المهنّئين رعاة فقراء.

أجل، في وقتنا هذا ولاسيّما في المدن الكبرى قد اختفت مظاهر الفقر هذه بين سهرات البذخ والكهرباء والغناء والرقص. فأنّى للناس اليوم أن يدركوا معاني هذه الولادة وما يحيط بها من دروس في التجرّد والتواضع.

تردّد الرعاة

ونتساءل هل انقطع الرعاة عن زيارة العائلة المقدّسة بعد هذه الزيارة الأولى؟ إنّه لبدهيّ بعد أن شاع خبر الولادة العجيبة، أن يتألّب كثير غيرهم لرؤية الطفل المخلّص. ولعلّهم هم أنفسهم عادوا مرّات يحملون قربة من ماء أو حزمة من حطب أو جرعة من لبن. فإنّها بوادر طبيعيّة في مثل هذه الظروف.

حول كلّ سرير رعاة

بقرب كلّ سرير رعاة هم الأهل والأقرباء وأصدقاء الأسرة والجيران. كلّهم يأتون لرؤية المولود الجديد، ولذلك ترى بجانب كلّ سرير هالة تشعّ بهجة وفرحًا.

رعاة شرّ

أمّا في وقتنا الحاضر، حتّى في مجتمعنا المسيحيّ، فإنّه ليؤسفنا أن نرى بقرب أسرّة الأطفال رعاة شرّ. هي الحماة حينًا، ووالدة الطفل حينًا آخر. بماذا تفكّر؟ ألا يكفي ما عندنا من أفواه فاغرة تطلب الطعام؟ كيف نستطيع أن نربّي هذا أيضًا؟ غلاء المعيشة يزداد كلّ يوم فحشًا ومطالب الحياة تزداد عدًّا! قد تهون المصيبة لو أنّه صبيّ يحمل غدًا مع والده كتفًا، ولكنّها بنت تحمل معها الخوف من العارّ، وادّخار البائنة ووو...

وبعض الأصدقاء هم أيضًا رعاة شرّ! لا يدخلون البيت إلاّ ليندبوا سوء طالع الوالدة: مسكينة أنت! إنّني أرثي لك وآسف، كيف سمعت لرجلك ونزلت عند رغبته؟ أجل، ليس هو الذي حمل مشقة الحمل ولا هو الذي ذاق آلام المخاض والولادة! **"ها إنّك من الآن**

رهينة سجن بيتك لأشهر طويلة بسبب هذا الطفل! الحقّ أنّه لحكم ظالم أن تقضي الحياة على هذا الطراز وأنت في ميعة الصبا"!
كلّ هذه همسات شرّيرة تُسمع حول سرير الطفل.

رعاة خير
ولكن ولله الحمد فإنّ المجتمع الراقيّ والحكومات الساهرة على مصالح شعوبها وبعض المؤسّسات الخيريّة أخذت في هذا العصر تشجّع الولادات وتوفّر جوًّا ملائمًا للطفولة، وذلك بمدّ يد المساعدة للمحتاجين من أرباب العيال.
وقد اهتمّ واضعو الشرائع بذلك، ولمسوا ما تبذله الأسر في سبيل الأولاد من تضحيات ما تحمله من مسؤوليّات جسام، فراحوا يضعون مشاريع قوانين من شأنها التشجيع على الزواج وعلى إيلاد البنين.
ولا شكّ أنّ الحكومات والمؤسّسات تهدف من وراء تشجيع الأسر، إلى دعم كيانها وتمتين بنيانها، إذ أنّ الحكومة بشعبها، والأمّة بأفرادها، تغنى بغناهم وتقوى بقوّتهم. وما عيد الأمّهات العالميّ إلاّ مظهر من مظاهر التشجيع.
فانشروا الفرح إذًا حول سرير الطفل وفي قلب والدته.

٣١
تحفظ وتتأمّل في قلبها

"أمّا مريم فكانت تحفظ هذه الأقوال كلّها وتتأمّل فيها في قلبها" (لوقا ٢: ١٩).
ما كان أغنانا عن التعليق والإستنتاج لو أنّ مريم نثرت بين الفينة والفينة بعض الكلمات والعبارات، فالتقطناها وتمسّكنا بها! ولكنّ صمت مريم عجيب! ومردّ ذلك، ولا جرم، إلى أنّها تريد أن تخفي شخصها ليبرز فقط على مسرح الخلاص والفداء شخص السيّد المسيح. وقد ينطوي صمتها أيضًا على ما يكون قد فاتها من معرفة أو إدراك أشياء كثيرة عن حياة الطفل أو تصرّف المعلّم أو عن مغزى الحوادث التي رافقت مطلع حياة المسيح. ذلك أنّ مريم بشر وعِلم البشر محدود.

ثقتها بالله
وأيّ بأس عليها أن تجهل مبدئيًّا طرق الله في مسيحه وفي شخصها وشخص يوسف وفي الأحداث التي رافقت حياة هذا الطفل الإلهيّ ما دامت خطّتها العمليّة مع الله هي الثقة الكاملة به! وما أكثر الحوافز التي سدّدت إيمان مريم وأيّدته ليظهر دومًا قويًّا! لقد تدخّل الله علنًا في أمر ولادة المسيح المخلّص في بيت لحم، ولقد حمى وشرّف علنًا مريم في ولادتها المخلّص. ولقد أراد أن يثير شيئًا من الضجّة حول تلك الولادة فجعلها شهيرة.

تراقب وتحفظ

وقد وقفت مريم في كلّ تلك الأحداث تراقب بانتباه تامّ، لتستوعب مجرى الحوادث وما يرافقها من أشخاص وأحاديث تقرّبها بعضها من بعض، وينتهي بها المطاف، حيث ينتهي الأبرار والقدّيسون، إلى زيادة في الإيمان وثقة أكمل بالله.
ولئن فاتها إدراك معنى ما يجرى حول الطفل فلن يفوتها استيعاب ذلك كلّيًّا. فستحفظ في قلبها منه بكلّ الحوادث، كبيرة كانت أو صغيرة، وتسهر عليه سهر الأمّ على طفلها، وما كان ذلك إلاّ ليزيدها إيمانًا به وحبًّا له.

تقرّب بين الأحداث والكتاب

إنّها تراقب وصول الرعاة وتصغي إلى نشيد الملائكة. إنّها تسمع همسات الناس حول سرير الطفل وتراقب حركات يوسف الصامتة. إنّها تنحني على سريره وتصغي إلى نبضات قلبه وتتلمّس حرارة جسمه وتأثير الجوّ عليه. إنّها تذكر دومًا "**الكتاب**" وتستعيد إلى ذاكرتها بشرى جبرائيل لها، فتقرّب كلّ ذلك بعضه من بعض وتحفظه في طيّات صدرها وفي ثنايا قلبها، حفظ المسجّلة الدقيقة مع النبرات الأكثر حساسيّة والأدقّ تعبيرًا. ولذلك ترى مريم دائمًا غارقة في الله.
إنّها المؤمَّنة الأمينة على كنوز الدنيا وعلى المسيح وأعماله وحركاته وكلماته وعلى ما يقول الناس عنه. لقد حفظت في قلبها رسالة الملائكة إلى الرعاة: "**اليوم وُلد لكم مخلّص هو المسيح الربّ**" ونشيد سمعان: "**نور ينجلي للأمم**".
أجل، إنّها تحفظ كلّ شيء دون ما اختيار أو انتخاب، وتسجّله في طيّات قلبها كما ورد. ويأخذها العجب والذهول ممّا يقوله الناس عن الطفل ولاسيّما من الحوادث التي تجري له في ليلة الميلاد، ويوم التقدمة، ويوم يفلت من أيديهم فيتخلّف عنهم في الهيكل، ولم يكن إلاّ في الثانية عشرة من العمر.
وإنّ مريم، التي أتقنت درس الكتاب المقدّس، تتذكّر الآن أشياء كثيرة ممّا ورد في صفحاته عن المخلّص، فتتجاوب هذه وتلك في نفس مريم تجاوب الألحان في مختلف أنغامها وطبقاتها فتؤلّف معزوفة رائعة وقطعة موسيقيّة خالدة. "**إنّ الله الذي كلّم الآباء قديمًا في الأنبياء كلامًا متفرّق الأجزاء مختلف الأنواع كلّمنا أخيرًا في هذه الأيّام في الابن**" (عبرانيّين ١: ١- ٢).
وإنّها أوّل مَن تلقّى إعلان المسيح عن أبيه يعبّر عنه بلسانه "**أما تعلمان أنّه ينبغي لي أن أكون فيما هو لأبي؟**".
إنّها الكنيسة قبل الكنيسة، تتلقّى كلام المسيح وتحفظه بأمانة وترتقب من الروح القدس أن يبدّد الظلال التي اختفت معانيه وراءها.

نفسها أرض خصبة

إنّ كلام الله أشبه شيء بالبذار التي يُلقيها الزارع فتسقط في نفس البتول، فتتلقّفها تلقّف الأرض الخصبة وتنمو نموّ البذار الجيّدة فتكثر وتتضاعف وتأتي بالثمار الشهيّة: "**لأنّه كما ينـزل المطر والثلج من السماء، ولا يرجع إلى هناك، بل يروي الأرض ويجعلها**

تُنشئ وتُنبت لتؤتي الزارع زرعًا والآكل أكلاً، كذلك تكون كلمتي التي تخرج من فمي، لا ترجع إليّ فارغة، بل تُتمّ ما شئت وتنجح فيما أرسلتها له" (أشعيا ٥٥: ١٠- ١١).

"تتأمّل فيه بقلبها" وهل تستطيع إلاّ أن تُعاودَ النظر في كلّ شاردة وواردة من حياة طفلها، كلّما رجعت إلى هذا الكنز المكنون في نفسها، كما يرجع مَن اؤتُمن على سرّ خطير، فلا تزداد إلاّ إصرارًا على سرّها وتعمّقًا لمعانيه وشغفًا بمحتوياته وإيمانًا بمستقبله ونجاحه.

معنى القلب

ولا بدَّ لنا من أن نُدرك معنى القلب في هذه العبارة. فليس ما يقصده الإنجيليّ من القلب العضو الماديّ أو الجملة الدمويّة إلاّ من حيث معناه الرمزيّ. ففي التراث الأدبيّ والحديث الجاريّ، يرمز القلب إلى قوّة المحبّة والمقدرة عليها. أمّا الحقيقة فالتفكير وليد العقل، والعقل مركزه الدماغ، فهنالك تتولّد الأفكار وعنه تنتشر انتشار الأنوار عن نجم مشتعل. وما الإنسان في أعماقه إلاّ تلك المحبّة التي يرمز إليها القلب. ومن المقرّر أنّه لا محبّة بدون تفكير. فالإنسان وحده يستطيع أن يُحبّ لأنّه وحده يستطيع أن يفكّر. ولقد عبّر القدّيس بولس الرسول عن ذلك أفضل تعبير حينما قال: **"الإيمان هو الذي يُنشِء المحبّة"**. والإيمان النيّر السليم الذي يتغذّى بكلام الله هو وحده يستطيع أن يجعل من الإنسان عابدًا حقيقيًّا، وبالتالي محبًّا حقيقيًّا لله. والمحبّة الصادقة هي التي تعبّر عن نفسها تعبيرًا صادقًا بالأعمال، فكلّما كانت أعمال الإنسان عظيمة، كانت أعماله كبيرة صادرة عن قلب كبير. وما البطولة في الاستشهاد إلاّ تعبير عظيم عن محبّة نيّرة صادقة صادرة عن قلب كبير.

وغاية الإنسان على الأرض هي أن يعرف الله ويحبّه ويخدمه، فمعرفة الله هي الحكمة، وخدمته هي الغاية، والدافع الداخليّ لها هو المحبّة.

تعريف الله والديانة

وفي الكتب المقدّسة ثلاثة تعاريف لله يُشير كلّ منها إلى ما ارتقت إليه الديانة وما توصّلت إليه من تفهّم لكنّه الدين وجوهره. ففي سفر الخروج يعلن الله ذاته إلى موسى النبيّ: **"إنّي أنا الكائن"** وهكذا يعلن عن نفسه أنّه الإله القدير، وأنّه مصدر كلّ ما في الوجود، وأنّ كلّ ما في الوجود خاضع لقراراته. بيد أنّ ديانة كهذه لا توحي إلاّ بالهلع أمام عظمة القدير. وجاء القدّيس يوحنّا الإنجيليّ فكشف لنا في مطلع إنجيله الرابع، كشفًا جديدًا عن الله، فبيّن لنا أنّه **"الكلمة"** في حضن أبيه: **"والكلمة كان الله"**. وهكذا فهمنا أنّ الإله القدير هو إله عليم حكيم، وأنّه هو المنظّم لكلّ ما في العالم. لكنّ التعريف الأخير والأصحّ هو للكنيسة، وهو الذي أطلعنا عليه المسيح نفسه حينما علّم تلاميذه والعالم إذا ما جاؤوا للصلاة أن يقولوا: **"أبانا"** وقد وضّحه لنا القدّيس يوحنّا في رسالته الأولى إذ قال **"الله محبّة"** (٤: ٨).

فمريم بعقلها الواسع وبقلبها الرحب كما يقول الإنجيليّ، كانت تعيد سير الأحداث التي رافقت حياة المسيح ابنها بعد أن حفظتها، كانت تعيدها إلى ذاكرتها وتتأمّل فيها، وكانت كلّما دققت في معانيها ازدادت إيمانًا بمسيحها وحبًّا لربّها.

تنطوي على الإنجيل

وقد حرصت على ألاّ تكشف شيئًا منه لأحد مدّة سنين طويلة، فإنّه غذاؤها والجوّ الذي تعيش فيه، كما تعيش الطيور في أجواء السماء، وتسبح في أرجائه كما تسبح الأسماك في مياه البحار.

تكشف عنه عند الضرورة

ولكن هل تصرّ على صمتها وتضنّ بهذا الكنـز حتّى إذا قضت بذلك مصلحة ابنها مخلّص العالم؟ كلاّ، لأنّ مريم لم تحبّ الحياة إلاّ محبّة به وخدمة له. فلمّا دعت الضرورة إلى أن تتخلّى ولو جزئيًّا عن ذلك الكنـز، لم تتلكّأ، بل أسلمته بأمانة كما كانت قد حفظته بأمانة.

لقد أشارت كلّ الدلائل إلى أنّ القدّيس متّى أفاد من ذلك الكنـز حينما قرّر أن يكتب إنجيله. وأنّ القدّيس لوقا استمدّ منها أوسع المعلومات عن مولد القدّيس يوحنّا السابق وعن البشارة وزيارتها لنسيبتها القدّيسة أليصابات وعن أمر أوغسطس بالإحصاء وعن الميلاد، والملائكة، والرعاة، وحفلات التطهير، وتقدمة المسيح إلى الهيكل، وتخلّف الصبيّ في الثانية عشرة من عمره.

فمَن يطالع إنجيل القدّيس لوقا، ويتأمّل في الملاحظات التي ترافق سرد الأحداث، لا يستطيع أن يشكّ في أنّه أخذها عن مصدر غير مصدر العذراء التي رافقت تلك الأحداث. ثمّ أليس هو القائل عن هذا المصدر الثقة: **"أمّا مريم فكانت تحفظ هذه الأقوال وتتأمّل فيها في قلبها"**؟

ولا بدّ أنّ القدّيس يوحنّا الإنجيليّ استمدّ منها الشيء الكثير حينما تحدّث عن الكلمة ابن الآب. ففي الحياة التي عاشها بقرب مريم من بعد صلب المعلّم، لا بدّ أنّه أُطلع على الأسرار التي دارت بين الأمّ وابنها في بيت الناصرة مدّة سنين طويلة.

تخفي ذاتها

غير أنّ مريم حرصت، وهي تكشف عمّا حفظت في قلبها، على أن تُخفي شخصها وراء شخصيّة المسيح الجبّارة التي هي غاية الإنجيل وموضوع نشره، فتراها لا تظهر على مسرح حياة المسيح إلاّ لتوضّح موقفًا قد تُسيء إليه بكتمان شخصيّتها. هكذا كشفت للقدّيس لوقا عن مخاوفها من دخول الملاك عليها في الناصرة. على أنّها لا تخشى أن تخفي شخصيّتها في أحرج المآزق حتّى ولو كان كتمانها يثير الشائعات الأكثر شينًا وخزيًا من حولها، لكي تظهر أنّ الله الذي إئتمنها على سرّ التجسّد لا بدّ أن يتدخّل لكي يُزيل الشكوك من ضمير يوسف.

وإنّنا لن ندرك مدى ما انطوت على هذا الكنز، حتّى نصل إلى الأخدار السماويّة، فنداعبها مداعبة الابن لأمّه الحبيبة، فتكشف لنا عن ذلك الكنز، ولنا في الأبديّة ما يكفي من وقت لنطّلع على خضمّ تلك الحياة التي زخرت بحياة المعلّم مخلّص العالم.

علينا أن نعود إليه تدريجيًّا

نتوقّف هنا لنبدي ملاحظة لها أثرها على حياتنا المسيحيّة العمليّة. تمرّ الحوادث في الطقوس الدينيّة بسرعة خاطفة بين الميلاد والعماد، فلا تعطي المسيحيّ مجالاً كافيًا ليتأمّل فيها ويعُبَّ من خضمّها الواسع العميق. وكنّا نتمنّى لو وُزّعت تلك الطقوس الدينيّة على مدار سنة طقسيّة تتتالى مع الأسابيع والشهور. غير أنّ التاريخ من جهة، والتقاليد من جهة ثانية، فرضت على الكنيسة أن تجمع بعضها، أو أن تُقصّر من الأيّام المهيّئة والتابعة لها، لتفسح المجال لعيد آخر يتبعها، قبل أن يستنفذ المتأمّلون أغوارها، وقبل أن يُشبعوا نفوسهم من معانيها ورموزها الرائعة والسامية.

على أنّه ما من شيء يمنعنا من أن نعيد إلى الذاكرة بعض تلك المشاهد، ولو بعد مرور العيد الطقسيّ، فنتأمّل فيها ونستوعبها استيعابًا كاملاً، ونستنتج منها دروسًا وعبرًا لنفوسنا ولحياتنا المسيحيّة. فحقًّا، أيّ شيء أجمل من المغارة، وأكثر إيقاعًا من نشيد الملائكة، وأبهى من مشهد المجوس الملوك يخرّون سجدًا أمام الطفل وأمّه.

ولنا في مريم المثال الأفضل حيث أنّها **"كانت تحفظ في قلبها"**، ثمّ تعود إلى تلك الجعبة، فتستخرج منها بعضًا، وتتأمّل رويدًا في ما تستمدّه من كتاب عقلها وقلبها، حيث تكاثفت الحوادث وترسّبت معانيها بمرور الزمن، فتقرّبها بعضها من بعض، وتقابلها مع ما ورد في الكتاب المقدّس، فيشعّ عن هذا التقارب والمقابلة نور ساطع يجعل الأحداث أكثر إشراقًا وأقرب فهمًا وإدراكًا.

٣٢
الختانة
من طقوس اليوم الثامن

وفي اليوم الثامن لمولد الصبيّ تمّت حفلة الختانة وهي من الطقوس الدينيّة. وبهذه المناسبة كان الولد يُعطى اسمًا.

وكانت الحفلة تجري في البيت الوالديّ بحضور بعض الشهود.

ولم تنحصر وظيفة عمليّة الختان في الكهنة، بل كانت النساء تقوم بها أيضًا. ولكن لمّا كانت هذه العمليّة الجراحيّة تقتضي بعض المهارة والمرونة، توجّب أن يقوم بها في ذلك العهد أفراد متخصّصون.

أمّا الآلة المستعملة لهذه الغاية فكانت إمّا حجرة قاطعة (خروج ٤: ٢٥) أو سكّينًا أو موسى حلاقة.

وكانت الغاية منها مهر الذكور بطابع يدلّ على انتماء الشخص إلى الشعب اليهوديّ.

وكان الله تعالى هو الذي أقامها رمزَ عهدٍ حسّيّ بينه وبين شعبه. ونقرأ تفصيل ذلك في الفصل السابع من سفر التكوين: "**ولمّا كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة تجلّى له الربّ وقال له: أنا الله القدير، أسلك أمامي وكن كاملاً فأجعل عهدي بيني وبينك... وبين نسلك من بعدك مدى أجيالهم عهد الدهر... وقال الله لإبراهيم: وأنت فاحفظ وعدي، وأنت ونسلك من بعدك مدى الأجيال. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك، يُختَن كلّ ذكر منكم تختنون القلفة من أبدانكم ويكون ذلك علامة عهد بيني وبينكم وابن ثمانية أيّام يُختَن كلّ ذكر منكم مدى أجيالكم... فيكون عهدي في أبدانكم عهدًا مؤبّدًا وأيّ أقلف من الذكور لم تختن القلفة من بدنه تقطع تلك النفس من شعبها إذ قد نقض عهدي**".

وهكذا رسم الله شريعة الختان وكان من الطبيعيّ أن يخضع لها كلّ إنسان وتحاط بمجموعة من الطقوس الدينيّة.

وعاد الله مرّة ثانية فذكّر بهذا الواجب موسى النبيّ.

وكانت الختانة عادة معروفة يمارسها المصريّون زمنًا طويلاً قبل إبراهيم كما تشهد على ذلك المومياء والرسوم الأثريّة. ولم تكن عادة دينيّة ولكنّها من طرائق الوقاية الصحّيّة ضدّ الأمراض يخضع لها جميع الأولاد بين سنّ السادسة والرابعة عشرة.

وما تزال هذه العادة شائعة حتّى أيّامنا على ذلك النحو، لدى بعض شعوب أفريقيا وآسيا وأوقيانوسيا.

أمّا لدى اليهود فكان لها مغزى دينيّ محض. وعلماء اللاهوت يثبتون على أثر تعاليم القدّيسَيْن أوغسطينوس وتوما أنّ شريعة الختان القديمة كانت سرًّا حقيقيًّا من شأنه أن يمحو الخطيئة الأصليّة. وهذه النتيجة الخلاصيّة مصدرها إيمان الأهل بالمسيح المنتظر. وللقدّيس بولس يرجع فتح باب الجدل لهذه النظريّات، حيث يعتبر الختانة رمزًا للعماد المقدّس (كولوسي ٢: ١١- ١٢).

وقد ورد في طقس العيد شرح واضح لهذا الرمز: "**إنّ المسيح قبل ختانة في اليوم الثامن من مولده، وبذلك قد أزال الظلّ، وأرسل ضياء النعمة الجديدة**". وهكذا يتبيّن أنّ الختانة كانت رمزًا للمعموديّة التي جاء المسيح فوضعها، وأزال بذلك الرمز والظلّ أيّ الختان.

ومن المعروف أنّ المسيح الذي جاء متمّمًا للشريعة، أبطل الطقوس التي كانت ترمز إليه وإلى الأسرار والكنيسة. ووضع الحقيقة مكان الرمز والظلّ. وهكذا أبطل الختان الجسديّ ورسم المعموديّة المقدّسة.

وقد وجد شرّاح الكتاب المقدّس معاني روحيّة لهذا الطقس الدمويّ، فهو يرمز إلى تجرّد القلب وطهارته وحبّ الله. وعلى ذلك راح الكتاب المقدّس وخاصّة النبوءات تلحّ على ضرورة الختان الروحيّ إذ إنّ الختان الجسديّ ليس إلاّ الصورة الظاهرة له.

وأخضع المسيح نفسه لهذه الشريعة فخُتن في اليوم الثامن، وعلى ذلك يقول القدّيس برنردس في خطبة له عن الختانة: "**إنّ السبب نفسه الذي جعله يولد، دفع به إلى الآلام.**

لا شيء لذاته بل كلّ شيء من أجل المختارين. لم يولد في الخطيئة ولم يُختن بسبب الخطيئة ولم يذق الموت تكفيرًا عن خطيئته ولكن من أجل خطايانا".

وفي نفس خطبته تلك يقول القدّيس برنردس: **"منذ مطلع ولادته يجمع يسوع المسيح بين ما هو إلهيّ وما هو بشريّ، بين ما هو عظيم وما هو ضعيف"**.

"يولد من امرأة ولكنّ ثمر خصبها لا ينـزع منها زهرة بكارتها".

"تخبّئه أمّه في مغارة ولكنّ نجمًا من السماء يلمع فوق المذود".

"وهكذا تُثبتُ الختانة أنّه أخذ جسدًا من بشرتنا، بينما يعلن اسمُه يسوع مجد عظمته".

"لقد خُتن لأنّه من نسل إبراهيم ولكنّه دُعي يسوع لأنّه ابن العليّ".

لنبتهج كلّما ذكرنا أنّ آدم الجديد لم يُؤخذ من طين كالإنسان الأوّل، لأنّه بذلك يكون شبيهًا لنا. فلقد خرج من صلب داود ويسّى وإبراهيم وآدم: فهو منّا ونحن منه والجميع من آدم.

لنبتهج كلّما ذكرنا أنّ مريم هي أمّه وأنّ داود هو جدّه وأنّه حفيد تلك المجموعة الملوّثة، وهكذا فهو يجمع في شخصه كلّ البشريّة.

وإلاّ لَما كان الكلمة المتأنّس أخًا لي، وإلاّ لَما جرى دمي في عروقه، ولَما كان أجدادي من ورائه، وأخيرًا لَما اتّحدت فيه البشريّة تمامًا وكمالاً بالله.

فلو استثنينا إذًا وجود مريم من أمر الخلاص، لَما كان المسيح إلاّ صورة مُشبهة لطبيعتنا، وليست الطبيعة الكاملة بالذات. ولكن بما أنّه ابن مريم فهو يتألّم بطبيعتنا. ومنذ اليوم الثامن تسيل منه بعض نقط دمّ، فيشعر المسيح بالآلام البشريّة، وتتأثّر البشريّة فورًا في ذاتها بهذا الدم المهراق.

وللكنيسة طقس خاصّ في اليوم الأوّل من كانون الثانيّ، تمجّد به ختانة المخلّص: **"إنّ المخلّص قد تنازل لجنس البشر. وارتضى أن يُدرج في القمط. والذي هو ذو ثمانية أيّام من جهة أمّه وأزليّ من جهة أبيه، لم يأب ختانة الجسد"**. (من صلاة الغروب).

٣٣
تسمية يسوع
من طقوس اليوم الثامن

"ولمّا انقضت الأيّام الثمانية لختانة الصبيّ، سُمّي يسوع على حسب ما سمّاه الملاك قبل أن يُحبل به" (لوقا ٢: ٢١).

الشريعة

وتقضي التقاليد أن يُعطى الطفل اسمًا في اليوم الثامن حالاً بعد عمليّة الختانة وفي الحفلة نفسها.

عادات الشرق

من الأمور الحسّاسة في أخلاق الناس إعطاء الطفل اسمًا. ذلك أنّ الاسم الذي يحمله الطفل سوف ينقل به ذكر والد أو جدّ أو عزيز. وإذا ما عرفنا أنّ الأسماء تنتقل من الآباء إلى الأبناء إلى الأحفاد جيلاً بعد جيل، فهمنا لماذا يتمسّك الناس بهذه الحقوق. إنّه امتداد الشخصيّة وتحدّي الفناء بل أنّه حبّ البقاء والخلود.

وقد تثار منازعات بين الأسر بسبب إهمال اسم وإعطاء الطفل اسمًا غريبًا. وأكثر ما تقوم المنازعات في تسمية الطفل باسم أحد أفراد أسرة أبيه أو أمّه، فينتهي النصر إلى جانب التعقل وقد ترجّح الكفّة حيث المال والجاه.

هذه العصبيّة تبدو لدى تسمية الولد الأوّل أو البكر أمّا الأولاد التالون فيسمَّون عادة بأسماء الأعمام والأخوال أو العمّات والخالات. وقد يتجاوز بعض الأهل هذه التقاليد والعادات ويسمّون أولادهم باسم شخص عظيم، أو باسم محسن إلى العائلة، أو باسم نسيب أو صديق عزيز.

وقد تتدخّل ظروف غير هذه في أمر تسمية الطفل كالنذور والمناسبات والأعياد والمواسم.

تسمية يوحنّا السابق

هكذا قامت مشادّة قويّة في بيت زكريّا عند مولد يوحنّا السابق. لقد بحث الأهل والأقارب كثيرًا ليجدوا للمولود اسمًا فلم يعثروا إلاّ على اسم أبيه زكريّا، تلك عادة ما تزال عند بعض الشرقيّين وهي أن يُسمّى الولد باسم أبيه. وتتدخّل الوالدة باعتبارها جانبًا هامًّا، في تسمية ابنها، فتلفظ كلمة يوحنّا. ويعترض عليها الحاضرون: **"ولكن، ليس في العشيرة مَن يحمل هذا الاسم!"** وحسمًا لكلّ خصام، يُحال الأمر إلى الوالد. وقد كان زكريّا منذ رؤيا الهيكل أخرس أصمّ، فراحوا يسألونه بالإشارات والحركات إذ أنّ أمر تسمية الطفل يعود في الدرجة الأولى إلى الوالد **"فطلب لوحًا وكتب عليه: اسمه يوحنّا"** (لوقا ١: ٦٣).

يسوع المخلّص

ولم يكن الأمر كذلك في اليوم الثامن حينما حان موعد تسمية الطفل يسوع، فلقد حمل ملاك السماء اسم الطفل يسوع وتلقته مريم أوّلاً: **"وتسميته يسوع"** ثمّ يوسف **"يا يوسف بن داود، لا تخف أن تأخذ امرأتك مريم، فإنّ الذي حُبل به فيها إنّما هو من الروح القدس. وستلد ابنًا فتسمّيه يسوع، لأنّه هو الذي يخلّص شعبه من خطاياهم"** (متّى ١: ٢٠- ٢١). إذًا ليس في الأمر نزاع وإشكال، فإنّ اسمه يسوع.

والسيّد المسيح ليس أوّل مَن حمل هذا الاسم في تاريخ الشعب اليهوديّ.

ولكنّ المسيح كان أفضل مَن حمله وشرّفه بشخصه.

فإنّه ليس بين الأسماء اسم عبّر بمعناه عن حياة كاملة. يسوع معناه المخلّص.

يقول القدّيس برنردس: **"إنّه يُدعى يسوع المخلّص. وإنّ هذا الاسم لم يُفرض عليه، إنّه له منذ الأزل، إنّه من مصدر طبيعته، وليس من تقرير بشر أو ملاك"**.

مريم تنادي يسوع

نتوقف قليلاً هنا لنسمع مريم بعد البشارة، وهي وحدها في بيت الناصرة، تهمس بصوت خافت: يسوع. إنّها وحدها تعرف اسمه. إنّها تحمله في بطنها، فتنحني مرارًا كلّ يوم نحو ذلك الهيكل وتنادي: يسوع، وتناجيه.

ونحن لا يمكننا أن نتصوّر مريم كبعض الأمّهات تسمح لنفسها بأن تدعو ابنها بألقاب غريبة.

مشاهد خلاّبة تُسجّل للأمّ وابنها داخل البيت. مريم تنادي يسوع الطفل، والطفل يلتفت إليها، يفتح عينيه ويبتسم.

إنّه لَمِن أسباب سعادة الأمّهات أن يلتفت الطفل لمناداة أمّه له باسمه لأوّل مرّة.

وتبلغ السعادة مداها حينما يلتفت الطفل إلى أمّه لأوّل مرّة ليقول لها: ماما.

الشريعة أيضًا

ليس من التافه أن ينوّه الإنجيل المقدّس عن تدخّل يوسف في تسمية الطفل. فيوسف هو رأس هذه العائلة، وإنّ الله يسلّمه مقاليد وظيفته ليس تجاه مريم فحسب، بل تجاه ابنها أيضًا: **"وتسمّيه يسوع"** وكانت مريم كلّما طرق أذنيها اسم يسوع ذكرت ما قال لها جبرائيل يوم البشارة: **"ها أنت تحبلين وتلدين ابنًا وتسمّينه يسوع. إنّه يكون عظيمًا، وابن العليّ يُدعى. وسيعطيه الربّ الإله عرش داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الدهر، ولن يكون لملكه انقضاء"** (لوقا ١: ٣١- ٣٣).

الاسم رمز دعوة

وليس بالأمر النادر أن يفرض الله اسمًا على شخص أو أن يبدّله. ففي الكتاب المقدّس من العهدَيْن أشخاص عديدون غيّر الله أسماءهم، فنقل اسم أبرام إلى إبراهيم، وشاوول دعاه بولس.

ذلك أنّ الاسم عند الله دليل رسالة، فهو يجعل من الاسم عنوان العمل وشعار حياة. وقد دخلت هذه العادة إلى الكنيسة المسيحيّة، ولاسيّما في المنظّمات الرهبانيّة والكهنوتيّة، بأن يُغيّر الاسم العالميّ إلى اسم رهبانيّ للدلالة على أنّ الإنسان هجر من العالم كلّ شيء حتّى اسمه.

أسماء القدّيسين الشفعاء

ومنذ مطلع الكنيسة أخذ المسيحيّون يطلقون على أطفالهم، في حفلات خاصّة، أسماء الشهداء والقدّيسين تيمّنًا وتبرّكًا.

فلا يجوز للمسيحيّين اليوم أن يُغيّروا هذه العادة الحسنة، فإنّ هذا التبديل لخساسة وحمق، لأنّ المسيحيّ بحاجة إلى شفاعة قدّيس يحميه ويردّ عنه هجمات العالم والجسد والشيطان أعداء الخلاص. هذا وأنّ في حياة الشفيع خير مثال وقدوة يقتدي بها حامل الاسم فتقوده إلى حيث قادت صاحب الاسم الأصليّ إلى السماء، ذلك أنّ القدّيس شعاع حيّ للإنجيل المقدّس. والإنجيل هو الطريق والحقّ والحياة!

أمّا أسماء المدن والمعارك والشخصيّات التاريخيّة البارزة فليست أسماء مسيحيّة.

أمور غريبة

ومن أغرب ما شاهدت في حياتي أسرة كان الذكور فيها يموتون، فنصح أحد الدجّالين ربّة العائلة أن تُعطي أولادها أسماء حيوانات ليعيشوا. وهكذا فعلت الأمّ المغفّلة، فسمّت الواحد "**أسد**" والثانيّ "**نمر**" والثالث "**ديب**" وقد تعرّفتُ إلى هؤلاء الأولاد في المدرسة. وقد مات أسد، وهو طالب في السابعة عشرة من عمره. إنّ الحيوانات لا تشفع لنفسها، فكيف تشفع لغيرها من الخلائق. ودار البحث في بيت الفقيد، وشكت لي الوالدة سوء طالعها وقالت إنّها بدّلت أسماء القدّيسين بأسماء الحيوانات، ومع ذلك فقد فقدت الآن ولدها الرابع. فقلت لها: كان عليك أن لا تتركي أسماء القدّيسين وأن تبحثي لدى الأطبّاء عن أسباب فقدان أولادك، لأنّ شفاعة القدّيسين لا تُنكر، ولأنّ الله جعل من الطبيب والدواء واسطة للشفاء والحياة.

وأغرب من ذلك أن نرى بعض الرجال، ممّن يعيشون خارج المحيط المسيحيّ وأجوائه، يُغيّرون أسماء المعموديّة بأسماء ليست لنا، ولا تمتّ إلى ديننا ولا إلى تقاليدنا بصلة.

وهكذا يلجأون إلى مثل هذه الحركات الصبيانيّة، لا لشيء إلاّ حبًّا للظهور. والجميل أن يكون لكلّ بيئة صفاتها وتقاليدها الخاصّة لأنّها تنبع من إيمانها وطقوسها ومبادئها.

وإنّ الكهنة الذين يقومون بمنح سرّ العماد، حسنًا يفعلون حينما يُصرّون على منح المُعمَّد اسمًا مسيحيًّا.

وهكذا يصبح عيد العائلة المُتَّخذ يوم العماد عيدًا عائليًّا في السماء.

العجائب باسم يسوع

وقد حدثت عجائب كثيرة بذكر اسم يسوع. وأولى تلك العجائب هي التي جرت على باب الهيكل ونقرأها في الفصل الثالث والرابع من أعمال الرسل: "صعد بطرس ويوحنّا إلى الهيكل معًا لصلاة الساعة التاسعة. وإنّ إنسانًا مُقعدًا من بطن أمّه، كان يُحمل كلّ يوم ويوضع عند باب الهيكل الذي يقال له الجميل، ليسأل صدقة من الداخلين إلى الهيكل، لمّا رأى بطرس ويوحنّا موشكَيْن أن يدخلا الهيكل، سألهما صدقة. فتفرّس فيه بطرسُ مع يوحنّا، وقالا: لا أنظر إلينا! فنظر إليهما متوقّعًا أن يأخذ منهما شيئًا. فقال له بطرس: "ليس لي فضّة ولا ذهب بل ما هو لي إيّاه أعطيك. باسم يسوع المسيح الناصريّ قمْ وامش. وأمسكه بيده اليمنى وأنهضه وفي الحال تشدّدت رجلاه وعقباه فوثب وانتصب

وطفق يمشي ثمّ دخل معهما الهيكل وهو يمشي ويثب ويسبّح الله، ورآه جميع الشعب يمشي ويسبّح الله. وكانوا يعرفونه أنّه هو الذي كان يستعطي، جالسًا عند باب الهيكل الجميل! فامتلأوا دهشًا وذهولاً ممّا جرى له. وفيما كان متعلّقًا ببطرس ويوحنّا تبادر إليهما جميع الشعب، وقد أخذهم الدهش، إلى الرواق المسمّى رواق سليمان.

فلمّا رأى بطرس ذلك خاطب الشعب قائلاً: "أيّها الرجال الإسرائيليّون ما بالكم متعجّبين من هذا؟ ولِمَ تتفرّسون فينا كأنّنا بقدرتنا أو بتقوانا جعلنا هذا الرجل يمشي؟ إنّ إله إبراهيم وإسحق ويعقوب إله آبائنا، قد مجّد فتاه يسوع، الذي أسلمتموه أنتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس وقد حكم هو بإطلاقه. لقد أنكرتم أنتم القدّوس، الصدّيق، وطلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل، وقتلتم مبدأ الحياة، الذي أقامه الله من بين الأموات، ونحن شهود على ذلك. فالإيمان باسمه شدّد هذا الاسم الرجل الذي تنظرون وتعرفون، الذي منح مُنح هذا الرجل الصحّة التامّة، أمامكم جميعًا...

وفيما هما يخاطبان الشعب، أقبل عليهما الكهنة ووالِيّ الهيكل والصدّيقيّون مستائين لتعليمهما الشعب، وندائهما في قيامة يسوع من بين الأموات. فألقوا عليهما الأيدي وأودعوهما السجن إلى الغد، لأنّ المساء كان قد أقبل. إلاّ أنّ كثيرين من الذين سمعوا الخطبة آمنوا فصار عدد الرجال المؤمنين نحو خمسة آلاف.

وفي الغد اجتمع في أورشليم الرؤساء والشيوخ والكتبة وحنان رئيس الكهنة وقيافا ويوحنّا والإسكندر وجميع الذين كانوا من عشيرة رؤساء الكهنة. ولمّا أقاموهما في الوسط سألوهما بأيّ قوّة وباسم مَن فعلتما هذا؟ فقال لهم بطرس وهو ممتلئ من الروح القدس: يا رؤساء الشعب والشيوخ، فليكن معلومًا عند جميعكم وعند شعب إسرائيل، أنّه باسم يسوع المسيح الناصريّ الذي صلبتموه أنتم، وأقامه الله من بين الأموات، به وقف هذا الرجل أمامكم متعافيًا فإنّ هذا الحجر الذي ازدريتموه أيّها البنّاؤون هو الذي صار رأسًا للزاوية، ولا خلاص لأحد إلاّ به، إذ ليس تحت السماء اسم آخر أُعطي في الناس به ينبغي أن نخلص.

فلمّا رأوا جرأة بطرس ويوحنّا وعلموا أنّهما رجلان من عامّة الشعب دُهشوا وتعجّبوا. وكانوا يعرفون أنّهما كانا مع يسوع، ولكنّهم إذ كانوا يرون الرجل الذي شفي واقفًا معهما، لم يكن لهم ما يقولونه، فأمروهما بالخروج من المحفل وائتمروا فيما بينهم قائلين: "ماذا نصنع بهذَيْن الرجلَيْن؟ لقد جرت على أيديهما آية مشهورة، وذلك ظاهر لجميع سكّان أورشليم، ولا نستطيع إنكاره، ولكن لئلاّ يزداد الأمر شيوعًا في الشعب، فلنتهدّدهما أن لا يكلّما أحدًا بعد اليوم بهذا الاسم.

ثمّ استدعوهما وأمروهما أن لا ينطقا البتّة ولا يعلّما باسم يسوع. فأجاب بطرس ويوحنّا وقالا: "احكموا أنتم، أمِنَ العدل أمام الله أن نسمع لكم ولا نسمع بالحريّ لله؟ أمّا نحن فإنّنا لا نقدر أن لا نتكلّم بما عاينّا وسمعنا.

فتهدّدوهما وصرفوهما، إذ لم يجدوا سبيلاً لمعاقبتهما بسبب الشعب، فإنّ الجميع كانوا يمجّدون الله على ما جرى.

وإنّ اسم يسوع حاليًّا ممجّد ومعبود في العالم كلّه وعن ذلك يقول بولس الرسول: (فيلبّي ٢: ٩- ١١) "... **لذلك رفعه الله وأنعم عليه بالاسم الذي يفوق كلّ اسم لكي تجثو لاسم يسوع كلّ ركبة...**".

٣٤
حفلة التطهير
من طقوس يوم الأربعين

"**ولمّا تمّت الأيّام لتطهيرهم بحسب ناموس موسى، صعدا به إلى أورشليم**" (لوقا ٢: ٢٢).

شريعة التطهير

لقد حرّم الناموس على كلّ امرأة يهوديّة تحبل وتلد ذكرًا ملامسة الأشياء المقدّسة قبل مرور أربعين يومًا على ولادتها لأنّه اعتبرها نجسة، وفرض عليها أن تلزم بيتها في تلك المدّة. وإنّ سُنّة التطهير هذه ليست إلاّ للأمّ وحدها. غير أنّ الإنجيليّ استعمل الجمع ليلفت النظر إلى جميع المشتركين في الحفلة، فالأمّ تُطهّر، والولد تُقدّم عنه الفدية، والرجل يبذل من ماله في سبيل الولد وأمّه.

نصّ الشريعة

ونقرأ في الفصل الثانيّ عشر من سفر الأحبار التفاصيل عن الطقوس المفروضة على المرأة التي وَلَدت، فنقتطف من الفصل العبارات التالية: "**وكلّم الربّ موسى قائلاً: أيّة امرأة حبلت فوَلَدت ذكرًا فلتكن نجسة سبعة أيّام... وثلاثة وثلاثين يومًا لا تلامس شيئًا من الأقداس، ولا تدخل القدس حتّى تتمّ أيّام تطهيرها... وعند تمام أيّام تطهيرها لذكر كان أو أنثى، تأتي بحَمَل حوليّ محرقة وبفرخ حمام أو بيمامة ذبيحة خطأ إلى باب المحضر إلى الكاهن، فيقرّبهما بين يديّ الربّ ويكفّر عنها فتطهّر... هذه شريعة الولادة...**".

هذه هي الشريعة التي رضي السيّد المسيح وأمّه الطاهرة أن يخضعا لها. ومفادها أنّ كلّ امرأة تلد ولدًا تُعتبر غير طاهرة حتّى تكمّل الأربعين يومًا، ومن بعد ذلك تأتي تلك الوالدة إلى الهيكل وتقدّم إلى الله ذبيحتَيْن: الأولى طير يمام والثانية وهي الضحيّة تكون حملاً يستعاض عنه بيمامة في حالة الفقر.

مريم شرعًا طاهرة

ولا مراء أنّ العذراء مريم لم تكن مدنّسة لتحتاج إلى هذه الطقوس التطهيريّة التي من شأنها إعادة النقاء إليها بعد أن خسرته بملامسة زوجها.

إنّ مريم كانت شرعًا طاهرة في ولادتها، لأنّ حبلها كان بفعل الروح القدس، ولأنّها بقيت عذراء في الولادة وبعدها كما كانت قبلها.

تخضع للشريعة حبًّا لنا

غير أنّ مريم البريئة من دنس الخطيئة الأصليّة ومن أيّ دنس آخر أدبيّ أو ماديّ كانت تظهر أمام الناس كأنّها فقدت شيئًا من نقائها بعد ولادتها كبنات جنسها. هذا هو الظاهر. ولكن كم من أسمال بالية سترت من ورائها عقولاً تفيض ذكاء وقلوبًا سخيّة كريمة. ومع ذلك فمريم قبلت أن تخضع للشريعة خضوعها للظاهر، إنّه عمل مُذِلّ تتقبّله، لكي تتقرّب منّا نحن الخطأة أولادها.

ثمّ إذا كان ابنها قدّوس القدّيسين يرضى أن يقبل الختان ليتشبّه بإخوته، فلماذا لا ترضى هي بدافع من حبّها لنا أن تتشبّه بنا؟ هذا هو المنطق الذي تنتهجه مريم كلّما ثار نزاع بين حبّها لذاتها وحبّها للبشريّة محبّة لسيّدنا يسوع المسيح. إنّها تتناسى ذاتها وتضحّي بكلّ شيء تشبّهًا بابنها.

لعلّنا نتساءل ما معنى بقاء العائلة المقدّسة في بيت لحم والمهمّة التي جاؤوا من أجلها قد انتهت؟ لقد اكتتب يوسف وزوجته والطفل في مدينة أجدادهم فلماذا لا يعودون بعد مرور بعض الأيّام إلى الناصرة؟

كان السبب دينيًّا. إذ من بيت لحم يسهل الانتقال إلى أورشليم مدينة القدس لإتمام واجب تقدمة الطفل يسوع للربّ في هيكله. فكان لا بدّ من انتظار مرور الأربعين يومًا. كما أنّ يوم الأربعين هو يوم تطهير والدته من النجاسة الشرعيّة والسماح لها بدخول الهيكل وبملامسة الأشياء المقدّسة.

كانت حفلات التطهير وتقدمة الأبكار تجري في ساعات الصباح نحو الساعة الثالثة أيّ حول الساعة التاسعة صباحًا. وكان الكهنة يحتفلون بها بعد تقدمة البخور وحرق الضحايا.

فلكي تتمكّن العائلة المقدّسة من الوصول في الوقت المعيّن وشراء ما يلزم وتبديل النقود اضطرّت إلى أن تنطلق من بيت لحم في الساعة الثالثة من صباح ذلك اليوم. ولم تكن الشمس قد ارتفعت كثيرًا في قبّة السماء حينما بدت لهم من بعيد أسوار مدينة القدس وقبّة الهيكل. ويبرز الهيكل ذلك البناء الجبّار واضحًا في المدينة كأنّه وُجِد ليرافق الزمن في خلده. فتتذكّر مريم تلك السنين الحلوة التي قضتها في ظلّ الكهنة والعابدات تعبد الله وتتفقّه معاني الكتاب.

ويدخل يوسف مدينة القدس وتتبعه مريم وعلى ساعدها الطفل يسوع مغطّى بقطعة شال زاهية الألوان. ولا يعبرون بوابة الهيكل حتّى نراهم أمام جماعات من كلّ الملل والأجناس وقد غصّت بهم أروقة الهيكل على اتّساعها. منهم جماعات من اليهود المقيمين ومن يهود الجاليات تميّزهم لهجاتهم. ومنهم جماعات من اليونان واللاتين والمادّيّين والفرنجة والمصريّين والليبيّين والكريتيّين ربّما والعرب.

وفي الممرّ الشرقيّ الموازيّ أسوار المدينة رواق سليمان يرتكز سقفه الخشبيّ على أربعة صفوف من الأعمدة الرخاميّة البيضاء حيث تجمع الباعة والصيارفة. ولعلّه من وقت إلى آخر يثور ضجيج بسبب جدل يقوم بين الباعة والمشترين ولكنّ أحدًا لا يأبه مع أنّ المكان مقدّس والبيت للربّ.

وبما أنّ يوسف لم يكن قد حصل بعد على زوجَيْ اليمام من الأسواق قبل دخوله الهيكل يقترب الآن من أقفاص باعة اليمام ويشتري زوجًا ثمّ يبدّل العملة المتداولة خارج الهيكل، وهي قطع من النقود حملت صورة قيصر مستعبد البلاد ومنجّس الأرض المقدّسة، يبدّلها بعملة يهوديّة هي وحدها مقبولة في الهيكل.

وتعبر العائلة المقدّسة إحدى العتبات فإذا هي في أروقة الهيكل الجبّارة رواق الأمم ورواق النساء حيث المصلّون غائصون في عباداتهم. هنا عند الباب المسمّى باب نيكانور تجري حفلة التطهير الناموسيّ أوّلاً ثمّ يُقدَّم الأطفال للربّ.

في الهيكل

وصعدت مريم يرافقها يوسف درجات الهيكل حتّى المكان الفاصل بين رواق الرجال ورواق النساء. ووقفا عند باب نيكانور حيث كان الكاهن صاحب نوبة الأسبوع، المكلّف بحفلات التطهير، بانتظارهما. وأمرهما بالركوع وكان يسوع على ساعد أمّه. فنضحّهم بالماء المقدّس وتلا على رأس مريم بعض الصلوات الطقسيّة. وعندها نهض يوسف وقدّم عن زوجته زوجَيْ اليمام شأن النساء الفقيرات أمثالها فتناولهما الكاهن. وتقدَّم إلى هيكل الذبائح فذبح الواحد حتّى سال دمه ذبيحة وتطهيرًا وقدَّم الآخر على مذبح المحرقات ذبيحة ابتهالٍ وعبادة تعبيرًا عن عبادة هذه النفوس الذائبة خضوعًا وتضحية في سبيل ربّ السماء.

وبهذه الذبائح استعادت مريم في نظر البشر طهارتها ونقاءها.

بالطبع لم يكن من الجائز أن تتخلّف مريم وابنها يسوع عن هذا الواجب لأنّ الله سبق فقرّر أن يخضع المسيح لجميع الشرائع قبل ظهوره للناس. فلا يجوز له أن يتخلّف بشيء عن باقي البشر.

انتقلت إلى الكنيسة

على أنّ هذه الأفكار والطقوس انتقلت مع اليهود المرتدّين إلى الكنيسة. ولعلّ الأسباب التي أوجدتها كانت لا تزال قائمة في مطلع عهد الكنيسة، ولذلك وجدت لها مجالاً في الطقوس والصلوات.

ومن أهمّ تلك الأسباب نظر الناس عامّة إلى أنّ المرأة تتلوّث نفسًا وجسدًا في الحبل والولادة.

ولكي نُعلّل ذلك التفكير الذي هو على جانب كبير من الخطأ، واهتمام الكنيسة بإنشاء طقوس وصلوات له، علينا أن نذكر أنّ الله يقود تدريجيًّا الأفراد والشعوب إلى الإيمان به وإلى كلّ ما يتفرّع عن ذلك الإيمان لا شكّ أنّ العقائد ثابتة لا تقبل التغيّر الجوهريّ،

ولكنّ الطقوس والصلوات تتكيّف بحسب الظروف أو البيئة التي تمّ فيها تكوينها. هكذا مثلاً حرّم الله على اليهود أكل الخنـزير حينما كانوا يعبرون صحراء سيناء وهي صحراء جافّة محرقة. فجسم الإنسان لا يتحمّل أكل لحوم حارّة كلحم الخنـزير. غير أنّنا لا نجد داعيًا لذلك التحريم عند يهود أوربا أو في غيرها من البلاد المعتدلة أو الباردة ذلك أنّ للدين صفته الإجتماعيّة، فحينما ينـزل الوحي، ينـزل بلغة الشعب الموحى إليه، متلبّسًا بالبيئة الجغرافيّة والتاريخيّة والإجتماعيّة لذلك الشعب. هذا وأنّ الله هو الذي أخذ على نفسه أن يقود شعبه من أرض العبوديّة إلى بلاد فلسطين، فكان عليه أن يرشده ليحفظ له وجوده.

وفي تلك البيئة البدائيّة القاسية كان الله يُهيّئ شعبه. ففرض عليه كثيرًا من الشرائع التي من شأنها أن تضمن الوجود لذلك الشعب. هكذا فُرضَت طقوس الختانة وغسل الأيديّ والأرجل قبل الصلوات والطعام وتطهير المرأة التي وَلَدت أو أجهضت وما إلى ذلك.

فلمّا وصل الشعب إلى فلسطين حافظ على تلك الطقوس بل زاد عليها، لأنّه عاش في بيئة زراعيّة قاسية أيضًا، ولم يجد سبيلاً لينفكّ عنها. فإنّها أصبحت في مجموعها رمزًا لكيانه وهو يعيش بين شعوب وثنيّة لها غيرُ هذه الشرائع والتقاليد المميّزة لها.

المسيح يثور عليها

فلمّا جاء السيّد المسيح ثار على تلك الطقوس وأرجع الدين إلى مبادئه الأساسيّة الجوهريّة. وفي الإنجيل أمثال عن تقريع السيّد المسيح للفرّيسيّين وهم الزمرة الحاملة لواء الطقوس والتقاليد والمتمسّكة بها على حساب جوهر الدين. هكذا يرفض الطلاق ويحصره في أيّام موسى وشعب موسى. وهكذا يتحدّى سبت الفرّيسيّين أيّ الحرمان، ويعلن أنّ السبت وُجد لراحة الإنسان. وهكذا يرفض أيضًا غسل الأيديّ شرطًا قبل الطعام، لأنّ الناس اعتادوا على النظافة في كلّ وقت.

ولكن هيهات أن يُقلع الشعب عن تقاليده وعوائده وإنْ هو غيّر عقيدته.

الرموز زالت

فلمّا ارتدّ اليهود إلى الدين المسيحيّ حملوا إليه معهم كثيرًا من طقوسهم وعوائدهم، وبالتالي، أرادوا أن يطعّموا الدين اليهوديّ بالدين المسيحيّ دون أن يغيّروا شيئًا من الدين اليهوديّ. وكان من المفروض أن يطرح بالطقوس والتقاليد اليهوديّة بعيدًا، لأنّها كانت رموزًا، ولقد انبلج النور وجاءت الحقيقة، فأيّ معنى لبقاء الرموز؟ ولمّا حاول بولس الرسول أن يحرّرهم من أفكارهم الضعيفة الضيّقة كفّروه، ولكنّ النصر كان بالنتيجة لفكرة الدين الشامل ولجوهره دون العادات والشرائع الخاصّة باليهود.

نزاع أنطاكية

ولمّا قام النـزاع في أنطاكية بين هامتَيْ الرسل بطرس وبولس بشأن التمسّك بالتقاليد اليهوديّة، اتّفق الرسولان بعد أخذ وردّ على أنّ التقاليد اليهوديّة ليست من جوهر الدين، وبالتالي يمكن التخلّي عنها، وعلى كلّ حال لا يجوز أن تُفرض على المرتدّين من غير اليهود.

وشيئًا فشيئًا زال بالفعل كثير من تلك الطقوس والتقاليد من كتب الصلوات ومن حياة المسيحيّين، وما زال بعضها باقيًا إلى اليوم، كطقس صلوات الأربعين على المرأة النفساء. وكنيستنا الشرقيّة ما برحت إلى اليوم في بعض البلدان متمسّكة بهذا الطقس. وبدهيّ أنّ الكنيسة لا تنظر إلى الولادة كعمل ملوّث يحوج إلى الصلوات التطهيريّة. فالكنيسة أبعد من أن تفكّر هذا التفكير الخاطئ وهي التي تؤمن بأنّ الزواج سرّ من أسرارها المقدّسة، وهي التي تؤمن بأنّ الولادة عمل من أشرف الأعمال وأقدسها. لأنّ الإنسان فيها يشارك الله الخالق. وهي التي أخيرًا تشجّع على الزواج وإيلاد البنين عبادًا لله. وقد قال بولس الرسول وهو معلّم الكنيسة الأعظم بصراحة ما بعدها صراحة: "**إنّ المرأة تتقدّس بإيلاد البنين**". فالولادة إذًا هي ينبوع من ينابيع النعمة والتقديس.

المرأة المسيحيّة طاهرة

والكنيسة لا تعتبر النفساء بحاجة إلى التطهير أو التكفير، لأنّ المرأة المسيحيّة بفضل سرّ الزواج طاهرة في كلّ حالة من حالاتها الجسديّة، ولا نجاسة شرعيّة في كنيسة الله. ولا يستبعد أن تكون أوجدتها وما تزال تحتفظ بها تمشّيًا مع ذهنيّة الشعوب التي تعتبر الحبل والولادة مُلوّثين.

ولقد قال في ذلك البابا إينوشنسيوس الثالث: "**إذا رغبت النساء في الدخول إلى الكنيسة حالاً بعد الولادة، فلا إثم عليهنّ من ذلك ولا يجوز منعهنّ. ولكن إنْ بقين بعيدات عن بيت الله مدّة من الزمن بدافع الإحترام فلا يعترضنّ أحد على تلك العبادة فيهنّ**".

يبدو من هذا النصّ أنّ الحبر الأعظم مؤمن بأنّ الحبل والولادة لا يلوّثان ولكن حرصًا منه على عدم اصطدام الدين مع الأفكار الرائجة، وتفاديًا للشكوك، لا يرى البابا مانعًا من أن تُترك للمرأة الوالدة حريّة الإختيار بين ما تمليه العقيدة المسيحيّة وما يجاري أفكار الشعوب وتقاليدها الموروثة.

غاية الكنيسة

ومع ذلك يمكننا، بعد أن نجرّد تلك الحفلات من معاني النجاسة والتطهير، أن نرى فيها معاني أسمى هي التي نستوحيها من الولادة الشرعيّة ضمن سرّ الزواج المقدّس. فالكنيسة تقصد حاليًّا بتلك الطقوس البركة والتقديس للطفل وأمّه. وبهذا تشكر الأمّ الله على هبته الكريمة وتضع الطفل تحت حمايته الإلهيّة وتتشبّه بمريم التي قدّمت هي أيضًا ابنها يسوع الطفل لوالده السماويّ.

٣٥
تقدمة المسيح
من طقوس يوم الأربعين

الشريعة

"إنّ كلّ ذكر بكر يكون مقدّسًا للربّ".

هذه هي الشريعة الثانية التي فرضها الله على الأبكار من المواليد الذكور في اليوم الأربعين من مولدهم. وهي تقضي على الوالدَيْن بأن يقدّما لله المولود البكر ثمّ يستخلصاه بكمّيّة من النقود تُبذل لكهنة الهيكل وبذلك يفتدون حياة أولادهم فلا يموتون كما أمات الربّ أبكار المصريّين قبل خروج بني إسرائيل إلى فلسطين.

أصل الشريعة

ويعود أصل تلك الشريعة إلى يوم ترك فيه الشعب اليهوديّ أرض جلاّديه وأفلت من قبضة الفراعنة فأنزل الله بأعداء شعبه ضربات منها أنّه قتل الأبكار من عيال تلك الأرض وحافظ على حياة أبكار شعبه وكانت العلامة أنّ كلّ باب دار لم يلطّخ بدم الحمل الذي أمرهم الربّ أن يأكلوه قبيل مغادرتهم أرض مصر يكون إشارة إلى الملاك لينـزل الموت فيه بالأبكار من البشر والحيوان. ولتخليد ذكرى تلك الليلة الهائلة قرّر الربّ أنّ كلّ بكر من الذكور يكون مكرّسًا له، خاصًّا به. ثمّ بعد أن دعا الله قبيلة لاوي لخدمة المذابح أمر بأنّ الأبكار العائدين له إلى ذلك الحين يجب أن يفتديهم ذووهم لقاء كمّيّة من المال تُبذل لخدّام المذابح من اللاويّين.

المسيح يخضع لها

بناء على ذلك في اليوم الأربعين من ميلاد المخلّص بعد أن تمّت حفلات التطهير أخذت مريم بين يديها الطفل يسوع وقدّمته لله في سرّ قلبها ذبيحة كاملة مقدّمة للذبيحة التي ستُكتمل على الجلجلة. واقترب يوسف وقدّم عن الطفل يسوع خمس قطع من النقود، هي خمسة مثاقيل من الفضّة. فاستردّت مريم بناء على تلك الفدية ولدها، كأنّهما بذلك اشتريا حقّ الله عليه.

إنّ الذي جاء يفتدي الإنسانيّة يُفتدى بمال قليل. ومريم تعلم حقّ العِلم أنّها تستردّه ظاهريًّا، لأنّه هو لله قبل أن يكون لها، وأنّها سوف تعيده إليه مرّة ثانية، لأنّه الحمل المُعَدّ للذبيحة.

ذكرى مفرحة

يليق بنا أن نحتفل بهذا العيد كأنّه يوم عيد عائليّ كما احتفلت به العذراء مريم.

نعم، كان يوم فرح في نفس العذراء، حينما انتقل لأوّل مرّة يسوع ومريم ويوسف لزيارة القدس بروح الخضوع لشريعة الله. كان يوم فرح في نفس العذراء، لأنّها حملت على ساعديها عطيّة الله لتعيدها تقدمة سخيّة كريمة لخالقها.

كان يوم فرح لأنّ جميع النساء يفرحن حينما يسرن نحو الهيكل حاملات بكرهنّ ليقدّمنه للربّ.

مريم سعيدة في هذا اليوم، لأنّها تسلّم ولدها إلى يد أمينة. إنّ الله أهل بأن يتولّى حياة أطفالنا.

بالطبع لم تكن مريم لتعرف في وقته ما وراء تلك التقدمة. إنّها لا تعرف جميع تفاصيل حياته. إنّها لم تقارن بعد بين النبوءات التي وُصفت أنّها آلام **"رجل الأوجاع"** وهذا الذي يحمل اسم يسوع وهو ابنها بالذات. إنّها تنظر إلى الحاضر والحاضر لا يوحي إلاّ بكبرياء الأمومة. لا يوحي إلاّ بالفرح.

إنّ هذا الحادث يسلّط الأنوار على كثير من الحقائق الباهرة. إنّ المسيح حينما قرّر أن يبقى على الهياكل احتاج لقطعة من خبز. ولكن حينما أراد أن يُخلق مسيحيًّا احتاج إلى جسم بشريّ. فطلب إلى الأمّ المسيحيّة أن تقدّمه له.

بهذا المعنى تتلاقى وجوه الشبه القائمة بين القربانة وولادة مسيحيّ.

القربانة

سنابل الحنطة تُدرس. الدقيق يُفصل عن النخالة. العجينة تُخبز.

وأخيرًا القربانة البيضاء يرفعها الكاهن لله بين يديه باسم جميع المسيحيّين، تلك القربانة التي تحوّلت إلى جسد المسيح.

مولد مسيحيّ:

رجل وامرأة. سرّ الزواج. المحبّة المتبادلة. تكوين الجنين. فمولد الطفل. مولد مسيحيّ في جرن العماد المقدّس. ويأخذه الكاهن بين يديه ويقدّمه لله لأنّه أصبح ابن الله بالمعموديّة.

لنمضِ في التأمّل: إنّ الأمّ المسيحيّة أشبه شيء بالكاهن الذي يقدّم الذبيحة لله. هي تصنع ولدها من لحمها. تصنعه بالأوجاع والآلام. حتّى إذا ما ولدته قدّمته لله.

إنّ الأمّ المسيحيّة أشبه شيء بهيكل تقدّم عليه الذبيحة لله. والقربانة هي ولدها بالذات. قربانة بشريّة.

وأيّ فخر لا تشعر به الأمّ المسيحيّة حينما تستطيع أن تقول، بعد أن يُعطى ولدها سرّ المعموديّة، أنّ هذا الولد هو ابن الله وابنها.

وأيّ سعادة لا تشعر بها الأمّ المسيحيّة حينما تستطيع أن تقول بعد أن يصبح ولدها كاهن العليّ، أنّ كاهن الله هذا هو ولدها.

وبعد مرور أربعين يومًا على ولادة يسوع تقوم مريم حالاً بما فرض عليها فلا تتلكّأ ولا تصانع الأقرباء أو الأصدقاء. وما أكثر الأطفال الذين يموتون قبل أن يحصلوا على نعمة سرّ العماد!

إنّ عيد تقدمة السيّد للهيكل هو يوم شكر لله، هو يوم تقدمة لله، هو يوم فرح لله.

تاريخ العيد

وكان يُحتفل بهذا العيد منذ القرن الرابع في مدينة القدس، وقد شهدت على ذلك ايجيري وهي من أشهَر زوّار الأراضي المقدّسة في ذلك العهد، وقد حفظت لنا أشياء كثيرة شاهدتها في زيارتها للأراضي المقدّسة، وأبقت لنا عنها وصفًا رائعًا. فتقول عن موضوع هذا العيد: "في اليوم الأربعين بعد الغطاس يحتفل بعيد تقدمة المسيح إلى الهيكل بأبّهة عظيمة. وفي ذاك النهار يجري تطواف إلى كنيسة القيامة يشترك فيه الشعب كلّه، وكلّ شيء يجري بنظام وأبّهة كما يحدث في عيد الفصح. ويقوم الأسقف والكهنة بإلقاء المواعظ وشرح نصّ الإنجيل الخاصّ بموضوع العيد وتكون الخطب عن يوم الأربعين، ويبيّنون كيف أنّ يوسف ومريم حملا السيّد المسيح إلى الهيكل وكيف أنّ سمعان وحنّة النبيّة ابنة فانوئيل وُجدا هناك ويأتون على ذكر الكلمات التي قالاها حينما وجدا الربّ ويتحدّثون عن التقدمة التي قدّمها والدا المخلّص. وتتمّ كلّ الحفلات بنظام رائع ثمّ تُقدَّم الذبيحة وتنصرف الجماعة".

تلك هي أقدم شهادة عن العيد الذي كان يجري فيه التطواف في شوارع مدينة القدس حتّى كنيسة القيامة.

ولنا من الجيل الخامس مواعظ أُلقيت بالمناسبة في الإسكندريّة والقدس.

وفي النصف الأوّل من الجيل السادس احتفلت كنيسة بيزنطية بهذا العيد في اليوم الثّانيّ من شباط وكان الدافع لذلك أن تفشّى وباء الهواء الأصفر في مصر وامتدّ منها إلى كثير من أقاليم المملكة البيزنطيّة وكاد أن يجعل المدن الآهلة قاعًا صفصفًا. فاتّفق حينئذ الملك يوستنيانس مع بطريرك القسطنطينيّة على أن يُحتفل بعيد تقدمة المسيح للهيكل على يدَيْ والدته في جميع أنحاء البلاد. وهكذا كان. فبدّدت البتول ذاك الوباء بشفاعاتها وراحت الكنيسة في كلّ سنة تحتفل بالعيد وتشكر للسيّدة إنعاماتها.

وانتقل العيد في الجيل السابع إلى روما وإلى الكنيسة الغربيّة بأجمعها.

طقس العيد

إنّ رتبة طقس العيد تستعرض كلّ التفاصيل التي تبيّن مصدر العيد ومعانيه السامية. ففي صلاة المساء ثلاث قراءات: الأولى تذكّرنا بالشرائع الطقسيّة الخاصّة بالمولود البكر (خروج ١٣: ١- ١٦) وهذا مطلعها: **"وكلّم الربّ موسى قائلاً: قدّس لي كلّ بكر كلَّ فاتح رحم من بني إسرائيل من الناس والبهائم أنّه لي. فقال موسى للشعب اذكروا هذا اليوم الذي خرجتم فيه من مصر من دار العبوديّة..."**. والثانية من أشعيا النبيّ وفيها

يدعوه الله ويطهّر شفتيه بجمرة (٦: ١- ١٢). والثالثة من أشعيا النبيّ أيضًا يصف فيها تزلزل الأوثان لدى وصول المسيح إلى مصر (١٩: ١- ٤، ١١، ١٦: ١٩- ٢١).

وفي صلاة الصباح يُقرأ فصل من إنجيل القدّيس لوقا (٢: ٢٥- ٣٢) والرسالة هي للقدّيس بولس (عبرانيّين ٧: ٧- ١٧) حيث يتكلّم رسول الأمم عن الكهنوت اللاويّ الذي يفوق كهنوت ملكيصادق. أمّا المسيح الذي يُقدَّم إلى الهيكل فهو كاهن بحسب رتبة ملكيصادق، وأنّه ليس من صنع "**شرائع جسديّة ولكن بحسب قدرة حياة لا تزول**".

والقطع التي تُقرأ تدريجيًّا منذ مساء العيد تعرض لنا أشياء كثيرة عن دخول المسيح للهيكل. وقد لاحظ واضعو الطقس البيزنطيّ أوّلاً أنّ المسيح يظهر الآن في هيكله وبين شعبه ولذلك سُمّي العيد "**لقاء الربّ بشعبه**".

ثمّ بيّنوا لنا أنّ الطفل المقدَّم هو الذي تنبّأ عنه الأنبياء: "**تقبّل يا سمعان الذي سبق موسى واضع الناموس فأبصره من الغمام في سيناء صائرًا طفلاً خاضعًا للشريعة. فهذا هو الذي تكلّم عنه الناموس، هذا هو الذي نطق عنه الأنبياء. فيا مَن تجسّد من أجلنا خلّص البشر**".

ونقرأ بعد ذلك قطعة تبيّن بأكثر وضوح خبر موضوع العيد: "**اليوم سمعان الشيخ يدخل الهيكل مسرورًا بالروح ليتقبّل على ساعدَيْه معطي الناموس لموسى، متمّمًا الناموس. أمّا ذاك فاستحقّ معاينة الله بأصوات وبروق محجوب الطلعة من وراء الغمام، تبكيتًا لقلوب العبرانيّين العديميّ الإيمان. وأمّا هذا فحمل كلمة الآب الأزليّ متجسّدًا، وكشف للأمم نور صلبه وقيامته. وأمّا حنّة النبيّة فقد ظهرت كارزة بالمخلّص والمنقذ إسرائيل. فلنهتف إليه قائلين: أيّها المسيح إلهنا لأجل والدة الإله الطاهرة ارحمنا**".

ثمّ تبيّن الصلوات أنّ سمعان وحنّة النبيّة يمثّلان شعب الله الخاصّ كما تبيّن علاقة العيد بالصليب المقدّس والقيامة والفصح المجيد.

ولدى الأودية التاسعة من القانون توزّع الشموع على المصلّين تلك الشموع التي بوركت في الغروب. ثمّ يجمل واضع الطقس في قطعة واحدة موضوع العيد فيقول: "**أيّها الربّ شمس العدل، لقد ظهرت نورًا ينجلي للأمم جالسًا على سحابة خفيفة، متمّمًا الشريعة الظليّة، ومظهرًا به النعمة الجديدة. فلهذا لمّا شاهدك سمعان هتف قائلاً: أطلقني من الفساد، لأنّني اليوم قد عاينتك**".

ويتابع الطقس التقاريظ "**لقد تجسّدت كما سررت، وجلست في أحضان الدائمة البتوليّة. ولم تنفصل من الأحضان الأبويّة بلاهوتك. ودفعت يا مَن يضبط كلّ الأشياء في قبضته إلى يدَيْ سمعان القابل الإله. فهتف بسرور قائلاً: الآن أطلقني بسلام، أنا عبدك، لأنّي قد شاهدتك أيّها السيّد**".

ثمّ يستأنف: "**هلمّ نستقبل المسيح، ونقبله بالتسابيح الإلهيّة. فهذا هو الخلاص الذي شاهده سمعان. هذا هو الذي أخبر عنه داود. هذا هو الذي تكلّم بالأنبياء. فيا مَن تجسّد من أجلنا. أيّها الناطق بالشريعة لك نسجد**".

وأخيرًا: "**اليوم يُفتح باب السماء. لأنّ كلمة الآب الذي لا ابتداء له. قد أخذ ابتداء زمنيًّا. من غير انفصال عن لاهوته. وقدِم باختياره كطفل من أمّ عذراء إلى الهيكل الناموسيّ بعد أربعين يومًا. فتقبّله الشيخ على ساعدَيْه. وصرخ العبد نحو السيّد قائلاً أعتقني لأنّ عينيّ قد أبصرتا خلاصك. فيا مَن قدِم إلى العالم ليخلّص جنس البشر. يا ربّ المجد لك**".

لقد مرّ على هذا الحادث ألفان من السنين وكلّما طالعنا تلك الصفحات المشرقة نشعر كأنّنا ننتقل إلى عالم آخر كلّه بهجة وأفراح. وفي الحقيقة ينتشر عن الإنجيل المقدّس جوّ ليس ألطف منه إلاّ جوّ السماء: أروقة الهيكل، كهنة وعباد، حنّة النبيّة، سمعان الصدّيق، يوسف ومريم والطفل يسوع وروائح البخور المرتفعة إلى السماء وأنغام المزامير.

بعد هذا لن ننسى أبدًا كلمة سمعان: إنّ المسيح "**نور ينجلي للأمم**".

٣٦
الشيخ المؤمن
من أحداث يوم الأربعين

إنّه "**كان في أورشليم رجل اسمه سمعان، وكان هذا الرجل صدّيقًا تقيًّا، وكان ينتظر تعزية إسرائيل، والروح القدس كان عليه. وكان الروح القدس قد أوحى إليه أنّه لا يرى الموت ما لم يعاين مسيح الربّ. فأقبل إلى الهيكل بقوّة الروح القدس. ولمّا دخل بالطفل يسوع أبواه ليقوما بما يفرض الناموس في شأنه أخذه هو على ذراعيه وبارك الله وقال: الآن، أيّها السيّد، تطلق سبيل عبدك، على حسب قولك فيذهب في سلام، لأنّ عينيّ قد شاهدتا خلاصك الذي أعددته أمام وجوه الشعوب كلّها، نورًا يضيء للأمم ومجدًا لشعبك إسرائيل.**

وكان أبوه وأمّه منذهلين لما يقال فيه. وباركهما سمعان وقال لمريم أمّه: ها إنّ هذا الولد قد جُعل لسقوط ونهوض كثيرين في إسرائيل وهدفًا للمخالفة. وأنت أيضًا سيجوز سيف في نفسك! لكي تنكشف الأفكار من قلوب كثيرة" (لوقا ٢: ٢٥- ٣٦).

مشهد أخّاذ فيه يلتقي شيخ بطفل فيوحي الطفل بصمته للشيخ هذا الفيض من التمجيد والتعظيم والكشف عن مفاجآت طواها الغيب في رداء المستقبل.

ومن المرجّح أنّ مريم لم تكن تجهل الرجل، لقد تعرّفت إليه أثناء إقامتها في الهيكل، وانطبع في ذهنها عنه أنّه الشيخ التقيّ المؤمن بالمستقبل وبالمخلّص المنتظر.

روح الله دفعه إلى الهيكل

شعر سمعان في ذلك اليوم منذ الصباح الباكر بروح الله يدفعه إلى الهيكل لا ليصلّي فقط حسب عادته ولكن هناك في الهيكل شيئًا آخر ينتظره. وبالطبع لم يخامره أيّ شكّ بأنّ هذا الصباح ينبلج عن حلم وأنّ الفجر يسير إليه محمّلاً بتحقيق مواعيد الله له. فيدلف بخطوات وئيدة وينضمّ إلى جماعات المصلّين.

لقد شاخ وثقلت عليه الأيّام. وحنت السنون كاهله وأضعفت عينيه. فهو كهل أبيض الرأس بطيء الحركة قليل الكلام كثير الصلوات والتأمّل لا يفارق الهيكل. لقد شاخ فيه كلّ شيء إلاّ قلبه وإيمانه. كان يؤمن بالمستقبل. وما الشباب إلاّ الإيمان بالمستقبل. وهذا الشعاع من الإيمان كان يفسح أمامه الأفق. بل كان يرى إلى ما وراء أفق الحياة، أنّه ينتظر مسيح الربّ. وقد وعده الله بألاّ يرى الموت ما لم يعاين مسيح الربّ، إنّه على موعد مع الله. وجدير بأمل كهذا أن ينعش فيه الحياة وأن يقف بينه وبين مخالب الموت فلا تمتدّ إلى قلبه.

اللقاء في الهيكل

وما وطئت أقدام يوسف ومريم أرض الهيكل حتّى اقترب سمعان من القافلة الصغيرة والتأثر بادٍ على محيّاه، وما وقع نظره عليهم حتّى علقت عيناه بالطفل يسوع وهو على ساعد أمّه مريم يتفرّس فيه. لقد دبّت الرعشة في جسمه وتأكّد أنّه قد رأى مسيح الربّ بعينيه. فطلب الصبيّ من أمّه وأخذه بين يديه وضمّه إلى صدره وراح ينشد، راح قلبه المؤمن وقد ارتاح لرؤية الموعود يترنّم بأنشودة سجّلتها له الأجيال كأجمل أنشودة يطلقها شيخ في أيّامه الأخيرة: **"الآن أيّها السيّد، أطلق عبدك بسلام لأنّ عينيّ قد شاهدتا خلاصك"**. كأنّه السجين الذي سقطت عن يديه السلاسل الحديديّة. كأنّه الطير الذي فرّ من قفصه. هكذا صوَّر لنا كثير من الآباء القدّيسين الجسد بالنسبة للنفس. إنّه سجنها. أمّا الموت فهو الذي يكسر هذه القشرة فتتحرّر النفس وتسعى إلى غايتها دون ما عائق.

حبّذا لو كانت غاية كلّ منّا في الحياة رؤية الربّ. حبّذا لو استطعنا في آخر أيّامنا أن نجعل من هذه الأنشودة كلمة الوداع لهذا العالم وكلمة التحيّة للآخرة.

وسمعان عاش لهذا الأمل فمات لمّا تحقّق له ما تمنّى.

خطاب سمعان إلى الطفل

وتوجّه إلى الربّ يسوع بالتمجيد: إنّه المخلّص الموعود لخلاص شعوب الأرض ومجد إسرائيل الروحيّ. ونشيد سمعان هو نشيد النصر لمطلع العهد الجديد. إنّه نشيد تحرّر شعوب العالم من الظلمة والموت.

مفاجآت تقع على الأمّ وعلى يوسف. إنّ هذا الرجل الصدّيق يكتشف ويتعرّف إلى السرّ المكتوم إلى الآن. إنّ الروح وحده كان يستطيع أن يكشف له السرّ العميق، وأنّ ما يعلنه ما هو إلاّ صدى حقيقيّ لمّا كانت العذراء وحدها قد سمعته من الملاك جبرائيل في الناصرة، لا بل يزيده تفخيمًا ودقّة. فيبدو من كلامه أنّ الطفل هذا لن يكون ملكًا لشعب صغير ولكنّه سوف يكون مخلّصًا للعالم بأسره.

بهذه النظريّة يخالف سمعان معاصريه من اليهود الذين كانوا يترقّبون مسيحًا يخلّص اليهود فقط ويهلك غيرهم من الشعوب. لقد استطاع سمعان بإلهام من الله أن يفهم معنى النبوءات التي تُصوّر لنا مسيحًا للعالم قاطبة وليس لشعب خاصّ. بل يبيّن بوضوح ما

بعده من وضوح أنّ المسيح هذا سوف يكون الصخرة التي تتحطّم عندها أوهام بعض اليهود. **"ها إنّ هذا الولد قد جعل لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل وهدفًا للمخالفة"**.

خطابه إلى مريم

ويتوجّه حينئذ بالكلام إلى مريم: **"وأنت أيضًا سيجوز سيف في نفسك"** مفاجأة أيضًا. كنّا ننتظر كلمة تهنئة لمريم أمّه فإذا بالرجل الملهم يكشف لها عن الآلام التي سوف تحلّ بها أو بالحريّ عن المهمّة التي سوف تقوم بها كشريكة لابنها فادي العالم باحتمال الآلام والصلب والموت.

إنّ بعضًا من الناس يؤمن والبعض الآخر يكفر. وهذا الكفر يكشف عن النفوس الخبيثة التي ترفض الإيمان تعلّقًا بالدنيا وبأباطيلها. بذلك أيضًا تظهر أفكار الكثيرين ويُميّز عابدُ الله الحقيقيّ عن الوجوه المزيّفة التي ليس لها إلاّ ظاهر الإيمان والتقوى. فالذي يطعن قلب مريم بالسيف هو سقوط ونهوض الكثيرين.

لهذا تتألّم مريم. وألمها هو أشبه شيء بسيف يخترق حتّى القلب. تتألّم لأنّ بعض الناس سوف يُمحّص ويناقش بنيّة سيّئة حياة المسيح وعجائبه وتعاليمه.

إنّ اليهود كانوا يترقبون مجيء المسيح المخلّص. ولكنّهم صوّروا لنفوسهم مسيحًا غير الذي أوحى به الله وغير الذي سوف يكون. تصوّروه ملكًا جبّارًا ومحاربًا لا يُقهر يسير في مقدّمة جيوش بني إسرائيل ويقودهم لفتح العالم وإخضاعه وتصبح القدس عاصمة العالم.

ولكنّ هذه المملكة ينقصها مكان للأمور الروحيّة وخلاص النفوس. لقد انتهى اليهود بأن تصوّروا الحرب الروحيّة على أعداء الخلاص حربًا على الشعوب والمملكة السماويّة مملكة أرضيّة.

ولذلك حينما ظهر المسيح وبدأ بالتبشير وعلّم الناس السلام والخلاص الشامل وأنّ الدين هو المحبّة حينئذ ثار عليه الفرّيسيّون وعادوه. من أجل ذلك تتألّم مريم ويجوز السيف في نفسها.

تتألّم أيضًا لأنّ بعض المسيحيّين سوف ينكرون إيمانهم لغايات بشريّة منحطّة على الرغم من أنّهم يعرفون حقيقة الدين المسيحيّ وأنّ لا حقيقة خارج عنه. وممّا يزيد آلامها هو كونها امرأة مرهفة الإحساس والشعور وأمّ يسوع المخلّص.

سوف تتألّم. هذا ما كشف عنه سمعان بإلهام من الروح ولكنّها تجهل كيف تتألّم ومن أين تأتيها أولى الضربات. ولعلّها تتألّم العمر كلّه.

وها قد جاءت أوّل ضربة من سمعان الشيخ حينما كشف لها عن هذه الحقيقة وهي اليوم تتيه كبرًا وعجبًا في وسط الهيكل تحمل على ساعدها ولدًا صبيًّا جاءت تقدّمه لله. إنّها طعنة نكراء أصابت الصميم.

وأنّ ابنها سوف يتألّم أيضًا. فالأمّ والابن يتألّمان معًا من مصدر واحد ولغاية واحدة. فهي إذًا شريكة حقيقيّة لابنها في أمر الخلاص والفداء.

هذا هو البذل الذي بدأت تبذله ثمنًا عن الشرف الأثيل الذي حصلت عليه في أن تكون أمّ المخلّص.

ولا بدّ من أنّ قشعريرة سرت في جسمها لدى سماعها هذه الكلمات وانكمشت ملامح وجهها خوفًا واتّسعت عيناها من الفزع والرعدة.

إنّه قدّيس

هذا هو سمعان الذي لقبه التقليد بالشيخ لأنّ الشيخوخة هي عهد الرزانة والتفكير الصحيح، العهد الذي فيه تموت الأهواء والميول ويقف الإنسان فيه أمام الحقيقة المجرّدة: الآخرة والحساب.

ومن المرجّح أنّ مريم هي التي أوحت للقدّيس لوقا الإنجيليّ بهذه الأوصاف عن سمعان فذهبت إلى أبعد ممّا هو رزانة وتفكير صحيح. وصفته بأنّه صدّيق. وكلمة صدّيق معناها قدّيس. والقدّيس هو الذي يحفظ الشريعة بكلّ حذافيرها حرفًا وروحًا. فتكون مريم هي التي اعترفت بقداسة سمعان وهي التي فرضتها على إعجاب الناس. ولا بدّ أنّ تقواه هذه هي التي حملت الله لأن يوحي إليه بأنّه لا يرى الموت ما لم يعاين مسيح الربّ.

لعلّ البعض من الناس حينما سمعوا سمعان يقول لهم بأنّه لا يرى الموت ما لم يعاين مسيح الربّ كانوا يضحكون في قلوبهم منه. وربّما عزوا إليه اختلالاً في العقل. وربّما قالوا أنّه يرى أحلامًا أو أُصيب بالخرف أو الهذيان. ولعلّ بعضهم قال: لا تخاصموه. غدًا يموت كباقي الناس قبل أن يرى مسيح الربّ. ولعلّ البعض مال إليه وآمن بكلامه. إنّ الله كلّم في الماضي مرّات الأنبياء ورجال الله الأتقياء فلماذا لا يكون قد كلّم هذا الرجل أيضًا؟

والخطير في كلام سمعان أنّه كان يثبت بأنّ مجيء المسيح أصبح وشيكًا. وهو عنيد في قوله هذا لأنّ الروح القدس أوحى إليه بذلك. وكان الناس من حوله على كلّ حال يشعرون بأنّ هذه الفكرة كانت الحافز له لممارسة الفضائل وللتمرّس بالتقوى وحبّ الله.

ولقد حقّق له الله مواعيده. إنّ الله أرفع من أن يخدع أو أن يغشّ خائفيه. لقد رأى سمعان مسيح الربّ قبل موته.

يستطيع الآن أن يفارق الدنيا. لقد حصل على سعادة لم يحصل عليها ملايين الناس. لقد رأى بعينيه. وتعرّف إلى المسيح الذي تاقت إليه الأجيال. عرف فيه النور الذي يبدّد الظلمات. على هذا النور يخترق سمعان الشيخ حاجز هذه الحياة إلى الأبديّة.

صلوات الطقس

وأنّ الكنيسة المقدّسة برتب طقوسها قرّظت سمعان الصدّيق بأجمل التقاريظ. هكذا فعلت في اليوم الثانيّ من شهر شباط وهو يوم عيد دخول الربّ إلى الهيكل. وفي اليوم الثالث منه أقامت تذكارًا خاصًّا ومحفلاً روحيًّا لإكرامه وتمجيد فضائله كما فعلت في ثاني الميلاد إذ كرّمت البتول وفي التاسع من أيلول إذ كرّمت والدَيْ العذراء وهو اليوم

التاليّ لولادتها. وقد ردّدت عشرات المرّات كلمات سمعان الشيخ في تلك الرتب الطقسيّة: **"الآن أطلق عبدك أيّها السيّد على حسب قولك بسلام فإنّ عينيّ قد أبصرتا خلاصك الذي أعددته أمام وجوه الشعوب كلّها...".**

وتعظّمه لأنّه تحقّق له ما تمنّى ونال ما طلبه من الله وهو ألاّ يموت قبل أن يرى مجيء الربّ مخلّص العالم.

وقد عظّمت الكنيسة فيه شابًّا بروحه وشيخًا بالجسد: **"يا سمعان لمّا كنت شيخًا بالجسد أصبحت شابًّا بالروح إذ أُوحي إليك أن لا ترى الموت حتّى تعاين الكائن قبل الدهور...".** وأيضًا: **"وإن تكن يا سمعان قد بلغت منتهى الشيخوخة إلاّ أنّك ما برحت شابًّا بالإيمان...".**

وفي الحقيقة، الشباب نفسيّة غضّة مفتوحة على الحياة والأبديّة، والشيخوخة انقباض الإنسان على ذاته، والإيمان بالله والأبديّة هو الذي يخرجنا عن دائرة شخصيّتنا الضيّقة ليفتح أمامنا أفق الأبديّة فلا تقعدنا عن العمل الأمراض التي تحلّ بنا في أيّام الشيخوخة ولا تحطّم انطلاقنا ذكريات الماضي وخطايا الشباب. وفي الأودية الثامنة من قانون ٣ شباط صوّره لنا واضع الطقس كالحنطة الناضجة: **"أيّها الملهم من الله... إذ بلغت شيخوخة صالحة أضحيت كالحنطة الصالحة للحصاد لذلك نقيم عيدك الشامل بابتهاج نفس".**

ويبيّن طقس العيد أنّ سمعان لم يستحقّ أن يرى مسيح الربّ إلاّ مكافأة له على فضائله: **"لقد جعلت ذاتك بالأعمال الإلهيّة هيكلاً مقدّسًا لله. أيّها المتألّه العزم فلذلك عاينت الإله بالجسد في الهيكل الأقدس مثل طفل. ناقلاً إيّاك إلى المساكن الإلهيّة".**

ومن أجمل المقابلات التي وضعها الطقس هي بين الخالق العتيق الأيّام وسمعان الشيخ: **"إنّ عتيق الأيّام الذي أعطى موسى الشريعة قديمًا في سيناء يشاهد اليوم طفلاً... فيُقدَّم إلى الهيكل ويُسلّم للشيخ...".**

ولا بدّ أنّ الله الذي أطال بأيّام سمعان حتّى يرى مجده قد حلّ قيود الجسد وأطلقه من عقالات الحواس. وأنّ الكنيسة التي تؤمن بوجود اليمبوس صوّرت لنا وصول سمعان إلى المكان الذي تجمّعت فيه أرواح الآباء والصدّيقين فاستبشروا بوفادته: **"إنّ المقيمين في الجحيم لمّا رأوا سمعان هنالك ممتلئًا من الماء الإلهيّ لدى وفادته امتلأوا من الندى الإلهيّ".**

شمعة سمعان

بقي لنا أن نقول كلمة أخيرة في هذا الحديث حول الشموع التي تُوزّع في هذا العيد المبارك.

لا شكّ أنّ مصدر الحفلة هي كلمة سمعان الشيخ: **"نور يضيء للأمم".** فالشموع المضاءة تعني المسيح والحياة الإلهيّة. وعنها رمزت شمعة العماد وعنها ترمز الشموع المضاءة أثناء خدمة الأسرار المقدّسة.

وقد أخذ الاحتفال أهميّة كبرى في الجيل السابع في روما وسُمّي بعيد الأنوار وكان التطواف بالشموع يجري ليلاً في شوارع المدينة العظمى.

أمّا في الكنيسة البيزنطيّة فيجري الاحتفال بتبريك الشموع في صلاة الغروب من ليلة عيد دخول السيّد للهيكل. فبعد نهاية صلاة الأغربينا يضع خادم الكنيسة الشمع في صينيّة على نفس الطاولة التي للأغربنيا. ثمّ تُتلى بعض الصلوات. ومن الأفشين الخاصّ بتبريك الشموع يتبيّن أنّ الشموع المضاءة تشير إلى الكلمة: **"مبارك أنت أيّها المسيح إلهنا يا ضياء مجد الآب...**" ثمّ يكرّر كلمة مطلع الإنجيل الرابع: **"كان النور الحقيقيّ الذي ينير كلّ إنسان آتٍ إلى العالم"** ويذكّرنا باستنارة المعموديّة ويعلن أنّ كنيسة المسيح هي منارة متلألئة. ثمّ يدعو الروح القدس أن يحلّ على الشموع وهذا دليل على أنّ الشموع المحتفل بها أصبحت من شبه الأسرار. ثمّ تعدّد الصلاة منافع هذه الشموع المباركة: دفع أضرار الزلازل، تسهيل الولادة، عونًا للمحتضرين ضدّ عدوّ الخلاص، حتّى إذا دنت ساعة الموت يستضيء الإنسان كالعذارى الحكيمات بنور تلك الشموع المباركة.

ولذلك يجب أن تُحفظ تلك الشموع في البيوت حتّى إذا رقد أحد أفراد الأسرة أُضيئت حول النعش. وهي من العادات المسيحيّة المحبّذة. ويمكن إشعالها أيضًا حينما يحمل الكاهن إلى بيت المريض الزوّادة الأخيرة أو المشحة المقدّسة.

فمع الكنيسة ننشد للمسيح إلهنا وللعذراء وللصدّيق **"السلام عليك يا والدة الإله العذراء الممتلئة نعمة. فمنك قد أشرق شمس العدل المسيح إلهنا منيرًا الذين في الظلام. وأنت أيّها الشيخ الصدّيق افرح بقبولك على ذراعيك محرّر نفوسنا والمنعم علينا بالقيامة"**.

(طروباريّة العيد)

٣٧
حنّة النبيّة
في يوم الأربعين أيضًا

تدخّل حنّة

"وكانت أيضًا حنّة النبيّة... فأقبلت في تلك الساعة وأخذت تسبّح الربّ وتحدّث عن الصبيّ كلّ مَن كان ينتظر فداء لأورشليم" (لوقا ٢: ٣٦- ٣٨).

وكانت العائلة المقدّسة ما تزال حيث أوقفها سمعان الشيخ عند مدخل باب نيكانور في صدر رواق النساء من هيكل سليمان حينما انضمّت حنّة النبيّة إلى المجموعة. ولعلّها سمعت آخر العبارات التي تفوّه بها سمعان.

لقد دفعها الروح أيضًا إلى ذلك المكان. فأقبلت تبارك الله. وذلك بدهيّ، لأنّها حوّلت حياتها إلى عبادة دائمة.

ولا بدّ من أنّ مريم هي التي حدّثت القدّيس لوقا عن صفات حنّة: أرملة، لم تعش مع رجلها غير سبع سنين، وقد بلغت من العمر أربعًا وثمانين سنة، وهي لا تفارق الهيكل، تصوم وتصلّي ليلاً ونهارًا.

لطّفت الجوّ بوجودها

كان وصول حنّة في وقت كاد فيه يوسف ومريم يزهقان حزنًا من تصريحات سمعان الشيخ وانقلب جوّ الفرح، الذي كان قبل قليل، إلى غمّ شديد.

وقد لطّفت حنّة الجوّ حينما راحت تمجّد الله وتباركه بكلمات ملؤها التقوى.

إنّ الله يستحقّ التعظيم والتبريك دائمًا مهما تقلّبت الظروف في الفرح والحزن والبحبوحة والضيق ما دامت غاية الإنسان على الأرض تمجيد الله وتبريكه فلا يجوز له أن يكفّ عن العبادة والخضوع.

فضل الشيوخ على الشباب

وأجمل ما يقوم به الذين قطعوا أشواطًا في معارك الفضيلة وخبرة الحياة هو أن يرفعوا من معنويّات الشبّان الذين يُخيّل لهم أنّ الإستسلام قضاء مكتوب وأنّ الفرح الناتج عن إنتصار الإنسان على أهوائه مثاليّة جميلة يقف عندها إعجاب العقل فقط، أمّا الإنسان فلا يستطيع في الواقع أن يتخطّاها بإرادته ولا أن ينتصر عليها.

إنّ الشباب ينتظر العبرة من الشيوخ. فبئس شيخوخة تعيش في جوّ من مرارة النفس!

فضل الجدّة

حبّذا لو وُجد في كلّ بيت حنّة النبيّة. إنّها الجدّة النظيفة في ملابسها ويديها. يراها الناس صباحًا باتّجاه الكنيسة والسبحة في يديها تصلّي. خفّفت من طعامها. تعيش بعيدًا عن الضجّة. ولكنّها ما تزال تطوي بين جنبيها حنان الأمّ. يأتيها الأزواج الحديثون في أيّام الشدّة يطلبون نصائحها السديدة.

الجدّة الصالحة التي لا تثير موات القصص من قبورها ولكنّها تتطلّع إلى المستقبل وتحمل الناس ليتطلّعوا إليه والأمل يملأ نفوسهم.

يتعلّم الشباب منها أنّ لكلّ شيء نهاية ولكلّ مشكلة طريقة تنحلّ بها شريطة أن يعيش الإنسان بموجب وصايا الله ويثق بربّه.

لعلّ بعض الناس لا يقدّرون فضل وجود الجدّة في البيت فتسمعهم يهمسون من حولها: ما الفائدة منها بعد هذا؟ إنّها تهذي، ليس لها إلاّ فم يأكل. هكذا يفكّرون لأنّهم يجهلون دورها في الأسرة.

لا بدّ أنّ مريم كانت تذكر بامتنان تدخّل حنّة النبيّة في تلك الظروف اليائسة حيث تمكّنت من تحويل العقول والقلوب إلى تعظيم الله وتبريكه في وقت كانت أحوج ما تكون إلى هذا التحويل المفاجئ.

إنسان كامل

من أجمل الألقاب الشائعة على ألسنة الناس التي بها يلقبون مَن تقدّموا بالسنّ: رجل كامل، امرأة كاملة. فالكامل هو الذي خبر الحياة فما عاد ينخدع بها. وهو الذي قنع بأنّ الخير غاية الإنسان وأنّ الشرّ بلاء. هو الذي يفضّل حبّ الله وخدمته على كلّ شيء آخر: المال والجاه والعِلم. وهذا ما طلبه الله يومًا من إبراهيم: **"ولمّا أصبح إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة تجلّى له الربّ وقال له: أنا الله القدير أسلكْ أمامي وكن كاملاً"** (تكوين ١٧: ١).

الشيخوخة المصيبة

يعاني كثير ممّن تقدّموا في السنّ آلامًا في الجسد ومرارات في النفس ومردّ ذلك على ما أعتقد إلى الأمّيّة التي يعيش فيها أغلبهم فإنّهم إذ أُقعدوا عن العمل بحكم الطبيعة أو بتوفّر المال الذي جنوه أو الذي يبذله لهم أولادهم ترى الملل يقتلهم: فالساعات طويلة والأيّام أطول منها لأنّ ساعات النوم أصبحت محدودة قليلة وساعات اليقظة كثيرة. تمرّ بهم الأوقات متشابهة رتيبة. فلو أنّهم أحسنوا القراءة لقضوا قسمًا من النهار في المطالعة. وما أكثر المواضيع التي كان يمكنهم أن يطالعوها بلذّة تقضي على الملل.

أيّام عذبة

وممّا لا شكّ فيه أنّ أفضل طريقة لإشغال تلك الساعات الطوال هي مطالعة الكتاب المقدّس في العهد القديم والجديد. فإنّ لهم فيها تسلية مريحة ومتعة للروح تنطوي على أفضل استعداد للحياة الآخرة. وهكذا يجعلون من الكتاب المقدّس همزة وصل بين أيّامهم الأخيرة على الأرض وأيّامهم الأولى في السماء. وهنا يكرّرون ذكر اسم الله ويفكّرون به ويُمعنون في التأمّل بكمالاته وهنالك تنضمّ أرواحهم إلى الملائكة والقدّيسين ليُنشدوا القدّوس الأبديّة.

ويطالعون في الكتاب المقدّس في سفر التكوين قصّة الخليقة من أوّلها فيفهمون فيها أوسع وأدقّ غايات الله في خلائقه وقصّة الإنسان الأوّل وإخضاعه للتجربة وسقطته المشؤومة ويبرز فجأة وجه مريم وابنها الحبيب كمخلّصَيْن للبشر. والنبوءات التي فيها يتمّ الله مواعيده بإرسال المخلّص.

وما أجمل سفر المزامير ففي تلاوته يمكنهم أن يقضوا ساعات من النهار يمجّدون الله ويعظّمونه ويكفّرون عن أخطاء الشباب.

وفي الكتاب المقدّس قصص رائعة تطالعهم على حياة بعض الأشخاص الذين آمنوا بالله وخضعوا لإرادته وعاشوا أبرارًا، منها: قصّة دعوة إبراهيم من أور الكلدانيّين وانتقاله إلى أرض فلسطين وبلاد النيل وقصّة يوسف بن يعقوب الذي آثر العذاب على أن يستسلم. وقصّة أيّوب البارّ الذي فقر عن غنى ولم يفقد إيمانه بالله وقصّة طوبيا وقصّة المكابيّين وأمّهم التي شجّعتهم على الموت إنتصارًا لدين التوحيد على الوثنيّة. وفي

تضاعيف الكتاب المقدّس قصص كثيرة غير هذه فيها العبرة وفيها المتعة وفيها قضاء للوقت بلذّة.

هكذا عاش سمعان الصدّيق وعاشت حنّة النبيّة بشهادة الكتاب نفسه، في الصلاة والعبادة والتأمّل.

ومن أفضل الأعمال التي يستطيع بها الإنسان أن يشغل الوقت في هذا السنّ هي بلا ريب حضور ذبيحة القدّاس صباحًا والتناول والصلاة من أجل الأبناء والأحفاد والإشتراك في إحدى الأخويّات المسائيّة لسماع الوعظ والصلاة.

أمّا الوقت الباقي فيستطيع الإنسان في هذا العمر أن يقضيه ببعض الخدم لخير العائلة.

ولا يبقى مجال للملل الذي يُنشئ التذمّر والضجر ولا مجال لأن ينطوي الإنسان على نفسه انطواء يدفعه إلى الشعور بثقل السنين ووطأة الآلام.

وهكذا يقضي الإنسان أيّامه الأخيرة مشغولاً، لا يحمّل أحدًا من حوله مشقّة أو عناء، ويستعدّ الإستعداد اللائق لمواجهة ربّه.

العودة إلى بيت لحم

وبعد أن قامت العائلة المقدّسة بكلّ ما فرض الناموس لم يبق عليها إلاّ أن تعود أدراجها إلى بيت لحم.

وفي طريق عودتهم مرّوا غربيّ المدينة المقدّسة بقصر هيرودس. فالصور والأبراج المرتفعة حتّى علوّ ثلاثين مترًا كانت تستطيع أن تخبّئ وراءها المفروشات الثمينة داخل الغرف ولكنّها عجزت عن طمس معالم الجرائم. فكنت تسمع الناس يتحدّثون عن ذلك العجوز المجرم، الغريب، الذي جاء من آدوم القريبة ومرّ عليه أكثر من ثلاثين سنة وهو يحكم بلاد فلسطين بالنار والحديد. إنّه لرجل متوحّش، سفّاك للدماء. فلقد أباد حماه هركان وزوجته مريامن وحماته ألكسندره وولدَيْن له وصهرَيْن وغيرهم. إنّه لشخصيّة ظالمة مظلمة!

وتصل القافلة الصغيرة إلى بيت لحم حيث تنتظرها أمجاد وبلايا جديدة.

٣٨
المجوس

انطلق "**المجوس، وإذا النجم الذي كانوا قد رأوه في المشرق يتقدّمهم، حتّى جاء ووقف فوق الموضع الذي كان فيه الصبيّ. فلمّا رأوا النجم فرحوا فرحًا عظيمًا جدًّا. ودخلوا البيت فأبصروا الصبيّ مع مريم أمّه، فخرّوا سجدًا له، ثمّ فتحوا كنوزهم وقدّموا له هدايا من الذهب واللبان والمرّ**" (متّى ٢: ٩- ١١).

من المرجّح أن يكون الحادث قد جرى بعد تقدمة المسيح للهيكل. ذلك أنّ يوسف ومريم قد مدّدا إقامتهما في بيت لحم لكي لا يضطرّا إلى القيام بسفرتَيْن طويلتَيْن من الجليل إلى يهوذا في مدّة أسابيع قليلة لإتمام طقوس التطهير، لأنّ المسافة الفاصلة بين

القدس وبيت لحم ليست سوى ثمانية كيلومترات يستطيع الإنسان أن يقطعها بسهولة سيرًا على الأقدام باتّباع الطريق العالية أيّ طريق الجبال.

ولا بدّ من أن تكون العائلة المقدّسة قد غادرت المغارة، لأنّه من غير المعقول أن تبقى غير ليلة الميلاد في المغارة وقد بحث يوسف في ساعات الصباح الأولى عن بيت أو غرفة استأجرها لمدّة أيّام أو بالأجرة الشهريّة وإليها نقل مريم مع طفلها.

على كلّ حال بعد أن تمّت المعاملات التي فرضتها السلطات المدنيّة للإحصاء راح يوسف ومريم يفكّران في العودة إلى الناصرة.

المجوس

غير أنّ حدثًا آخر كان يدور في فلك العناية الربّانيّة تلك العناية التي توجّه الحوادث حول ابن مريم.

هناك قافلة مرّ عليها أكثر من شهر منذ أن غادرت مواطنها وسلكت الطريق المؤدّية إلى بيت لحم.

وكان الدليل الهادي لهم في مجاهل من البلاد بالنسبة لهم هو نجم يلمع في السماء ليلاً ونهارًا.

إنّهم المجوس. والمجوس معناها رجال أغنياء أو علماء أو من المتفوّقين في عِلم الفلك والنجوم أو أخيرًا من رؤساء القبائل أو الدهاقين.

لقد دفعهم روح الله فانطلقوا من بلادهم ورائدهم أمل كبير بأن يلتقوا بشيء ثمين أو بشخص عظيم.

بعد زيارة الرعاة الوضيعين أقبل العظماء يرشدهم نجم غامض الاسم. ولعلّ النجم هذا أشبه شيء بالغمامة التي كانت تهدي اليهود في التيه أيّ صحراء سيناء.

المخلّص المنتظر

ولقد توقع يوسف ومريم حدوث كلّ طارئ إلاّ زيارة كهذه. وهنا نتساءل هل الإيمان بمجيء مخلّص كان معروفًا خارج عالم نسل إبراهيم الذي أُعيدت عن طريقه مواعيد الله للبشريّة؟ وهل كانت شعوب العالم بما فيها الشعب اليهوديّ تتوقّع مجيء المخلّص الموعود في هذا الوقت بالذات؟

لدى اليهود

نعم إنّ توقع مجيء المخلّص كان على أشدّه في مطلع التاريخ المسيحيّ. لقد قامت حركات وطنيّة عديدة في فلسطين نبّهت الخواطر للرجوع إلى الوحدة. وأيّة وحدة أعظم من الرجوع إلى وعد الله بإرسال المخلّص، هذا المخلّص الذي يحقّق لليهود أطماعهم الدنيويّة. إذ أنّهم تصوّروا المسيح ملكًا جبّارًا يقيم دولة لهم يسحق بها أعداءهم. ولقد فاتهم كثير من الإيضاحات والتفاصيل عن وجه المسيح المتألم. مع أنّ أشعيا الذي عرّفنا

إلى أمّه العذراء رسم لنا عنه صورة الرجل المثخّن بالجراح من الرأس إلى أخمص القدمَيْن.

لدى الأمم

أمّا لدى الأمم فما تزال ذكريات غامضة عن الإنسان الأوّل والخطيئة الأصليّة وجنّة عدن ووعد الله للبشريّة عالقة ببعض الأذهان تظهر في تقاليد الشعوب وعقائدهم وفنونهم كما أنّ بعض كتّابهم مثل فرجيل نوّهوا بها مرارًا في كتاباتهم.

ولعلّ من أسباب انتشار هذه الأفكار عن المسيح المنتظر انتشار اليهود في كلّ قطر من العالم عائشين بشكل مجموعات متميّزة بلباسهم ولغتهم وتقاليدهم وعباداتهم وهكذا دعوا الأمم لمشاركتهم في آمالهم بمجيء المخلّص. فراحت البشريّة كلّها تنتظر وتتوقّع مجيء مخلّص موعود به. بل إنّ البشريّة كلّها على قول بولس الرسول "**كانت تئنّ وتتمخّض**".

النجم

وكان من الشائع لدى الأمم أنّ النجم هو من جملة الأشياء التي سترافق مجيء المخلّص. ولعلّ تلك الشائعات تعود في أصولها إلى الكتاب المقدّس (العدد ٢٤: ١٧) "**يخرج نجم من يعقوب وصولجان من إسرائيل**" وإنّ هذا النجم يكون دليلاً يسبق مجيء ملك عظيم يخرج من يهوذا سوف يرتفع بسلطانه على العالم كلّه ويسوسه بالعدل والسلام.

فلمّا بدا النجم للمجوس عرفوا فيه الكوكب المرتقب الذي كانت تتوق إلى رؤيته نفوسهم وقلوبهم. فأمروا حالاً الخدم والحرس والجنود بإعداد القافلة للسفر وسارت الجِمال متّجهة من الشرق عبر الصحاريّ والبواديّ متّبعة آثار طرق القوافل نحو أورشليم.

لقد كثرت التكهّنات عن البلاد التي جاء منها المجوس. فقيل أنّها اليمن وقيل أنّها بلاد فارس أو بلاد الرافدَيْن وقيل أنّها الحبشة أو الهند.

على كلّ حال لا بدّ من الإفتراض أنّ المجوس التقوا معًا في مكان ما بعد أن قطع كلّ منهم مسافة طويلة بعيدًا عن بلاده. فيتعرّف كلّ منهم إلى غاية الآخر ويسيرون معًا على ضوء النجم.

طرق القوافل

أمّا طرق القوافل فكانت مطروقة ومعروفة منذ آلاف السنين يتبعها المسافرون والتجّار معتمدين على جماعة من الرجال الأقوياء يرافقون القافلة من محطّة قوافل إلى محطّة ليردّوا عنها الغزاة والمعتدين واللصوص وليهدوها الطريق الأقصر والآمن وذلك مقابل أجر يتقاضونه عن المسافرين أو السلع المنقولة.

وكانت المحطّات منتشرة على أبعاد غير متساوية على طول الطرق. منها المحطّات الطويلة ومنها القصيرة. وتقدّر المسافة بين المحطّة والمحطّة على العموم بثلاثين كيلومترًا تقريبًا.

والمحطّة في شكلها الأوّليّ عبارة عن جدار عال يحيط بباحة رحبة قامت على أطرافها غرف لإيواء القافلة بما فيها من تجّار وتجارة وحيوان. وربّما لا يقتصر فيها على الراحة بل وكانت تقام المبادلات التجاريّة بين السلع المنقولة والسلع المحلّيّة.

وقد تتطوّر هذه المحطّة فترتفع الأبراج فوق أسوارها العالية للمراقبة والدفاع وتنشأ فيها أو على مقربة منها قلعة حصينة وتمتدّ من حولها قرية أو مدينة واسعة. وأنّ وجود بعض المدن في الصحاريّ والبوادي ليس له من سبب إلاّ وقوعها على طرق القوافل. لذلك وُجدت مدينة البتراء محفورة في الصخور الغرانيتيّة على أطراف وادي العربة ولذلك تنشأ أيضًا تدمر والرصافة في وسط البادية السوريّة وتمتدّ حلب حول قلعتها الجبّارة. ولنفس السبب قامت مدن عديدة على الفرات كمدينة كركميش حيث جرابلس اليوم وهيت في العراق.

وقد سجّل التاريخ أنّ حمورابي صاحب أوّل شريعة عرفت إلى الآن فضل أن ينقل عاصمة ملكه من بابل إلى ماري لأنّ هذه تقع في مركز ممتاز من طرق القوافل على نهر الفرات. وقد وجدت آثارها في مكان يُدعى حاليًّا **"تلّ حريري"** وهو يقع غربيّ أبو كمال وشرقيّ الصالحيّة. والمكان يقطع في الوسط خطًّا يسير من بابل إلى ثغور الأبيض المتوسّط.

في أورشليم

على هذه الطرق يسير المجوس ويتوقفون في المحطّات كلّما حقّ لهم أن يستريحوا وأن يريحوا حيواناتهم.

وما حطّت رحالهم أرض فلسطين حتّى قصدوا أورشليم مدينة القدس وما عبروا أحد الأبواب إلى داخل صور المدينة حتّى راحوا يسألون الناس: **"أين المولود ملك اليهود؟"**.

ولقد أدهشهم أن يروا الناس في أعمالهم وحياتهم العاديّة، وليس هناك ما انتظروا من مظاهر عيد ومن حادث جلل كالذي أتوا من بلادهم النائية يطلبونه.

فطافوا في شوارع المدينة حائرين يسائلون المارّة. وفي كلّ مفترق من الطريق يستوقفون إنسانًا ليستوضحوا النبأ. ولكن ليس بينهم مَن يجيّر جوابًا. غير أنّ الناس تجمّعوا حلقات يهمس بعضهم في آذان بعض ويشيرون إلى هؤلاء الغرباء ويكرّرون فيما بينهم السؤال الغريب.

أمام هيرودس

ومدينة القدس اضطربت كلّها لهذا الطلب. وسرعان ما دُعوا لمقابلة عاهل البلاد الذي نمى إليه خبر وصولهم. بالطبع ليس وجود القافلة هذه هو الذي يدهش له سكان القدس.

فكلّ يوم كانت المدينة ترى أهمّ منها بكثير. ولكنّ سؤال المجوس لكلّ غاد في الشوارع وفي الأمكنة العامّة هو الذي نبّه الخواطر. وأمام صمت وذهول الناس للسؤال كان المجوس يؤكّدون لهم بأنّنا "**رأينا نجمه في المشرق**".

وما نمى الخبر إلى مسامع هيرودس حتّى جمع في قصره بمساعدة رئيس الكهنة آنذاك رؤساء الكهنة الأقدمين ورؤساء الأسر الكهنوتيّة وعظماء إسرائيل والعلماء المشهورين بتضلّعهم في الكتاب المقدّس وسألهم عن المكان الذي فيه يولد المسيح، فتمّ الرأي استنادًا إلى الآية التي وردت في ميخا النبيّ: "**يولد المسيح في بيت لحم**" (٥: ١-٢).

وتلبّس هيرودس بالدهاء واصطنع اللطف وظهر بمظهر كرام الناس واجتمع بالمجوس سرًّا. وبالرغم من أنّ هؤلاء كانوا قد سمعوا أشياء كثيرة مخزية عن سلوك هذا الملك وتوحّشه أثناء تجوالهم في فلسطين واجتيازهم شوارع مدينة القدس اضطرّوا إلى أن يجيبوا على سؤالات عدّة رأى هيرودس أن يلقيها عليهم لاستكمال معلوماته عن الصبيّ الملك. فعرف منهم موعد ظهور النجم لهم كما عرف أشياء كثيرة عن صفات ومستقبل الطفل. حينئذ طلب إليهم، بعد أن يهتدوا إلى الطفل في بيت لحم، أن يعودوا إليه ليخبروه فيذهب هو أيضًا ويسجد له.

النجم من جديد

فخرجوا من المدينة باتجاه الجنوب وما أشدّ ما كان استغرابهم حينما بدا لهم النجم من جديد، ذلك النجم الذي بشّرهم بمولد الطفل الملك. وسار أمامهم يهدي خطاهم خطوة خطوة. ووصلت القافلة إلى بيت لحم وتوقف النجم فوق بيت وضيع، البيت الذي كان فيه الصبيّ وأمّه. وعند ذاك غاب النجم فدخل المجوس البيت "**فأبصروا الصبيّ مع مريم أمّه**".

ديّة البشريّة لربّها

وانحنوا سجدًا. وكان على الإنسانيّة أن تقدّم ديّتها لربّها. فقدّمها هؤلاء العظماء، من حيث لا يدرون، باسم شعوب العالم الوثنيّة، بعد أن قام الرعاة بتأدية ديّة الفقير والعامل والمسكين.

التقادم

قدّم المجوس ذهبًا وبالطبع لم يكن الذهب المقدّم سبائك أو قطعًا من النقود ولكن بعض مصوغات مثل كؤوس أو صوانيّ، كما يكتشف اليوم في حفريّات بابل وفارس وسوريا.

وقدّموا لبانًا أيّ بخورًا ولعلّه جيء به من البلاد العربيّة أو من الهند.

وقدّموا مرًّا، وربّما قُدّم مع البخور في آنية ذهبيّة زينت ببعض النقوش الجميلة.

معنى التقادم

لهذه التقادم رموز ومعانيّ. الذهب معناه أنّ الطفل هو ملك. والبخور أنّه إله والمرّ أنّه قابل الموت.

لم تشعر مريم في تلك الساعة بما يشعر به الفقير أمام بذخ الأغنياء من صغر نفس أو ذلّ على الرغم من حقارة الأماكن والأشياء التي وقعت تحت أنظارهم. لأنّها هي أيضًا من سلالة العظام، من سلالة ملكيّة. ثمّ أنّ ابنها هذا هو ابن الله. وأنّ الله سخّر السماء لخدمتها. لقد أرسل ملائكة ليكلّموها.

وأظنّ أنّ مريم لم تبخل على المجوس بابنها إذ قدّمته لهم فأخذه كلّ منهم وضمّه إلى صدره وقبّله.

ما أشدّ الفرح في قلوب الجميع! في قلب الوالدة إذ ترى هؤلاء العظماء ينحنون إكبارًا واحترامًا. وتلمس بإصبعها وبدون إبطاء تتميم نبوءة سمعان: **"نور يضيء للأمم"** فتزداد فرحًا وتيهًا. أمّا فرح المجوس فقد يضاهي بشدّته فرح مريم. لأنّهم وجدوا الطفل بعد مشقّة السفر ولأنّهم سعدوا برؤية أمّه.

ومن المحتمل أن يكون المجوس قضوا بعض الوقت يتحدّثون إلى مريم بلغّتها الآراميّة لأنّها مثلهم من بلاد الشرق. وكان الشرق كلّه تقريبًا يتكلّم آنذاك اللغة السريانيّة في لهجات مختلفة أهمّها السريانيّة الشرقيّة التي يتكلّم بها سكّان ما بين النهرين وأشور وبابل والكلدانيّون واللهجة الغربيّة وكانت تُسمع في البلاد الممتدّة شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط. وكانت اللهجتان قد امتزجتا أثناء الجلاء فنتج عنهما لهجة ثالثة هي الآراميّة. فاستخدمها المجوس في حديثهم مع مريم.

ولقد ساء العذراء مريم أمّ يسوع أن تعرف منهم أنّ هيرودس اتّصل بهم واطّلع على أمرهم وأنّه عطف على مطاليبهم. فغمّت لذلك غمًّا شديدًا. ولكنّ ثقتها بالله أعادت إلى قلبها الهدوء والاطمئنان. إنّه تعالى لا بدّ من أن يرعى فتاه ويحرسه بعنايته الإلهيّة ضدّ كلّ طاغية.

دروس وعبر

يحقّ لنا بعد هذا أن نتّخذ لنفوسنا عبرًا من هذا الحدث. إنّ الله مالك الدنيا وخيراتها لأنّه خالقها ومبدعها ومع ذلك فإنّه لا يستخدمها. على أنّه لا يتنازل عن حقوقه في التملّك. ولذلك فإذا ما قرّر بعض الناس أن يقدّموا له أموال الدنيا أو سلطانها فإنّه يتقبّل تلك العبادة ولا يرفضها.

والكنيسة تعرف حسنًا ما هي الطريقة الفضلى لاستخدام أموال الدنيا وخيراتها، ذلك في أن نكرّسها لله بالذات أو نبذلها لأعضاء جسم المسيح السرّيّ ومنهم الفقراء والمعوزون.

وللكنيسة موقف مزدوج في استخدام أموال الدنيا: إنّها تبارك الذين يتجرّدون عنها في سبيل الله. وتقيّد ذلك التجرّد بنذر الفقر في الحياة الرهبانيّة. وأنّها تحيط من جهة ثانية السيّد المسيح بما يُسمّى عظمة الطقس. ونلاحظ ذلك خاصّة بالنسبة لسرّ القربان المقدّس. تفرض الكنيسة أن يكون كأس القربان من ذهب أو على الأقلّ مطليًّا بالذهب. وتطلب أن

تكون الشراشف والمناشف من الكتّان الناعم. وأن تكون زينات الهيكل فنية وملابس خادم السرّ فنية جميلة وأنْ تُضاء الكنيسة بالأنوار وتُزيّن بالزهور.

إنّ الكنيسة تقدّر تمامًا عمل المجدليّة التي أفرغت قارورة الطيب على قدمَيْ الربّ ولا تولي أيّ اعتبار للثمن المهدور **"إنّ الله أحقّ بها"**.

ولعلّ بعض المسيحيّين يرفعون أصواتهم كيهوذا متشكّكين فيما تبذله الكنيسة المقدّسة لإشادة أبنية الكنائس الفخمة وتزيّنها بأثمن الأثاث بينما ترى كثير من العيال في حال الفقر المدقع ويرى كثير من العمّال في حالة بطالة أو في حاجة إلى تغذية هي في الواقع دون الوسط. وكانوا يتمنّون لو بُذلت أموال الكنيسة في أيد الفقراء بدلاً من أن تُستخدم في بذخ الطقوس.

ممّا لا شكّ فيه أنّ العالم يغصّ بالمساكين وهم منتشرون في كلّ بلد. فمنهم الطفل المحتاج إلى العِلم ومنهم الشيخ المحتاج إلى رغيف الخبز ومنهم المرأة التي تحتاج إلى ثوب لستر عريها.

وممّا لا شكّ فيه أيضًا أنّ الكنيسة ليست آخر مَن يدعو إلى العدل والمحبّة.

ولكن هناك مبدأ آخر صحيح وهو أنّ إكرام الله أفضل من إعطاء رغيف. وأنّ خدمة الله مباشرة أعظم من خدمة البشر. ثمّ إنّه لَمِن العدل أنّ الذي خلق الدنيا يستعيد قسمًا منها لتمجيده وإكرامه. إنّنا لا نستطيع أن نقول قول يهوذا: كان من الأفضل أن يُباع الطيب ويُعطى ثمنه للمساكين. إنّ الله هو الأفضل وإنّ سكب الطيب على أقدام المخلّص لأفضل بكثير من إعطاء ثمنه للمساكين.

هنالك أموال طائلة تُبذل للبذخ والترف، على الراقصات والمغنّيات مثلاً، فهذه الأموال يجب أن تُبذل على المساكين.

لا يجوز أن يبقى الله آخر مَن يُخدَم وأقلّ مَن يُبذَل في سبيله.

٣٩
الهرب إلى مصر

"وأوعِز إلى المجوس في الحلم ألاّ يرجعوا إلى هيرودس، فقفلوا راجعين في طريق أخرى إلى بلادهم".

وعلى أثر انصرافهم تراءى ملاك الربّ ليوسف في الحلم وقال له: **"قم، فخذ الصبيّ وأمّه واهرب إلى مصر، وأقِمْ هناك حتّى أقول لك فإنّ هيرودس موشك أن يطلب الصبيّ ليهلكه. فنهض وأخذ الصبيّ وأمّه ليلاً، وانصرف إلى مصر"** (متّى ٢: ١٢-١٤).

عودة المجوس إلى بلادهم

بعد أن رجع المجوس إلى مخيّمهم، بقرب بيت لحم، من زيارة الطفل الملك، راحوا يُعدّون العدّة للعودة إلى بلادهم عن طريق مدينة القدس. وكانوا على استعداد لأن يطلعوا

هناك هيرودس عمّا شاهدوا وسمعوا في بيت لحم عن الصبيّ. ولكن في تلك الليلة نزل عليهم حلم من السماء يدعوهم إلى أن يرجعوا توًّا إلى بلادهم دون أن يعرّجوا على هيرودس.

في طريق عبر صحراء يهوذا

وفي الصباح الباكر حسب عادة القوافل حزموا خيامهم وساروا باتجاه جنوبيّ شرقيّ البحر الميّت ومن هناك إلى بلادهم.

كما راحوا يستحثّون مطاياهم، وقد أحسّوا بالعاصفة، هاربين من وجه الطاغية، وهم يخشون من مطاردته ويوجسون شرًّا من غدره.

وهكذا غابوا فجأة عن الأنظار كما كانوا قد ظهروا على مسرح أحداث مولد السيّد المسيح.

غضب هيرودس

وشعر الملك العجوز في القدس بأنّ المجوس سخروا منه فثارت ثائرته واندلعت نيران الغضب من فمه وعينيه. لقد ضَيَّعَ المجوس عليه حيلته وأفسدوا عليه خطّته وأفلت الملك الطفل من براثنه.

إنّ نفسه منغمسة في الإجرام. لقد نسج منها أيّامه السوداء وحياته المظلمة. لقد تجاوز السبعين من العمر وأنهكت قواه الخلاعة والمجون، ولكنّه ما زال على غطرسته يتيه عجبًا وكبرياء بهذه المملكة التي استولى عليها بمساعدة أسياده الرومان والتي ما يزال مستبدًّا بعرشها منذ سبع وثلاثين سنة.

ولقد هاله أن يتحدّث الناس أمامه عن ملك يولد. إنّ الموت لهذا الطفل أسهل وأدنى الوسائل للتخلّص منه. وقتل الناس والإجرام لا يخيفانه. لقد أعدم أقرب الناس إليه خوفًا من أن يزاحمه أو ينازعه على عرشه مزاحم أو منازع.

فبثّ العيون والشرطة إثر المجوس. ولكن سبق السيف العذل. لقد أصبحوا الآن بعيدًا عن حدود مملكته، لقد اجتازوا وادي العربة الفاصل بين البحر الميّت والعقبة وشقّوا طريقهم عبر بلاد الآدوميّين. وهكذا لم يتمكّن هيرودس من معرفة اسم الصبيّ.

فراح يرتجف غضبًا وحنقًا في قصره. وأصدر الأوامر للضبّاط والجنود بأن يقفوا على أهبّة الإستعداد للإغارة لدى أوّل إشارة.

هدوء بقرب العاصفة

وفي تلك الأثناء كان الطفل يسوع يرقد في سريره رقادًا هنيئًا وأمّه بقربه ترافقه بحركة من رأسها وعينيها كلّما تمدّدت أو تقلّصت رئتاه الصغيرتان وتبتسم.

ففي تلك الليلة بعد أن اطمأنّت مريم إلى أنّ طفلها يتمتّع بسبات مريح أطفأت قنديل الزيت واتّكأت على فراشها بقرب سريره.

أمّا يوسف فكان هو أيضًا في فراشه يأخذ نصيبه من الراحة من بعد عمل نهار مرهق. لقد أخذ يعمل في النجارة وضاعف من نشاطه لأنّ المسؤوليّة قد ازدادت عليه بمولد ابن مريم. إنّه غارق في نومه، حينما فجأة شعر بصوت لطيف يناديه: يوسف! يا يوسف! يا ابن داود قم. قم. قم. ويستيقظ يوسف من نومه مذعورًا ويفتح عينيه متفرّسًا في الشخص الذي أمامه. لقد تعرّف إليه بسرعة، لأنّ له به معرفة سابقة، إنّه رسول السماء.

ماذا تريد منّي؟- قم، خذ الصبيّ وأمّه واهرب إلى مصر، لأنّ حياة الطفل في خطر جسيم هنا. إنّ الطاغية يريد نفس الصبيّ.

بَلَّغَ الرسولُ الرسالة واختفى.

إذًا لا بدّ من الرحيل!

بسرعة هبّ يوسف يجمع في كيس كلّ ما تسمح له السرعة بجمعه ليلاً أمام خطر مداهم.

ولكنّ الليل ما يزال حالكًا. والأمّ وولدها نائمان. كان يتمنّى لو تركهما يتمتّعان بلذّة النوم ويمعنان في سبات مريح. ولكنّ الخطر قريب يهدّد بالفناء. فيشعل يوسف من جديد فتيل سراج الزيت ويقترب من مريم بلطف فيوقظها ويطلعها بعد أن أخذ للأمر حيطته.

فتهبّ مريم بدورها وتجمع أغراضها وملابس الطفل يسوع. وتمرّ أمام مخيّلتها هواجس مخيفة. إنّ اسم هيرودس مخيف. ولكنّ الله أعظم منه. وها هو يرسل ملاكه لينجّي نفس الصبيّ من التهلكة.

الهرب إلى مصر

بينما كان يوسف ومريم يفكّران في العودة إلى الناصرة فُرض عليهما الآن أن يفكّرا في درء الخطر الذي يهدّد حياة الصبيّ. إنّ السفر إلى مصر يثير القلق. الطريق بحاجة إلى خمسة أو ستّة أيّام سيرًا على الأقدام عبر الصحراء. مئة وخمسون كيلومترًا من بيت لحم إلى العريش. هذا وإنّ ذكر مرور أجدادهم في تلك الصحراء ما يزال عالقًا في الأذهان يوحي الخوف لِما عانوا من مشقة وإرهاق مدّة سنين طويلة.

ولكنّ يوسف يعرف أن لا أقلّ من مليون نسمة من اليهود يعيشون في مصر وخاصّة في هيليوبوليس. ولذلك يقرّر أن يتّجه إلى تلك المدينة.

عبر الصحراء

وخرجت القافلة الصغيرة تحت جنح الظلام من البيت بهدوء يوحي به الخوف، والليل ما يزال مخيّمًا على المدينة. ويطمئنّ يوسف ومريم: لا أحد في الشوارع، وليس ما يشير إلى أيّة حركة مريبة. إذًا يمكننا أن ننطلق بأمان!

في ذلك الوقت كان أطفال بيت لحم نائمين في أسرّتهم نومًا هادئًا.

ويسير يوسف في المقدّمة ومن ورائه مريم وفي طيّات ملابسها الواسعة غمرت يسوع بين ساعديها إلى صدرها.

وبالطبع ليس السفر ليلاً على طريق يجهلها المسافر بالأمر الهيّن. حتّى في وقتنا الحاضر وعلى الرغم من وجود السيّارات السريعة لا يخلو السفر من خطر، فكيف به حينما يكون سيرًا على الأقدام. إنّ الإنسان لا يتوقع خيرًا وهو يقطع مسافة بعيدة تحت الظلام. ولعلّ المسافر الذي نلتقي به يتحوّل فجأة إلى لصّ. وتلك الشجرة على قارعة الطريق ربّما أخفت وراءها مجرمًا. بل إنّ ظِلّ الأشياء من أشجار وصخور يوحي الرعب والرعدة.

ويشعر يوسف بكلّ المسؤوليّة الملقاة على عاتقه في هذه الظروف الراهنة. لو كان وحده لهان الأمر. ولكنّه مؤمَّن على حياة شخصَيْن. لو كان وحده لهان الأمر لأنّ الرجل يتدبّر بسهولة أمر نفسه. ولذلك تبدو على ملامح وجهه دلائل الإهتمام ممزوجًا بالقلق.

وأمّا مريم فكانت صامتة ونفسها في حالة من الاضطراب لا توصف على ابنها حتّى يكاد الخوف أن يقطّع أوصال قلبها. إنّها تفكر بمصير ابنها. هل ينجو من المكائد التي نصبها له الأشرار؟ هل ينجو من خبثهم ووحشيّتهم؟

ولكن لا بدّ لليل أن ينجلي وللقيد أن يتحطّم. لا قدرة على الأرض إلاّ وقدرة الله أشدّ منها قوّة ووقعًا.

وكانت تفكّر في قلبها أنّها الطعنة الأولى التي كشف عنها سمعان الصدّيق في الهيكل. بيد أنّها لم تكن لتنتظرها الآن وهي لا تزال في فرحة ميلاد ابنها وفي غمرة السعادة التي أشاعها الملائكة والكواكب والرعاة والمجوس حول مهد طفلها.

وتمرّ القافلة في حبرون أيّ بلدة الخليل أو في بئر السبع، ومن إحدى هاتَيْن المدينتَيْن يستمدّ يوسف المعلومات عن أوّل قافلة تتّجه من فلسطين إلى مصر عبر صحراء سيناء. لأنّه لا يجسر على أن يقطع الصحراء وحده. إنّها مغامرة خطيرة!

ومرّت قافلة. فانضمّت إليها العائلة المقدّسة.

وراحت القافلة تقطع المحطّة تلو المحطّة. وتقضي الليالي تحت حراسة نجوم السماء أو تحت الخيمة بين جماعات ممّن خشنت طباعهم واستهوت شهوة الطمع نفوسهم. ناهيك بالخوف من غزوة مفاجئة تداهم خيامهم فتقتل وتسلب وتفتك بالأعراض.

وكان على المسافرين أن يتّقوا هبوط درجة الحرارة المفاجئ أثناء الليل بعد النهار الملتهب.

أمّا في وضح النهار فترى القافلة سائرة سيرًا بطيئًا تحت أشعّة الشمس الحارّة فوق الرمال المحرقة.

الإرهاق الناتج عن المسير والعطش يبدوان على وجوه الجميع. أمّا غذاؤهم فليس سوى بعض ثمار من التين والبلح المجفّف وكسر من الخبز اليابس. ذلك هو الغذاء التقليديّ للمسافرين عبر الصحاريّ.

وأخيرًا تصل القافلة إلى بيلوز وهي مدينة بور سعيد فتكون بذلك قد دخلت الأراضي المصريّة.

دروس وعبر

نتوقف هنا لنتّخذ لنفوسنا عبرًا من أخلاق يوسف ومريم.

أوّلاً- إنّ يوسف يقوم حالاً في نصف الليل ليتمّ أمر الله. لا تردّد ولا إبطاء ولا احتجاج. يكفي أن يبدي الله إرادته حتّى ينصاع يوسف لها. استسلام كامل لإرادة الربّ. الطريق مجهولة، الليل حالك، ولكنّ إرادة الله واضحة لا لبس فيها.

ثانيًا- إنّ الله يملي إرادته على يوسف أمّا مريم فتتلقّى الأوامر عن طريق رجلها.

بالطبع هي أمّ المخلّص وقداستها في نظر الله تفوق بكثير قداسة يوسف. وقد يبدو لأوّل وهلة طبيعيًّا أن يلتفت الله أوّلاً إليها ليعطي أوامره. ومع ذلك فالواقع أنّ مريم تنفّذ أوامر تتلقاها من يوسف رجلها.

إنّ في ذلك درسًا عميقًا للزوجات.

بعد حين سوف يعلن بولس الرسول بأنّ الرجل، داخل الحياة الزوجيّة، هو رأس المرأة.

ممّا لا شكّ فيه أنّ العلاقات الناتجة عن زواج شرعيّ تجعل الرجل والمرأة متساويَيْن في الحقوق والواجبات.

وممّا لا شكّ فيه أيضًا أنّه لا يحقّ للرجل أن يستبدّ بالمرأة. السلطة شيء والإستبداد شيء آخر. السلطة خدمة أمّا الإستبداد فظلم.

ولذلك تتّجه في وقتنا الحاضر أفكار المشرّعين لحماية المرأة من تصرّفات الرجل الكيفيّة في عقد الزواج وفي إدارة الأموال وفي الوصيّة وتربية الأولاد.

وغاية الشارع بذلك منح المرأة بعض الإستقلال على أساس من كرامتها كامرأة أو زوجة أو والدة.

ولا يقصد واضعو تلك الشرائع الحدّ فقط من استغلال الرجل للمرأة ولكنّهم يريدون إعطاءها التسهيلات للحياة والحريّة في التفكير. وذلك ضمانًا لها ولأولادها.

والكنيسة لا ترى أيّ مانع من أن تتمتّع المرأة بالحقوق التي يتمتّع بها الرجل في عالم السياسة والإقتصاد والوظائف نفسها، شريطة أن تسلَم الأخلاق وأن يكون الجوّ مناسبًا لطبائعها الأنثويّة.

أمّا القدّيس بولس فحينما يعلن **"أنّ الرجل هو رأس المرأة"** إنّما يعلن مبدأ أساسيًّا طبيعيًّا وهو أنّ كلّ مجتمع يقضي بوجود سلطة. وأنّ هذه السلطة في المجتمع الأسريّ هي للرجل.

لا ديموقراطيّة في الأسرة. إنّ الزواج مبنيّ على سلطة الرجل. والمحبّة هي الناظم بين الأعضاء المكوّنين للأسرة. ومن قراءة فصل التجربة في الكتاب المقدّس يتبيّن أنّ الله أخضع المرأة للرجل لأنّ حوّاء أغوت رجلها.

وهذا الواقع يطبّقه الله على مريم فيبلّغها إرادته عن طريق يوسف الرجل الشرعيّ. ومريم لا تأبى الخضوع. إنّها تخضع لأوامر رجلها خضوعها لله.

وأحسِن بالنساء المتزوّجات أن يتّخذْنَ مريم مثالاً لهنّ في الطاعة والخضوع لأزواجهنّ.

بالطبع كان يوسف لطيفًا، لا يطالب مريم بغير حقوقه، ولا يحمّلها فوق طاقتها، ويتشاور معها في الأمور العائدة لحسن إدارة البيت وخدمة الطفل يسوع. لأنّ الولد هو غاية هذا المجتمع الصغير ومن أجل إسعاده يتفانى الوالدان.

٤٠
مذبحة بيت لحم
وموت الطاغية

"حينئذ، لمّا رأى هيرودس أنّ المجوس قد سخروا منه سخط عليهم سخطًا عظيمًا، وانفذ فقتل جميع الصبيان في بيت لحم وفي ضواحيها كلّها، من ابن سنتين فما دون، على حسب الزمان الذي تحقّقه من المجوس. حينئذ تمّ ما أُسند إلى أرميا النبيّ القائل: صوت سُمع في الرامة، بكاء وعويل كثير، هي راحيل تبكي على بنيها وقد أبت أن تتعزّى لأنّهم ليسوا بعد في الوجود" (متّى ٢: ١٦- ١٨).

هواجس هيرودس

بينما كانت العائلة المقدّسة هاربة إلى مصر، والطفل قد نجا من شرّ إجراميّ بُيّت له، كانت الهواجس والأحزان والقلق، في تلك الأثناء، تتآكل قلب هيرودس.

وكيف لا يقلق وهو يعرف حقّ المعرفة أن ليس كالشعب اليهوديّ الذي يحكمه شعب أقرب إلى الثورة على السلطات الغريبة ولاسيّما عليه. لقد خاف هيرودس أن يكون النبأ الذي أتى المجوس به مثيرًا للحماسة الوطنيّة الكامنة في قلوب اليهود كمّون النار تحت الرماد. فقرّر أن يحتال على ذلك الصبيّ ويهلكه ولاسيّما إذا صحّ القول إنّه المسيح الذي انتظره اليهود، أجيالاً بعد أجيال، ليملك على الدنيا.

فقبع في قصره بالقدس يترقّب عودة المجوس. ولكن سرعان ما فهم أنّ المجوس عادوا إلى بلادهم مباشرة دون أن يعرّجوا عليه، فاستشاط غضبًا واشتدّ حنقه حتّى جمّد مَن حوله خوفًا ورعدة.

وكان في القصر امرأة واحدة لا تخاف صولته وبطشه، هي صالومي أخته، لأنّ يديها لم تكونا أقلّ منه تلوّثًا بدماء الأبرياء، فهي مجرمة سفّاكة للدماء على شاكلته.

ولقد خُيّل له أنّ المجوس بعد أن رأوا ملك اليهود، تحيّزوا له ضدّ العرش القائم، وأنّهم يتمنّون لو أُزيح عنه. ولكنّه مع ذلك أجّل الانتقام منهم إلى حين إذ كان عليه أن يتخلّص بأسرع ما يمكن، من الملك الطفل، قبل أن ينشو ويترعرع.

المذبحة

ولكن كيف العمل للتعرّف إليه بين أطفال بيت لحم؟ ما عليه إلاّ أن يتّخذ أقرب الطرق وأسهلها ولو كانت الفتك بالأبرياء! فأصدر حينئذ أمرًا إلى إحدى الفرق بأن تداهم بيت لحم وضواحيها وأن تقتل كلّ صبيّ لم يتجاوز الربيع الثّانيّ من عمره.

ونفّذ الأمر بوحشيّة لم يذكر التاريخ لها مثيلاً. عويل يُسمع في بيت لحم. لقد صرخت الأمّهات ومعهنّ كلّ امرأة من اليأس، وبكت على الأطفال كلّ عين. لم يدرك الأطفال لماذا وفي سبيل مَن يموتون. فالشهداء هم الأمّهات "**راحيل تبكي على بنيها وقد أبت أن تتعزّى!**". وراحيل هي إحدى نساء يعقوب وقبرها في مدخل بيت لحم من الجهة الشماليّة على طريق القدس، وسكّان تلك المنطقة من ذريّة ابنها بنيامين.

لعلّ بعض نساء بيت لحم رفعن قلوبهنّ إلى الله وقدّمن أولادهنّ الأبرياء ذبيحة له وفي أعماق نفوسهنّ شعور يقول لهنّ إنّ هذه الضحايا لن تُهدر دماؤها عبثًا ولعلّ بعضهنّ فكّرن بالمسيح، إذ كان من الشائع آنئذ بأنّ كلّ ألم وكلّ صلاة تسرّع خطا المسيح وتقرّب مجيئه.

ولكن بينما كانت النفوس تسمو بأفكارها، كان تاريخ الإنسانيّة يسجّل صفحة سوداء لهذا الطاغية العاتيّ الحقير الذي تطاول على عشرين طفلاً، فأبادهم من الوجود، لا لشيء إلاّ تشفّيًا وانتقامًا وخوفًا على عرشه من أن ينسلخ منه. وإن كان بعض الكتّاب والمؤرّخين قد بالغوا في عدد الأطفال المقتولين، فما ذلك إلاّ للتدليل على هول تلك المجزرة.

نقمة الله

ولكن، ما من يد إلاّ يد الله فوقها! وإنْ كانت كلّ عين تنام فعين الله لا تسهو عن الظالم.

فها هي يد الله تنهال على هيرودس وتثأر منه للحال. وفي الوقت الذي كان فيه يفخر بأنّه بذ جميع أصدقاء روما في إخلاصه لأسياده، ولكي يتقرّب منهم ويتحبّب إليهم وخاصّة إلى أوغسطوس قيصر، شاد في مملكته مدرّجات للألعاب ومقاصف وقصورًا. ثمّ بنى، في شرقيّ مدينة القدس، مدينة حديثة تتّسم بكلّ المظاهر اللاتينيّة، وأطلق عليها اسم سيّده، ومنى نفسه أن يكون هناك مثواه الأخير بعد موته.

نهاية ظالم

وفي ذلك الوقت بالذات انهالت عليه الأمراض المبرّحة لا يُعرف لها سبب ولا يجد الأطبّاء لها دواء أو مرهمًا. إنّها أشبه شيء بنار تكاد تلتهم أحشاءه، حرّمت عليه النوم والطعام والشراب فانتفخت بطنه بالماء وتحوّلت ساقاه إلى عمودَيْن ضخمَيْن وامتنع عليه التنفّس إلاّ وهو متمدّد على فراشه. وكانت تنبعث من فمه رائحة نتنة كأنّها صادرة من داخل أفسده الموت. وكلّما تقلّصت أعضاؤه ارتفع صوته ينبح نباح الكلاب المسعورة. وكان يعرف أنّ الفرح سوف يعمّ البلاد لدى انتشار نبأ وفاته. فأمر بأن يجمع كلّ رجالات اليهود وأعيانهم وأن يحشروا في مدرج أريحا، وعند إذاعة نبأ موته، يجب أن يُذبح هؤلاء جميعًا، وذلك لكي يجعل سكّان فلسطين يذرفون الدموع في يوم موته، وقد عهد بهذا الأمر إلى أخته صالومي. وقبل موته بثلاثة أيّام شعر بأنّ ابنه انتيبار لا يبدو مؤاسيًا لوالده في مرضه كما كان يترقّب منه، فأمر بذبحه. وإذ كانت آلامه تزداد يومًا بعد يوم فظاعة وهولاً، أخذ سكّينًا وأراد أن يطعن بطنه. وأخيرًا مات ذلك الطاغية.

أمّا أولئك المساكين الموقوفون في مدرج أريحا، فقد بسم لهم الحظّ وخدمهم حسن الطالع بأن رأفت بهم صالومي وأطلقت سراحهم.
وسار الموكب يحمل الجثّة المنتنة، ترافقه، لا دموع الأهل والأحباب، ولكن لعنات السماء والأرض، عبر جبال أريحا إلى مدينة هيروديوم.
واليوم عبثًا يبحث علماء الآثار عن هذه المدينة فلقد ضاع لها كلّ أثر.
لقد بذ هيرودس كلّ مجرم. وبقي على الأجيال أن تصدر حكمها على ذلك السفّاح. ولهذا نرى اللعنات تنصبّ عليه من كلّ جانب في التاريخ الكنسيّ والطقوس الدينيّة والتاريخ المدنيّ.

نهاية عرش ظالم

أمّا أولاده الثلاثة الذين أوصى لهم بمملكته فإنّ زمام إدارة البلاد أفلت من أيديهم بسبب الثورات الأهليّة التي تتالت على البلاد، نتيجة طبيعيّة للكبت الذي عاش فيه الشعب طوال ملك والدهم المستبدّ.
ولمّا تسلّم أركلاوس الحكم على بلاد اليهوديّة،لم يعامل الشعب بأقلّ من والده وحشيّة وظلمًا، فأصبح كوالده أيضًا موضوع ازدراء الناس وكراهيّتهم.
أمّا أخوه انتيباس فقد ملك على الجليل ولكنّه كان يفضّل حياة اللهو والمجون على الحكم، ولذلك كانت البلاد على عهده في حالة ركود أشبه بركود الموت.
هذه هي نهاية كلّ متجبّر مستبدّ. وهذه هي الحالة التي آلت إليها بلاد فلسطين، والمسيح الطفل ما يزال في منفاه.

شعور مريم مع الأمّهات

من المرجّح أنّ مريم لم تطّلع على مقتل الأطفال إلاّ بعد مرور بعض الوقت على وقوعه. وإنْ كان هذا الحدث الفظيع يمسّ مباشرة حياة السيّد المسيح، فقد كان يمسّ أيضًا حياة مريم.
ولمّا نمى الخبر إلى مريم صرخت هلعًا: كان الله بعون الأمّهات! لقد خافت على ولدها ولكنّ عناية الله أنقذت ولدها من الموت.
أمّا هؤلاء الأطفال فلقد دفَعُوا ثمن الفدية بموتهم عن الطفل يسوع، لقد حُصِدت حياتهم في سبيله.
ومنذ ذلك اليوم ازداد عطف مريم على الأمّهات لأنّها شعرت بمرارة الألم والالتياع.
أجل، إنّ مريم إنسان مثلنا، فقد سبرت أغوار الطبيعة البشريّة وعرفت من نفسها ومن خبرتها الشخصيّة أنّ الإنسان يشعر بمرارة الألم وأنّ الإنسان لا يعتاد الألم ولا يقوى على تحمّله، فهو يصرخ ألمًا من نخزة دبّوس أو إذا وقعت على رجله أو يده قطعة خشب أو حجر.
إنّ الإنسان يتألّم لخيانة صديق أو لمرض زوج أو ولد. هل رأيت أمًّا تبكي ولدًا فارق الحياة؟ إنّها وحدها صادقة في دموعها لأنّها وحدها كانت صادقة في حبّها وإخلاصها.

الطبيعة تنفر من الألم

الألم لا يُطاق، لا تطيقه الطبيعة البشريّة، وتنفر منه وتبتعد عنه وتتحاشاه.

أذكر أنّي دخلت مرّة مخفرًا للشرطة أزور صديقًا لي، وكان هو مفوّض المخفر. وجيء بسارقٍ قَبض عليه رجال الشرطة. وبينما كان يُستنطق كان رجال الشرطة يقتربون منه ويصفعونه بأيديهم ويركلونه بأرجلهم. فشعرتُ بالرغم من قناعتي بأنّ ذلك ضروريّ بعض الأحيان ولبعض الأشخاص، شعرت كأنّ نفسي صغُرت وأنّ ألمًا داخليًّا كاد يقضي عليّ. واليوم أفكّر بأولئك المعتقلين السياسيّين في دول العالم الذين يذوقون كلّ يوم ألوانًا من العذاب والإهانة فتصغر نفسي أيضًا.

فمريم بعد أن شعرت بألم أمّهات بيت لحم عرفت جيّدًا وفهمت لماذا لا تقبلْنَ من أحد التعزية، فإنّ قلوبهنّ تفطّرت إلى الأبد.

لقد هرولت أمّهات بيت لحم نحو الجنود الذين أوفدهم هيرودس للفتك بالأطفال لعلّهنّ بدموعهنّ وصراخهنّ يمنعن المجزرة، ولكنّ الجنود أبوا إلاّ أن ينفّذوا أمر سيّدهم. فسالت دماء الأطفال الطاهرة على الأمّهات.

وكانت كلّ أمّ تتساءل في أعماق نفسها: لماذا؟ لماذا هذه المذبحة؟ لماذا؟ لماذا يباد الأبرياء؟

وكنت تسمع بعض الأمّهات يطلبن إلى الجنود أن يقتلوا الأمّ ويبقوا على ابنها البريء.

واليوم تشعر مريم مع كلّ أمّ بآلامها. وتستطيع أن تقول لها إنّ أطفال بيت لحم ذُبحوا من أجل يسوع ابنها، ولكن منذ ذلك الحين يموت يسوع من أجل جميع البشر، "**وبموته شفينا كلّنا**"، يقول بولس الرسول.

طقس العيد

ولقد أقامت الكنيسة لهؤلاء الشهداء الأطفال عيدًا خاصًّا في اليوم التاسع والعشرين من كانون الأوّل وأنشدت لهم التقاريظ، فاعتبرت استشهادهم باكورة اللآلئ التي تُرصّع بها جبينها وإكليلها.

"**يا بيت لحم لا تحزني. بل سُرّي وافرحي بقتل الأطفال الأطهار. لأنّهم قُدّموا ضحايا كاملة للمسيح السيّد. فإنّهم إذ قد ذُبحوا لأجله، يملكون معه على الدوام**".

وتردّد صلوات الطقس قصّة وردت إلى الكنيسة عن طريق التقاليد المحلّيّة الكثيرة وهي تقول أنّ القدّيسة أليصابات حافظت على حياة الطفل يوحنّا بأعجوبة إذ اختفت به وراء صخرة. "**لقد سُمع في الرامة صوت عظيم جدًّا. راحيل تبكي على الأطفال نائحة. وهيرودس يزأر حماقة بالحاد. ويوحنّا يهرب إلى الجبال والصخرة تتقبّل الأمّ مع ولدها. وزخريّا يُقتل في الهيكل. أمّا المسيح فيهرب تاركًا مسكن العبرانيّين مقفرًا**".

وأيضًا: "**إنّ هيرودس... اضطرب واختطف أطفالاً يرضعون اللبن في أحضان أمّهاتهم. وأمّا أليصابات فأخذت يوحنّا وابتهلت أن تتقبّل الصخرة أمًّا مع ولدها. فتقبّل الجبل السابق...**".

وتقدّم الطقوس تعازيها لراحيل على اعتبار أنّها تمثّل الأمّهات الثواكل كما تخيّلها أرميا النبيّ: **"كفكفي يا راحيل عبراتك المسفوحة على بنيك متذكّرة أنّهم في أحضان إبراهيم حيث مسكن جميع الفرحين"** (من صلوات طقس العيد).

٤١
المنفى
"من مصر دعوتُ ابني"

(متّى ٢: ١٥).

على الطريق

بعد أن دخلت القافلة الأراضي المصريّة ومرَّت بالعريش لم يبقَ على المسافرين إلاّ أن يجتازوا جنوبيّ بحيرة المنـزلة حتّى مدينة هيليوبوليس متّبعين خارطة عسكريّة معروفة باسم **"خارطة أغريبا"**، وهو حمو هيرودس. وقد رُسِمت عليها طريق يصل المسافر بها حتّى **"ممفيس"** ومصر العُليا.

فتمرّ القافلة على برزخ السويس وهو المكان المنخفض الذي سوف تخترقه قناة السويس. ثمّ تصل القافلة إلى مجرى النيل فتنـزل بعض الوقت في مدينة **"بوباست"** وقد دُعيت هكذا نسبة إلى الآلهة بوباستيس إلهة الأحراج. وقد عبدها المصريّون بشكل امرأة تمثّل رأس قط وكان لهذه الآلهة هيكلها الأعظم في هذه المدينة. والهيكل ينتصب على جزيرة في وسط مجرى نهر النيل مكوّن من رواق قام على أعمدة عالية من حجر البورفير. وكان موسم العيد السنويّ يجمع مئات الألوف من الناس حول هذا الهيكل وكان أكثرهم يستسلم إلى حركات شعبيّة وأمور مخزية يُندّى لها الجبين.

الآلهة تتحطّم

وإنّ الأناجيل المحرَّفة وخاصّة القبطيّة تدّعي بأنّ تماثيل الآلهة قد انهارت من على قواعدها وتحطّمت لدى مرور المخلّص من هنالك. نعم إنّ هذه أسطورة، ولكنّ أشعيا النبيّ في الفصل التاسع عشر سبق فتنبّأ قائلاً: **"هوذا الربّ يدخل مصر فتتزلزل أوثانها من وجهه"** (١٩: ١).

والنبيّ لا يقصد بذلك إلاّ الصورة والتشبيه وليس الواقع. يريد بذلك أنّ أركان الوثنيّة تتهدّم بوجود المخلّص في هذا العالم.

وقد ردّدت رتبة الاكاثستوس صدى تلك الأساطير القديمة فقالت: **"لمّا أشعلتَ في مصر نورَ الحقيقة، أقصيتَ ديجور الكذب، لأنّ أصنامها لم تثبت أمام قوّتك، أيّها المخلّص، فهوَت"**.

عين شمس

وتنتقل العائلة المقدّسة بعد هذا إلى هيليوبوليس وتُسمّى حاليًّا عين شمس؟ وهي من ضواحي القاهرة. وكان قد حلّ بها الدمار بعد أن نهب كنوزها قمبيز وأسلمها للنار وهدم هياكلها ومبانيها الشاهقة. وقمبيز أحد ملوك الفرس ٥٢٩- ٥٢١ ق. م. وهو أحد أولاد قورش أسّس في مصر السلالة الثّانية والعشرين. وكان للمدينة سابقًا شهرة عالميّة بمعاهدها العالية في دروس الفلسفة والفلك. ولقد تخرّج منها أفلاطون العظيم. أمّا سكّانها فقد تفرّقوا ايدي سبا وبنوا لهم قرى حول المدينة في أراض خصبة جدًّا. وقد انتقل اليهود إلى هذه القرى وأقاموا فيها.

مطرَّية

وعلى بعد كيلو متر تقريبًا من هيليوبوليس وعلى بُعد ثماني كيلومترات في الشمال الشرقيّ من القاهرة قامت مدينة صغيرة هي أشبه شيء بواحة خصبة ينمو عليها شجر النخيل والجمّيز والموز والبرتقال، يروي كلّ ذلك نبع ماء. سخي تلك هي مدينة مطرَّية الشهيرة. وكانت بيوتها مبنيّة من القرميد الذي أخذت طينته من غضار وادي النيل. وكانت تعيش هناك جالية كبيرة من اليهود. فقرَّر يوسف ومريم أن يحطّا رحالهما فيها.

وهناك تقليد قديم لا يزال حيًّا في هذه المدينة يروي أنّ مريم كانت تجلس إلى شجرة جمّيزة ضخمة بقرب نبع المدينة وبقربها ابنها الطفل يسوع يعبث بأوراق الشجرة المترامية الغصون. ولكنّ التقليد الخاصّ بمدينة مطرّية لا يرجع أصلاً إلى أبعد من القرن الثالث عشر.

ومطرَّية في أيّامنا ليست سوى قرية صغيرة لا يتجاوز عدد سكّانها الخمس مئة ولا يعيش فيها إلاّ ثلاث أو أربع أُسر مسيحيّة.

وترحل العائلة المقدّسة بعد إقامة قصيرة في هذه المدينة نحو الجنوب الغربيّ وتقيم في المكان الذي يشيد فيه جوهر الصقلّيّ القاهرة عاصمة لأسياده الفاطميّين. والمكان يقع عند مفترق النيل إلى فرعيه دمياط والرشيد. ذلك ما يؤكّده تقليد ثابت قديم جدًّا. والدليل عليه المغارة الباقية إلى اليوم والواقعة في حيّ الأقباط في الجنوب الغربيّ من القاهرة. وقد شُيّدت كنيسة قبل القرن السابع على أنقاض الكنيسة التي شادها المسيحيّون في القرن الثّانيّ أو الثّالث للميلاد، تخليدًا للمكان الذي أقامت فيه العائلة المقدّسة. وقد أصبح مستوى الكنيسة القديم اليوم تحت الأرض بسبب مجروفات النيل الناتجة عن الفيضانات السنويّة.

ونحن لا نعرف كم من الزمن أقام يسوع ومريم ويوسف في هذا المكان.

وفي بلاد مصر مدُن غير مطرَّية والقاهرة تدّعي سكن العائلة المقدّسة فيها، كمدينة هرموبوليس مثلاً على النيل أيضًا.

طلب الرزق

وهنا نتساءل ما معنى هذا التنقّل والتجوال السريعَيْن في بلاد مصر؟ لعلّ طلب الرزق دفع يوسف إلى البحث عن عمل في هذه الأماكن المختلفة، فكان يتعاطى النجارة مهنته الخاصّة.

وأنّ رجالاً من أمثال يوسف يستطيعون أن يجدوا عملاً لهم في كلّ مكان وفي كلّ زمان. وكان يكفيه قليل من الآلات ليقوم بعمل يضمن له معيشته ومعيشة عائلته بالطريقة نفسها التي كان يؤمّن بها حياته وحياة زوجته في الناصرة.

وكانت مهنة النجارة تقدّم الخدم الضروريّة لبناء المنازل وعمل آلات الحراثة والحصاد. وكان يوسف نجّارًا متقنًا لمهنته. فكانت تمكّنه من توفير لقمة العيش.

الجاليات اليهوديّة

ولم يكن من الصعب على يوسف أن يتنقّل بين مختلف المدن المصريّة لأنّ لليهود جاليات منتشرة في كثير منها. ولذلك لم تكن العائلة المقدّسة في بلاد غربة فإنّ لها فيها إخوانًا في الجنس والدين واللغة. وكان من السهل على يوسف أن يجد فيها عملاً وحسن ضيافة.

أمّا سبب وجود هؤلاء اليهود في مصر وغيرها من مدن الشرق والإمبراطوريّة الرومانيّة المترامية الأرجاء، فيعود إلى الثورات السياسيّة العسكريّة والجلاءات الإجتماعيّة. كما أنّه يعود إلى حبّ اليهود للتجارة. ولهذا كانت لهم جاليات منتشرة في كلّ مكان.

وكان لتلك الجاليات علاقات دينيّة مع الهيكل، وصِلات ثقافيّة مع المدينة المقدّسة. ولم يكن للغريب طريق للدخول إلى هذه الجاليات أو التدخّل في شؤونها ولقد يصعب أمرها حتّى على الحكومات المحلّيّة. ولكنّها كانت تفتح أبوابها واسعة لكلّ يهوديّ مغترب، موفّرة له أسباب العمل والرفاهيّة.

اللاجئون

بيد أنّ الحياة في المنفى كانت شاقة ومذلّة، فإنّه ليس بالأمر الهيّن أن يترك الإنسان وطنه وبلدته وعمله ويعيش غريبًا بين غير أهله ومواطنيه. إنّ حياة اللاجئ حياة يأس وبؤس. ولقد يزداد شقاء اللاجئين كلّما طالت غربتهم عن أرض الوطن. فلقد مرّ على الأرمن عشرات السنين، وهم ما يزالون يحنّون إلى أرمينيا، رغم أنّهم نظّموا حياتهم بيننا أفضل تنظيم، وكثيرًا ما نحتاج إليهم في بعض الأعمال التي تخصّصوا فيها دون سواهم. فهم أرباب حدادة السيّارات على اختلاف حاجاتها وأنواعها من محرّك وكهرباء وتأثيث وغير ذلك، كما أنّ لهم شهرة ممتازة في فنّ التصوير. والضرير بينهم يتعاطى فنّ الموسيقى فيتقنه ويعيش منه. ولقد لجأ البولونيّون إلى فلسطين ولبنان إبّان الحرب العالميّة الثانية، فكنت تسمعهم لا يتحدّثون إلاّ عن بولونيا الأمّ المقهورة على أمرها. وهؤلاء إخواننا عرب فلسطين لا يرضون عن بلادهم بديلاً ولو جنّة عدن. أمّا الإغاثة التابعة لهيئة الأمم فإنّها وإنْ كانت تكفيهم مؤونة تحصيل القوت إلاّ أنّ مساعدتها لهم

تعتبر في نظرهم إعانة وحسنة. ولا يفوتنا ما في هذا الأمر من مذلّة تضاعف فيهم الشوق إلى الوطن، ذلك أنّ الحنين إلى الوطن ميل طبيعيّ في الإنسان لا ينجو منه أحد حتّى ولو مُنِحَ سعادة الدنيا في أرض المنفى.

ولعلّ ذكريات الماضي البعيد كانت تهدهد ضمير يوسف ومريم فيسلوان بها مرارة الغربة ويأنسان إلى ذكر الآباء والأجداد الذين عاشوا على أرض مصر متنعّمين بخيراتها. في تلك البلاد أقام إبراهيم ويعقوب ويوسف الذي باعه إخوته، وهناك عاش نسل يوسف الذي أثار عليه الفراعنة موجة اضطهاد كادت أن تودي بحياة المجموعة لولا أن جاء موسى وأخرجهم من أرض العبوديّة إلى حريّة أبناء الله. هنالك عاشت مريم أخت موسى وهارون أخوه، وهناك بعد فترة من الزمن عاش أرميا النبيّ وغيره من الآباء.

أمّا المدّة التي استغرقها وجود العائلة المقدّسة في الأراضي المصريّة فلم يعلم بها أحد. ويعتقد أنّها كانت قصيرة جدًّا، إذ أنّ العائلة المقدّسة هربت إلى مصر قبل موت هيرودس بقليل. ولعلّ هيرودس مات في أواخر آذار أو أوائل نيسان من السنة الرابعة قبل الميلاد حسب تاريخ "**ديونيسيوس**" وهو أوّل مَن وضع التاريخ الميلاديّ، أيّ سنة ٧٥٠ لتأسيس روما. وقد خلف أرخيلاوس مباشرة أباه. وبما أنّ مولد المسيح حدث سنة ٧٤٩ أو ٧٤٨ من تأسيس روما فيكون المسيح قد بلغ من العمر ثمانية أشهر أو سنة وثمانية أشهر حينما عاد به يوسف ومريم إلى أرض أجداده.

وتعود عاطفة الحنين فتثور في نفسيهما حتّى تكاد الغصّة أن تخنقهما. ولكن ما الحيلة؟ إنّ وقاية حياة الطفل يسوع تقضي بأن يستمرّا غريبَيْن لاجئَيْن في مصر حتّى موت الطاغية. وهل هاجر إنسان من وطنه هربًا من حريّة أو نعمة؟ إنّ اللاجئين لم يغادروا أرض أجدادهم إلاّ هربًا من ضيق ذات اليد والظلم والإستبداد. فتراهم يفضّلون الحياة والوجود على بقاء ينطوي على الذلّ والخوف والموت.

العودة

"فلمّا مات هيرودس، ظهر ملاك الربّ ليوسف في الحلم، وقال له: قم فخذ الصبيّ وأمّه وامضِ إلى أرض إسرائيل فلقد مات طالبو نفس الصبيّ. فنهض وأخذ الصبيّ وأمّه ودخل أرض إسرائيل" (متّى ٢: ١٩- ٢٠).

وهكذا يشرق فرح العودة في نفس يوسف ومريم. إنّها الفرحة العظمى. وأحرى بنا أن نطلق على كلّ اللاجئين اسم العائدين. حقًّا إنّ هذه الكلمة تبعث الأمل في قلوب هؤلاء فتعلّل نفوسهم بيوم العودة، كأنّها تضعهم على الطريق التي تعود بهم إلى ديارهم.

وها هي العائلة المقدّسة تجمع حوائجها، وتعود سالكة الطريق التي جاءت منها، وكأنّ ذلك كان البارحة. ما أسرع ما ينسى الإنسان المصائب والأوجاع حينما تعود إليه أمواله أو صحّته؟

ويشعر العائد بأنّه أصبح قريبًا من وطنه. وكلّما اقترب من الحدود، خُيّل إليه أنّ الطبيعة تفتح ساعديها لتضمّه باللهفة نفسها التي دفعته إلى العودة وأحسّ بأنّ الناس أكثر تودّدًا إليه وتعطّفًا عليه.
ما أعلن يوسف لمريم بشرى العودة حتّى انحنت على ابنها وقالت له: الآن نعود يا بنيّ إلى بلادنا العزيزة، إلى أرض الأجداد والآباء!
إنّ مريم إلى اليوم تُحِبّ أن تعيد يسوع إلى مواطنه بعد أن يموت الذين كانوا يريدون له الموت؟

٤٢
في بيت الناصرة

"وإذ بلغ يوسف أنّ أرخيلاوس يملك على اليهوديّة مكان هيرودس أبيه خاف أن يذهب إلى هناك. وأوعز إليه في الحلم أن يشخص إلى نواحي الجليل، فجاء وسكن في مدينة تُسمّى الناصرة ليتمّ ما قيل في الأنبياء: إنّه يُدعى ناصريًّا" (متّى ٢: ٢٢- ٢٣).

أرخيلاوس

وتدخل القافلة المقدّسة أراضي فلسطين والنفوس يغمرها فرح العودة. وفكّر يوسف بأن يعود ويقيم مع يسوع ومريم في بيت لحم لعلّه يجد له هناك عملاً أفضل منه في الناصرة ويختلط ببعض الأهل والأصحاب. ولكن سرعان ما نمى إليه أنّ أرخيلاوس هو الذي ملك مكان أبيه إذ آلت اليهوديّة بالوراثة إليه. فخاف يوسف ودبّ الهلع في نفسه. فإنّه يعرف أنّ المجرم لا يخلّف إلاّ مجرمًا والحيّة لا تلد إلاّ حيّة على شاكلتها.
وشاع عن الملك الجديد أنّه افتتح عهد ملكه المشؤوم بمجزرة من أمثال المجازر التي كان والده ضرّج بها يديه مرارًا.
ونقل لنا يوسيفوس المؤرّخ، وهو أحد المعاصرين، نبأ تلك المجزرة فقال أنّ ثلاثة آلاف ذهبوا ضحيّة تلك الوحشيّة. أمّا سبب الحادث فهو أنّ فتنة ثارت ضدّه في أشدّ أيّام الفصح احتشادًا بالناس، فقمعها على طريقة والده وحوّل المدينة إلى نهر جارف من الدماء. وهكذا حمل اللعنة التي حملها والده بسبب قساوة تصرّفه، فأبغضه الشعب، وأرسلوا بعثة إلى روما يشكون أمرهم إلى أوغسطوس.
ولذلك يعود يوسف عن رأيه ويتّجه بأنظاره إلى الناصرة، وكانت هذه واقعة تحت حكم انتيباس. وقد امتاز عن أخيه أرخيلاوس بحسن معاملته للشعب. وكان يفضّل حياة اللهو والمجون على الحكم والإدارة. وقد بنى مدينة طبريّة على شاطئ البحيرة لشدّة ولعه بطيباريوس الابن بالتبنّيّ لأوغسطوس.

إلى الناصرة

وفي الحلم ظهر الله ليوسف وأيّده في رغبته في العودة إلى الناصرة. وبعد مسير أيّام وصل يوسف ومريم ويسوع إلى الناصرة في الجليل، واستوطنت العائلة المقدّسة هناك، ولذلك دُعي الصبيّ ناصريًّا. وكانت كلمة ناصريّ تدلّ عند اليهود في ذلك الوقت على لقب مُزْرٍ بصاحبه، يعادل كلمة "**نَوَري**" عند العرب. فحينما ينسبها القدّيس متّى إلى السيّد المسيح يذكّرنا بنبوءات داود وأشعيا التي سبقت وتنبّأت عن أنّ المسيح سوف يُشتَم ويهان ويُحتقَر.

وممّا لا شكّ فيه أنّ نسبة المسيح إلى مدينته الناصرة وقف مرارًا حائلاً دون انتشار رسالته وتعاليمه: "**هل يخرج من الناصرة شيء صالح؟**" وكان اليهود يحتقرون أهل الناصرة لأنّها واقعة في بلاد جمعت خليطًا من الأمم الوثنيّين واليهود. وبعيدًا عن اليهوديّة وأورشليم كان يخشى على الدين أن يفقد من صفائه وأن يتنجّس برجاسات الأمم والأوثان.

وبهذا يبدأ شكّ اليهود في المسيح وفي رسالته ليبلغ أقصاه عندما رُفع الجليليّ الناصريّ على الصليب.

نصارى

وقد دُعي المسيحيّون في عهد بولس "**نصارى**" على سبيل الاحتقار. ولعلّ بعضًا من غير المسيحيّين إلى اليوم يسمّوننا نصارى ازدراء بنا وتحقيرًا، ولكنّ ذلك فخر لنا. وبولس يقول: "**أمّا نحن فلا نفتخر إلاّ بصليب ربّنا يسوع المسيح**".

غير أنّ أحدًا لم يعُد يشعر بعودتهم إلى البلدة، اللهمّ إلاّ بعض الأهل والأصحاب والجيران من سكّان الناصرة، فإنّهم ليسوا من أولئك الذين ترافقهم الطبول في الحلّ والترحال. إنّ يوسف النجّار وزوجته مريم رجعا يحملان طفلاً جميلاً بعد سفرة دامت بعض الشهور أو سنة ونيّفًا. هذا كلّ ما كان يتداوله آنذاك الذين اطّلعوا على أمر عودتهم.

مدينة الناصرة

والناصرة قرية صغيرة جدًّا، ضائعة في جبال الجليل، لا شأن لها حينئذ في نظر علماء الهيكل ومشايخ المدينة المقدّسة. وهؤلاء لا يعيرون انتباههم إلاّ إلى المدن التي ازدهرت فيها إحدى مدارسهم. ولذلك لا نجد للناصرة ذكرًا قبل الميلاد، لا في النصوص اليهوديّة ولا الوثنيّة.

على أنّ السيّد المسيح نفحها بطابع شخصيّته فأصبحت مدينة عالميّة كإحدى عواصم الدول العظمى، لا يجهلها أحد، ويؤمّها الزوّار المسيحيّون من أطراف الدنيا للتبرّك بتلك الأرض التي درج عليها السيّد المسيح مدّة ثلاثين سنة تقريبًا. وهي واقعة على جبل الجليل بين طبريّا وحيفا. وقد انتشرت منازلها على سفحه الجنوبيّ تشرف على مرج ابن عامر الخصيب. وهي ككلّ المدن الشرقيّة القديمة تخترقها شوارع ضيّقة. ولا يميّزها عن غيرها في الوقت الحاضر سوى العدد الكبير من الكنائس والأديار الرهبانيّة التي شُيّدت على اسم الطفل يسوع أو البشارة أو القدّيس يوسف العامل النجّار. وفيها اليوم

نحو ١٥ ألف نسمة، عدا اللاجئين. وإنّ ما يلفت نظر زوّار الأراضي المقدّسة فيها أشجار السرو الكامدة اللون التي ارتفعت حول أشجار الزيتون والكرمة وحقول القمح.

الدار المقدّسة

في هذه البلدة أقامت العائلة المقدّسة في دار بها عدد من الغرف تحيط بالباحة من جهة ويرتفع سياج حول باقي أطرافها من جهة ثانية.

وتختار العائلة المقدّسة إحدى الغرف الموجّهة نحو الجنوب لسكناها فتفيد من حرارة الشمس في فصل الشتاء البارد، وقد طُليت جدران تلك الغرفة بطينة خاصّة تتجدّد عادة في موسم بعض الأعياد وتُطلى بالكلس. وفي أحد الجدران فراغ أشبه شيء بالخزانة واسع ومرتفع تُجمع فيه الفرش أثناء النهار. وفي إحدى الزوايا وعلى كرسيّ من خشب ركّزت مريم جرّة ماء الشرب. وفي الجدار عند مدخل الباب كوّة صغيرة لسراج الليل وهو قطعة من فخّار مشويّ فيه قليل من الزيت وفتيل.

وفي إحدى الزوايا الداخليّة تجد صندوق الملابس وهو من صنع النجّار يوسف، ولعلّه قد صنعه بمناسبة زواجه، ونقش عليه بعض الرموز والحروف الدالّة على المحبّة الزوجيّة. هنا داخل الغرفة تقضي العائلة ليلتها. أمّا في الفصول الدافئة وخاصّة أثناء الصيف ترى مريم تحمل الفرش وسرير الطفل إلى السطوح لقضاء الليالي تحت النجوم لتتنسّم الأسرة الهواء العليل.

أمّا باقي الغرف فتُستخدم للمؤونة أو لإيواء الحيوان.

مشاغل مريم اليوميّة

وفي باحة الدار تُرى مريم كلّ يوم باكرًا وقد أخذت بين يديها طاحونة قدّت من صخر بازلتيّ وراحت تدير الرحى العليا على الحجر الأدنى فتحوّل القمح إلى دقيق.

ثمّ تركع على الأرض أمام معجن فتحوّل الدقيق إلى عجين. وبينما ترمي القشّ في التنّور يختمر العجين بفضل قطعة من الخمير خلطتها بالدقيق. ثمّ ترقّ بيديها قطع العجين وتلصقها على جدران التنّور بسرعة ومهارة. تلك عادة البلاد. إذ إنّ الأفران العامّة لم تكن مألوفة آنذاك في القرى، وما كنّا نراها إلاّ في المدن. وإلى اليوم تعمل القرويّات الخبز بأيديهنّ.

وكانت وظيفة مريم أن تُهيّئ الطعام اليوميّ لزوجها وولدها. والمأكولات العاديّة هي الجبن والزيتون أو الزبيب والعنب والتين الأخضر أو المجفّف والزبدة واللبن والبيض وأحيانًا السمك من بحيرة طبريّة.

وعند المغيب تحمل مريم جرّتها على كتفها وتذهب لتملأها من عين البلدة وهناك تلتقي بالصبايا من بنات جنسها. وقد سُمّيت العين هذه **"بعين مريم"** إلى اليوم.

وفي الدار أو داخل غرفة السكن تقضي مريم ما فضل من الوقت عن خدمة البيت وزوجها والعناية بطفلها، في غزل الصوف أو الكتّان وفي نسج ملابس أهل البيت وخاصّة نسج ثوب لكلّ منهم. وهو الثوب الذي لن يمرّ فيه مقصّ ولن يخاط به خيط.

الكنيس

وكلّ يوم يذهب يوسف إلى دكّان النجارة، بينما تبقى مريم مع يسوعها في البيت. وكم من مرّة جلست وهو بقربها يراقب حركاتها وهي تصلّي مرارًا في النهار إلى ربّها. أمّا في السبوت فترى العائلة كلّها في ملابس العيد الواسعة الأكمام الفضفاضة الأذيال، تتّجه إلى المجمع أو إلى الكنيس لسماع قراءة للشريعة، ثمّ الإصغاء إلى تعليق على ما تُلِيَ من آيات الكتاب المقدّس لحاخام المعبد أو لأحد الخطباء من المصلّين أو لأحد الضيوف في البلدة. خلافًا لِما يجري عندنا في الكنيسة، فشرح الكتاب المقدّس مقصور على رجال الدين دون سواهم. ثمّ يرنّم المصلّون مجموعة من مزامير الجدّ داود أو أحد المرنّمين الذين حفظ الكتاب لهم أناشيدهم.

حياة الهدوء

وكم كنّا نتمنّى لو سجّل لنا الإنجيليّون أوّل الكلمات التي علّمتها مريم ليسوع وأوّل الصلوات التي كانت تردّدها لابنها كلّ يوم. ويا حبّذا لو عرفنا كلّ ما كان يدور بين الطفل وأمّه من أحاديث في تلك السنوات العشر الأولى من عمره.

ولعلّ صمت الإنجيليّين حول تلك السنوات دفع ببعض المسيحيّين الأتقياء فقدّروا بعقولهم معتمدين على الخيال وليس على الوحي، فنسجوا لنا طفولة للمسيح كلّها عجائب غريبة، وهي أبعد ما تكون عن جوهر الحياة الخفيّة المثاليّة.

وكانت العائلة المقدّسة تقضي الحياة في عزلة الناصرة وهدوئها، بينما كان الاضطراب يخيّم على اليهوديّة وسكّانها، مدفوعين إلى ذلك بالبغض والكراهيّة للرومان، أسياد البلاد منذ ستّين سنة تقريبًا. وكم من ثورة عصفت فاجتاحت في طريقها الأخضر واليابس.

٤٣
الطفل يسوع
"وكان الطفل ينمو"

(لوقا ٢: ٥٢)

في نظر الناس

في نظر سكّان الناصرة كان يسوع الطفل ابن يوسف. وكان الناس يرونه يرافقه إلى دكّان النجارة فيقضي بعض الوقت في نشر بعض قطع من الخشب أو دقّها إلى بعضها بالمسامير. والناظرون إليه يهمسون: سوف يصبح نجّارًا كوالده.

وكانت مريم ترى بأنّ ولدها ينمو يومًا بعد يوم، تتقوّى عضلاته وتشتدّ وكأنّ نسمة من الجمال تنبعث من وجهه وعينيه. فيشعر المتحدّث إليه بجاذبيّة من الطهر والنقاء واللطف تشعّ عن كلّ ملامحه وحركاته.

أمّا سلوكه فلا غبار عليه ولا شائبة. إنّه متحلّ بكلّ الصفات التي يمكن أن يتحلّى بها طفل في هذه السنّ. إنّه كامل الصفات بسلوكه وحديثه ورغباته.

ولكنّه ككلّ بشر يجوع فتقدّم له مريم الطعام ويتعب فتفرش له أمّه السرير وتؤثّر الطبيعة على جسمه الغضّ فتمدّه مريم بالدواء. إنّه بشر كامل. وإنّ مريم ككلّ الأمّهات تندمج في تفاصيل حياة ابنها حتّى يصبح شاغلها الشاغل. وكلّ ذلك تقوم به بولع ما بعده ولع وعطف ما بعده عطف وحنان.

في مدرسة والدته

وكان على مريم أن تسهر على تربية ابنها يسوع. إنّها المعلّمة الأولى لولدها. كما أنّ بيتها مدرسته الأولى أيضًا. وقلبها هو الحافز لها للقيام بهذا الواجب. وضميرها هو الكتاب الذي منه تستمدّ المبادئ والمعلومات لإملائها عليه في حداثته.

لقد علّمته أولّ ما علّمته أن يلفظ أسماء الله: القدّوس، القدير، الخالق، وعلّمته اسم يوسف واسمها واسم بلدته ووطنه. وعلّمته أن يحترم مَن هم أكبر منه سنًّا. فكان ينادي كلّ رجل: عمّو، وكلّ امرأة خالة، كما هي العادة في الشرق منذ أقدم العصور.

أوّل اكتشافاته

وكم كنّا نتمنّى أن نحضر أوّل اكتشافاته لِما حوله من أشخاص أو أشياء أو أن نراه يندهش حينما يقع تحت نظره لأوّل مرّة حمار أو قطّة أو زهرة أو نجم يلوح في السماء أو الشمس عند الغروب أو القمر عند الطلوع. وحينئذ تعلّمه مريم اسم كلّ من تلك الأشياء.

جميل لو أُتيح لنا أن ندخل آنئذ بيت مريم لنراها كيف أخذت يسوع بين يديها وراحت تلاعبه وتداعبه ثمّ تنتبه لكلّ حركة أو ابتسامة تصدر عنه فتشجّعه بقبلة منها تطبعها على وجنتيه أو جبينه أو فمه ليكرّرها ثانية.

في مدرسة البلدة

وفي السادسة من عمره أرسلته أمّه إلى المدرسة التابعة للمجمع أو الكنيس حيث يتلقى الأولاد الصغار الدرس من خادم الكنيس نفسه. وهو القيّم على شؤون المجمع ويُدعى **"نيزان"** وهو كخادم الكنيسة عندنا. والأمر شائع إلى اليوم في بعض القرى أو المدن الصغيرة حيث خادم الكنيسة أو المصلّي يعلّم الأولاد القراءة في غرفة خُصّصت لذلك داخل دار الكنيسة.

هناك جلس الطفل يسوع على الأرض بين مجموعة من الأحداث ليتعلّم مبادئ القراءة والحساب والشريعة الموسويّة. فكنت تسمعهم يردّدون ويكرّرون الآيات حتّى تعلق في أذهانهم بدون خطأ لأنّ الكتاب مقدّس. والتورات وحدها أيّ الخمسة الكتب الأولى من العهد القديم هي التي يتعلّمها الأحداث.

ومريم أيضًا كانت تساعد يسوع على تعلّم اللغة العبريّة لغة أجداده وقد كتبت على ملف من الرق. وأنّ الشريعة فرضت على الأهل أن يعلّموا أولادهم الدين. وكم من مرّة جلست مريم بقرب ابنها وراحت تقصّ عليه أخبار الكتاب المقدّس: قصّة خلق الله للإنسان الأوّل والخطيئة الأصليّة ووعد الله البشر بمخلّص. وهنا يبتسم الطفل لأمّه. وفي اليوم التالي تقرأ وتشرح له بعض آيات لأشعيا النبيّ عن العذراء التي تحبل وتلد ابنًا فيرفع يسوع عينيه إلى أمّه ويبتسم أيضًا. وهكذا كلّ يوم قصّة وكلّ يوم نبوءة تتلوها عليه وتشرحها له.

وإنّ قلب مريم ليطفح بالغبطة والفخر كلّما بدت على ابنها شدّة البديهة أو سرعة الخاطر والروح الطيّبة التي يقبل بها معنى الحياة وخاصّة تقواه ومحبّته واحترامه للجميع ثمّ طاعته ليوسف ولها.

ولا أخال يسوع الصغير يبخل على أمّه في قضاء بعض الحاجات كشراء غرض من السوق أو إيصال غرض إلى يوسف.

يسوع الطائع

ولقد قال القدّيس لوقا بناء على شهادة مريم ذاتها أنّ يسوع **"كان خاضعًا لهما"** (لوقا ٢: ٥١)، على الرغم من أنّه أحقّ بطاعة والديه له وخضوعهما لأوامره، إذ أنّه ابن الله وكلمته. ولو فرضنا جدلاً أنّ الرئيس يُطاع لأنّه أكثر دراية وأوسع علمًا وأعمق فهمًا لقلنا بأنّ يسوع أحقّ بالطاعة لأنّه يفوق والديه دراية وعلمًا وفهمًا. ومع ذلك فهو يطيع ولأسباب عديدة:

أوّلاً- ليفهمنا شرّ التمرّد والمعصية. وقد كتب بولس الرسول **"أنّه بمعصية إنسان واحد جُعل الكثيرون خطأة"** (روما ٥: ١٩).

هكذا يعود الإنسان الجديد فيسلك طريق الطاعة، الطريق التي ابتعد عنها آدم الأوّل **"بطاعة واحد يُجعل الكثيرون أبرارًا"** (روما ٥: ١٩). وما أكثر الأمثلة عن منافع الطاعة والخضوع!

ومن المتعارف في العالم أنّ الولد الطائع يكبر في نظر والديه والصانع يتعلّم المهنة باتّباعه إرادة معلّمه. والطالب بانتظامه للبرنامج المدرسيّ. أمّا البشريّة فلا تعود إلى النظام إلاّ في الطاعة لله.

والسيّد المسيح يعلّمنا أسمى معاني الطاعة في سبيل الله. وأنّنا إذ نتأمّل بحياة المخلّص يأخذنا العجب كلّ العجب: إله يطيع امرأة وامرأة لها حقّ الطاعة على الله.

وفي الناصرة يخضع يسوع ويطيع مَن هو صاحب الحقّ بالأمر والنهيّ الشرعيَّيْن، ذلك أنّ المخلّص يأبى أن يرى في أمر الرئيس صوت بشر، إنّها فقط إرادة الله.

وهكذا يبيّن لنا بطاعته أنّ لا سلطة إلاّ من الله وأنّ لا شريعة إلاّ حبّ الله وأنّ لا حوادث وإقدار بل مظهر بشريّ تختفي وراءه إرادة الله.

ولمّا دخل العالم قال: **"هاءنذا جئت لأعمل بإرادتك يا الله"**. (عبرانيّين ١٠: ٧).

وغدًا يموت على الصليب لا لشيء إلاّ لأنّه يحبّ الآب. وحبّ الآب يدفعه لعمل إرادته. وإرادة الآب أن يموت لأجل الفداء **"يجب أن يعرف العالم أنّي أحبّ الآب وأنّي أعمل بما أوصاني"** (يوحنّا ١٤: ٣١). والعالم ينتعش بعد موته بهذا الروح البنويّ **"وبهذه المشيئة قد قدّسنا نحن"** (عبرانيّين ١٠: ١٠) **"ومع كونه ابنًا تعلّم الطاعة بما تألّم به"** (عبرانيّين ٥: ٨). وفي الجسمانيّة سوف يصرخ **"لا مشيئتي بل مشيئتك يا الله"** (لوقا ٢٢: ٤٢).

هذا الرجل الإله تعلّم الطاعة وتمرّن عليها يوم كان طفلاً في الناصرة في مدرسة والدته القدّيسة مريم.

ما علق بذهنه عن الطفولة

أمّا عن الطفل والطفولة فلن ينسى المخلّص تلك الدروس التي تعلّمها في حداثته وهي أنّ الطفل ملاك ببراءته يعيش على الأرض بين رجال بلغوا عهد الخطيئة وخسروا سعادة عهد الطفولة البريئة الساذجة الذي فيه لم يتلوّث القلب.

وإذا أراد يومًا أن يبيّن قيم الأشياء في العالم الجديد الآتيّ دلّل عليه بنوع رمزيّ: أخذ طفلاً ووضعه في وسط سامعيه وقال لهم: **"الحقّ أقول لكم مَن لا يتحوّل في قلبه إلى براءة هذا الطفل لا يدخل ملكوت السموات"** (متّى ١٨: ١- ٥). وهكذا بيّن أنّ مقياس الحياة المقبلة هو عكس ما هم عليه الرجال في هذا العالم من طموح وطمع وادّعاء.

ويبارك السيّد المسيح الله الآب لأنّه كشف الحقّ للأطفال بينما ابتعد عنه البالغون المدّعون بالحكمة والفطنة (متّى ١١: ٢٥- ٢٦). وقد نوّه السيّد المسيح عن واجب الصلاة والتقرّب من المناولة والطاعة ومعرفة مبادئ الديانة والتعليم المسيحيّ.

وبيّن السيّد المسيح مرّة أنّ في الطفولة رمزًا إلى الضعف والحاجة لأنّها العهد الذي فيه يتفتّح الإنسان على الدنيا ويختبر الأشياء ويأمل بالمستقبل فقال: **"مَن قبل صبيًّا مثل هذا الصبيّ باسمي فقد قبلني"** (متّى ١٨: ٥) أيّ أنّ مَن سند ضعيفًا عاجزًا إكرامًا لله فقد رأى المسيح مكان ما في نفس الصبيّ من نقص وفراغ.

وهكذا يقلب السيّد المسيح سلّم المفاهيم نحو الطفل. فالطفل ليس الزهرة التي تتفتّح ولا الحياة الناشئة ولا الشخص الذي تعقد عليه آمال المستقبل ولا بالطبع الدمية اللطيفة نقضي معها بعض الوقت تسلية وقتلاً.

إنّ المسيح يستخلص فكرة واضحة عن الطفل: إنّه المسيحيّ الذي يكتمل. ذلك أنّ المسيح لم يقدّم حياته فدية للبالغين دون الأطفال. لقد مات من أجل الجميع. فمَن التقى بطفل التقى بالسيّد المسيح الذي مات فدية عنه.

وبيّن مرّة ثانية أنّ مَن يعتدي على الطفل يعتدي على المسيح بالذات. إنّه محاميه والذائد عنه: **"مَن يشكّك أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي، فحريّ به أن يعلّق بعنقه رحى الحمار ويُزجّ في أعماق البحر"** (متّى ١٨: ٦) **"وإيّاكم أن تحتقروا أحدًا من هؤلاء الصغار فإنّي أقول لكم: إنّ ملائكتهم في السماوات يشاهدون بلا انقطاع وجه أبي الذي في السماوات"** (متّى ١٨: ١٠).

الملاك الحارس

وهذا النصّ هو من النصوص الإنجيليّة البارزة التي تتحدّث عن الملاك الحارس الذي أعطاه الله للإنسان ليحفظ له كنـزه المقدّس.

إنّ الطفل أعزل لا يقوى على الدفاع عن نفسه ضدّ البالغين. لا يستطيع أن ينافس الماهرين والمحنّكين ودهاء المجرَّبين وخاصّة أنّه أضعف من أن يقف أمام الأردياء وذوي النفوس المنحطّة، الذين يخدّشون النفوس البريئة ويعكّرون الأفكار السليمة، الذين لا يقيمون وزنًا للحياء والحشمة. إنّ الأطفال أمامهم عاجزون عن الدفاع. ولكنّ المسيح هو متراسهم وسلاحهم والمنتقم لهم.

ومن المؤسف أن تشوّه صورة الملاك الحارس على مدى الأجيال. لقد صوّروه لنا مراقبًا للطفل يقيه شرّ الوقوع في نهر أو لدغة حيّة. وفي الواقع شأن الملاك الحارس أعظم وأروع. إنّه أوّل خليقة الله. وإنّ منظره هائل، حتّى أنّه حينما يبدو للبشر يصرخ لا تخافوا كأنّه يهب القوّة لتحمّل رؤيته. نعم لقد قلّده الله مهمّة الحفاظ على كلّ ما هو مقدّس في الإنسان. هو الذي يحمي الإنسان ضدّ الأخطار الروحيّة والمرض والموت.

ولكن هنالك ما هو أهمّ. فالسيّد المسيح يحذّر: "إيّاكم أن تمسّوا ما هو مقدّس في الطفل. من ورائه يقوم ملاكه الحارس الذي يرى الله. أيّ أنّ وراء الطفل يقوم الله. فإذا ما اقتربتم كثيرًا منه التقيتم بشيء ينتهي مباشرة في سرّ الله.

وبيَّن مرّة ثالثة أنّ مَن لا يتشبّه ببراءة الطفل يُحرم من الحياة الأبديّة وذلك حينما تقدّم إليه تلاميذه وسألوه عن الأعظم في ملكوت السماوات "**فدعا صبيًّا وأقامه في وسطهم وقال الحقّ أقول لكم إنْ لم ترجعوا وتصيروا مثل الصبيان فلن تدخلوا ملكوت السماوات**" (متّى ١٨: ١- ٥).

الطفل إذًا هو رمز البراءة وهو القاعدة الأساسيّة التي تقود متّبعها إلى الملكوت. ومن المؤسف أن يُستغلّ هذا النصّ الرائع لنوادر صبيانيّة. ولذلك نرى أن نتوقّف عنده لنستوضح معانيه العميقة.

ميّزة الطفل

فما هو الشيء الذي يمتلكه الطفل ولا نراه عند البالغ وبه ينال ملكوت السماء؟ بالطبع ليس جمال الطفل الغضّ. لكلّ سنّ جماله. وليس من شأن السيّد المسيح أن يهتمّ لأمر كهذا.

يريد السيّد المسيح أن يعلّمنا أن نكون كالأطفال الذين لا يتصنّعون وليس لهم أفكار متحجّرة ولا تشغل بالهم تلك الأفكار المقلقة حول تقدير شخصيّتهم أو منافسة ومضاربة غيرهم.

الولد غير مغلق على نفسه ولا منكمش على ذات شخصه بل يفتح نفسه وقلبه لكلّ شيء وهذا ما يجعله أن يكون في نظر المسيح مثالاً. لأنّ الدعوة التي جاء يحملها إلى العالم بحاجة إلى أحياء يتقبّلون لا إلى مومياء محنّطة.

حين يسمع البالغون عبارة: **"ملكوت السماوات"** ينفرون، لأنّهم بعد أن يقابلوها مع ملذّاتهم ونواياهم يجدون بأنّها لا تصلح ولا تتّفق معها. إنّ كبرياءهم تثور وتعنّتهم يأبى الاستسلام. ولذلك يصعب بل يستحيل عليهم فهم ملكوت السماء. لقد أُعميت عيونهم وصُمّت آذانهم عن الحقيقة والمعرفة وبالتالي عن الوصول إلى ملكوت السماء.

من هؤلاء الذين تحجّرت عقولهم وقلوبهم الشعب اليهوديّ والفرّيسيّون وعلماء الناموس والكهنة ورؤساء الكهنة في الهيكل. إنّهم من البالغين. فتراهم يعترضون على كلّ قول من أقوال السيّد المسيح محتجّين بالشريعة والهيكل والتقاليد. ولهذا ما زالوا إلى اليوم يترقبون مجيئه **"ولكنّ النور جاء إلى الظلمة والظلمة لم تدركه"** أيّ بقيت متأخّرة عنه. وما دام الشعب اليهوديّ يعيش على ماضيه فهو أولى بالأهرام والنواويس حيث المومياء والأموات والرماد.

أمّا الطفل فهو بريء النظر. إنّه على استعداد لتلقّي الجديد والمستحدث وأن يتطلّع إلى البعيد وأن يشعر بالجوهر وأن يتقبّله بدون سابق معرفة أو قرار؟

ولكن قبل أن نتحوّل إلى أطفال علينا أن نتجرّد من ثوب الماضي البالي القذر الذي لبسناه حينما رحنا نجرّب ونختبر غير الله. وفي المرحلة التالية علينا أن نتعرّف إلى الله أبًا لنا. علينا أن ننتظر كالطفل كلّ شيء من الله أبينا وأن نراه في كلّ مكان وفي كلّ شيء ووراء كلّ ما يحدث لنا.

إنّ الوالدَيْن في نظر ولدهم الطفل هم مصدر كلّ خير. بينما البالغ لا يعتمد إلاّ على نفسه وإمكانيّاته.

فالطفولة المسيحيّة إذًا هي أن نرى في كلّ حدث إصبع الآب السماويّ.

وأظنّ أنّها لحكمة سامية ألاّ يعتبر الإنسان نفسه بالغًا إلاّ إذا كان طفلاً بين يديّ الآب السماويّ.

٤٤
في الثانية عشرة من عمره

أخطاء الأناجيل المحرّفة

لقد حاول أصحاب الأناجيل المحرّفة أن يسدّوا الفراغ الشاغر الذي تركه الإنجيليّون الأربعة الرسميّون المعترف بهم شرعًا من قبل الكنيسة. وقد أمعنوا في خطئهم حينما نسبوا ما كتبوه إلى الرسل أنفسهم وكان أحد الدلائل على انتحال تلك الكتب وتحريفها.

نعم في تلك الكتب من الفوائد ما لا ينكرها أحد لأنّ كاتبيها هم من الأشخاص الذين وُلدوا وعاشوا في مكان الحوادث وهذا ما أضفى على كتاباتهم ظاهر الحقيقة والواقع، فكسبت مؤيّدين من خارج الكنيسة.

بيد أنّ عملهم جرّ عليهم أقصى الملامة، لأنّه أساؤوا إلى الكتب المقدّسة وإلى الوحي وإلى المسيح بالذات، إذ أنّهم أثاروا الشكّ حول الأناجيل الرسميّة ذاتها. وكان الأفضل لهم لو أنّهم وضعوا تلك الكتب ونسبوها لأنفسهم أو للجيل الذي عاشوا فيه وبيّنوا أنّها من وضع أشخاص عاشوا في أرض فلسطين فيكسبهم ذلك صفة الشاهد العيان، شريطة أن

يتقيّدوا بما اطّلعوا عليه شخصيًّا أو التحقيق بما نقله إليه مواطنوهم. ولكنّهم أبوا إلاّ أن يتخيّلوا حوادث ألبسوها صفة الواقع وخاصّة عن عهد الطفولة المسيح حيث التزم الإنجيليّون الأربعة جانب الصمت فراحوا يلفّقون ويحيكون من نسيج خيالهم قصصًا باهرة ينسبونها إلى المسيح الطفل.

الإساءة إلى رسالة المسيح

أراد الله ألاّ تختلف حياة المسيح عن باقي البشر بشيء قبل أن يعتلن للعالم ولذلك كان لا بدّ من ترك الخوارق التي تخيَّلها واضعو الأناجيل المحرّفة ونسبوها إلى المسيح سيّما التي ذكروها عن الأيّام التي قضتها العائلة المقدّسة في مصر أو عن أيّام طفولته في الناصرة وإلاّ لظهرت طبيعة المسيح البشريّة خيالاً في عقول البشر. ومن المقرّر أنّ المسيح لم يفتد البشريّة إلاّ بالآلام التي تحمّلها بالجسد. ومن المؤسف أن تترك الأناجيل المحرّفة في عقول الناس أفكارًا رأت في المسيح الروح دون الجسد واللاهوت دون البشريّة. فعلق بأذهان الناس ما علق، الأمر الذي حمل بعض المسيحيّين على الإنفصال عن الكنيسة الأمّ. وانطبعت تلك الأفكار في أذهان بعض الشعوب التي كانت تعيش في نفس البيئة فأنكروا على أن يكون للمسيح جسد كامل على مثالنا وأنكروا عليه أن يموت بالجسد فادّعوا: **"إنّه لم يصلب بل شُبِّه به"**. مع أنّ المسيح كان إنسانًا كاملاً وإلهًا كاملاً وهذا الإله الإنسان هو مخلّص البشر.

موقف الكنيسة

وأنّ الكنيسة الساهرة على الكتاب سهر الإنسان على حدقة عينه والأمّ على ولدها الوحيد تنبَّهت للأمر منذ قرون وفرزت الكتب القانونيّة عن الكتب المحرّفة. ومع ذلك فالكنيسة التي تنكّرت لنسبة هذه الكتب إلى الرسل وإلى الوحي لم تنكر على بعض ما ورد فيها صفة الحقيقة والواقع. من هذه الأناجيل المحرّفة إنجيل برنابا وإنجيل بطرس وإنجيل يعقوب الذي اعتمدناه أكثر الأحيان في كتابنا هذا. لأنّ صلوات الطقس اعتمدته وردّدت ما جاء فيه بتقريظها العذراء مريم.

عظمة الحياة الخَفيّة

أمّا أناجيلنا الأربعة المقدّسة فقد التزمت صمتًا عميقًا أملاه عليها إبراز شخصيّة المسيح فوق كلّ شخصيّة أخرى مهما سَمَتْ. والإتجاه اليوم أن يرى الكتّاب وعلماء اللاهوت في هذا الصمت إصبع مريم العذراء بالذات التي هي وحدها كانت تستطيع أن تملأ هذا الفراغ لأنّها أمّ يسوع ورفيقة حياته. بيد أنّها لم تفعل لأسباب:

أوّلها إبراز ما في الحياة الخَفيّة من قيمة ووزن على النفوس المحبّة للاختلاء والتأمّل والعبادة الصامتة.

وثاني تلك الأسباب أن تبيّن ما لتلك الحياة الهادئة من أثر على الأجيال التالية حيث تنشأ الحياة الرهبانيّة التي سعت إلى أن تتشبّه ببيت الناصرة.

وثالث الأسباب أن تبرز من حياة المسيح ما يدعم رسالته السماويّة وعمل الخلاص والفداء. ورابعًا وأخيرًا لتختفي هي، عن تواضع، وراء ذلك الصمت؛ وكان بإمكانها، بحكم أمومتها، أن تظهر صاحبة الدور الأساسيّ والأوّل.
ولم يخرج الإنجيل المقدّس إلاّ مرّة واحدة عن هذا الصمت بحادث عجيب رواه لنا عن الطفل وهو إذ ذاك في الثّانية عشرة من عمره. وقد سرد الحادث القدّيس لوقا (٢: ٤٠- ٥٢) وهو حادث تخلّفه عن والديه وبقائه في الهيكل بين العلماء يسألهم ويجيبهم.

يسوع اليافع

بهذا الحادث الطريف ينقلنا الإنجيليّ من حياة المسيح الطفل إلى حياة المسيح اليافع. فيختتم أحداث الطفولة بعبارة **"وكان الصبيّ ينمو ويتقوّى ويمتلئ من الحكمة وكانت نعمة الله عليه"** (لوقا ٢: ٤٠) ثمّ يسرد حادث الهيكل.

شريعة الحجّ

من المقرّر أنّ الشريعة فرضت الحجّ إلى أورشليم ثلاث مرّات في كلّ سنة طقسيّة وذلك بمناسبة الأعياد الكبرى الثلاثة العنصرة والمظال وخاصّة في عيد الفصح (خروج ٢٣: ١٤- ١٧).
والفريضة واجب على كلّ إنسان شريطة ألاّ تكون المسافة عن القدس أكثر من مسير يوم واحد. ومع ذلك فقد جرت العادة، خاصّة بمناسبة الأعياد الفصحيّة، أن تتّجه جموع كثيرة من المقيمين والمهاجرين اليهود إلى المدينة المقدّسة للإشتراك في الأعياد المقدّسة في هيكل سليمان.
ومن الطبيعيّ أن يكون يوسف ومريم أمينَيْن على التردّد إلى بيت الله في تلك المواسم الدينيّة بدليل ما اشتهر عنهما من تقوى.
وكانت الشريعة تستثني النساء من واجب الخضوع لها. غير أنّ مريم كانت توَّاقة دومًا لزيارة الهيكل حيث قضت ردحًا من أيّام الطفولة والشباب.
واتّفق في تلك السنة أن أكمل يسوع الحادية عشرة من عمره ودخل في الثّانية عشرة. فأصبح بذلك خاضعًا للناموس في كلّ أوامره ونواهيه بالرغم من أنّه هو ربّ الشريعة وواضعها.
ولا بدّ من أنّ يسوع كان يرافق يوسف ومريم في السنين السابقة. ويذكر التلمود، وهو مجموعة التقاليد اليهوديّة، أنّ بعض الأولاد لم يتجاوزوا الثالثة من العمر يحملهم والدوهم على أكتافهم إلى الهيكل في المواسم. وغيرهم في الخامسة يمسكهم أولياؤهم بأيديهم ويساعدونهم لإرتقاء درجات باب نيكانور. أمّا يسوع في هذه المرّة فقد صعد مع الجماعة لإتمام واجب شخصيّ. والحادث مثير ومنبّه له ولكلّ يافع من أمثاله.
وكان الهدف مزدوجًا: زيارة الهيكل وتقديم القربان المفروض على الأسرة.
ويُحتفل بعيد الفصح في كلّ سنة في شهر نيسان. ويقع أوّل يوم للعيد في ١٤ منه. فكان على الصاعدين إلى العيد من سكّان الناصرة، لكي يتمكّنوا من الوصول يوم ١٤

نيسان إلى القدس، أن يغادروا بلدتهم في اليوم العاشر. وقد تستغرق الطريق ثلاثة أو أربعة أيّام سفر لا غير إذا ما أتبعت القافلة طريق السامرة وهي الطريق الأقصر.

قافلة الحجّاج

والعادة أن تتمّ السفرة بشكل قافلة تقطع الطريق على مراحل وأشواط وهي تنشد بعض المزامير (١٢١- ١٣٤) وهي أناشيد المراثي. وقد نُظّمت لحثّ الخطا في الطريق حتّى بلوغ المدينة المقدّسة: **"فرحت بالقائلين لي إلى بيت الربّ ننطلق وقد وقفت أقدامنا في أبوابك يا أورشليم. أورشليم المبنيّة كمدينة ملتئمة ذات اتّحاد"** (مزمور ١٣١).

وقد خرجت القافلة في تلك السنة من الناصرة، وفيها شأنها في كلّ عيد، الرجال والنساء الركب والمشاة، وكلّما تقدّمت باتّجاه المدينة المقدّسة انضمّت إليها جماعات من قرى الجليل ومزارعه حتّى تصبح كالسيل المنحدر في الشعاب أو كأنّه شعب زاحف في هجرة.

وكنت ترى النساء يَسِرْنَ جماعات والرجال جماعات والأولاد يتنقّلون رائحين غادين بين الفريقَيْن.

في المدينة المقدّسة

وقطع يوسف ويسوع الطريق سيرًا على الأقدام بينما كانت مريم على ظهر حمار. حتّى إذا ما قطعت القافلة المراحل المتعدّدة انتهت إلى المدينة المقدّسة حيث اندمجت بباقي القوافل الآتية من كلّ حدب وصوب. وهكذا تزدحم بهم المدينة وتعجّ الشوارع بالمارّة. ويحلّ البعض منهم ضيوفًا على مَن لهم من الأهل والأصدقاء وينتشر الباقون في الشوارع والساحات وفي أطراف المدينة وحولها وعلى التلال والروابي المحيطة بها.

وتنتصب الخيام في السهول والبطاح. يرتفع منها ثغاء الغنم وخوار الماشية التي جيء بها للذبائح.

وأثناء الرحلة جرى كلّ شيء على ما يرام وضمن التقاليد المعروفة دون ما حادث مكدّر أو غريب حتّى بلوغهم مدينة القدس.

في الهيكل

ومنذ صباح يوم ١٤ نيسان راحت الجموع تتدفّق موجات متتالية تدفّق الأمواج على الشاطئ داخل أروقة الهيكل وباحاته.

وقد فرضت طقوس معيّنة للاحتفال بالعيد. ففي اليوم الأوّل يُؤكل الحمل والخبز الفطير ويُشرب الخمر ويذوق الحجّاج من المرق العندميّ.

وفي يوم ١٥ نيسان يحضر المصلّون في الهيكل تقدمة الذبائح. وفي ١٦ يشتركون في تقدمة البواكير من الحصاد.

وما أن تنشد آخر هليلويا حتّى يحين موعد العودة.

وأنّ الإنجيل المقدّس لا يجد ما يزيد على ذكر الحادث شيئًا لأنّ الطقوس معروفة لا يجهلها أحد. فيقول: **"ولمّا انقضت الأيّام"** أيّ بعد أن قضت العائلة المقدّسة في المدينة الأيّام السبعة المكرّسة لعيد الفصح والفطير أو حالاً بعد تقدمة القربان انضمّت إلى أوّل قافلة ترتدّ نحو الناصرة.

العودة

وتحرّك قافلة الحجّاج للعودة أشبه شيء بانطلاق الفلاّحين للحصاد: الإزدحام والفوضى يعكّران الجوّ. كلّ يسعى لجمع أغراضه وأخذ مكانه من القافلة: النساء يتجمّعن من جديد على بعضهنّ والرجال يرفعون الحزم على ظهور الحيوانات ويتناولون المقاود ويندفعون في الطريق.

في هذه الغمرة من الإزدحام يتخلّف عن الرحل مَن يتخلّف ويتوارى عن العيان مَن يتوارى دون أن يلفت في بادئ الأمر نظرًا. ولا يعود الهدوء ويلتفّ الشمل ويصحو الناس إلاّ عند بلوغ أوّل محطّة فتأوي كلّ عائلة إلى زاوية من الخان لتأخذ نصيبها من الراحة.

حادث مريع

وحدث ما لم يكن في الحسبان إذ التقت مريم بيوسف ولم يجدا يسوع. فقد كانت مريم تظنّ أنّ الصبيّ مع يوسف كما كان يوسف يظنّ أنّ الصبيّ معها. كانا عند تحرّك القافلة قد لاحظاه يسعى فيما بينهما. ومن المرجّح أنّهما تفقداه عند موقف مدينة البيره وهي على بُعد ١٥ كيلو مترًا من القدس. ولمّا كان الرجال يسيرون في مقدّمة الموكب والنساء يسرن في المؤخّرة في ركب آخر فقد اطمأنّا إلى وجود الصبيّ مع أحدهما ولم يتفقّداه عند انطلاق القافلة. أمّا الآن وقد اجتمعا فهالهُما فقدانه وكانت تلك اللحظة مريعة أثارت الهواجس في نفس مريم ويوسف ولكن ما العمل وقد مال النهار وظلام الليل يحول دون الرجوع إلى القدس. فلا بدّ من انتظار الصباح التالي للعودة. وما انبلج فجر اليوم التاليّ حتّى كان الوالدان على الطريق يسألان كلّ مسافر عن الصبيّ بين الجماعات المرتدّة إلى مواطنها. ولم يوقفا في مسعاهما إلاّ في اليوم الثالث من مغادرتهما المدينة المقدّسة، فوجداه.

بين العلماء

كان، في كنيس الهيكل، حيث يجتمع العلماء بطلاّبهم في شكل حلقات تحيط كلّ منها بمعلّم أو ببعض المعلّمين للناموس ومنهم الفرّيسيّ والكاتب والكاهن ومنهم السائل والمجيب والمعلّم والتلميذ.

وكان يسوع قد انضمّ إلى إحدى تلك الحلقات وجلس في مصافّ المعلّمين والعلماء مثلهم عاليًا على أحد المقاعد بينما جلس باقي الطلاّب على الأرض.

وأجازت العادة أن يُسمح للأحداث بأن ينضمّوا إلى إحدى الحلقات وأن يلقوا بعض الأسئلة.

وكان يسوع يصغي ويسأل. ويسجّل الإنجيليّ بأنّ المسيح أثار إعجاب مستمعيه بأسئلته وأجوبته. إنّهم لنفر قليل أولئك الذين في المناظرات الدينيّة أو العلميّة أو السياسة يتقنون فنّ الإصغاء والإجابة.

فرحة اللقاء

لدى رؤيته هدأت عاصفة القلق من نفس مريم ويوسف وحلّ مكانها الفرح والدهشة. إنّها فرحة اللقاء مشوبة بغصّة الفراق.

بين الأمّ والابن

واقتربت منه أمّه وقالت له بعبارة جمعت بين التعجّب والملامة: **"يا بنيّ لِمَ صنعت بنا هكذا؟ ها إنّ أباك وأنا كنّا نطلبك متوجّعَيْن"**.

سؤال ينبعث عن نفس محبّة ملوّعة لا يدرك مداه إلاّ أمّ محبّة ملوّعة. وما كنّا ندرك ما هي مريم الأمّ لولا أنّها شعرت في هذا الظرف بالذات بمثل هذا الشعور وقالت مثل هذا القول.

فأجاب الطفل: **"ولِمَ تطلبانني؟ ألم تعلما أنّي ملتزم بشؤون أبي؟"**.

جواب لا يُنتسى ولا يُبتدع. ولا أوقع على النفس كتوقّف العقل دون تفهّم بعض الأمور. فيتردّد صدى تعقيدها في الضمير تردّد أصداء الأجراس عند الغروب في الغابات والوديان.

جواب يفوق سنّ الطفل بل أنّه يخرج بالطفل هذا ولو إلى حين من الحياة الخفيّة التي توارى وراءها إلى الظهور على طبيعته وحقيقة رسالته أنّه ابن الله مخلّص العالم.

الكشف الأوّل

إنّه أوّل إعلان عن تلك الشخصيّة والرسالة وقد أدركهما منذ اللحظة الأولى ولن يتلمّس له في الحياة طريقًا غيرهما.

ولقد وقع الجواب على مريم وقوع الصاعقة فأذهلها. ويقول الإنجيل المقدّس بأنّهما **"لم يفهما الكلام الذي قاله لهما"**. بالطبع لا يقصد الإنجيليّ بهذه الملاحظة الخاطفة أنّهما لا يفهمان مطلقًا ما أراد المسيح بجوابه. إنّ مريم ويوسف يدركان جيّدًا بنوّة يسوع الإلهيّة فلا تخفى عليهما معرفة الآب الذي يلتزم بشؤونه ولكنّهما يجهلان فقط حتّى تلك الساعة طبيعة رسالته. وموعد البدء بها هو الذي خفي عن معرفتهما ليس إلاّ. ذلك ما سعت إليه البتول إذ كانت تلقّنه دومًا أنّ الله أب وأنّ أوّل ما يتوجّب على الإنسان أن يلتزم شؤون هذا الآب وعمل إرادته قبل وفوق كلّ إرادة بشريّة. ومريم لا تنفكّ قط عن التزام تلك الإرادة في حياتها كلّها. لأنّ الله ما أوجد البشريّة إلاّ لعمل إرادته. وهل تستطيع مريم أن تجهل ذلك المبدأ وتلك الغاية؟ ثمّ إنّها كانت حفظت معاني الكتاب فهي

تعرف بأنّ ولدها هو المسيح المخلّص الذي يُدعى ابن الله. فكانت تستطيع أن تستخلص بأنّ ابنها هو لله، قبل أن يكون لأيّ شخص آخر. كانت تجهل فقط متى تمكّن ولدها من اتقان أصول البحث والجدل وهو ما يزال في الثانية عشرة من عمره.

وكم كنّا نتمنّى أن نعرف ما هي المواضيع التي جرى عليها البحث. ولكنّ الإنجيليّ يفضّل الكتمان.

على كلّ حال إنّ أفكار المسيح تخالف تمامًا أفكار الفرّيسيّين والشعب اليهوديّ ذاته في كلّ ما يختصّ بشخص المسيح ورسالته لأنّهم **"لم يفهموا الكتب"**.

وحينما يرضى علماء الناموس أن ينازلوا طفلاً في أمر الكتّاب إنّما في نظرهم ذلك عطف من جهّتهم عليه. فيتعجّبون إعجاب المثقف من أمّيّ تبدر عنه علائم النباهة الطبيعيّة. فلا يضيرهم أن يناقشهم هذا الطفل ويقارعهم الحجّة بالحجّة وهذا ما يدفع بالخوف إلى قلب والدته فتخشى عليه من شرّ العلماء وخبثهم ودهائهم ولمّا يمض بعد على كلمات سمعان زمان طويل وصداها ما يزال ينغّص عليها مرقدها ويسهد لياليها.

وأنّ مريم لتعتقد بأنّها أسمى من أن تزيح بحركة يد ذلك الكابوس عن مخيّلتها. ولذلك **"تحفظ في قلبها"**.

وحينئذ ارتدّا من القدس والولد معهما. وجاؤوا الناصرة **"وكان خاضعًا لهما"** وبهذه العبارة يبعد الإنجيليّ كلّ شكّ في وضع الولد بالنظر لوالديه. فإنّه بالرغم من شخصيّته وذكائه ورسالته لا يتنصّل من واجبه البنويّ بل يخضع لهما لأنّ الطاعة واجب عليه وحقّ لهما.

الطفل ينمو

ويعود القدّيس لوقا ليؤكّد مرّة ثانية حتّى تنطبع الكلمة في نفس قارئيه: **"أمّا يسوع فكان ينمو في الحكمة والقامة والنعمة أمام الله والناس"**.

نعم لقد خرج المسيح من سنّ الطفولة وأصبح يافعًا. له في المجتمع شخصيّة ويتحمّل مسؤوليّات. ويثبت تلك الشخصيّة ويتحمّل المسؤوليّات بجرأة فيعلن أمام والديه والسامعين أنّه ملتزم بشؤون أبيه. والله هو أبوه كفرد وكواحد من الأمّة.

وهكذا سمعنا من فم يسوع أوّل كلمة وأوّل كشف عن ضميره. وسؤال مريم لابنها بهذه البساطة أوضح عظمة الرسالة الفائقة الطبيعة التي جاء يحملها.

وينمو الصبيّ في أحضان والديه وفي ظلّهما. فليس المسيح إذًا ذلك الولد الذي يجترح الخوارق الباهرة في تلك الفترة من حياته كما أراد أن يصوّره لنا أصحاب الأناجيل المحرّفة. إنّه ينمو في الحكمة والقامة والنعمة نموًّا طبيعيًّا.

في الحادث عبرة عميقة سوف يتّخذها بعض المسيحيّين لهم مبدأ حياة وهي أنّ مَن أراد أن يتبع المسيح لا بدّ له من أن يتخلّى عن كلّ علاقة مهما كانت عزيزة عليه وأن يضحّي بكلّ غال في سبيل المعلّم.

الجزء السابع

٤٥
المحبّة الوالديّة

يجوز لنا، بعد أن سردنا هذه المجموعة الكبيرة من الأحداث التاريخيّة واستخلصنا منها العبر المفيدة لحياتنا الروحيّة، أن ندخل بيت الناصرة حيث ننفذ إلى قلب مريم فنراقب ونصغي ونسجّل.

سيّدة ميولها

إنّ المحبّة المطلقة الكاملة تبقى على هذه الأرض لجميع التوّاقين للكمال قمّة يقف دونها أبطال تسنم الجبال الشاهقة، عدا مريم، فإنّها أشبه شيء بالنسر تسمو إليها بضربة جنح واحدة. فحينما يأمر الله في وصيّته الأولى الإنسان أن "**أحبب الربّ إلهك من كلّ قلبك وكلّ نفسك وكلّ قوّتك**" إنّما يضع أمامه مثالاً أعلى أكثر منه برنامجًا للحياة. أمّا مريم فتتمّم الوصيّة كاملة وبالحرف الواحد.

فإنّها تحبّ حتّى تذوب جميع قواها وإمكانيّاتها بل لا تترك مجال زيادة لمستزيد. والذي يساعدها على ذلك أنّها سيّدة مطلقة على كامل قواها وميولها وحواسها وقد حوّلتها كلّها إلى آلات تضرب ألوانًا من الحبّ.

وإنْ كان الإنسان يشتّت قواه بين مواضيع كثيرة، فليس لمريم في حبّها إلاّ غاية واحدة وقّرت للوصول إليها كلّ الأسباب. وقلب مريم مخدع حيّ حُجز لله وحده. وليس كقلب الإنسان من هيكل مقدّس يحوّله إذا ما انحرف إلى فندق يتلقّى كلّ طارق.

وقد عرفت مريم كلّ ألوان الحبّ الطاهر البريء. عرفت الحبّ البنويّ والحبّ الأخويّ والحبّ الزواجيّ وحبّ الأصدقاء. ولكنّ كلّ ذلك كان في سبيل الله.

حبّها لولدها

غير أنّ حبّها الوالديّ فاق كلّ ما عرفت من ألوان الحبّ. فحبّها لابنها يسوع كان بدهيًّا، داخليًّا، نزيهًا، لطيفًا، أمينًا وثابتًا.

قبل حادث البشارة كانت مريم تُحبّ الله إله آبائها من كلّ قلبها، ولكن حبّها هذا مهما سما فقد كان يخامره الخوف والرعدة، إنّه حبّ اليهوديّ لربّه، حبّ نقّذ العبادة والطاعة للربّ الصباؤوت الربّ العظيم القدير، ربّ الجنود، حبّ الخليقة للخالق والعبد للسيّد.

ولكن منذ أن حلّ ربّ المجد في حشاها وأصبح ولدًا لها، تحوّلت حياة مريم كلّها وانقلب حبّها انقلاب الخائف المرتعد إلى العاشق الولهان. ذلك أنّ أمومة مريم هي مشاركة حقيقة لأبوّة الله بالذات. بأعجوبة باهرة حول حشاها إلى مسكن لابنه فنفحها قوّة مخصّبة أنبتت بها الكلمة المتجسّد. وهكذا جبل لها قلب أمّ لابنه. فشعرت مريم حالاً لدى البشارة بأحشاء والديّة وبقلب والديّ.

وإذا كان صحيحًا أنّه لا بدّ من قلب أمّ لنسبر غور عمق محبّة الأمّ، فكم بالأحرى نحن بحاجة إلى قلب مريم لنقدّر حبّها لابنها.

لا شيء أقوى من الحبّ الذي تهبه الطبيعة للعناية بالولد. ولا أقوى ممّا تهبه النعمة لحبّ الله. ولقد يعجز العقل حينما يحاول أن يغوص في هذين البحرَيْن من الحبّ.

حبّ الآب صورة لحبّ مريم

ولكنّ حبّ الآب السماويّ وحده يستطيع أن يعطينا صورة صادقة عن حبّ العذراء مريم لابنها يسوع. فهو حبّ طبيعيّ وحبّ يتفجّر من النعمة التي ظلّلتها وحوّلتها إلى أمّ.

فمنذ أن أصبحت أمّ المخلّص شعرت بأنّ دعوتها أضحت فوق كلّ شيء آخر هي أن تحبّ الله وأن تحبّه في شخص المسيح حبًّا طبيعيًّا وإلهيًّا مندمجين في بوتقة المحبّة. إنّها تحبّ المسيح لأنّه إلهها وولدها.

حبّ عمليّ

ويتجلّى حبّها له بأن تخدمه ليلاً ونهارًا وألاّ تحيا إلاّ له وأن تشاركه في أعماله الخلاصيّة. وأمّا غير هذا فلا شأن لها به، يكفيها الحبّ الخالص.

حبّ مستنير

وكان حبّها له يصطبغ بالرزانة والفطنة كلّما تقدّم يسوع بالعمر والحكمة. وكانت تتحاشى كلّ ما من شأنه أن يمسّ بشعوره أو بميوله أو يجرح المحبّة أو يسيء إليه. بل بالعكس كانت تسعى جهدها لتقوم بكلّ ما يلذّ له ويرضي خاطره. إنّها معه مثال الأمّ المهذّبة اللطيفة واللبقة في كلّ علاقاتها.

ما ألذّ تلك الابتسامة التي تستقبله بها كلّ مساء حين عودته من دكّان النجارة. لقد خفّفت عليه بابتسامتها هذه متاعب النهار ومشاقه.

حبّ مشجّع على إتمام الواجب

ولكن هنالك ما هو أعظم. "**إنّ حياة المسيح كانت كلّها صليبًا دائمًا**" كما يقول صاحب كتاب الإقتداء. إنّ خطايا البشر كانت دومًا تمرّ أمام مخيّلته. فكانت مريم بحبّها له تخفّف عنه ذلك الحمل الثقيل لأنّه كان يشعر بنغمة الحبّ الصافي بين أنغام الخطأة الشاذّة. فكان يتعزّى كلّما شعر بأنّ له على الأرض عابدة تفوق بحبّها بغض العالم والشيطان.

ولقد كانت الأمّ في كلّ زمن وكلّ بلد حافزًا لأولادها في إتمام الواجب والإقبال على التضحية بطيبة خاطر وكرم نفس.

ويذكر التاريخ مواقف للأمّ مع أولادها هي أشبه شيء بالأسطورة منها بالواقع البشريّ.

وهذه والدة كاهن لم يمض طويل عهد على وفاته كان يعيش مع والدته. فكانت تقوم بخدمته وبخدمة مائدته وتبذل له النصح بالرغم من مركزه الإجتماعيّ. هو الخوري فريبل. وكان يقوم في بدء حياته الكهنوتيّة بمهمّة أستاذ في جامعة السوربون ثمّ أصبح أسقفًا على كرسيّ أنجه ونائبًا في مجلس الأمّة الفرنسيّ. فأثارت يومًا الصحف ضجّة من حوله. فدار بين الأمّ وولدها الحديث التالي:

- وبعد يا ابني أما يمكنك أن تعتدل قليلاً.

- مفروض عل المطران أن يدعم الحقّ.

- ولكن في البلاد مطارنة غيرك وهم أيضًا مدعوّون لدعم الحقّ ومع ذلك فهم لا يتعرّضون مثلك لانتقاد الناس.

- يا أمّي تعرفين أنّ سيّدنا يسوع المسيح طرد بالسياط الباعة من الهيكل وقرّع الفرّيسيّين.

عندها قنعت الأمّ.

وهنالك مثال أمّ ثانية هي والدة المشير فوايول. لمّا أعلن النفير العامّ سنة ١٩١٤ وجاء يودّع أمّه، كانت كلمة الأمّ الأخيرة لابنها: **"يا ابني أدِّ واجبك كاملاً"**.

وهذه والدة الجنديّ الشاعر بول ديروليد في حرب ١٨٧٠، فقد أوصلت ولديها بنفسها إلى ساحة المعركة.

وهذا جنديّ لم ينسَ نصائح أمّه وهو في طريقه إلى المعركة، فلمّا سقط قال لأحد أصدقائه الجنود: **"إذا كتب لك أن تعود فبلّغ والدتي أنّني متّ جنديًّا شجاعًا ومسيحيًّا شجاعًا"**.

ولقد أثبت أكثر من كاتب مسيحيّ ومفكّر أنّ الدعوة الرهبانيّة والكهنوتيّة تنشأ في ظلّ والدة مؤمنة رزينة.

ولقد كتب والد ينصح ولده وممّا جاء في نصائحه: **"قد يشكو الإنسان من أنّ الملاك الحارس خافٍ عن العيون لا يُرى ولكنّ الله هيّأ لنا ملاكًا حارسًا آخر منظورًا يعيش بقربنا، محبّته سامية وتضحياته لا حدّ لها هي أمّك"**.

الملاك الحارس

وفي الكتاب المقدّس قصّة جميلة عن الملاك الحارس الذي سهر على طوبيّا الصغير مدّة سفره وأعاده سالمًا بالرغم من المخاطر التي داهمته، نقرأ:

رافق رفائيل الملاك طوبيّا الشاب منذ اليوم الأوّل وهو في طريقه إلى راجيس من بلاد الماديّين ليستوفي ذمّة لوالده طوبيّا الذي شاخ وهرم وعجز عن العمل.

وقد عرض الملاك نفسه لخدمة طوبيّا الشاب وعرّفه إلى ذاته بأنّه خبير بالطريق وقد قطعها مرارًا وأنّه يعرف سكّان تلك البلاد وأنّه على استعداد لأن يرافقه في الحلّ والترحال وأن يذهب معه ويعود به.

وحدث، وهما على نهر دجلة، أن خرج حوت يريد أن يفترس طوبيّا الذي كان يغسل رجليه على ضفاف النهر. فارتاع طوبيّا وصرخ. فهبّ الملاك لنجدته وهدّأ روعه وعلّمه

أن يمسك بخيشوم الوحش وأن يجرّه إلى الشاطئ ثمّ أن يقتله وينتزع منه قلبه ومرارته وكبده وأن يحتفظ بها، حتّى إذا ما عاد من تلك السفرة الخطرة الطويلة طلى بها عيني والده فعاد له بصره.

هكذا يحوّل الملاك الشرّ إلى خير وهكذا ينجو الإنسان من المخاطر برفقة الملاك. كذا هي الأمّ ملاك الله لأولادها الصغار تسهر وترعى وتردّ المخاطر لا مدّة أشهر قليلة كما فعل رفائيل الملاك مع طوبيّا ولكن مدّة سنين وقد تمتدّ وظيفتها إلى الحياة.

هذا وأنّ جميع أدباء العالم من كتّاب وشعراء أنشدوا في مديح الأمّ أطيب المعاني ونظّموا لها أسمى القوافي. ولم يخل كتاب من مديحها حتّى أنّ الكتاب المقدّس لم يتردّد من تصنيف المحبّة الوالديّة بين أسمى ما على سطح الأرض من خلائق فتّانة.

قصّة

يُحكى أنّ أسدًا فرّ من قفصه وبينما كان في شوارع فلورنسه انتزع طفلاً رضيعًا من سريره وراح به إلى مكان قفر ليلتهمه. ولكنّ والدة الطفل رمت جانبًا كلّ خوف ولم تصغ إلاّ إلى صوت قلبها فرمت بنفسها عند أقدام الوحش المفترس وصرخت "**ردّ لي طفلي**" عند هذه الكلمات وأمام موقف الأمّ المؤثّر وضع الأسد فريسته أمام الأمّ بلطف.

ذكر الأمّ في الكتاب المقدّس

وإنّ الكتاب المقدّس إذا ما حاول جذب النفوس إلى الله يؤكّد لها أنّه: "**يحنو ويعطف عليها أكثر من أمّ لولدها**" (الأمثال ٦: ١١).

وأيضًا "**كما أنّ الأمّ تلاطف ابنها الصغير هكذا أنا أحملكم على صدري، وتكونون على ركبتي وأرضّعكم وقلبكم يكون في الفرح**" (أشعيا ٦٦: ١٢- ١٤).

وأيضًا "**أتنسى المرأة مرضعها فلا ترحم ابن بطنها لكن ولو أنّ هؤلاء نسين لا أنساك أنا**" (أشعيا ٤٩: ١٥).

وبولس الرسول يشبّه نفسه للأمّ حينما يكلّم المسيحيّين عن أنّه ولدهم للمسيح "**مع كوننا نقدر أن نثقل عليكم كرسل المسيح لكنّنا كنّا ذوي رفق فيما بينكم مثل مرضع تحتضن بنيها**" (تسالونيكي ٢: ٧).

ولنا في سلوك المسيح أطيب مثال عن حبّه للأمّ. فحينما قرّر أن ينحدر إلى الأرض اتّخذ له أمًّا، منها أخذ جسدًا. أبوه واحد في السماء ولكن على الأرض له أمّ هي العذراء الطاهرة، سكن في حشاها تسعة أشهر، اتّخذ منها لحمًا ودمًا. ولقد رفع مقام الأمّ حينما نادى أيضًا "**أمّي**" ومنذ ذلك الحين لا يمرّ يوم إلاّ ونبارك تلك الخليقة التي أمدّت يسوع بإنسانيّته مردّدين: "**يا قدّيسة مريم يا والدة الله**".

قصّة

ومن أجمل القصص التي تروى عن بذل الأمّ وتضحيتها في سبيل ولدها تلك التي عرضت نفسها للموت لتحصل على بعض المال فتشتري به الدواء والطعام لولدها المريض.

كان ولدها الوحيد في ريعان الشباب حينما أصابه مرض عضال ألزمه الفراش منذ أكثر من ثلاث سنوات. والذي كان يجعل المصيبة كارثة على الأمّ أنّها أرملة فقيرة كانت تعيش من تعب ولدها هذا المقعد بالذات. فاضطرّت إلى أن تبيع حُلاها بل أثاث البيت ومفروشاته فأصبحا على الحضيض ولم يبق لديهما غير الفراشين والسرير الحديديّ المتداعي الذي تمدّد عليه الشاب المريض. ونفذ الدواء وعادت الأمّ إلى الطبيب فكتب لها وصفة جديدة ولكنّ المال أيضًا كان قد نفذ تمامًا حتّى لم يبق معها ثمن طعام ذلك النهار. فخرجت من عيادة الطبيب تائهة في الشوارع كالذي أُصيب بخبل. والتقت بجماعة من الناس تجمهروا أمام حانوت انتصب في داخله لوح رسمت عليه بعض الرموز وصاحبه يحمل بيده بندقيّة وينادي مَن يرضى منكم أن يحمل على رأسه برتقالة يصوّب إليها هواة الرماية ينال مكافأة على ذلك عشر ليرات. فاخترقت الأمّ الصفوف حتّى بلغت صاحب الحانوت وقدّمت نفسها له ووقفت وجهًا إلى وجه أمام الجمهور فصفّق لها الحضور وضجّوا ووضعت البرتقالة على رأسها وصُوِّبت إليها الرصاصات تنحدر حول رأسها كالمطر حتّى إذا رمى أحدهم البرتقالة برصاصته ناولها صاحب الحانوت الليرات العشر. فأخذتها وراحت إلى الصيدليّة فابتاعت الدواء، وإلى السوق فابتاعت بعض اللحم والخضار والفاكهة والحلوى. وقد مرّ بعض الوقت بينما كانت تنتقل بين الصيدليّة والفاكهانيّ. ونشرت الصحف خبر المرأة التي عرّضت نفسها للخطر، ورجعت الأمّ إلى البيت والابتسامة تعلو شفتيها ودخلت على ابنها وقدّمت له الدواء ووضعت بين يديه الفاكهة والحلوى. فابتلع المريض جرعة من الدواء وانكبّ على الفاكهة والحلوى ينتقي منها ما طاب له بينما راحت الأمّ تطهي بعض الطعام. وبينما كان الشاب يبحث هكذا وقعت يده على صحيفة النهار استُخدمت لصرّ بعض المشتريات. وما أشدّ ما كانت دهشته حينما وقع نظره على إحدى صور الصحيفة في صفحة المحلّيات تمثّل صورة امرأة انتصبت هدفًا للرماية وقرأ عنوان المقال: **"امرأة تعرّض نفسها للخطر مقابل أجر معيّن"** وطالع المقال وراح يتفرّس في الصورة فإذا هي أمّه بالذات فناداها وما إنْ عرف الحقيقة حتّى انهالت دموعه على وجنتيه ومدّ يديه إليها فضمّها إلى صدره وعانقها معانقة حارّة وشكرها شكرًا جزيلاً على تضحيتها وحبّها الوالديّ.

محبّة الأمّهات لمريم

وبهذه الأمومة تشعر الأمّهات بأنّ قلوبهنّ قريبة جدًّا من قلب مريم. وأنّ بين الأمّهات ومريم مودّة مصدرها الغريزة والوضع المتشابه والبذل السخيّ.

وحينما تسمع الأمّ أو تقرأ بأنّ مريم هي أمّنا تقدّر الشيء الكثير من الحنان والعطف اللذين يختلج بهما قلب مريم نحونا. كأنّ الأمّ ترى في تلك العبارة صورة لقلبها الوالديّ.

ولعلّه هو السبب الذي يدفع بالأمّ المسيحيّة نحو مريم. فنراها تسلّم مستقبل ولدها بين يدي الأمّ السماويّة. إنّ مريم مستعدّة دومًا لأن تكرّر نفس الخدمات التي قامت بها نحو يسوع مع كلّ طفل تسلّمه أمّه أمانة بين يديها.
ويمكننا أن نعتبر بأنّ المرأة المسيحيّة حينما تلد ولدًا إنّما تلد أخًا للسيّد المسيح وابنًا للعذراء مريم.
وبذلك يُعتبر الولد المسيحيّ قلادة ماس معلّقة في عنق والدته.
ذُكر عن أمّ أنّها بينما كانت في اجتماع سيّدات وكلّ منهنّ تفخر بملابسها وحُلاها أخذت هي ولديها بين يديها وقالت: **"أمّا أنا فهذه هي حُلاي وفخري"**.
وهذه سيّدة تشكّى ولدها، وهو في طريقه إلى ساحة القتال، من أنّ سيفه قصير فتقول له: **"لا بأس يا ولدي اذهب وإذا شعرت بأنّ سيفك قصير عوّض عنه بخطوة تخطوها"**.

أمثلة من تاريخ الكنيسة

ولو تصفّحنا تاريخ الكنيسة منذ نشوئها إلى اليوم لوجدنا بطولات الأمّهات تترى على مدى الأجيال وفي كلّ بلد. وبعض هذه البطولات مصدرها إيمان الأمّ المسيحيّة برسالتها السامية. هؤلاء سبعة أخوة لأمّهم فيليسيته نحو سنة ١٥٠ يموتون شهداء بينما كانت أمّهم واقفة تشهد تعذيبهم وتحرّضهم على الثبات. فلمّا سُفكت دماء السبعة قدّمت هي أيضًا ذاتها بشجاعة ذبيحة في سبيل المخلّص لأنّها اعتبرت رسالتها منتهية ووجودها في هذه الدنيا لم يبق له من معنى بعد أن قدّمت ذبيحة أولادها بشرف على مذابح الدين.
وبين الأربعين شهيدًا الذين استبسلوا في سبيل إيمانهم في مدينة سبسطيا بأرمينيا كان مسيحيّ يُدعى ميليثون. لم يكتفِ الجلاّدون بأن ساموه أقسى أنواع العذاب بل قطعوا ساقيه. ولمّا رأته والدته أنّه ما لبث على قيد الحياة وقفت بقربه تشجّعه وتقول له: **"صبرًا يا ابني إنّ المسيح هنا يراقب جهادك في سبيل محبّته"** وما زالت الأمّ تشجّع ولدها حتّى لفظ الشهيد أنفاسه بين يدي والدته وكان ذلك في ٩ آذار سنة ٣٢٠.
فمَن ذا لا يقف بإعجاب وإجلال أمام شهامة تلك الأمّ المسيحيّة التي اقتدت بالبتول فقدّمت ابنها بيديها ذبيحة مُرضية على مذبح الإيمان والحبّ الصادق؟
بالطبع لم يكن الوثنيّون ليفهموا معنى تلك البطولات وأنّ ما كان يزيد في تعجّبهم هو العناية التي كانت تبذلها الأمّهات المسيحيّات في تربية أولادهنّ على الأخلاق السامية.
ووالدة القدّيس لويس ملك فرنسا كانت تقول لابنها: **"يا ولدي يشهد الله على أنّي أحبّك ولكن يهون عليّ أن أراك جثّة هامدة عند قدمي من أن أعرف بأنّك ارتكبت خطيئة مميتة واحدة"**.
هذا هو التعبير الصحيح السليم عن الحبّ الوالديّ في الدين المسيحيّ.

٤٦
المحبّة البنويّة

قابل الحبّ بالحبّ

لم يكن من الممكن أن يقابل يسوع حبّ والدته إلاّ بالحبّ الأكمل. إنّه الابن البرّ الذي يعرف وصيّة الله الرابعة وما يترتّب على تلك الوصيّة من واجبات وإلزامات.

وكان يستقي حبّه لوالدته من حبّه للآب السماويّ ويجعل مقياس طاعته لها طاعته للآب كذلك.

فهو لا يعصى لها أمرًا ولا يخالف لها رغبة ولا يتردّد ولا يتلكّأ في عمل ما يرضيها. لأنّه جاء يصلح بطاعته ما أفسده الإنسان الأوّل بتمرّده.

وحبّه لها كان أمرًا طبيعيًّا في نفسه وفي قلبه. لأنّ عكس ذلك ناتج عن الطبيعة التي خلخل توازنها إثر خطيئة آدم. والتوازن في المسيح كامل لم يمسّ. بل أنّه ليزداد قوّة وفاعليّة أضعاف الأضعاف بسبب اتّحاده بالأقنوم الإلهيّ.

إنّه يعرف حسنًا نصيحة طوبيّا الأخيرة لابنه: **"اسمع يا ابني. إذا قبض الله نفسي فادفن جسدي وأكرم والدتك جميع أيّام حياتها واذكر المشقّات التي عانتها لأجلك"** (طوبيا ٤: ٣- ٤).

وما أكثر الحوادث التي سجّلها الإنجيل المقدّس لحبّ المسيح واحترامه وطاعته لأمّه.

بعد حادث الهيكل يذكر الإنجيليّ أنّه كان **"خاضعًا لهما"** أيّ لمريم ويوسف حتّى بدء حياته المشتهرة.

حبّه لها طبع

كلّ ذلك أمر طبيعيّ في حياة السيّد المسيح لأنّه نزل إلى الأرض ليعلّم البشر بكلامه وأعماله ذلك الدرس القيّم عن محبّة الابن لوالديه.

على أنّ المسيح لم يكن متملّقًا لأمّه في حبّه لها، ولم يعتد عبارات المديح والثناء المتبادلة بين الغريب والغريب. فهنالك أساليب معروفة تعطى دروسًا في الأدب الإجتماعيّ واللياقة الظاهرة. أمّا حبّ المسيح لأمّه فكان انطلاقة النفس المحبّة نحو الوالدة المحبوبة يعبّر عنها بكلمات وحركات كلّها عطف واحترام وحنان.

نادرة

رجع أحد الشبّان من سهرة تلاقى فيها الجنسان وأفرغوا كؤوسًا مترعة بين الرقص والألحان. وكان الشابّ يبحث عن رفيقة للحياة. فسألته أمّه وهو يتأهّب للنوم: يا ابني أما وجدت ضالّتك المنشودة؟ أما استحسنت واحدة من اللاتي اجتمعت بهنّ في سهرتك؟ فأجابها: كلاّ! فقالت: أنت صعب في الاختيار! حينئذ اقترب الشابّ من أمّه قال لها: أمّي، أنا لست بالشابّ الصعب ولكنّ امرأة أحلامي لم أجدها بعد لأنّي ما وجدت مَن يشبه أخلاقك. فأنا كلّما ضمّني اجتماع الحسان قابلت بينك وبينهنّ فأكره جميعهنّ.

قصّة

ولعلّ ممّن تيتّموا عن صغر وجدوا لهم بين جدران الدير راهبة عوّضت لهم عمّا فقدوا من حنان وحبّ.
وتعود بي ذاكرتي الآن إلى سنة ١٩٤١ يوم كنت مع بعض الشمامسة، كما هي العادة، نذهب إلى دير لراهبات المحبّة في القدس مرّتين في الأسبوع لنلقي دروسًا في التعليم المسيحيّ على طلاّب الدير وكانوا من الأيتام واللقطاء. وكان العدد الأكبر من طلاّب صفي آنئذ من المكفوفين. وفي أحد الأيّام قصّت علينا الأمّ **"ريكاميه"** رئيسة الدير الحكاية التالية، قالت: اليوم هو عيد إحدى الراهبات عندنا وقد دخل المعبد صباحًا عند بدء القدّاس شابّ رُبي يتيمًا بيننا منذ الصغر. ولمّا وصل كانت عليه ملامح التعب الشديد والغبار يغطّي ساقيه. وما إنْ خرجنا من المعبد حتّى ركض إلى الراهبة وقبّل يديها وقال: تذكّرت أنّ اليوم هو يوم عيدك يا أمّي فجئت أقدّم لك التهانيّ لأنّي لم أنسَ أنّك كنت لي أمًّا مدّة سنين. وأضافت الرئيسة أنّ الشابّ اضطرّ إلى أن يستيقظ باكرًا جدًّا ليقطع مسافة ٣٥ كيلو مترًا مشيًا على الأقدام لأنّه لم يكن يملك دراهم تسمح له بأن يستقلّ سيّارة. ولكي لا يهترأ الحذاء الوحيد الذي كان في حوزته حمله على كتفه وسار حافيًا. فبكت الراهبة فرحًا لمّا سمعته يقول لها يا أمّي أهنّئك بعيدك.

٤٧
الميتة الصالحة

الحياة رسالة يؤدّيها الإنسان. وليس الموت إلاّ الإعلان عن تتمّتها. وقد يرغب القدّيسون في حثّ الخطا للّحاق بالغاية ولكن لا بدّ أوّلاً من إنجاز المهمّة: **"لي رغبة أن أنحلّ فأكون مع المسيح وذلك أفضل لي بكثير. غير أنّ التلبّث في الجسد أشدّ لزومًا من أجلكم"** (فيلبي ١: ٢٣- ٢٤).

أتمّ الرسالة
ولقد حان لنا أن نقول ليوسف كلمة الوداع الأخير بعد أن قطع الشوط ووفى قسطه وأتمّ الرسالة ولم يبق عليه إلاّ الرحيل إلى عالم الثواب والأجر والمكافأة.
ونرى أن نلقي نظرة خاطفة قبل الوداع على حياة الرجل الذي ائتُمن على أثمن وديعتَيْن يسوع المخلّص وأمّه الطاهرة.
لم يقم يوسف في حياته بأعمال مشهورة تستحقّ أن تلفت أنظار البشر إليه. إنّه أشبه شيء بالقصبة التي يضعها البستانيّ بقرب غصن لئلاّ تعبث العواصف والرياح به. ويوسف ما وجد في الحياة إلاّ ليحمي مريم ويذود عن الطفل ولدها. فوجوده يتّخذ معنى من وجود الطفل وأمّه. فهو صغير جدًّا بقربهما. ولكنّ وجوده ضروريّ بالغ الأهميّة. ولا تنتهي مهمّة يوسف إلاّ حينما يشتدّ الصبيّ ويصبح قادرًا على الكسب. حينئذ يتوارى عن الوجود ليبقى يسوع وأمّه.

اكتسب كنـزًا من النعم

ولقد اكتسب من وجوده بقربهما كنـزًا من النعم رفعه فوق جميع القدّيسين والبشر. فمنذ الجيل السادس عشر انتشر هذا الرأي بين الكتّاب والقدّيسين حتّى ليزداد المؤيّدون عددًا في كلّ يوم.

وبالحقيقة إنْ كان الله أعطى مريم العذراء القدّيس يوسف زوجًا ليس ليكون سندًا لها في الحياة أو شاهدًا لطهارتها أو حافظًا لشرفها فحسب بل ليشاركها، بواسطة رباط الزواج، في الكرامة السامية التي حصلت عليها.

ومن الثابت أنّ كلّ دعوة إلهيّة خاصّة تفترض قداسة مناسبة لها وبالتالي نعمة خصوصيّة تتناسب وتلك الدعوة وتساعد الإنسان على القيام بأعبائها.

هكذا أثبت علماء اللاهوت أنّ نفس المسيح باتّحادها بالكلمة امتلأت نعمة. والبشريّة بدورها اغترفت فيضًا من تلك النعم: **"أجل، من امتلائه نحن كلّنا قد أخذنا ونعمة فوق نعمة"** (يوحنّا ١: ١٦). إنّه على مثال مريم العذراء التي إذ دُعيت لتكون أمّ الله حصلت منذ أن تمّ الحبل في حشاها على تمام وكمال النعمة.

دعوته الخاصّة

ودعوة يوسف لم تكن لإتمام رسالة بشريّة سامية ولا لإتمام رسالة إلهيّة فريدة من نوعها على كرّ الزمن. بل دعوته الخاصّة به كانت أن يصبح أبًا مربّيًا لسيّدنا يسوع المسيح وزوجًا لمريم أشرف العباد.

وهذه الرسالة تختلف عن رسالة الرسل الذين دعوا لينشروا حياة المسيح بين العالم. فرسالة القدّيس يوسف كانت بالعكس من ذلك في أن يكتم عن الناس وجود المسيح وأن يخفيه عن أنظارهم. فرسالته إذًا محصورة حول حياة المسيح الخفيّة فقط.

ومن المقرّر أنّ كمال الفضيلة يقوم على أن يعمل الإنسان ما كلّفه به الله ضمن حدود الدعوة التي دُعي إليها. فلا يجوز له أن يتخطّى تلك الحدود.

وكانت رسالة يوسف مزدوجة.

بالنسبة لمريم كان عليه أن يحمي طهارتها بعقده معها زواجًا حقيقيًّا، مقدّسًا، يبعد عنها كلّ الظنون التي قد تثار حول حبلها أو حول ولدها. وكذلك وجدت مريم فيه زوجًا وعضدًا وحاميًا.

أمّا بالنسبة للكلمة المتأنّس فقد سهر يوسف على تربيته وإعالته. فكان له الأب المربّي والمتبنّي.

وأصرّ يوسف على أن يكون أمينًا على حفظ الودائع الثلاث المسلّمة إليه: طهارة مريم وشخص المسيح وسرّ الله.

وبناء على ذلك منح الله يوسف كلّ النعم التي وهبه إيّاها. فهو أقدس القدّيسين بعد يسوع ومريم.

الموعد مع الله

فلمّا حان ليوسف أن يعود إلى الله كانت نفسه هيكلاً وسع كنوز النعم والبركات السماويّة.

وهو لا يخاف الموت ولا يهوله ناقوس الآخرة يدعوه للعودة. إنّه يموت لا عن ثروة أو عقارات أو أولاد. ولكن عن رسالة باشرها وأتمّها بأمانة وإخلاص. موت يوسف أشبه شيء بزهرة تذبل لتترك مكانًا لثمرة شهيّة.

لم ينتظر يوسف ساعة الموت. بل داهمته وهو ينهي عمل الله على الأرض. وهكذا يختفي عن الوجود ذاك الذي قضى العمر مختفيًا، ذاك الذي فُرض عليه واجب إخفاء يسوع عن أنظار العالم. كثير من الناس يباغتهم الموت وهم ساعون لمتعة من الحياة بينما كان يوسف قد جعل من التجرّد عن الدنيا برنامجًا لحياته.

إنّه لم يكترث للموت. لأنّ الموت لا يمكن أن يكون غاية لأحد حتّى يتوقّف هو عنده. إنّه الثانية التي تعقب نهاية عمل، فيختفي الإنسان ويبقى العمل.

في تلك اللحظة يضمّ الإنسان يديه بحركة تعني التوقف، بينما العمل يسير على طيّات الأثير ليعلن في موجات دقيقة أو مرتفعة قيمة صاحبه. ولذلك كانت السماء صدى لأعمال أتمّها الإنسان على الأرض.

فالموت لا يثقل إلاّ على الذين تعلّقوا بالدنيا وأضاعوا الأمل بالآخرة وبثوابها فهؤلاء يرهبهم ذكر الموت ومواعظ الوعّاظ.

إنّ آخر عهدنا بيوسف كان في حادث الهيكل حينما كان للمسيح اثنتا عشرة سنة، ولم يذكره الإنجيليّون بعد ذلك أبدًا.

غير أنّ هنالك تقليدًا قديمًا يدّعي بأنّ يسوع كان قد بلغ الربيع التاسع عشر لدى وفاة أبيه يوسف.

ثمّ لو أتبعنا بعد هذا أحداث الإنجيل المقدّس فيما يختصّ بمريم لوجدناه يذكرها كامرأة فقدت رفيق حياتها.

مات يوسف قرير العين. وانتقل إلى مواجهة ربّه بضمير مرتاح، لأنّه أتمّ المهمّة التي أُنيطت به.

مات يوسف موتًا كريمًا في بيته، بين يدي يسوع ومريم. لقد فارق الحياة بحضرة ولده وديّانه، بعد أن بذل أفضل ما يستطيع والد أن يبذله في سبيل أحبّ الأبناء ولم يوفّر شيئًا في سبيل خدمته.

لقد فارق الحياة بوجود زوجته المحبوبة التي كرّس حياته لإرضائها وإرضاء ولدها.

الاحتضار

ويمكننا أن نتصوّر ساعات النزع الأخيرة ويوسف يتطلّع بعينيه الذابلتَيْن مرّة إلى يسوع ومرّة إلى مريم ومرّة إلى السماء. ها هي مريم واقفة بقرب سرير الذي أحبّت، تأخذ يده وتضمّها بين يديها إلى صدرها وتقبّلها وقد خنقتها عبرات الوداع. أمّا يسوع الابن المخلّص فيقبّل هو أيضًا تلك اليد التي تعبت لأجله ويبكي من تعلّقه به ومن الأسى عليه.

ثمّ نسمع يسوع ومريم يردّدان بعض الصلوات فوق رأس المحتضر الغاليّ: "**ارحمني يا الله بعظيم رحمتك وبكثرة رأفتك امح مآثمي**" (مزمور ٥٠).

"**اللهمّ إلهي. عطشت إليك نفسي. كم ظمئ إليك جسدي**" (مزمور ٦٢).

"**باركي يا نفسي الربّ ولا تنسي إحساناته كلّها**" (مزمور ١٠٢).

"**من الأعماق صرخت إليك يا ربّ، يا ربّ استمع صوتي**" (مزمور ٢٩).

"**ما أحبّ مساكنك يا ربّ القوّات. تشتاق وتذوب نفسي إلى ديار الربّ. طوبى لسكّان بيتك، إلى دهر الدهور يسبّحونك**" (مزمور ٨٣).

بمثل هذه المزامير والتسابيح كنت تسمع يسوع ومريم يرافقان نفس يوسف وهي تفارق الجسد. ولمّا لفظ يوسف أنفاسه الأخيرة أغمض يسوع جفون أبيه لكي يفتحها هناك في مقرّ النور والسعادة الأبديّة.

وبعد غسل الجثمان وتضميخها بالعطور بوشر حالاً بطقس التكفين. ورُبطت الرجلان واليدان بلفائف من الكتّان الأبيض وأحيط الرأس بمنشفة تغطّي الوجه. وتعرّض الجثمان فوق المنصّة ويجتمع الأهل والأصدقاء والجيران للصلاة ومؤاساة أهل الفقيد.

الجنازة

وفي الوقت المعيّن وُضع الجثمان فوق المحمل.

وسارت الجنازة تحمل يوسف النجّار إلى مرقده الأخير بين حفل من المشيّعين من الأهل والزبائن والأصدقاء وفي مقدّمتهم يسوع الشابّ ابن النجّار.

وعلى الطريق كان الناس يتحدّثون عن الراحل فيذكرون له أطيب الصفات ويبكون فيه أسمى الأخلاق.

ولمّا أطبق الحجر على قبره وقفت مريم ويسوع يذرفان دموعًا أحرّ من الجمر.

ونتصوّر بعد هذا مريم، وقد لبست ثوب الحداد الضيّق، جالسة في صدر القاعة الكبيرة، كما وصف أمثال هذه الحالات كتاب التلمود، تتلقّى تعازي الذين شاركوا في تشييع جثمان رجلها.

أمّا نفس يوسف الصدّيق فقد انضمّت إلى أرواح الأبرار والصدّيقين الذين لبثوا في الينبس يتوقّعون قيامة المخلّص لينضمّوا إلى الموكب الصاعد إلى بيت الآب السماويّ.

ونحن إنْ كان لنا أمنية نتمنّاها على الله هي أن نموت أيضًا على مثال يوسف بين يدي يسوع ومريم. إنّها الميتة المثلى. إنّها الميتة الصالحة.

٤٨
الحياة الخفيّة

دامت حياة المسيح المشتهرة ثلاث سنوات ويقول البعض سنتين لا غير. وكم يبدو هذا الوقت قصيرًا وكم تبدو بالمقابلة الثلاثون سنة من الحياة الخفيّة بالغة الأهميّة والخطورة، خاصّة إذا تذكّرنا بأنّ السيّد المسيح لم يأت إبّان ذلك الوقت الطويل بأيّ تعليم أو أعجوبة.

ولعلّه ليس في حياة المسيح في تلك السنين ما يدعو للعجب والإعجاب كالصمت الذي استغرق ثلاثين عامًا من حياته على الأرض.
أمر واحد يستطيع أن يعيد للنفس صوابها هو أن تفكّر بأنّ الله إله لا تمجّده الضجّة والطبول قدر ما يتمجّد بعبادة الإنسان له داخل هيكل قلبه.

يخلف يوسف في المسؤوليّة

بعد وفاة يوسف، أصبح يسوع الشابّ، بحكم مهنته وسنّه، المعيل لوالدته.
راح بعرق جبينه يكسب لقمة العيش له ولوالدته.
لم تكن دكّان النجارة بعيدة عن بيت السكن. على أنّ مريم لم تعد كالسابق نعيش مع ولدها. فهي لا تراه ولا تلتقي به إلاّ عند مواعيد الطعام أو بطريق العرض إذا ما جاء يطلب غرضًا من البيت ثمّ في السبوت وهي أيّام الربّ وأيّام الراحة والبطالة عن العمل.
فكان في دكّان النجارة يقوم بالأعمال التي تعلّمها من أبيه يوسف والتي يقوم بها النجّارون من استخدام المنشار والقدّوم والبلطة والرندج ليعمل لزبائنه أبوابًا أو نوافذ أو نيرًا أو صناديق تجمع فيها الملابس أو مؤونة الشتاء.
والعمل واجب في المجتمع اليهوديّ. وعلى كلّ إنسان أن يعمل بيديه حتّى الذين كرّسوا أوقاتهم لعِلم الشريعة.
هكذا كان رابي هلّل يعمل حطابًا ورابي شمعي نجّارًا مع أنّهما كانا من كبار علماء الشريعة. وقد عمل يسوع ليس عن واجب فحسب بل عن حاجة أيضًا على مثال العمّال الكادحين لتحصيل لقمة الطعام.
وكان عامل النجارة آنئذ ملمًّا بكلّ ما هو ضمن إطار أعمال الخشب. فكان يهيّئ الأخشاب لسقف البيت، كما يقوم بعمل المقاعد والأسرة والمعاجن. وفي اللغة الآراميّة كلمة نجّار تعني عامل النجارة والبناء.
ومن غريب الأمور أن يحتقر المسيح أعداؤه فيقولون عنه **"أنّه ابن النجّار يوسف"** مع أنّ النجارة والحدادة والفلاحة والبناء مهن أكثر الناس في ذلك الوقت وهي بريئة بحدّ ذاتها ويرضى عنها الدين. ولكن إذا أفلت المنطق من الشعوب ساد الظلام وتفشّت المغالطات بقصد امتهان كرامة الناس.

بعيدًا عن السياسة

وكانت الناصرة بعيدة عن طرق المواصلات الهامّة فلا يصلها من الأخبار العالميّة والسياسيّة إلاّ ما ندر وذلك بواسطة الزبائن المتردّدين على المدينة أو الأصدقاء القادمين للزيارة أو القوافل المحمّلة بالسلع أو بواسطة حجّاج بيت الله في القدس كلّ سنة.
ويموت الإمبراطور أغوسطوس في السنة ١٤ وهو الذي دفع بمريم لتلد يسوع في بيت لحم. ويعقبه على العرش طيباريوس فيبني هيرودس أنتيباس على شرفه مدينة طبريّة غربيّ البحيرة ويجعلها مركز إقامته ويحوّلها إلى مدينة ملوّثة بالأرجاس. ثمّ يصل إلى القدس ممثّلو روما فيحكمونها بالإرهاب ومنهم فليريوس غراتوس الذي عزل

حنان رئيس الكهنة. ثمّ يصل بيلاطوس البنطيّ وهو موظّف أُخذ عليه أنّه ضعيف الإرادة وشرس الأخلاق فأثار نقمة الشعب عليه حينما أدخل إلى الهيكل الأعلام الوثنيّة.
ولكنّ تلك الأحداث لم تغيّر مجرى حياة أهل الناصرة.

في الناصرة ما هو أهمّ

فيسوع ومريم يعيشان معًا في هدوء تامّ متمّمَيْن العمل اليوميّ ببساطة ومصلّيَيْن إلى الله لتكون إرادته سائدة على العالم الذي يسوسه وحده من خلف الأحداث البشريّة الظاهرة.

في نظر الله الآب، كانت الناصرة مسرحًا لأمور عظيمة. وحتّى في نظر المواطنين كان يسوع موضع إعجاب الجميع واحترامهم ومحبّتهم. ويشهد على ذلك القدّيس لوقا **"وكان ينمو بالنعمة أمام الله والناس"** (٢: ٥٢). وكانت مريم تدرك كلّ شيء **"وتحفظه في قلبها"** (لوقا ٢: ٥١).

يوحنّا السابق

وفي أحد الأيّام وصل نبأ إلى الناصرة يحمله قادمون من وادي الأردن بأنّ نبيًّا عجيبًا قام على ضفاف النهر يبشّر ويعمّد هو يوحنّا ابن أليصابات وزكريّا. وقيل أنّ النبيّ بالغ من العمر الثلاثين تقريبًا وأنّه يثير حماس الجماهير بمواعظه اللاهبة ويبشّر بكلامه القاسيّ وحياته الشظيفة بأنّ ملكوت الله قد اقترب وأنّه جاء يمهّد السبيل أمام الآتي.

وكان الناس يتحدّثون عنه بكثير من الإعجاب ويكبرون فيه حياة التجرّد والتقشّف.

لم يكن طعامه إلاّ ما يلتقط من الجراد المتطاير في صحراء اليهوديّة أو من العسل البرّيّ ينتزعه من شقوق الصخور أو جذوع الأشجار.

وقد شاهده الناس عاريًا إلاّ من قميص نسج من وبر الإبل وقد علقت أذياله إلى منطقة ضخمة من جلد شدّها على حقويه.

ولقد غاب يوحنّا عن أنظار مريم منذ عهد طفولته، أمّا يسوع فلم يره قط. ومن المرجّح أن يكون قد فقد والديه الشيخَيْن ولمّا يبلغ بعد. هذا هو النبيّ الذي شغل الناس بالتحدّث عنه في الأشهر الأخيرة من حياة المسيح الخفيّة.

وقضى المسيح العمر عاملاً فقيرًا يعيش مع والدته من عمل يومه. وعلينا أن نذكر له دومًا هذه الحياة البسيطة الخشنة التي عاشها حتّى حين يتجمهر الناس حوله معجبين من كلامه وعجائبه. ولقد أُغرم بهذا النوع من الحياة الفقيرة، تشبّهًا بالمعلّم، جماعات من البشر فهجروا الدنيا قصورها وملذّاتها ليسيروا إثر خطوات ابن الناصرة العامل الفقير، ولقد رأينا شارل دي فوكول يهجر بيت والديه وهو ربيب النعمة ويؤمّ الناصرة ليعيش خادمًا في دير لراهبات الكلاريس الحبيسات.

أثر البيئة على المسيح

في هذه البيئة الفقيرة عاش السيّد المسيح وتعلّم الحياة من الصيّادين على بحيرة طبريّة ومن الفلاّحين والعمّال.

وقد امتاز سكّان الجليل بأخلاقهم السليمة وقلوبهم الساذجة مع شيء من الصلابة اكتسبوها من الطبيعة. عن هؤلاء أخذ المسيح اللغة والتقاليد وحبّ العمل والحياة. وغدًا حينما يخرج للبشارة حاملاً في شخصه صورة حيّة، أخذها عن شعبه، في تفكيره وكلامه ومعاملاته. فتراه قريبًا من كلّ إنسان ويحبّه الجميع.

ولعلّ طبيعة بلاده أثرت على حياته كلّها فنراه كثيرًا ما ينفرد في الليل ليصلّي لأنّه اعتاد منذ الصغر على حبّ الإنفراد في قلب الطبيعة. وأيّ إنسان لا يصلّي حينما تغمره الطبيعة بصمتها؟

إنّ بلاد الجليل كلّها جميلة خصبة خضراء، يحدّها وادي الأردن وبحيرة طبريّة من الشرق والبحر الأبيض المتوسّط من الغرب ومرج ابن عامر المختلف الألوان من الجنوب ويبدو جبل الحرمون شامخًا مكلّلاً بالثلوج من الشمال. وبين هذه وتلك تلال كأمواج البحر متلاحقة، تتفجّر في منخفضاتها ينابيع مياه عذبة تتجمّع حولها القرى الصغيرة.

من بلاد الجليل هذه، ينطلق المعلّم للرسالة، بعد أن استوعب معاني الحياة، إلى جنوبيّ البلاد إلى اليهوديّة الأرض الجبليّة القليلة التراب القاحلة حيث برزت الصخور الجرداء كأنّها الحِراب المسنّنة. وفيها بالقرب من مدينة القدس مرتفع الجلجلة، حيث الصخور المشقّقة تركت حفرة، فاغرة فاها، تترقب وصول صليب الربّ.

إنّه لؤلؤة مختفية

لا شيء يميّز المسيح في الناصرة عن غيره من المواطنين والمعاصرين. رجل ككلّ الرجال وعامل كباقي العمّال لا يختلف عنهم بشيء.

ولكنّ الأحداث كانت تتطوّر من داخل نفس المسيح. هنالك الهيكل المرصّع بالجواهر. هنالك العابد الحقيقيّ لله الآب. هنالك كمال القداسة والطهارة والمحبّة.

نزلتُ في مدينة بور سودان على البحر الأحمر لألقي رياضة روحيّة هناك. فتدرّجت يومًا حتّى الساحل فوجدت تلالاً من الصفد قد أخرجها الغوّاصون من أعماق البحر. وهي ليست إلاّ نوعًا من القواقع البحريّة ظاهرها تافه وباطنها لآلئ ثمينة. إنّها أشبه شيء بحياة المسيح في الناصرة. في الظاهر لا يختلف بشيء عن باقي البشر ولكن في داخله اختفت لؤلؤة لا مثيل لها.

ولقد قدّم المسيح بحياته هذه، المختفية عن أنظار البشر، أفضل مثال لكلّ نفس تتوق إلى الحياة الداخليّة وحبّ الاختلاء، ولاسيّما الحياة الرهبانيّة.

في الناصرة يخضع المسيح لمريم ويوسف. فكلّ ما يقع تحت يديه له حقّ التصرّف به وليس حقّ الملكيّة. كلّ شيء هو ملك والديه، لا شيء له. وهم من الأسر المكتفية بما تربح يوميًّا. فلا حاجة تدفع إلى الإستعطاء ولا فائض يدّخر. كلّ ذلك يبعد أنظار الناس

عنهم. ومع ذلك فالثلاثة بعيدون كلّ البعد عن التعلّق بحطام الدنيا. يوسف ومريم يعملان ليسوع. ويسوع يعمل للرسالة التي جاء من أجلها.

وغدًا يعلن بولس الرسول: **"إنّكم تعرفون نعمة ربّنا يسوع المسيح كيف افتقر من أجلكم وهو الغنيّ لكي تستغنوا أنتم بفقره"** (كورنتس الحادي عشر ٨: ٩).

ويعلن القدّيس لوقا أيضًا: **"الثعالب لها أوجرة، وطيور السماء أوكار، أمّا ابن البشر فليس له موضع يسند إليه رأسه"** (لوقا ٩: ٥٨).

فضل الاختلاء

أمّا مريم فقد أحبّت هي أيضًا هدوء بلدتها. فكانت لا تعيش مع يسوع ويوسف إلاّ لتخدمهما بعيدة عن الملذّات واللهو الخارجيّ. هنالك في هدوء بيتها هيّأت نفسها لأعظم مهمّة وأوسع رسالة. هنالك كانت تقضي الساعات، بعد الفراغ من خدمة البيت، في التأمّل بالله.

الاختلاء هو الجوّ الطبيعيّ للنفس ولولاه لهدّدت بالموت. والإنسان لا يرتاح إلاّ عندما يخلو إلى ذاته.

هلمّوا إلى مدرسة بيت الناصرة نتعلّم فضل اختلاء النفس بالله. فإنّ الإنسان لا يدرك معنى الحياة الداخليّة الخصبة إلاّ في حبّ الهدوء. وقد قيل بأنّ موطن النفوس الكبيرة الوحدة والاختلاء.

٤٩
وداع المسيح لأمّه

لقد انقضت مدّة الحياة الخفيّة، مضت الثلاثون سنة التي قضاها في الناصرة، متواريًا عن أنظار البشر، عابدًا الله بإتمام الأعمال اليوميّة، معلّمًا بذلك فضل حياة الاختلاء والانفراد في عمل إرادة الله على كلّ مظهر آخر من مظاهر الحياة.

فلمّا بلغ سكّان الناصرة نبأ يوحنّا السابق يعمّد للتوبة على ضفاف الأردن نبّه المخلّص والدته بأنّ ساعته أو بالحريّ ساعة الله قد حانت ليذهب ويعمل إرادة الآب.

ليلة الوداع

وفي ليلة الوداع جلس المسيح لآخر مرّة بقرب والدته يكشف لها بوضوح عن غايات وجوده على الأرض وعن رسالته التي يحملها للعالم.

كان الحديث بينهما وديًّا للغاية، لطيفًا في منتهى الكياسة، مؤثرًا أكثر من كلّ حديث سبق. ذلك أنّ الصباح التالي لتلك الليلة سوف يشهد لوعة الفراق بين الأمّ المحبّة والابن المخلص.

غدًا سيغادر المخلّص الناصرة إلى الكرازة والتبشير ولن يثنيه عن ذلك دموع والدته ولا الحنين إلى بلدته.

كان المسيح يشعر في قلبه بلوعة الفراق تحزّ نفسه وهو أكثر الناس إحساسًا بنبضات الحبّ الصافيّ لهذه الوالدة الأرملة التي سوف يتركها لأفكارها وهواجسها.
ومريم كذلك كانت تحسّ بقلبها ينقبض وجوانح صدرها تطبق عليه. هل تطيق الحياة بعد أن يفارقها ذاك الذي عاشت بقربه تلك السنين الطوال تخدمه وتبذل أمامه بسخاء التضحيات اليوميّة من فرط حبّها له؟
ولكنّ إرادة الآب تدعوه. فلا بدّ له من تلبية الدعوة. إنّه لهذا جاء إلى العالم. فلا يجوز للكلمة ووالدته أن يؤخّرا الخلاص ثانية واحدة عن موعده المضروب منذ الأزل. بل إنّهما ليساعدانه حتّى ولو شعرا بنفسيهما تتمزّقان.

قبلة الوداع

وفي الصباح التالي كان يسوع على استعداد تامّ لينطلق ومريم من ورائه تنظر إليه صامتة والدموع تسيل على وجنتيها. فاقتربت منه للمرّة الأخيرة وضمّته إلى صدرها وعانقته وحاولت عبثًا أن تقول له كلمة أخيرة ولكنّ الدموع حالت دون ذلك. وسالت على خدّيه دموع سخيّة. فشعر المسيح بأنّ أصابع يدها اللطيفة تمتدّ إلى وجنتيه لتجمع حبيبات دموعه المتساقطة.
وانسحب يسوع وانطلق بشجاعة إلى حيث يدعوه مجد الله وخلاص النفوس.
وبقيت مريم عند عتبة الدار تراقب خطواته بإلحاظها وقد حمل زوّادته وصرّة صغيرة ضمّت ملابسه القليلة.
ولمّا غاب عن نظرها دخلت بيتها لتعيش على ذكرى الحبيب. وكانت تسمع صوتًا من أعماق نفسها يقول لها بأنّها ما قصّرت بشيء وبأنّها أتمّت واجبها معه كاملاً وأصبح المسيح على استعداد تامّ. ولم تكن العذراء أقلّ استعدادًا منه للقيام بكلّ تضحية تفرضها إرادة الله لإكمال رسالة المخلّص.

مريم وحدها

وبعد الفراق كانت مريم تجلس وحدها إلى طبق الطعام، وتقضي ساعات الراحة عند المساء وأيّام السبوت منفردة تفكّر به.
أمّا السيّد المسيح فسار في الطريق المؤدّية إلى الأردن إلى حيث كان يوحنّا يعمّد. كان النهار باردًا وكانت أشجار البساتين عارية من أوراقها والأحواض من بقولها. إنّه فصل الشتاء القارس.
وقد اجتاز في طريقه بلدة نائين حيث سوف يعيد للأرملة وحيدها بأعجوبة.
وحدث ذلك في السنة ٢٧ ميلاديّة. وتلك السنة لدى اليهود سنة سبتيّة تعود مرّة كلّ سبع سنوات. فكان يمرّ في طريقه بالحقول وقد تُركت بورًا بدون فلاحة. لأنّ حركة الزراعة تُشلّ في تلك السنة فيستريح البشر والبهائم. أمّا الثمار فلا يقطفها أصحابها بل تبقى على الأشجار تحت تصرّف الفقراء والمعدمين.

وسار المسيح مسافة خمسة أيّام تقريبًا حتّى بلغ مكانًا من ضفّة الأردن لا يبعد أكثر من ثلاثة كيلو مترات من مصبّ النهر في بحيرة لوط أو البحر الميت.
على أنّ المسيح لم يغادر والدته إلاّ بعد أن كفل لها مستقبل أيّامها. فقد ترك لها كلّ ما توفّر لديه من دراهم كسبها من عمله وبعض المؤونة البيتيّة. وهو يعلم أنّها تكتفي بالقليل وأنّ أشغالها اليدويّة تدرّ عليها بعض المال.
وتمرّ الأيّام والشهور وولدها غائب. فتسائل عنه العائدين من وادي الأردن. لعلّ بعضهم التقى به على الطريق أو لدى اعتماده من يوحنّا. فتصغي إليه بلهفة وهو يخبرها كيف أنّ يسوعها انضمّ إلى جماعة الخطأة واعتمد من يوحنّا، بالرغم من اعتراض يوحنّا عليه وامتناعه عن تعميده، بحجّة أنّه لا يستحقّ أن يحلّ له سير حذائه؛ وكيف أنّ يسوع حسم المجادلة بكلمة: **"دعِ الآن! علينا أن نتمّ كلّ شيء"**؛ وكيف ظهرت حمامة فوق رأسه أثناء عماده؛ وكيف أنّ جماعة الحاضرين سمعوا صوتًا من السماء يقول: **"هذا هو ابني الحبيب فله اسمعوا"**.

العبر

ما أجدرنا أن نتوقّف هنا قليلاً لنتّخذ عبرًا من موقف السيّد المسيح وأمّه من هذا الوداع الأخير.
بالطبع إنّ ما سهّل على المسيح وأمّه الانصياع السريع لإرادة الله هو أنّهما اعتادا في الحياة على الطاعة لكلّ وصيّة وكلّ رغبة من وصايا الله ورغائبه.
منذ دخول المسيح العالم يقول: **"ها أنذا جئت لأعمل بإرادتك يا الله"**.
أمّا مريم فعلى بشارة الملاك تجيب: **"ها أنذا أمة الربّ"**. ولا غرابة في الأمر فإنّها هي التي تخرّجت من مدسة قدّيسَيْن، هما والداها يواكيم وحنّة.
ويسوع أيضًا خرّيج مدسة قدّيسَيْن هما مريم ويوسف. أضف إلى ذلك أنّه كلمة الله المتجسّد، والطاعة نظام، فإرادة المسيح لا تستطيع أن تحيد قيد شعرة عن إرادة الله التي وضعت هذا النظام.
فهل ننصاع نحن دومًا لإرادة الله وهل نلبّي دومًا رغائبه؟
كم من أمّ دعا الله ولدها للحياة الرهبانيّة أو لتوزيع الأسرار المقدّسة! فهل رضخت بسهولة وسمحت لولدها أن ينساق لصوت ضميره؟
وكم من دعوة سامية حال دونها صراخ الأهل ودموعهم!
التقيت يومًا بأمّ تندب حظّها وتقول: **"آه يا بنيّ ليتني تركتك صغيرًا تذهب إلى الدير بعد إلحاحك المستمرّ سنة كاملة. فمانعتك طمعًا بإعالتي وقد تزوّجت الآن وطردتني الكنّة فأصبحتُ بلا معيل"**...!
وهنالك أمّ ثانية كرّهت ابنها الحياة الرهبانيّة برسائلها المتواصلة وحبّبت إليه الدنيا، فلمّا شبّ انغمس في الفحش وارتكب جناية سرقة فأصبح في غياهب السجون. أمّا أمّه فتبكي الآن وتقول للمقرّبين نادمة: أنا الجانية عليه.

في المحاكم الكنسيّة دعاوى مردّها الأمّ الحماة التي فرّقت بين ولدها وزوجته، لأنّها حينما زوّجته وكانت تسيطر عليه، خيّل لها أنّها سوف تسيطر على كنّتها أيضًا. فلمّا شعرت بأنّ الزوجة استأثرت بحبّ ولدها، ثارت تريد أن تستعيد ولدها. ولكن هيهات أن تقاوم سنّة الله! وسنّة الله والطبيعة: **"أن يترك الإنسان أباه وأمّه ويلتحق بزوجته. وما جمعه الله لا يفرّقه إنسان"**.

سنّة الله في خلقه

وآيات الكتاب هذه تعني أوّلاً- أن يترك الرجل أباه وأمّه ويلتحق بزوجته، ليقوم بما يترتّب عليه، من واجبات جديدة، دون أن يتخلّى عن واجباته البنويّة، التي أوصت بها الوصيّة الرابعة: **"أكرم أباك وأمّك"**. وثانيًا- أن تترك الزوجة أباها وأمّها لتلتحق بزوجها فتبذل له من قلبها. وثالثًا- أن يتخلّى الأهل عن ولدهم الذي تزوّج وخرج عنهم ليقوم بواجباته الجديدة ويعيش باطمئنان وهناء في بيته الجديد. وعليهم أن يرافقوه بالدعاء ويتحمّلوا بطيبة خاطر ما قد يصدر عن رفيقة حياته.

رواية

من أجمل ما قرأت في حياتي رواية للكاتب الشهير رينه بازان وهو يسرد قصّة شابّة صغيرة تعلّقت منذ حداثة سنّها بشابّ من عمرها يقيم ذووه في مزرعة لا تبعد كثيرًا عن مزرعة أهلها.

وقد ترافقا إلى مدرسة القرية مدّة سنين وجلسا معًا يردّدان دروس النهار على ضوء قنديل، تارة في بيتها وطورًا في بيته.

وكان أهلوهما يبدون رغبتهم في أن يكون الواحد عروسًا للآخر بعد أن يجتازا عهد الدراسة. فكانت البنت محبّذة تلك الرغبة. بينما الشابّ كان يرغب في أن يكون كاهنًا. ولكنّه أبقى السرّ في ضميره ولم يكاشف به أحدًا من ذويه.

وكبر الشابّان وترعرعا على الحبّ البريء. حتّى كانت الحرب العالميّة الأولى فدُعي الشابّ كغيره إلى خوض المعارك ضدّ ألمانيا العدوّة التقليديّة لوطنه فرنسا.

وفي ساعات توقّف المعارك كان الجنديّ التقيّ يقضي الأوقات في الصلاة ولم يسمع رفاقه منه قط كلمة نابية، بل كان مطيعًا، خدومًا، محبًّا للجميع.

وقد أُعجب قائد الفرقة بأخلاقه فراح يراقبه عن كثب. وقد ألقى عليه بعض السؤالات في أحد الأيّام فتبيّن له منها أنّه يريد بعد نهاية الحرب أن يدخل المدرسة الإكليريكيّة ليصبح كاهنًا. فكشف حينئذ الضابط عن صدره وأراه أنّه كاهن.

وراح الضابط الكاهن يلقي على الجنديّ، كلّما سنحت لهما الفرصة، دروسًا في اللغة اللاتينيّة والعلوم الدينيّة.

ووضعت الحرب أوزارها ورجع الجنديّ إلى بلدته وذويه. وكانت الشابّة في استقباله بملابس العيد.

وبعد أيّام كان والد الشابّ يقول لزوجته بأنّه طلب يد ابنة جاره لابنه من والدها وأوصاه بتهيئة فستان الخطوبة.

فوعدت زوجها بأن تفاتح ولدها بهذا الحديث.

وفي اليوم التالي كشفت الأمّ الأمر لولدها. فقال الشابّ لأمّه أنّه لا يرغب أبدًا في الزواج وإنّما يريد أن يصبح كاهنًا للربّ.

فلمّا أعادت الأمّ لزوجها جواب ولدها حنق جدًّا وقال لها ما كنت أنتظر أن يخالف إرادتي. لقد وعدت أهل الابنة بالزواج. هذا وأنّي بحاجة كلّيّة لمساعدة ولدي في إدارة المزرعة. فأنا لا أرضى أن يتركنا ويدخل المدرسة الإكليريكيّة. وإذا أصرّ على إرادته فأنا لا أتعرّف إليه ولا أساعده بشيء من النفقات المدرسيّة.

ورجعت الأمّ إلى ولدها تحمل له جواب والده، فأبدى كلّ الإصرار على اتّباع الدعوة الكهنوتيّة. وتشاورا معًا في أمر النفقة فاتّفقا على أن يذهبا إلى رئيس الإكليريكيّة ويستشيراه في الأمر ويعرضا عليه أن يجعل من نفقة أوّل سنة دينًا عليه يدفعه ممّا يعود عليه في العطلة الصيفيّة من الدروس الخاصّة.

وكان الشابّ وأمّه في البستان جالسين تحت ظلال إحدى الأشجار عندما تشاورا في هذا الحديث. وكانت الابنة على غير عِلم منهما قد قاربت ذلك المكان ووقفت تعبث بإحدى الورود فتفتّت أوراقها وتنثرها في الهواء. وقد سمعت الحديث الذي دار بينهما.

وعند المساء كانت الشابّة في بيتها حينما دخل عليها خطيب وخطيبة سمعا بأنّها ابتاعت فستانًا لخطوبتها تريد الآن أن تبيعه. فلمّا عرضته عليهما أُعجبا به. فقالت إنّي مستعدّة أن أبيعه لكما لأنّي عدلتُ عن الخطوبة وقبضت منهما ثمنه.

وفي اليوم التالي دخل الشابّ وأمّه على رئيس الإكليريكيّة وبعد أن فاتحاه بأمر النفقة، قال الرئيس للطالب: ليطب خاطرك لقد حضر اليوم صباحًا شخص لم يكشف عن اسمه وقدّم عنك نفقة هذه السنة.

ومرّت السنون وارتسم الشابّ كاهنًا ورجع إلى بلدته ليحتفل بقدّاسه الأوّل. فلمّا التفت ليوزّع القربان كان أوّل مَن تناول من يده القربانة الطاهرة تلك التي لم تقف حائلاً دون دعوته بل سهّلت له السبيل إذ باعت فستان الخطوبة وبذلت ثمنه نفقة عن أوّل سنة.

الجزء الثامن
شريكة الفداء

٥٠
عرس قانا

"كان عرس في قانا الجليل وكانت أمّ يسوع هناك ودُعي أيضًا يسوع وتلاميذه إلى العرس" (يوحنّا ٢: ١- ٢).

نقرأ في إنجيل القدّيس يوحنّا أولى عجائب السيّد المسيح بينما أغفل ذكرها الأناجيل الثلاثة.

ودُعيت مريم أمّ يسوع إلى العرس فتركت بيتها في الناصرة واتّجهت نحو قانا.

الفصل ربيع وشمس نيسان تبعث بالحرارة والحياة إلى الحقول والأشجار فترى الطبيعة وقد تجلببت بثوب أخضر يهيج كأجمل أثواب العيد.

سيّدة الحفلة

والمسافة بين الناصرة وقانا أو كفركنّة، كما تُسمّى اليوم، ستّة كيلومترات لا غير. وتقع المدينة في الشمال الشرقيّ من الناصرة. يصلها المسافر بعد أن يقطع ربع الطريق المؤدّية إلى كفرناحوم، والطريق لا تستغرق أكثر من ساعة سيرًا على الأقدام.

ولعلّ مريم دُعيت إلى العرس لأنّها من أقرباء أحد العروسَيْن. والدليل على ذلك المركز الهامّ الذي شغلته أثناء العرس، فهي من أهل البيت، تهتمّ بكلّ شيء ولم يفتها نفاذ الخمر، فتتدخّل بالأمر وتستدرك ذلك النقصان.

والعادة في كلّ زمان، وخاصّة في بلاد الشرق هذه، أن تُعنى النساء في تحضير الطعام والشراب لتكون الوليمة مُرضية، سارّة للمدعوّين. والعرس لدى اليهود يقضي وجود عين ساهرة جدًّا، ذات خبرة طويلة في أمثال هذه الحفلات، لأنّ العرس كان يدوم من ثلاثة إلى ثمانية أيّام تبعًا لمركز العائلة الإجتماعيّ. والعرس الذي حضرته مريم كان لجماعة من أهل النعمة، بدليل الكمّيات الكبيرة من المياه المجهّزة للتطهير الطقسيّ ووجود **"رئيس وليمة"**. ويظهر من نصّ الإنجيل أنّ مريم ترأّست جوقة النساء القائمات على الخدمة مع بعض الرجال المأجورين.

ولعلّ ما امتازت به مريم من رزانة ونزاهة وتقى جعل أهل العرس يسلّمونها قيادة الخدمة، خوفًا من أن يهدر الطعام أو يحرم منه أحد كبار المدعوّين.

وجود يسوع

وقد دُعي يسوع أيضًا إلى العرس إكرامًا لوالدته. وكانت الفرحة الكبرى أن تعود مريم وتلتقي بابنها يسوع، بعد أن غاب عنها مدّة ثلاثة أشهر.

وكان يسوع على بعد ٩٠ كيلومترًا من قانا الجليل، في بيت صيدا، حيث كان يوحنّا يعمّد. والمسافة تستغرق ثلاثة أو أربعة أيّام. والطريق المعروفة منذ أقدم العصور تمتدّ في وادي الأردن وتجتاز أربعًا وعشرين محطّة من محطّات القوافل بسرعة عاديّة، بمعدّل ثماني ساعات سير كلّ يوم. وكان زوّار الأراضي المقدّسة يتبعونها بشكل جماعات كبيرة. والطريق ترتفع من بيت صيدا على الأردن إلى كفرقنة على سفح ينحدر انحدارًا سريعًا. فبحيرة طبريّة هي تحت مستوى البحر الأبيض المتوسّط بـ ٢٠٨ أمتار، بينما ترتفع كفرقنة إلى ٥٠٠ متر فوق سطح البحر. وينتقل الإنسان من بلاد النخيل الحارّة إلى بلاد القمح والكرمة. وكلّما ارتفع اتّسع الأفق أمامه. وعلى الطريق مشاهد أخّاذة على ضفاف النهر وخاصّة الخليج الذي تنصبّ فيه مياه الأردن في شماليّ بحيرة

طبريّة بين القصب الكثيف والشجيرات الملتفّة. وعلى سطح البحيرة ينعكس ظلّ قمم الحرمون المكلّلة بالثلوج. وقبل أن يصل المسافر إلى بحيرة طبريّة تظهر له، من بعيد، باتّجاه الغرب، قمّة جبل الطابور.

وكان المعلّم بصحبة اثنين من تلاميذه الجدد.

ولا بدّ من أن يكون نثنائيل أحد الرسولَيْن اللذين رافقا المعلّم إلى العرس، لأنّ قانا هي مسقط رأسه. وأمّا الرسول الثانيّ فيرجّح أنّه كان فيلبّس. أمّا سمعان وأندراوس ويوحنّا فقد تخلّفوا عن السفرة عائدين إلى بحيرة طبريّة وإلى صيد الأسماك.

وتصل القافلة الصغيرة إلى كفرقنة. وهي بلدة صغيرة ترتاح النفس لرؤية بيوتها المنتشرة بين البساتين الغنّاء والكروم الخضراء. وهي منحدرة على سفح إحدى القمم الثانويّة من جبل الجليل بين جبل الطور والجرمق.

ولقد ازداد القوم بشرًا بوصول المخلّص مع تلميذيه. وكانت مريم أمّ يسوع أكثر الحضور غبطة لدى رؤيتها وجه ابنها الحبيب.

وتعرّف تلميذا المعلّم إلى سيّدتهما لأوّل مرّة. واستأنست هي برفيقَيْ ابنها. فكان الفرح مشتركًا يطفح من قلوب الجميع.

ويسرّنا أن نراقب خطوات مريم وحركاتها، وهي تحضر حفلة الزفاف هذه في الليلة الأولى للعرس، والقمر بدر يملأ الرحاب بأنواره اللطيفة، والهواء عليل ينعش الفؤاد. وقد أُضيئت المشاعل وراح المغنّون يسمعون من أناشيدهم ما يبعث في نفوس المدعوّين الفرح والسرور. ومريم تهنّئ العروسَيْن وذويهما وبشائر الفرح بادية على محيّاها الجميل. إنّها لسعيدة أن تشارك الفرحين في أفراحهم وتزيدهم حبورًا.

رئيس الوليمة

وكان "**رئيس الوليمة**" وهو شخص له صفة شبه رسميّة ويُسمّى أحيانًا "**صديق العريس**" وأحيانًا "**رئيس التكاة**" وهو المكلّف بإدارة حفلات العرس، قد أعلن أنّ العرس قد بدأ. فأمر الخدم بأن يغسلوا أقدام العريس والمدعوّين ويقدّموا لهم الصحون العميقة ليغسلوا أيديهم. فغرف الخدم الماء من الأجاجين وهي أجران حجريّة كبيرة موضوعة في باحة الدار أو في الرواق المؤدّي إليها.

الوليمة

وكانت العادة أن يباشر بالعرس يوم الأربعاء، إذا كانت العروس باكرًا، وتمتدّ الأفراح حتّى يوم السبت التالي. فتُحمل العروس على المحفّة العرسيّة فوق الأكفّ من بيت أهلها إلى منـزلها الجديد. ولدى وصولها يحطّم أحد الأقرباء الوعاء الطقسيّ تحت المحفّة ثمّ يؤدّي العروسان يمين الإخلاص وراء الستار العرسيّ. وبعد هذا كلّه يبدأ الحاضرون بالطعام. أمّا المأدبة الرسميّة فكانت في اليوم الأوّل. ومن عادة اليهود أن يلتزموا في حياتهم جانب القناعة في الطعام والشراب، إلاّ في أمثال هذه الولائم فتراهم يغالون في البذخ والترف. فهنالك المآكل الدسمة، الطافحة بالسمن والدهن، واللحم والصيد والسمك

تتتالى على الموائد الواحدة بعد الأخرى مدّة ساعات طويلة. وجميع المآكل المطبوخة يخالطها البصل، عادة درج عليها اليهود منذ إقامتهم في أرض مصر.
وكان الشراب يتخلّل الأطعمة فتُدار الكؤوس على الحاضرين دافقة بالنبيذ الأحمر. حتّى أصبحت في اللغة العبريّة كلمة وليمة تعني حفلة شراب أو "**سكرة**".
والجليل بلد الكرمة يستخرج أهلها من العنب الخمرة اللذيذة.
ولقد ألف شيوخ اليهود صلوات خاصّة لتبريك الشراب. وقد حُرّم في الأعراس مزج الخمرة بالماء بل تُشرب صافية. فيقول الشارب قبل أن يشرب من الكأس: "**مبارك الخالق الذي أعطى الأشجار ثمارها**". كما حُرّم على المدعوّين شرب الماء، لأنّه يحطّ من كرامة صاحب العرس. وإنّما يُستخدم فقط للغسل والتطهير.
ويقوم النساء بالخدمة، بينما يتولّى الخدم صبّ الخمر في كؤوس الرجال المتّكئين بقرب الموائد.

طارئ مزعج

ولقد فات عريس قانا أن يحتاط لكلّ طارئ إذ كان عليه أن يستدرك أنّ كلّ عرس لا يخلو من ضيوف يرافقون المدعوّين وخاصّة في المدن الصغيرة والقرى، وقد يصبح عدد الضيوف ضعف عدد الأهل والأصدقاء المدعوّين.
ولم يمض طويل وقت على بدء الوليمة حتّى فرغت الخمر. وكانت مريم أوّل مَن تنبّه لهذا الأمر. وكان يعنيها أن تبعد، عن هذا الجوّ المرح، كلّ مكدّر.

الأعجوبة

فتوجّهت إلى ولدها بلباقة وخفّة، وهي تعرف ما يكنّه لها من حبّ وتقدير، وهمست في أذنه "**ليس عندهم خمر**".
إنّ مريم تخاف على العريس من الفضيحة. وأدرك السيّد المسيح بأنّ أمّه تدعوه لعمل شيء به يخلّص الموقف. ولولا أنّ مريم واثقة من مقدرته وعطفه لَما فعلت. ولكن لا يخامرها أدنى الشكّ في ذلك.
فأجابها: "**ما لي ولك يا امرأة؟ إنّ ساعتي لم تأت بعد**".
من الخطأ الجسيم أن نفهم من هذه العبارة لهجة توبيخ يوجّهه السيّد المسيح لأمّه. إنّه أكثر الأولاد احترامًا لوالدته وهو المعلّم الذي جاء يلقي دروسًا في كلّ محمدة على البشر.
والقرائن سوف تدلّ بأنّه ليس فقط لا يوبّخها أو يمتنع عمّا تطلب منه بل يلبّي طلبها بطيبة خاطر.
فالمعنى الحقيقيّ لهذه العبارة: أيّ شأن أو أيّ علاقة لنا أنا وأنت، ونحن ضيوف، في هذا الأمر؟ أما تعلمين أنّ ساعتي لم تأتِ بعد؟
وأنّ في لهجة المسيح هذه حنانًا ولطفًا يدلاّن على أنّه يعتذر بلباقة ولا يحبّ أن يتدخّل بما لا يعنيه. توفير الخمر هو من شأن أهل الدعوة وليس للمدعوّين أن يتدخّلوا به. ثمّ

يعود ليذكّر أمّه بأحاديث طويلة جرت بينه وبينها في الناصرة عن ساعة الله وعن أنّها مقرّرة أزليًّا. إذ يقول: **"إنّ ساعتي لم تأت بعد"**.

وقد فهمت من عينيه أيضًا أنّه لا بأس عليها أن تطلب ما تشاء، فإنّها الأمّ المحبوبة التي لا يرفض لها طلب.

وخطر لها والمناسبة جميلة جدًّا أن تدفع بعقارب الساعة لحظة واحدة إلى الأمام. إنّها توّاقة لأن تري مجد ابنها للناس ليؤمنوا به. فجاءت الأعجوبة تبيّن بأنّ مريم لم تخطئ في تقديرها لمحبّته وقدرته الإلهيّة. فرفضه ظاهريّ أكثر منه حقيقيّ.

أمّا قوله لوالدته: **"يا امرأة"** فيبدو لأوّل وهلة نابيًا لا تطيق وقعه الأذن. غير أنّ جميع شرّاح الكتاب لم يجدوا في هذه الكلمة ما يخرج عن أصول الأدب والإحترام. لأنّها في عرف الشعوب عبارة رسميّة تُخاطب بها السيّدة توقيرًا. وكان من الأدب والإحترام الزائد في البيئة اليهوديّة أن يستبدل الإنسان كلمة والدة بكلمة امرأة. والكتاب المقدّس يعرّف الرجل: **"مولود المرأة"**. ومن على الصليب سوف يناديها أيضًا: **"يا امرأة هوذا ابنك"**.

"وكانت هناك ستّ أجاجين من حجر موضوعة لغسول اليهود".

كان تقليد قديم يفرض على اليهود أن يغسلوا أيديهم قبل الطعام وبعده وأن يطهّروا كذلك مرارًا بالماء النظيف الصحون والأوانيّ التي تُستعمل للطعام. ولهذا الغرض وُضعت الأجاجين في مدخل الدار أو في باحتها.

وكانت تلك الأجران الحجريّة بمقاييس مختلفة **"يسع كلّ واحد منها كيلَيْن أو ثلاثة"**.

والكيل عند اليونان يتراوح بين ٣٨ و٤٠ ليترًا. فيكون مجموع ما احتوت عليه الأجاجين الستّ أكثر من خمس مئة ليتر.

وهذه الكمّيّة لا مبالغة فيها إذا ما ذكرنا أنّ العرس يدوم أسبوعًا كاملاً أحيانًا وأنّ العرس يضمّ في الشرق أربعين أو خمسين مدعوًّا يشربون على طاولة ممدودة بدون حساب ولا محاسب.

ولقد أشار الإنجيل المقدّس بأنّ الخدم ملأوا الأجاجين إلى فوق ليدلّ على أنّها لم تكن تحتوي إلاّ على ماء صرف ولا شيء آخر.

فنادت العذراء مريم الخدّام وقالت لهم: **"مهما قال لكم فافعلوه"**. إنّها لطريقة لطيفة جدًّا أرادت بها مريم أن تضغط على ولدها يسوع.

حينئذ قال لهم يسوع: **"املأوا الأجاجين ماء فملأوهن إلى فوق". فقال لهم أيضًا: "استقوا الآن وقدّموا إلى رئيس الوليمة فقدّموا"**.

ولمّا شعر الخدّام بأنّ الماء تحوّل إلى خمر أخذتهم الدهشة وجمد الدم في عروقهم! وهكذا بعد العبارات النابية في ظاهرها جاءت الأعمال تفنّد كلّ ظنّ بأنّ المسيح يعامل والدته بالقساوة.

وكان ما يزال أهل العرس في هرجهم ومرحهم فلم ينتبهوا لِما حدث. فحمل الخدّام الكأس الأولى إلى رئيس الوليمة وهي مملوءة من الماء المحوّل خمرًا. ولم يكن يعلم من أين هي. فراح يسأل العريس مداعبًا: **"كلّ امرئ يضع الخمر الجيّدة أوّلاً، وإذا ما سكر**

الناس يأتي بالدون. أمّا أنت فقد أبقيت الخمر الجيّدة إلى الآن". فلمّا تحرّى العريس عن حقيقة الخمر الجديدة أخذته هو أيضًا الدهشة والغرابة.

العبرة

ونحن إذ تستولي على نفوسنا الدهشة نتساءل بدورنا هل المسيح قام بهذه الأعجوبة إرضاء لمضيفيه؟ لا. لأنّه لا يعقل أن يقوم المسيح بعمل جلل كهذا من أجل أمر تافه وإرضاء لشهوة عابرة.

إنّ الإنجيل المقدّس بيّن لنا السبب الجوهريّ الذي حدا به إلى أن يعمل الأعجوبة حين يقول **"بأنّ تلاميذه لمّا رأوا مجده آمنوا به"**.

وفي صلوات حفلة الإكليل المقدّس نقول: **"يا مَن أظهر الزواج شريفًا بحضوره في عرس قانا الجليل"** دليل على أنّ المسيح يشاركنا في أفراحنا المقدّسة.

وتيمّنًا بتلك الأعجوبة التي اجترحها المسيح في حفلة عرس يذهب بعض سكّان فلسطين من المسيحيّين فيتقبّلون بركة الإكليل في قانا الجليل.

وأخيرًا نتعلّم من هذه الرواية ما هو مفعول صلاة مريم على قلب يسوع. فإنّه يحقّق طلبها وإنْ لم يكن بودّه أن يعمله. وهذه أوّل أعجوبة يعملها السيّد بناء على طلبها في ظروف تجمّعت كلّها حول فكرة واحدة: أنّ يسوع لا يرفض طلبًا لمريم أمّه.

٥١
مريم أثناء حياة المسيح المشتهرة

قضى السيّد المسيح ثلاثين سنة من أصل ثلاث وثلاثين قرب والدته كأنّ العالم لم يكن أو كأنّه لم يأت لينشر رسالة الخلاص لجميع البشر.

ومع هذا فقد جاءت الساعة تدعوهما للوداع فانفصل الابن عن أمّه وابتعد. تلك هي إرادة الآب السماويّ. وكان لا بدّ لهما من الرضوخ لها. وهي عندهما أعزّ بكثير من جميع الملذّات الشخصيّة.

المجد يواكب المسيح

وهكذا ظهر المعلّم بين البشر فاختبر ملذّات وأفراحًا غير التي خبرها في الناصرة بقرب أمّه. فالجماعات تزدحم بحماس من حوله، حاملة إليه مرضاها فيشفيهم ومتاعبها فيخفّفها، ومصغية متعطّشة إلى درر مواعظه فتصرخ: **"طوبى للبطن الذي حملك وللثديين اللذين رضعتهما!"** وكانت الجماهير تلحق به إلى الحقول وشواطئ البحار والجبال والصحاري، غافلة حتّى عن أخذ قوتها الضروريّ. ولقد تعلّق به الناس فراحوا لا يبالون بتهديد مشايخ اليهود ولا يخشون انتقامهم.

ولكنّ المسيح يختبر الآن ملذّات أعظم من ذلك الإنتصار الخارجيّ الذي لم يكن ذا أهميّة ليكترث به. كان يرى العشّارين يبتعدون عن ظلمهم للناس ويقبلون إليه ليتعلّموا

منه شريعة المحبّة والرحمة. كما جاءه الخطأة المفسدون بسلوكهم الطائش يرتشفون من نبعه الطهر والعفاف. وهنالك جمهرة من أصحاب النفوس البريئة السخيّة تهبه ذاتها بدون قيد أو شرط.

ولكنّ جميع الملذّات التي خبرها في الأعوام الثلاثة لا توازي متعة ساعة واحدة ينعم بها بجانب والدته القدّيسة.

فراق في الظاهر

على أنّ الانفصال بين يسوع ومريم كان ظاهريًّا أكثر ممّا هو حقيقيّ. فإنّ فكر المسيح يتّجه دومًا نحو أمّه وفكر الأمّ دومًا نحو ولدها. فالقلب يميل دومًا باتجاه مركز واحد هو الحبّ. وهل كان المسيح يستطيع أن يحبّ مَن هو أفضل من أمّه. أو هل كانت مريم تستطيع أن تجد أحبّ إلى نفسها من ابنها الإلهيّ؟

ولنا في الذين تعبّدوا لمريم مثال عن حبّ يسوع لها. فلقد تمكّنوا من توجيه أفكارهم بدون انقطاع نحوها. ولكنّ المثال يبدو ضعيفًا إذا ما قابلناه بحبّ يسوع لأمّه، فإنّها لا تغرب ثانية واحدة عن أفكاره. وكذلك مريم فإنّها دائمًا تفكّر به. وقد عُرف عن بعض النفوس التقيّة أنّها حصلت على نعمة التفكير بسيّدنا يسوع المسيح بصورة غير منقطعة. وكان ابنها يفكّر بها كلّما اصطدم بتصلّب الفرّيسيّين وتعنّت المتزمّتين، بينما كانت أمّه تفهمه كلّ الفهم وتحبّه كلّ المحبّة. وكان المسيح يشعر بانتعاش كلّما فكّر بأنّ أمّه ترافقه بقلبها حيث سار وحلّ.

إنّ حياة المسيح كلّها غائصة في بحر من الحنان والحبّ الوالديّ.

لقد طفحت السعادة، ولا غرو، في نفس المعلّم، حينما كان يتكلّم وسمع امرأة من بين الجمع تصرخ: **"طوبى للبطن الذي حملك!"** إنّ الصوت الذي ارتفع أراد أن يقول **"بأنّ من الثمرة تُعرف الشجرة"**، **"لأنّ الشوك لا يعطي عنبًا ومن العلّيق لا يُجتنى تين"**.

ونتساءل هل العذراء مريم اتّبعت ولدها إلى حيث كان يقيم مع تلاميذه وينثر مواعظه وإرشاداته ويجترح العجائب أم بقيت في الناصرة ترافقه بقلبها وتصلّي إلى الله من أجل نجاح رسالته؟

ليس في الأناجيل المقدّسة سوى إشارات خاطفة عن وجود العذراء في بعض الظروف بقرب ابنها. فهي تظهر فجأة على مسرح حياة المسيح العامّة وتختفي بنفس السرعة. فلا نعلم إنْ كانت تقيم معه أو أنّها تحضر من الناصرة ثمّ تعود إليها لتستسلم من جديد إلى حياة الصلاة والتأمّل.

تتبّع أخباره

على أنّه من المرجّح جدًّا أن تكون مريم مطّلعة دائمًا على ما يفعل ولدها مخلّص العالم وعلى ما يجري حوله من حوادث.

ففي بلاد الشرق تنتقل الحوادث بسرعة عجيبة. لا ينشد الشاعر بيتًا في بادية الشام حتّى تسمعه في أيّام معدودات على ضفاف النيل أو في بلاد الرافدين.

ولعلّ من أهمّ أسباب تناقل الأخبار قيام الأسواق في القرى والمدن في يوم معيّن من كلّ أسبوع. فيتجمّع الناس من القرى والمدن القريبة حاملين سلعهم من المحاصيل الزراعيّة أو الحيوان. وتقوم التجارة عند باب المدينة أو مدخل القرية فيتبادل الناس فيما بينهم تلك السلع ويتجاذبون أطراف الأحاديث. ولا يعودون إلى مواطنهم إلاّ وهم مزوّدون بالأخبار يشيعونها في أطراف البلاد.

وهكذا تناقل الناس أخبار النبيّ الجديد الذي حصر في شخصه في ذلك الوقت أهمّ الأنباء. فلا تسمع للناس حديثًا إلاّ عن شخصه وعجائبه ومواعظه.

ولعلّ من ناقلي الأخبار مَن سمعها بأذنه وشاهدها بأمّ عينه. ومنهم التاجر المتجوّل والمكاريّ والمسافر. ويقصد بعضهم منـزل أمّه ليحدّثوها عمّا سمعوا وشاهدوا. فتصغي مريم بفخر لنجاح دعوته، طالبة إلى الله أن يردّ عنه غوائل الحسّاد وتهديد الرؤساء والمتزمّتين.

وقد سمعت يومًا منهم قصّة المجدليّة التائبة وقيام ابن أرملة نائين من الموت واغتيال يوحنّا السابق ابن أليصابات في سجنه. ولا بدّ من أن تكون انتقلت إليها أخبار الصدّوقيّين والفرّيسيّين وما يتآمرون به عليه ويكيدون له بغية الحدّ من نشاطه وعرقلة أعماله بالدسّ والتهديد.

اعتراضات

بقي أن نتبيّن معنى تلك العبارات التي وردت على لسان السيّد المسيح يبدو منها كأنّه يحتقر والدته.

ففي عرس قانا، وهي أوّل فرصة يلتقي بها المعلّم مع والدته، لم يرفض طلبها حينما عرضت عليه بأنّ "**الخمر قد نفذ**" فإنّه لم يلبث طويلاً حتّى لبّى رغبتها.

ويسرد لنا القدّيس مرقس (٣: ٣١- ٣٥) حادثًا آخر. نزلت أمّه إلى حيث كان يقيم مع تلاميذه وقد تألّب الشعب عليه في بيت يصغي إلى تعاليمه. وفي غمرة ذلك الازدحام شقّت أمّه الصفوف ووقفت مع أقاربها عند الباب. "**فقيل له: ها إنّ أمّك وإخوتك في الخارج يطلبونك. فأجابهم قائلاً: مَن أمّي ومَن إخوتي؟ وأجال نظره في المتحلّقين حوله وقال: ها هم أمّي وإخوتي. فإنّ مَن يعمل مشيئة الله هو أخي وأختي وأمّي**" ثمّ يخرج إليها ويقابلها. لأنّه من غير المعقول أن يحجم عن تلك المقابلة.

ومرّة ثالثة، وقد أعجب الحاضرون ببلاغته، سمع صوتًا يرتفع بين الجمع ويقول: "**طوبى للبطن الذي حملك وللثديَيْن اللذيْن رضعتهما**" فيجيب: "**بل طوبى لِمَن يعي كلمة الله ويعمل بها**". ولا بدّ أن يكون المعلّم قد أخذته نشوة الفخر بذلك الإطراء.

وعلى الصليب، بينما وقفت مريم وقلبها يتمزّق تنتظر منه كلمة أخيرة، قال، وهو يشير إلى يوحنّا: "**يا امرأة هناك ولدك**" وليوحنّا "**تلك أمّك**" وأنّ أحدًا لا يشكّ لِما في هذه البادرة، وهي تصدر عن معلّق على الصليب، من عناية ومحبّة.

ولنضفْ إليها حادث الهيكل، وهو في الثانية عشرة من عمره، إذ يقول لها ولأبيه بجفاف: "**أما تعلمان أنّه ينبغي لي أن أكون فيما هو لأبي؟**" ثمّ يتبعها إلى الناصرة ويخضع لأوامرها مدّة ثماني عشرة سنة.

كلّ تلك العبارات، وغيرها التي أغفلها الإنجيليّون، تشعرنا كلّما قرأناها كأنّ هوّة قامت بين المسيح وأمّه بعد أن ابتعد عنها في الثلاثين من عمره.

تلك هي المواقف في ظاهرها. ولا بدّ من هتك حجب ذلك الظاهر لنتبيّن ما انطوت عليه من معان سامية وعِبر.

والمنطق يفرض علينا أن نقرّبها من بعضها البعض ومن القرائن. أيّ أن نقرّب العبارات التي نسمعها من الأعمال التابعة لها والناتجة عنها.

أوّلاً- إنّ المسيح ابن مريم طائع لأمّه خاضع لأدقّ أوامرها. ومن سلوكها معه يتبيّن بأنّها متمسّكة بحقّها وممسكة بزمام حياته ورعايته.

ثانيًا- إنّ السيّد المسيح يميّز عن تلك الشخصيّة البنويّة شخصيّة ثانية قائمة على حدود الأولى غير منفصلة عنها خاضعه لرسالة معيّنة لا سلطان لمريم فيها عليه، ينفرد بها عن أمّه ويذكرها بقساوة كلّما سنحت الفرصة: إنّه فيما لله ضمن حدود الرسالة التي حمل أعباءها.

الأجوبة

ذلك هو الظاهر وعن آباء الكنيسة وعلمائها نستمدّ معانيه:

أوّلاً- ممّا لا شكّ فيه أنّ القدّيسَيْن لوقا ويوحنّا حينما يسردان تلك المواقف لا يفكّران أصلاً بوضع المسيح موضع الابن القاسي المتمرّد. ولكنّهما يتحقّقان فيها بأنّ مريم توضع موضع عامّة البشر وأنّ المسيح ينفرد عنها برسالته الجديدة التي لا اعتبار فيها بعد هذا للحم والدم والعِرق والنَسَب. وهكذا ينتج بأنّ الأمومة بالجسد ليست بشيء إلاّ إذا رافقتها أمومة بالروح، لأنّ المسيح أصبح الآن في حياته المشتهرة من مملكة الروح، حيث لا مكان للأبوّة الجسديّة.

ثانيًا- إنّ الكنيسة بعد أن فهمت أنّ معاني تلك المقاطع من الأناجيل هي لصالح مريم ولتمجيدها، وضعتها في طقوس وأعياد مريم الرسميّة. هكذا نجد قصّة المرأة التي رفعت صوتها لتبارك البطن الذي حمله في إنجيل اليوم الثامن من أيلول. أمّا في التاسع منه، وهو تذكار الصدّيقَيْن يواكيم وحنّة والدَيْ العذراء، يقرأ عن القدّيس لوقا حادث مجيء أمّه وإخوته إليه. ويعاد إنجيل الثامن من أيلول في اليوم الحادي والعشرين من تشرين الثانيّ، عيد دخول سيّدتنا والدة الإله للهيكل. ويعاد إنجيل اليوم التاسع من أيلول في اليوم التاسع من كانون الأوّل وهو يوم عيد حبل القدّيسة حنّة بوالدة الإله. أمّا إنجيل الصعود إلى الهيكل في الثانية عشرة من عمر المسيح وكلمته لوالدَيْه: "**أما تعلمان أنّه ينبغي لي أن أكون فيما لأبي؟**" فيُتلى في قدّاس اليوم الأوّل من شهر كانون الثانيّ. ويعاد الإنجيل الثامن من أيلول في اليوم الخامس عشر من شهر آب، يوم عيد انتقال السيّدة العذراء.

وأخيرًا يعاد إنجيل الثامن من أيلول في قدّاس اليوم الحادي والثلاثين من شهر آب وهو يوم وضع زنّار سيّدتنا والدة الإله.

فليست تلك النصوص إذًا ضدّ مريم. وهي إنْ دلّت على شيء فلا تدلّ إلاّ على أنّ الأمومة الطبيعيّة لا تفوقها إلاّ الأمومة الروحيّة.

ثالثًا- تدرك مريم العذراء جيّدًا أنّ مبدأ سعادتها لا يتأتّى عن كونها أرضعت يسوع ولكن عن أنّها أصغت إليه وعملت بمشيئته. فهي ككلّ بشر خاضعة لسنّة المساواة، والمسيح ببشارته جاء يعلّم الناس هذه المساواة بين جميع البشر.

وأنّ مريم لتغتبط كلّما شعرت بأنّها من مصافّ إخوانها البشر. نعم هي تشعر دومًا بالانعامات التي خصّها الله بها ولكنّها تعلم بأنّها ما وُهبت لها إلاّ ضمن الشروط التي سبّبتها ألا وهي إرادة الله في خلاص العالم.

فالمسيح كما يظهر للناس في الحياة المشتهرة لا يتعلّق بأيّ شخص في العالم ولا يخضع لأحد. إنّه بكلّيته لشؤون أبيه.

ومن المسلّم به أنّ كلّ امرأة لا تلد ولدًا لذاتها بل تلده للعمل فيما هو لله.

وهكذا يتّضح كيف أنّ المسيح حينما يغادر والدته إلى حياة التبشير ينتقل إلى عالم آخر، عالم بعيد جدًّا عن الحياة المنزليّة والعائليّة، عالم يتّسع أفقه لجميع البشر، فيه يعيش المسيح بعيدًا عن والدته.

فإذا ما شطّت مريم عن هذه الطريق ذكّرها المعلّم بها وأثبت لها أنّه مصمّم على البقاء فيها لأنّه الطريق المؤدّية إلى عالم الله أبيه. وكما أخلص لها ولنظام الحياة الخفيّة في الناصرة كذلك يريد الآن أن يخلص للآب السماويّ ولنظام الحياة المشتهرة فيخرج من دائرة الأسرة والبلدة والوطن إلى العالم والبشر. لأنّ رسالته إنسانيّة شاملة جميع الناس والأوطان والأجيال.

العبر

هكذا نتّخذ عن المعلّم المبدأ السليم: إنّ كلّ تعلّق دنيويّ مهما كان شريفًا وبريئًا يجب أن يفضّله مثل أعلى كعمل إرادة الله. وأنّ اتّحاد القلوب في الطاعة لهذه الإرادة لها قيمة دينيّة تفضّل جميع العلاقات الدمويّة.

وأخيرًا يجب أن نفهم أنّ عالمًا تسوده العنصريّات والحزازات نهايته التفرقة والهدم والخراب. فإنّ التعصّب للقوميّة كالتعصّب للعشيرة والقبيلة له نتيجة واحدة وهي فصل الأمّة عن باقي المجتمع البشريّ وقيام هوّة عميقة بين الأفراد والجماعات من شأنها أن تخلق جوًّا في الظاهر نشيطًا مثمرًا وفي الواقع تبعث الضغائن والأحقاد وتثير الحفائظ.

هذا دين النبيّ الجديد يحمّله بشارة خير وسلام وأخوّة ومساواة. وأوّل مَن تتلقن الدرس البليغ هي مريم أمّه ومعها أولاد عمّه وأقاربه ومواطنوه ومن بعدهم البشريّة جمعاء.

٥٢
إلى الجلجلة

عاشت العذراء مريم مدّة سنتين تقريبًا وحيدة في الناصرة أو في كفرناحوم على شاطئ بحيرة طبريّا بينما كان يسوع المبشّر المتجوّل يحمل للعالم بشارة الملكوت.

بعد العشاء السرّيّ

ثمّ حلّ موعد الفصح الأخير من حياة السيّد المسيح على الأرض، ذلك الفصح الذي رسم أثناءه سرّ القربان والكهنوت الأقدسَيْن. وقد اعتقد بعضهم أنّ مريم حضرت مع باقي النساء اللاتي كنّ يرافقن المعلّم حفلة العشاء السرّيّ وقمن بخدمة الموائد.

وقد حرّمت الشريعة اليهوديّة أن يمتدّ ذلك العشاء الفصحيّ إلى ما بعد منتصف تلك الليلة. وبناء عليه، بعد أن أُعيد كلّ شيء إلى مكانه، رقدت مريم ليلتها هناك مع النساء، بينما انطلق المعلّم مع تلاميذه إلى بستان الزيتون حيث وقف له إبليس بالمرصاد ليتلقّفه فريسة نهم.

وفي الساعة الثانية بعد منتصف ذلك الليل المظلم انتفضت النساء فجأة من رقادهنّ مذعورات. فإنّ أحد الرسل فرّ من أيدي القتلة وجاء وأعلمهنّ بأنّهم أوقفوا المعلّم في الجسمانيّة وقد تمّ ذلك بقيادة التلميذ الخائن يهوذا الإسخريوطيّ.

عند دار قيافا

وفي الساعة السادسة صباحًا كانت مريم عند باب قصر قيافا رئيس الكهنة مع النساء ومريم المجدليّة وصالومي ومريم التي لكلوبا وحنّة وسوزان. كلّهنّ يبكين ويلطمن وجوهنّ. لقد وقع المعلّم في أيدي الحسّاد المتزمّتين والممسكين على مدخول الهيكل وصناديقه.

وبعد محاكمة صوريّة تمّت تحت جنح الظلام يخرج المعلّم ويداه مشدودتان وراء ظهره. فوقع عليه نظر أمّه وقد اثخن جسمه بالضرب وبدت على وجهه علائم التعب والإرهاق.

واتّجه الموكب من جنوبيّ مدينة القدس نحو دار بيلاطس الحاكم الرومانيّ فقطع مسافة كيلو متر تقريبًا بين صفّيْن من المتفرّجين أكثرهم ممّن ثارت الحفيظة في نفوسهم.

عند دار بيلاطس

وعند الساعة السابعة احتشدت المدينة كلّها عند أبواب الحاكم الرومانيّ تترقب الحكم. وطال استجوابه. إنّه لم يجد عليه علّة. فهل يجد بيلاطس بقيّة من رحمة في قلبه ودرهمًا من عدل فينجّيه على الرغم من صراخ الرعاع! ولكنّ الشيوخ والفرّيسيّين والكتبة كانوا من خلف الجماعة يدفعونهم إلى طلب الموت.

أمّا مريم فكانت بين جماعة الناقمين المحرّضين والمدفوعين تسمع صراخهم وتشعر بثورة الجحيم على المخلّص.

ويحاول بيلاطس تهدئتهم. ولكنّ الشعب ثائر لم يعد يعي ما يريد فهو يصرخ بملء حنجرته "**الموت له! اصلبه! اصلبه! فيجيبهم ولكنّي لم أجد عليه علّة!" "اصلبه! دمه علينا وعلى أولادنا!**".

نعم لم يجد بيلاطس العلّة التي من أجلها كُتب على المسيح أن يموت. والعلّة؟ لقد ثقلت على البشريّة أوزار الخطايا فإنّها تريد لها فدية.

نعم دمه عليهم وعلى أولادهم. لأنّ هذا الدم وحده مطهّر آثام البشر.

على درب الصليب

وسار الموكب من جديد بعد أن لفظ الحاكم الرومانيّ حكمه بالموت على ابن مريم. وكانت المسافة إلى الجلجلة التي ستشهد تنفيذ الحكم ألف متر تقريبًا. ويتألّف الموكب المظلم من قائد المئة وثلّة من الجنود ومجرمَيْن حُكم عليهما بالإعدام وجماعات غفيرة بينهم مَن أخذتهم الشفقة على هذا النبيّ الذي شفى بالأمس مرضاهم وأقام موتاهم ونثر عليهم دررًا من عِلم المحبّة والعدل والإنسانيّة، وبينهم المتفرّج الذي جاء يشهد تنفيذ حكم الإعدام مدفوعًا بغريزته، وبينهم أخيرًا قادة إسرائيل المجرمون. أمّا مريم فتراها من بعيد تتحيّن الفرص لتلقي نظرة أخيرة على ولدها، كأنّها تريد أن تحمل معه شيئًا من آلامه ومن خطايا البشر لتخفّف عنه وطأتها.

لا نعلم بالضبط إنْ كان البشر قديمًا أكثر شراسة أو أقلّ من عالم اليوم. وإنّما كانوا أحيانًا أكثر إنسانيّة. فكان يُسمح لأقرباء المحكومين بالإعدام بزيارتهم في السجون. وها هي مريم مع جماعة النساء يرافقن الموكب إلى مكان العذاب والموت. وكنّ ينحن ويلطمن "**والتفت يسوع إليهنّ وقال: "يا بنات أورشليم لا تبكين عليّ ابكين بالحريّ على أنفسكنّ وعلى أولادكنّ**". البكاء على الهالك، أمّا المسيح فإنّه بري.

عند الصليب

ووصل الموكب إلى الجلجلة. ومرّت دقائق كأنّها شهور بما تحمل في طيّاتها من آلام جسام. لقد رأته أمّه وقد جُرّد من ملابسه وسمعت بأذنيها الطرقات تنهال لتدفع بالمسامير عبر يديه ورجليه كأنّها ضربات تدفع بالمسامير حتّى أعماق قلبها. وبعد أن رفعوا الصليب عاليًا ليرى العالم ذلّه شاهدت مريم جماعة الكهنة والكتبة ومَن إليهم يستهزئون به ويجدّفون عليه.

ثوب المسيح

"ولمّا صلب الجند يسوع أخذوا ثيابه، وجعلوها أربع حصص، لكلّ جنديّ حصّة، وأخذوا القميص، ولم يكن مخيّطًا بل كان منسوجًا من فوق إلى أسفل. فقالوا فيما بينهم: لا نشقّه، بل لنقترع عليه لِمَن يكون. وهكذا تمّ قول الكتاب: "**اقتسموا ثيابي بينهم وعلى ثوبي اقترعوا**" (يوحنّا ١٩: ٢٣- ٢٤).

كانت أثواب مَن ينفّذ بهم حكم الإعدام صلبًا تعود شرعًا لجلاّديه. إنّها **"هبة كرامة"** لهم. وقد اعتقد بعضهم أنّ الثوب من صنع مريم غزلته بيديها وبرة وبرة ونسجته بأناملها خيطًا خيطًا. إنّه أشبه ما يكون بقميص رئيس الكهنة الطقسيّ. والمسيح هو حَبر الأحبار والذبيحة الكهنوتيّة السامية. وقد رأت الكنيسة في ذلك الثوب منذ أجيالها الأولى رمزًا لوحدة كنيسة المسيح السرّيّة يعسر على البدع أن تقوى على نسيجه الخالد. وهو رمز أيضًا إلى تلك الوحدة التي صنعتها مريم حينما صنعت جسم المسيح الحقيقيّ.

وقفة الأبطال

وفي حلكة الظلام الذي انتشر بأعجوبة على الأرض تسللت مريم واقتربت من خشبة الصليب.

كانت واقفة متجلّدة، كأكثر ما يكون الأبطال في ساعة الوغى، تقدّم لله الآب ذبيحة ابنها، تقدّم ذبيحة ذاتها كفّارة عن خطايا البشر. إنّها شريكة ابنها في خلاص وفداء الإنسانيّة الخاطئة.

ويحني المسيح رأسه ويسلم الروح. **"لقد تمّ"** ما أراد الله الآب من تغطية كاملة لخطايا البشر. لقد اشترى الفاديّ الإنسانيّة بموته من أجلنا. **"والكثيرون يخلصون به"**.

واتّكأ المسيح على صليبه مرتاح الضمير لأنّه أتمّ الكتاب بحذافيره ووفى العدل لله الآب وفاء كاملاً.

لقد شعرت مريم آنئذ بالسيف يجوز في نفسها فيقطع منها أوصال قلبها الوالديّ.

في تلك الأثناء كان يوسف الراميّ يقوم بالمراجعات الضروريّة لتسلّم جسم المسيح.

فجاء جنديّ يتحقّق من موت المسيح قبل تسليمه للدفن. فطعن جنبه بحربة، فسالت آخر نقطة دم فداء.

القبلة الأخيرة

ويقترب يوسف الراميّ ليتسلّم الجثمان الطاهر بناء على أمر الحاكم الرومانيّ. فتُنزع المسامير وتُحلّ الحبال من حول ساعديه ورجليه ويُنزل باحترام زائد من على الصليب.

فتمدّ مريم ذراعيها وتضمّ ولدها إلى صدرها وتضع على جبينه آخر قبلة.

ومالت الشمس نحو المغيب فغمرت بأشعّتها الباهتة القبر الذي ضمّ جسد المسيح والتقت المدينة المجرمة بثوب حالك السواد في تلك الليلة حدادًا على ربّ المجد.

وارتدّت مريم إلى المدينة تسير بخطًا ثقيلة يحيط بها التلميذ يوحنّا والنساء، لا يُسمع لهم سوى تقطّع العبرات.

وأسدل على المدينة جوّ من الصمت مرعب، إلاّ أنّ بعض النجوم بدت في السماء تشير إلى أنّ ما وراء الأفق البعيد عالمًا آخر وحياة أبديّة.

٥٣
عند أقدام الصليب

كاهن وذبيحة

لم تقف العذراء مريم عند أقدام الصليب لتحضر تنفيذ الحكم بابنها حضور شاهد. ولكنّها وقفت وقوف شريكة في تلك الذبيحة الخلاصيّة التي كان فيها الكاهن والذبيحة المسيح بالذات.

ولقد فهمت الكنيسة ونقل لنا التقليد الدائم عن الأجيال المسيحيّة الأولى أنّ وجود مريم على الجلجلة كان وجود كاهن على الهيكل تقدّم مع ابنها ذبيحة حياتها كفّارة عن خطايا العالم.

ولقد بلغت آلامها النفسيّة منتهى الشدّة إبّان نزاع السيّد المسيح على الصليب فأدركت المعاني التي تضمّنتها نبوءة سمعان لها قبل ثلاثة وثلاثين عامًا يوم تقدمة الطفل يسوع للهيكل. إنّها تحمل في قلبها منذ ذلك الحين الخنجر المخضّب. لقد كانت على عِلم بكلّ ما سوف يحدث لولدها. وقد تحمّلته ببطولة فائقة. ولكنّ العِلم شيء واختباره شيء آخر. ولذلك يمكننا أن نعتبر حياتها كلّها استعدادًا لهذه الساعة الهائلة. ولقد شعرت آنئذ بالوحدة القائمة بين نفسها ونفس ولدها. إنّها أكثر التزامًا من كلّ وقت مضى بتحمّل التضحية. فشعرت بأنّ آلام المسيح كلّها تتجاوب لها أصداء كاملة في أعماق نفسها.

وها هي واقفة متجلّدة بقرب ولدها حتّى أنّ آلام المسيح كلّها لم تقو على هدّها وتحطيمها.

وكانت تُحِسّ في نفسها بجميع النبوءات التي أُغميت معانيها على شعبها والتي سبقت فرسمت صورًا مؤلمة عن إذلال المسيح وتعذيبه. لقد أدركت معانيها كلّها وخبرتها في نفسها

وليس اليهود فقط هم الذين فاتهم معنى النبوءات بل أنّ البشر عامّة لا يسمون إلى معنى الألم ومفاعيله على هذه الأرض. وبما أنّهم لا يدركون أنّ الألم صورة صادقة عن حبّ المعلّم، به يضفر إكليلهم ويظفر بالثواب ويتلافى مصدر الفساد، لذلك تراهم يشكّكون في قيمته. فلا يرون فيه إلاّ دليلاً على عدم حبّ الله للبشريّة وقد ينتهي بعضهم إلى نكران وجود الله بالذات.

ولكي يدركوا لا بدّ لهم من مرافقة مريم إلى أقدام الصليب حيث يبدو لهم جمال الألم بشخص المسيح وأمّه وهما يتقبّلان بطيبة خاطر شراسة الجلاّدين ووحشيّتهم في سبيل إرضاء الله وتخليص البشريّة من الهلاك الأبديّ.

تتألّم لتشارك ابنها في آلامه

وعلى كلّ حال فإنّه ليحلو لمريم أن تتعذّب وتتحمّل مرّ الألم لا لشيء وإنّما لأنّ ولدها يتعذّب ويتألّم في سبيل أنبل غاية هي مجد الله وخلاص البشر. وهكذا يبدو لها العذاب مقدّسًا. فإنّ عظمة الشيء تقاس بفائدته وفائدته بإتمام إرادة الله. إذ لا عبرة في الدواء بمذاقه المرّ ولكن في فعاليّته على تحسين الصحّة. فمَن أهمل أسباب الصحّة بسبب مرارة

الدواء يشبه الطفل الذي أفسده الدلال. وما أكثر صغار النفوس الذين يخشون الألم والموت!

أمّا مريم فإنّها تقترب من أقدام الصليب لتقترب من ابنها وتشاركه في آلامه. وموقف مريم يُعيد إلى الذاكرة مشهدًا من أكثر المشاهد البشريّة أثرًا على النفس، مشهد كلّ أمّ تتألّم لألم ولدها في السجن أو في ساحة المعركة أو في كلّ مكان استبدّ ظلم الإنسان بالعدل والمحبّة.

تتألّم لتكفّر عن خطايا البشر

وتجد مريم في مشاركة ولدها في آلامه حافزًا لها يدفعها لتقبّل كلّ عذاب ومرارة. إنّها تعرف شرّ الخطيئة فتريد أن تمحو لها كلّ أثر من كتاب الله ولو كلّفها ذلك التضحية بابنها الحبيب والتضحية بحبّها الوالديّ وحمّلها كلّ عذاب. أكرم بنفس تتّخذ لها من بغض الخطيئة منهاجًا عمليًّا وشعار حياة!

وإنْ كنّا لا ندرك إلاّ قليلاً آلام مريم البتول فلأنّنا لا نتألّم إلاّ لِما يمسّ جسمنا أو يسيء إلى الأثرة ومحبّة الذات المتأصّلة في نفوسنا أو إلى عجرفتنا وكبريائنا. نتألّم كذلك من نكران الناس للجميل أو للظلم يلحق بنا أو بِمَن يلوذ بنا أو بوطننا. وقلّما نتألّم من خطيئة نرتكبها على اعتبار أنّها إهانة لله.

فلكي نشعر بشرّ الخطيئة وتتألّم نفوسنا لارتكابها أو لمشهدها لا بدّ لنا من حبّ عميق لذاك الذي تهينه الخطيئة وللنفوس التي تبعدها الخطيئة عن غايتها القصوى.

وقد سبرت مريم غور شرّ الخطيئة لأنّ قلبها كان يشتعل بحبّ الله وبولدها المرفوع على الصليب وبالنفوس المفتداة.

كانت تعرف مدى ما تفتك الخطيئة بالنفس البشريّة وما تحمّل ولدها ليمحو آثارها وليعيد إلى تلك النفس النعمة المفقودة.

إنّ سبب تألّمها عند أقدام الصليب هو مجموعة الخطايا البشريّة في أرهب شناعتها، هو تمرّد المتمرّدين وعصيان العصاة وفتور الفاترين وإعراضهم عن أمور الدين، هو النفوس الثائرة على مخلّص العالم وإنجيله وكنيسته والأمل بالآخرة.

وأخيرًا إذا أمكن القول بأنّ أقلّ أعمال مريم في حياة المسيح الخفيّة بالناصرة كانت تزيد محبّتها لله قوّة واشتعالاً فما أعظم ما كانت مفاعيل حبّها لله عند أقدام الصليب!

ما أكثر الذين نصبوا أمام عيونهم صورة المصلوب وبقربه مريم! مشهد ما أوحى مثله أيّ مشهد آخر حنانًا على المسيح المتألّم وحسرة على الخطيئة.

تتألّم لتشارك في سرّ الفداء

وهذا الاتّحاد الظاهر للعيان بين المصلوب وأمّه لم يكن إلاّ صورة لاتّحاد آخر أبعد منه مدى وأعمق أثرًا، اتّحاد يجمع بين مريم وآلام المسيح، بل بين مريم ورسالة المسيح ابنها. هذا الابن الذي أرسله الله مخلّصًا للعالم.

كان من المفروض والمقرّر أزليًّا أن يخلّص المسيح بالاتفاق مع مريم أمّه العالم من الهلاك الأبديّ. فيكون هو الفادي وهي شريكته في الفداء.

ليس باشتراك مريم في الذبيحة الخلاصيّة ما يزيد في ثمنها شيئًا، إذ إنّ ذبيحتها لا تتعادل بذبيحة ابنها. غير أنّ مريم وجدت تعزية عظمى في أن تتألّم مع ولدها ومن أجله.

والقول بأنّ ذبيحة المسيح مبدئيًّا هي غير متناهية لا ينفي أن تكون عمليًّا، باشتراك مريم فيها، قد أصبحت أكثر فاعليّة في نفوس البشر.

وقد قرّر المخلّص أيضًا أن تصبح مريم أمًّا للبشر ولذلك وجب عليها أن تلدنا للحياة الروحيّة الفائقة الطبيعة. لقد استطاعت، على اعتبار أنّها شريكة لابنها في الفداء، أن تلدنا لهذه الحياة الإلهيّة.

وأخيرًا قرّر السيّد المسيح أن تقوم أمّه حتّى منتهى العالم بوظيفة وساطة بينها وبينه. حتّى أنّ كلّ نفس لا تصل إلى المسيح إلاّ بواسطة مريم. ولذلك كان عليها أن تشارك المسيح في خلاص البشر، إذ إنّ رسالتها في الكنيسة تنبع من كونها شريكة في سرّ الفداء.

من على الصليب أرسل يسوع صيحة عظيمة: **"يا أبتاه في يديك أستودع روحي!"** كأنّه بذلك يؤكّد أنّ قوى الحياة فيه لم تنضب وأنّه يموت بمطلق إرادته. وتلك الصيحة كانت تستطيع أن تقضي على حياة أمّه مريم. وما من شكّ في أنّها تمنّت من أعماق نفسها لو فارقت الحياة آنئذ بجوار ابنها على الجلجلة. حتّى أنّ بقاءها على الأرض اعتبر أعجوبة. بل إنّها لأعجوبة دائمة أن تعيش مريم منفصلة عن ابنها الحبيب. والأعجوبة هذه اعتمدت على إرادة مريم البطلة إذ تحمّلت البقاء على الأرض عملاً بإرادة الله.

مأساة مفجعة تمثّلت فصولها في نفس مريم في تلك الحقبة من الزمن. كانت البشريّة قد مثّلت بمخلّصها حتّى طفح كيل خطاياها بارتكابها أشنع الجرائم. كانت أعصاب أفضل المقرّبين قد انهارت حتّى الخيانة. والشمس أظلمت والأرض زلزلت والأموات قاموا. حتّى خُيّل كأنّه يوم البعث والحشر. وفي الوقت الذي فيه فارقت نفس المسيح هذا العالم بقيت مريم وحدها تعبد الله. إنّها تمثّل شفاعة المسيح وتضحيته الخلاصيّة. وكما أنّها كانت لدى البشارة الشفق الذي أنار نهاية العهد القديم أضحت الآن الغلس لنهار عهد جديد على الدنيا.

ولم تقتصر ذبيحة حياة مريم على ذبيحة حياتها على الجلجلة بل تعدّتها إلى ما بعد الجلجلة، لقد امتدّت إلى ما تبقّى من حياتها على الأرض بل إلى ما بعد هذه الحياة.

كان لها رسالة سامية فُرض عليها أن تتمّها قبل تخلّيها عن هذه الأرض، تلك الرسالة هي أن تعيش بقرب الإنجيليّين لتملي عليهم التفاصيل عن حياة المسيح وعن علاقاتها به.

ولا يجوز لنا أن ننسى أنّه بعد موت المخلّص وكفر شعبه به وهرب الرسل لم يبق غير قبس واحد لم يخفت على الأرض في عينيّ الربّ. لم يبق غير نفس واحدة فقط لا يزال فيها نور الإيمان والرجاء والمحبّة، هي نفس مريم.

الكتّاب يشيدون

ولقد أثار موقف مريم عند أقدام الصليب عواطف المسيحيّين فراحوا ينشدون لها ويعظّمون تضحياتها وبطولاتها. فمنذ الجيل الثالث عشر والكنيسة تنشد في صلواتها أبياتًا نظّمها جاكوبون ووصف بها مريم واقفة عند أقدام الصليب وفيها يقول المصلّي لمريم: **"كم أتمنّى أن أقف عند أقدام الصليب وأبكي معك! أعطيني يا مريم أن أحمل موت المسيح وأن أشترك في آلامه وألاّ أنسى أبدًا جروحاته"**.

وهذا الشاعر جوته يقول في كتابه "**فوست**": **"انعطفي يا أمًّا جريحة بحنوّ نحو شقائي. بينما رحت تتأمّلين في موت ابنك والسيف في قلبك محفوف بألف محنة ترفعين ناظريك نحو الآب الذي إليه ترتفع تنهّداتك بسبب شقاء ابنك الذي هو شقاؤك بالذات. إنّ قلبي في أشدّ الغصّة وأنّ ما يبغيه مرتعدًا أنت، وأنت وحدك تعرفينه. إلى النجدة! نجّيني من الخذلان ومن الموت. انعطفي يا أمًّا جريحة بحنوّ نحو شقائي"**.

الفنّانون يستوحون

لقد استوحى الكثيرون لوحات أخّاذة من موقف العذراء عند أقدام الصليب. ونقش الرسّامون تماثيل تفيض عبرًا وهي رخام أصمّ مثّلوا فيها المسيح مصلوبًا وبجانبه مريم تشاركه في آلامه، أو مريم تحتضن يسوع بعد أن أُنزل عن الصليب، أو لقاء المسيح بأمّه على طريق الجلجلة.

كلّ تلك الرسوم واللوحات والتماثيل تعبير صارخ عن التقوى المسيحيّة التي جالت جولاتها في الإنجيل المقدّس فانتزعت منه مواقف مؤلمة كانت مصدر خلاصنا.

٥٤
يا امرأة هذا ابنك

"لمّا رأى يسوع أمّه وبقربها التلميذ الذي كان يحبّه قال لأمّه: **"يا امرأة هوذا ابنك. ثمّ قال للتلميذ: هي ذي أمّك"**. (يوحنّا ١٩: ٢٦- ٢٧).

بهذه الكلمات المقتضبة ودّع يسوع أمّه وهو يحتضر.

بهذه الكلمات فصل يسوع حياة أمّه إلى حقبتين: الأولى انتهت والثانية بدأت حالاً بعد موته. بهذه الكلمات وضع حدًّا للأولى وأعلن بدء الثانية.

كلّ حياة امرأة تنهار إذا ما فقدت ابنها الوحيد، خاصّة إذا كانت الأمّ أرملة. وكلّ امرأة يحلّ بها مصاب كهذا لا يسعها أن تعيش إلاّ على ذكريات الماضي.

ولقد حدث مرّة أن التقى السيّد المسيح عند أبواب بلدة نائين بأرملة ثكلت وحيدها فرقّ لها وتحنّن عليها فأعاد الحياة إلى الشاب وردّه إلى أمّه.

ومن المرجّح أن يكون القدّيس يوسف قد توفي قبل آلام المسيح. ومعروف أنّ يسوع كان وحيدًا لأمّه، وإلاّ لما أسلم أمّه لشخص غريب. ولقد أشار كثيرون إلى أنّ المسيح لم يسلّم أمر العناية بأمّه إلى الرسول يوحنّا إلاّ لأنّه اعتُبر دائمًا بتولاً طاهرًا.

ظاهر المهمّة

وحينما سلّم والدته ليوحنّا أراد وهو في حالة نزعه الأخير أن يكلّفها مهمّة جديدة فهو إذ أعطاها ولدًا خارجًا عن شخصه، لم يقتصر على تعزية ينفحها بها، على الرغم من أنّها بادرة طيّبة وسامية وحميدة، بل أنّه عُني بألاّ تبقى أمّه من بعده بلا عون ولا مساعدة ولا عطف على الأرض، وهكذا فإنّ المسيح المخلّص تطلّع إلى أبعد من هذه الأمور الثّانويّة.

وقد يبدو أيضًا أنّ العذراء لم تُفجع بولدها على الجلجلة بسبب موته على الصليب فحسب، ولكنّها فقدته أيضًا إذ تخلّى عن بنوّته لها، وعوّضها عن نفسه بشخص آخر عند قوله: هذا هو ابنك من الآن وصاعدًا، أمّا أنا فلا. وكأنّه يتنكّر لها، فيدعوها قائلاً: يا امرأة وليس يا أمّي. وهكذا يسلّم يسوع واجباته نحو والدته للقدّيس يوحنّا الرسول.

هذا هو الظاهر. أمّا الواقع فإنّ المخلّص كان قد ترك والدته وحدها منذ أكثر من سنتين؛ فكيف يفكّر الآن في أن يكل أمر الإهتمام بها إلى غيره. الحقيقة أنّ المعلّم لم يقصد بذلك مجرّد العناية المادّيّة، إذ إنّ مريم كانت تعيش، منذ تركها ولدها إلى التبشير برسالته، بين أقاربها في الناصرة أو في كفرناحوم، وقد آمن به ذووه بعد أن شكوا في رسالته. والدليل على ذلك نجده في كتاب أعمال الرسل: **"هؤلاء كلّهم كانوا مواظبين على الصلاة بنفس واحدة، مع بعض النساء، ومريم أمّ يسوع، ومع إخوته"** (١: ١٤).

فالمسيح لم ينتزع والدته من محيط ذويه وأقاربه على اعتبار أنّهم غير أهل لتلك الثقة، بل على العكس إنّهم مؤمنون به ومنهم رسولان من رسله يعقوب الصغير ويهوذا. وقد كانت تعيش بين ظهرانيهم يوم لم يكونوا مؤمنين، فكيف الآن وقد أصبحوا من جيش المؤمنين.

إنّ صالومي والدة يوحنّا كانت لا تزال على قيد الحياة فأصبح ليوحنّا أمّ ثانية، تفضّلها، أمّ بالروح.

ثمّ أليس من الغريب في الأمر أنّ ولدًا وحيدًا يفكّر، وهو في دور النزع، في أن يكل إلى أمّه أمر العناية بغيره؟ ألم يكن من الطبيعيّ أن يكل أمر الإهتمام بها إلى أحد أقاربه أو أصدقائه. فذلك أيضًا دليل على أنّ المخلّص كان يفكّر في رسالة خاصّة معيّنة يسلّمها لأمّه لتتدبّرها مع يوحنّا الحبيب. بل أنّ هناك رسالة مزدوجة يقوم بها كلّ منهما نحو الآخر.

المهمّة الخاصّة

بقي أن نعرف ما هي تلك الرسالة.

بعد قيامة المخلّص من بين الأموات وصعوده إلى السماء، كانت مريم بحاجة إلى مَن يذكّرها بولدها الحبيب، وإلاّ قضى عليها الصمت عنه. فرسالة يوحنّا كانت في أن يحدّثها دومًا عن ولدها، عن مواعظه وعجائبه وعن خصامه مع الفرّيسيّين، ذلك الخصام الذي انتهى به إلى فاجعة الجلجلة. فكان يوحنّا يخطّ كلّ يوم بحضورها صفحة عن حياة المعلّم. وبذلك باشر كتابة إنجيله. وكانت مريم هي أيضًا تكشف للقدّيس يوحنّا عن

معلوماتها وذكرياتها عن ولدها الحبيب. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار تواضع مريم العميق فهمنا السبب الذي حملها على أن تجعل اسمها وكلّ ما يختصّ بها طيّ الكتمان، فلا تسمح ليوحنّا بأن يسجّل غير ما يدعو الناس إلى الإيمان برسالة ابنها مخلّص العالم.

ومن مريم العذراء أمّ يسوع أخذ القدّيس متّى الإنجيليّ معلوماته فيما يختصّ بالقدّيس يوسف خطيب مريم. ومنها استقى القدّيس لوقا ما سرده لنا في إنجيله عن عهد طفولة المسيح المخلّص، وحياة العذراء نفسها، والبشارة بالمخلّص، وزيارتها للقدّيسة أليصابات، وميلاد المسيح، ومجيء الرعاة، وتقدمة الطفل للهيكل، وقصّة سمعان الشيخ وحادث تخلّفه في الهيكل وهو في الثانية عشرة من عمره. سردوا لنا كلّ هذه الأمور على أنّها مأخوذة ليس عن شاهد عيان فحسب، بل عن الممثّل الرئيسيّ لها.

تلك هي الرسالة السامية التي من أجلها أعطى المسيح والدته أمًّا ليوحنّا الرسول.

يوحنّا يمثّل البشريّة

ومن ثمّ نتساءل هل انحصرت رسالة مريم في شخص يوحنّا الحبيب؟

هنالك تقليد قديم شهد له أوريجينوس في القرن الثالث، وهو أنّ القدّيس يوحنّا حينما يصبح ابنًا لمريم بالتبنّي يمثّل رسميًّا جميع الذين سوف يصبحون بالنعمة الإلهيّة إخوة ليسوع المسيح. وأوريجينوس هو أحد كبار معلّمي مدرسة الإسكندريّة. وُلد نحو سنة ٢٥٥ ومات شهيد إيمانه في السجون والعذابات. وهذا قوله عن بنوّة جميع البشر لمريم: "لنجسر على القول بأنّ زهرة الكتب المقدّسة هي الأناجيل، وزهرة الأناجيل هو إنجيل يوحنّا، وأنّه لن يدرك أحد معانيه ما لم يتّكئ على صدر يسوع وينال من يسوع أن تصبح مريم أمًّا له. ولكي يصبح الإنسان يوحنّا آخر، لا بدّ له من أن يحصل على إشارة من يسوع تدلّ على أنّ له صفة يسوع. وفي الحقيقة، يرى الذين يفكّرون في مريم التفكير الصحيح، أنّه لم يكن لمريم غير يسوع، فإذا ما قال يسوع لأمّه: "**هوذا ابنك**" وليس دونك هذا الولد أيضًا، كان كمَن يقول: هذا يسوع الذي أعطيته الحياة. والحقيقة أنّ كلّ مَن تلبّس المسيح لا يحيا فيما بعد لذاته، ولكنّ المسيح يحيا فيه، وبما أنّ المسيح يحيا فيه، فهو يقول عنه لمريم: هوذا ابنك، المسيح.

يتبيّن من هذا النصّ أنّ مهمّة مريم لا تنحصر في رعاية التلميذ الحبيب فحسب، بل هي تتّسع وتعمّ المؤمنين والكنيسة. فإنّ كلّ مؤمن أصبح أخًا للمسيح وابنًا لمريم منذ وصيّة المسيح الأخيرة تلك.

ولقد أعلنها أمومة شاملة وهو على الصليب، وضمّنها كلمات الوداع: "**يا امرأة هذا ابنك**" ومنذئذ ولأسباب أولى وأقوى تستطيع مريم أن تقول لنا مع بولس الرسول: "**يا بنيّ الذين أتمخّض بهم مرّة أخرى إلى أن يتصوّر المسيح فيهم**" (غلاطية ٤: ١٩).

فوظيفتها إذن، بالنسبة لنا، هي أن تلد المسيح في نفوسنا ولادة روحيّة، من شأنها أن تحملنا على القداسة والخلاص.

وقمين بنا أن نتنبّه إلى أمر له أهميّته، هو أنّ بنوّة المؤمنين لمريم بالنعمة الإلهيّة سابقة لحادث الجلجلة، مستقلّة عنه. لقد أصبحنا جميعًا، منذ أن تمّ سرّ التجسّد، إخوة بالتبنّي لسيّدنا يسوع المسيح، وبالتالي أولادًا بالروح للأمّ السماويّة.

فمريم لا تصعد إلى الجلجلة إلاّ لتتألّم من أجل المؤمنين بولدها، وليس لتصبح لهم أمًّا.

إنّها على الجلجلة تتألّم مع يسوع حبًّا له. وتتألّم من أجل المؤمنين وحبًّا بهم أسوة بابنها المخلّص الذي رضي أن يموت ليفتدي المؤمنين به من الموت، ويعيد إليهم الحقّ الشرعيّ في ميراث الآب السماويّ.

الفادي واحد

إنّها تقوم بما ترتّب عليها من حصّة في أمر الخلاص والفداء، إذ لا يعقل أن تتألّم الأمّ وهي على الجلجلة لغير الغايات التي من أجلها يرتفع المسيح على الصليب.

على أنّ اشتراك مريم العذراء في خلاص البشر لا ينفي البتّة أن يكون عمل الخلاص هو للمسيح وحده دون سواه. إذ إنّه هو الوسيط الوحيد بين الله والبشر. أمّا العذراء مريم فليست وسيطة كالمسيح ولكنّ الوسيطة من بعده وبه، فوساطتها تابعة لوساطته. واستحقاقاتها ليست ضروريّة للخلاص بل هي صادرة عن إرادة الله الذي هيّأ أن تشترك الخليقة المفتداة في سرّ الفداء. ولقد كانت مريم أوّل مَن أفاد من سرّ الفداء بمفعوله الرجعيّ، فلقد وُلدت بريئة من دنس الخطيئة، فأصبحت بكر الخليقة المفتداة. وبولس الرسول الذي بيّن بوضوح، لا يقبل الشكّ، أنّ المسيح هو وحده سبب خلاصنا، يقول عن نفسه "**إنّي أفرح الآن في الآلام من أجلكم، وأتمّ ما ينقص من شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده الذي هو الكنيسة**" (كورنتس ١: ٢٤).

والذبيحة كاملة

فهل تعني هذه الآية أنّ ذبيحة الصليب غير كاملة؟ كلاّ! لأنّ للمسيح وحده حقّ مصالحتنا مع الله الآب. ولكن في تصميم الله أنّ آلام بولس وآلام كلّ المسيحيّين وآلام أعضاء الكنيسة التي هي جسد المسيح السرّيّ يجب أن تتّحد لتتمّ آلام المسيح التي تحمّلها في جسده المائت. وكلّ ذلك لمنفعة الكنيسة ومصلحة مجموع المؤمنين. فهل يمكن أن تتألّم مريم لغير تلك الغاية الخلاصيّة السامية؟

وهكذا تتّضح عبارة القدّيس أوغوسطينوس التي ألقت على الموضوع ضوءًا جديدًا حين قال: "**إنّ مريم والدة جسم المسيح السرّيّ هي أيضًا والدة الأعضاء**".

ولقد تأثّر العالم المسيحيّ كلّه وعلى مدى الأجيال من موقف مريم من أمر الخلاص، فراح يلجأ إليها، من بعد لجوئه إلى مخلّص العالم، ليستمدّ منها فيض النعم والخلاص والفداء.

وفي إحدى ثاوطوكيّات اللحن السابع أنشدت الكنيسة البيزنطيّة للبتول وساطتها تلك بقولها: "**يا والدة الإله أنقذينا من الخطايا المتأصّلة فينا، إذ ليس لنا، نحن المؤمنين، رجاء آخر سواك وسوى الإله المولود منك**".

ولقد وجدت هذه التعاليم صدى طيّبًا في نفس أحد البروتستان المعاصرين وهو المبشّر جان دي صوصير فكتب تحت عنوان "**تأمّل في موضع الصليب: وبما أنّني على الصليب أنا أموت فيك أيّها المخلّص، فالتي كانت واقفة بجانبه، هي واقفة أيضًا بجانبي وبجانب كلّ منّا نحن المائتين معك، فإنّ وجود كنيستك أمّ المؤمنين يتمركز في شخص مريم وبها ترعانا. إنّها تغطّي بحنوّها خصومات المسيحيّين، وأنّك، لكيما تعطيها أمًّا لكلّ من تلاميذك الأحبّاء، أيّها الإله الذي صار إنسانًا، قد أحببت فيها كنيستك الصائرة امرأة. أيّها الصورة للإله غير المنظور لقد أعطيتنا بمريم صورة للكنيسة غير المنظورة. أيّها الربّ السيّد ها هي ذي أمّك، فشكرًا لك لأنّك أعطيتنا أمًّا تتّسم هكذا بهذا اللطف الفائق. ثمّ بعد أن رضيت برحمتك أن تجعل منّا إخوة لك، كيف لا تكون أمّك أمًّا لنا، نحن أعضاء جسدك، نحن الذين لا نؤلّف إلاّ روحًا واحدة معك**".

هذا النصّ، وكأنّه صدى لنصّ أورجينوس، فيه قرّب الكاتب بين مريم والكنيسة. فمريم والكنيسة معًا تهباننا يسوع وتلدانه في نفوسنا ولادة روحيّة فائقة الطبيعة.

٥٥
هذه أمّكم

عظيمة هي الأمّ التي ولدت رجلاً عظيمًا أو بطلاً أو قدّيسًا! عظيمة تلك الأمّ! ولو أنّها لم تساهم في تقرير مصيره إلاّ بمعنى أنّها أعطته الوجود. وأعظم منها تلك التي منذ الساعة الأولى عنيت بأن تنمّي في قلب ولدها الطفل الصغير البذور التي وضعها الله، لتثمر وتجعل منه النابغة أو الشخصيّة الفذّة أو الرجل الفاضل. وأعظم منهنّ جميعًا تلك التي بصلواتها وتضحياتها قدّمت ولدها، وهي تجهل ما يخبّئ له الغد، لأعظم المهامّ وأعظم التضحيات وأشرف الغايات. على أنّ مريم فاقت جميع الأمّهات عظمة إذ إنّ ولدها هو المسيح مخلّص العالم.

أمّ البشر أجمعين

ومن أسباب غبطتنا أن تكون هذه الأمّ السماويّة أمًّا لنا أيضًا، بعد أن وهبها السيّد المسيح أمًّا ليوحنّا الحبيب وبه جعلها أمًّا لجميع البشر.

ولذلك يسرّنا أن نقوم نحو هذه الأمّ الشاملة لجميع البشر بما يترتّب علينا من الواجبات البنويّة.

وممّا يشهد له تاريخ الماضي والحاضر أنّ مريم الممجّدة في السماء ليست ببعيدة عن أولادها المجاهدين على الأرض. فتحف الفنّ وروائع الأدب لكلّ حضارة تحدّثنا عنها بأقوال كثيرة وبأساليب متنوّعة ممتعة لا تنفذ. وكلّ هذه ليست إلاّ تعبيرًا عن إعجاب الناس بها وعن احترامهم وحبّهم لجمالها وعظمتها وقداستها. بل أنّ العبادة الخاصّة بمريم، بما هي عليه من سِعة ورحابة وتلوّن، لا تعيد فقط إلى النفس ذكريات طيّبة عن

ماض مجيد، بل أنّنا نشعر بوجودها في هذا العالم كما يشعر الشعب بوجود حاكم لبلاده يسهر على مصالحه، وكما يشعر الطفل بوجود أمّه في البيت.

فالصلوات وعواطف الشكر والفرح والتنهّدات المرتفعة إليها من كلّ القلوب تنسجم كلّ الانسجام مع الثقة اللطيفة والدالّة الوقور التي هي حقًّا صفات المحبّة البنويّة.

ولو اتّبعنا تطوّر هذه المحبّة البنويّة نحو مريم، في نشوء العمر الطبيعيّ أو الفائق الطبيعة أو في حياة الأفراد الخاصّة أو في حياة المجتمع المسيحيّ عامّة، لأدّى بنا المطاف إلى أسباب تلك المحبّة وشرعيّتها وقيمتها العقائديّة.

الجميع يؤمنون بأمومتها

وأوّل ما يبدو لنا واضحًا، في التعبّد لمريم العذراء، أنّ الجميع شبابًا وشيبًا وأطفالاً، خطأة أو قدّيسين، علماء أو أمّيّين أو سذجًا، حينما يكونون بالقرب منها بأفكارهم أو أمام إحدى صورها في معابدها، أو عند أقدام أحد هياكلها، تراهم يشعرون بارتياح لا يقابله ولا يشبهه إلاّ ارتياح الطفل المستند إلى صدر أمّه.

وممّا لا جدال فيه أنّ الميول البشريّة تتلوّن وتتّخذ لها أشكالاً مختلفة، ولكنّ أساسها يبقى دومًا على حاله في كلّ مرحلة من مراحل حياة البشر، بالرغم من التقلّبات الطارئة والأحداث العاتية في حياة كلّ فرد.

فنحن نلاحظ، في المرحلة الأولى من حياة الإنسان، تغلّب الأنانيّة والآثرة على سائر ميوله، إذ إنّه لا يبغي من أمّه إلاّ المداعبات، ولكن سرعان ما ينتقل منها إلى حالات يكون فيها التعبير عن الحبّ البنويّ أكثر انسجامًا وتناسبًا مع سنّه الناشئة المتطوّرة، فتنقلب تلك الغريزة البنويّة حالاً إلى أعمال فيها يعبّر عن تقديره وهو شابّ يافع، لأتعاب والدته وتضحياتها وبذل ذاتها في سبيله.

تعبير الشعب عن إيمانه

على أنّ تلك الأعمال لا تخرج عن كونها عواطف تليق بالأمّ دون سواها، من حيث السذاجة في التعبير والألفة والدالّة البنويّة.

كلّ هذا ينطبق كلّ الانطباق على محبّة الأحداث من المؤمنين والشعب الأمّيّ في إيمانه بمريم العذراء. فتراهم يقبلون إليها وأيديهم محمّلة بالورود، ليس بدافع من واجب، وإنّما بدافع عفويّ يعبّرون به عن ميل قلب ينعطف إليها بداهة.

ولنصغ إلى الشعب ينشد الترانيم المريميّة بخشوع وحرارة:

"سلام، سلام لك يا مريم   سلام، سلام لك يا بتول"
"عليك السلام بـلا ملل   "يا نجمة البحر والأمل "
"مجـد مـريم يتعظـّم   في المشـارق والغروب "
"اذكـرينا وانظـرينا   نظـــرة الأمّ الحنون"
"أنت الشفيع الأكـرم   عنـد ابنـك يا مـريم"
"يا مريم البكــر فقت   الشـمـس والقمـرا"

"حبّـك يا مـريم	غـايـة الــمنـى"
"يـا أمّ المعـظّـم	كـــوني أمّــنا"
"ابنــك أوصـــاك	بنـا في الصليــب"
"أعطانـــا إيّـــاك	في شخـص الحبيب"
"طـهـرك يا مريـم	شبه الورد فــاح"
"لا يكفيك وصــف	يا أمّ الإلــــه"

هكذا يعبّر الأحداث والأمّيّون تعبيرًا شعبيًّا عن إيمانهم وحبّهم إزاء عظمة البتول. ونحن لا يسعنا أن نطالبهم في هذا الصدد بعمل أطروحات لاهوتيّة أو فلسفيّة، فهذا ليس بمقدورهم. ولا مجال أيضًا للتحليل والتدقيق فيما ينشدون ويصلّون، فإنّ للحبّ البنويّ أساليب وعبارات غير التي لعلماء اللاهوت والفلاسفة والمحلّلين والمدقّقين، فلكلّ فئة طريقتها وأسلوبها الخاصّ بها. وإيمان الشعوب دليل من الأدلّة السليمة على صحّة حقيقة دينيّة أو غير دينيّة، ولاسيّما إذا اتّفق عليها في كلّ زمان ومكان، وفي كلّ طور من أطوار حياة الأفراد ولدى الأكثريّة منهم. ومن الأمثال السائرة: **"صوت الشعب من صوت الله، وإرادة الشعب من إرادة الله"**. ومعنى ذلك أنّ الله طبع في أعماق النفس إرادته وقد تكلّفت الأجيال والشعوب بالتعبير عنها.

تعبير القدّيسين عن إيمانهم

كلّما تعمّقت النفس في تفكيرها صفا القلب طهرًا. وكلّما اقتربت الروح من ربّها، بدا صوت الله أكثر وضوحًا وأعمق وقعًا، وذلك خاصّة بنسبة ما هم عليه من درجة قداسة وتقى.

فما علينا الآن إلاّ أن ندقّق في رأي الصُفوة من الشعب المؤمن. فإذا ما أصغينا إلى أجوبة القدّيسين، واستمعنا مليًّا إلى شهاداتهم المعترف بها رسميًّا، ثمّ إلى شهادات حياتهم العمليّة، وجدنا فيها قناعة عظيمة، بدليل ما فرضت عليهم من واجبات وتحمّلوا في سبيل القيام بها من تضحيات.

إنّ هذه الشهادات لا تختلف في شيء عن عواطف الشعوب الأمّيّة إلاّ بقوّة الإيمان وسِعة التفكير وسلامة الحجّة. ولكنّها على اختلاف أشكالها وتباين مظاهرها ليست سوى ما فكّرت به الشعوب عامّة وما شعرت به، ولكنّها لم تجسر على الإعراب عنه تورّعًا. وتلك الشهادات تصدر عن ثلاثة قدّيسين تجسَّمَت فيهم العقيدة المسيحيّة حول عبادة مريم:

أولاً: القدّيس برنردس الذي أجمل بعبارات، تكثّفت فيها العقيدة المريميّة، ثقة البشر بها: **"اذكري يا مريم العذراء الحنون، أنّه لم يُسمع قط أنّ أحدًا التجأ إلى حمايتك وطلب معونتك والتمس شفاعتك وأُهمل خازيًا. فإليك يا أمّي عذراء العذارى، أبادر منتعشًا بهذه الثقة، وأمثل أمامك أنا الخاطئ وأنطرح باكيًا على قدميك، فلا تردّي لي تضرّعاتي بل استمعيها واستجيبيها آمين"**.

ثانيًا- القدّيس ستانسلاس كوستكا الذي كان يردّد بلا انقطاع **"والدة الله هي والدتي"**.

ثالثًا- القدّيس فرنسيس السالسيّ الذي مثّل العقيدة والتقوى الخاصّة بمريم أمّ النعمة والوسيطة، بصلاته الشهيرة العذبة: "**نتلوك السلام أيّتها العذراء ونرجو أن تقبلينا أولادًا وخدّامًا لك. ونقرّر ألاّ يكون لنا أمّ وسيّدة سواك**".

"**ولا تقولي أنّك لا تستطيعين، لأنّ ابنك الحبيب أعطاك كلّ مقدرة في السماء وعلى الأرض**".

"**ولا يجوز لك أن تدّعي بأنّه ليس ذلك من واجباتك، إذ إنّك الأمّ الشاملة لجميع أبناء آدم الفقراء...**".

تعبير الكنيسة عن إيمانها

فلنصغ إلى الكنيسة، إنْ لم يكن ذلك في تعاليمها العقائديّة والرسميّة، فليكن على الأقلّ في مظاهر عباداتها وتكريمها لمريم البتول. فإنّها قد أيّدت ضمنًا العبادات المنتشرة حول البتول ومنحت الإنعامات الروحيّة لكثير من الصلوات الشعبيّة الخاصّة بأعيادها والأخويّات المنضوية تحت اسمها. ومن المبادئ المسلّم بها أنّ "**شريعة الصلاة هي تعبير عن العقيدة**".

تعبير علماء الكنيسة

ولنصغ إلى العلماء واللاهوتيّين والآباء القدّيسين. فلهم يعود حقّ التدقيق في قيمة الصلوات والتصريحات التقويّة المنسوبة إلى القدّيسين وفي قيمة الصلوات الكنسيّة. فالإيضاحات العلميّة والإستنتاجات الدقيقة، التي يسندونها إلى الوحي والإنجيل المقدّس، تعطي تلك الصلوات والتصريحات التي أوحت بها التقوى المسيحيّة العفويّة قوّة عقائديّة صلدة ومعاني فيّاضة، من شأنها أن تجعل تلك الصلوات أشبه شيء بقانون إيمان وخطّة عمل ومبدأ حياة.

أفبعد هذا يأخذنا العجب من انسجام أصوات أصغر المصلّين والمتعبّدين لمريم مع أصوات أعاظم العلماء والقدّيسين، بل مع إيمان الكنيسة ذاتها؟ إنّ الأساس في التعبّد لمريم هو بنوّتنا لها، تلك البنوّة التي أعلنها المخلّص من على الصليب، والتي ما يزال صداها يملأ القلوب والنفوس: "**يا امرأة هذا ابنك، وأنت هذه أمّك**".

معنى هذه الأمومة

فما علينا بعد هذا إلاّ أن نقف عند أقدام الصليب، مع مريم أمّ يسوع وأمّ يوحنّا الحبيب، لنرى هل لنا حقًّا مكان وحصّة في وصيّة المخلّص بين مريم ويوحنّا.

من الثابت أنّ كلّ ما يقال ليوحنّا من أعلى الصليب، لا يقصد به شخصه بالحصر، بل أنّه موجّه لنا سواء بسواء. فحينما يجعل المسيح من شخص يوحنّا مثالاً للمخلّصين، يقصد به كلاًّ منّا، ولنا جميعًا يقول كلمة الوداع الأخير.

فإذا ما صحَّ هذا القول، حقّ لنا أن نبحث بإمعان وتدقيق بأيّ معنى وإلى أيّ مدى تكون مريم هي أمّ يوحنّا، وبذلك يتبيّن لنا بأيّ معنى وإلى أيّ مدى هي أمّنا أيضًا.

بدهيّ أنّ مريم ليست أمًّا لنا بالمعنى الطبيعيّ، لأنّها لم تعطنا الحياة الطبيعيّة وبهذا المعنى تعتبر حوّاء وحدها أهلاً لأن تُدعى أمّ جميع البشر.

أمّا مريم فهي أمّنا بالروح. ونحن أولادها بالتبنّي. ومعنى ذلك أنّ مريم باتّحادها بالمسيح الفاديّ، أشركتنا في الحياة الفائقة الطبيعة الصادرة عن النعمة. وبناء على ذلك نقول: إنّها ولدتنا للحياة الإلهيّة.

وإذا ما حقّ لبولس الرسول، وهو يتكلّم عن أبوّته الروحيّة، أن يقول لأهل كورنتس: **"أنا ولدتكم في المسيح بالإنجيل"** (كورنتس الأولى ٤: ١٥) ولفليمون: **"أسألك من جهّة ابني أونسيموس الذي ولدته في القيود"** (١٠) ولأهل غلاطية **"يا بنيّ الذين أتمخّض بهم مرّة أخرى إلى أن يتصوّر المسيح فيهم"** (٤: ١٩) حقّ لمريم أن تطالب لذاتها بأمومة روحيّة على المخلّصين أجمعين.

وتلك الأمومة أشبه شيء بتبنّي الله للقدّيسين، وهي بذلك أكثر خصبًا وعمقًا من التبنّي الشرعيّ، إذ إنّ مفاعيله تبقى خارجيّة، ولا أثر لها على النفس، بينما تبنّي الله للقدّيسين يجعل النفس مخصّبة بالنعمة التي تؤهّلها للإشتراك في الحياة الإلهيّة، فتنمّيها للحياة الأبديّة.

بهذا المعنى نفهم الآية، التي وردت في مطلع إنجيل القدّيس يوحنّا، أنّ الذين آمنوا بابن الله المتجسّد **"لم يولدوا من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله"** (١: ١٣).

وقد اشتركت مريم العذراء، بوصفها أمّ المسيح الفاديّ، في هذا الخصب الروحيّ وإنمائه، فأعطتنا، بالإشتراك مع الفاديّ، حياة النعمة، ولذلك دُعيت **"أمّ النعمة الإلهيّة"**.

دليل الآباء

لقد انتشر هذا التعليم في الكنيسة منذ القرن الثانيّ، ومصدره خطب ومواعظ القدّيسين يوستينوس وإيريناوس وكيرلّس الأورشليميّ وإبيفانيوس ويوحنّا فم الذهب وإيرونيموس وأمبروسيوس وأوغوسطينوس. فإنّهم حيث تكلّموا عن حوّاء الأولى التي سبّبت هلاكنا، رأوا في مريم على العكس من ذلك حوّاء الثانية التي سبّبت خلاصنا. ولقد تمثّلت هذه العقيدة في القرن الرابع، في تعاليم القدّيس أفرام المنشد الدينيّ لمدينة أورفا. فقد وصفها: **"بأمّ الحياة والخلاص، أمّ الأحياء وجميع البشر"** لأنّها أعطتنا المخلّص وانضمّت إلى ذبيحة حياته على الجلجلة. وقد مرّت هذه التعاليم على ألسنة معلّمي الكنيسة عبر القرون المتوسّطة حتّى أيّامنا الحاضرة.

دليل الطقس

وتنشد الكنيسة البيزنطيّة في طقوسها ترانيم خاصّة تعظّم بها البتول التي أشركتنا في الحياة الإلهيّة: **"صرنا بك شركاء في الطبيعة الإلهيّة، يا والدة الإله الدائمة البتوليّة، فقد ولدت لنا الإله المتجسّد. لذلك نعظّمك جميعًا كما يجب بتقوى"**.

"إيّاك نعظّم يا والدة الإله هاتفين: السلام عليك يا غصنًا أفرع منه الإله بلا زرع فأباد الموت على الخشبة".

"أيّتها العذراء المنـزّهة عن كلّ عيب، أمّ المسيح الإله، إنّ سيفًا اخترق نفسك الكاملة القداسة، لمّا رأيت ابنك وإلهك مصلوبًا برضاه. فلا تكفّي أيّتها المباركة عن التضرّع إليه ليهب لنا غفران الزلاّت".

أولاد مريم

ونتساءل الآن، بعد أن تأكّد لنا أنّ مريم هي أمّنا، إلى مَن تمتدّ هذه الأمومة، وما هو مدى امتدادها وشمولها؟

إنّها أوّلاً أمّ المؤمنين الذين آمنوا برسالة ابنها سيّدنا يسوع المسيح مخلّص العالم واكتسبوا به حقوقًا على النعمة ومصادرها الإلهيّة وسعادة السماء. وهي فضلاً عن ذلك والدة جميع البشر، على اعتبار أنّها ولدت مخلّصًا وفاديًا للعالم أجمع، وليس لفئة معيّنة دون فئة. بل إنّها والدة كلّ منّا، إذ بها ننال كلّ نعمة من الله، مصدر كلّ خير وبركة.

ومع ذلك، لا بدّ من التمييز بين أمومة مريم لمؤمن، وأمومتها لغير مؤمن، أو لكافر أو لجاحد أو لصدّيق أو لخاطئ.

لمؤمن في حال النعمة: إنّها الأمّ التي استوفت جميع صفات الأمومة، إذ إنّه بها استحقّ النعمة والخلاص والرضى.

لمؤمن في حال الخطيئة المميتة: إنّها الأمّ التي تحثّه على التوبة والرجوع إلى الله عن طريق فضيلتَيْ الإيمان والرجاء اللتَيْن ما يزال يحتفظ بهما.

ولغير مؤمن أو لكافر أو جاحد: إنّها الأمّ التي تتوسّل إلى الله بإلحاح أن يَهديهم طريق الإيمان والخلاص أو أن يردّهم إليه.

أمّا لقدّيسي السماء: فإنّها الأمّ التي تُرفَعُ إليها آيات الشكر والحمد على مساهمتها في أمر خلاصهم.

وهكذا تنضوي البشريّة كلّها تحت ذيل حمايتها. فإنّها الأمّ الحنون، الرحوم، الفائقة القداسة، الشريكة في خلاص البشر. إنّها بقرب كلّ منّا، بعد أن أعلن المخلّص من على خشبة الصليب ليوحنّا، ولكلّ فرد من أفراد البشر: **"هذه أمّك"**.

الجزء التاسع
العذراء والكنيسة

٥٦
من القيامة إلى الصعود

لا تتوفّر المعلومات الكافية للتحدّث عن علاقات العذراء مريم بابنها المسيح المخلّص بعد قيامته من الموت. لأنّ الأناجيل المقدّسة التزمت في هذا الصدد جانب الصمت التامّ.

ولعلّ ذلك يعود إلى أسباب اجتماعيّة، وهي أنّ اليهود كانوا ينظرون إلى النساء نظرة احتقار. حتّى أنّ مريم لو شهدت عن قيامة ابنها لبقيت شهادتها بلا فائدة ولا جدوى.

وقد كان قصد الإنجيليّين في سرد أحداث القيامة إثبات حقيقة إنتصار المخلّص على أعدائه وأعداء الخلاص بقيامته من بين الأموات.

ومع ذلك فقد شاع في مطلع الكنيسة، لدى المسيحيّين الأوّلين، أنّ المسيح ظهر أوّلاً لأمّه العذراء الطاهرة. وإنّه ليشق علينا جدًّا ألاّ نشارك المسيحيّين الأوّلين في اعتقادهم هذا. لأنّه من غير المعقول أن يظهر المخلّص للنساء والرسل، ويحجم عن الظهور لوالدته إحجامًا باتًّا ويحرمها من تعزية وقوّة هي بهما أولى.

بقي أن نتساءل كيف يجوز لمريم أن تحضر آلام المسيح على الجلجلة، ولا يجوز أن تشهد قيامته؟ الجواب نستوحيه من التقوى. إنّ مريم حاضرة حيث يسوع يتألّم. ولكنّها تأبى أن تذهب إلى القبر الفارغ. لقد حضرت النساء إلى القبر لأنّ سرد حوادث القيامة كان يجب أن يبدأ من القبر الفارغ. ولولا مجيء النساء إلى القبر لبقي أمر القيامة طيّ الكتمان والنسيان. ولا يأتي الإنجيليّون على ذكر النساء إلاّ لخدمة الإيمان بالقيامة التي هي الأساس لإيمان الكنيسة. أمّا وجود مريم عند القبر فما كان يستطيع أن يخدم قضيّة القيامة، ولكنّه يستطيع أن يجلب لها تعزية خاصّة شخصيّة.

الكنيسة هي الطريق إلى المسيح

ولعلّ المسيح المخلّص أراد، بإحجامه هذا، أن يفهمها أنّها تستطيع من الآن وصاعدًا أن تجده في الكنيسة التي هي جسده السرّيّ، أن تنعم به كما ينعم أيّ مسيحيّ بقراءة حياته وتعاليمه وعجائبه في الإجتماعات "**لكسر الخبز**" وأنّ المرجع من بعده أصبح السلطة الكنسيّة. فهي التي تحمل مهمّة مباشرة النفوس بمخلّصها.

وقصارى الكلام، مهما قدّرنا المواقف وافترضنا الأسباب فلا بدّ من أن تكون مريم قد عرفت بظهورات المسيح ووقفت على تفاصيلها من المجدليّة والنساء، من بطرس ويوحنّا، ومن الأحد عشر المجتمعين، ومن التلميذيْن اللذيْن التقيا به على طريق عمّاوس. فكان ذلك يثلج صدرها ويعزّي قلبها ويشدّ من عزيمتها، لتتابع رسالتها بين الرسل وتتحمّل البقاء من بعده.

وعلى كلّ حال فإنّها تشترك في الذبيحة التي يحتفل بها الرسل، وتتناول القربانة الطاهرة من يد بطرس رأس الكنيسة، أو من يد التلميذ الحبيب الذي تعيش معه في بيت واحد.

لقد قضى المسيح من بعد قيامته أربعين يومًا يتراءى "**للرسل الذين اصطفاهم، الذين أراهم نفسه حيًّا ببراهين كثيرة وكان يكلّمهم عن شؤون ملكوت الله**" (أعمال الرسل ١: ١ - ٣).

صعود المعلّم

وقبل عيد العنصرة ببضعة أيّام، اجتمع الرسل كلهم بالعذراء المجيدة في العلّية الصهيونيّة التي أصبحت مهد الكنيسة الأولى فظهر لهم السيّد المسيح للمرّة الأخيرة، وحينما جلسوا للطعام قال لهم: **"لا تبرحوا من أورشليم بل انتظروا موعد الآب الذي سمعتموه منّي فإنّ يوحنّا إنّما عمّد بالماء. أمّا أنتم فستعمّدون بالروح القدس بعد أيّام قليلة"** (أعمال الرسل ١: ٤- ٥).

وبعد هذا خرج المعلّم مع مريم أمّه والأحد عشر باتّجاه جبل الزيتون. وهنا تثور في نفوسهم ذكريات الماضي غير البعيد عن المعلّم يملي عليهم إرشاداته بعد العشاء السرّيّ، تتخلّلها من حين إلى حين ذكريات مؤلمة عن وقوعه بين أيدي الأثمّة في بستان الزيتون. ولعلّ أحدهم همس في أذن رفيقه: هنا الخائن بقبلة أسلم المعلّم، وقادوه بعدها إلى محفل الأثمّة.

ووصل الجماعة بصحبة المعلّم إلى جبل الزيتون، الذي يبعد ربع ساعة سيرًا على الأقدام من بيت عنيا، وبالقرب من المكان الذي كان قد علّم فيه تلاميذه **"الصلاة الربّيّة"**.

وهناك راح يشجّعهم بكلماته الأخيرة، مؤكّدًا لهم قائلاً: **"إنّكم ستنالون قوّة بحلول الروح القدس عليكم، فتكونون لي شهودًا في أورشليم وفي جميع اليهوديّة والسامرة حتّى أقاصي الأرض"**. ثمّ ضمّ كلاً منهم إلى صدره طابعًا على جبينه قبلة وداع أخير ورفع يده وبارك الرسل والعذراء وكلّ مَن انضمّ إليهم في تلك الساعة.

وبينما هو يباركهم **"ارتفع على مرأى منهم، وأخذته سحابة عن عيونهم. وبينما هم شاخصون بأبصارهم إلى السماء وهو منطلق، إذا برَجلَيْن عليهما لباس أبيض قد وقفا بهم وقالا لهم: أيّها الرجال الجليليّون، ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ إنّ يسوع هذا، الذي ارتفع عنكم إلى السماء، سيأتي هكذا، كما عاينتموه منطلقًا إلى السماء"** (أعمال الرسل ١: ١٠- ١١).

ضرورة وجود مريم

وهكذا تركهم المعلّم واختفى نهائيًّا عنهم. فتلك الظهورات المتواترة والتمتّع برؤيته الإلهيّة العذبة تلاها توقع مجيئه الأخير وحلول الروح القدس. ومع ذلك، فالقدّيس لوقا يسجّل بوضوح أنّهم لم يكونوا حزانى، بل رجعوا إلى أورشليم فرحين مستبشرين، تفيض نفوسهم بالإيمان والرجاء والمحبّة (لوقا ٢٤: ٥٢) ذلك أنّ معلّمهم عاد إلى مجده في السماء، وإنّهم قريبًا سينالون الروح القدس، وأخيرًا أنّهم سينشرون مجد ملكه في القلوب والعالم. ومع كلّ ذلك فهم ليسوا وحدهم. إنّ مريم أمّه ما تزال هنا معهم تحدّثهم عنه وتنشر ذكراه فيما بينهم. إنّهم بحاجة إلى وجودها. لقد غاب الشفيع عنهم ولكنّ مريم الشفيعة باقية معهم تشحذ هممهم وتقوّي ضمائرهم وتثبّت إيمانهم.

وتنشد الكنيسة، في صلوات العيد الكبير لأورشليم ولمريم، أجمل الأناشيد بألحان لطيفة مفرحة: **"استنيري! استنيري! يا أورشليم. مجد الربّ ظلّلك ونور العليّ أشرق عليك... وأنت يا نقيّة يا والدة الإله افرحي بقيامة ولدك"**.

٥٧
في العلّيّة الصهيونيّة

لا يعود القدّيس لوقا الرسول إلى كتابة "**أعمال الرسل**" حتّى يحدّثنا عن مريم العذراء. و"**أعمال الرسل**" هو الكتاب الذي يسرد مباشرة الحوادث التي انتهى عندها الإنجيل المقدّس من حياة الكنيسة والرسل. فيكون القدّيس لوقا بذلك قد تابع وواصل الإنجيل الثالث الذي سجّل فيه حياة وتعاليم وعجائب السيّد المسيح حتّى صعوده إلى السماء.

حلول الروح القدس

وأوّل ما أورد القدّيس لوقا هو حادث حلول الروح القدس على جماعة المؤمنين الملتئمين في العلّيّة الصهيونيّة بعد استعداد ساده جوّ حارّ من الصلاة والتقوى.

وهذا نصّ كتاب أعمال الرسل يحدّثنا عن صعود الربّ إلى السماء وعن أنّ الرسل ومريم "**رجعوا إلى أورشليم من الجبل المدعو جبل الزيتون الذي هو بقرب أورشليم، على مسافة سفر سبت. ولمّا دخلوا المدينة صعدوا إلى العلّيّة التي كان يقيم فيها بطرس ويوحنّا ويعقوب وأندراوس وفيلبّس وتوما وبارتلماوس ومتّى ويعقوب بن حلفى وسمعان الغيور ويهوذا أخو يعقوب. هؤلاء كلّهم كانوا مواظبين على الصلاة بنفس واحدة مع بعض النساء ومريم أمّ يسوع ومع إخوته.**

ولمّا حلّ يوم الخمسين كانوا كلّهم معًا في مكان واحد. فحدث بغتة صوت من السماء كصوت ريح شديدة تعصف ملأ كلّ البيت الذي كانوا جالسين فيه. وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنّها من نار واستقرّت على كلّ واحد منهم. فامتلأوا كلّهم من الروح القدس وطفقوا يتكلّمون بلغات أخرى، كما آتاهم الروح أن ينطقوا" (أعمال الرسل ١: ١٢- ١٤، ٢: ١- ٤).

كان المعلّم ذاته قد أوصاهم ألاّ يبرحوا المدينة المقدّسة بل أن ينتظروا فيها حلول الروح القدس (أعمال الرسل ١: ٤- ١١).

ولبثوا في أورشليم متوقّعين حلول الروح. واجتمعوا كلّهم بقلب واحد، مصلّين مع مريم وإخوته (أعمال الرسل ١: ١٤).

ومن الملاحظ أنّ القدّيس لوقا ميّز عن المجموعة مريم ليعطي لوجودها أهميّة خاصّة (أعمال الرسل ١: ١٢- ١٤).

العلّيّة

أمّا المكان الذي التأموا فيه فهو العلّيّة الصهيونيّة حيث كان الربّ قد تناول آخر طعام عشاء مع تلاميذه وكان هو الفصح الأخير قبل آلامه وحيث رسم القربان. وهو غرفة كبيرة عالية خُصّصت لاستقبال الضيوف والغرباء. ويظهر من قراءة واعية لإنجيل القدّيس مرقس وإنجيل القدّيس لوقا أنّها مجهّزة بالبسط والسجّاد والدواوين بحيث يتمكّن الضيوف من أخذ طعامهم والنوم فيها. ولا يزال تقليد قديم يشير في القدس إلى مكان تلك

العلّيّة المقدّسة وهو على بُعد ١٣٠ مترًا جنوبيّ باب صهيون داخل أسوار المدينة وعلى مقربة من كنيسة رقاد السيّدة.

أوّل رياضة

في تلك العلّيّة المقدّسة اجتمع الرسل والتلاميذ والنساء وبعض المؤمنين تحت إشراف العذراء يختلون ويصلّون. وكانت الجماعة لا تخرج من العلّيّة الصيونيّة إلاّ لتتردّد على الهيكل للصلاة والعبادة (لوقا ٢٤: ٥٣) ثمّ تعود إلى العلّيّة لتسبيح الربّ وتمجيده بقلب واحد خاشع.

وبينهم مريم المثال والشفيعة تتصدّر أوّل رياضة اختلاء. حتّى أصبحت كلّ رياضة من بعدها تستمدّ أصولها ومغزاها من تلك الرياضة التي يمكن أن تُسمّى **"رياضة مريميّة"**. وكان عدد الحاضرين يقارب ١٢٠ شخصًا (أعمال الرسل ١: ١٥).

في ذلك الإجتماع انتُخب متّيا الرسول بدلاً من يهوذا الخائن الذي سقط من مصافّ الرسل. فعاد عددهم اثني عشر.

وعلى تلك الجماعة حلّ الروح القدس صباح عيد العنصرة، وهو اليوم الخمسون للفصح المقدّس.

وكان المشهد رائعًا! إذ وُجد على رأس كلّ من الحاضرين لسان من نار، هو الصورة المحسوسة للروح القدس.

والمشهد غنيّ بالرموز والمعاني. لقد تحوّل هؤلاء الضعفاء الأمّيّون الخائفون إلى أقوياء، بلغاء، شجعان.

وأوّل ما حدث أن تبدّدت عن عيون الرسل والمسيحيّين الأوّلين تلك الأوهام السياسيّة التي كانت شائعة بين اليهود ومعاصريهم من أنّ المسيح المنتظر يأتي ليقيم دولة دنيويّة لإسرائيل. فتحوّل هؤلاء القدّيسون إلى دُعاة لمملكة المسيح الحقّة التي هي دعوة صرفة لخلاص النفس ومملكة السماء. فحملوها رسالة بشارة إلى العالم أجمع (أعمال الرسل ١: ٨).

دور مريم في الكنيسة الأولى

أمّا مريم، فقد أفادت، بدون شكّ، بحلول الروح، زيادة في النعمة والقداسة. إنّها بالطبع لم تكن بحاجة إلى انقلاب نفسيّ داخليّ، إذ كانت منذ مطلع وجودها موضوع إنعامات سامية أفاضها الله عليها. لقد حلّ الروح عليها لدى البشارة بالحبل الإلهيّ ووقفت بشجاعة عند أقدام الصليب. على أنّ مريم أفادت من نعمة جديدة نتيجة لحلول الروح، وهي الإشتراك في تأسيس الكنيسة. كان الروح الإلهيّ يتمّم تأسيس الكنيسة التي كان المعلّم قد دعا الرسل ليشيد على إيمانهم بناءها على أساس من المحبّة والقداسة والحقّ. فكنيسة العلّيّة الصهيونيّة التي ينتمي إليها المؤمنون ومنهم العذراء مريم ليست الكنيسة الأولى أو مطلع حياة الكنيسة وحسب ولكنّها الكنيسة المثاليّة على مدى الأجيال حتّى منتهى الدهر. وبالطبع ليس وجود مريم فيها عرضيًّا وإنّما وجود متمّم لصفات الكنيسة

الحقيقيّة وهو بنفس المستوى الذي ينتقل به سلطان الكنيسة من الرسل إلى الأساقفة أو بنفس المستوى الذي للذبيحة والإفخارستيّا. ودليلنا على ذلك أنّ الكنيسة وُجدت لتواصل عمل الخلاص بواسطة سلطتها الشرعيّة وأسرارها المقدّسة. ومعروف أنّ عمل الخلاص بدأ بالتجسّد الإلهيّ وأنّ البتول لا تنفصل عن سرّ الكلمة المتجسّد. فحلول الروح إذًا جعلها من مؤسّسيّ الكنيسة.

على أنّنا لا نعتقد بأنّ لمريم ما لبطرس والرسل من سلطان في الكنيسة. كلاّ! ولذلك ترى كتاب أعمال الرسل يتوقّف عن ذكر اسم مريم في سياق أحاديثه عن نشاط الرسل والسلطات الشرعيّة بين المؤمنين بالمسيح.

وقد قالها صريحة معلّم الكنيسة القدّيس توما الأكوينيّ: **"بأنّ النعمة المعطاة لمريم لم تكن موجّهة للقيام بما أُسنِدَ للرسل من التعليم وتوزيع الأسرار"**.

غير أنّه كان لوجودها بين الرسل والمؤمنين أثره الفعّال بما كانت تبذل من النصح والإرشاد لهم وتذكّرهم بحياة المعلّم وعجائبه وآلامه وخاصّة بصلواتها من أجل الكنيسة والمنتمين إليها حديثًا وبروحها الطيّبة بينهم. إنّ التي أعطت مخلّص العالم الجسد بولادته تحضّر الآن ولادة جسد المسيح السرّيّ الذي هو الكنيسة. وقد أثّرت أيضًا بسبب ما لها من نفوذ على أقارب المخلّص كالقدّيس يعقوب الصغير أوّل أسقف على كرسيّ أورشليم الذي مات شهيدًا سنة ٦٢ بأمر من رئيس الكهنة حنان الثانيّ.

وقد أشرنا سابقًا إلى الرسالة التي قامت بها نحو القدّيس لوقا إذ أملت عليه إنجيل الطفولة ونحو القدّيس يوحنّا إذ إنّها هي التي أوحت إليه بروح إنجيله كلّه.

بل أنّها أضحت الروح المحرّك للرسل جميعًا، تلاحقهم ملاحقة الأمّ لأولادها، لنشر الرسالة والقيام بأعمال التبشير وتحمّل الإهانة والعذاب بل الإستشهاد في سبيل نشر الدين الجديد. إنّهم أولادها. وقد دُعيت بحقّ **"سلطانة الرسل"** إذ إنّها بعد صعود ابنها إلى السماء أخذت تسهر على الرسل وتغذّيهم جميعًا بصلواتها وتوجيهاتها لتأتي رسالتهم بالثمار الطيّبة في حقلَيْ الفداء والخلاص.

العبر

نتوقّف هنا قليلاً لنتّخذ لنفوسنا عبرًا من حياة مريم العابدة لله.

في الأيّام التي انقضت بين الصعود والعنصرة كانت مريم في رياضة اختلاء مع نفسها أمام الله. فكانت تستعرض مراحل حياتها. الماضي الزاخر بالنعم والبركات لتبارك الله على تلك النعم التي أفاضها على نفسها، والحاضر المشرق لتزداد اتّحادًا بالله وبابنها يسوع. أمّا المستقبل فإنّها تترقبه دون ما تحرّق ولا اضطراب ولا قلق. ثقتها بالله أعظم من كلّ ما يمكن أن يداهمها من دونه. ولذلك فهي تفكّر بالمستقبل لتهيّئ لذاتها اتّحادًا نهائيًّا مع ولدها في السعادة الأبديّة.

تستعرض كلّ ذلك، ولكنّ أفكارها لا تنحصر في شخصها، فإنّه يبدو لها حقيرًا جدًّا بالنسبة لله. الله هو الكلّ بالكلّ. ولولاه لَما حصلت على شيء ممّا هي عليه. ولذلك نراها في رياضة الاختلاء غائصة في تدابير الله، معجبة، شاكرة، ساجدة.

فإذا كان هذا هو موقف العذراء بالنسبة لله، فماذا لا يكون موقفنا نحن بالنسبة له؟ في ماضي حياتنا نجد أظلالاً من النوايا السيّئة وبقعًا سوداء على قميص المعموديّة الناصع البياض وعددًا كبيرًا من السقطات والخيانات. أمّا مريم فإنّها البريئة من دنس الخطيئة الأصليّة ومن كلّ دنس خطيئة فعليّة. ومع ذلك فهي تتواضع أمام الله وتردّ له كلّ عطيّة وهبة ونعمة بالشكر الجزيل.

هذا لا يعني بالطبع أن نتوقف عند خطايانا لننوح ونبكي فقط. إنّ رحمة الله لا حدّ لها. وخطايانا الكثيرة تذوب في بحار الغفران والشفقة التي تتفجّر من قلب الله. وبالتالي لا يجوز لنا أن نسمح لنفوسنا بأن ترزح أو تُقهر تحت ثقل خطاياها. وقد جاء في الكتاب المقدّس: **"ولو كانت خطاياكم كلون القرمز فلأبيّضنّها كالصوف"**. فعلينا إذًا أن نبعد عنّا تلك الندامة العقيمة والاضطرابات التي تنهش القلب والضمير. ولنذكر دومًا أنّ حبّ الله ورحمته وغفرانه لا حدّ لها. وأنّ الله اختارنا لحبّه ويريد منّا أن نخلصه الحبّ في المستقبل.

المهمّ أن نذكر خطايانا وأن نتوب عنها. وبعد أن نبحث عن الأسباب التي أدّت بنا إلى ارتكابها نقصد أن نبتعد عنها. ثمّ نعود فورًا إلى الله، لنرتمي في أحضان حبّه وحنانه.

٥٨
في بيت يوحنّا

لقد سلّم المخلّص أمّه الطاهرة للتلميذ الطاهر ليكون ابنًا بارًّا لها ولتكون هي أمًّا حبيبة له. ويقول الإنجيل المقدّس: **"ومنذئذ أخذها التلميذ إلى بيته الخاصّ"** (يوحنّا ١٩: ٢٧).
فالنصّ لا يحتمل أيّ شكّ: مريم تعيش مع يوحنّا الرسول الحبيب وفي بيته الخاصّ.

في القدس

أمّا المشكلة فهي أن نعرف مكان ذلك البيت الذي أظلّ مريم منذُ موت المسيح ولدها إلى يوم رقادها.

إنّ مدينة القدس عزيزة على قلب مريم إذ إنّها في تلك المدينة فتحت عينيها على نور الحياة في بيت والدَيْها يواكيم وحنّة. وفيها هيكل سليمان، حيث نشأت طفلاً نذيرًا لله. وفيها، خاصّة، ذكريات كثيرة عن تعاليم وعجائب ولدها مخلّص العالم وعن آلامه وموته وقيامته. فهل يعقل أن يبعدها يوحنّا الحبيب عن القدس وهي المدينة الزاخرة بالذكريات الطيّبة العزيزة؟

الإضطهادات

غير أنّ الإضطهادات تثور على الكنيسة وعلى الرسل والتلاميذ وعلى كلّ تبّاع الدين الجديد، ولمّا يمض حوالي خمس سنوات على صعود المعلّم إلى السماء! فهل يعرّض

يوحنّا حياته لخطر الموت؟ وهل يدفع بمريم إلى القلق والإضطراب وسوء المصير؟ أم يأخذها ويبتعد بها عن مرمى الحوادث والأخطار؟

إنّ وقوع الإضطهادات في فلسطين بين عام ٣٤- ٤٤ شتّت الرسل والتبّاع. ولكنّ هذه الإضطهادات لم تكن عامّة، بحيث تضطرّ الجميع حتّى يوحنّا ومريم إلى الهرب. هاك ما ذُكر عن الإضطهاد الذي تبع استشهاد إستفانوس أوّل الشمامسة: **"وثار في ذلك اليوم إضطهاد شديد على الكنيسة التي في أورشليم. فتشتّت الجميع في جنبات اليهوديّة والسامرة ما خلا الرسل"** أمّا يوحنّا فقد ورد ذكره بوضوح بين الذين بقوا في المدينة (أعمال ٨: ١، ٤، ١٤).

وبعد استشهاد القدّيس يعقوب على يد هيرودس أغريبا، حفيد الطاغية هيرودس الكبير، لم يكن الإضطهاد، كذلك، شاملاً، ولاسيّما في البدء: **"ألقى هيرودس الملك الأيدي على قوم من الكنيسة"** (أعمال الرسل ١٢: ١). وهبْ أنّ هناك ما يهدّد سكينة مريم، فلا شيء يمنع يوحنّا الرسول من أن يبتعد بها إلى أيّ مكان في فلسطين، يؤمّن لها فيه الراحة والهدوء.

وعلى كلّ حال، لم يكن يوحنّا من الأشخاص الذين يرتعدون أمام الأخطار أو يهربون من المسؤوليّات، فلقد كان شجاعًا لا يهاب الموت ولا التهديد بالموت. رأيناه في دار قيافا أثناء آلام المخلّص، وعلى الجلجلة ومعلّمه معلّق على الصليب. ولمّا أُوقف مع بطرس وظهر أمام قيافا والمجمع أُخلي سبيله حالاً. وقد لمس المعلّم منه ومن أخيه يعقوب يومًا جرأة غريبة فسمّاها **"ابني الرعد"** (لوقا ٩: ٥٤). ثمّ أنّه رجل **"معروف لدى رئيس الكهنة"** (يوحنّا ١٨: ١٥- ١٦). فعلاقاته الطيّبة هذه كانت تستطيع أن تجعل موقفه غير موقف سائر الرسل والمؤمنين. فبناء على ذلك، يبدو أنّه كان في مأمن من كلّ خطر على حياته، وبالتالي على حياة مريم البتول.

فمن المرجّح، والحالة هذه، أن تكون مريم قد قضت أيّامها، من موت المسيح إلى رقادها الأخير، في مدينة القدس.

في غرفة من دار كبيرة

بقي أن نعرف في أيّ مكان من القدس؟

في بيت يوحنّا الحبيب، حسب ما يتّضح من إنجيل القدّيس يوحنّا ذاته: **"ومنذئذ أخذها التلميذ إلى بيته الخاصّ"** (١٩: ٢٧).

وقد ورد في التقليد المحلّيّ أنّ العليّة الصهيونيّة هي المكان المذكور، ولكن ليست الدار التي فيها العليّة بكاملها، لأنّ الدار على ما يظهر من الإنجيل المقدّس ملك أحد الأغنياء (لوقا ٢٢: ١١- ١٢). فلعلّ يوحنّا اتّخذ في بعض غرفها مكان إقامة له مع العذراء مريم، على أثر الحوادث التي رافقت أيّام المسيح الأخيرة.

إليها يتردّد الرسل

ففي هذه الدار كانت تعيش مريم مع يوحنّا الحبيب. ولعلّ بعض الرسل انضمّوا إليهما هناك ومنهم يعقوب أخو يوحنّا ووالدتهما صالومي. فكان المؤمنون يتردّدون إليهم هناك ويجتمعون بأمّ يسوع تحدّثهم عن حياة المعلّم.

فيها كانت تختلي وتصلّي

في هذه الدار أيضًا كانت مريم تصلّي مع الرسل وتحضر الإفخارستيّا عند المساء، وهي الذبيحة التي تجدّد ذبيحة الجلجلة سرّيًّا، وكانت العادة، في البدء، أن تقام الإفخارستيّا بصورة منتظمة في اليوم الأوّل من الأسبوع أيّ يوم الأحد. وهكذا تحوّل هذا النهار إلى **"يوم الربّ"**. ومع ذلك فنحن نعرف من القدّيس لوقا أنّ مؤمني أورشليم كانوا يشتركون كلّ يوم في كسر الخبز (أعمال الرسل ٢: ٤٢) وقد أُتيح لمريم في بيت يوحنّا أن تتناول يوميًّا وأن تسعد كلّ السعادة باتّحادها بابنها الحبيب بعد أن غاب عن نظرها. وتمرّ دقائق على مريم وهي مختلية إلى ضيف نفسها تناجيه وتشعر بلذّة وجوده. دقائق لا شيء يدانيها إلاّ رؤية الله في السماء. أمّا ساعات نهارها فما كانت تتوالى إلاّ لتزيد في نفسها الشوق والحبّ ليسوع القربانة الطاهرة ضيف السماء.

وهكذا أصبحت المناولة في حياتها مركزًا تدور من حوله وتنتهي إليه عند إقامة الذبيحة كما ينتهي الخطّ الحلزونيّ عند مركزه. في تلك الدار حلّ الروح القدس على التلاميذ ومنها انطلقوا يحملون إلى العالم بشارة الخلاص.

فيها كشفت ليوحنّا عن حياة المسيح

وفي هذه الدار أخيرًا ساد جوّ من المحبّة لطيف جدًّا بين مريم العذراء ويوحنّا الحبيب. وقد انصقلت أخلاق **"ابن الرعد"** في ذلك الجوّ حتّى أصبح يحبّ الاختلاء والتواضع، ممّا جعله يختفي مثلها عن أنظار وإعجاب الشعب. فلا يعود يظهر على مسرح الحياة الرسوليّة إلاّ في أوائل القرن الأوّل المسيحيّ، بعد أن اختفى مدّة أربعين سنة عن الأنظار. ولكنّ تلك السنين الطويلة لم تكن من حياة يوحنّا الإنجيليّ حياة سلبيّة فارغة. إنّها حياة زاخرة بالتأمّلات في حياة المعلّم. ويكفي أن يبدأ غدًا إنجيله الرابع بالمطلع الذي مجّد فيه **"الكلمة"** لنسبر غور تلك الأعماق التي غاصت فيها نفسه في خلوته. حتّى ليعتبر إنجيله مجموعة من التأمّلات عاشها في طيّات صدره قبل أن يسطّرها درسًا للمؤمنين.

لا! ليس الإنجيل الرابع مولودًا عفويًّا ابن ساعته. إنّه ثمرة نُضج وتأمّلات طويلة حتّى أنّنا نستطيع أن نقول عنه ما قيل عن مريم: **"وكان يحفظ كلّ شيء في قلبه"**. على مثالها حفظ مدّة نصف قرن في طيّات صدره الصفحات الخالدات التي سوف تغذّي النفوس المتصوّفة المنعكفة على التأمّل بالإلهيّات.

فيها يوحنّا يهيّئ إنجيله

هنالك في العلّيّة الصهيونيّة، حيث مريم العذراء تقضي أيّامها الأخيرة، كان يوحنّا يهيّئ إنجيله بالتأمّل الدائم، مستمدًّا تفاصيل حياة المعلّم من صدر البتول والدته، مردّدين معًا في مدّة لا تقلّ عن خمسة عشر عامًا كلّ ما يحيي ذكر حياة المسيح وأعماله وعجائبه. وبذلك يكون المسيح من على الصليب لم يقصد بإعطائه والدته ليوحنّا إلاّ أن يكشف يوحنّا لمريم ومريم ليوحنّا كلّ ما يعرفانه عن يسوع. وأن يعيشا معًا متّحدَيْن برباط محبّة سامية، تحت سقف واحد، جعله المخلّص من على الصليب مركزًا لحياة التأمّل، بل ديرًا في الكنيسة الناشئة. أمّا أن يجهل الجاهلون ما معنى كلمة **"دير"** وما فوائده في الكنيسة، فذلك لا يمنع ولا ينفي أن تكون الحياة الرهبانيّة بمثابة الروح للجسد بالنظر للكنيسة والمجتمع. فالإنجيل الرابع هو وليد تلك الحياة النسكيّة. لقد تدفّق عنها تدفّقه عن ينبوعه العذب. إنّه وليد تلك المحادثات اليوميّة الزاخرة بالعبادة والحبّ، المتدفّقة من قلب الأمّ وولدها الثانيّ الحبيب في موضوع حياة ولدها الأوّل سيّدنا يسوع المسيح.

إنّه بالحقيقة **"إنجيل مريميّ"** أيّ مجموعة من الأخبار، منتقاة بدقة ورزانة، وشهادات صادرة عن شاهدَيْ عيان، وفيَّيْن للحقيقة، مؤمنَيْن بكلّ كلمة وكلّ حرف من كلمات وحروف الإنجيل الرابع. هذه هي المهام التي شغلت مريم في تلك السنين واستغرقت أوقاتها الثمينة. أحاديث متواصلة بين يوحنّا ومريم محورها يسوع المخلّص وغايتها عبادته ومحبّته. وكانت مريم تجد في تلك الأحاديث غذاء لنفسها وإيمانها وسلوى لقلبها.

فها هي تردّد، أمام يوحنّا، مقاطع من أحاديث المعلّم: **"أنا هو الطريق والحقّ والحياة. أنا الكرمة وأنتم الأغصان. اثبتوا فيّ وأنا فيكم. كما أحبّني الآب كذلك أنا أحبّكم"**.

لقد زخر إنجيل يوحنّا بأمثال تلك العبارات التي لا يردّدها الإنسان إلاّ ويشعر بها صادرة آنيًّا من فم المعلّم فتبعث في النفس حياة وقوّة وسلوى. بل أنّها تشير إلى أنّ يوحنّا لم يكتبها إلاّ تحت تأثير مريم ونفحة من روحها.

رسالة مزدوجة

وهكذا تبدو لنا واضحة تلك الرسالة المزدوجة التي سلّمها المعلّم وهو يُحتضر على الصليب إلى مريم تجاه يوحنّا وإلى يوحنّا تجاه مريم. فلا يجوز لنا أصلاً أن نتوقّف لنرى في إرادة المسيح الأخيرة أمومة وبنوّة تنحصران في خدم ماديّة متبادلة، حتّى ولا في تعزيات روحيّة مهما كانت لطيفة سامية. إنّ عمل المخلّص لا يمكن أن يفسّر باهتمام بنويّ يقصد منه تأمين شيخوخة هادئة هنيئة لوالدته القدّيسة.

إنّ الرسالة الجديدة التي يضعها المعلّم وديعة في عنق مريم وعنق التلميذ الحبيب جديرة وحدها بكرامته وكرامة أمّه وكرامة تلميذه المفضّل. إنّه يريد من أمّه أن تقوم نحو يوحنّا بالرسالة نفسها التي قامت بها نحوه في خلوة الناصرة: أن تسرد وتشرح له ما خُفي عنه من أمر البشارة والحبل والولادة والحياة الخفيّة ومعانيها السامية، ومواعظه وعجائبه؛ أن تكشف له معاني النبوءات التي وردت عن المسيح في الكتاب المقدّس؛ أن تنـزع من أخلاقه الصلف والكبرياء، وأن تلقّنه الدروس الصحيحة عن التواضع وحبّ

الاختلاء والتأمّل، وخاصّة عن آلام المخلّص المؤدّية إلى ملكوت روحيّ أبديّ في السماء.

هكذا تمرّ الأيّام منذ صعود المسيح، ومريم في نشاطها وحيويّتها؛ أحد عشر عامًا مرّت ولم تَفُتَّ في عضدها؛ بل إنّ كنز النعمة كان يزداد قُدُمًا يومًا بعد يوم بتكرار أعمال المحبّة الكثيرة والكاملة. فاستطاعت، هكذا، في تلك الحقبة من حياتها، أن ترصف حجرة كريمة جديدة في إكليل مجدها، هي رسالتها في حبّ النفوس وخدمتها بالإضافة إلى طهارتها واستشهادها. لقد عاشت تلك السنين نورًا وسندًا للرسل.

في كتاب الرؤيا

وبعد أن انتقلت مريم إلى جوار ابنها في السماء، بقي يوحنّا يعيش في ذكرى الأمّ الحبيبة أمّ معلّمه وأمّه. ولقد أخذته نشوة الذكرى وكادت أن تخرجه عن واقع حياته الخاصّة. فرآها متجلببة بكواكب السماء من قمّة الرأس إلى أخمص القدمين بل وتحت القدمين. كانت المرأة حاملاً. فأثار المشهد إبليس عدوّ البشر وأراد أن يبتلع الجنين لدى ولادته. فولدت ذكرًا وهو المزمع أن يرعى جميع الأمم. ولكنّ ملائكة السماء قاتلت إبليس ورمت به إلى الأرض حيث باقي نسل المرأة يجاهدون ويشهدون للكلمة. وهذا هو النصّ كما ورد في رؤيا القدّيس يوحنّا في الفصل الثانيّ عشر: "وظهرت في السماء آية عظيمة، امرأة ملتحفة بالشمس وتحت قدميها القمر وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكبًا. وهي حبلى تصيح وتتمخّض وتتوجّع لتلد. وظهرت آية أخرى في السماء، إذا بتنّين أشقر عظيم له سبعة أرؤس وعشرة قرون وعلى أرؤسه سبعة أكاليل وقد جرّ ذنبه ثلث كواكب السماء وألقاها على الأرض ووقف التنّين قبالة المرأة المشرفة على الولادة ليبتلع ولدها عندما تلده. فولدت ولدًا ذكرًا هو مزمع أن يرعى جميع الأمم بعصا من حديد. فاختطف ولدها إلى الله وإلى عرشه. وهربت المرأة... وحدث قتال في السماء، ميخائيل وملائكته كانوا يقاتلون التنّين وكان التنّين وملائكته يقاتلون، فلم يقووا ولا وُجد لهم مكان بعد في السماء فطرح التنّين العظيم الحيّة القديمة المسمّى إبليس، والشيطان الذي يضلّ المسكونة كلّها طُرح إلى الأرض وطُرحت ملائكته معه. وسمعت صوتًا عظيمًا في السماء قائلاً الآن صار الخلاص والقوّة والملك لإلهنا والسلطان لمسيحه لأنّ المشتكي على إخوتنا قد طرح الذي يشتكي عليهم عند إلهنا نهارًا وليلاً. وقد غلبوه بدم الحمل وبكلمة شهادتهم ولم يحبّوا نفوسهم حتّى أنّهم أسلموها إلى الموت. فلذلك افرحي أيّتها السموات والساكنون فيها والويل للأرض والبحر أنّ إبليس قد نزل إليكما وغضبه عظيم لعلمه بأنّ له زمانًا قصيرًا. ولمّا رأى التنّين أنّه قد طرح على الأرض إضطهد المرأة التي ولدت الولد الذكر. فأعطيت المرأة جناح النسر العظيم لتطير... فألقت الحيّة من فيها ماء كالسيل لتهلكها بالسيل. فأغاثت الأرض المرأة وفتحت الأرض فاها وابتلعت السيل الذي ألقاه التنّين من فيه. فغاضب التنّين المرأة وذهب ليحارب باقي نسلها الذين يحفظون وصايا الله ولهم شهادة يسوع المسيح".

هذه هي مريم أمّ المخلّص تثير حافظة إبليس حينما يراها حبلى بالذي سوف يكسر شوكته، ويحطّمه ملائكة السماء المكلّفون بحراسة مريم وولدها. وهكذا أُهين إبليس مرّة ثانية لأنّه لم يقوَ على مريم ولا على مولودها فإنّ قوى السماء والأرض تضافرت على تحطيم إبليس الحيّة. وعاد إبليس إلى الأرض يحاول أن ينتزع المخلّصين، والويل للأرض من شرّه! ولكنّ مريم ساهرة على الكنيسة وعلى أولادها. فلن يكون لإبليس نصر ما دامت هي الشفيعة، وما دام ثمن الخلاص، دم ابن مريم، فدية كاملة عن البشريّة.

هكذا تتجلّى مريم البتول للقدّيس يوحنّا في رؤيا صوّر لنا فيها قوّتها وسيطرتها على مكايد إبليس وبشّرنا بالنصر المحقق الصادر عن دم الحمل رمز الشفاعة للكنيسة وللمؤمنين إلى الأبد.

وهكذا ترافق مريم البتول بحنانها الوالديّ نشوء الكنيسة، بل إنّها في ذاتها صورة مصغّرة للكنيسة بفضل اتّحادها بالمسيح وبقداسة حياتها. وبذلك كانت مريم للكنيسة بمثابة الجذور للشجرة حيث ينضج النسغ فينتشر متغلغلاً في الأزهار والأثمار.

الجزء العاشر
من الأرض إلى السماء

٥٩
أسباب رقاد البتول

بعد صعود السيّد المسيح إلى السماء تُعتبر حياة مريم العذراء في حكم المنتهية لأنّ رسالتها على الأرض كانت قد بلغت هدفها. أمّا الأيّام التالية من حياتها فليست إلاّ بقيّة، إلاّ مهلة وجيزة المدى، أُعطيت مريم إيّاها على سبيل الهبة، لا لنفسها بل لتبذلها في سبيل البشر. وإنّنا نشعر بمثل ذلك الشعور حينما نقرأ ما يقوله القدّيس بولس الرسول لأهل فيلبّي: إنّه لَمِن الأوفق له أن ينحلّ ويصير مع المسيح. ولكنّ تلبّسه بالجسد أفضل للمسيحيّين. أو أنّه أشبه شيء بحبّ أرملة للحياة إكرامًا لأولادها.

عمر مريم

كنّا نودّ أن نعرف إلى أيّ سنّ بلغ عمر مريم العذراء حين داهمتها ساعة الموت. فلا شيء ثابت جليّ في هذا الموضوع. وإنّ ما وصل إلينا عن طريق التقاليد والكتب المحرّفة يظهر منه أنّ عمرها كان يتراوح بين الستّين والثمانين. ويؤكّد الكتّاب البيزنطيّون أنّها عاشت إلى سنّ متقدّمة جدًّا.

ومن المقرّر أنّ القدّيس يوحنّا لم يباشر أيّ عمل رسوليّ خارجيّ قبل سفره إلى أفسس. وأنّه لم ينتقل إليها إلاّ بعد أن خدم مريم الخدمة الوافية الوفيّة حتّى آخر يوم من حياتها على الأرض. ويعتقد انّ سفر يوحنّا كان نحو عام ٥٦ فتكون أيّام مريم على

الأرض حسب التقدير التالي: زواجها من يوسف في السنّ ١٥، صعود السيّد المسيح عام ٣٣، انتقال العذراء إلى السماء عام ٥٦. فتكون الحاصلة مع بعض الفروق من ٧٢ إلى ٨٠.

ترقب الموت

لقد كان ترقبها للموت ترقب البشر عامّة له. ولعلّنا نهتدي إلى أمثاله فقط لدى بعض المتصوّفين العظام. ولمّا كانت مريم من نسل آدم، وخاضعة للجهل في ما هو من عالم الحياة الآتية، لم يكن بإمكانها أن تنسج في ذهنها صورة حقيقيّة عمّا وراء الموت. غير أنّنا نعرف مريم تلك الخليقة المستسلمة بين يدي خالقها. فهي لا تسعى لاستدراك الحوادث أو استباق وقوعها، لأنّها واثقة بمَن آمنت. لذلك كان يكفيها أن تعرف بالمناسبة أنّ الموت يجمعها بابنها الحبيب.

وبالرغم من معرفتها الثابتة أنّ المسيح مقيم فيها بنعمته، فهي مع ذلك تترقّب ساعة اللقاء. وكم أعادت على ذاكرتها تلك الأمثال والحكم التي أوردها المعلّم عن النساء الحكيمات وعن الساعة التي تطبق كالفخ أو تتسلّل بسرعة كلصّ.

وبناء على ذلك كانت تسير إلى الموت بخطا ثابتة، بخطا الشباب المؤمن بغده وليس بخطا الكهل الذي يئنّ من ثقل الأيّام وكالحات السنين.

مَن يستطيع أن يرسم لنا صورة عن وجه مريم وقد تقدّمت بالسنّ وذاقت ألوانًا من العذاب والمحن؟ على أنّها لم تفقد شيئًا من جمالها، بل أنّ ازدياد النعمة في نفسها زاد ذلك الوجه بهاء وإشراقًا.

أسباب الموت

أمّا الأسباب التي أدّت بمريم البتول إلى الموت فليست هي الأسباب نفسها التي تقود البشر إلى حتفهم. فمن المقرّر أنّ كلّ إنسان يموت لأنّ نفسه تلوّثت بخطيئة آدم الجدّ الأوّل، تلك الخطيئة التي جرّت عقوبة الموت على البشريّة. ومن المقرّر أيضًا أنّ مريم تنـزّهت عن دنس الخطيئة الأصليّة وبالتالي عن الموت الذي هو العقوبة المترتّبة على تلك الخطيئة.

فنحن نموت لنفي عقوبة فرضها عدل الله. أمّا مريم فليست كذلك، ولكي نتبيّن أسباب موتها علينا أن نتذكّر:

أوّلاً- إنّ الغاية من وجود مريم على الأرض هي خدمة المسيح في التجسّد ومشاركته في الفداء؛ وبعد صعود ولدها إلى السماء، أصبحت غايتها من الوجود دعم الكنيسة الناشئة بصلواتها وتشجيع الرسل في أعمالهم وآلامهم. ولقد قامت بتلك المهام خير قيام.

ثانيًا- إنّ الله أفاض على نفس مريم غيثًا من النعم، بحيث امتلأت نفسها بها. ولم تقف قطّ موقفًا سلبيًّا من تلك النعم بل أجابت دومًا بسخاء على عطايا الله، حتّى تحوّلت حياتها إلى شيء أشبه بسلّم ترتقي مريم درجاته بسرعة هائلة. ولقد حيّتها الكنيسة في طقس المدائح بقولها: **"السلام عليك أيّتها السلّم"**. وتمرّ الأيّام والشهور والسنون ومريم منطلقة

كالنسر إلى الطبقات العليا من عالم الروح والفضيلة. ولكنّ مريم، كخليقة، لم يكن لها أن تخترق اللانهاية، مسافرة ككلّ بشر في وادي الحياة، لا بدّ من أن تتوقف حينما تكتمل غايتها التي وجدت لأجلها وأن تدخل بعد ذلك فرح ربّها، لتملك السعادة والثواب إلى الأبد.

لقد استوعبت مريم في حياتها على الأرض جميع النعم التي أفاضها الله على نفسها. وكان كنـز النعم هذا يتضخّم ويتمدّد يومًا بعد يوم. ولكن جاء وقت توقّف فيه الله عن إسدائها مزيدًا من النعم لأنّ الخليقة محدودة. وفي ذلك الوقت بالذات، طفح كيل مريم بآخر عمل استحقاقيّ ولن يُستَوعَب إلاّ في سعادة السماء.

ثالثًا- إنّ مريم بشر. وإنّ كلّ بشر يموت ليرتدّ إلى الأصول التي أخذ منها **"تراب وإلى التراب تعود"**، شأنه في ذلك شأن الحيوان الذي يموت، والمركب الذي يعود إلى أسبابه. أمّا في بدء الخليقة فلم يتنـزّه الإنسان عن الموت إلاّ بإنعام خاصّ وُهب له في حالة البرارة. فلمّا عصى الإنسان أمر الخالق، فقدَ ذلك الإنعام، فارتدَّت البشريّة إلى أعراضها الطبيعيّة: الألم والموت. وجاء السيّد المسيح يحمل تلك الطبيعة البشريّة القابلة للألم والموت، لأنّه مخلّصها وفاديها. وكذلك القول في مريم العذراء. فالموت لهما ليس نتيجة مترتّبة على الخطيئة الأصليّة، إذ إنّ هذه لم تجد سبيلاً إليهما، ولكنّه نتيجة مُتأتّية عن كونهما يحملان طبيعة بشريّة قائمة على سننها الطبيعيّة، مجرّدة عن الإنعام الواقي من الموت.

وإنّ يسوع قَبِلَ وقدّم آلامه وموته لخلاصنا. ومريم فعلت كذلك، خاصّة عند أقدام الصليب، إذ قدّمت ولدها من أجلنا وقدّمت ذاتها أيضًا. وفعلت مثله من أجلنا فقدّمت ذبيحة حياتها في استشهاد قلبيّ يفوق ما عرفه الشهداء الذين جادوا بحياتهم؛ ولكنّه يقلّ عن كرم المسيح في ذبيحة حياته.

رابعًا وأخيرًا يقول القدّيس فرنسيس: **"إنّ مريم والدة الله ماتت من حبّها ليسوع.... والقول الصحيح هو أنّ مريم عاشت من حياة ابنها. لأنّ الإنسان يموت كما يعيش"**. وكانت مريم كلّما ازدادت حبًّا لولدها شعرت بحاجة أكبر إلى ذلك الحبّ، حتّى إنّها لم تكن لترغب في شيء تفضّله على محبّته ورضاه وإرضائه.

وهكذا يظهر لنا سبب رقاد البتول على حقيقته. إنّه امتلاء نفس مريم من نعم الله، حتّى الفيضان. إنّها ولا مراء ممتلئة نعمة منذ أن تمّ الحبل بها في حشا والدتها القدّيسة حنّة. ولكنّ تلك النعمة الأوّليّة ما زالت تستكمل أسباب القداسة حتّى ساعة رقادها الذي أعدّها نهائيًّا لسعادة السماء. إنّها نهاية جهاد بطوليّ في سبيل الغاية القصوى. إنّه طريق الخليقة المعدّة للانحلال. إنّه أخيرًا لوعة وشوق وهيام لأحبّ الأبناء، لم تقوَ الطبيعة البشريّة على تحمّلها، فتحطّمت قشرة الجسد لأنّها بدت أضعف من أن تقف حائلاً دون رغبات تلك النفس الجبّارة. فانحلّت المادّة وخرجت عنها روحها الطاهرة.

٥٧
موت البتول

كانت مريم قبل أن تدنو ساعة أجلها قد رفعت ذبيحة حياتها إلى الله. تلك الذبيحة التي تجدّدت إذ أخذت شكلاً كاملاً حينما ماتت عن حبّ. والموت عن حبّ ليس الموت في حالة النعمة المبرزة أو في الحبّ فحسب، بل هو نهاية حبّ مستعر هادئ قويّ، به النفس المهيّأة تمامًا للسماء، تدفع عنها لباس الجسد وتسعى إلى الإتّحاد بالله في رؤية مباشرة وأبديّة، فتنصبّ به انصباب النهر الكبير في المحيط الواسع.

وكانت مريم تشعر بلوعة النوى والبعاد، بعد صعود ابنها سيّدنا يسوع المسيح إلى السماء. كانت تشعر بأنّ الدنيا كلّها لا تكفيها مسكنًا. وأنّ ما يربطها بالأرض قد انقطع وأنّ حياتها لم يعد لها من معنى. لقد تقلّص الأفق الواسع في نظرها حتّى باتت لا تطيق البقاء في الدنيا بعد ولدها. فراحت مع صاحب المزامير تردّد "**آه! لقد طالت أيّام غربتي!**" (مزمور ١١٩: ٥)، "**ما أحبّ مساكنك يا ربّ القوّات! تشتاق وتذوب نفسي إلى ديار الربّ... إنّ يومًا واحدًا في ديارك خير من ألوف**" (مزمور ٨٣: ١ و١١)، "**مَن لي بجناحين كالحمامة فأطير وأستريح**" (مزمور ٥٤: ٧).

ورقاد البتول واقع، تثبّته النصوص العديدة، التي وردت على لسان الكتّاب والمؤرّخين والخطباء، بالإضافة إلى أعياد الكنيسة، الخاصّة بهذه الذكرى الكريمة، والآثار الباقية عنه.

دليل الطقس

ولقد احتفلت الكنيسة بأعياد البتول منذ العصور الأولى وأقامت الكنيسة اليونانيّة عيدًا خاصًّا سمّته عيد رقاد البتول أيّ موتها. تُحتفل به في اليوم الخامس عشر من آب من كلّ سنة. يسبقه صيام بعض الأيّام وتقدمة تقع قبل يوم العيد، وخدمة تدوم ثمانية أيّام كاملة؛ كما يحدث لأهمّ أعياد السيّد والسيّدة.

وشاعت العادة في بلاد الشرق أن تحتفل كلّ النساء بهذا العيد، كأنّه يوم عيد شفيعتهم الخاصّة. وفي الحقيقة، أنّ مريم، أمّ الجميع وشفيعتهم، اعتُبرت كأنّها شفيعة النساء بنوع خاصّ لأنّهنّ يلدن على مثالها عبادًا لله.

وقد دخل هذا العيد إلى الكنيسة اللاتينيّة فاحتفلت به روما منذ عصور الكنيسة الأولى. وينقل البابا أدريانوس الأوّل إلى شارلمان صلاة كان قد مرّ عليها حول كامل وهذا نصّها: "**إنّه لَمِن دواعي العبادة، أيّها الربّ، عيد هذا اليوم، الذي فيه خضعت القدّيسة والدة الله للموت الزمنيّ، الذي لم يقوَ مع ذلك أن يحفظ ضمن أغلاله تلك التي فيها تجسّد ابنك الوحيد سيّدنا يسوع المسيح**".

وهكذا يظهر أنّ كنيسة روما منذ أن دخلت العيد في طقوسها آمنت بموت العذراء وبانتقالها بالمجد كأنّه أمر تفرضه أمومتها الإلهيّة.

دليل التقليد

وأقدم النصوص الواردة عن رقاد البتول هي لأوريجانوس (+ ٢٥٤) إذ يقول: **"يتساءل الكثيرون عمّا يختصّ بأخوّة المعلّم كيف يمكن أن يكون له إخوة مع أنّ مريم لبثت عذراء طاهرة حتّى موتها؟"**.

ولقد أجمع الكتّاب المحرّفون على أنّ مريم ماتت. وكنّا نتوقّع من هؤلاء الكتّاب المغالين حتّى التحريف أن ينفوا واقع الموت أو يأبوا أن يكون قد حدث بصورة طبيعيّة وأن يدفعهم ميلهم إلى التحريف والبحث عن الخارق إلى تصوّر ميتة عجائبيّة، خارقة، غريبة، بها تنهي العذراء مريم أيّامها الأخيرة على الأرض. ولكنّ التقليد المحلّيّ الثابت حال دون عبث العابثين وشلّ مخيّلتهم وأوقفهم عند حدود الحقيقة الراهنة.

لقد كان أمر موت العذراء منتشرًا، خاصّة في القدس، بين المسيحيّين. ممّا جعل أصحاب الأناجيل المحرّفة أن يعترفوا به كما هو؛ فأدّوا بذلك خدمة للكنيسة. إذ أصبحت كتبهم مرجعًا ذا قيمة تاريخيّة، استند إليها واضعو الطقوس، في تأليف الصلوات.

ولقد أجمع أيضًا الآباء والكتّاب الروحيّون وعلماء اللاهوت، في كلّ زمن، على أنّ مريم لاقت حتفها. وهذا ما يُسمّى بالرأي العامّ في الكنيسة.

دليل المنطق

والرأي العامّ الذي اعتمد، ولا شكّ، على التقليد المقدّس كان يستند إلى المنطق. لأنّ الله الذي رفع مريم وكفاها شرّ الخطيئة لم يعفها من الألم والموت لأسباب عديدة منها:

أوّلاً- إنّ سيّدنا يسوع المسيح نفسه اختار أن يموت لينقذ البشريّة. وبما أنّ مريم هي شريكة الفادي في عمل الفداء كان عليها أن تموت هي أيضًا.

ثانيًا- إنّ موتها يجعلها أكثر تشبّهًا بنا؛ فهي، على مثال ابنها، اختبرت كلّ ما في الطبيعة البشريّة من وهن وألم وموت حاشا الخطيئة (عبرانيّين ٤: ١٥).

ثالثًا: كان على مريم أن تكون لنا مثالاً في الحياة والموت فأصبحت لنا مثال الميتة الصالحة.

دليل تعليم الكنيسة

في ١٥ آب سنة ١٩٣٣ كان البابا بيوس الحادي عشر يدعو الحضور ويحثّهم على أن يتعبّدوا بحرارة لمريم **"حتّى تكون شفيعتنا لدى المراحم الإلهيّة عند ساعة موتنا، ذلك الموت الذي ذاقته وجازت طريقه لأنّها لم تحظ بالنعمة التي كانت لأوّل خليقة قبل سقوطه ولكنّها حظيت بنعمة الفداء التي لا تعطيها الخلود الحقيقيّ على هذه الأرض"**.

وهذا النصّ يعني أنّ مريم رغم براءتها من دنس الخطيئة الأصليّة، لم تحصل على نعمة عدم الموت، التي كان يتمتّع بها الإنسان الأوّل، وقد فقدها بسبب تمرّده على الربّ. ولذلك فهي عرضة للموت لا للفساد.

وحاشا لها أن تشعر قبل رقادها الأخير بأوهان الشيخوخة والعجز والمرض أو أن تنتابها حشرجات الموت الطبيعيّة.

وقد أجمع الآباء القدّيسون على أنّها رقدت بهدوء وسلام.

فيقول القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ (+ ٧٤٩): "**إنّ مريم ماتت موتًا هادئًا ما بعده هدوء**".

ومن المقرّر أنّ البتول لم تمت في الحبّ شأن كلّ المختارين فحسب ولا لأجل الحبّ شأن الشهداء وإنّما ماتت عن حبّ.

ويصرّح القدّيس فرنسيس السالسيّ (+ ١٦٢٢): "**لا نستطيع أن نتصوّر أنّ مريم ماتت إلاّ بسبب الحبّ... إنّ يسوع مات في لهب المحبّة... وقد ماتت بسبب موت ابنها**".

وفي الرسالة التي تحدّدت فيها عقيدة انتقال البتول يسرد البابا بيوس الثّانيّ عشر كثيرًا من تعاليم الآباء القدّيسين في هذا الصدد. وقد أكّد بأنّهم بيّنوا بوضوح ما نوّهت عنه الكتب الطقسيّة تنويهًا أو ألمحت عنه من بعيد. وذلك أنّ عيد انتقال البتول يذكّرنا بأنّها ذاقت الموت ولم يَسرِ الفساد إلى جسدها الطاهر. ويقول الدّمشقيّ: "**كان على مريم أن تحفظ جسدها بدون فساد حتّى بعد الموت**"، ويقول كاتب آخر من العصور الأولى أنّ مريم "**قامت من القبر**" ويتكلّم أميده دي لوزان عن جسد العذراء "**الذي اتّحد جديدًا مع نفسها**" وكذلك نجد عبارات عديدة بهذا المعنى للقدّيس أنطونيوس البدوانيّ والقدّيس فرنسيس الأسيزيّ والقدّيس ألفونس دي ليغوري.

ويمكننا أن نتصوّر في أذهاننا الساعات الأخيرة التي قضتها مريم من حياتها، لا على سرير الآلام، وإنّما في أبهى مواقف العبادة والتأمّل والصلاة. هكذا وُجد بولس أوّل النسّاك ميتًا في كهفه ركبتاه على الأرض ورأسه إلى فوق ويداه ممتدّتان نحو السماء. وسنة ١٨٢٠ وُجِد الأب دي كلوريفيير ميتًا أمام بيت القربان مستندًا إلى الهيكل بينما كان غائصًا في تأمّل الصباح.

وعلى الجملة فإنّ مريم البتول أسلمت روحها الطاهرة بدون عذاب بين يدي ابنها. وكما أنّ أقلّ اهتزاز يستطيع أن ينـزع من الشجرة ثمرة ناضجة، هكذا قطفت نفس مريم لتطير إلى الأخدار السماويّة بدافع حبّها لله ولابنها وللنفوس.

مكان وفاتها

وأمّا عن مكان موت العذراء فالتقليد المحلّيّ يبدو أكثر صمتًا. غير أنّ القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ وغيره من مطلع الجيل الثامن اهتدوا إلى المكان الذي فيه لفظت البتول أنفاسها الطاهرة فوجدوه بالقرب من العليّة الصهيونيّة. وفي الجيل الرابع شُيّدت كنيسة كبرى على أنقاض معبد صغير قام في المكان الذي يذكّرنا بوفاتها. وبعد أن تهدّمت في الجيل الحادي عشر، أعاد الصليبيّون بناءها. وكانت تضمّ مغارة في قسمها الشماليّ تكرّم فيها ذكرى رقاد البتول. وقد حلّ بها الدمار أيضًا بين ١٢١٩- ١٢٤٤. وأخيرًا في عام ١٨٩٨ اشترى "**غليوم الثّاني**" إمبراطور ألمانيا الأرض المسمّاة "**مكان رقاد البتول**" فأشاد عليها الآباء البندكتيّون الألمان كنيسة فخمة جدًّا سُمّيت بكنيسة "**رقاد البتول**". وقد كُرّست سنة ١٩١٠ ولكنّها تعرّضت لنيران الثورة التي قامت بين العرب واليهود بين ١٩٣٦- ١٩٣٩ ثمّ عام ١٩٤٨ فتشوّه بعض أطرافها وقبّتها الفخمة.

٦١
القبر

بقي أن نعرف المكان الذي ضمّ جسد العذراء الطاهر بعد موتها. منذ أبعد الأزمان، أشار الناس وما زالوا يشيرون إلى المكان الذي فيه يكرّم المسيحيّون قبر العذراء. إلى الشرق من أسوار مدينة القدس القديمة وبالقرب من بستان الزيتون، حيث نازع السيّد المسيح في الجسمانيّة، هناك كنيسة تضمّ قبر مريم البتول.
ولنا في التقاليد الشرقيّة والآثار الباقية أكثر من دليل وحجّة على وجود قبر العذراء بالقرب من مدينة القدس القديمة.

دليل الكتب المحرّفة

هنالك أوّلاً الكتب المحرّفة. فإنّها وإنْ كانت تحتوي على أساطير ملفّقة، تراها لا تنحرف عن جادّة الصواب حينما تحدّد الأماكن الجغرافيّة، على اعتبار أنّ كاتبيها يقيمون في نفس الأماكن التي جرت فيها الحوادث. فلهم إذن صفة الشاهد العيان. وعلى هذا يمكن اعتبار أقوالهم مرجعًا وثيقًا.
من تلك الكتب المحرّفة كتاب سُمّي **"انتقال العذراء"** ويبدو أنّ النسخة الأصليّة كُتبت باللغة اليونانيّة. ويرجّح أنّه من الجيل الرابع أو الخامس. ويتحدّث عن قبر وانتقال العذراء مريم في وادي يوشافاط بالقرب من مدينة القدس.

وثيقة تاريخيّة

هنالك أيضًا قصّة بيزنطيّة سُمّيت **"أفتيمية"** تفيد أنّ الإمبراطور مرسيانوس طلب عام ٤٥١ إلى جوفينال مطران مدينة القدس (٤٢١- ٤٥٦) أن يهبه جسد العذراء مريم ليضعه في كنيسة العذراء التي كان قد أشادها حديثًا في القسطنطينيّة؛ فيردّ جوفينال عليه بأنّ قبر العذراء ما يزال موجودًا في الجسمانيّة وأمّا مريم فقد انتقلت إلى السماء. ويؤكّد جوفينال للإمبراطور بأنّ رأيه هذا يستند إلى **"تقليد ثابت وقديم"**. ويجدها جوفينال فرصة سانحة ليستدرّ عطف الإمبراطور. فتُشاد على النفقة الملكيّة كنيسة عظيمة بين سنة ٤٥٣ و٤٥٨ في الجسمانيّة حيث قبر العذراء مريم.
والتقاليد البيزنطيّة التي تناقلتها الألسن والأقلام بين الجيل السادس والعاشر كلّها تشير إلى الجسمانيّة كمكان لقبر العذراء مريم.

دليل الآباء

أمّا القدّيس أندراوس الكريتيّ، وهو أورشليميّ المولد، فلكي يعلن إيمانه بانتقال العذراء وجد الدليل في قبرها المهجور في الجسمانيّة.
ويمكن القول بأنّ جميع الخطباء الكنسيّين وعلماء اللاهوت والمؤرّخين القدماء حينما يتكلّمون عن انتقال العذراء يحدّدون له مكانًا مدينة القدس. وكلّهم يؤكّد بأنّ التقليد الذي

يعتمدون عليه هو غير قابل للشكّ وأنّه يعود إلى عهد الرسل وأنّ القبر المهجور في الجسمانيّة هو الدليل على صحّة التقليد.

دليل الآثار

أمّا الآثار الباقية فإنّها أيضًا تشير بدورها إلى المكان الذي ضمّ جسد العذراء الطاهر في الجسمانيّة.

عند أقدام جبل الزيتون بالقرب من الجسمانيّة، يرى زوّار الأراضي المقدّسة مغارة شبيهة بالمغارة التي ضمّت جسد المعلّم. إنّها مقطوعة في الصخر المحيط بها وفيها مصطبة كان قد وُضع عليها جسد البتول.

في هذا المكان بالذات أشاد جوفينال الكنيسة العظيمة على أنقاض معبد أقدم عهدًا وأصغر حجمًا. وقد تهدّمت الكنيسة لدى اجتياح كسرى الثانيّ عام ٦١٤ بلاد فلسطين. ثمّ أُعيد بناؤها فوق المغارة القائمة على القبر على شكل كنيستَيْن الواحدة تعلو الثانية. وحلّ بها الدمار ثانية في الجيل الحادي عشر فيجدّد الصليبيّون بناءها. وتعرّضت الكنيسة العليا للخراب مرّة ثالثة بعد عام ١١٨٧. وبقيت الكنيسة السفلى سالمة مع المغارة والقبر. وهي ما تزال على حالها إلى وقتنا الحاضر.

ومدخل الكنيسة باب كبير منه ينحدر الإنسان على ثمان وأربعين درجة عريضة حتّى اثني عشر مترًا تحت الأرض. فتغمر الأراضي المجاورة الكنيسة ونوافذها فتصبح في ظلام حالك ممّا يضطرّ المصلّين إلى إيقاد الشموع لتلمّس الطريق حتّى قبر البتول.

ولقد قام بخدمة هذا القبر المقدّس الآباء البندكتيّون منذ العهود الصليبيّة. ثمّ أعقبهم الآباء الفرنسيسكان. وهو الآن بيد الرهبان اليونان والأرمن.

ولقد أحدثت مؤخّرًا بعض الإنشاءات الثانويّة في مدخل الكنيسة على أثر بناء جسر حديث على الطريق المؤدّية من القدس إلى أريحا أفقدها صفاتها الأثريّة. خاصّة وأنّ الإنشاءات الحديثة هي من الطراز الأرمنيّ، بينما الكنيسة القديمة هي من الطراز الرومانيّ.

وحبّذا لو شُيّدت كنيسة جديدة تليق بالمقام والذكرى ككنيسة الجسمانيّة القائمة بالقرب من القبر.

وهكذا تضمحلّ ادّعاءات القائلين بأنّ أفسس هي المكان الذي فيه رقدت العذراء ومنه صعدت إلى السماء. إنّ الوثائق بخصوص الجسمانيّة ثابتة لا جدل فيها.

وهكذا أيضًا تبدو الجسمانيّة أشرف بقعة على الأرض إذ تقدّست بضمّها جسد البتول الطاهر.

ومن هذا المكان المقدّس انطلقت البتول بعد أن حطّمت سلاسل وقيود الحياة الدنيا. وراحت لملاقاة ابنها وحبيب نفسها لقاء ما بعده وداع.

٦٢
لم تعرف فساد القبر

موت بدون انحلال

لقد رضي الله بموت مريم. ولكن، لم يكن من المنطق بشيء، أن يرضى بأن تخضع لهوان الموت، ألا وهو فساد القبر.

ومن الأمور التي تحمل على القناعة أنّ المؤمنين قبلوا بدون عناء فكرة موت البتول، على مثال ابنها الإلهيّ. الأمر الذي لم يدفعهم قط إلى الاعتقاد بأنّ جسد البتول أُسلم إلى الإنحلال والفساد. وبذلك اكتسبت مريم صورة جديدة من صور ابنها الحبيب نقلتها إلى نفسها. ماتت وتنـزّهت عن فساد القبر مثله. إنّ جسدها بقي سالمًا ولم يقوَ عليه الإنحلال. والأيّام القليلة التي قضتها في القبر لم تؤثّر على جسدها بأذى.

أسباب عصمتها

كما أنّ مريم لم تعرف الفساد في نفسها كذلك جسدها لم يثلم. ذلك لأنّه ما فتئ ينعم، طيلة حياتها، بطهارته ونقائه، مثلما لبثت روحها في نقائها وطهارتها كلّ حياتها. كلّ ما فيها كان يبعث نغمة الطهارة والفضيلة. وجسد، كهذا، لا يمكن أن يصبح فريسة للتراب والدود.

أليس جسد مريم هو الذي كوّن جسد المسيح؟ فكان مفروضًا على المسيح أن يحول دون فساده. إنّه من نصيبنا نحن أن نُذلّ ويصيبنا الإنحلال؛ أمّا مريم فلا! إنّ ذلّ الأمّ لا بدّ من أن يعود بالذلّ على الابن.

لقد حملت مريم في حشاها مدّة تسعة أشهر كلمة الله المتأنّس، وأرضعته اللبن من ثدييها الطاهرَيْن. لقد كان جسدها كلّ أيّام حياتها هيكلاً للثالوث الأقدس. فكيف يجوز بعد هذا أن يُسلّم هذا الجسد للفساد وأن يتحكّم به الدود؟ كيف تنتن الأحشاء التي حملته والجوانح التي ضمّته والسواعد التي هدهدته والفم الذي قبله والقلب الذي أحبّه؟ الاعتقاد بغير ذلك يُعتبر إهانة لله ولمريم ولولدها.

لقد استطاع السيّد المسيح أن يحفظ من كلّ فساد جسد والدته الطاهر لدى الحبل بها وتجسّده منها خلافًا لكلّ نواميس الطبيعة. فلن يعسر عليه أن يحفظها من فساد القبر. ولا بدّ من أنّه فاعل. بعد أن شاركته في محنته وآلامه، أصبح من العدل أن تشاركه أيضًا في ثوابه ومجده حتّى تتنـزّه مثله عن فساد القبر.

على كلّ حال، إنّ مبدأ الفساد الذي نحمله نحن في أجسامنا، لم يكن فيها. نحن نحمل "**جسد الخطيئة**" كما يقول القدّيس بولس (روما ٨: ٣) وأنّ هذا الجسد مدعوّ للفساد والإنحلال حسب التعاليم المسيحيّة؛ وإلاّ لما حُقّ له الملكوت "**لأنّ اللحم والدم لا يرثان الملكوت**" (كورنتس الأولى ١٥: ٥٠). فلا بدّ من أن يغيّر الله هذا الجسد الفاسد الباليّ بجسد آخر نجدّده على مثال الجسد الأوّل، الذي خرج في بدء الخليقة من يديه. إنّه كالبناء المتصدّع يهدمه المهندس ليعيد بناءه على شكل هندسيّ جديد، كجسدنا الذي دنّسته الخطيئة وأوهنت قواه. أمّا جسد مريم، فلم يعرف الخطيئة، بل حُفظ سالمًا كجسد الإنسان الأوّل قبل تلوّثه بالخطيئة الأولى. ولذلك حُقّ له أن يتنـزّه عن الفساد.

العقيدة

وقد أعلن قداسة الحبر الأعظم البابا بيوس الثّانيّ عشر في اليوم الأوّل من شهر تشرين الأوّل سنة ١٩٥٠ عقيدة انتقال العذراء بالنفس والجسد إلى ملكوت السماوات.

وإنّ الحبر الأعظم حينما أعلن عقيدة انتقال البتول، ميّز بين الموت وفساد القبر، إذ يقول: "**إنّ السيّد المسيح انتصر على الخطيئة والموت**" وهكذا "**فإنّ الذي تجدّد روحيًّا بسرّ العماد ينتصر بالمسيح ذاته على الموت والخطيئة، ولكن، حسب القاعدة العامّة، يأبى الله أن يمنح الأبرار كمال الإنتصار على الموت إلاّ بعد نهاية العالم. ولذلك تتعرّض أجسادهم بعد الموت للإنحلال ولا تعود إلى الإتّحاد بنفوسها الخاصّة إلاّ في نهاية العالم. ومع ذلك، فقد شاء الله أن ينجّي البتول مريم من هذه القاعدة العامّة؛ بفضل إنعام خاصّ انتصرت العذراء مريم على الخطيئة حيث وُجدت بريئة من الدنس وبالتالي لم تخضع لشريعة الفناء وفساد القبر**".

وهكذا يتّضح من تعليم الحبر الأعظم أنّ الجميع خاضعون للقاعدة العامّة التي تفرض أن تنفصل النفس عن الجسد ثمّ أن ينحلّ الجسد ويفسد. أمّا مريم، فقد وهبها الله أن تتنزّه عن هذا الإنحلال وهذا الفساد. والسبب واضح، هو أنّ الفساد نتيجة حتميّة للخطيئة. ومريم لم تعرف الخطيئة. وكما أنّ قيامة المسيح الممجّدة كانت الدليل على إنتصاره على الخطيئة والموت، كذلك انتصر جسد مريم على الفساد لأنّه لم يعرف الخطيئة.

لقد ماتت البتول ورقدت في قبر. ولكنّ موتها كان لها إنتصارًا وقبرها مصدر مجد جديد يضاف إلى أمجادها السابقة.

٦٣
قيامة البتول

دليل التقليد المقدّس

لم تلبث البتول في القبر إلاّ مدّة وجيزة جدًّا. هذا ما يثبته التقليد المقدّس بصورة قاطعة. لقد آمن المسيحيّون في كلّ الأزمان وما زالوا يؤمنون بأنّ البتول قامت من القبر ولمّا يمض طويل زمن على موتها. وأنّ الكنيسة مهرت هذه العقيدة بقدسيّة خاصّة إذ أقامت عيدًا خاصًّا لانتقال البتول.

لم يكن ضروريًّا أن تظهر البتول لأحد لدى انتقالها إلى السماء؛ وقد يكون الأمر قد تمّ في سرّ الله. وهكذا نحن نجهل أيضًا بالضبط الساعة والطريقة التي تمجّد بها المعلّم لدى قيامته؛ ولكنّنا نثبته من آثاره: القبر الخاويّ والظهورات.

الدليل القاطع

أمّا الدليل القاطع على قيامة البتول فهو أنّه لم يُسمع قط بوجود ذخائر لجسم البتول مريم؛ مع أنّ المسيحيّين منذ الأجيال الأولى للكنيسة أحاطوا باحترام زائد بقايا القدّيسين؛

وتنازعوا الحصول على تلك البقايا المقدّسة. والكنائس تفاخر بالحصول على تلك الكنوز الثمينة.

لقد حُفظت عظام الرسل وذخائر ملايين القدّيسين والشهداء بالإحترام الزائد اللائق بها في صناديق وأوان من المعدن الثمين المزخرف. فهل يعقل أن تُهمل ذخائر البتول الطاهرة ويطويها النسيان؟ لو أنّ جسم البتول بقي في القبر لأحاطه المسيحيّون بأعظم الإكرام ولتناقلته الأجيال باحترام نادر لائق بأعظم الكنوز وأثمنها.

وهكذا ننتهي إلى القول بأنّه إذا كانت الكنيسة لا تملك شيئًا من جسم البتول ذلك أنّ جسدها الطاهر قام ولم يلبث طويلاً في القبر.

أسباب الإنعام

وأمّا الأسباب التي تدعونا إلى الاعتقاد بقيامة البتول فهي:

أوّلاً- إنّ كرامتها كأمّ الله يدعو إلى تلك القيامة.

كان والحقّ يقال من اللائق بأنّ ذلك الجسد الذي استمدّ منه المخلّص عناصر حياته الأرضيّة ألاّ يلبث طويلاً مقيّدًا بغير حراك. لقد وهبها المخلّص كثيرًا من الإنعامات، فكان عليه أن يهبها نعمة القيامة السريعة. إنّ التي وهبته الحياة تستحقّ أن يعيد إليها الحياة وأنّ مقام أمّ الله هو في أنوار المجد وليس في ظلمات القبر.

ثانيًا- إنّ طهارتها تدعو إلى تلك القيامة.

إنّ جسد البتول ليس أنّه لم يذق طعم أيّة ملذّة دنيئة فحسب بل أنّه لم يشعر بالشهوة قط في أيّة لحظة من حياتها.

نعم، كان الله قد حدّد موعدًا عامًّا لقيامة جميع البشر، وهو الموعد المقرّر في نهاية العالم. ولكن هنالك أسبابًا عديدة حملت الله لأن يسبّق هذا الموعد بالنسبة للبتول الطاهرة.

إنّ الأرض لا تفيد من حرارة الشمس وأنوارها إلاّ في أوقات وفصول معيّنة. ولكنّنا نلاحظ أنّ بعض الأراضي التي نالت حظًّا وافرًا من العناية والري والسماد لا تنتظر فصل الإنبات ولكنّها تؤتي ثمارها قبل الأوان. وأنّ جسد البتول، ولا شكّ، أرض نالت من بركات السماء ما يجعله أن يثمر حالاً دون انتظار المواعيد المقرّرة.

لقد جذبت البتول عينيّ الربّ بطهارتها الفائقة وأنزلت الكلمة إلى أحشائها البريئة. أفلا تنحني السماء لتضمّ إليها تلك الثمرة الناضجة؟

ثالثًا- إنّ حبّ يسوع لأمّه يدعو إلى تلك القيامة.

في الحقيقة ليس من نعمة إلاّ أفاضها المخلّص على شخص أمّه الطاهرة. فهل يرضى أن تبقى أمّه محرومة من الحياة، منسيّة تحت التراب. إنّ حبّه لها لا يتحمّل هذا النسيان ولا هذا الإهمال. إنّ حبّه لها يدعوه إلى أن يهبها حالاً السعادة الكاملة وأن يميّزها حتّى عن القدّيسين الشهداء.

وهكذا فرض المنطق علينا أن نعتقد بأنّ مريم قامت من الموت ولم تلبث في ظلمات القبر.

ولهذا نحن نؤمن بأنّ نفس مريم، بعد أن انفصلت عن جسدها الطاهر بزمن وجيز، عادت فانضمّت إليه بأعجوبة خاصّة من الله ودبّت فيه الحياة مرّة ثانية.

أمّا متى وكيف حدث هذا الأمر فذلك في سرّ الله. لأنّه لا الكتاب ولا التقليد المقدّس كشفا لنا عن ذلك. ولكن نظنّ مع ذلك بأنّها على مثال ابنها قامت من القبر في اليوم الثالث. لأنّه من المنطق أنّ التي شاركته في آلام الموت وذلّ القبر أن تشاركه في مجد القيامة.

٦٤
انتقال البتول

لا بدّ لنا، قبل أن نخوض في البحث عن انتقال البتول كعقيدة، من أن نعرّف معنى ذلك، ونستعرض بعض المبادئ الأساسيّة التي تسمح لحادث انتقال البتول، وهو يعتمد على تقليد مقدّس، أن ينضمّ إلى مجموعة العقائد الإيمانيّة أيّ إلى قانون إيمان الكنيسة.

معنى العبارة

لماذا قيل انتقال البتول وليس صعود البتول؟ انتقال البتول معناه في نظر الكنيسة جمعاء بأنّ مريم العذراء رُفعت إلى السماء بالنفس والجسد ولمّا يمض زمن طويل على رقادها وقيامتها المجيدة؛ وإنّها تنعم في السماء إلى الأبد وفوق جميع الملائكة والقدّيسين.

وقد قيل انتقال وليس صعودًا، لأنّ الصعود خاصّ بالسيّد المسيح. فهو بقوّته الإلهيّة استطاع أن يرتفع بنفسه نحو السماء. أمّا مريم الناهضة من مثواها فقد رفعها الله بقوّته الإلهيّة إلى المجد الذي كان قد هيّأه لها.

ضرورة الوحي

إنّ انتقال البتول يستند إلى **"تقليد مقدّس قديم"** فهل يجوز أن يتحوّل إلى عقيدة إيمانيّة؟

يُشترط أوّلاً في كلّ حقيقة حتّى تتحوّل إلى عقيدة إيمانيّة أن تكون قد أُوحي بها منذ عهد الرسل؛ لأنّ عهد الوحي انطوى بموت آخر رسول.

ففي حادث انتقال البتول شيء محسوس ألا وهو انتقال جسد البتول من القبر باتجاه السماء. ولكنّ أحدًا لا يستطيع أن يدّعي بأنّه شاهد البتول تدخل السماء وترتفع فوق الملائكة والقدّيسين؛ إذ إنّ ذلك لم يقع تحت الحواس.

بالطبع لقد كان من السهل على الشهود الذين اكتشفوا قبر البتول مهجورًا أو الذين رأوها تقوم من القبر وتصعد إلى السماء أن يفترضوا بأنّ البتول دخلت السماء وأنّ السيّد المسيح قد أشركها في مجد صعوده.

ولكنّ هذا الإفتراض لا يتحوّل إلى حقيقة ثابتة إلاّ إذا أوحى الله بذلك. هكذا أثبت، بصورة لا تقبل الشكّ صعود المسيح إلى السماء الملائكة الذين قالوا مباشرة للتلاميذ:

"أيّها الرجال الجليليّون، ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ إنّ يسوع هذا، الذي ارتفع عنكم إلى السماء، سيأتي هكذا كما عاينتموه منطلقًا إلى السماء" (أعمال الرسل ١: ١١).

وعليه كان لا بدّ لحادث انتقال البتول من أن يؤيّده الوحي، على الأقلّ بصورة ضمنيّة.

وحتّى تصبح حقيقة ثابتة تفرض على إيمان الكنيسة جمعاء لا بدّ من وحي جهريّ ينـزل على الرسل أو على أحدهم على الأقلّ وذلك بطريقة ظاهرة أو ضمنيّة مبهمة ثمّ تتوضّح مع مرور الزمن.

وسوف نتبيّن بأنّ الوحي هو أساس **"التقليد المقدّس القديم"** والتعاليم اللاهوتيّة التي اعتمدتها الكنيسة لتحدّد العقيدة الخاصّة بانتقال البتول.

ويشترط ثانيًا أن يكون هذا الوحي الذي نزل في عهد الرسل قد أدركته الكنيسة المعلّمة واستوعبته في مواعظها وطقوسها وكتابات معلّميها.

ممّا لا شكّ فيه أنّنا لا نجد أثرًا للوحي بما يختصّ بانتقال البتول في مطلع تاريخ الكنيسة.

رغبة المؤمنين

غير أنّ ١٩٠ من الآباء الذين ضمّهم مجمع الفاتيكان (١٨٦٩- ١٨٧٠) أعربوا عن رغبة صادقة في أن ينضمّ حادث انتقال البتول إلى الكتاب الذهبيّ الحاويّ عقائد إيماننا بهذه العبارات: **"قيامة العذراء البريئة من دنس الخطيئة الأصليّة وانتقالها إلى السماء، كما يوضّحه اتفاق الأقدمين عليه في الرأي واستمرار العبادة له بصورة علنيّة واحتفاليّة، هو في الكنيسة "تقليد مقدّس قديم" ولقد تضافر، ليضمن له البقاء، ارتباط حادث انتقال البتول هذا بباقي إنعامات الطوباويّة العذراء، وفقدان أيّ أثر للذخائر والقبر الخاليّ"**.

وقد أبدى الأساقفة نفس الرغبة للكرسيّ الرسول بين عام ١٩٠٠- ١٩١٢ وكثيرون بعدهم. وعلى سبيل المثال نذكر بأنّ ٢٥٠٠ توقيع رئيس أساقفة وأسقف وردت إلى المجمع المقدّس وهي تمثّل عرائض بتواقيع أكثر من ٢٣٠٠٠ كاهن وراهب و٥٠٠٠٠ راهبة و٨٠٠٠٠٠٠ من المؤمنين. ومن الكنائس الشرقيّة ارتفعت كذلك الأصوات تطلب إعلان انتقال البتول عقيدة إيمانيّة.

والأحبار الأعظمون كلّفوا علماء اللاهوت والجمعيّات الرهبانيّة والكلّيات الدينيّة للبحث والدرس والتدقيق في موضوع انتقال البتول. ثمّ وجّهوا دعوات لجميع أساقفة العالم ليبدوا رأيهم في الموضوع. ثمّ دعوا إلى مؤتمرات عالميّة لدرس الموضوع، وأخيرًا وجّهوا نداءات خاصّة للجمعيّات الرهبانيّة لإقامة الصلوات على هذه النيّة.

هكذا تعالج الأمور الجدّيّة بالجدّيّة اللائقة بها. وهكذا انتهى رئيس الكنيسة الأعلى إلى إعلانها عقيدة بعد أن استنفذ جميع وجوه النشاط الدينيّ وسمع أصداء الكنيسة تتجاوب من كلّ مكان، تلك الأصداء التي ما هي إلاّ ترداد **"للتقليد القديم المقدّس"**.

نعم إنّ تاريخ الكنيسة في عهد الرسل والقرون التالية الأولى لم يترك لنا تأكيدًا واحدًا عن انتقال البتول. ولكنّ هذا الإثبات في التاريخ القديم ليس من باب الضرورة القصوى.

التقليد مصدر رسميّ

إنّ المصادر التاريخيّة المدوّنة ليست المصدر الوحيد لمعرفة الحقيقة والوحي. هنالك "**التقليد**" أيضًا مصدر ومصدر رسميّ. والحوادث والتعاليم قبل أن تُدوّن يتداولها الناس فيما بينهم ويتناقلها الأبناء عن الآباء. وهمذا ما يُسمّى "**بالتقليد التاريخيّ**". وللأحداث الدينيّة والمدنيّة تقليدها التاريخيّ، منه يستقي المؤرّخون وإليه يرجعون.

وهنالك "**تقليد لاهوتيّ**" موضوعه الحقائق التي تعلّمها الكنيسة. ومن المقرّر أنّ المعلّم ما وعد بالروح القدس حافظًا لكنيسته من الضلال إلاّ للذود عن هذا "**التقليد اللاهوتيّ**" وحفظه من العبث والفساد.

وإنّ انتقال البتول هو إحدى الحقائق التي انتقلت إلى الكنيسة، مدّة أجيال، عن طريق "**التقليد اللاهوتيّ**" يؤيّدها في سيرها ويشير إليها الإنعامات الكثيرة التي أفاضها الله على مريم البتول.

النتيجة الحتميّة

بالإستناد إلى ما تنطوي عليه الكتب المقدّسة من إشارات وتلميحات وبالإستناد إلى عقيدة الشعب المسيحيّ الذي آمن بانتقال البتول في كلّ زمان ومكان والرغبة التي أبداها للسلطة الكنسيّة العليا في أن تحدّدها عقيدة، وبالإستناد إلى العبادات القائمة في الكنيسة منذ أجيال بعيدة، وبالإستناد إلى أنّ حقيقة انتقال البتول تتّفق وباقي الحقائق التي يعلنها الوحي بصراحة، وبالإستناد أخيرًا إلى عِلم وحكمة وبحث علماء اللاهوت في الكنيسة يتكوّن بوضوح ما سُمّي "**بالتقليد اللاهوتيّ**" إذ ينتج عن كلّ ذلك حقيقة لا تقبل الشكّ وهي أنّ انتقال البتول إلى السماء حقيقة أوحى بها الله وأحاطها الروح القدس على مدى الأجيال برعاية خاصّة وعناية فائقة. وقد حفظت خاصّة في الطقوس الدينيّة والعبادة المسيحيّة وكانت كلّما خطت قرنًا إلى الأمام اكتسبت وضوحًا وثباتًا أقوى.

وهكذا في الثلاثين من شهر تشرين الأوّل ١٩٥٠ يقف الحبر الأعظم بيوس الثاني عشر ليصرّح لأكثر من ٥٠٠ من رؤساء الدين قبل إعلانها عقيدة: "**بما أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة بأجمعها لا يمكن أن تخدع ولا أن تخدع**" إذ إنّ معلّمها بالذات قال لرسله: "**هاءنذا معكم كلّ الأيّام وإلى منتهى العالم**" (متّى ٢٨: ٢٠) **ننتهي حتمًا إلى القول بأنّ حقيقة انتقال البتول التي يؤمن بها الرعاة والرعيّة بثبات واستمرار هي موحاة من الله ويمكن أن نحدّدها بسلطاننا الساميّ**".

٦٥
انتقال البتول عقيدة

لقد وقف البابا بيوس الثّانيّ عشر في اليوم الأوّل من شهر تشرين الثّانيّ عام ١٩٥٠ على عرشه المرفوع أمام مدخل كنيسة القدّيس بطرس في روما ليعلن للملأ بسلطانه على كنيسة المسيح عقيدة انتقال العذراء بالنفس والجسد إلى السماء.

تجاوب الشعوب

وكان قد تجمّع أكثر من خمس مئة ألف نسمة في كنيسة القدّيس بطرس وفي ساحتها ينشدون فرحين.

وفي العالم أجمع قُرعت أجراس الكنائس ابتهاجًا بهذه البشرى.

وليس في العالم مَن خُفي عليه أهميّة هذا الحدث الجلل. ولقد ردّدت أصداءه الصحافة العالميّة، ورؤساء الأديان من مختلف المذاهب، وتحدّثوا عنه، بعضهم عن احترام ورضي وغيرهم عن دهشة واستهجان ومنهم عن عداوة واحتقار.

إيمان كنيسة انكلترا

ففي انكلترا وجد بعضهم أنّ الحبر الأعظم يزيد شقة الخلاف بين الكنيسة الرومانيّة وكنيسة إنكلترا. فأصبح من المحال بنظرهم عقد راية موحّدة للشعوب المسيحيّة بعد إدخال هذه العقيدة الجديدة في قاموس العقائد المقرّرة لدى المسيحيّين.

ولكن فات هؤلاء أنّ لا جديد ولا مستحدث في إيمان الكنيسة، وإنّما الجديد والمستحدث هو إعلان رسميّ لعقيدة مُعترف بها في كلّ مكان وزمان؛ لأنّه ليس من حقّ الكنيسة أن تخترع عقائد؛ ولكن لها أن تحدّد وتعلن تدريجيًّا حسبما توحيه حاجة النفوس والإيمان والحقائق التي أنزلها الوحي، وبقيت محفوظة دومًا في إحدى طريقتيه الوحي في الكتاب المقدّس والوحي في التقليد المقدّس. ومهمّة الكنيسة أن تثبّت وتوضّح، حيثما يبدو لها موافقًا، ما اعتقد به المؤمنون على مدى الأجيال ومنذ عهد الرسل بصورة غير واضحة في البدء، ثمّ أخذ يتّضح مع مرور الزمن وينتقل من المحيط المحلّيّ للكنائس الخاصّة ومن العبادات المحلّيّة لبعض الشعوب، وبالتالي يخرج من المجال الخاصّ إلى المجال العامّ حتّى يصبح شاملاً لجميع الكنائس.

فإذا ما أعلنت الكنيسة الكاثوليكيّة اليوم إيمانها بانتقال البتول على أنّها عقيدة من عقائد الإيمان، ما ذلك إلاّ لأنّها ما انفكّت على مدى الأجيال تؤمن به. مع ذلك وعلى الرغم من أنّ الكنيسة هي الوارثة الوحيدة لكنز الإيمان وهي الحافظة له والقائمة على شرحه لم يخطر لها قط أن تغيّر فيه، أو تحوّره، أو تحذف منه، أو تضيف إليه. وإنّ عقيدة انتقال البتول، بقطع النظر، عن أنّ إعلانها جرى حديثًا، هي حقيقة تعود في التاريخ إلى اليوم الذي تجسّد فيه الكلمة ليخلّص العالم.

وهذا في الحقيقة ما انطوى عليه إيمان الشعوب المسيحيّة في أوروبا وفي الشرق إذ كان اتفاق الرأي هو السائد حول انتقال البتول بالنفس والجسد إلى السماء.

هكذا كان إيمان الأمّة الإنكليزيّة قبل هنري الثامن وأليزابيت. أمّا الملك ألفريد الأكبر في الجيل التاسع فقد قرّر أن يحتفل بعيد انتقال البتول ليس في اليوم ١٥ من آب فحسب

ولكن مدّة الثمانية الأيّام التالية للعيد. فأمر أن تعطّل الدوائر الرسميّة وأن تقام أفراح شعبيّة ابتهاجًا بتلك الذكرى السامية.

وأنّ رئيس أساقفة كنتوربيري لانفران جعل في الجيل الحادي عشر من انتقال البتول أهمّ أعياد السيّدة.

وفي الجيل الثّانيّ عشر حُفرت تحت قبّة كاتدرائيّة كنتوربيري بالذات صورة تمثّل انتقال البتول إلى السماء.

ولو أُتيح لإنسان أن يتردّد على الكنائس المنتشرة في أطراف إنكلترا لشاهد مئات النوافذ وقد تمثّلت عليها صور لانتقال البتول.

ومن غرائب التقوى أن يشيد الملك إدوار الثالث ملك إنكلترا (١٣٢٧- ١٣٧٧) والملكة زوجته كنيسة على جسر قديم أُقيم على نهر بريستول على اسم انتقال البتول.

وفي كلّية إيتون، وهي المؤسّسة القائمة منذ ١٤٧٤، حيث يتلقى نبلاء إنكلترا ثقافتهم العالية يمهر مدير الكلّيّة الأوراق الرسميّة بخاتم يمثّل البتول وهي تنتقل إلى السماء يحملها ستّة ملائكة.

وكان جماعة البلاط والنبلاء والطبقة الراقية حتّى والملك نفسه يتلون المسبحة. وذُكر أنّ السيّدة كوديفا كوفنتري كانت تتلو المسبحة على عقد من لؤلؤ.

هذه هي الكنيسة البروتستنتيّة بالأمس في إيمانها بانتقال البتول.

ويسرّنا أن نسمع صوت إحدى السيّدات الإنكليزيّات بمناسبة إعلان عقيدة انتقال البتول، هي السيّدة كوردولا فولر، يردّد: "**إنّي أعتقد أنّه من غير الممكن أن ينحلّ بالموت الجسم الذي حمل ابن الله. ذلك الجسد المقدّس، ذلك الهيكل الذي سكن فيه العليّ لا يجوز أن يفسد تحت التراب. كان على الله أن يحفظ تلك الكرامة ليحافظ على كرامته. ولهذه الأسباب حقّ لأمّ الله أن تقبل في السماء بالنفس والجسد. وهذا الاعتقاد يفرض على كلّ مَن يدرك ما هي أن تكون مريم أمّ الله**".

إيمان الكنائس الشرقيّة

أمّا من جهة الكنيسة الأرثوذكسيّة فلقد قام ردّ الفعل إثر تحديد عقيدة انتقال العذراء فورًا على صفحات المجلات الرسميّة أو شبه الرسميّة وهي لسان حال البطريركيّات الأرثوذكسيّة ومدارسها اللاهوتيّة. ولقد أجمع الكتّاب على أنّ انتقال العذراء بالنفس والجسد حقيقة واقعة يشهد عليها التقليد المقدّس الذي يعود إلى الجيل الخامس والمنتشر حتّى اليوم في كنائس الشرق كلّها. وما الطقوس الكنسيّة الخاصّة بعيد انتقال البتول إلاّ صدى واضح لذلك التقليد المقدّس. فلقد عبّر فيه أعاظم آباء الكنيسة ومنشدوها عن إيمان الكنيسة الجامعة ولاسيّما عن إيمان الشعوب الشرقيّة بهذا الإنعام الأثيل الذي به كلّل المخلّص مجموعة الإنعامات التي أفاضها على شخص أمّه القدّيسة فنقلها حالاً بعد موتها بالنفس والجسد إلى ملكوت السماوات.

على أنّ الذين كتبوا في الموضوع وجدوا أنّ الوقت لم يكن مناسبًا لإعلان تلك العقيدة. وفضّلوا لو تريّثت الكنيسة الكاثوليكيّة مدّة من الزمن ريثما تتمّ الوحدة المنشودة بين

الكنيستين الشرقيّة والغربيّة سيّما وأنّ الكنيسة الكاثوليكيّة هي التي تدعو في الوقت الراهن إلى هذا الإتحاد.

والجميل أن نسمع هؤلاء الكتّاب يؤكّدون أنّ فكرة انتقال البتول يعود مولدها وانتشارها إلى إيمان الكنائس الشرقيّة وعنها أخذ الغرب تلك العقيدة. جميل! لأنّهم يؤكّدون وجود ذلك التقليد المقدّس في كنيسة الله وديمومته إلى الأبد.

موضوع التحديد

بقي أن نعرف بالتدقيق ما هو الموضوع الذي أعلنه الحبر الأعظم سنة ١٩٥٠. لنسمعنّ التصريح من فمه:

"نحن نعلن ونصرّح ونحدّد أنّ مريم البريئة من دنس الخطيئة الأصليّة والدة الله الدائمة البتوليّة، والتي رُفعت بالنفس والجسد في نهاية حياتها على الأرض، إلى مجد السماء هي عقيدة أوحى بها الله، ونحن نعلن ذلك حتّى يصل تحديدنا لانتقال البتول إلى الكنيسة جمعاء...".

هذا بالضبط ما حدّده الحبر الأعظم وأعلنه عقيدة إيمانيّة على الكنيسة جمعاء. لقد حدّد وأعلن الأمر الواقع، واقع انتقال البتول إلى السماء بالجسد.

أمّا عن التفاصيل التابعة لهذا الإنتقال بالجسد، فالحبر الأعظم لم يذكر شيئًا ولم يفصل في أمور ما تزال من المواضيع القابلة للدرس والتدقيق. فلم يوضّح إنْ كانت البتول انتقلت إلى السماء مباشرة من هذه الحياة دون أن تعرف الموت أو أنّها ماتت أوّلاً ثمّ قامت وصعدت إلى السماء على مثال قيامة وصعود المسيح، وهو الرأي الذي لاقى استحسانًا لدى الآباء القدّيسين والمعلّمين وعلماء اللاهوت في الكنيسة. إنّ الحبر الأعظم توجّه بأنظاره توًّا إلى جوهر الموضوع، إلى ما هو محدّد، وما هو من كنز الإيمان، وما فرض علينا أن نؤمن به إيماننا بحقيقة أُوحي بها إلهيًّا: إنّ انتقال البتول تمّ بالجسد.

ولكن لا يكفي أن نؤمن بهذه العقيدة مجرّدة، بل علينا أن نؤمن أيضًا بكلّ ما ينتج عنها منطقيًّا: تلك هي نزاهة جسد مريم من كلّ فساد نزاهة تامّة أوّلاً، وتحوّل جسدها وتلبّسه بصفات الأجساد الممجّدة ثانيًا، ورفعه من قبل الله مباشرة إلى قمّة المجد ثالثًا.

بكلّ هذه الحقائق كانت تؤمن الكنيسة منذ الأجيال الأولى بالرغم من أنّ تلك الحقائق لم تكن واضحة كلّ الوضوح.

الكنيسة جسم حيّ

بالطبع ليس للكنيسة أن تزيد حرفًا واحدًا على إيمانها ولا أن تنقص منه وزن ذرّة لأنّ الوحي انتهى بموت آخر رسول. ولكنّ إنتهاء الوحي لا يعني أبدًا موت الوحي أو تحجّره أو تعقيمه بمعنى أنّه لم يعد من مجال للبحث والمعرفة. لا! لأنّ الروح القدس ما يزال حيًّا يحيي الكنيسة ويلهم ويرشد. إنّه حسب حاجة الكنيسة والمؤمنين يعلّمنا ما من شأنه أن يقود البشريّة إلى الخلاص. ذلك هو وعد المسيح أنّ الروح سيؤيّد الكنيسة دومًا ولن يتخلّى عنها أبدًا. وعمله لا يحدّه زمن أو مكان؛ وإنّما هو في كلّ زمان ومكان ملهم

الكنيسة. فهو الذي ينير عقولنا بواسطة السلطة الكنسيّة العليا ويمدّنا بعونه لنتفهّم تفهّمًا أفضل وأدقّ كنوز الوحي غير المسبورة.
وهكذا يتبيّن أنّ فهمنا للحقائق يزداد يومًا بعد يوم لأنّنا نحن من الكنيسة والكنيسة جسم لم يمت، غنيّ بالنسغ الإلهيّ، لا تنضب فيه ينابيع الصحّة والقوّة وهو في حالة نموّ مستمرّ. وبالتالي إنّ الكنيسة ككلّ جسم حيّ ينمو ويكبر وينتشر. وكلّ ما فيها قابل للنموّ. المحبّة تنمو والإيمان ينمو والقداسة تنمو، ونحن ننمو معها في المحبّة والإيمان والقداسة، ومعها نكتشف كلّ يوم معنى جديدًا أكثر اتّساعًا وعمقًا لمحتويات الوحي.
هنالك حقائق بدت ظاهرة واضحة المعالم منذ نشأة الكنيسة كسرّ التجسّد والفداء والقيامة. ذلك لأنّها أساس الدين المسيحيّ وشرعته الأولى. أمّا باقي الحقائق فقد بقيت طيّ النسيان، حتّى إذا ما حان الوقت واكتمل نموّ الكنيسة راحت تمزّق الحجب وتظهر أكثر وضوحًا تحت تأثير الروح القدس.
ولعلّ أفضل مثال لإيضاح ذلك ما تقوم به المراصد من اكتشاف بعض النجوم والكواكب. إنّها في الفلك منذ أن خلقها الله. ولكنّ الإنسان لم يكن له الواسطة لرؤيتها. حتّى إذا ما تقدّم العِلم وأوجد المراصد المساعدة للرؤيا البعيدة بدت له بعض تلك النجوم والكواكب. وسيبقى البعض الآخر خافيًا عنه حتّى يخترع نظّارات أكثر دقّة وأبعد رؤية.
كذلك الحال بما يختصّ ببعض الحقائق الدينيّة. الكنيسة لا تخترعها بل تكتشف وجودها. إنّ كنيسة اليوم لا تملك في جعبة الوحي حقائق أكثر ممّا كان للكنيسة في عهد الرسل. إنّ كنيسة اليوم تملك، بسبب تقدّم العِلم وتحضّر الشعوب، كفاءة أكثر لتفهّم الحقائق الدينيّة.
ولقد شُبّهت حقائق الإيمان بالبذور التي يلقيها الزارع في حقله. منها ما ينبت دون طويل انتظار لأنّها وجدت شروطًا زراعيّة خصبة، ومنها بالعكس تتأخّر كثيرًا في نموّها لعدم توفّر تلك الشروط. ولكنّ البذور موجودة في الأرض في كلتا الحالتين. إنّ معرفة الحقائق الخاصّة بحياة مريم وطفولتها وبالدور الذي ساهمت فيه بتخليص البشر كانت بطيئة. أمّا أمومتها الإلهيّة وطهارتها الدائمة فقد عُرفت باكرًا في الكنيسة. هكذا حدّد المجمع المسكونيّ في أفسس عام ٤٣١ أنّ مريم هي أمّ الله. وفي المجمع المسكونيّ المنعقد في اللاتران عام ٤٦٩ حُدّدت عقيدة طهارة مريم الدائمة. أمّا حقيقة الحبل بلا دنس الخطيئة الأصليّة فقد احتاجت إلى تسعة عشر جيلاً لتصبح عقيدة من عقائد الكنيسة. وقد احتاجت حقيقة انتقال البتول بالنفس والجسد إلى ملكوت السماء إلى جيل أكثر من الحقيقة السابقة لأنّها كانت منضوية تحتها، مختفية في طيّاتها. فلمّا بدت الأولى سهُل على الثانية أن تظهر وتُحدّد.
وفي الواقع لم تحدّد العقيدة القائلة بأنّ مريم بريئة من دنس الخطيئة الأصليّة حتّى سرى نسيم في أرواح المسيحيّين يعلّلهم بقرب تحديد عقيدة انتقالها بالنفس والجسد إلى ملكوت السماء.

مصدر العقيدة

إنّ حبّنا للعذراء وتوخّينا الحقيقة يدفعاننا إلى البحث بجدّ عن كلّ ما يتحدّث عن البتول من قريب أو بعيد. ولقد حدّدت السلطة العليا بعقيدة حقيقة انتقال البتول، بعد أن آمنت بها الكنيسة مدّة قرون. فترانا نشعر الآن بحافز قويّ يدفعنا إلى معرفة تلك الأسباب التي حدت بالكنيسة وبسلطتها إلى تحديد تلك العقيدة.

من المقرّر أنّ أوّل المصادر لكلّ عقيدة هو الكتاب المقدّس. والسؤال الذي يتوارد إلى الذهن فورًا هو هل في الكتاب المقدّس نصوص صريحة تتحدّث عن انتقال البتول؟ أم هي إشارات ضمنيّة، منها نستخلص أنّ البتول مريم انتقلت بالنفس والجسد، بعد موتها، إلى ملكوت السماء؟

الجواب. ليس في الكتاب المقدّس في العهد القديم أو الجديد أيّ نصّ صريح يبيّن هذه الحقيقة الإيمانيّة. ولكن هنالك نصوصًا عديدة، حسب تعليم الآباء القدّيسين وتفسير الكتّاب الكنسيّين والطقوس الدينيّة، تشير إشارات فقط إلى هذه العقيدة.

أوّلاً- في العهد القديم:

لقد وجد أكثر الآباء وعلماء الكنيسة في تابوت العهد رمزًا يشير إلى انتقال البتول. والإنجيل المقدّس نفسه يشير إلى وجود تلك العلاقة بين تابوت العهد ومريم. وذلك أنّ الملاك لمّا جاء يبشّر مريم بالحبل الإلهيّ ويقول لها: **"وقوّة العليّ تظلّلك"** (لوقا ١: ٣٥)، أشار من طرف خفي إلى الغمام الذي كان يظلّل خباء المحضر وتابوت العهد (خروج ٤٠: ٢- ٣، ٢١: ٣٤- ٣٥).

ونرى الآن كيف وجد الآباء القدّيسون في تابوت العهد صورة لمريم البتول. من هؤلاء الآباء:

القدّيس سفريانس أسقف جبلة في سوريا (بعد عام ٤٠٨) يقول: **"مريم هي تابوت العهد المنزّه عن الفساد لأنّها حوت الكلمة"** وكذلك بروكلس من القسطنطينيّة (+٤٤٦) أمّا القدّيس رومانوس المنشد (+٥٥٠) فيقول: **"لقد رمز تابوت العهد إلى العذراء"**. ولقد نسج على منوالهم القدّيس جرمانوس بطريرك القسطنطينيّة (+ ٧٣٣) والقدّيس ثاودورس المعترف (+٨٢٦) وغيرهم كثيرون.

ومن البدهيّ أن نرى في تابوت العهد رمزًا إلى جسد مريم لأنّ تابوت العهد حوى جرّة المنّ كما حوى جسد مريم الكلمة المستأنس.

وبما أنّ تابوت العهد كان قد صنع من خشب لا يقوى عليه الفناء، كذلك جسم مريم يتمتّع بمناعة تحميه وتصونه من الفساد والفناء.

هذا ويشهد المزمور ١٣١: ٨ على أنّ تابوت العهد وُضع بقرب المسيح في رقاده الأخير كذلك سوف تجلس مريم بجسدها بقرب ابنها الإلهيّ.

ولا بدّ من الملاحظة أنّ الآباء القدّيسين يعمدون إلى المقابلة بين مريم وتابوت العهد في كلّ مرّة يتكلّمون فيها على انتقالها. فيتّضح أنّ المقصود من المقابلة هو جسد مريم، وبالتالي أنّ انتقالها تمّ بالنفس والجسد.

وهذا القدّيس مودستوس بطريرك أورشليم (+ ٦٣٤) يقول في خطبة له عن رقاد البتول: "إنّ إلهنا دعا إليه التابوت المقدّس الذي قال عنه داود أحد أجدادها في أناشيده: **"قم يا ربّ إلى راحتك أنت وتابوت قدسك. ليست مريم مطليّة بالذهب ولكنّها تزهو من لمعان الروح القدس الساكن فيها. إنّها لا تحوي المنّ ولكن الذي وهب المنّ؛ لا يظلّلها شاروبيما المجد ولكنّ قوّة العليّ تظلّلها بظلّها"**.

أمّا القدّيس أندراوس الكريتيّ (+ ٧٤٠) فيقول أيضًا في خطبته عن رقاد البتول: "**إنّ داود وهو يتحدّث عنك**، توجّه إلى المسيح بقوله: **"قم يا ربّ أنت وتابوت قدسك"**. ويضيف القدّيس إلى قوله هذا: **"مريم هي التابوت الجديد لمجد الله"**. والقدّيس يوحنّا الدّمشقيّ (+٧٤٩) في خطبة له أيضًا عن رقاد البتول يقول: **"إنّ سفينة نوح بشّرت بك برموز... وكذلك تابوت الشريعة"**. **"اليوم التابوت المقدّس للإله الحي يوضع في هيكل الله. فكيف يستطيع الفساد أن يتسلّل إلى الجسد الذي مُدّ بالحياة؟"**. وعن القدّيس ثاودورس المعترف في خطبة له عن رقاد البتول: **"اليوم التابوت المقدّس المغطّاة بالذهب تنتقل من الموطن الأرضيّ إلى أورشليم العليا"**.

ولقد فاض الكتّاب والعلماء الكنسيّون في الغرب بكثير من أمثال هذه الأقوال مكتشفين في أقوال الكتاب رموزًا وإشارات عن انتقال البتول بالنفس والجسد إلى ملكوت السماء.

ونكتفي بهذه النصوص من العهد القديم لننتقل إلى العهد الجديد.

ثانيًا- في العهد الجديد.

لقد حمل الملاك البشارة لمريم، وبعد التحيّة أعلن بأنّها **"ممتلئة نعمة"** (لوقا ١: ٢٨).

والإمتلاء من النعمة، حسب شرح الآباء، معناه أنّ مريم تنـزّهت عن فساد الخطيئة، وبالتالي عمّا يتبع فساد الخطيئة أيّ فساد الموت والقبر. ولقد أشارت إلى نفس المعنى كلمات القدّيسة أليصابات: **"مباركة أنت بين النساء"**. البركة نفسها التي يتمتّع بها الذي تحمله في أحشائها وبسبب وجوده فيها.

وأخيرًا، في رؤيا القدّيس يوحنّا الحبيب، حيث ظهرت البتول الحامل للمخلّص، تنتصر على التنّين الخبيث الذي كان يتربّص بها وبابنها، وترتفع إلى السماء لتخلّص ولدها والذرّيّة المقدّسة من مخالب إبليس.

أجَلْ، ليس في هذه النصوص من دليل واضح على انتقال العذراء بالنفس والجسد، ولكنّ الآباء القدّيسين والطقوس الشرقيّة والغربيّة والسلطات الكنسيّة العليا وجدت فيها دليلاً ضمنيًّا فاعتمدته على مدى العصور لتعلن إيمانها بانتقال العذراء بجسدها أيضًا إلى الملكوت.

ثالثًا- في **"التقليد المقدّس"**.

لا بدّ من الملاحظة، أنّ إيمان الكنيسة بانتقال العذراء لا يبدو واضحًا، وخاصّة في القرون الخمسة الأولى؛ إذ كان من الواجب أن تعلن الكنيسة عن إيمانها بالمسيح أوّلاً، ثمّ عمّا يختصّ بأمّه الطاهرة. ولكن بعد القرن الخامس، انطلقت أصوات من الشرق، ردّدت صداها أصوات من الغرب، تجاوبت كلّها في أنغام منسجمة فخمة، لتعلن إيمانها بانتقال

العذراء حتّى بالجسد إلى الملكوت. وهكذا نسجت الأيّام حول هذه العقيدة "**تقليدًا مقدّسًا**" ضخمًا جدًّا، لحمته الكتب غير القانونيّة وسداه حبّ الشعوب للعذراء الطاهرة.

١- من الشرق.

هذا القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ، أو مَن انتحل اسمه، وهو يتكلّم على انتقال العذراء، ينسب معرفته هذه إلى جوفينال أسقف مدينة القدس (+ ٤٥٦). وهو الذي كان قد أثبت أنّ انتقال العذراء يستند إلى "**تقليد قديم وثابت جدًّا**".

ويشهد لنا على هذا "**التقليد**" الكتاب المحرّف المعروف باسم "**انتقال مريم**" ويُعتقد بأنّ الكتاب معاصر لجوفينال ولعلّه سابق له.

وهذا القدّيس موديستوس يقول: "**إنّ الهيكل الناطق الذي حمل الله بين جوانبه، حينما أتمّت حياتها القانية ولامست الميناء... ألبسها المسيح الربّ عدم الفساد على مثاله، وأدخلها في شركة ميراثه: ذلك أنّها هي أمّه القدّيسة... فالجسد، ذلك الإناء الغالي الثمن والكثير القداسة، الذي استكنت فيه الحياة، لم يعرف فساد القبر، وقد حفظه بقدرته الفائقة، المسيح المخلّص الذي تكوّن من هذا الجسد الطاهر**".

والقدّيس جرمانوس بطريرك القسطنطينيّة يقول:

"**لقد كان مستحيلاً أن يبقى ذلك الجسد الطاهر محجوزًا عليه داخل قبر الأموات، ذلك الإناء الذي احتوى الله بالذات، ذلك الهيكل الذي مدّه بالحياة لاهوت ابن الله الوحيد، الإناء الذي امتلأ بالله، الجسد الذي حمل الله. لقد كنت أيّتها العذراء المجيدة البيت الجسديّ الذي استراح هو فيه، ولقد جذبك إليه ونزّهك عن كلّ فساد... إنّ الابن المحبّ يرغب في وجود والدته: فكان من العدل إذن أنّ الله في محبّته البنويّة العميقة التي كان يحملها لأمّه أن يدعوها إليه... لقد وضعت في قبر، لكنّ القبر نفسه أصبح خاويًا يشير إلى انتقالك إلى حياة السماوات**".

وهنالك القدّيس أندراوس رئيس أساقفة كريت يقول: "**لقد كان في الحقيقة مشهدًا جديدًا أن ترى امرأة أكثر نقاء من السماء وأن تدخلها بهيكل جسدها**".

أمّا القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ فيقول: "**إنّ الجسد الفائق القداسة الذي اتّخذه منها الله قد انبعث؛ هكذا يجب أن يتمّ بشأنها، وهو أن تنسحب من القبر. كان يجب على التي قبلت كلمة الله كضيف سماويّ في حشاها أن يقبلها ابنها في الخيام الأبديّة**".

وأخيرًا يقول القدّيس ثيودورس الستوديّ: "**إنّ التي ملكت سعادة عدم الفناء ترفع يديها اللتين حملتا الربّ نحو الإله لخلاص العالم... أيّتها الأمّ لقد بقيت طاهرة لأنّ الذي حبلت به كان الله. وهو السبب الذي جعل موتك حيًّا، أنّك وحدك دون سواك، وذلك عدل، تملكين عدم فناء الجسد والنفس**".

٢- من الغرب.

قال غريغوار دي تور (+ ٥٩٣ ؟): "**لقد رفع السيّد جسد العذراء الفائق القداسة إلى السماء حيث ينعم الآن، بعد أن انضمّ إلى النفس، بالسعادة الأبديّة**".

ونسج على هذا المنوال القدّيس برنردس وتوما الأكوينيّ وكثيرون غيرهم وكلّهم خضعوا لتأثير الكتب المحرّفة.

ولكي نفهم "**التقليد المقدّس**" الخاصّ بانتقال العذراء، بصورة أكثر وضوحًا وعمقًا يمكننا أن نستعرض بعضًا من الآثار الأدبيّة أو الفنّيّة حتّى والطقسيّة.

آ- لقد انطبعت هذه العقيدة على بعض العاديّات:

في كنيسة سراكوزه تابوت حجريّ يعود إلى مطلع القرن الرابع، نُقش عليه رمز إلى انتقال العذراء.

وفي كنيسة القدّيس إكلمنضوس من القرن التاسع رمز يمثّل انتقال العذراء.

وهنالك أمثلة عديدة ونماذج طريفة جدًّا تمثّل انتقال البتول، وقد انتشرت في كثير من الكنائس وعلى الهياكل وفي المعابد.

ب- في الطقوس الكنسيّة.

من المقرّر أنّ الصلاة الطقسيّة يمكنها أن تكون قاعدة إيمانيّة. وبما أنّ جميع الطقوس المسيحيّة تحتفل بانتقال البتول كان لنا بذلك دليل قاطع على إيمان الكنيسة الجامعة بهذا السرّ. لأنّه تعبير عن إيمان الأساقفة والعلماء والشعب على مرّ الزمن وفي كلّ مكان.

رابعًا- في منطق علماء اللاهوت.

مَن تصفّح كتابات آباء الكنيسة انتهى إلى النتائج التالية:

١- كان لا بدّ من أن تتنـزّه البتول عن فساد القبر وأن ينضمّ جسدها إلى نفسها وتنتقل إلى السماء لتتبوّأ سدّة المجد الناتج عن كونها أمّ الله. وهنا عمد أكثر الآباء إلى نصّ الإنجيل المقدّس: "**من أين لي أن تأتي أمّ ربّي إليّ؟**". (لوقا ١: ٤١- ٤٣).

ويمكننا أن نلخّص ما شرحه وفصّله الآباء بالمبادئ التالية:

آ- إنّ جسد العذراء أعطى الكلمة جسدًا. فهل يسمح هذا الابن أن تعرف أمّه فساد القبر؟ وبالتالي كان على المسيح أن يمنحها مجدًا سريعًا وكاملاً.

ب- إنّ المسيح لا يمكنه أن ينعم بسعادة كاملة إلاّ إذا كانت بقربه أمّه بجسمها وصوتها وقلبها بل أنّ السماء لا تكون سماء بدونها.

ج- إنّ الله كرّم بعض قدّيسيه بأن صان عظامهم أو حتّى أجسامهم من الفساد. غير أنّنا لا نملك أيّة ذخيرة من جسم العذراء، ذلك لأنّ المسيح أراد له شرفًا أعظم.

وهكذا يتّضح أنّه كان على المسيح أن يصون جسد تلك التي شرّفها بأن تكون أمّ الله.

٢- "**كما أنّه بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة الموت هكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس**" (روما ٥: ١٢). فنستنتج من كلام القدّيس بولس هذا: بما أنّ مريم تنـزّهت عن الخطيئة، كان لا بدّ من أن تنعم بالتنـزّه عن فساد القبر الذي هو نتيجة الخطيئة.

ومع ذلك فالموت بالنسبة للخليقة المركّبة من المادّة هو إنحلال طبيعيّ؛ فهو إذن نتيجة حتميّة للطبيعة. وعلى هذا الأساس حُتّم على مريم أن تموت، لا لأنّها تلوّثت بالخطيئة الأصليّة ولكن لأنّها بشر. وهنا أيضًا كان الله يستطيع أن يتدخّل ويبعد الموت عن العذراء بأعجوبة، وذلك بالنظر إلى المجد الناتج عن كونها أمّ الله.

وفي الواقع ماتت مريم، لأنّ يسوع خضع للموت. والموت عمل يستحقّ ثوابًا أمام الله. أمّا أن تبقى مريم طيّ التراب فذلك أمر لا فائدة تُجنى منه ولا ثواب.

كلّنا نعلم أنّ الموت منذ آدم والفساد الذي يفسّخ الجسد هما عقوبة فرضها الله على كلّ مَن تلوّثت نفسه بآثار الخطيئة الأصليّة. ولقد نجا شخص واحد من الخطيئة الأصليّة وممّا يترتّب عليها من عقوبات، ألا وهو شخص العذراء مريم. فكان من الطبيعيّ أن تصان مريم على الأقلّ من البقاء في القبر ومن فساد القبر، وبالتالي كان لا بدّ من انتقالها حتّى بالجسد إلى ملكوت السماء.

٣- إنّ خديعة الشيطان هي التي جرّت الموت على آدم وذرّيته. لكنّ الله منذ البدء قطع عهدًا للمرأة أن يمدّها بنَصر على الحيّة الخبيثة (تكوين ٣: ١٥). فهل كانت مريم تستطيع أن تدّعي بنصر لو أنّها خضعت لفساد القبر الذي هو نتيجة إفساد إبليس؟ "**إنّ الجحيم لا يملك أن يتسلّط عليك لأنّ العبوديّة لا تمسّ نفسًا ملكيّة**" هذا ما أعلنه القدّيس أندراوس المنشد المشهور.

٤- "**إنّ السعادة للإنسان لا تكون مكتملة الشروط إلاّ إذا غمرت النفس والجسد. وسعادة مريم لا تكون كاملة إلاّ إذا وجدت في السماء بالنفس والجسد**". هذا ما أعلنه القدّيس بوناونتوره.

٥- لقد انفردت مريم دون جميع البشر فكانت ابنة الله وعروسه. وانفردت بلقب سلطانة الملائكة والقدّيسين. فتلك الميزات السامية الفريدة تفرض وجود حياة وموت وسعادة فريدة.

إنّ حظّ مريم على الأرض لم يكن كحظّ البشر بل كان فريدًا من نوعه. فلماذا لا يكون حظّها في السماء فريدًا من نوعه؟

وهكذا يتبيّن أنّ الكنيسة حينما حدّدت موضوع انتقال العذراء بالجسد إلى ملكوت السماء، وفرضتها عقيدة إيمانيّة على الكنيسة جمعاء، لم تستند فقط إلى "**التقليد القديم**" إذ ربّما اندسّت فيه عناصر خرافيّة، وإنّما اعتمدت على امتيازات مريم عامّة، وبنوع خاصّ على أنّها أمّ الله من جهة، وأنّها بريئة من دنس الخطيئة الأصليّة من جهة ثانية.

فموت مريم، إذن، لم يكن ناتجًا عن عقوبة جرّتها على نفسها أخطاء شخصيّة، لكنّها ماتت مدفوعة بالحبّ وراء ابنها. وإنّ ملائكة السماء رفعت جسدها الطاهر إلى ملكوت السماء.

٦٧
عيد السيّدة
موضوع العيد

في ١٥ آب من كلّ سنة تعيّد الكنيسة على العالم المسيحيّ ذكرى انتقال السيّدة العذراء، بالنفس والجسد، إلى ملكوت السماء. وقد سُمّي هذا العيد بعيد السيّدة في الشرق لأنّه عيد البتول الأكبر الذي فيه انطلقت من عقال الجسد ووادي الدموع إلى ملكوت الحريّة والسعادة.

وكان من الطبيعيّ ألاّ تلبث مريم طويلاً على الأرض بعد أن صعد ابنها إلى ملكوت السماوات، لأنّها ما وُجدت في الدنيا إلاّ لرسالة خاصّة، وهي أن تساعد على إتمام رسالة مجيء المخلّص. وفي الحقيقة أنّها ساهمت مساهمة تامّة في إنجاز تلك الرسالة السامية. فلمّا صعد سيّدنا يسوع المسيح، كان لا بدّ لها من أن تلحق به، لأنّ الحياة بدونه لا تطاق.

ومع ذلك فقد لبثت على الأرض من بعد صعود ابنها الحبيب مدّة أربع وعشرين سنة تضفر فيها بيديها النقيّتين إكليل مجدها وتمدّ الكنيسة في مهدها بأسمى معاني الفضيلة وتشجّع الرسل في شدائدهم وتثبّت المؤمنين الأوّلين في إيمانهم وتوحي إلى الإنجيليّين بكتاباتهم، فتروي لهم ما كانت تحفظ في صدرها عن بشارة الناصرة، ومغارة بيت لحم، وزيارة المجوس، والهرب إلى مصر، وحياة الناصرة الخفيّة.

ولكن أنّى لها أن تتحمّل لواعج الحبّ والشوق إلى ابنها منذ أن غاب عن نظرها، والحبّ قتّال، والشوق مذيب، والغربة مرّة!

بقي أن نعرف الأحداث التي رافقت رقاد البتول، فالإنجيل المقدّس كعادته ما برح يحجم عن الكلام. إلاّ أنّ كثيرًا من الآباء القدّيسين رووا وردّدوا ما كان معروفًا ومنتشرًا في مدينة القدس بين المسيحيّين عن رقاد البتول.

ونعود مرّة أخرى إلى "**التقليد المقدّس**" لنستمدّ منه ما أمسك عن قوله الكتاب. وإنّ الآباء القدّيسين هم أنفسهم اعتمدوا في مواعظهم وكتاباتهم هذا المصدر الشعبيّ المسيحيّ.

البلاغ الأخير

قيل أنّ الملاك جبرائيل جاء مريم في آخر أيّامها. وورد أيضًا عن بعضهم أنّ الملاك جاءها قبل ثلاثة أيّام ينبئها بدنوّ أجلها. فلمّا سمعت قالت: "**هاءنذا أمة للربّ فليكن لي بحسب قولك**". وقامت حالاً وانطلقت إلى جبل الزيتون لتتعبّد لله وتشكره على إنعاماته. ثمّ عادت إلى بيتها. ويُعتقد أنّه بيت القدّيس يوحنّا الحبيب نفسه وراحت تهيّئ ما يلزم لدفنها.

الرسل يودّعون

وفي تلك اللحظات كان الله يدفع الرسل من أطراف الدنيا حيث انتشروا يبشّرون بالإنجيل المقدّس، إلى مدينة القدس، إلى بيت البتول. ولا عجب أن يجتمع الرسل من جميع الأقطار ليودّعوا سيّدتهم، فإنّ الله سبق وحمل على أجنحة الرياح النبيّ حبقوق من بلاد اليهوديّة إلى بابل ليقدّم الغذاء لدانيال النبيّ في جبّ الأسود. وحمل الشمّاس فيلبّس على بساط الغيوم وذهب به إلى مركبة خصي ملكة الحبشة ليشرح له الكتب ويبشّره بالمسيح ويعمّده.

فلمّا مثل الرسل أمام البتول انحنوا لها احترامًا وتقديرًا. فأخذت تبيّن لهم الأسباب المفاجئة التي لمّت شملهم وجمعتهم من حولها. فباركتهم وسكبت من بلسم قلبها الوالديّ عزاء على قلوبهم الجريحة ورفعت يديها إلى السماء وطلبت السلام للعالم. ثمّ قامت إلى

فراشها وبهدوء ملائكيّ أسلمت روحها الطاهرة بين يدي ابنها وإلهها. ويقول القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ ومعه سمعان المترجم ونيكفورس، عطفًا على ما روته الأجيال من قبلهم، أنّ الربّ يسوع هبط من السماء مع أجواق الملائكة وجموع القدّيسين ليقبل تلك النفس الطاهرة ويجعلها عن يمينه في ملكه.

العذارى تحنّط

وغسلت العذارى ذلك الجسد الطاهر الغضّ، على حسب العوائد المألوفة وضمّختته بالطيوب ولفّته بلفائف من الكتّان الأبيض. ثمّ أقبل الرسل والتلاميذ يقبّلون قدميها ويودّعونها. والدّمشقيّ يقول: إنّ البتول النقيّة أبرأت من أمراض النفس والجسد كلّ مَن مسّ جسدها.

وحمل الرسل نعش البتول ليواروه في التراب، في نهاية ذلك اليوم بعد غروب الشمس، وقبل ظهور أوّل نجم في السماء، كما هي عادة اليهود إلى اليوم.

أعجوبة باهرة

ويروي القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ، وهو يردّد بذلك صدى ما حكته من قبله الأجيال، أنّه فيما كان الرسل والمؤمنون سائرين من جبل صهيون إلى الجسمانيّة بخشوع وورع ودموع، دفعت الحماسة الطائشة أحد اليهود، من عشيرة الكهنة، فهجم على نعش البتول ليسيء إليه، فقُطعت للحال يداه وسقطتا على الأرض. وهنا ظهرت له فظاعة عمله وفداحة لؤمه، فندم وبكى وتضرّع إلى الرسل لكي يشفعوا فيه، فتقدّم بطرس وأبرأه، فآمن بالمسيح وتبع النعش وهو يسبّح ويمجّد.

وإنّ الرسّامين البيزنطيّين خلّدوا لنا ذكرى هذا الحادث والأعجوبة في صور رقاد البتول، فترى، في أكثر تلك الصور من الجهة السفلى، رسم رجل قُطعت يداه.

استقبال الابن

ثمّ جاء ملك الملوك وربّ الأرباب، يحيط به كلّ بلاطه، يستقبل الملكة الوالدة ويجلسها على عرش من النور إلى الأبد. "**مَن هذه الطالعة من القفر المستندة إلى حبيبها...؟**" (نشيد الأناشيد ٨: ٥).

"**مَن هذه المشرقة كالصبح، الجميلة كالقمر، المختارة كالشمس، المرهوبة كصفوف تحت الرايات؟**" (نشيد الأناشيد ٦: ٩).

"**جميلة أنت يا خليلتي، جميلة أنت وعيناك كحمامتَيْن، وشعرك كقطيع معز يبدو من جبل جلعاد**". (نشيد الأناشيد ٤: ١).

"**كلّك جميلة يا خليلتي ولا عيب فيك**" (نشيد الأناشيد ٤: ٧).

"**أختي العروس جنّة مقفلة، ينبوع مقفل، وعين مختومة**" (نشيد الأناشيد ٤: ١٢).

"**مَن هذه الطالعة من القفر كعمود من بخور، معطّرة بالمرّ واللبان وبجميع أذِرّةِ التاجر؟**" (نشيد الأناشيد ٣: ٦).

وهكذا يسترسل كتاب الأناشيد في مديح مريم، فيطوّق عنقها بعقد من لؤلؤ المعاني والأوصاف، صاغته يد الصائغ الأكبر، منشدًا عظائم مجدها وانتقالها.

الموكب السماويّ

ولقد واكبتها في انتقالها صفوف الملائكة والآباء والأنبياء والرسل والقدّيسين مع طغمات العذراى والشهداء.

إنّ القدّيس برنردس يقول في ذلك: **"مَن يصف لنا بأيّ محيا هادئ، وأيّ حنان عطوف، وأيّ حبّ شغوف، وأيّ عناق بنويّ، وأيّة نظرات سحريّة تقبّلها ابنها يسوع وأجلسها فوق كلّ المخلوقات؟ لا شكّ في أنّه استقبلها بكلّ مظاهر الأبّهة اللائقة بأمّ نظير مريم، وبكلّ معالم المحبّة والعظمة اللائقة به وبحبّه البنويّ. فإنْ كنّا نطوّب تلك القبلات التي بها قبّلت مريم ابنها الحبيب، وهو يرضع على صدرها من لبنها، فماذا نقول عن قبلات ابنها لها، لمّا أجلسها عن يمين الجلاّل في الأعاليّ، يوم انتقالها، فيما كانت هي تترنّم بتلك الآية من نشيد الأناشيد: ليقبّلني بقبلة من فيه؟ مَن يستطيع أن يصف عظمة ميلاد المسيح وأسرار انتقال العذراء المجيدة؟ فإنّها بقدر ما فاقت البشر سموًّا، بما حازت على الأرض من نعم، بقدر ذلك نالت من السماء مجدًا يفوق أمجاد كلّ المخلوقات"**.

الضريح:

فحمل الرسل جسدها الطاهر مشيعين إيّاه من بيتها إلى الجسمانيّة، حيث أودعوه في الضريح المعدّ له؛ ودحرجوا حجرًا عظيمًا على باب القبر.

التعازيّ:

وكانت العادة أن يعود أهل الميت إلى القبر يعقدون فيه اجتماعًا خاصًّا يُسمّى باجتماع التعازيّ أو كما نقول نحن: اليوم الثالث للأخذ بالخاطر.

وكانت العادة أن يقدّموا الخبز فقدّموه باسم يسوع. وفي تلك اللحظات ظهرت لهم العذراء في السماء تحيّيهم وتقول لهم: **"سلام"**. فكان لهم هذا الظهور تنبيهًا إلى أنّ العذراء صعدت بجسدها أيضًا إلى ملكوت السماء.

وكنيستنا الشرقيّة تترنّم، في غروب هذا العيد، بنشيد للبتول تتوالى فيه جميع الألحان فتقول:

"على اللحن الأوّل: إنّ الرسل المتوشّحين بالله قد جذبوا من كلّ الجهات مرتفعين إلى السحب بالإشارة الإلهيّة.

على اللحن الخامس: ووفدوا على مقامك الأطهر عنصر الحياة ليقبّلوه بتعظيم.

على اللحن الثانيّ: أمّا القوات السماويّة الرفيعو الشأن فقد أتوا مع سيّدهم الخاصّ.

على اللحن السادس: ليشيعوا الجسم القابل الإله، والفائق الكرامة، مشمولين بالمهابة، ماشين أمامه بزينة فائقة، هاتفين بحال غير منظورة نحو رؤساء الطغمات العلويّة قائلين: ها إنّ ملكة الكلّ الفتاة الإلهيّة قد أتت.
على اللحن الثالث: فارفعوا الأبواب، وتقبّلوا بزينة كلّيّة أمّ النور الذي لا ينفد.
على اللحن السابع: لأنّه بها صار الخلاص للجنس البشريّ بأسره. فهي التي لا يمكن النظر إليها، ولا نستطيع أن نمجّدها بحسب الواجب.
على اللحن الرابع: لأنّ ما امتازت به عن غيرها يفوق العقل.
على اللحن الثامن: فلذلك يا والدة الإله الكلّيّة الطهارة، العائشة إلى الأبد مع ابنها اللابس الحياة تشفّعي إليه بغير فتور لكي يحفظ ويخلّص شعبك الجديد من كلّ صدمة مضادّة لأنّنا أحرزناك نصيرة.
على اللحن الأوّل: فلذلك نعظّمك بابتهاج علنيّ مدى الدهور".

توما الرسول

وروى البطريرك الأورشليميّ جوفينال، ومن بعده القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ، أنّ القدّيس توما الرسول لم يكن حاضرًا رقاد أمّ الله، فأقبل بعد ثلاثة أيّام من بلاد الهند أو من الحبشة ورغب في أن يلقي نظرة أخيرة على محيّاها البهيّ ويتبرّك منه ويودّعه هو أيضًا كما ودّعه الرسل. وكان ذلك بتدبير إلهيّ. فلمّا دحرج الرسل الحجر عن باب القبر تجمهروا حواليه لينظروا مع توما نظرة إلى ذلك الجسد النقيّ الأطهر. ولكن يا للعجب العجاب، فإنّهم وجدوا الضريح فارغًا ولفائف الكتّان مطويّة مرتّبة وموضوعة على حِدة. وفاحت من جوف القبر رائحة عطر عبقت في كلّ الأنحاء. فسجد الرسل والتلاميذ والمؤمنون، وسبّحوا البتول، وشكروا الربّ، وآمنوا أنّ مريم أمّ الله قد انتقلت بالنفس والجسد إلى ملكوت السماوات. فإنّه لم يكن لائقًا بذلك الجسد النقيّ الذي تنزّه في الحياة عن كلّ فساد أن يناله من بعد الوفاة شيء من الفساد.

الكنيسة تؤمن

يشرح القدّيس أغسطينوس ذلك مفصّلاً ويبرهن بوضوح وجلاء أنّ انتقال مريم العذراء بالنفس والجسد إلى السماء هو من الأمور المنطقيّة اللازمة. وكتبنا الطقسيّة تفيض بالكلام عن هذا الموضوع الجليل فهي تقول:
"جميع الأجيال تغبّطك يا والدة الإله وحدها، أيّتها البتول الطاهرة. إنّ حدود الطبيعة قد غلبت فيك، لأنّ المولد حفظك بتولاً، والموت صار لك عربونًا للحياة، يا مَن هي بعد الولادة بتول وبعد الموت حيّة. فيا أمّ الله أنت تخلّصين ميراثك دائمًا".
والآباء القدّيسون الشرقيّون والغربيّون أمثال أثناسيوس وأندراوس الكريتيّ وجرمانوس القسطنطينيّ ويوحنّا الدّمشقيّ وغريغوريوس أسقف تور والبابا غريغوريوس الكبير وبرنردس وتوما الأكوينيّ وبونفنتورا، ومعهم كبار اللاهوتيّين أمثال جرسون وبرنردينس السيانيّ وأنطونينس وسواهم يقولون أنّ هذه الآية التي جاءت

في المزمور ١٣١ "**قم يا ربّ إلى راحتك أنت وتابوت قدسك**" لا تعني فقط قيامة المسيح وصعوده بالنفس والجسد إلى السماء، لكنّها ترمز أيضًا إلى انتقال البتول بنفسها وجسدها إلى الأخدار العلويّة، لأنّ جميع الآباء يدعون مريم البتول "**تابوت العهد**" "**التابوت المذهّب**" وهذا هو تعليم الكنيسة، وهذا هو ما تترنّم به أيضًا، في هذا اليوم الشريف، كنيستنا الشرقيّة إذ تقول:

"**إنّ جمهور المتكلّمين باللاهوت قد أخذ يتكلّم على تابوت التقديس الإلهيّ هاتفًا: إلى أين ترتفعين الآن يا مظلّة الإله الحيّ...؟**".

والكردينال بارونيوس يقول: إنّ مَن تجرّأ على إنكار هذه الحقيقة المسلّم بها في الكنيسة جمعاء، على ممرّ الأجيال، لا يسلم من خطر الهرطقة.

٦٨
عيد السيّدة
تاريخ العيد

يرجع الاحتفال بهذا العيد إلى ذكرى سنويّة لتدشين كنيسة للعذراء تقع على طريق للقوافل بين القدس وبيت لحم. ولعلّ الكنيسة المذكورة شُيِّدت في مكان كان موقعًا لإحدى محطّات القوافل على هذه الطريق. وقد اعتُبرت المحطّة مقدّسة إذ جاء في تقليد قديم أنّ البتول بعد أن أرهقها عناء الطريق عرّجت على هذا المكان، تأخذ فيه بعض الراحة، قبل أن تتابع سيرها إلى بيت لحم، لتلد الطفل يسوع.

أمّا متى دخل عيد البتول في عبادة المسيحيّين وطقوس الكنيسة، فذلك أمر مجهول. غير أنّنا نستطيع أن نورد بعض التفاصيل عن انتشاره بعد أن أصبح عيدًا له تاريخه المعيّن وصلواته الخاصّة.

أولاً- في الشرق

حتّى عهد الإمبراطور يوستنيانوس (+ ٥٦٥) لم يعرف الشرق إلاّ عيدًا واحدًا مجّد فيه أمومة مريم. ومن أقدم الروايات عن هذا التقليد في الشرق هي التي يرويها القدّيس مودستوس بطريرك القدس (+ ٦٣٤) فهو يقول: إنّ الرسل إذ دعوا من بعيد إلى جانب العذراء القدّيسة بوحي إلهيّ شاهدوا انتقال البتول.

وقد ذكر المؤرّخ بومشترك أنّ كنيسة أنطاكية كانت تحتفل بهذا العيد منذ أواخر القرن الرابع وتدعوه: "**تذكار القدّيسة مريم أمّ الله الدائمة البتوليّة**".

وقد جاء لثاوذورس في خطاب له سنة ٥٠٠، في مديح القدّيس ثاوضوسيوس، إنّ الرهبان في بلاد فلسطين كانوا يحتفلون احتفالاً عظيمًا بتذكار أمّ الله.

ويظهر أنّ ذكرى انتقال مريم العذراء كان يحتفل بها سنويًّا في ١٥ كانون الثانيّ في أنطاكية في مطلع القرن السادس كما هي العادة إلى اليوم لدى السريان اليعاقبة.

وكانت كنيسة مصر تحتفل بعيد قيامة البتول وانتقالها في ٩ آب. ومن غريب الأمور أنّ بعض المسلمين في مصر حتّى أيّامنا الحاضرة يحفظون القطاعة في الأيّام السابقة

لعيد انتقال السيّدة. وذلك دليل واضح على أنّ أجدادهم النصارى كانوا أتقياء متمسّكين بمراسم الدين وفروضه.

ولمّا جاء الإمبراطور موريس أمر بأن يحتفل بعيد انتقال البتول في ١٥ آب في الإمبراطوريّة البيزنطيّة بأسرها وذلك بين ٥٨٨- ٦٠٢.

وفي عرض لعادات وتقاليد كنيسة القدس للنصف الثانيّ من القرن السابع، جاء بمخطوط كرجيّ أنّه بتاريخ ١٥ آب **"في الجسمانيّة في كنيسة الإمبراطور موريس يحتفل بذكرى والدة الإله"**.

وفي مخطوط أرمنيّ محفوظ بأحد أديار القدس، وُجدت لائحة للأعياد الطقسيّة التي يُحتفل بها في المدينة المقدّسة حول سنة ٤٦٠ دُوّنت فيه الملاحظة التالية: **"١٥ آب هو يوم مريم والدة الله"**.

كلّ ذلك يحملنا على الاعتقاد بأنّ المؤمنين أخذوا يكرّمون انتقال البتول منذ مطلع الكنيسة.

وفي أيّامنا يقيم اليونان والأرمن الأرثوذكس احتفالاً غاية في المهابة والجلال بمناسبة عيد انتقال البتول. ولهم الحقّ وحدهم في أن يقيموا تلك الاحتفالات في كنيسة رقاد البتول القائمة بالقرب من بستان الزيتون شرقيّ مدينة القدس. ولكنّ الأمر لم يكن دائمًا على هذا المنوال لأنّ كنيسة رقاد البتول حتّى عام ١٧٥٧ كانت تابعة للآباء الفرنسيسكان حرّاس الأراضي المقدّسة.

ومنذ القرن السادس عشر، وضع اليونان طقسًا خاصًّا لخدمة عيد انتقال البتول وإكرام قبرها المقدّس. وقد جعله واضع هذا الطقس على مثال جنّاز المسيح. ويُحتفل بهذا الطقس في ١٤ آب وهو اليوم السابق لعيد الإنتقال. وإليكم تفاصيل هذا الاحتفال كما شاهدناه:

منذ صباح يوم ١٤ آب يتوجّه بطريرك القدس اليونانيّ مع طغمة الأساقفة والكهنة والشعب إلى قبر البتول في الجسمانيّة ليمضوا قسمًا من النهار تحت سرادق أُقيم حول الكنيسة لهذه الغاية. وسرعان ما ينضمّ إليهم جماعة من زوّار الأراضي المقدّسة. وحينما يتمّ كلّ ما يلزم للاحتفال، يسير الموكب المؤلّف من البطريرك والأساقفة والكهنة. وفي أعلى الدرجات ال ٤٣ للسلّم المنحدر إلى الكنيسة يقف الكهنة بملابسهم المقدّسة حاملين كتاب الإنجيل وأيقونة رقاد البتول، والمباخر في أيدي الشمامسة. أمّا البطريرك، وقد لبس المنديا، وهو وشاح خاصّ يرتديه الأساقفة في الاحتفالات الدينيّة، وبيده العكّاز، فإنّه ينحني مرارًا أمام كتاب الإنجيل والأيقونة، ثمّ يبارك بالصليب الذي يحمله بيده، وهو منحدر، جماعة المصلّين. وتنشد الجوقة الأناشيد الخاصّة بالعيد. وما إن يصل البطريرك إلى جانب الهيكل حتّى يأخذ بارتداء البذلة الأسقفيّة ثمّ يبخّر وهو يدور حول نعش وُضع في وسط الكنيسة، وفيه أيقونة العذراء الراقدة. وبينما الإكليروس يحيط بنعش البتول، يدخل البطريرك قبر العذراء، وهو مدفن محفور في صخرة، وينشد مطلعًا من نشيد جنّاز البتول. ثمّ يخرج إلى فناء الكنيسة ليبخّر النعش والإكليروس والشعب. وبينما تواصل الجوقة الترانيم الخاصّة بالعيد، يتقدّم الإكليروس فردًا فردًا فيضعون قبلة على أيقونة العذراء الموضوعة فوق النعش.

وفي نهاية الترانيم يحمل الكهنة النعش ويصعدون به حتّى أعلى السلّم. وهنا يرفع البطريرك الدعاء إلى الله من أجل الحاضرين جميعًا ثمّ يبارك الشعب. ويعود الموكب فينحدر إلى الكنيسة حيث يوضع النعش ليبقى هناك حتّى يوم وداع العيد أيّ إلى ٢٤ آب. فترى الشعب وزوّار الأراضي المقدّسة يتألّبون على ضريح البتول ليتبرّكوا به.

وفي الرابع والعشرين من آب، في نهاية الذبيحة الإلهيّة، تعاد الأيقونة بتطواف مهيب إلى دير يُدعى الجسمانيّة، يقع داخل مدينة القدس، إلى جانب كنيسة القيامة.

وهذا الاحتفال لا يقتصر على مدينة القدس وحدها، بل هو منتشر في عدد من دول غرب أوربا، وبخاصّة في إسبانيا وجزيرة سردينيا حيث يقام بتطواف على مثال التطواف السابق وذلك يوم ١٥ آب. فترى هنالك أيضًا نعشًا وُضعت عليه صورة للعذراء الراقدة يقدّم الشعب لها آيات من الإكرام والعبادة.

ثانيًا- في الغرب.

ومن الشرق انتقل العيد إلى الغرب. وقد أدخله البابا ثاودورس الأوّل (٦٤٢- ٦٤٩) وهو أصلاً من إكليروس أورشليم.

وإنّ البابا سرجيوس الأوّل (٦٨٧- ٧٠١) في عهد حبريّته أمر بأن يسير الشعب في تطواف من كنيسة القدّيس أدريانوس إلى كنيسة القدّيسة **"مريم الكبرى"** في أعياد البشارة، ورقاد البتول، وعيد مولدها، ويوم دخول المسيح للهيكل. ولعلّ الحبر الأعظم أراد بذلك أن يثبّت عادة كانت متّبعة قبله منذ القديم. والفريد في عيد رقاد البتول والجدير بالذكر أنّ التطواف كان يجري على نسق رائع لا مثيل له، ليس في روما فحسب، بل خارجًا عنها أيضًا. فإنّ الحبر الأعظم نفسه كان يشترك فيه، وكان ينضمّ إليه الكرادلة والأساقفة وطغمة الكهنة والنبلاء ونوّاب الشعب بل ومجلس الشيوخ نفسه. وتسير في أثرهم جموع غفيرة من شعب روما وضواحيها حتّى من المدن البعيدة. وكان يحمل، في هذا الاحتفال، تمثال للمسيح ينطلق به الموكب إلى كنيسة **"القدّيسة مريم الكبرى"**. ولذلك سُمّي العيد **"بزيارة الابن لأمّه"**. وقد أرادتها الكنيسة تظاهرة دينيّة ومدنيّة رائعة لتطمس عادات وثنيّة كان فيها شعب روما يعظّم ذكرى الإمبراطور أوغسطس في منتصف شهر آب. وهو السبب نفسه الذي دفع بالكنيسة في عهودها الأولى إلى أن تحيي ذكرى ميلاد المسيح في شهر كانون الأوّل بدلاً من كانون الثانيّ.

وجاء مجمعماينس (٨١٣) فوضع عيد انتقال البتول بين أعياد البطالة الرسميّة. أمّا عن بلاد غالية فيذكر القدّيس غريغوريوس أسقف مدينة تور أنّها كانت تحتفل به في القرن السادس. ثمّ نقلت كنيسة فرنسا الاحتفال بهذا العيد إلى ١٥ آب وسمّته عيد الإنتقال بدلاً من عيد الرقاد. وجاء الإمبراطور شارلمان سنة ٨١٣ فجعله من أعياد البطالة الرسميّة. أمّا الملك لويس الثالث عشر ١٦٣٨ فقد أعلن البتول **"حامية المملكة"** وهكذا أصبح عيد يوم ١٥ آب العيد الوطنيّ للدولة الفرنسيّة.

أمّا إسبانيا فقد أكرمت البتول في رقادها وانتقالها منذ عهد القوط. وانتشرت العبادة في كلّ مدينة وقرية حتّى إذا ما قرّرت السلطة العليا أن تعلنها عقيدة إيمانيّة تواردت على الفاتيكان ملايين التواقيع ترجو من الحبر الأعظم ألاّ يتلكّأ عن القيام بهذا الإعلان. ولم

يكن من الغريب أن نرى في أربعين أبرشيّة من إسبانيا: ٢٩ كنيسة، و١١ ديرًا، و١٩٤٤ كنيسة، وعددًا كبيرًا من مراكز الجمعيّات الخيريّة والمشافي، كلّها تنضوي تحت شفاعة انتقال البتول. بل نحن لا نبالغ إذا قلنا أنّ ٤٠٠ هيكل يحتفل في إسبانيا بانتقال البتول.

ومن روما انتقل العيد إلى إنكلترا ثمّ إلى الكنيسة اللاتينيّة بأجمعها.

وهكذا عمّ العيد الشرق والغرب، وأصبحت البتول موضوع إكرام العالم المسيحيّ في ذكرى انتقالها إلى السماء.

٦٩
عيد السيّدة
طقس العيد

إنّنا نحصر كلامنا هنا على رتبة العيد في صلوات الطقس البيزنطيّ. ففي كتاب الميناون، أو كتاب الصلوات الشهريّة، في شهر آب، ورد عنوان العيد هكذا: "**اليوم الخامس عشر عيد رقاد سيّدتنا والدة الإله الدائمة البتوليّة مريم**". ويسرد لنا كتاب الصلوات الشهريّة هذا التقليد المأخوذ عن الآباء القدّيسين، وهو أنّ البتول، بعد رقادها في مدينة القدس، وُضعت في قبر الجسمانيّة. وفي اليوم الثالث فتح الرسل القبر فلم يجدوا جسدها ولكنّهم وجدوا اللفائف فقط، وكان هذا دليلاً على قيامتها.

عيد ممتاز

وتحتفل كنيستنا بهذا العيد احتفالها بأعيادها الممتازة، فهو من الدرجة الثانية، له ترانيم خاصّة به. نقتطف منها بعض باقات نرفعها إلى البتول مع الكنيسة والأجيال التي أنشدت لها تلك الآيات الجميلة، والتي لن تكفّ عن إنشادها إلى منتهى الدهور. وبذلك نضمّ صوتنا إلى تلك الجوقة المباركة لنتمّ نبوءة البتول مريم: "**فها أنا منذ الآن تطوّبني جميع الأجيال**".

هذا ومن المقرّر أنّ كلّ عيد طقسيّ يبدأ عند ساعة غروب الشمس ويدوم حتّى غروب الشمس من اليوم التالي، وعندها يبدأ عيد آخر.

أمّا الأعياد الممتازة فلها تقدمة سابقة للعيد وخدمة تابعة له. فقد جعلت الكنيسة لهذا العيد يوم تقدمة وثمانية أيّام خدمة تدوم إلى اليوم الثالث والعشرين من الشهر نفسه حيث يودع العيد بخدمته الكاملة.

فمنذ اليوم الثالث عشر في صلاة المساء تدعو الكنيسة الشعب المسيحيّ ليهيّئ نفسه لعيد اليوم التالي، وتريد أن يكون الإكرام شعبيًّا واجتماعيًّا: "**ارقصوا يا شعوب وصفّقوا بالأيدي بإيمان والتئموا اليوم بشوق فرحين وهلّلوا جميعكم جذلين مسرورين، فإنّ مريم مزمعة أن ترتقي من الأرض إلى السماء بمجد. وهي التي نمجّدها دومًا بالأناشيد لأنّها والدة الإله**".

موضوع العيد

فموضوع العيد كما يبدو من هذه الأنشودة ارتقاء البتول، وسبب تمجيد الشعب لها هو أنّها والدة الله. وهو السبب نفسه الذي جعل العذراء تقوم من الموت وتنتقل إلى السماء بالنفس والجسد.

تقاريظ العيد

وفي صلاة المساء وعلى تقاطع المزمور ١٢٩ التابع للمزمور **"يا ربّ إليك صرخت"** تنشد الكنيسة معظّمة البتول ومعلنة إيمانها بموتها وانتقالها: **"يا له عجبًا غريبًا! إنّ ينبوع الحياة قد وضعت في قبر، واللحد صار لها سلّمًا إلى السماء. فافرحي أيّتها الجسمانيّة، مصلّى والدة الإله المقدّس..."**.

ويصف لنا الطقس في هذه الصلوات الجميلة، الموكب الذي حفّ بالعذراء وهي ترتقي إلى العلا: صفوف من الملائكة والآباء والأنبياء والرسل والمعترفين مع طغمات العذراى والأمّهات القدّيسات والأبرار والنسّاك والشهداء والأساقفة والكهنة. وفي مقدّمة الجميع يسوع ابنها الذي نزل إلى الأرض وتقبّل روحها الطاهرة أوّلاً، ثمّ رافقها، وهي تصعد بالنفس والجسد، إلى ملكوت السماوات.

وتتوالى الصلوات مستمرّة في وصف العيد مردّدة ذكرى **"التقليد المقدّس"** جاعلة منه آية خالدة، إليها يستند إيمان الكنيسة في التعبير عن هذه العقيدة. فتبيّن لنا كيف أنّ الرسل دعوا من أطراف الدنيا بصورة مفاجئة، مرتقين على السحب بإشارة من الله، وانعقد شملهم على مقام البتول في الجسمانيّة بالقرب من صهيون. أمّا القوّات السماويّة فقد رافقت سيّدها وجاءت تشيّع معه الجسم الذي قبل الإله. وفي طريقهم راحوا ينشدون متوجّهين نحو رؤساء الطغمات العلويّة قائلين: **"ها إنّ ملكة الكلّ، الفتاة الإلهيّة، قد أتت"**.

وتبيّن لنا الصلوات أنّ الرسل اجتمعوا في صهيون، وأنّهم أعدّوا بفرح جسمها الطاهر، وأنّ الملائكة كانت تتجاوب الأناشيد وتتنادى بأن ترفع الأبواب لتعبر البتول البريئة من دنس الخطيئة الأصليّة، التي وسّعت الربّ في حشاها، والتي شاركته في خلاص العالم.

وتكرّر الصلوات تلك الآيات التي وردت في العهد القديم من الكتاب المقدّس، والتي وجد فيها الآباء القدّيسون رموزًا تشير إلى البتول وإرتفاعها إلى السماء بالنفس والجسد:

"لقد قدّس العليّ مسكنه" (مزمور ٤٥: ٥).

"قم يا ربّ إلى راحتك أنت وتابوت قدسك" (مزمور ١٣١: ٨ و١١).

وهكذا يسبق الكتاب ويبشّر العالم بانتقال العذراء إلى ملكوت السماء.

وفي صلوات الصباح ومنها صلاة السحر يعود المصلّون والمنشدون إلى تمجيد انتقال البتول، فيرتفع صوت قوزما ويوحنّا الدّمشقيّ المنشدين لإكرام البتول.

فيقول قوزما "**إنّ انتقالها جائزة غلبة، إذ بولادتها الإله جعلت البشريّة تنتصر على الموت. ولكنّك خضعت لنواميس الطبيعة أسوة بابنك وخالقك ومن ثمّ متّ لتنهضي معه إلى الأبد**".

وينطلق الدّمشقيّ بعقله الحصيف فيصوغ آيات رائعات من المعاني والبيان في انتقال البتول.

فيدعو أوّلاً طغمات العذارى إلى الإلتفاف حول ضريح البتول ليقمن بالإنشاد.

وفي الأودية الثالثة من القانون يكرّر لنا الدّمشقيّ قصّة الشقيّ الذي مدّ يديه إلى تابوت العذراء فقُطعتا.

ويبيّن لنا في قطعة أخرى "**إنّه كان على العذراء أن تموت بموجب سنّة الطبيعة لأنّها صدرت عن مائت. ولكن بما أنّها ولدت مخلّص العالم، لم تخضع لفساد القبر بل قامت وانتقلت إلى الحياة الإلهيّة السعيدة**".

ويقول الدّمشقيّ معتمدًا التقليد القديم القائل بأنّ اللفائف بقيت في القبر: "**إنّ أجناد الملائكة في حال الانتقال ستروا جسدها الذي قبل الإله، بأجنحتهم الموقرة، بخوف وفرح**".

وفي الأودية السادسة يبرز الدّمشقيّ معلّم اللاهوت فيقول بصراحة ما بعدها صراحة: "**إنّ إله الكلّ الملك قد منحك ما يفوق الطبيعة، لأنّه كما صانك في الولادة عذراء كذلك صان جسمك في الرمس من الفساد، ومجّدك معه بانتقالك الإلهيّ**".

ويجمع الدّمشقيّ بعد هذا كلّ ما ورد في العهد القديم، في باقة واحدة، من رموز تشير إلى العذراء: "**إنّك منارة النار، ومبخرة ذهبيّة، وجرّة، وعصا، ولوح مكتوب من الله، وتابوت مقدّس، ومائدة خبز الحياة**".

وفي الأودية التاسعة تعظيمة لانتقال البتول "**جميع الأجيال تغبّطك يا والدة الإله وحدك**".

"**أيّتها البتول الطاهرة. إنّ حدود الطبيعة قد غُلبت فيك. لأنّ المولد حفظ بتولاً، والموت قد صار لك عربونًا للحياة، يا مَن هي بعد الولادة بتول، وبعد الموت حيّة. فيا أمّ الله. أنت تخلّصين ميراثك دائمًا**".

وأخيرًا يدعونا الدّمشقيّ أن نلتفّ حول ضريح أمّ الله ونقبّله بخشوع ونزاهة، لامسين إيّاه بالشفاه والقلوب والجباه، مستمدّين منه مواهب الأشفية لأنّه ينبوع دائم التسلسل.

أمّا الصلوات التي تكرّر مرّات عديدة في تمجيد انتقال البتول فهي الابوليتيكون والقنداق.

"**في ولادتك حفظت البتوليّة، وفي رقادك ما تركت العالم، يا والدة الإله، فإنّك انتقلت إلى الحياة بما أنّك أمّ الحياة. وبشفاعاتك تنقذين من الموت أنفسنا**".

"**إنّ والدة الإله التي لا تكفّ عن الشفاعات والرجاء الوطيد في النجدات، لم يضبطها قبر ولا موت. بل بما أنّها أمّ الحياة نقلها إلى الحياة مَن سكن في مستودعها الدائم البتوليّة**".

الجزء الحادي عشر
هناك في المجد

٧٠
ملكة السماوات والأرض
"السلام عليك يا مريم سيّدتنا أجمعين"
(من رتبة الاكاثستوس)

لقد اعتبرت الكنيسة في طقوسها وخطب وعّاظها أنّ العذراء مريم أصبحت ملكة السماوات والأرض بعد انتقالها إلى ملكوت السماوات وأنّها تكلّلت سلطانة على الملائكة والقدّيسين والبشر أجمعين.

لله ملك مطلق

ولكنّنا نعرف أنّ لا ملك إلاّ الله ولا شريك له في ملكه. إنّه صاحب السلطان المطلق، باعتباره الخالق، وأنّه وحده يوجّه الخليقة إلى ذاته فهو هدفها ومنتهى غاياتها لأنّه بذاته الصلاح غير المتناهيّ.

فالسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هل المسيح والعذراء مريم يستطيعان أن يتمتّعا بهذا السلطان الساميّ على الخلائق كليًّا أو جزئيًّا.

للمسيح ملك مطلق

إنّ المسيح يشارك الله في هذا السلطان حتّى كإنسان لأسباب ثلاثة: بسبب شخصه الإلهيّ، وفيضان كمال نعمته علينا وعلى الملائكة وأخيرًا بسبب النصر الذي أحرزه على الخطيئة والشيطان والموت. فهو ملك البشر وسيّد الخلائق والملائكة. وقد ورد في إنجيل القدّيس مرقس (١٣: ٢٦- ٢٧) في الحديث عن مجيئه الثانيّ في نهاية العالم: **"وحينئذ يشاهدون ابن البشر آتيًا على السحاب بقوّة وجلال عظيمَيْن وحينئذ يرسل ملائكته ويجمع مختاريه من الرياح الأربعة من أقاصي الأرض إلى أقاصي السماء"**.

ومن المقرّر أنّ المسيح هو ابن الله ليس بالتبنّي ولكن بالطبيعة، بينما الملائكة ليسوا إلاّ خدّامًا له.

وقد قال السيّد المسيح: **"إنّي قد أعطيت كلّ سلطان في السماء والأرض"**. (متّى ٢٨: ١٨).

لمريم ملك شامل بالمسيح

بقي أن نعرف كيف تستطيع مريم أن تتمتّع بمثل هذا السلطان الإلهيّ وليست هي إلاّ بشرًا.

١- بصفاتها

إنّها سيّدة السماوات والأرض بمعنى أنّ صفاتها الروحيّة وامتلاءها من النعمة والمجد والمحبّة ترفعها فوق الخلائق أجمع. بهذا المعنى يقال إنّ الأسد سيّد الحيوانات.

٢- بما أنّها رأس الجسد السرّيّ

ويمكن القول أيضًا بأنّها سيّدة الخليقة لأنّها ولدت رأس الجسد السرّيّ الذي هو المسيح الملك وبالطبع ولدت الجسم كلّه. وبما أنّها والدة الجسد فهي والدة الروح أيضًا. فلا غرو أن تكون سلطانة البشر أجمعين بيسوع المسيح رأس الجسد السرّيّ.

ولكن هل نستطيع أن ندعوها سيّدة بحصر المعنى؟ أيّ أنّ لها سلطان الأمر والنهي على الخليقة أجمع.

إذا رجعنا إلى "**التقليد المقدّس**" الذي يعبّر عنه الآباء والأحبار الأعظمون والسلطات العليا الكنسيّة في مواعظهم وتعاليمهم وفي صلوات الطقوس الكنسيّة تبدو الفكرة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار وهي أنّ مريم سيّدة الخليقة وملكتها المحبوبة.

وإذا ما رجعنا إلى آراء علماء اللاهوت يجب أن نؤيّد فكرة سيادة البتول على الخليقة كلّها ليس سيادة شرفيّة بل فعليّة.

دليل الآباء والكنيسة

هكذا أجمع آباء الشرق والغرب على تسمية مريم "**بالسيّدة**" و"**الملكة**" و"**ملكة خلاصنا**". في الشرق أعلن ذلك القدّيس أفرام السوريّ من مدينة أورفه وجرمانوس بطريرك القسطنطينيّة وأندراوس المنشد من جزيرة كريت ويوحنّا الدّمشقيّ. أمّا من الغرب فتبرز أسماء بيير كريزولوك وبيد وأنسلم وبيير داميان وبرنردس. ويمكن التأكيد بدون أيّ تردّد أنّ مجمع أفسس (٤٣١) بعد أن أعلن للعالم أنّ مريم هي "**أمّ الله**" وضع الحجر الأساسيّ الذي تستند إليه الحقائق الخاصّة بامتيازات مريم. ثمّ جاء مجمع خلقيدونيا فأكّد من جديد تلك الإمتيازات. وهكذا راحت الكنيسة تنسج حول تلك المقرّرات مختلف نواحي إيمانها بصفات البتول ومنها أنّها "**سلطانة**". ولم يبق من الغريب أن يأمر مجمع مدينة صور ٥١٨ أن يقام احتفال وعيد خاصّ "**لمجد المسيح إلهنا ولأمّ الله القدّيسة والفائقة المجد**". ولم يتردّد المؤمنون أن يروا، في انتقال البتول، رمزًا يشير إلى أنّها سلطانة مطلقة على السماوات والأرض. ولقد نعتها مجمع نيقيا المسكونيّ السابع (٧٨٧): "**سلطانتنا الفائقة الطهارة**".

وبين علماء اللاهوت يبرز اسم ألبير الكبير وبنافنتورا وتوما الأكوينيّ وسوواريز وغرينيان دي منفور وألفونس.

ولقد وردت هذه الألقاب باستمرار على ألسنة الأحبار الأعظمين والسلطات الدينيّة العليا في الكنيسة.

دليل الطقس

أمّا الطقوس الكنسيّة فلم تبخل بالألقاب على مريم فسمّتها: **"ملكة السماوات"** و**"سلطانة الملائكة"** و**"ملكة العالم"** و**"سلطانة القدّيسين"**.

ومن المقرّر أنّ الصلاة تعبير عن الإيمان. وفي ذبيحة القدّاس وحفلة العماد والمشحة الأخيرة والرسامة الكهنوتيّة ومنح بركة الإكليل يحيّي الكاهن مرّات، حسب الطقس البيزنطيّ مريم العذراء، فيدعوها سيّدتنا: **"ونخصّ بالذكر الفائقة البركات سيّدتنا"**.

وفي تهيئة الذبيحة الإلهيّة يفصل الكاهن قطعة من الخبز بشكل مربّع تُدعى الحمل وهي ترمز إلى المسيح ويضعها وسط الصينيّة. ثمّ يقتطع قطعة ثانية بشكل مثلّث تشير إلى مريم أمّ يسوع، وبينما يضعها إلى يمين الحمل يقول: **"قامت الملكة عن يمينك متّشحة بثوب مذهّب موشّى"**.

وبعد الكلام الجوهريّ ينشد الشعب لها: **"بواجب الاستيهال حقًّا نغبّط والدة الإله الدائمة الطوبى البريئة من كلّ العيوب أمّ إلهنا. يا مَن هي أكرم من الشاروبيم وأرفع مجدًا بغير قياس من السارافيم"**. وفي القدّاس حسب الطقس اللاتينيّ: **"سلام يا ملكة السماوات، سلام يا سيّدة الملائكة... يا ملكة السماء... سلام أيّتها الملكة"**.

وفي إحدى الصلوات شاء مؤلّفها أن ينسب لمريم نصّ الآيات التي وردت في سفر يشوع بن سيراخ: **"وعلى كلّ شعب وكلّ أمّة تسلّطت ووطئت بقدرتي على قلوب الكبار والصغار"** (٢٤: ٦- ١١).

دليل العقل

أمّا حجّة علماء اللاهوت، في إعلان مريم سلطانة مطلقة على السماوات والأرض، فتعود إلى الأسباب التالية:

أوّلاً- إنّ المسيح الإنسان متّحد باللاهوت. فشخصيّته إلهيّة؛ وبهذا هو ملك الخليقة، ومريم باعتبارها والدة الإله المتأنّس هي أيضًا شريكة في سلطانه المطلق.

ثانيًا- إنّ المسيح باعتباره مالك فيض كلّ نعمة، ومحرزًا نصرًا على الشيطان والخطيئة **"قد رفعه الله ووهبه اسمًا يفوق كلّ اسم لكي تجثو باسم يسوع كلّ ركبة ممّا في السماوات وعلى الأرض وتحت الأرض ويعترف كلّ إنسان أنّ الربّ يسوع المسيح هو في مجد الله الآب"** (فليبي ٢: ٩- ١١). ومن المقرّر أنّ مريم شاركت المسيح في آلامه وذلّه وبالتالي شاركته في نصره على الشيطان والخطيئة والموت فهي طبعًا شريكة في ملكه المطلق.

ممّا تقدّم نستخلص عدّة نتائج منها أنّ مريم هي:

١- سلطانة الملائكة.

لأنّ رسالتها تفوق رسالتهم. هي أمّ الله بينما هم ليسوا إلاّ خدّامه، والبون شاسع بين الأمّ والخادم. إنّها أكثر نعمًا ومجدًا وأفضل طهارة ونقاء وأمرَن طاعة وخضوعًا لإرادة الله ووصاياه. بل جعلتهم مستحقّين نعم ابنها.

لقد سخّر الله كلاً من الملائكة لخدمة إنسان أو فئة من البشر. أمّا مريم فهي حارسة البشريّة جميعًا وكلّ إنسان على انفراد.

إنّهم يلتهبون حبًّا لخالقهم. أمّا حبّ مريم لربّها فهو أسمى من محبّة الخليقة بأجمعها. فهي إذن سلطانة الملائكة.

٢- سلطانة الآباء

إنّها أرفع شأنًا من آدم قبل ارتكابه الخطيئة الأصليّة لأنّها نالت كلّ ما نال آدم في حالة البرارة. وبالإضافة إلى ذلك حصلت على ما استحقّه ابنها.

وبالطبع إنّها أسمى من جميع الآباء لأنّهم وُلدوا ملوّثين بالخطيئة الأصليّة بل عرفوا في حياتهم الخطايا الفعليّة. وإذا الكتاب المقدّس عظّم إبراهيم لأنّه ضحّى وحيده، ابن الموعد، فلقد ضحّت مريم وحيدها وهي على عِلم كامل بشخصيّته الإلهيّة.

٣- سلطانة الأنبياء

النبوءة بمعناها الحصريّ هي أن يكشف النبيّ مسبقًا عمّا سيحدث في مستقبل قريب أو بعيد. فمريم هي أيضًا سبقت وعرفت ما سيحدث لها "**إنّ جميع الأجيال سوف تغبّطني**". والأنبياء أنفسهم سبقوا فتنبّأوا عنها.

٤- سلطانة الرسل

الرسل هم الاثنا عشر الذين دعاهم المخلّص ليحملوا البشارة ويؤسّسوا الكنيسة. والرسالة هي خدمة. أمّا مريم أمّ المخلّص فقد شاركت المسيح مباشرة في رسالته. ومن المقرّر أنّها كُلّفت بالسهر على الرسل والكنيسة بعد صعود المسيح إلى السماء. فهي التي كانت تشجّعهم لخوض المعركة في سبيل نشر الدين الجديد. وهي التي كانت تعزّيهم كلّما تعرّضوا لاضطهاد اليهود. وهي التي أوحت إلى الإنجيليّين ما كانت تحفظه في قلبها. وقد انتصبت أمامهم مثالاً حيًّا لكلّ فضل وفضيلة.

٥- سلطانة الشهداء

هذا اللقب لقّبها به القدّيس أفرام وإيرونيموس وأنسلم وبرنردس. ومعنى الشهادة هذه هو موت القلب الذي سبق وتنبّأ عنه سمعان الصدّيق "**سيجوز سيف في نفسك**". (لوقا ٢: ٣٥).

ولكي نقدّر مدى آلامها يجب أن نقيسه بمقياس حبّها لابنها، فكلّ ضربة أو إهانة لحقت بابنها كان لها صدى عميق في نفسها.

وكان عليها أن تتحمّل كلّ تلك الآلام لأنّها شريكة ابنها في سرَّيْ التجسّد والفداء.

وتحمّلت في نفسها على مثال الفاديّ كلّ خطايا البشر.

كلّ ذلك ساعدها لتسبر مدى حبّ الله للبشر ومعنى الخلاص والفداء وسموّ التضحية التي بذلها الشهداء في تأدية الشهادة.

٦- سلطانة المعترفين

"**إنّ مَن يعترف بي أمام الناس أعترف أنا به أمام أبي الذي في السماوات**". والإعتراف معناه إعلان حقيقة الدين أمام المؤمنين وغير المؤمنين.

وبالطبع إنّ الكهنة هم المكلّفون بنشر الدين والمحافظة عليه؛ إذ إنّ هذه الطغمة تشغل مركزًا مرموقًا في الكنيسة بالدور الذي كلّف أفرادها أن يقوموا به وبالرسالات التي

نُقلت إليهم وبمسؤوليّاتهم الجسيمة السامية. ولذلك اعتُبرت مريم الشفيعة الخاصّة للمرسلين والكهنة.

فهي التي تثير في نفوس بعض الناس رغبة خاصّة في اعتناق الحياة الكهنوتيّة أو الرهبانيّة. ولذلك اعتُبرت شفيعة الدعوات الكهنوتيّة والرهبانيّة. وهي التي تدفع ببعض المؤمنين لأن يهجروا وطنهم وأهل بيتهم لينطلقوا **"وراء الخراف الضالّة"** وليدعوا الوثنيّين في مجاهل الأرض إلى الإيمان. وهي التي تلهم المبشّرين الوعظ والإرشاد.

٧- سلطانة العذارى

لقد مارست العذراء مريم فضيلة الطهارة كما لا يمكن لقدّيس أو بارّ أن يمارسها. فلقد حافظت على طهارتها حتّى في الحبل والولادة. وبقيت عذراء حتّى بعد الولادة. وبذلك بيّنت أنّ الطهارة فضيلة أيّ قوّة روحيّة. وبيّنت أنّ الإنسان المكرّس لله والناذر الطهارة يفوق جدًّا المتزوّجين الذين يمارسون فضيلة العفاف. لأنّ الطهارة تكرّس لله سلامة الجسد الكاملة ونقاء القلب مدى الحياة.

وقد اتّخذها الرهبان والكهنة وكلّ مَن قرّر أن يعيش طاهرًا شفيعة في ممارسة فضيلة الطهارة.

لقد سُمّيت هذه الطغمة **"عرائس المسيح"**. أمّا عروسة المسيح الأولى بمثلها الأعلى فهي، بدون شكّ، العذراء مريم. على مثالها يجب على هؤلاء أن يتقرّبوا من الله ويعيشوا في جوّ صلاة ومحبّة وتضحية. ولذلك، فُرض عليهم أن يتشبّهوا بفضائل مريم وينقلوا تلك الفضائل إلى نفوسهم وأن يسعوا ليحوّلوا حياتهم إلى خدمة مخلصة للمسيح وللنفوس. فتحصل تلك الطغمة على لقب أبوّة أو أمومة روحيّة بالنسبة لكلّ نفس متألّمة أو خاطئة أو مشرّدة، تبغي أن تجد في الكاهن والراهب حنانًا فقدته أو طعامًا هي بحاجة إليه.

فلمّا كرّس الحبر الأعظم البابا بيوس الثانيّ عشر، بتاريخ ٨ كانون الأوّل ١٩٤٢، الجنس البشريّ لمريم العذراء، أوضح بالتالي أنّ لمريم سلطانًا مطلقًا على البشريّة.

وفي ١١ تشرين الثانيّ ١٩٥٤ قرّر الحبر الأعظم نفسه أن يكون يوم ٣١ أيّار عيد مريم الملكة في العالم أجمع كلّ سنة. وفرض أن يجدّد تكريس البشريّة لمريم العذراء بمناسبة هذا العيد.

"لنكرّم بالأناشيد مَن هي أرفع من السماوات وأنقى من الأنوار الشمسيّة المنقذة إيّانا من اللعنة وسيّدة العالم". (من رتبة الباركليسيّ).

هذه هي السلطانة المتوجّهة بإكليل رُصّع باثني عشر كوكبًا كما وصفها يوحنّا الحبيب في سفر الرؤيا: **"وظهرت في السماء آية عظيمة، امرأة ملتحفة بالشمس، وتحت قدميها القمر وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكبًا"** (١٢: ١).

٧١
الوسيطة

لقد صعدت العذراء إلى السماء والتقت بابنها لتعيش معه إلى الأبد، فهي من الآن فصاعدًا شريكة مجده لأنّها أمدّته بالحياة وشاركته بالآلام على الأرض.

وإذا كنّا إلى الآن قد تصفّحنا حياة مريم معتمدين على "**الكتاب**" و"**التقليد المقدّس**" وتعاليم الآباء والمنطق، يمكننا أن نقول أشياء كثيرة نتّخذها من المصادر نفسها بعد أن صعدت إلى السماء.

لقد حُقّ للعذراء أن تفاخر كافّة الخلائق حتّى الرسل يوم كانت على الأرض وهي تتكلّم على يسوع إذ تقول: "**لقد أبصرنا مجده مجد وحيد من الآب مملوءًا نعمة وحقًّا**" (يوحنّا ١: ١٤).

بالطبع لم تشاهد العذراء مجد ابنها الإلهيّ إلاّ بالإيمان وكما في مرآة، هذا ما يقوله بولس الرسول.

أمّا الآن فهي تشاهد مجد الله والكلمة "**وجهًا إلى وجه**" (كورنتس الأولى ١٣: ١٢)، متمتّعة بملكوت لا وجع فيه ولا حزن ولا دموع بل فيض من الأنوار الإلهيّة (كورنتس الأولى ١٥: ٤٢- ٤٤).

وبعد أن اتّحدت بابنها في السماء كان عليها أن تكون على مثاله حيّة دائمًا لتشفع وتتوسّط للكنيسة ولنا، نحن أبناءها (عبرانيّين ٧: ٢٥، روما ٨: ٣٤) وإذ أصبحت ترى في أنوار الله أسباب ضعفنا وشقائنا والأخطار المحدقة بخلاصنا، فهل تستطيع إلاّ أن تعطف علينا وتستدرّ لنا النعم وتشفع فينا أمام الله؟

إنّها حيّة في الله. "**وما الأموات في نظر الله إلاّ أحياء يرزقون**" (لوقا ٢٠: ٣٨). فهل يمكنها إلاّ أن ترانا فيه.

وهل تستطيع أن تصمّ أذنيها عن صلواتنا؟ إنّها لا تستطيع إلاّ أن تتلقى تلك الصلوات لترفعها بواسطة ابنها الإلهيّ "**إلى عرش النعمة، لننال رحمة، ونجد نعمة للإغاثة في أوانها**" (عبرانيّين ٤: ١٦).

وهل يجوز لنا اعتبار المؤمنين كنيسة واحدة في شركة القدّيسين وتبقى مريم خارج هذه الشركة؟

هذا ما يوحي به الكتاب المقدّس في الآيات السالفة وغيرها. وأنّنا على ثقة من أنّ مريم سوف تستمرّ في السماء الوسيطة والشفيعة للبشر. ذلك ما يؤكّده لنا الآباء القدّيسون والكنيسة بتقليدها المقدّس الحيّ في كلّ زمان، كما تؤكّده لنا الطقوس الكنسيّة منذ القرن الرابع. والطقوس تعبير عن إيمان المسيحيّين انطلق من الشرق قبل أن نسمعه من الغرب. وما يزال ترداده حيًّا إلى اليوم.

يعرّف القدّيس توما معلّم اللاهوت معنى وساطة المخلّص فيقول: "**وظيفته كوسيط بين الله والبشر هي أن يقيم بين الفريقيْن علاقات وحدة**". ومعنى ذلك أنّ على الوسيط أن يرفع إلى الله صلوات البشر وخاصّة الذبيحة، وهي من أهمّ أعمال الديانة، وعليه أيضًا أن يوزّع على البشر عطايا الله: نور الإيمان والنعمة.

فللوساطة إذن وجهان متقابلان: مهمّة أولى هي رفع الصلاة والذبيحة والثانية توزيع العطايا الإلهيّة للبشر.

الوسيط الأوّل:

إنّ هذه المهمّة لا تليق بالمعنى الحصريّ إلاّ بالمسيح الإله الإنسان "**الذي صالحنا مع الله**"، حينما قدّم ذبيحة حياته غير المتناهية على الصليب لأجل البشر أجمعين، تلك الذبيحة المستمرّة في القدّاس الإلهيّ. وبهذا المعنى يقول القدّيس بولس "**لأنّ الله واحد والوسيط عند الله والبشر واحد وهو الإنسان يسوع المسيح الذي بذل نفسه فداء عن الجميع**" (تيموتاوس الأولى ٢: ٥، ٦).

الوسطاء الثانويّون

ويتابع القدّيس توما الأكوينيّ كلامه فيقول: "**لا شيء يمنع من أن يقوم بين الله والبشر، دون المسيح بالطبع، وسطاء ثانويّون يساعدونه بطريقة تهيئة أو خدمة**" ويعني بذلك أن يهيّئ الوسطاء الثانويّون البشرَ لتقبّل وساطة الوسيط الأوّل أو يساعدوهم على أن ينقلوا عن الوسيط الأوّل فضل استحقاقاته.

هكذا كان الأنبياء واللاويّون في العهد القديم وسطاء بين الله وشعبه يبشّرون بترقّب المخلّص ويرفعون الذبائح. وكذلك كهنة العهد الجديد يمكن اعتبارهم وسطاء بين الله والبشر، لأنّهم يقومون بالخدمة باسم المسيح، وباسمه يرفعون الذبيحة ويوزّعون الأسرار.

وساطة العذراء

بقي أن نعرف هل وساطة العذراء هي أيضًا تابعة لاستحقاقات المسيح وناتجة عنها؟ وهل هي أيضًا ترفع صلوات وذبائح الشعب لتستمدّ عنها النعم؟

يأتينا الجواب من "**التقليد المقدّس**" الذي تنطق به الصلوات الطقسيّة. ويمكننا أن نعبّر عنه بأنّ مريم، بوصفها أمّ الله فادي البشر أجمعين، هي مدعوّة لتكون الواسطة المطلقة. لأنّ مركزها يجعل منها الوسيطة بين الله والبشر وخاصّة بين ابنها والبشر.

وبدهيّ أن تبقى دون الله والمسيح. لأنّها خليقة. ولكنّها تسمو جدًّا فوق جميع البشر بالنعمة التي جعلت منها أمّ الله وبفيض النعم التي امتلأت منها نفسها حين ولادتها بريئة من دنس الخطيئة الأصليّة، تلك النعم التي ما برحت تنمو وتنتشر حتّى آخر حياتها.

يتّضح من ذلك أنّ وساطتها تابعة وخاضعة تمامًا لاستحقاقات المسيح الوسيط المطلق. ولا بدّ من القول بأنّ وساطتها ليست ضروريّة لخلاص البشر. لأنّ وساطة المسيح وحدها ضروريّة للخلاص. ولكنّ العناية الإلهيّة شاءت أن تكون وساطة العذراء امتدادًا وانتشارًا لوساطة المسيح. وتعتبر الكنيسة وساطة مريم دائمة وشاملة لكلّ النعم وجزيلة الفائدة الفعاليّة لتنال لنا من الله ما يوصلنا إلى الكمال والخلاص.

بهذا المعنى اعتُبرت مريم وسيطة مطلقة في الطقوس الكنسيّة وعلى ألسنة علماء اللاهوت.

دليل التقليد

أمّا البراهين المؤيّدة لهذا التعليم فقد وردت أوّلاً في "**التقليد المقدّس**". فلقد سُمّيت مريم منذ الجيل الثّانيّ للميلاد "**حوّاء الجديدة**" و"**سيّدة الأحياء**". لأنّها ولدت المخلّص وشاركت في سرّ الفداء وخاصّة في ذبيحة الصليب.

دليل الآباء

ومنذ الجيل الرابع وخاصّة الخامس يعلن الآباء القدّيسون أنّ مريم هي وسيطة بين الله والبشر وأنّ جميع الخيرات والنعم الضروريّة للخلاص تصلنا بواسطتها.

ولقد بيّن الآباء أنّ حوّاء هي سبب موت البشريّة، بينما مريم أعادت لنا الحياة. هكذا نقرأ للقدّيس كيرلّس الأورشليميّ وإبيفانيوس وإيرونيموس ويوحنّا فم الذهب. ويحيّي القدّيس أفرام من سوريا العذراء فيقول: "**السلام عليك أيّتها الوسيطة السامية بين الله والبشر، السلام عليك يا مَن صالحت مصالحة فعّالة العالم بأسره بعد ما صالحنا الوسيط الأسمى**".

ويعلن القدّيس جرمانوس بطريرك القسطنطينيّة: "**ما من إنسان افتُدي بدون وساطة مريم أمّ الله**". أمّا القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ فيؤكّد بأنّنا مدينون لها بجميع الخيرات التي استحقّها لنا يسوع المسيح.

دليل السلطة

وتكرّر الأجيال التالية هذه الأقوال بدون تردّد حتّى إذا جاء البابا بيوس العاشر أعلن أنّ مريم هي الوسيطة لدى الله وأنّها مصالحة البشريّة بأسرها مع ابنها (١٣ كانون الثّانيّ ١٩٢١).

دليل العلماء

ويستند علماء اللاهوت إلى "**التقليد المقدّس**" الذي عبّر عنه الآباء القدّيسون ليؤكّدوا أنّ مريم كانت وما تزال الوسيطة بين الله والبشر وأنّ وساطتها تفوق وساطة جميع القدّيسين وأنّ البشريّة تستطيع أن تنال الخلاص بواسطة مريم كما يناله كلّ فرد.

أمّا أن تستحقّ لنا مريم النعم فذلك أمر طبيعيّ لأنّها عاشت دائمًا في حالة النعمة. وأنّ كلّ إنسان يعيش في حالة النعمة يستطيع أن يستحقّ زيادة النعمة لنفسه وأن يشرك الغير في تلك النعمة. لأنّ النعمة المبرّرة أشبه شيء بالبذار للحياة الأبديّة. ولهذا نستطيع كلّنا أن نصلّي من أجل ارتداد الخطأة وازدياد المحبّة في نفوس البشر.

ومريم هي أمّ البشر أجمعين. وبهذه الصفة كان عليها لا أن تعرف ما عمل المسيح من أجل خلاص البشر وما يحتاجون إليه من نعم ليعرفوا الله ويخدموه فحسب، بل أن تعمل لتحقّق لله غاياته وللبشر حاجاتهم، فتتوسّط بين الله مصدر كلّ نعمة والبشر المفتقرين إلى هذه النعم. وهكذا تلتقي محبّة العذراء للبشر بمحبّة الله نفسه، فتحقّق غاية الخالق في خلقه وغاية المسيح في آلامه. وعلى الجملة تبدو وساطتها شعاعًا لأمومتها، شعاعًا لحبّها لله وشعاعًا لحبّها للبشر وشعاعًا لكنز النعم الذي تحمله في نفسها وإشعاعًا لكونها بريئة من

دنس الخطيئة الأصليّة. وأنّ الله لا يستطيع أن يرفض دعاءها ووساطتها لأنّها تهدف إلى ما يهدف إليه الله والمخلّص. وهكذا يبدو صحيحًا تدبير الله في خلاص البشر. إنّه يتوقّف على عمل الإنسان توقفه على عمل الله: لقد صار المسيح إنسانًا ليخلّص البشر ولقد أشرك البتول في سرّ الخلاص والفداء وجعل الخلاص رهن إرادة كلّ إنسان.

وأخيرًا لقد استحقت مريم كلّ النعم لأنّها شاركت المسيح في فداء البشر.

وبهذا اعتُبرت الأمّ الروحيّة لجميع البشر. فكان عليها أن تسهر على الذين يدعونها، طالبين معونتها، على الذين أسلموا حياتهم بين يديها كي تقودهم إلى حبّ ابنها وإلى الحياة الأبديّة.

وقد اعتُبرت العبادة لمريم حقيقيّة، مستمرّة، خالصة. بينما عبادة القدّيسين إضافيّة ثانويّة.

ومن البدهيّ ألاّ يرفض الله لها شفاعة أو وساطة. ولنا في حادث عرس قانا مثال واضح على مقدرة مريم التي تغيّر تقارير الله المسجّلة منذ بدء العالم.

لقد طلبت العذراء من ولدها في عرس قانا بلطف أن يقوم بعمل عظيم إكرامًا لأصحاب العرس. فأجاب المسيح أنّ ساعته لم تحضر بعد. ومن البدهيّ أن يرفض الطلب في مثل هذا الظرف، حيث الهرج والمرج والشراب والعبث. إنّه يفضّل مناسبة أكثر هدوءًا ورصانة ليظهر لمواطنيه مقدرته الإلهيّة ورسالته السماويّة. إنّه يفضّل أن يكشف نفسه للعالم، لأوّل مرّة، عن طريق شفاء مريض أو دعوة خاطئ، لا أن يوفّر لبعض الناس متعة دنيويّة.

ولكن ما العمل؟ لقد طلبت الأمّ. وهل يستطيع أن يردّ لها طلبًا؟

أليس في هذا الطلب مساس لمقرّرات الله؟ كلاّ! بالطبع. لأنّ الله سبق فعرف أنّه سوف يدفع إلى الأمام عقرب الساعة بسبب طلب أمّه.

إنّ الله لم يبدّل شيئًا في المقرّر، إنّما أراد أن يفهمنا الأهميّة التي يعلّقها على شفاعة مريم العذراء.

دليل الطقوس

ولقد أطلقت الطقوس الكنسيّة أجمل العبارات على مريم حينما دعتها الوسيطة بين الله والبشر.

وهذا صدى إيمان الكنيسة بوساطة البتول في رتب الطقوس الكنسيّة:

من رتبة الاكاثستوس

"السلام عليك يا سلّمًا رفعت الجميع بالنعمة من الأرض إلى العلاء. السلام عليك يا جسرًا ناقلاً بالحقيقة من الموت إلى الحياة جميع الذين يسبّحونها".

"السلام عليك أيّتها السيّدة التي نمتلئ بها فرحًا ونرث الحياة".

"السلام عليك أيّتها النقيّة الكاملة البركات. يا مَن ولدت الخلاص للعالم وبها رُفعنا من الأرض إلى العلاء. يا حمى وسندًا".

"نصرخ إليك بالسلام نحن المؤمنين الذين نلنا بك نصيبًا من الفرح الأبديّ".

"السلام عليك أيّتها النقيّة التي فتحت عدنًا المغلقة".
من رتبة الباركليسيّ
"يا نصيرة المسيحيّين التي لا تخزى ووساطتهم الدائمة لدى الخالق".
"أيّتها العذراء إنّك تسكبين الأشفية غزيرة على الذين يسبّحونك بإيمان".
"أيّتها السيّدة أمّ المنقذ. اقبلي تضرّعات خدّامك غير المستحقّين بأن تتوسّطي لهم لدى المولود منك. فكوني لنا وسيطة يا سيّدة العالم".
"أيّتها الصالحة، إنّك تنصرين كلّ الملتجئين بإيمان إلى ذراعك القديرة. فإنّه ليس لنا وسيط دائم لدى الله سواك يا أمّ الله العليّ".
هذا هو النهر الخالد يتدفّق نعمًا وبركات! نهر مصدره الله وسريره مريم ومصيره بحار نفوسنا الشاخصة دومًا إلى يدي العذراء الوسيطة.

٧٢
الشفيعة

"أشفق اللهمّ على ميراثك. وتغاض الآن عن جميع خطايانا. واقبل لذلك استعطاف التي حُبلت بك على الأرض".
(من رتبة الاكاثستوس).

فكرة الهلاك وفكرة الفداء
لقد هال بعض آباء الكنيسة فكرة عقاب الخطأة الأبديّ. لكنّ فكرة أخرى تنتصب أمام هذه الفكرة المظلمة المخيفة، فكرة مشرقة بهيجة هي فداء العالم الذي جاء المسيح يتمّمه بنفسه وعلى أوسع نطاق.
ليس من السهل أن نوفّق دومًا بين هاتين الفكرتين، إلاّ إذا برزت العذراء أمام الله شفيعة للخطأة. فيعود حينئذ الأمل إلى البشر ويلطّف الجوّ ويثق هؤلاء الذين جُبلوا من تراب الأرض ومن وهن بفكرة الغفران والمسامحة فيزول اليأس تحت غيث من رحمة الله غير المتناهية. وكم يطيب لنا أن نردّد تلك العبارة التي قالها المسيح لدى ظهوره للقدّيسة "**جيرتروده**": **"لن أقول لك ما فعلته بسليمان ولا بيهوذا لئلاّ يطمع الناس برحمتي".**
ولكن هل يتّفق هذا الأمل مع مطالب العدل الإلهيّ؟ ذلك ما لا نحمّل النفس عناء الجواب عليه، لأنّ ذلك أقوى من أن يجوز لنا البحث فيه. إنّما الذي نعرفه هو إيمان المسيحيّين بأنّ مريم هي أمّ الخطأة وأمّ الفادي. وهذا ما يحملنا على الإعتقاد بالحدّ الأقصى لرحمة الله وغفرانه. فهنالك علاقة أكيدة بين فكرة الأمّ وفكرة الغفران الكامل بدون شكّ.

يُذكر عن **"مرسيل بروست"** أنّه في سنّ المراهقة كان يلجأ إلى أمّه ويعترف لها بخطاياه فيقول: **"كانت دموعي تنحدر بسخاء على وجنتي وأنا أعترف لوالدتي بخطاياي بينما كانت تصغي إليها بحنان يخفّف من وطأتها على ضميري"**.

وهل يستطيع إنسان أن يعبّر عن فكرة الأمومة بأفضل من أن ينعت الأمّ بالرحمة فيدعوها أمّ الرحمة؟ أوليست الرحمة أسمى درجات المحبّة؟

ومن الأمور الغريبة التي تردّدت على ألسنة بعض الخطباء والوعّاظ هي إلقاء الخوف والرعدة في نفوس السامعين. فلقد أغفلوا أكثر حقائق الديانة ليتوقفوا عند فكرة الهلاك الأبديّ وعذابات جهنّم وأبديّتها، كأنّها هي كلّ الدين. فيبسّطون الموضوع ويصوّرون له أهول التفاصيل.

وكم من نفس تحجّرت واستسلمت إلى اليأس والقنوط من جرّاء تلك الأفكار المظلمة!

بل أنّ تلك الأفكار التي انتشرت في فترات طويلة من تاريخ البشريّة دفعت بعض رجال الدين أو مَن ادّعوا النبوءة إلى أن يصوّروا لسامعيهم أو قرّائهم أنّ الله جالس على عرش وبيده سيف مصلّت على أعناق الناس. والويل لِمَن يقترب منه أو يقع بين يديه؛ إنّه جبّار عاتٍ!

ومن الغريب جدًّا أيضًا أنّ بعض الناس يستأنسون بفكرة إله هائل مخيف. يقول ليبنتز: **"لا أعلم ما هو السبب الذي يدفعنا إلى الإعتقاد بسهولة بأنّ البشر هالكون"**. وفي الواقع ترانا نجد صعوبة أقلّ في الإيمان بالجفاء منه بالمحبّة والرحمة. وربّما كان سبب تلك الأفكار المظلمة أنّ الناس ينالون بالظلم من الناس أكثر ممّا ينالون بالرحمة.

ولكن أليس جدّ غريب أن نتصوّر بأنّ الله ينتخب مختاريه؟ أوليس من الأفضل أن نتصوّر أنّ محبّة الله تشمل جميع البشر.

وجاء الإنجيل يحمل في طيّاته دين الرحمة والمحبّة، محبّة الله لخلائقه، ومحبّة الإنسان لربّه.

إنتصار فكرة الرحمة

وبدون أيّ تردّد يمكن القول بأنّ مريم العذراء هي من أجمل آيات الرحمة التي تنبعث عن قلب الله. فإنّها مع بقاء فكرة الإنتخاب والعدل الإلهيّ والعذابات الأبديّة قد نشرت نورًا من الرحمة والمحبّة والحنان جعل الأمل والرجاء أقوى بكثير ممّا تستطيع تلك الأفكار المظلمة أن توحي به من خوف.

وهكذا، انتصرت بمريم فكرة الحبّ على الخوف، والتقرّب من الله على الإبتعاد، والإستسلام لإرادة الله على الخنوع.

وليس لمريم أن تمحو من حياتنا الألم والحزن ولكنّها تستطيع أن تجعل لآلامنا وأحزاننا معنى غير معنى الذلّ.

إنّها الأمّ التي تلطّف بحنانها وحبّها فكرة الألم وتسمو بنا بعد هذا إلى فكرة السعادة التي ما وصل إليها ابنها وما وصلت إليها هي إلاّ عن طريق الجلجلة.

وحينما تنتصب شفيعة أمام عرش الرحمة من أجل البشر إنّما تتمّ ما بدأت به على الأرض: "**إنّي أريد رحمة لا ذبيحة**".

هذا وأنّ مريم استحقّت أن تكون لنا شفيعة أمام الله بما تحمّلته من آلام وعذابات ومهانة في حياتها، وخاصّة حينما كانت واقفة عند أقدام الصليب. ومن المقرّر أنّ الإستحقاق يتحوّل إلى كفّارة حينما يكون مصدره الألم والعذاب.

فمريم بوصفها أمّ الله المخلّص والفاديّ كانت متّحدة به وشريكة له في آلامه. وكانت آلام الفاديّ تهدف إلى غايتَيْن: الكفّارة عن الخطايا والتعويض عنها لمجد الله. كذلك مريم فإنّها أمّ الفاديّ والسيّدة المكمّلة بالمحبّة. ولم يكن عليها بالطبع أن تكفّر عن خطايا موروثة أو شخصيّة لأنّها وُلدت بريئة وعاشت بريئة قدّيسة.

وأنّ ما يجعل من استحقاقاتها كفّارة سامية هو ما تشعر به من ألم لا يقاس إلاّ بمقدار حبّها لله المهان وحبّها لابنها المصلوب بسبب خطايا البشر وأخيرًا حبّها للنفوس التي تفتك بها الخطيئة وتودي بها إلى الهلاك الأبديّ.

ومن المقرّر أنّ حبّ الله يدعو إلى حبّ القريب. ذلك أنّ الوصيّة الثّانية من وصايا الله ليست إلاّ نتيجة منطقيّة وضروريّة للوصيّة الأولى. والقدّيس يوحنّا الإنجيليّ يؤكّد ذلك في رسالته الأولى: "**ولنا منه هذه الوصيّة مَن أحبّ الله فليحبب أخاه أيضًا**" (٤: ٢١).

أساس شفاعتها

ونحن نسلب العذراء مجموعة قيّمة من صفاتها وفضائلها إذا تجاهلنا حبّها للجنس البشريّ، لأنّ حبّها لله يدفعها إلى محبّة البشر. وبما أنّ محبّتها لله سمت حتّى فاقت حبّ كلّ خليقة لخالقها، فكان لا بدّ لها من أن تشمل بمحبّتها كلّ أفراد البشر على اختلاف ألوانهم وأوضاعهم.

وبما أنّ المعلّم لم يأت إلى الأرض ليدعو الصدّيقين بل الخطأة، فالعذراء المجيدة هي أيضًا مدعوّة لأن تكون شفيعة الخطأة على مثال ابنها الإلهيّ. وهل يعقل أن ترضى العذراء مريم بهلاك نفس واحدة بعد ما تحمّلت وقاست وضحّت في سبيل خلاص النفوس. ومن المقرّر أنّها ضحّت بابنها الوحيد وشاركته في تلك التضحية إذ كانت واقفة عند الصليب.

هذا وأنّ كلّ معمّد يحمل في ذاته صورة المسيح، وأنّ هذه الصورة مطبوعة على نفسه لا تزيل معالمها الخطايا مهما كانت جسيمة أو كثيرة. في ذلك يقول القدّيس بولس الرسول وتردّده من بعده صلوات الطقس: "**أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم، المسيح قد لبستم**". فهل تستطيع مريم أن ترى صورة للمسيح مشوَّهة وتتحمّل هذا التشويه أو هالكة وترضى عن هلاكها؟

ومريم كانت وما تزال تدرك أنّ كلّ نفس مدعوّة لأن تنشد لمجد الله أكثر بكثير ممّا تستطيع جميع الخلائق غير العاقلة ذلك، لأنّ عقل الإنسان وقلبه خُلقا لكي يعرفا الله ويحبّاه.

فإذا كانت الخلائق، من دون الإنسان، تمجّد الله مدفوعة بالغريزة أو بالنظام العامّ الذي وضعه الخالق، وجب على الخليقة العاقلة أن تنشد عن معرفة وإدراك. ولمّا كانت الخطيئة تُبعد الإنسان عن هذه الغاية كان لا بدّ من عمل يعود به إلى شرف هذه الغاية السامية. ورسالة المسيح الفاديّ تقوم على أن تعود بالإنسان إلى الطريق الذي انحرف عنه.

وأنّ مريم بقدر إدراكها لهذه الغاية وحبّها لله تشعر بالألم والمرارة لابتعاد الإنسان عن ربّه وتميل بكلّ جوارحها ليعود النظام بين الإنسان وربّه بعد ما أفسدته الخطيئة.

وكانت مريم كذلك تسبر غور كلّ معاني التجسّد الإلهيّ وبغض اليهود ومذلّة الصليب فتتألّم وتتوجّع مع المسيح لأجل خلاص البشر ولهذا يمكن القول بأنّها ولدتنا بالأوجاع وأنّ حبّها للبشريّة يقاس، كما تقدّم، بحبّها لله ولابنها الذي قدّمته لله على الصليب كفّارة عن خطايا البشر.

وحينما يتكلّم بعض علماء اللاهوت والكتّاب الروحيّون عن **"مريم العذراء الكاهن"** يقصدون بذلك أنّها تقف وسيطة لترفع لله الآب ذبيحة ابنها فتستدرّ بها غفرانًا وبركات توزّعها على البشر.

ملجأ الخطأة

ولقد دعاها المؤمنون **"ملجأ الخطأة"**، لأنّها في الحقيقة أمّهم كما أنّها قدّيسة القدّيسين. وأنّ بغضها للخطيئة التي تفتك بالنفوس يدفعها إلى أن تكره الخطأة أو بالأحرى أن تكره خطاياهم. فتفتح ذراعيها واسعتَيْن جدًّا لتضمّ إلى صدرها أولئك الخطأة ولتوحي إليهم بالتوبة والرجوع إلى الله فتحرّرهم بقوّة شفاعتها من قيود العادات الأثيمة التي تأصّلت في نفوسهم ثمّ تحملهم على المصالحة مع الله. وذلك بشفاعة استحقاقات ابنها الإلهيّ التي تبعث بذكرياتها في نفوسهم الخاطئة.

بعد هذا تأخذ على نفسها أن تضمّد في نفوس الخطأة تلك الجروح التي خلّفتها الخطايا والمكرّرة عن سابق تصميم.

وأخيرًا تحمي أولئك الخطأة المرتدّين من عدوّ الخلاص إبليس ومن الأسباب القريبة والبعيدة التي كانت تجرّهم إلى المنحدر والهاوية. وقد لا يخلو طريق التوبة من أضواء، وملذّات يشعر بها الخاطئ في ممارسة ما يرتّب عليه من أعمال التوبة والتكفير.

وبهذا يدين جميع الخطأة لها بالفضل وبالخلاص. ولا يفلت من إطار رحمتها وحنانها إلاّ شرذمة واحدة من المساكين الذين يئسوا من رحمة الله وكفروا به حتّى نهاية حياتهم فجرّوا على نفوسهم اللعنة. أولئك المثابرون على الشرّ، الممعنون فيه حتّى الرمق الأخير، المجدّفون على الله، كالكفرة، والسحرة، والزناة والحسّاد، والبخلاء، والمتكبّرين.

ومع ذلك باعتبارها **"أمّ الرحمة"** فهي لا تكفّ عن أن ترسل إليهم من وقت إلى آخر أنوارًا تنير لهم طريق العودة. فإذا ما ارعوّوا عن عنادهم وشرّهم جذبتهم تلك النعم إلى التوبة الحقيقيّة.

النعمة الكبرى

وهنا ننتهي إلى موضوع بالغ الأهميّة وخطير جدًّا هو "**نعمة الثبات الأخير**" المسمّاة "**بالنعمة الكبرى**".

من المقرّر أنّنا لا نستطيع شيئًا بدون نعمة الله. وأنّنا نستطيع كلّ شيء بنعمته الإلهيّة. ذلك ما أكّده مرارًا القدّيس بولس الرسول والكنيسة فيما ورد على لسان الآباء والكتّاب وعلماء اللاهوت.

وقد برزت مسألة "**نعمة الثبات الأخير**" بالنسبة للخلاص الأبديّ من أهمّ تلك النعم. ذلك أن ليس كلّ مَن اعتمد حصل حتمًا على الخلاص. ومعروف أنّ العدد الأكبر من المؤمنين ينالون نعمة التبرير بالمعموديّة ولمّا يبلغوا سنّ الرشد. أمّا الثبات على النعمة فذلك أمر يتوقّف على إرادة الإنسان بالإضافة إلى إرادة الله. وقد قال الكتاب: "**إنّ الله يريد خلاص جميع الناس إقبالهم إلى معرفة الحقّ**". فلا بدّ إذًا للإنسان من أن يتمّم خلاصه بإرادته.

وبما أنّه من المقرّر أيضًا لدى علماء اللاهوت أنّ أحدًا من الناس، حتّى الأبرار منهم، لا يستطيع أن يتجنّب في حياته كلّ خطيئة إلاّ بإنعام خاصّ من الله فكيف يستطيع الإنسان أن يضمن لنفسه تجنّب السقوط في خطيئة مميتة في آخر حياته ونعمة الثبات الأخير والخلاص الأبديّ؟ لأنّه من المعقول أن يحافظ الإنسان على النعمة المبرّرة ويعيش حياة فاضلة ثمّ يسقط في خطيئة مميتة قبل أن يدركه الموت ولا يجد الوقت الكافيّ للتوبة. كما هو معقول أيضًا أن يفقد الإنسان بآثامه النعمة المبرّرة ويستردّها في آخر حياته لأسباب لم تكن متوقّعة قطّ. فَلِصّ الشمال الذي عاش في الإجرام كان يكفيه أن يقول للمعلّم على الجلجلة: "**اذكرني يا ربّ إذا أتيت في ملكوتك**" حتّى يخلص. والقدّيس "**أغناطيوس**" مؤسّس رهبانيّة اليسوعيّين روى لنا في رياضته المشهورة، وهو في سياق حديثه عن هذا الموضوع، قصّة راهب هجر الدنيا وعاش في التقشّف مدّة عشرات السنين وقبل أن يدركه الموت بقليل انقاد بإرادته لفكرة طائشة فاستحقّ بذلك الهلاك الأبديّ. فهذا الراهب حافظ على نعمة المعموديّة ومارس كثيرًا من الفضائل التي ضاعفت في نفسه كنز النعمة ولكنّه لم يثابر حتّى الساعة الحاسمة. ولهذا علّمنا المسيح في الصلاة الربّيّة أن نطلب إلى الله بإلحاح ألاّ يسمح بأن نسقط في تجربة.

فيمكننا أن نميّز، بعد هذا، حالتين للثبات في النعمة: الواحدة شخصيّة داخليّة يجاهد فيها الإنسان طويلاً للمحافظة على النعمة والثانية خارجيّة هي أن يكون في حالة النعمة ساعة يوافيه أجله. وأنّ هذه الحال الأخيرة هي التي نسمّيها "**بالنعمة الكبرى**" أو "**نعمة الثبات الأخير**" لأنّ الخلاص الأبديّ متوقف عليها. ويقول القدّيس "**أغسطينوس**" أنّه لَمِن الخطأ أن ننكر ضرورة وجود نعمة خاصّة من الله تقينا شرّ الهلاك الأبديّ لأنّ ساعة الموت رهن إشارة الله. فإذا شاء دَفَعَ بنا إلى الموت قبل أن نسقط بتلك الخطيئة المميتة الأخيرة. وبهذا المعنى كتب القدّيس بولس يقول: "**وإنّي لواثق بأنّ الذي ابتدأ فيكم العمل الصالح يتمّمه إلى يوم المسيح يسوع**". (فيليبّي ١: ٦).

دليل الوحي

وفي الوحي ما يؤكّد لنا أنّ الله لا يتخلّى عن محبّيه "**إنّ الله أمين**"، "**اطلبوا تجدوا**" (متّى ٧: ٦- ٨) ويشير القدّيس بطرس إلى الطريقة التي بها نضمن لنفوسنا نعمة الثبات الأخير فيقول: "**فلذلك أيّها الإخوة اجتهدوا بالأحرى أن تجعلوا دعوتكم وانتخابكم ثابتين بالأعمال الصالحة فإنّكم إذا فعلتم ذلك لا تذلّون أبدًا**" (بطرس الثانية ١: ١٠).

القدّيس أغسطينوس

أمّا القدّيس أغسطينوس فيقول: "**إنّ الإنسان يستطيع أن يستحقّ تلك النعمة الأخيرة بالصلاة**".

الكنيسة

ولقد علّمت الكنيسة دائمًا أنّ "**نعمة الثبات الأخير**" يمكن الحصول عليها بواسطة العذراء مريم كونها وسيطة في توزيع النعم وشفيعة الخطأة. وقد أكّد لنا القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ: "**إنّ مَن كان للعذراء عبدًا لن يدركه الهلاك أبدًا**".

وبهذا المعنى علّمتنا الكنيسة أن نلجأ إلى العذراء مرارًا وتكرارًا في اليوم "**صلّي لأجلنا الآن وفي ساعة موتنا**".

قصّة

من أروع قصص الكتاب المقدّس قصّة حدثت في تقوع. ومفادها أنّ أخًا سطا على أخيه الأكبر وقتله وكانا ولدَيْن لامرأة أرملة. ولمّا سيق الجاني أمام منصّة الحاكم كان مئات الناس قد تجمّعوا ليشهدوا كيف ينـزل العدل أشدّ العقوبات بسفّاكيّ الدماء. وما إنْ لفظ القاضي حكمه بالموت حسب الشريعة الموسويّة "**السنّ بالسنّ والعين بالعين**" حتّى اندفعت امرأة تشقّ صفوف المتجمهرين وارتمت على قدمي الحاكم تجهش بالبكاء وتقول: عفوك يا سيّدي عن ابني هذا الصغير. لقد مات ولدي الأكبر وشحن قلبي ألمًا. فاتركْ لي ولدي هذا الثّانيّ لأتعزّى به ولو قليلاً عن مصابي وإلاّ لن تطول أيّامي من بعدهما! في تلك الأثناء جمد الدم في أجسام الحاضرين وشخصت عيونهم إلى القاضي وإلى الأمّ الجريحة كأنّ على رؤوسهم الطير يتوقّعون كلمة الفصل. وتصارعت في رأس القاضي فكرتان: العدل الذي فرضه القانون ليحمي المجتمع من الأشرار وحنان هذه الأمّ التي لا بدّ أنّها تموت إذا حُكم على ولدها الثّانيّ بالإعدام. وانتصرت في ضميره فكرة الرحمة على العدل فتفرّس في الأمّ وقال لها: قومي يا امرأة هذا ابنك خذيه وانصرفي إلى بيتك لقد عفوت عنه.

هذا هو موقف العذراء. لقد اعتدى الإخوة الصغار بخطاياهم على ابنها البكر فحرموه الحياة. وها هي الآن في السماء وفي كلّ ساعة تركع أمام منصّة الله الآب تناشده الرحمة وتسأله عن يعفو عن الإخوة الصغار رحمة بقلب الأمّ وتقدّم له ديّة هي آلام المسيح

بالذات وموته واستحقاقاته فدية كاملة بل فائضة عن خطايا البشر وجرائمهم بحقّ أخيهم الأكبر البكر.

ولا تزال الكنيسة تدعوها وتطلب منها أن تشفع بنا وتتعطّف علينا إذ تقول لها مرارًا: **"افتحي لنا باب التحنّن يا والدة الإله المباركة!"**.

٧٣
أمّ الرحمة

الرحمة والحنان

لا بدّ لنا، ونحن نعرض موضوع الرحمة، من أن نبيّن أوّلاً الفارق بين الرحمة والحنان. ذلك أنّ الرحمة هي فضيلة تُكتسب بتكرار الأعمال والتفكير بها وتوسيع نطاقها. أمّا الحنان فهو ميل يدلّل على ما يتمتّع به صاحبه من شعور مرهف أمام الألم والمصيبة. وليس له وجود في الله لأنّ الخالق روح محض. بينما هو من ميول الإنسان. فنحن نشعر مع الغير ونواسيهم في آلامهم ومصابهم إمّا لأنّنا أُصبنا في الماضي بما أُصيبوا هم به أو قد نُصاب بما هم مصابون به. وقد لا ينجو الإنسان، وهو منحنٍ ليضمّد جروح مسكين، من فكرة خوف كأنّها تهدّده هو أيضًا.

أمّا الرحمة فهي على عكس ذلك، إذ هي في الواقع من عالم الإرادة ولا محض شعور. وهي من صفات الأشخاص الأقوياء والطيّبين الكرام الذين يشعرون من نفوسهم بالقدرة على مساعدة ونصرة الغير ومدّ يد المعونة. فالرحمة بهذا المعنى من صفات الله ومن أسمى مظاهر قدرته وصلاحه.

وأنّ مريم العذراء تشارك الله عن كثب في صفته هذه. وبما أنّها بشر فهي تشعر بأنّ نفسها تتضافر فيها الرحمة والحنان.

أسباب الرحمة

وقد دُعيت مريم **"أمّ الرحمة"** لأنّها أمّ النعمة الإلهيّة. وأنّ هذا اللقب لائق بها جدًّا لأنّها أمّ الله مصدر النعمة، كما أنّه لائق بها لأنّها أمّ الفاديّ. وقد شاركته خاصّة على الجلجلة في عمل الفداء. ثمّ إنّ هذا اللقب يضفي عليها شعاعًا يجذب إليها الخطأة وكلّ نفس متألّمة.

وأنّ وجود مريم في السماء جعل لنا منها شفيعة نعتمد عليها كلّما شعرنا بأنّ عينيّ الربّ تشخصان إلينا غاضبتَيْن بسبب خطايانا وكلّما ثقلت علينا وطأة المصائب الدنيويّة والروحيّة منها بنوع خاصّ.

ومن شأن مريم أن توفّق في السماء بين العدل والرحمة وأن تجعل، كما يقول القدّيس يعقوب الرسول: **"الرحمة تفتخر على الدينونة"** أيّ على العدل. ولا نخال الله يستطيع أن يرفض لها شيئًا بعد أن رفعها على جميع الخلائق وأفاض على نفسها كلّ نعمة وبرّ.

وبواسطتها نستطيع أن ننال غفرانًا عن خطايانا. والغفران معناه أن نحصل على أكثر ممّا نستحقّ عندما ننال الحلّ من خطايانا.

وبها نستطيع أن نفهم معنى جديدًا للألم، وهو أنّ الألم ليس فقط عنصرًا يعذّبنا ونئنّ تحت وطأته. ولكنّه عنصر يستطيع أن يشفينا من عاهاتنا ويقوّم ما اعوجّ فينا ويردّنا إلى طريق الخير.

وقد أنشد لها المنشدون في الكنائس فقالوا: **"يا شفاء المرضى، يا معزّية الحزانى، يا معونة النصارى"**، وذلك ما ينشده أعضاء الأخويّات والمشتركون معهم كلّما اجتمعوا لإكرام العذراء. ومعنى ذلك أنّ العذراء التي دُعيت لأن تكون الطبيب والدواء الشافيّ من آلام الجسد هي أيضًا بلسم العزاء لكلّ نفس تئنّ من رزء ذلك الألم.

بقي أن نفصل معنى تلك الطلبات الثلاث.

أوّلاً- **"يا شفاء المرضى"**

لقد منحت العذراء الشفاء لعدد لا يحصى من المرضى بطرق ربّانيّة أو عجائبيّة على مدى الأجيال وفي كنائس كثيرة. ولو أردنا أن نحصي حوادث الأشفية لتعذّر علينا الوصول إلى حاصل صحيح. والعذراء لا تشفي من أمراض الجسد، على العموم، إلاّ لتقود إلى شفاء النفس.

فهي تشفي من جروح النفس الروحيّة الأربعة الناتجة عن الخطيئة الأصليّة وهي الشهوة والمرض والجهل والخبث كما تشفي النفوس من الخطايا الشخصيّة.

١- تشفي من شهوة الجسد، إذ تضعف في الإنسان الاندفاع نحو الميول المنحطّة وتحطّم فيه الغرائز الإجراميّة ثمّ تزرع في نفسه ميلاً نحو الخير يكيه ليدفع به الرغبات الدنيئة، فلا تستهويه أمجاد العالم ولا أباطيله ولا أمواله. فهي إذن تشفي من شهوة الجسد وشهوة العين.

٢- أمّا ضعف الإرادة فهو كسل روحيّ يوهن في الإنسان الرغبة في الخير. ومهمّة العذراء مريم أن تبعث في الإرادة نشاطًا وقوّة لتسعى وراء الفضيلة وتحتقر الدنيا. فهي بهذا المعنى سند الضعفاء ومنهضة الساقطين.

٣- تبدّد ظلمات الجهل بحيث تزوّد العقل بما يكفيه من عِلم في الدين ليتفهّم الوحي في أساسه. وقد صرّح بعض الكتّاب الروحيّين بأنّها قوّمت عقول بعض الجاحدين وردعت بعض المجرمين عن غيّهم وأنارت طريق الضالّين وشجّعت الباحثين في بحوثهم والكتّاب في مؤلّفاتهم.

٤- وأخيرًا تشفي من أمراض النفس أولئك الذين تردّوا في الشرّ وأمعنوا في الضلال والتمرّد.

وقد تتّخذ لها إلى النفوس طرقًا عدّة: فتسبغ على بعضها نعمًا نادرة من شأنها أن تقود إلى الله أولئك الخطأة. أو تلحق ضررًا بالجسد أو المال أو تبتلي العقل أو الإرادة. ولا يصحو الإنسان منها إلاّ ليرتدّ عن الغواية إلى طريق الخير والصلاح.

ذلك ما فعلته يومًا مع شاب يهوديّ يُدعى ألفونس راتزبون إذ دخل كنيسة في روما للتعرّف والإستطلاع. فظهرت له فجأة العذراء وأشارت إليه بلطف أن يركع فانصاع

لإشارتها ووقع في غيبوبة. ولمّا أفاق منها طلب أن يُمنح سرّ العماد. وهو الذي أسّس فيما بعد بمعاونة أخيه جمعيّة آباء وراهبات صهيون التي فيها يكرّس الراهب والراهبة حياتهما للصلاة والتقشّف في سبيل ارتداد اليهود وجلبهم إلى حظيرة المسيح. وتسمعهم كلّ يوم يردّدون أثناء ذبيحة القدّاس الصلاة التالية: "**يا أبت، اغفر لهم لأنّهم لا يدرون ما يفعلون**".

ثانيًا- "**معزّية الحزانى**"

كان على مريم أن تقوم بوظيفة معزّية الحزانى نحو سيّدنا يسوع المسيح خاصّة عندما كان على الصليب. ثمّ نحو الرسل بعد صعود المعلّم إلى السماء إذ كانوا معرّضين لأقصى التهديدات في حياتهم الشخصيّة وفي الإنجيل الذي حملوه بشارة إلى العالم اليهوديّ والوثنيّ. فكانت تشجّعهم وتصلّي من أجلهم ليمنحهم الله قوّة على المحن وفرحًا في الشدائد. وكانت تحرّضهم على أن يؤدّوا الشهادة بصبر وبطولة. وكانت بمثال حياتها ترسم للكنيسة الناشئة رمزًا حيًّا للصبر والإيمان والثبات.

ولقد ألهمت بعض القدّيسين فجعلتهم على مثالها صبورين في المحن، فرحين في الشدائد.

ولقد دُعي الروح القدس "**المعزّي**" لأنّه يحمل الخطأة على البكاء والدموع التي تغسل الخطايا وتعيد إلى النفس هدوءها. وللسبب نفسه دُعيت مريم "**معزّية الحزانى**" بمعنى أنّها تدفع الخطأة إلى التوبة والبكاء عن الماضي.

ومن أجمل ما تفوّه به القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ قوله في خطبة عن رقاد العذراء: "**يا مريم ليس الموت هو الذي جعلك سعيدة بل أنت شرّفت الموت وجعلت مذاقه عذبًا إذ جرّدته من صبغة الحزن والكرب**".

ولا يسعنا أن ننسى ما تقوم به العذراء نحو النفوس التي تتألّم في المطهر. فهي التي تلهم المؤمنين على الأرض أن يقدّموا الذبائح والصلوات من أجل النفوس المعذّبة في المطهر.

ثالثًا- "**معونة النصارى**"

إنّ حبّ العذراء مريم لله وكنز النعم الذي امتلأت به نفسها يدفعانها إلى محبّة البشر محبّة تفوق محبّة جميع القدّيسين والملائكة معًا.

والحافز لهذا الحب وهو أنّ النفوس مشتراة بدم ابنها الإلهيّ فهي تسهر عليها في الشدائد والمحن وتساندها لممارسة جميع الفضائل.

وقد حرّض القدّيس برنردس المؤمنين على أن يلجأوا إلى مريم في مختلف الشدائد والمحن فيقول: "**إذا عصفت بك التجربة وحاول سيل الإضطرابات أن يجرفك فتطلّع إلى هذا النجم اللامع واستنجد بمريم. وإذا تلاطمت في نفسك أمواج الكبرياء والطمع والنميمة والحسد وتدافعت حتّى تكاد تبتلعك في غمرها فتطلّع إلى النجمة واستنجد بوالدة الإله. وإذا تلاعبت أهواء الغضب والبخل أو نزوات الشهوة بمركب عقلك الواهيّ وهدَّدت بتحطيمه فاتّجه بأنظارك نحو مريم. لا يبتعدنَّ أبدًا ذكرها عن قلبك وليردّد فمك دومًا اسمها... ولا تنس أن تسير إثر خطواتها تستفد من ثمار صلاتها**".

وقد كانت مريم دائمًا عونًا للأفراد والجماعات. ويذكر لنا بارونيوس أنّ نرسيس قائد جيوش الإمبراطور يوستنيانوس أنقذ إيطاليا سنة ٥٥٣ بشفاعة والدة الإله من عبوديّة الجوط. ويروي لنا الكاتب نفسه أنّ مدينة القسطنطينيّة نجت سنة ٧١٨ بشفاعة مريم من العرب الذين حاولوا مرارًا في عهد معاوية وابنه يزيد الاستيلاء عليها، فرُدّوا على أعقابهم. وسنة ١٥٧١ في ٧ تشرين الأوّل في مدخل خليج كورنتس لجأ المسيحيّون إلى مريم يرتّلون أبيات سبحتها فاندحر أسطول تركيّ كان أكثر عددًا وأقوى عدّة من أسطول المسيحيّين. وراح يجرّ أذيال الهزيمة.

وحينما يُسمّي المسيحيّون العذراء مريم "**سيّدة النجاة والإنتصار**" فإنّما يتذكّرون ما سجّلت مريم لهم من إنتصارات بشفاعتها.

ولهذا نرى المسيحيّين يصلّون بكلّ ثقة إلى مريم: "**السلام عليك يا أمّ الرحمة والرأفة السلام عليك يا حياتنا ولذّتنا ورجاءنا**".

وأخيرًا سُمّيت العذراء "**بأمّ الفرح المقدّس**" أو "**بسبب فرحنا**"، إذ أنّها تنال بواسطة شفاعاتها لدى الله للنفوس المندفعة السخيّة في حبّ الله فرحًا روحيًّا حتّى وسط الشدائد. فتحبّب إليهم الصليب والألم في سبيل الله.

الجزء الثّانيّ عشر
عند أقدامها

٧٤
التعبّد لمريم

لا بدّ لنا، ونحن نتكلّم في هذا الفصل على العبادة لمريم، من أن نعرّف أوّلاً معنى كلمة "**عبادة**" حتّى نجرّدها من كلّ مبالغة أو انتقاص.

العبادة المطلقة

إنّ العبادة بحصر المعنى هي الإعتراف بأنّ الله خالق وبأنّنا خليقته وبأنّ كلّ ما فينا هو منه وأنّنا عائدون إليه. فنؤدّي له بناء على ذلك فروض العبادة. أيّ أنّنا نعلن سيادته علينا ونقرّ جهارًا بأنّه مصدر كلّ خير فينا.

هذه العبادة لا تليق إلاّ بالله وحده وبإنسانيّة المسيح المخلّص بسبب اتّحادها بشخص الكلمة وبطريقة نسبيّة بصليب الربّ وصور المخلّص لأنّها تمثّل لنا شخصه الكريم. والإنتقاص من هذه العبادة وإطلاقها جزئيًّا وكلّيًّا على غير الله هو كفر، والكفر عاقبته الهلاك.

أمّا العبادة بهذا المعنى فلا يجوز ولا يليق نسبتها إلى الخلائق مهما سمت مقامًا وفضيلة. ولا يسوغ أن ننسبها إليها لا لشيء إلاّ لأنّها خلائق، والخليقة لا تُعبد. فإنّ الله لا يرضى له شريكًا في العبادة.

إكرام الملائكة والقدّيسين

أمّا الملائكة والقدّيسون فلأنّهم أولاد الله الأمناء، وأولياؤه وأصغياؤه ولأنّهم أحبّوا الله محبّة بطوليّة، فمارسوا الفضائل بشكل بطوليّ، أو استشهدوا في سبيل الله، ولأنّهم يعلمون طريق الفضيلة عمليًّا بمثالهم الحيّ، ولأنّهم ممجّدون الآن في السماء، ولأنّهم يقومون بواجب العبادة والمحبّة نحو ذلك الذي فرض علينا أن نعبده وأن نحبّه؛ فمن أجل كلّ ذلك وجب علينا أن نعظّمهم ونبجّلهم ونقدّم لهم احترامنا وتقديرنا ومحبّتنا. لهذا كلّه تُسمّى العبادة لهم إكرامًا.

الإكرام الفائق

أمّا العذراء المجيدة فنقدّم لها إكرامًا ممتازًا فائقًا خاصًّا، وذلك للأمور التالية:

١- لأنّها والدة الله.

٢- لتضحيتها في سبيله.

٣- لمحبّتها له وخدمتها إيّاه.

٤- لأنّها بزّت جميع الملائكة.

٥- لأنّها بريئة من دنس الخطيئة الأصليّة.

٦- لأنّها معصومة من كلّ خطيئة فعليّة.

٧- لأنّها شريكة في سرَّيْ الخلاص والفداء.

وهذا ما بيّنه في الشرق صريحًا القدّيس مودستوس في كتاباته في القرن السابع والقدّيس يوحنّا الدّمشقيّ في القرن الثامن، ومن الغرب القدّيس توما والقدّيس بونفنتورا ثمّ "**سكوت**" و"**سواريز**"، وجميع علماء اللاهوت في الكنيسة، كما يتبيّن ذلك من نصّ الصلوات العديدة في الطقوس الكنسيّة.

أخطار التطرّف في العبادة

وقد تطرّف بعض الناس فحدوا حتّى من معنى الآيات التي وردت في الكتاب المقدّس عن مريم العذراء وعن الأحداث التي رافقت حياتها وحياة ابنها معًا، فأرادوا أن نتقيّد بالحرف. ويقول بولس الرسول: "**إنّ الحرف يقتل**".

وقد تعرّض غيرهم من المؤمنين إلى أخطار أخرى في التعبير عن عباداتهم للعذراء مريم وذلك باستخدام بعض العبارات التي إذا ما أُخذت بمعناها الحصريّ فإنّها لا تليق إلاّ بالله.

فمحبّتنا للعذراء شيء والإنتقاص من صفاتها أو المبالغة بتلك الصفات شيء آخر. فلا بدّ لنا من أن نقيس الأمور بمقياس الواقع ونزنها بميزان الحقيقة. ولنا في صلوات الطقس ذلك المقياس وذلك الميزان، وبهما نوفّق بين العقيدة ونفثات المحبّة. ومن الثابت الواضح أنّ التعبّد للعذراء لا يُنقِصُ أبدًا من عبادة المؤمنين لربّهم، بل على العكس يؤيّد تلك العبادة ويساعد على انتشارها. فالذين يتعبّدون لمريم يعلمون العِلم كلّه بأنّ جميع النعم،

التي ينالونها بواسطة العذراء مريم وعن طريقها، مصدرها الله بالذات **"لأنّ كلّ عطيّة صالحة وكلّ هبة كاملة هي من العلوّ، منك يا مصدر الأنوار"** (من ذبيحة القدّاس) ومن المقرّر أنّ جميع القدّيسين وفّقوا توفيقًا تامًّا بين عبادتهم لله وتعبّدهم للعذراء.

ومن الثابت أيضًا أنّ التعبّد للعذراء يؤدّي إلى تقوية الإيمان بلاهوت المسيح فإنّنا نكرّم العذراء بوصفها أمّ الله. ومعروف أنّ العذراء لا تطمع بعبادة المؤمنين لذاتها، وإنّما هي ترغب في تلك العبادة لتحمل النفوس عن طريقها إلى عبادة الله وعبادة المخلّص.

المبادئ السليمة

ولكي نتعبّد لمريم عبادة صحيحة لا بدّ لنا من أن نعود إلى المبادئ الأساسيّة السليمة. فإنّ ما لديها من الصفات لأكثر ممّا يلزم ليُضفي عليها وشاحًا فتّانًا يجذبنا إليها دومًا ويحبّب إلينا خدمتها والإنضواء إلى أخويّاتها. فبالإضافة إلى أنّها تفوق جميع القدّيسين والملائكة قداسة وبرارة، وفضلاً عن أنّها أمّ الله وأنّها الشريكة في عمل الفداء، نذكر لمريم أنّها:

أوّلاً- ملكتنا. وذلك لأنّها أمّ ملك الملوك وسيّد السادة، ذاك الذي نفخر ونتشرّف بأنّنا من تبّاعه ومن شعبه. فهو ملكنا وهي الملكة الوالدة. ونحن من تبّاعها أيضًا إذ بمشاركتها في سرّ الفداء قد افتدتنا واشترتنا من لعنة الموت والهلاك الأبديّ. فمنذ ذلك أصبحنا ملكًا لها وتبّاعًا منضوين تحت خدمتها. ولا نبالغ إذا قلنا أنّنا قد أصبحنا بذلك عبيدًا لها.

ثانيًا- إنّها نصيرتنا ومحاميتنا وملجأنا. ولا يمكن أن نجد لنا نصيرة أشدّ منها بأسًا وأوسع تضحية. ولا يمكن أن نجد لنا محامية على مثالها، تنال من الله كلّ ما تريد. وأخيرًا فهي الملجأ الذي نحتمي به كلّما اشتدّت علينا الأخطار هولاً وأحاطت بنا الويلات والشرور.

وفي السماء ليس للعذراء مهمّة، من بعد عبادة الله، إلاّ أن تشفع فينا وتدافع عنّا وتنال لنا النعم التي تؤدّي بنا إلى الخلاص.

ثالثًا- مريم هي أمّنا. فلقد وهبها المخلّص وهو على الصليب حينما قال لها: هذا ابنك، وهبها جميع أبناء البشر وعلى مدى الأجيال أولادًا لها. ولقد سكب في قلبها من المحبّة الوالديّة ما يكفي لتغمر به البشريّة بأسرها، وتنيلهم حاجاتهم ومطالبهم، حتّى أنّه لو جمعت كلّ عواطف الأمّهات وحنانهنّ لَما كانت إلاّ غيضًا من فيض أمام حبّ مريم الشامل. وأنّه لَمِن الطبيعيّ أنّ مريم لا تستطيع إلاّ أن تحبّنا لأنّ كلّ نفس من نفوسنا كلّفت وحدها ثمن الدم الكريم. ومن المقرّر أنّ الأمّ تحبّ من أولادها، أكثر من سواه، ذلك الذي قضت تربيته أو تنشئتُهُ أن يُبذَل في سبيله عناء أكبر وعناية أعظم ودموع أغزر. وأيّة تضحية أعظم من التي قامت بها العذراء مريم لتنقذ النفوس من الموت والهلاك الأبديّ! وهذا هو مقياس حبّ مريم لأبناء البشر.

تأثير عبادتها على العالم

ولكي ندرك مدى تأثير عبادة مريم على عالمنا، فلنفترض بعقولنا ولنتصوّر بأذهاننا أنّ كلّ المعابد والهياكل التي شُيّدت على اسم العذراء قد انهارت، وأنّ كلّ صورها قد تحطّمت، وأنّ كلّ العذراى اللاتي نذرن نفوسهنّ وقلوبهنّ لها قد اختفين، وأنّ كلّ الأناشيد والأصوات قد انخفتت، وأنّ جميع آلات الإنشاد قد تعطّلت، وأنّ جميع الكتب التي قرّظتها وأبيات الشعر التي تغنّت بجمالها وفضائلها قد أُحرقت، وأنّ جميع الدموع التي تسيل على وجنات الخطأة والمرتدّين قد جفّت، وأنّ جميع الشفاه التي تتمتم بالصلاة لها قد كُمّت، وأنّ بعض السطور القليلة التي جاء بها الإنجيل قد انطوت تحت النسيان، وأنّ جميع الأنوار المنبعثة من جبينها وعينيها ويديها حتّى ومن قلبها قد انطفأت، ألاّ يتحوّل، بعد هذا، عالمنا إلى ليل مظلم، وجوّ أشبه بالجوّ الذي يغمر القطب، حتّى لتضيع عنّا ملامح عالمنا الخاصّ؟

أنا لا أنكر أنّ في عالمنا فضائل وجمالات وبطولات، ولكنّها شاحبة، بدون إشعاع، بدون حياة. وأنّ ما يشوّه وجه الجمال والفضيلة والبطولة في هذه الدنيا هو الأنانيّة والمجد الباطل اللذان تعلّق بهما قلوب الناس وعيونهم.

رائعة في جمالها

أمّا جمال مريم وفضائلها وبطولاتها فلا تشوبها شائبة ولا ينقص شيء من قدرتها وإشعاعها.

إنّها مثال لكلّ مكرّمة وكلّ فضيلة. فلا غرابة في أن يندفع الناس وراء حبّها اندفاع الإنسان إلى حاجاته الضروريّة للحياة. لقد استولت على عواطف الناس السامية بطهارتها، وعلى عقول الناس حتّى العباقرة منهم، فكانت لغير واحد منهم المصدر الذي منه استوحى واغترف. وعنها نقل أرباب التصوير خطوط اللوحات فتحوّلت تحفًا من الفنّ خالدة. وفي مقدّمة هؤلاء الكتّاب والفنّانين الذين أبدعوا في إنشادها ورسم ملامحها وتصوير فضائلها: القدّيس "**برنردوس**" و"**دانتي**" و"**أنجليكو**" و"**فرانك**". ولا يختفي من هذه اللائحة ويغيب عنها إلاّ أسماء بعض مَن استهواهم الغرور والطمع بالدنيا. أمّا باقي البشر فأحبّوها وتعلّقوا بها تعلّق الإنسان بالخير الأسمى وتمسّكوا بها تمسّك الإنسان بالكنـز الثمين.

دليل الفنّانين العباقرة

وإذا رجعنا إلى التحف الفنيّة التي انتشرت انتشار المسيحيّة والحضارة السليمة الرفيعة، وجدنا لها، في كلّ أرجاء الدنيا، صورًا تنطق بمجدها ورخامًا يمثّل فضائلها وخشبًا وعاجًا يرمزان إلى وجهها. ومع ذلك فليس أحد من أولئك الفنّانين يجهل أنّه لم ينقل عن العذراء إلاّ بريقًا من جمال نفسها. وإذا ما امتاز أحدهم بإبراز شعاع ضئيل من نفسها الهادئة البهيجة فقد فات السواد الأعظم منهم أن يبرزوا كثيرًا غيرها من تلك الصفات كالتي تصوّر لنا نفسها المتألّمة بسبب خطايا البشر وعنادهم وعدم اكتراثهم، وقلبها الجريح على ابنها الذي رُفع على الصليب.

وإذا وجدنا من التماثيل والصور والأيقونات لمريم العذراء هذا العدد الكبير، ذلك أنّ أرباب الفنّ عجزوا عن أن يجمعوا، في تحفة واحدة، كامل صفاتها.
والدليل على عجزهم أنّهم نقلوا عن السماء صفاءها وزرقتها، وعن النجم وميضه، وعن الشمس حرارتها، وعن القمر استدارته، وعن عروش الملوك مجدها وعظمتها، وعن البحر أمواجه، وعن البلابل صداحها، وعن الربيع حيويّته، وعن النوابغ ذكاءهم، وعن العاصفة زمجرتها، وعن الأمّ حنانها... وجمعوا كلّ ذلك وألّفوا منه صورة رائعة، غير أنّها بقيت عاجزة عن أن تمثّل صفات العذراء مريم.
ولكن من الثابت أنّ كلّ نبضة تنطلق من قلب مؤمن، محبّ، طاهر السريرة، لَهي عبادة تفوق بجمالها وبهائها كلّ التحف الفنيّة. ومنذ أجيال والعالم يوطّد أركان هذا الجبل الشامخ من العبادة والصلاة لمريم.
وإذا لجأ إليها الأفراد والجماعات يستدرّون من شفاعتها ووساطتها ما هم بحاجة إليه، فإنّهم مع ذلك يتقرّبون منها ليشيدوا بمجد قداستها ويعظّموا فضائلها ويقتفوا آثارها.
وأنّ مريم تتقبّل، بصدر رحب وقلب والديّ، كلّ لون من ألوان العبادة لأنّه "**لم يُسمع قطّ أنّ أحدًا التجأ إليك وطلب معونتك ورُدّ خائبًا**".

عرَضَها المسيح للعبادة

ولقد أشار السيّد المسيح وهو على الصليب إلى أمّه الواقفة بقربه وقال ليوحنّا: "**هذه أمّك**" ومن المقرّر أنّ المسيح حسب تعليم الكنيسة قدّم أمّه ليس ليوحنّا فحسب بل لجميع المؤمنين وقصد بتقدمتها هذه أن تكون موضوع إكرام ومحبّة الشعوب؛ ومعنى ذلك أيضًا أن نتّخذها نحن أمًّا لنا حبيبة ونكون لها أولادًا أُمناء كما اتّخذها يوحنّا الحبيب إلى خاصّته.
ومن الخير أن يستعرض الإنسان التطوّر في العاطفة البنويّة ونشوءها على مدى الأجيال، لدى الأفراد والجماعات في إكرامهم ومحبّتهم لمريم.

عبادات الشعب لها

وأولى العواطف تلك التي تنشأ لدى الأطفال والصغار وتعمّ الكبار والشيوخ والخطأة والقدّيسين والعلماء والأمّيّين الذين يشعرون بارتياح حينما يدخلون كنيسة شُيّدت على اسم العذراء أو يقتربون من إحدى صورها أو أيقوناتها أو يركعون عند درجات هيكل من هياكلها. قد تتلوّن تلك العواطف إلى ما لا نهاية له ولكنّها لا تختلف البتّة عمّا يشعر به الطفل من سعادة وارتياح حينما يكون في حضن أمّه أو بالقرب منها.
ويندفع الجميع بميل بدهيّ وشعور طبيعيّ ليفتحوا قلوبهم ويعرضوا على مريم أفراحهم أو أحزانهم، نجاحهم أو انخذالهم. وقد يعبّر بعضهم عن ذلك بالكلام بينما يغشى نفوس الآخرين جوّ من الصمت الهادئ الخاشع، فتراهم بقربها يبتسمون أو يبكون.

النذور لمريم

ولا بدّ من أن يلاحظ المراقب العدد الكبير من النذور التي تنتشر على صور العذراء أو تماثيلها في كنائس الدنيا كلّها وخاصّة على تمثال الأمّ الحزينة الواقفة داخل كنيسة الجلجلة بقرب الصليب. فالنذور والهدايا والتحف تقدّر بالملايين. وقد امتدّت أيدي الأشقياء فنزعت عنها بعد الحرب العالميّة الثانية تلك التحف. ولكن ما لبثت أن امتلأت الخزانة البلّوريّة بتحف لا تقلّ عن السابقة ثمنًا.

ويكفي أن نلقي نظرة على هيكل ارتفعت عليه صورة للعذراء أو تمثال لها في شهر أيّار المخصّص لإكرامها، ولو في كنيسة صغيرة لقرية نائية، حتّى نجد عشرات الباقات من الزهور أُلقيت عند أقدامها. وكأنّ نفوس المتعبّدين لها تبغي، تعبيرًا عن إيمانها، أن تجعل كلّ غال رخيصًا في سبيلها وأن تسخّر الدنيا بأسرها لإكرامها وتمجيدها.

وفي زياراتنا لبعض الكنائس وجدنا على صور العذراء قطعًا من القماش الرخيص الباليّ، وقد وضعها ناذروها ليشكروا للعذراء منّة نالوها بواسطة شفاعتها فأرادوا أن يعترفوا لها بالفضل والجميل بهذه الطريقة. كنّا نتمنّى ألاّ تكون تلك الأسمال، التي لا تمتّ إلى الفنّ بصلة، معلّقة هكذا على صور أو تماثيل العذراء. وفي كثير من كنائس بلادنا ثار الأساقفة وكهنة الرعايا على تلك الأسمال، وجرّدوا منها الصور والتماثيل حتّى تبدو لأنظار المتعبّدين. ولكنّنا لا نستطيع إلاّ أن نحترم ونقدّر عواطف الذين قدّموها لأنّها صادرة عن أناس فقراء الحال، وأنّ مريم لتقدّر لكلّ إنسان موقفه في البذل والعطاء إذ الشيء لا يقدّر بقيمته الماديّة وإنّما بالعاطفة التي دفعت إليه، وعاطفة هؤلاء الفقراء ليست بأقلّ قيمة من عواطف الذين يبذلون عن سعة المال الوفير لتزيين الكنائس. وإنّنا لنذكر في هذا المجال كيف أنّ المعلّم، إذ كان يومًا في الهيكل، وقف يراقب حركة الذين يرمون التقدمات فشاهد امرأة أرملة فقيرة رمت فلسًا واحدًا، فأعلن عندئذ أنّها أعطت كثيرًا لأنّها أعطت عن عوز.

فوائد التعبّد لها

أمّا الفوائد التي يجنيها المتعبّدون من إكرامهم لمريم فلا يمكن أن يحصيها تعداد: فهي تجذبهم إليها ليتشبّهوا بفضائلها وينقلوا إلى نفوسهم ملامح نفسها؛ وهكذا تقودهم بطريقة ناجعة إلى الخلاص. لأنّ لمريم الحقّ في أن تنال لمحبّيها نعمة الثبات الأخير. ومن المقرّر أنّ عبادة مريم الحقيقيّة الصادقة الأمينة حتّى النهاية هي ضمانة أكيدة للخلاص الأبديّ وعلامة للاختيار. أجل! إنّ مريم لا تؤكّد لنا تأكيدًا لا يقبل الجدل أنّ مَن يحبّها ينال الخلاص، إلاّ أنّها تعطي محبّيها أملاً وطيدًا في الحصول على الخلاص. وهذا الأمل الوطيد الثابت يستند إلى شفاعة مريم وإلى عطفها على الذين يحبّونها.

ويؤكّد لنا القدّيس ألفونس في كتابه الشهير "**أمجاد مريم**" أنّه لا يهلك واحد من أولئك الذين يخلّصون العبادة لأمّ الله إذ يقول: "**لم يُذكر قطّ أنّ أحدًا لجأ إليك وعاد خائبًا**".

التعبير عن عبادتنا لها

أمّا العناصر التي تتكوّن منها عبادتنا لمريم العذراء فهي ثلاثة: الإحترام والثقة والمحبّة.

١- الإحترام. هو أساس كلّ عبادة. ومعناه الإعتراف بسموّ مَن نكرّمه وبتفوّقه علينا. ويجب أن يكون احترامنا لمريم عميقًا، بنويًّا وفعّالاً. آ- عميقًا، بحيث يقاس بمنزلتها وصفاتها. ب- بنويًّا، لأنّها أحنّ الأمّهات وأوسعهنّ رحمة. وفي كثير من الصور والتماثيل تبدو مريم فاتحة ذراعَيْن واسعتَيْن لتضمّ جميع أبنائها. ج- فعّالاً، أيّ أنّ عبادتنا لمريم لا يجب أن تُقتصر على عبادة داخليّة بل علينا أن نعبّر عنها بأعمال تظهر في سلوكنا وتهدينا في تصرّفاتنا وتكون القاعدة التي نتبعها في أحكامنا، وأن نلجأ إليها في الشدائد والمحن وأن نتلو سبحتها وننضوي تحت راية أخويّاتها، وأن نعظّمها لما نالته من نعم على الأرض وفي السماء، وأن نعترف بجميلها أيّ بما نناله بواسطتها من نعم ومواهب لا تُحصى. وأن ننشر فضائلها وعبادتها بين الناس، وأن نجعل صورها في بيوتنا، ونحمل سبحتها في جيوبنا، وأن نحرّض المسيحيّين على أن يحملوا شاراتها على صدورهم أو سواعدهم أو ساعاتهم وأن نحتفل بأعيادها ونزيّن هياكلها ونشيّد معابدها وأن نشترك في الصلوات الطقسيّة المخصّصة لها كصلوات المدائح مساء كلّ يوم جمعة من الصوم الكبير وصلوات الباركليسيّ في الأيّام السابقة لعيد السيّدة وأن نقوم ببعض التضحيات والأماتات استعدادًا لكلّ عيد من أعيادها، وفوق هذا كلّه يجب أن نعبّر لمريم التعبير الصحيح عن عبادتنا لها بالتشبّه بفضائلها وعلى الأخصّ بإيمانها وثقتها بالله وتواضعها العميق وطهارتها.

٢- الثقة. يجب ألاّ تقلّ ثقتنا بالعذراء عن احترامنا لها. وثقتنا بها تستند إلى ما لها من دالّة على الله وإلى حبّها للبشر. فكلّما شعرنا بالفقر وجب علينا أن نرمي بنفوسنا في أحضان تلك التي نالت وتنال لنا كلّ النعم. ولا بدّ لهذه الثقة من أن تكون ثابتة وشاملة ودائمة. ولكي نثق بمريم تلك الثقة الوطيدة علينا أن نتذكّر دومًا بأنّ مقدرتها لا تقلّ عن رحمتها في شيء، وأنّ رحمتها كمقدرتها لا حدّ لها. هكذا يجب أن تكون ثقتنا بالعذراء. وقد قال أحدهم: **"إنّ مريم العذراء لم تُدعَ إلى أن تكون أمًّا لله إلاّ لتكون أمّ الرحمة"**. وقد قال كاتب آخر **"ما الذي تستطيع أن ترفضه أمّ الرحمة بعد أن وهبتنا ابنها الوحيد ليخلّصنا؟ وما الذي لا تستطيع أن تهبنا إيّاه وهي تتمتّع بسعادة السماء، على الوجه الأكمل، بعد أن ولدتنا بالأوجاع؟ لا شكّ أنّها لم تعد تشعر في السماء بالعطف الممزوج بالحزن ولكنّها تشعر بالعطف الكامل، ولذلك أصبح من المحال أن ننسى أفضالها التي تعود علينا بالمجد والفائدة"**.

وكذلك يجب أن تكون ثقتنا بها شاملة لأنّها قادرة على سدّ كلّ حاجاتنا. ولذلك علينا أن نلجأ إليها في حاجاتنا الجسديّة والروحيّة معًا، أن نسألها من أجل نفوسنا كما نسألها من أجل الذين نصلّي من أجلهم، أن ندعوها في ساعة التجربة وإبّان المحنة، في الحزن الذي يشدّ على نفوسنا وفي اليأس الذي يضعف إرادتنا. منها نستدرّ القوّة والعون والمساعدة والنعمة. ولنا في الكنيسة أفضل مثال على هذه الثقة وهذا الأمل. فإنّ الطقس الكنسيّ يعجّ بأمثال تلك الصلوات.

ويجب أخيرًا أن نلجأ إليها دومًا. ذلك لأنّ حاجاتنا تنشأ بصورة دائمة. فهنالك أعداء خلاصنا: العالم والجسد والشيطان يهدّدوننا دومًا بالهلاك الأبديّ. ولذلك فإنّ مريم تحثّنا دومًا على الصلاة. ونحن نعلم أنّ أيّ لون من الصلوات التي نرفعها لمريم لا تُردّ ولا تُخيب.

وإذا أنعمنا النظر في الصلوات الطقسيّة رأينا أنّ اسم مريم يسير دومًا بجانب اسم المسيح الوسيط الأوّل والأسمى.

٣- المحبّة. إنّ مريم هي أمّ الجميع وكلّ إنسان يعرف مدى حبّها للبشر بنوع عامّ، وللأفراد بنوع خاصّ. يلجأ المرء إليها كما يلجأ الطفل إلى أمّه موقنًا بأنّها لا ترفض له شيئًا. والمحبّة لا تقابل إلاّ بالمحبّة. وهي لا ترضى عن حبّها لنا بديلاً غير محبّة قلوبنا. ومن الطبيعيّ أن يسمو الإنسان بمحبّته إلى درجة المحبّة التي يُعامل بها؛ ولذلك علينا أن نقدّم لها بدل محبّتها لنا محبّة ابنها الإلهيّ.

بل أنّ ما تتمتّع به مريم من صفات يجعلها، بعد الله، أقرب الخلائق وأحبّها إلينا. إنّ الله الذي أفاض على نفسها كمال كلّ نعمة، زيّنها بأجمل صفات الجسد والعقل والإرادة، وبالتالي حقّت لمريم على البشر عبادة خاصّة منشأها المحبّة.

فعلينا إذن أن نغتنم كلّ فرصة ونستفيد من كلّ مناسبة لنعمل ما يرضيها ونبتعد عن كلّ ما يسيء إلى شعورها بوصفها أمّ الله وأمّنا. ومن صفات المتعبّدين، في الدرجة الأولى، بغضهم للخطيئة. لأنّه لا شيء أقسى وأمرّ على قلبها من إهانة الله تعالى بالخطيئة.

ولذلك كان من واجب الذين انتموا بنوع خاصّ إلى الرهبانيّات التي تحمل اسم مريم أو انضووا تحت اسم أخويّاتها أن يسعوا سعيًا حثيثًا في الإبتعاد عن الخطايا المميتة فضلاً عن الخطايا الطفيفة.

٤- التشبّه بها. من المقرّر أنّ أفضل ألوان العبادة لمريم العذراء هو التشبّه بفضائلها. لأنّ كلّ عبادة تتوقّف عند الإحترام والثقة والمحبّة ليس إلاّ تكون غير كاملة، فمريم ليست موضوع إعجاب وتجلّة فحسب بل أنّها مثال لنا في كلّ مكرّمة وفضيلة حتّى البطولة. ويمكننا القول بدون تردّد أنّ مريم نموذج كامل لكلّ فضيلة بعد شخص المسيح.

وأنّ كلّ إنسان يجد فيها مثالاً يقتفيه، مهما كانت حالته ومكانته الإجتماعيّة وجنسه. لا شكّ أنّه ليس في مقدورنا أن ننجح في نقل واقتباس كلّ صفات مريم. ولكن علينا أن نسعى إليه قدر المستطاع. إنّ أرباب الفنّ الذين يقفون معجبين مأخوذين أمام التحف الخالدة التي تركها لنا كبار الفنّانين أمثال "**رفائيل**" و"**دفينسي**" يجهدون النفس في نقل ما استطاعوا نقله. وإذا كانت الصورة المنقولة لا تضارع الأصل، فهنالك منتوج منقول لا بأس به يثير الإعجاب ويريح النفس. وعليه يمكننا أن نسعى، ولا يُطلب منّا إلاّ أن نسعى في أن نتشبّه بفضائل مريم وأن ننقل إلى نفوسنا أخلاقها السامية. وأنّه لَمِن دواعي الغبطة والمجد لمريم أن نسعى جهدنا لاقتفاء آثارها والتشبّه بفضائلها. والتشبّه هذا نوع أكيد من أنواع العبادة الصادقة لأنّه احترام ممزوج بالتقدير والإعجاب والمحبّة.

٧٥
والدة الله

إكرام السماء والأرض

لقد تضافرت قوى السماء والأرض وتعاقدت لتجعل من العذراء مريم موضوع عبادة فائقة حينما رفعها الله إلى شرف الأمومة الإلهيّة وحينما توجّهت الشعوب بإيمانها وقلوبها لتنشد أمجاد والدة الله.

لقد سبق الله منذ الأزل فهيّأ مريم لأشرف مقام وأعدّ لها مجموعة من النعم الاستثنائيّة وخصّها بالإمتيازات العجيبة. وبعد خطيئة آدم ظهرت إلى جانب ابنها ظهور مخلّصة البشر المرتقبة. فالآباء بعد أن مزّقوا بإيمانهم ستار المستقبل اكتشفوا صورتها وحيّوها من بعيد. والأنبياء سبقوا وتغنّوا بأمجادها وبشّروا العالم بها وأعلنوا عن رسالتها. وهكذا بوشر بكتابة الفصول الأولى من حياتها. فليس بالأمر الغريب أن تذكر دومًا إلى جانب ذكر المخلّص المنتظر الذي سوف يتّخذ منها الحياة. أمّا الأبرار فكانوا كلّما رفعوا عيونهم إلى السماء ليطلبوا إلى الله أن تنشقّ **"ليهطل الصدّيق"**، كانت صلواتهم ورغباتهم تتّجه إلى تلك الأمّ التي سوف تعطيه الحياة. وأنّ الكتاب المقدّس في العهد القديم نسج من هذه الأفكار والصلوات صفحاته المشرقة. وكانت صورة الابن والأمّ معًا تسيطر على تلك الصفحات.

وفي حياتها على الأرض، كانت موضوع احترام وإكرام القدّيس يوسف والسيّد المسيح والرسل الأطهار. فكان هؤلاء الرسل ينظرون إليها نظرة الأبناء إلى أمّهم الحبيبة، لأنّها أمّ المخلّص والمعلّم والفادي.

وقد ازدادت محبّة القدّيس يوحنّا الحبيب لها خاصّة بعد أن صعد المعلّم إلى السماء.

ولا بدّ من أنّ المسيحيّين الأوّلين أحاطوا شخصها بهالة من المجد وأحلّوها المقام الأوّل في الكنيسة الناشئة.

أمّا بعد انتقالها فقد أخذت محبّة الكنيسة لها تتطوّر وتنتشر حتّى غَدَتْ مريم موضوع عبادة وإكرام فائق إلى يومنا هذا، وسوف يدوم هذا التطوّر حتّى منتهى العالم.

اعتقاد باطل

ولذلك كان من الخطأ الإعتقاد بأنّ العبادة لمريم لم تبدأ إلاّ بعد مجمع أفسس أيّ في مطلع القرن الخامس.

فيقول بعضهم: ما يلاحظ في ذلك الجيل أنّ بعضًا من المسيحيّين غالوا وتطرّفوا في عباداتهم نحو العذراء إذ اعتبروها إلهة. فوصفوها بأوصاف لا تليق إلاّ بالله ورفعوا لها ألوانًا من التجلّة والإكرام لا ذكر لها في القرون الغابرة. وهكذا أوجدوا سابقة لا تستند إلى الدين الصحيح ولا إلى العقائد الحقيقيّة.

إنّ هذه إلاّ إدّعاءات فارغة وأقوال سخيفة لا تستند إلى واقع من التاريخ. أجل، لم تكن العبادة للعذراء منتشرة قبل القرن الخامس انتشارها بعده كما نجدها مثلاً تنتشر وتنمو

على يدَيْ القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ في الشرق والقدّيس برنردس في الغرب. ولذلك أسباب عديدة. ولكن مهما تعدّدت تلك الأسباب وتنوّعت فإنّه لخطأ فادح أن نعتبر أنّ انتشار عبادة العذراء بدأ بعد مجمع أفسس. فهنالك قبل هذا التاريخ كنائس عديدة شُيِّدت على اسم مريم. وأيقونات لا يحصى لها عدد عُرضت على عبادة المؤمنين تمثّل كلّها أسرار مريم. ولقد شَطَّ هؤلاء المتطرّفون فادّعوا بأنّه لم يكن للبتول صورة واحدة ترمز إلى أنّها أمّ الله، أو أنّها تحمل المسيح على ساعدَيْها. ويكفي لدحض ادّعاءاتهم الإشارة إلى وجود عدد كبير من صور مريم في النواويس، بعضها يمثّلها واقفة وقفة عابد وغيرها يمثّلها حاملة المسيح على ركبتيها أو على ساعدَيْها.

والبحّاثة "**دي روسّي**" يعتقد أنّ عددًا من الصور التي تمثّل العذراء الأمّ في النواويس معاصر لنشأة الكنيسة. وعلى كلّ حال كان يُعتقد أنّها تعود إلى ما قبل منتصف القرن الثانيّ للميلاد.

القدّيس كيرلّس

وللقدّيس كيرلّس الإسكندريّ، روح ونور مجمع أفسس، حديث تفوّه به في المجمع الذي ضمّ ممثّلين عن روما وعن الشرق وعن الغرب وعن أفريقيا وعن كنائس العالم، يُعدّ أفضل وثيقة عن إيمان الكنيسة في أجيالها الأولى، وهذا نصّه:

"**السلام عليك يا مريم، يا أمّ الله، يا كنـزًا يمجّده العالم، يا نورًا دائمًا ساطعًا ويا إكليل البتوليّة والصولجان الذي يحمي العقيدة الصحيحة والهيكل الذي لا ينقض، فيه سكن مَن لا يستطيع أن يحويه شيء، أنت التي فيك يتمجّد الثالوث ويُعبد، أنت التي إليك يرفع صليب مخلّصنا في العالم أجمع، أنت التي بك السماء تنتصر، والملائكة تفرح، والأبالسة تُطرد، والخليقة الساقطة تعود إلى امتلاك الميراث السماويّ، والحقيقة تقوم على أنقاض الوثنيّة، أنت التي بك المؤمنون ينالون العماد والزيت المقدّس، أنت التي بك جميع الكنائس شُيِّدت وكلّ الشعوب جيء بها إلى الإيمان... وماذا أقول أيضًا، أنت التي بك لمع ابن الله الوحيد لمعان نور مشرق لأنظار الشعوب الجالسة في ظلّ الموت. فمَن يستطيع بعد هذا أن يمجّد باستحقاق تلك التي سمت على كلّ تمجيد؟**".

هذا صوت القدّيس كيرلّس، بل أنّ القدّيس كيرلّس يردّد صدى تقليد المسيحيّة بأسرها في إيمانها بالبتول. وآباء المجمع الذين اعتادوا هذه الأفكار لا يستغربون حديث القدّيس كيرلّس بل يصفّقون له إعجابًا وتأييدًا.

دليل الطقوس الكنسيّة

ودليل آخر على أنّ الكنيسة لم تجدّد، بعد مجمع أفسس، في عباداتها للبتول هو الطقوس التي عرفتها كنائس تبّاع نسطوريوس. وكانت تلك الكنائس قد انفصلت قبل ذلك الميعاد. فنجد أنّ طقوس تلك الكنائس قد جعلت للبتول مقامًا خاصًّا وساميًا بين العبادات،

وذلك دليل على أنّ تلك العبادات كانت منتشرة في الكنيسة قبل الإنفصال أيّ قبل القرن الخامس.

أسباب التريّث

أمّا الأسباب التي حدّت من نشاط الكنيسة، ومنعتها من أن تتوسّع كلّ التوسّع في إكرامها للبتول، فتعود إلى الظروف التي عاشتها الكنيسة في تلك الحقب وفرضت عليها أن تتوسّع في إكرام السيّد المسيح وتعظيم الشهداء.

وأخصّ تلك الأسباب هي أنّ المسيحيّين جاؤوا من الوثنيّة ونفوسهم مرتع للخرافات. فكان يخشى عليهم أن يعودوا فيروا في الدين المسيحيّ إلهة جديدة.

أمّا اليهود فكان من الصعب أن يفرض عليهم عبادات لغير الإله الواحد القدّوس. لذلك قضت الفطنة أن تتريّث الكنيسة قبل أن تنشر عبادة مريم وتتوسّع بها.

دليل الآباء

فإذا ظلّ كثير من العقائد الدينيّة، مدّة سنين طويلة، في شبه نسيان، ذلك أنّ الكنيسة حدث تاريخيّ، أشبه شيء بطفل يحتاج إلى الزمن لينمو ويترعرع ويشتدّ ويكبر.

وعندما ننعم النظر في كتابات الآباء الذين عاشوا قبل مجمع أفسس نراهم يذكرون عن العذراء كلّ التعاليم الأساسيّة، كما فعل الإنجيل المقدّس حينما عرّفنا إلى البشارة وزيارة أليصابات وولادة بيت لحم وبيت الناصرة ودالّة الأمّ على ولدها في قانا الجليل ووجودها عند أقدام الصليب على الجلجلة. وبذلك فهمنا أنّها ممتلئة نعمة وأنّها أمّ الله ووالدته ومربّيته وشريكته في سرَّيْ الخلاص والفداء.

وفي هذا كتب القدّيس أغناطيوس الأنطاكيّ قبل عام ١٠٧، وهي سنة وفاته، يقول: **"إنّ أركون هذا العالم (أيّ إبليس) جهل أنّ مريم بقيت عذراء، وأنّها حبلت بالمخلّص، وأنّ المخلّص مات. ثلاثة أسرار هامّة بقيت في سرّ الله"**.

وفي سنة ١٥٥ قام القدّيس يوستينوس بمقابلة بين ثمرة الموت وثمرة البركة وهو يقول في ذلك: "نحن ندرك أنّه (أيّ المسيح) صار إنسانًا عن طريق العذراء حتّى أنّ التمرّد الذي دفعت إليه الحيّة ينتهي بالطريقة نفسها التي بدأ بها. والحقيقة أنّ حوّاء العذراء إذ حبلت بكلام الحيّة ولدت التمرّد والموت، أمّا العذراء مريم فقد حبلت إيمانًا وفرحًا حين بشّرها الملاك جبرائيل بأنّ روح الربّ يحلّ عليها وقوّة العليّ تظلّلها، حتّى أنّ المولود منها يكون ابن الله، أجابت: **"فليكن لي كحسب قولك"**.

ومن بعده يكرّر إيريناوس المقابلة نفسها ويستنتج عنها نفس النتائج: **"كما أنّ حوّاء بتمرّدها أصبحت لنفسها وللجنس البشريّ سبب موت، كذلك مريم بخضوعها أصبحت لنفسها وللجنس البشريّ سبب خلاص"**.

المجمع النيقاويّ

ويأتي المجمع النيقاويّ ويعلنها صريحة بأنّ المسيح "**تجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء**". وهكذا فنّد قول القائلين بأنّ المسيح إله له ظاهر الجسد، أو أنّ المسيح إله يتمتّع بروح سامية. فقد أعلن المجمع المقدّس أنّ المسيح إله وإنسان في شخص واحد وأنّه ابن الله وابن العذراء مريم. فبيّن بإيجاز واضح أنّ الطبيعة الإلهيّة تنسجم وتتّحد بدون نفور مع الطبيعة البشريّة. ولا شيء يمنعنا من أن نستخلص بأنّ مريم هي أمّ يسوع الإله الإنسان وأنّها عذراء قبل الولادة وفي الولادة وبعد الولادة.

ومن المقرّر أنّ الأجيال التالية جاهدت لتذود عن سلامة وصفاء هاتَيْن العقيدتَيْن. وأنّ عددًا لا يحصى من الرهبان هجروا الدنيا وتجرّدوا عن طيّبات العالم، لكي يقتدوا بطهارة مريم، خاصّة منذ القرن الرابع. حتّى أصبحت الطهارة والقداسة صفتَيْن متلازمتَيْن تسير الواحدة إلى جانب الثّانية.

هكذا وضعت لنا الكنيسة بأناجيلها ورسلها وآبائها الأوّلين المبادئ الأساسيّة والخطوط العامّة للعبادة. وكان عليها في ذلك الوقت أن تتفرّغ لشيء آخر ليس أنّه أكثر أهميّة ولكنّ معالجته كانت تقضي الأسبقيّة في العمل.

من ذلك أنّ الكنيسة لم ترَ نور الحياة حتّى وقعت بين أيدي أباطرة وحكّام روما الوثنيّين، فأثاروا عليها الإضطهادات. فكان عليها أن تستجمع قواها لتذود عن نفسها وعن بقائها وعن المرتدّين الجدد. ولولا أنّها من الله لما كتب لها البقاء.

وكان لا بدّ للكنيسة أيضًا من أن تتوجّه بأنظارها إلى الشهداء في تلك الحقبة من التاريخ لتخلّد ذكراهم وتعظّم شأنهم. وبذلك شجّعت الأحياء على الثبات في الدين الجديد. وهكذا كان إكرام الشهداء يهيّئ إخوة جددًا يتحمّلون المعارك ويحرزون أكاليل المجد.

فلمّا زالت تلك الأسباب أخذت عبادة مريم انطلاقها وسارت في طريق لن تنتهي إلاّ بآخر زفرة ينفثها آخر مسيحيّ على الأرض.

لقد زال عهد الإضطهادات وقوي إيمان المسيحيّين وأخذت الكنيسة تنظّم حياتها في الداخل وفي الخارج وترسّخ لها مركزًا في العالم فتوسّع رتب الطقس وتنشر المعابد والكنائس وتكثر من أعياد السيّد المسيح والقدّيسين. وكان أوّل مَن أفاد من ذلك الإتجاه الجديد العذراء المجيدة. فراح الكهنة والمؤمنون والرهبان يرفعون لمريم أسمى آيات المحبّة والإحترام. واعتلى الوعّاظ ينشرون لمريم أمجادها على المنابر ويستنجدون بمعونتها جماعات وأفرادًا وينشرون لها الصور والأيقونات والتماثيل. ولن ينقطع سيل هذه العبادات بل سوف يتوسّع يومًا عن يوم ويمتدّ حتّى الحياة الأبديّة.

مراحل تطوّر عبادتها

وقد عرفت الكنيسة ثلاث مراحل هامّة جدًّا في تاريخ انتشار عبادة البتول: يوم حدّدت أنّ مريم هي "**والدة الله**" ويوم أعلنت أنّها "**بريئة من دنس الخطيئة الأصليّة**" وأخيرًا يوم أعلنت عقيدة "**انتقالها بالنفس والجسد إلى ملكوت السماوات**".

مجمع أفسس ٤٣١ وعبارة والدة الله

إنّ هذه العبارة هي أجمل ألقاب مريم بل أبهاها وأفضلها شرفًا لتلك الخليقة التي اختارها الله فأرسل كلمته الابن الوحيد ليتّخذ من حشاها جسدًا. ولكنّ هذه العبارة أثارت وما تزال تثير ضجّة بين الناس الذين يتقيّدون بمعناها الحرفيّ. وكان من الواجب عليهم أن يفهموا ما يقصد بها كما فهمها أصحاب الأفكار السليمة غير المغرضة. فممّا لا شكّ فيه أنّ هذه العبارة تحوي التباسًا ظاهريًّا. ومنشأ هذا الالتباس هو العاطفة. ولذلك كان على العقل أن يسهر على العاطفة لئلاّ تجنح نحو الضلال، خاصّة حينما يكون الموضوع من عالم الفكر. وأنّ أمثال هذه العبارات تحمل الإنسان بسهولة إلى أن يجنح عن طريق الحقّ. ولذلك جاءت المجامع المقدّسة تحدّد لكلّ عبارة معناها الخاصّ. وكم من زلّة قدم أدّت بأصحابها إلى الخروج عن حظيرة الكنيسة.

وقد فضّل بعضهم عوضًا عن عبارة **"والدة الله"** عبارة **"أمّ المسيح"** مع أنّ النتيجة واحدة لأنّ في المسيح شخصًا واحدًا ومن المقرّر أنّ النسبة في الأمومة هي للشخص وليست للطبيعة.

إنّ عبارة **"والدة الله"** أو **"أمّ الله"** هي من صنع الشعب والمؤمنين، فكان على الكنيسة أن تتدخّل في الموضوع لتحدّد بالتدقيق معنى الولادة والأمومة وهذا ما فعلته في مجمع أفسس في ٢٢ حزيران عام ٤٣١ حيث اجتمع أكثر من ١٥٠ أسقفًا وترأس ذلك المجمع القدّيس كيرلس بطريرك الإسكندريّة في كنيسة **"القدّيسة مريم والدة الله"** وهو المجمع المسكونيّ الثالث.

ولدى انعقاد أوّل اجتماع أعلن الآباء باتّفاق الأصوات أنّ مريم هي **"والدة الله"** وأشعل الحماس قلوب الحاضرين فخرجوا إلى الشارع في مساء ذلك اليوم. وكان شعب أفسس كلّه واقفًا تحت النوافذ يترقّب إعلان الحقيقة وتحديد المجمع في موضوع يعزّ على كلّ مَن أحبّ مريم. وسار الشعب كلّه وعلى رأسهم الأساقفة يقطعون شوارع المدينة والمشاعل بأيديهم، والنساء يحملن المباخر، والكلّ ينادون بأنّ مريم هي **"والدة الله"**. وهكذا انضمّ صوت الشعب إلى صوت آباء المجمع وكلّهم يستوحون من الله الحقيقة التي هي أشرف ما أنعم الله به على أمّه الطاهرة.

مستندات العقيدة

من السهل أن نرى في العقيدة التي أعلنت مريم أمّ الله نتيجة حتميّة ومنطقيّة لتجسّد الكلمة، إذ أنّ في المسيح طبيعتَيْن: إلهيّة وإنسانيّة، وشخصًا واحدًا لا غير. وقد قلنا أنّ الأمومة لا تنسب إلى الطبيعة بل إلى الشخص، فأمّ يسوع هي أمّ شخص الكلمة المتجسّد، وما أكثر الأدلّة على ذلك.

أوّلاً- في الكتاب المقدّس

١- إنّ المصدر الأوّل والرئيسيّ الذي نعود إليه لنستوضح معنى العبارة **"والدة الإله"** هو مطلع إنجيل القدّيس يوحنّا الحبيب كاتب الإنجيل الرابع.

بعد أن يثبت أنّ المسيح هو الكلمة يبيّن أنّ الكلمة هو الله، به كُوّن كلّ شيء. وأنّه مصدر الحياة. وقد جاء إلى خاصّته مخلّصًا. وأنّه تأنّس متّخذًا جسدًا. وأنّه وحده يستطيع أن يخبر عن الآب السماويّ لأنّه ابن الله الوحيد.

"في البدء كان الكلمة وكان الكلمة الله"

"به كُوّن كلّ شيء وبدونه لم يكن شيء واحد ممّا كُوّن"

"فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس"

"أتى إلى خاصّته والكلمة صار جسدًا وحلّ فينا"

"وقد شاهدنا مجده مجدًا من الآب لابنه الوحيد"

"الله لم يره أحد قط، الإله، الابن الوحيد، الذي في الآب"

"هو نفسه قد أخبر"

نصّ واضح ما بعده وضوح، لا يترك مجالاً للشكّ. ولا مِراءَ ولا جدال أنّ المتجسّد في حشا مريم هو ابن الله، الكلمة الله.

وأنّ ما يثير إعجابنا في هذا العرض هو البساطة في التعبير، فإنّه أبعد ما يكون عن الكلفة والتصنّع. وقد سما القدّيس يوحنّا بوصفه حتّى حلّق إلى العروش العليا وغاص في الماضي فتحدّى أفق المحدود وعاد بنا إلى الزمان فكشف الستار عن الكلمة المتأنّس في حشا مريم.

٢- هذا هو ابن الله الكلمة وابن العذراء مريم. ونلجأ إلى "**بصويت**" لنسمع من فمه معنى "**الكلمة**" وكيف أنّه هو " **الكلمة الله**" إذ يقول: "**كلّ فكرة هي تصوّر وتعبير عن شيء معيّن، وأنّ كلّ فكرة هي تعبير وبالتالي تمثيل لشخصيّة الذي فكّر فيها، إلاّ إذا فكّر الشخص بذاته. ويمكن القول بأنّ التصوّر والتعبير يكونان كاملَيْن، أبديَّيْن، جوهريَّيْن إذا كان المفكّر كاملاً أبديًّا وكانت فيه الطبيعة والجوهر واحدًا. وهذه الحالة محصورة بالله دون سواه**".

"**فهذه الفكرة الجوهريّة، الأبديّة والكاملة هي التي يتصوّرها الله عن ذاته كما لو كان ينظر في مرآة أمينة، وكما لو كان يرى عمله كاملاً في غدير صافٍ: هذا هو الكلمة المسمّى ابن الله حيث أنّه يلده أبديًّا، وهو شبيه به، غير قابل للانفصال عنه، ولو أنّه يتميّز عنه بصفته الشخصيّة، تجمع بينهما وحدة رباطها الروح القدس، روح المحبّة**".

"وهذا ما يعلنه قانون الإيمان "**إله من إله، نور من نور، إله حقّ من إله حق**".

نستنتج إذًا أنّ المولود من الآب قبل كلّ الدهور هو نفسه وُلد من البتول في بيت لحم. إنّه من جوهر الله، ومن جوهر مريم. يتمتّع بطبيعتَيْن، الواحدة سماويّة والثانية بشريّة، متّحدتَيْن في شخص الكلمة الواحد. "**فالمسيح إذًا هو بكلّيته لله وبكلّيته لمريم**" (من أقوال القدّيس برنردس).

مهمّة خطيرة، دعوة سامية؛ يدعو الله إليها مريم لتكون أمًّا للكلمة، لابنه الوحيد.

يتبيّن ممّا سبق أنّ الله الكلمة اتّخذ جسدًا وسكن فيما بيننا. وأنّ الذي لا بدء له ابتدأ. وأنّ وحيد الآب يصبح ابنًا لمريم. وأنّ التجسّد هو للأقنوم الثانيّ من الثالوث الأقدس.

وأنّ الكلمة الذي أوجد الخليقة هو ذاته غايتها وهدفها. فهو الكلمة مصدر الحياة الأبديّة ولذا جاء يبذلها لخاصّته.

٣- وبنفس البساطة يبيّن الرسول، في معرض كلامه عن علاقات يسوع بمريم، أنّها تتصرّف معه تصرّف أمّ مطاعة ومحبوبة. ففي الفصل الثّاني يحدّثنا الإنجيليّ عن العرس في قانا الجليل حيث كان يسوع ومريم من المدعوّين وقد شعرت بأنّ الخمر قد نفدت. وبعد أن نبّهت ابنها لهذا النقص الذي من شأنه أن يقلّل من فرح المدعوّين، أمرت الخدم أن **"مهما قال لكم فافعلوه"** إذ أنّها لا تشكّ في مقدرته الإلهيّة. إنّه يستطيع متى شاء أن يصنع أعجوبة. كما أنّها واثقة من حبّه لها؛ فإنّه لا يرفض لها مطلبًا. وحقًّا لبّى لها رغبتها وقام بأولى عجائبه.

٤- وفي البشارة يؤكّد جبرائيل الملاك لمريم أنّها ستحبل وتلد ابن الله: **"الربّ معك... تحبلين وتلدين مَن يسمّونه ابن العليّ... يعطيه الربّ عرش داود... وسوف يملك إلى الأبد... وأنّ المولود منك يُدعى ابن الله"**.

فمريم هي الوالدة التي أرضعت الربّ يسوع.

٥- ونستطيع أن نلتقط شهادة من فم القدّيسة أليصابات حين زيارة العذراء مريم لها. فتبادرها بالقول: **"من أين لي أن تأتي أمّ ربّي إليّ!"**.

٦- ويسوع يتصرّف مع أمّه تصرّف الابن المحبّ المخلّص. لمّا شعر بأنّه لم يبق له إلاّ أن يغادر الدنيا وأنّه لا يجوز أن يتركها بلا معين ولا سند، جعلها وديعة لدى يوحنّا. إذ لمّا كان على الصليب والتفت فرآها وبقربها التلميذ الذي كان يحبّه، قال لها **"يا امرأة هوذا ابنك"** ثمّ قال للتلميذ **"هي ذي أمّك"** ومنذئذ أخذها التلميذ إلى بيته الخاصّ.

تلك هي وصيّة المسيح قبل موته. وإذا كان الناس يعنون عناية خاصّة بالوصيّة وهي تعبير عن أعزّ أمانيهم، فالمسيح جعل من وصيّته رعاية أمّه، لأنّ العناية بها هي أحبّ الرغبات إليه.

٧- وقد شهد أشعيا النبيّ أنّ مريم هي أمّ الله: **"ها هي العذراء تحبل وتلد عمّانوئيل الذي تفسيره الله معنا"**.

٨- ومن رموز الكتاب المقدّس يتبيّن أنّ مريم هي الأرض البكر التي سوف ينبت المخلّص من حشاها.

٩- وأنّ الآباء القدّيسين وعلماء الكنيسة أجمعوا كلّهم على القول بأنّ مريم هي **"والدة الإله"**.

هذا القدّيس أفرام شمّاس من سوريا، يكرّس، في القرن الرابع، آلاف الأبيات الشعريّة للترنّم بأمجاد مريم. ومن قوله: **"أيّتها السيّدة، يا أمّ الله، أنت وحدك طاهرة النفس والجسد، أنت وحدك الأكثر نقاء وعفافًا وبتوليّة"**.

ثانيًا- في التقليد المقدّس

يكتب القدّيس أمبروسيوس سنة ٣٧٧ لأخته الراهبة: "**مع أنّ مريم هي أمّ الربّ، كانت تتوق إلى أن تتعلّم وصايا الربّ. ومع أنّها ولدت الله كانت تتمنّى أن تتعرّف إلى الله**".

والقدّيس أوغسطينوس (+ ٥٣٠) يؤكّد لنا مرارًا في كتاباته أنّ مريم كانت بريئة من دنس الخطيئة الأصليّة وأنّها والدة الإله.

ولكنّ أمير المعلّمين، القدّيس كيرلّس الإسكندريّ، في القرن الخامس يزيل كلّ شكّ في أمر هذه الأمومة الإلهيّة، فيكتب إلى رهبان مصر وذلك قبل مجمع أفسس: "**إنّي لأعجب من أولئك الذين يتساءلون هل يجوز لهم أن يسمّوا القدّيسة العذراء أمّ الله أم لا؟ بما أنّ سيّدنا يسوع المسيح هو الله، فكيف لا تكون التي ولدته أمّ الله. تلك هي العقيدة التي نقلها إلينا الرسل القدّيسون، ولو أنّهم لم يستعملوا هذه العبارة**".

١٠- ونسج جميع الآباء والمعلّمون على هذا المنوال مدى الأجيال. وأنّ الكنيسة بسلطانها الأعلى ثبّتتها مرارًا وتكرارًا.

ثالثًا- العقل المستنير بالإيمان

لا شكّ أنّ هذا السرّ يبدو ساميًا. ولكنّه لا يتعارض والعقل البشريّ. إنّ سرّ التجسّد هو اتّحاد طبيعتَيْن إلهيّة وإنسانيّة في شخص ابن الله المتجسّد. ففي المسيح طبيعتان في شخص واحد، وهذا الاتّحاد جوهريّ. إنسان كامل اتّحد بابن الله منذ أن تمّ الحبل العجائبيّ به في حشا العذراء مريم. فمريم التي ولدت يسوع هي أمّ الله، لأنّها حبلت وولدت طبيعة بشريّة متّحدة جوهريًّا بطبيعة إلهيّة في شخص ابن الله.

هذا وأنّ النسبة في الأمومة لا تكون للطبيعة ولكن للشخص. فمن المقرّر أنّ كلّ إنسان لا يستمدّ من والدته إلاّ الجسد، بينما الله يخلق النفس مباشرة ويضمّها إلى الجسد. فهل نقول مثلاً أنّ ماري هي والدة جسد جورج، مع العِلم بأنّها لم تعطه إلاّ الجسد؟ كلاّ، ولكنّنا نقول: أنّ ماري هي والدة جورج، لأنّ ماري حينما ولدت ابنها ولدته شخصًا كاملاً وليس طبيعة منفصلة.

وهكذا يحدث بالنسبة لمريم، فإنّها أعطت المسيح جسدًا فقط ولكنّها ولدت شخصًا كاملاً هو الإله الإنسان، الإله الكامل والإنسان الكامل. فالمسيح كان يتمتّع بنفس وجسد، أيّ بطبيعة بشريّة كاملة ضمّت إليها طبيعة لاهوتيّة لها شخص واحد، هو شخص الكلمة ابن الله. وكذلك تكون النسبة لهذا الشخص الإلهيّ.

وإنّه لَمن الكفر حقًّا أن يقال أنّ مريم ولدت الطبيعة الإلهيّة أو اللاهوت، لأنّ مريم بشر. واللاهوت لا يلد ولا يولد. ولكنّها والدة الله المتجسّد، والدة المسيح ابن الله "**مريم التي وُلد منها المسيح**". وهي بذلك نعمت باتّحاد خاصّ بالله، رفع من شأنها فوق كلّ خليقة فجعلها أسمى من الملائكة والقدّيسين. بعد هذا كلّه نستنتج أنّ تسمية العذراء بوالدة الله أصبحت شرعيّة لا غبار عليها ولا خطر. لا بل هي أجمل تسمية يمكن أن نلقّبها بها.

وأنّ جميع ما نالت مريم من نعم سببه هذا الإنعام الأثيل الفائق. وقد سبق أن أنعم الله عليها بثلاث نعم هيّأ بها نفسها لقبوله: اختيارها، والحبل بها بريئًا، وبتوليّتها الدائمة.

وسوف يلحق به ثلاث نعم أخرى: انتقالها، ملكيّتها، ووساطتها. وكلّها رموز لحبّ الله لها وعطفه عليها. ولهذا استحقّت مريم العذراء أمّ الله إكرامًا عظيمًا ساميًا يفوق الإكرام والمديح والتجلّة التي نقدّمها للملائكة والقدّيسين. والشعب المسيحيّ ما فتئ ولا يزال في كلّ زمان ومكان، يدعوها أمّ الله: **"يا قدّيسة مريم يا والدة الله صلّي لأجلنا"**. **"يا أمّ الله يا حنونة يا كنز الرحمة والمعونة"**. **"بواجب الإستحقاق حقًّا نغبّط والدة الإله"**.

٧٦
الأخويّات المريميّة

بدء الأخويّات

من أجمل مظاهر العبادة المتواصلة والشعبيّة لمريم العذراء هي الأخويّات المريميّة.
وليست الأخويّات هذه بالحدث الجديد فإنّ أوّل أخويّة تأسّست في روما سنة ١٥٦٣. وقد أسّسها الأب **"لونيس"** لفئة من الشبّان الطلاّب.
ثمّ تأسّست أخويّات على مثالها للرجال، وبعد مدّة طويلة عرفت الكنيسة أخويّات للنساء والبنات. أمّا في حلب فقد تأسّست الأخويّات في النصف الثانيّ من القرن السابع عشر عام ١٦٤٠ وكان الفضل في تأسيسها أوّلاً للآباء اليسوعيّين حتّى كان لكلّ كنيسة أخويّتها، وكانت الأخويّة من أهمّ مظاهر النشاط الدينيّ للرعيّة، بل كانت الظاهرة المثلى من حياة الكاهن ورعيّته، تبوّأت فيها العذراء عرش القلوب وجذبت إليها كلّ راغب في حياة أفضل وممارسة واجبات دينه بطريقة أدقّ وأسمى.
وقد بارك الأحبار الأعظمون هذه الأخويّات ومنحوا المشتركين فيها إنعامات خاصّة، نخصّ منهم بالذكر، **"البابا غريغوريوس"** الثالث عشر والبابا **"بندكتوس"** الرابع عشر والبابا **"بيوس الثانيّ عشر"**.
وقد أفاد من هذه الإنعامات حتّى الأخويّات التي تأسّست خارج روما.

الأخويّة مدرسة

وقد اعتُبرت الأخويّات مدارس فيها يتلقن المسيحيّ الحياة الأخلاقيّة وحياة التأمّل ونشر الدين والتقوى.
وفي الواقع أنّ الأخويّة هي قبل كلّ شيء مدرسة يمارس فيها المسيحيّ حياة روحيّة داخليّة وسامية. ويمكننا أن نعبّر عن غاية الأخويّة، كمدرسة روحيّة بالنسبة لنشر الدين والقيام بأعمال الخير، بأنّها طلب الكمال الروحيّ بالصلاة والتأمّل، والوصول بهما إلى عمل الخير. وهكذا يتبيّن أنّ الغاية الأولى والأساسيّة من الإنضواء تحت راية الأخويّة هي تقديس النفس والتعبّد لمريم، عن طريق الصلاة، والإقتداء بفضائلها السامية. كما تبدو غاية الأخويّة في أن يعمل عضو الأخويّة على تقديس نفسه والسعي في حثّ الآخرين على تقديس نفوسهم عن طريق العبادة لمريم. إنّها أشبه بمريم أخت لعازر ومرتا وهي جالسة عند أقدام المسيح تسمع كلامه فتستحقّ ثناء المعلّم: **"إنّ مريم اختارت**

النصيب الصالح... لأنّ الحاجة إلى واحد" والحاجة الوحيدة والأخيرة هي تقديس النفس وتخليصها.

نشاط الأخويّات

أمّا الطرق المتّبعة في الأخويّات للوصول إلى غاياتها فتختلف من أخويّة إلى أخرى. فهنالك بعض الأخويّات التي وسّعت أعمال نشاطها فنظّمت اجتماعات للبحث والمناقشة في مواضيع روحيّة وتثقيف بعض الطلاّب على حسابها وتزيين الكنائس على نفقتها وتوزيع الإعانات للمحتاجين من أعضائها أو من خارج الأخويّة، وغيرها من الأعمال الخيريّة.

ولكنّ الغاية الأساسيّة، وهي التعبّد لمريم العذراء والتأمّل في فضائلها، تبقى الغاية الأساسيّة مهما تنوّعت أعمال الأخويّات. ولا بأس في أن تحصر بعض الأخويّات نشاطها في العبادة ما دامت هي الأساس.

وإنّه لَمن السخافة بمكان أن نقحم الأخويّات في الأحزاب المحلّيّة أو السياسيّة. فإنّه ما دخلت الحزبيّة والسياسيّة في أمثال هذه المؤسّسات الروحيّة إلاّ أفسدت عليها نشاطها وشوّهت أهدافها وشلّت حركتها.

ومن السخافة أيضًا ادّعاء بعض الناس أنّ الأخويّات أصبحت مظهرًا قديمًا وباليًا للنشاط الروحيّ، لا تصلح إلاّ للعجائز والأطفال. ولكن ما دامت الغاية من الأخويّات هي تقديس النفس عن طريق التعبّد لمريم، فهل يجوز اعتبار مسألة خلاص النفس قديمة وبالية وأنّ هذا العمل الساميّ لا يصلح إلاّ للعجائز أو الأطفال؟ وأيّ طريق أفضل للإنسان من طريق العذراء للوصول إلى سعادة السماء؟

أجل يستطيع كلّ إنسان أن يخلّص نفسه بالصلاة والتأمّل والعبادة لمريم خارج الأخويّة. ولكن من الثابت أيضًا أنّ الإنتساب إلى نخبة آلت على نفسها أن تسعى للخير والخلاص مع أعضاء لهم نفس النشاط والغاية لممّا يساعد كثيرًا على تتميم المقاصد بسهولة أكبر.

واجبات الإخوة

"ليس مَن يقول لي يا ربّ يا ربّ يدخل ملكوت السماوات". بهذه الآية بيّن لنا المعلّم أنّ الألقاب لا قيمة لها، وأنّ الإنتماء اسميًّا فقط إلى المؤسّسات لا ترجى منه فائدة، وأنّ الصلاة التي تتمتم بها الشفاه ولا تخرج من القلب لا تبلغ ملكوت السماوات.

كما ولا يكفي المشترك أن يسجّل اسمه في سجلات الأخويّة وأن ينتسب إليها لينال شفاعة مريم، وإنّما المفروض أن يجهد المشترك نفسه ويبذل وسعه ليتشبّه بفضائل مريم ويتقرّب من الله ويمارس المحبّة والتواضع والفطنة ويستخدم عقله وقلبه في عمل الخلاص.

ولا بدّ للمشترك، ليكون اشتراكه مثمرًا وفعّالاً، من أن يعمل بصورة متواصلة وبدون كلل أو ملل على محاربة أعداء خلاصه.

هذه هي المسؤوليّة المفروضة على كلّ فرد: أن يعمل لخلاصه ثمّ أن يشترك مع الجماعة في الصلوات والأناشيد والزيّاحات التي تقيمها الأخويّة.

وعليه بعد ذلك أن يساهم في نشاط الأخويّة الخارجيّ لإعطاء المثل الصالح وإشراك أعضاء جدد والمشاركة في الأناشيد والاحتفالات والتطوافات. والعمل جهد الإستطاعة على التقريب بين الأعضاء، والتقريب بين المتخاصمين، وتهيئة النفوس للإيان، أو العودة بها إلى مبادئ أفضل وسلوك أمثل.

الأخويّة صورة لشركة القدّيسين

بهذا تتحقق للأخويّة أهدافها السامية لأنّ الأخويّة صورة رائعة لشركة القدّيسين حيث يتقوّى الضعيف بقوّة الجميع ويفيد المشترك من نعمة وبرارة الجميع. إنّها حقًّا "**أخويّات**" و"**شركات**" بكلّ ما تحوي الأخوّة والشركة من معان سامية.

بهذا تصبح الأخويّة مصدر بركة ونعمة ومبعث نور وقوّة للفرد والجماعة تحت ظلّ العذراء وشفاعتها.

وهكذا يتبيّن أنّ الإنتماء إلى الأخويّة لا يقصد منه، كما يتصوّر بعض الناس خطأ، مجرّد الإبتعاد عن الخطيئة. فبالرغم من أهميّة هذه الغاية الأوّليّة هناك غاية أسمى هي تقديس النفس والعمل على البذل في سبيل الغير ومساعدتهم على تقديس نفوسهم.

وجود الكاهن المرشد

أمّا وجود الكاهن في الأخويّة فيقصد منه قبل كلّ شيء مساعدة المشتركين في الأخويّة على تقديس نفوسهم ومؤازرتهم في تقديس نفوس الآخرين.

من أقدم الصور التي عرفتها المسيحيّة صورة لمريم العذراء وُجدت في النواويس، وهي تعود إلى القرن الثانيّ للميلاد، نرى فيها صورة امرأة جالسة وقد أُنزل ستار فغطّى قسمًا من رأسها وهي تضمّ بين يديها طفلاً يلتفت إلى أمّه بلطف. وأمام المرأة وقف رجل بأثواب ضافية مسترسلة يقبض بيده اليسرى ملفًّا بينما يشير بيده اليمنى إلى نجم وقد شخص بأنظاره إلى الأمّ وولدها.

ظنّ بعضهم أنّ الرجل الواقف هو النبيّ أشعيا غير أنّ غيرهم وجدوا فيه رمزًا للكاهن الذي عليه تقع مهمّة قيادة النفوس إلى السيّد المسيح عن طريق العذراء، وبالتالي عليه تقع مهمّة إلفات خواطر الناس إلى المسيح وأمّه لينضمّوا إلى مجموعة المتعبّدين.

وقد كتبت القدّيسة تريزيا الطفل يسوع تقول: "**لقد تمنّيت أن أكون كاهنًا لأبشّر بمريم**". هذه هي مهمّة الكاهن في الأخويّة. فما أجملها رسالة. في الأخويّة يحقق الكاهن أهمّ واجباته. فيها يتمّم رسالة التعليم وتوزيع الأسرار المقدّسة وخاصّة القربان المقدّس ومغفرة الخطايا.

فوائد الأخويّة

أمّا الثمار التي يجنيها المشتركون في الأخويّة فلا يحصى لها عدّ. فكم من شابّ ارتدّ عن طريق الشرّ بنصيحة أحد أعضاء الأخويّة! وكم من رجل عاش حياة أفضل بعد أن انضوى تحت لواء الأخويّة! وكم من تائب عاد إلى الله بمناسبة رياضة الأخويّة السنويّة! وكم من عجائب اجترحتها البتول لخير المشتركين في أخويّتها! ومن أجمل ما نشاهده أحيانًا تمسّك بعض الشباب بمبادئ الأخويّة بالرغم من إغواء عالم كثرت فيه أسباب الشرّ والخطيئة. فنراهم يغارون على نشر عبادة العذراء غيرة الرسل والأبرار.

أمامي الآن رسالة، بعث بها إليّ من أيّام معدودات، شابّ يقيم حاليًّا في فنيزويلا، وكان قبل سفره عضوًا في أخويّة ميلاد العذراء في كنيسة القدّيس ديمتريوس بحلب يقول فيها: "**... والآن أُعْلِمك أنّه من مدّة شهرين تقريبًا حضر عندنا خوري الرعيّة وأقام ذبيحة القدّاس في "بويرتولاكروس" وذبيحة في "برصلونا" وذبيحة في "كومانا" وقد رافقته في هذه الرحلات وكنت أتجوّل به حيثما شاء في سيّارتي الخاصّة ووفّرت له في بيتي أسباب الراحة قدر المستطاع. وبعد سفره أخذت على نفسي أن أؤسّس أخويّة أجلب إليها الشباب. وقد صحبت معي ابن أختك إلى الكنيسة الموجودة عندنا في "بويرتو" وفاتحنا رئيس الدير بمشروعنا وعرضنا له أنّنا ننوي تأسيس أخويّة على اسم العذراء تجمع الأولاد العرب. فسُرّ الخوري كثيرًا ووعدنا بالمساعدة. ورحت أنا أقوم بالدعاية بين إخواننا المغتربين فأخذت أطوف من بيت إلى بيت ومن محلّ تجاريّ إلى محلّ وأبثّ في الإخوان روح الرياضة وأحرّضهم على الإشتراك في الأخويّة. وقد سمعت من بعضهم كلامًا لاذعًا مرًّا. ومع ذلك إكرامًا للعذراء أمّنا رضيت أن أتحمّل كلّ شيء. وعلى كلّ حال كان أوّل اجتماع للأخويّة يوم الجمعة وقد ضمّ الإجتماع نحوًا من عشرين شخصًا، والجميل أنّ عشرة من رهبان اللاتين اشتركوا معنا في هذه الرياضة الأولى وكان الاحتفال عظيمًا جدًّا. وعندما كنّا ننشد صلاة يا أمّ الله يا حنونة قام خوري الكنيسة وباركنا بصورة العذراء. والحكي ما هو مثل النظر. وعند خروجنا من الكنيسة استقبلنا قدس النائب مع سائر الرهبان وسُرّوا كثيرًا من هذا الاحتفال. وأنّ عدد المشتركين يزداد من أسبوع إلى أسبوع. والحمد لله. غير أنّي مضطرّ كلّ يوم جمعة أن أعود إلى الإخوان وأذكّرهم بموعد الأخويّة. وقد اجتمعنا إلى الآن أربع مرّات، وفي الأسبوع الماضي كان عدد المشتركين خمسين شخصًا. هذا ما فكّرت به وعزمت عليه قبل أن أغادر حلب، والحمد لله قد تحقّق ما أردت لأنّي أحبّ أن أخدم العذراء دائمًا وأشيد بذكرها وبفضلها فإنّها حمايتنا وهي ملجأنا في بلاد الغربة... أرجو منك أن تطمْئنني عن أخويّتنا ميلاد العذراء في حلب. إنّني أتمنّى لها دوام التقدّم والإزدهار...**".

هذا ما تفعله مريم العذراء في مَن ينتمون إلى أخويّاتها: غيرة على مجد الله ونشر عبادتها. وهذا ما يفعله عباد مريم: يؤسّسون الأخويّات المريميّة لاجتذاب الناس إلى الكنائس، للصلاة، والعبادة. أجواق سماويّة على الأرض تنشد للعذراء وتفخر بالإنضواء تحت كنف شفاعتها والإنتماء إلى أخويّاتها.

المسبحة

من أجمل العبادات التُقويّة لمريم العذراء وأكثرها انتشارًا بين المسيحيّين هي بدون شكّ تلاوة المسبحة.

عادة قديمة

وليست عادة استعمال المسبحة بالشيء الحديث في عالم التقوى. فإنّ الهنود واليونان والرومان والعرب على مختلف مذاهبهم استعملوها كواسطة عمليّة لتسهيل الصلوات وعدّ ما تكرّر منها وتثبيت العقل وحصر الإنتباه في معانيها السامية.

في الشرق

ففي الشرق كان الرهبان اليونان وخاصّة النسّاك المنقطعون عن العالم داخل الأديار يحملون سبحة من ثلاث وثلاثين حبّة تشير إلى عمر المسيح أو من أضعاف هذا العدد يستعملونها خارج أوقات الصلوات الطقسيّة، تلك الصلوات التي تقام عادة في الخورص أو في النرتكس وهو الرواق القائم أمام مدخل الكنيسة. وعند كلّ حبّة يكرّر الراهب صلاة قصيرة أشبه شيء بالنوافذ الروحيّة وهي نفثات تبعثها النفس المتعبّدة من أعماقها. منها: "**يا ربّ ارحم**"، "**يا الله ارحمني واغفر لي أنا الخاطي**"،"**خلّصنا يا ابن الله**". ومنها صلوات خاصّة بمريم: "**بشفاعة والدة الإله يا مخلّص خلّصنا**"، "**يا والدة الإله خلّصينا**"، "**السلام عليك يا والدة الإله الممتلئة نعمة**". وأمثال هذه كثيرة يقتطفها المتعبّد الحارّ من الكتب الطقسيّة أو يستوحيها من قلبه وضميره.

في الغرب

أمّا في الغرب فقد نشأت هذه العبادة في الأجيال المتوسّطة. ويعود الفضل الأكبر للقدّيس عبد الأحد (١١٧٠- ١٢٢١) في نشرها بمواعظه وإرشاداته.

والمسبحة مجموعة من الحبيبات جمعتها سلسلة انقسمت إلى خمس مجموعات عشريّة تُسمّى الواحدة منها بيتًا تفصل بينها حبّة أكبر حجمًا انتهت كلّها ببعض الحبّات وأيقونة صغيرة للعذراء مريم وصليب مقدّس.

وطريقة استعمالها أن يتلو المصلّي "**السلام الملائكيّ**" على كلّ حبّة من الحبّات العشر و"**الصلاة الربّيّة**" عند الحبّة الكبيرة وإشارة الصليب في نهاية كلّ بيت من البيوت الخمسة.

وقد يضاعف ثلاثًا هذا العدد فتتكوّن حينئذ من خمسة عشر بيتًا وتُسمّى الورديّة.

والسلام الملائكيّ الذي نكرّره مئة وخمسين مرّة في الورديّة أو خمسين مرّة في المسبحة هو التحيّة التي حيّا بها جبرائيل رئيس الملائكة العذراء مريم حينما حمل إليها باكورة البشائر وأعظمها وأخبرها بالحبل الإلهيّ قائلاً: "**السلام عليك يا ممتلئة نعمة**

الربّ معك" (لوقا ١: ٢٨- ٤٣). والجزء الثانيّ من الصلاة هو للقدّيسة أليصابات به رحّبت بمريم **"مباركة أنت في النساء ومباركة ثمرة بطنك"**.

وفي مجمع أفسس (٤٣١) أضافت الكنيسة المقدّسة، بإلهام الروح القدس، إلى تلك التحيّة الجميلة النداء التالي:

"يا قدّيسة مريم، يا والدة الله، صلّي لأجلنا نحن الخطأة الآن وفي ساعة موتنا".

في متناول الجميع

ولعلّ أفضل ما في هذه العبادة أنّها في متناول كلّ إنسان مهما كان وضعه أو سنّه. فيستطيع المتعبّد أن ينصرف لها في الكنيسة أو في البيت؛ أن يقوم بها منفردًا أو مع سواه؛ بل لا بأس عليه أن يقوم بتلك العبادة التُقويّة قيامًا أو قعودًا أو حتّى مضجعًا على فراشه. ولكن بدون شكّ أنّ أفضل طريقة هي أن نتلوها راكعين أو واقفين. وهي تُتلى عادة كاملة وبدون انقطاع. غير أنّه لا شيء يحول دون تلاوتها متقطّعة وموزّعة على مهامّ النهار. وخير تلاوة لها تكون بالتناوب بين جوقتَيْن من المصلّين. وليس من مانع يحول دون تلاوتها أثناء عمل يدويّ لا يحتاج إلى كثير من التفكير والإنتباه كالخياطة والتشويف وحياكة الفانلات الصوفيّة.

دروس لاهوتيّة

على أنّ هذه البساطة في عبارات الصلوات والتسهيلات الكثيرة التي تمهّد لنا تلاوة المسبحة لا تقلّل من قيمتها فإنّ ما فيها من دروس وتأمّلات يعطيها ميزتها الخاصّة ويسمو بها إلى أجمل وأعمق الأعمال التُقويّة.

المعروف أنّ المسبحة تتكوّن من جزئَيْن متميّزَيْن ومتّحدَيْن هما التأمّل في الأسرار والصلاة اللفظيّة. وهذا النوع من العبادة يتطلّب انتباهًا عميقًا إذ أنّه يقضي لا أن يوجّه العابد تفكيره نحو الله فحسب بل أن يغوص في التأمّل بحيث يستوعب رموز ومعاني الأسرار بغية الوصول إلى حياة مسيحيّة لا أفضل ولا أسمى. تلاوة السلام الملائكيّ عشرات المرّات مادّة هذه العبادة أمّا الصورة أو روح العبادة فتكمن وراء التأمّل بالأسرار.

وليس موضوع الأسرار سوى التأمّل في حياة السيّد المسيح وموته وقيامته. وقد جُمعت تحت ثلاثة عناوين: أسرار الفرح وأسرار الحزن وأسرار المجد. وهي في الواقع المبادئ الأساسيّة لكلّ حياة مسيحيّة.

وهكذا نرى أنّ المسبحة تقودنا إلى مريم لتقودنا هي بدورها إلى الله شأنها شأن كلّ عبادة تُقويّة نتقرّب بها من مريم فتقرّبنا هي من الله.

ولذلك أدخلتها الكنيسة في عباداتها على أوسع نطاق. إنّها صلاة الأخويّات المريميّة بالدرجة الأولى. وهي ذخيرة المسيحيّ يحملها دومًا في جيبه. وهي رفيقة عدد كبير من الرهبان علّقوها على الزنّار فأصبحت جزءًا من الإسكيم الرهبانيّ المقدّس. وبعرضها هكذا على أنظار الناس جعلوها دعوة لنشر عبادة البتول. وأخيرًا إنّها الرفيقة ساعة ينتقل

الإنسان من الحياة الدنيا إلى عالم الآخرة. وسوف تكون الرفيقة الوحيدة في سكون اللحد. عندما يتخلّى الأهل والأصدقاء ويتخلّى الراحل عن مهامّ الدنيا وينفض يديه من أموال الحياة الفانية يمسك بها ليواجه ربّه في أشدّ المآزق حرجًا مجتازًا عالم الجهاد إلى عالم الحياة الباقية.

قصص

من أجمل ما استرعى انتباهي مرّة، أثناء وجودي في بلدة القنية السوريّة بقرب جسر الشغور، أنّي وجدت تاجرًا في حانوته يصلّي مسبحته.

وذكر عن الدكتور ريكاميه وهو من الأطبّاء الذين حازوا على شهرة عظيمة في الحرب العالميّة الأولى أنّه دُعي مرّة لعيادة مريض. فعلى الطريق بين بيته وبيت المريض تناول مسبحته من جيبه وراح يصلّي. ففاجأه مرافقه بالسؤال التالي: ولكن يا دكتور أنت تصلّي المسبحة؟ أجاب الدكتور نعم. لأنّي أؤمن بأنّ مريم هي الطبيب الذي يشفي. وهي خطّتي مع كلّ مريض. أصلّي المسبحة أو جزءًا منها قبل أن أباشر معالجته.

وجاء في مذكّرات تأسيس رهبانيّة الورديّة في القدس أنّ ابنة كانت تعيش في الدير. فوقعت في بئر مملوءة ماء ولمّا أحسّت الأمّ الرئيسة استنجدت بالمارّة في الشارع فلم يجرؤ أحد على أيّة محاولة لنجاة الطفلة. حينئذ أخذت الأمّ الرئيسة المسبحة الورديّة ورمتها في البئر ثمّ دلّت حبلاً وقالت للابنة التي كانت ما تزال تتخبّط في المياه أن تمسّك بالحبل. ورفعتها. فلمّا خرجت الابنة من البئر وُجدت سالمة وكانت الورديّة حول عنقها.

هكذا أ ضحت المسبحة ينبوعًا للنعم والبركات السماويّة وجرن شفاء يتدفّق صحّة على المرضى ومصدر عجائب ودافعًا فعّالاً للورع والتقوى.

٧٨
البركة بصورة العذراء

من العادات المتّبعة في **"الأخويّات المريميّة"** أن يحمل الكاهن المرشد في نهاية فرض الأخويّة صورة للعذراء شفيعة الأخويّة، بينما ينشد المرتّلون إحدى الترانيم الطقسيّة أو الشعبيّة الدينيّة، مثل صلاة **"نحن عبيدك يا والدة الإله"** أو **"يا أمّ الله يا حنونة"** وفي نهاية الترنيمة يبارك الكاهن ثلاثًا وكلّ مرّة بشكل صليب مردّدًا الدعاء إلى كلّ من الأقانيم الثلاثة ليبارك الشعب الحاضر بشفاعة العذراء المجيدة.

كان على الله أن يهيّئ قلب مريم ويجهّزه بصفات خاصّة تجعل منه سماء يحلّ فيه كلمة الله. وبما أنّ لكلّ من الأقانيم الثلاثة صفات عمل خاصّة في سرّ الخلاص والفداء، وبالتالي في شخص المخلّص وأمّه الطاهرة، كان لا بدّ من قيام علاقات خاصّة أيضًا بين الثالوث الأقدس والعذراء مريم. لقد ولجت إلى قلب الأقانيم الإلهيّة. كما أنّ كلاً من الأقانيم عطف عليها عطفًا خاصًّا. فهي قبل أن تصبح أمًّا للكلمة الله كانت ابنة الآب

وعروسة الروح القدس. وهكذا سمت إلى شرف البنوّة الإلهيّة والزوجيّة وبهما إلى شرف الحبّ الوالديّ.

أوّلاً- ابنة الآب السماويّ

"يباركِكم الله الآب الذي اتّخذها ابنة له"

ابنة وحيدة، انفردت بهذه البنوّة دون جميع البشر. وقد تحقّق لها ذلك منذ اللحظة الأولى حيث وُجدت بريئة من دنس الخطيئة الأصليّة. حتّى أنّ الله لم ينعطف على خليقة انعطافه على مريم، إذ وجد فيها الصورة الجميلة والكاملة والوحيدة للخليقة البشريّة كما خرجت من يديه. كما وجد فيها الإنسان الذي أفاد من حياة وآلام المخلّص على أوسع نطاق. فأحبّها حبّه لآلام ابنة الكلمة.

وقد سمت مريم نحو حبّ الله الآب بمحبّة قلبها. فلم تبخل بشيء من قواها. بل بذلت وكان بذلها يتّسع حتّى حدود الألوهيّة. والذي ساعدها على ذلك هو المحيط العائليّ والإجتماعيّ اللذَيْن نشأت فيهما: والدان قدّيسان، الهيكل والكتاب المقدّس. هنالك تعلّمت أن تخضع لإرادة الله الآب وأن تحبّه. وكانت له الخادمة المخلصة الأمينة. واتّخذت عقلها وقلبها سلّمًا ترتقي إليه. وبينما كان اليهود ينشرون حولهم فكرة الإله الجبّار فإنّ مريم تعلّقت بالفكرة التي سوف تكشفها ليوحنّا فيسجّلها: **"الله محبّة"**.

وكانت مريم تشعر في أعماقها بعطف الله الآب عليها فتنقاد إليه انقياد الحبيب إلى محبّه. وهل يستطيع الله إلاّ أن ينعطف على تلك الزنبقة الطاهرة يفوح منها عطر النعم التي سكبها في نفسها فاستسلمت بكامل قواها وارتمت في أحضانه بتلك الثقة التي لا يعرفها إلاّ الذين لم تستغوهم الدنيا بل استهواهم حبّ الخالق والقريب والسعادة الأبديّة؟ فأحبّت الطهارة لأنّها صورة الله وخضعت للشريعة لأنّها إرادة الله ومارست الفضائل على اختلاف أنواعها وألوانها لأنّها الطريق إلى الله. ولا تختفي وراء ستار من التواضع العميق إلاّ لأنّها سبرت غور كمالات الله من جهة وحقارتها بالنسبة إليه من جهة ثانية، وكانت تشعر بسعادة عظمى وفخار كلّما ردّدت أنّ الله هو الآب الكلّيّ القداسة والكمال. وكان حبّها لله الآب عظيمًا حتّى أنّها لم تر قط في الأشخاص والأشياء والحوادث إلاّ شعاعًا منه أو إصبعًا تحرّك وتدبّر وتدير.

وقد تعلّمت، في مدرسة المحبّة البنويّة هذه، أصول وممارسة المحبّة الوالديّة. إنّ المدرسة هي المكان الذي يتعلّم فيه الإنسان محبّة الوطن وخدمته والعمل على مصلحته. والتلميذ النظاميّ يتهيّأ ليصبح موظّفًا ومديرًا وقائدًا وهو على مقاعد المدرسة. وهكذا تعلّمت مريم أن تكون أمًّا محبّة يوم كانت ابنة محبّة لربّها. بل أنّها أصبحت الأمّ المثاليّة للكلمة بقدر ما كانت ابنة مثاليّة للآب.

وقد طبع فيها الله الآب صورته الوالديّة كما يطبع الوالد ولده بشخصيّته عن طريق الوراثة وأكثر منه عن طريق الإحتكاك المنزليّ. وفيها ينطبق تمامًا قول الكتاب: **"وقد خلقها الله على صورته ومثاله"**.

ولمّا تجسّد الكلمة وحيد الآب لم يجد الفرق كبيرًا بين السماوات والأرض فلا مغارة بيت لحم العارية ولا القمط الحقيرة ولا تهديد الظالمين له بالموت أثّر على الطفل الإلهيّ حينما التقى على الأرض بصورة الآب السماويّ ألا وهي والدته بالذات. وإذ رضي أن يخضع لها مدّة سنين طويلة أليس لأنّه وجد فيها سلطة أبيه ورغباته؟ وحينما يبادلها أسمى آيات الإحترام والمحبّة ليس له من حافز سوى أنّه وجد في حبّها غذاء لنفسه كالذي ينعم به القدّيسون في السماء.

ثانيًا- والدة الابن الإلهيّ

"يبارككم الله الابن الذي اتّخذها أمًّا له"

إنّ العلاقة التي تربطها بالثالوث الأقدس توجد على أشدّها حينما تصبح مريم والدة الكلمة المتجسّد. وإنّ عبارة **"أمّ الله"** التي اعترفت بها الكنيسة لهي أجمل تعبير لامتداد حبّ الله نحو البشر وهي بالطبع دليل صارخ يشير إلى عظم المحبّة التي خصّ بها الله مريم والدة كلمته المتجسّد.

وأنّ ما يمتاز به حبّ مريم على حبّ سائر الأمّهات هو أنّه كان حبًّا والديًّا وعذريًّا وبه كانت تستطيع أن تضمّ إلى قلبها الذي استمرّ على نقائه ولم يتعلّق بأحد ولم يُستعبد لجسد بل حُفظ هيكلاً مقدّسًا للكلمة دون سواه. وبذلك أيضًا بقي قلب مريم دائمًا نشيطًا في الحبّ نحو الكلمة نشاط الشباب في عنفوان الشباب.

وحينما يلتفت يسوع لأمّه يختلج قلبه بهجة وسرورًا لأنّه يرى فيها صورة ارتسمت عليها ما ترسمه الطهارة على وجوه الأبرياء.

وقد استطاعت العذراء أن تضمّ في حبّ واحد الله وابنها. وحينما تقول الأمّ لولدها أنّها تحبّه حتّى العبادة تخرج العبارة عن نطاق حدودها إلاّ إذا كانت بالمعنى المجازيّ. لأنّ العبادة بمعناها الحقيقيّ لا تليق إلاّ بالله. أمّا مريم فهي وحدها دون سواها لم تعرف تلك الحدود ولم تتوقّف عندها إذ أنّها كانت تستطيع أن تعبده عبادة حقيقيّة. لقد قدّمت له العبادة بمعناها الحقيقيّ الذي لا حدّ له.

لقد أعطت المسيح الجسد وطبعت من روحها وقلبها وشخصها على نفسه وجسده طابعًا سوف يحمله أينما ذهب وحيثما حلّ. به يُكرّم الله. وبه يحنو على المسكين والفقير وكلّ نفس متألّمة. وبه يجول مبشّرًا. وبه يتحمّل سوء أخلاق البشر. وبه أخيرًا يقدّم حياته تضحية كاملة على الصليب. هذا هو الطابع الذي يرفع من شأن الأمّ أكثر بكثير ممّا تفعله الولادة. وإذ كان المسيح هو كلمة الله فبخضوعه لوالدته ساعدها على أن تطبع فيه أخلاقها بكاملها. ومن المقرّر أنّ مريم كانت قد نقلت إلى نفسها صورة الآب السماويّ وهذه الصورة بالذات نقلتها بدورها من نفسها وطبعتها في شخص المسيح. ولا بدّ من أنّ المسيح حينما يعلن في كلّ مناسبة أنّه فيما للآب وأنّه يتمّ ما جاء بالأنبياء وحيًا من الله، وأنّه لا إرادته ولكنّ إرادة الآب هي التي يجب أن تكون وأن تتمّ، إنّه في ذلك يعبّر عن شخصيّة مريم التي تطبّع بها وهو في مدرسة والديه.

وقد أراد المسيح أن تكون أمّه أوّل مَن أفاد من محبّته للبشر، بل أنّه شاء أن تجني من ثمار الفداء والخلاص منذ اللحظة الأولى من وجودها على هذه الأرض أيّ منذ أن تمّ الحبل بها.

ثالثًا- عروس الروح القدس

"يباركم الله الروح القدس الذي اختارها عروسًا له"

لمّا نزل جبرائيل الملاك حاملاً إليها الرسالة العظمى بيّن لها بوضوح أنّ الحبل هو من الروح القدس: **"الروح القدس يحلّ عليك وقوّة العليّ تظلّلك"** (لوقا ١: ٣٥).

ولم تكن لتجهل وجود الروح القدس. إنّها ربيبة الهيكل وحافظة الكتاب المقدّس. في صفحاته الأولى قرأت: **"إنّ روح الله كان يطفو على المياه"** (تكوين ١: ٢).

وقد زاد إيمانها بوجود هذا الأقنوم الإلهيّ حينما شعرت بأنّ ما قاله لها الملاك تحقق إذ أنّها فعلاً حُبلت من الروح القدس كما سبق الله الخالق فبعث الحياة بروح من عنده في بدء الخليقة.

وقد تصفّحت مرارًا الكتاب المقدّس، وتعلّمت منه أنّ هذا الروح نفسه هو الذي أوجد رجال التاريخ العظام منذ بدء الخليقة حتّى ولادة المسيح.

فهو الذي طبع روح يوسف بالحكمة فكشف لفرعون رموز أحلامه وأيّده بعون به أدار شؤون بيت فرعون وشعب مصر. ويشهد على ذلك الكتاب نفسه إذ يقول: أنّه لم يكن بين البشر أشدّ منه ذكاء وحكمة، إذ كان فيه روح الله (تكوين ٤١: ٣٨).

وهو الذي أيّد جدعون في إنتصاراته، (قضاة ٦: ٣٤) وهو الذي نفخ في شمشون قوّة فوق قوّة البشر (قضاة ١٤: ٦) وهو الذي قاد شاؤول في معاركه ضدّ أعدائه (صاموئيل الأولى ١١: ٦).

ولم تنس تلك الآية التي وردت على لسان أشعيا النبيّ: **"ويخرج قضيب من جذر يسّى وينمو فرع من أصوله ويستقرّ عليه روح الربّ"** (١١: ١- ٢). ويكرّر الله نفس المعنى لهذه الآية عن المسيح خادمه: **"هوذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرَّت به نفسي. وقد جعلت روحي عليه فهو يبدي الحكم للأمم"** (أشعيا ٤٢: ١). هو الروح ذاته الذي سوف يقود المسيح لإتمام رسالة التبشير **"إنّ روح السيّد الربّ عليّ لأنّ الربّ مسحني لأبشّر المساكين وأرسلني لأجبر المنكسري القلوب وأنادي بعتق للمسبيّين وبتخلية للمأسورين"** (أشعيا ٦١: ١).

فلمّا جاء الملاك جبرائيل يحمل البشارة إلى مريم لم يفعل إلاّ أن يتمّ للعذراء ما وجد في عقلها بحاجة إلى إتمام. ولا بدّ من أنّها منذ ذاك الحين أخذت تشعر بانعطاف أعظم ومحبّة أكبر وتعلّق زائد نحو الروح القدس الذي أحلّ الكلمة في حشاها وجعلها عروسًا خاصّة به.

وقد سرّها جدًّا أن تكون هي المختارة بين جميع النساء عروسة له، ولكنّها لم تفهم ما هو السبب الذي حمل الله على هذا الاختيار، إذ أنّها لم تفكّر قط ولم تقدّر أنّها أهل لمثل هذا التقدير وتلك العطيّة.

وانضوت مريم تحت ظلّ الروح القدس انضواء فراخ الطيور تحت أجنحة أمّهاتها واستناد الزوجة المحبوبة إلى كتف عريسها، واستسلمت بملء جوارحها ليعمل فيها ما يشاء. وانقادت بمطلق إرادتها لتوجيهاته الإلهيّة. فهو الذي حوّل حشاها وقلبها وضميرها إلى أحشاء وقلب وضمير والديّ يسع المسيح ويتفهّم معاني رسالته.

وقد أحبّت ذلك الروح الإلهيّ حبّها للطهارة التي كرّست بها نفسها وجسدها لله إذ جاء يطبع نذرها له. بتدخّله في ولادة المسيح، بخاتم خاصّ من عنده. وهكذا تحققت من أنّ ما فعلته وهي فتاة في الهيكل حينما نذرت نفسها لله لم يكن إلاّ بدافع من الروح القدس ليجعل منها هيكلاً مقدّسًا للربّ وعروسًا جميلة لذاته.

وهكذا وجدت أنوارًا كشّافة تتسلّط على حلقات سلسلة حياتها الماضية وفهمت أنّ الروح القدس هو الذي كان يقود خطواتها في الطريق التي انتهت إلى البشارة بالحبل الإلهيّ والولادة بالمسيح. فازدادت بذلك إيمانًا بالله وثقة بالروح القدس ومحبّة لابنها.

ويوم حلول الروح القدس على التلاميذ في العلّيّة الصهيونيّة كانت هناك لأنّ الروح القدس لم يحلّ إلاّ بناء على طلبها ليهبها نعمة جديدة بها تساند الكنيسة الناشئة في مطلع حياتها وفي سيرها نحو أجيال من التبشير والجهاد والإستشهاد.

هذا هو الثالوث الأقدس الذي نستدعيه بشفاعة العذراء ليبارك الإخوة الذين اجتمعوا لتمجيد العذراء صنيعته وشفيعة الأخويّة وحامية الذين انضووا تحت راية سلطانها.

٧٩
أحرّ العُبَّاد

الرهبان

أحرّ الناس عبادة هم الرهبان والراهبات على اختلاف جمعيّاتهم ودعواتهم ونذورهم بل وجنسيّاتهم ومواطنهم. الرهبان هم الزهور العطرة التي تزيّن سماء الكنيسة المقدّسة وتمدّها بعون من سواعدها القويّة في ميدان العمل ونشر الدين وحمل الرسالات. ولسنا نغالي حينما نقول أنّهم هم الذين أحبّوا مريم المحبّة الحارّة وحبّبوها إلى النفوس وأدخلوها إلى القلوب.

على أنّهم مدينون بدون شكّ للبتول بأفضال عدّة: بدعوتهم إلى الحياة الرهبانيّة وبثباتهم في نذورهم.

وأنّ مريم العذراء لا تستطيع إلاّ أن تعطف عليهم كلّ العطف لأنّهم أخذوا على نفوسهم لا أن يتبعوا الوصيّة فحسب بل أن يتمّوا الإنجيل بأكمله، وخاصّة رغبات السيّد المسيح الداعية إلى الكمال.

وأنّها تعطف على الرهبان لأنّهم يمارسون حياة الصمت والعمل والتضحية والصلاة. وبذلك يجعلون من أديرتهم بيتًا أشبه ببيت الناصرة ذلك الدير الذي ضمّ العائلة المقدّسة.

وأخيرًا تعطف عليهم لأنّهم بدخولهم في الحياة الرهبانيّة قدّموا لله حياتهم ضحيّة كاملة على مثال البتول في تقدمتها ذاتها لله بالنذور المقدّسة: الطاعة للرئيس والعفّة الكاملة والفقر الاختياريّ.

ولا يجهل الراهب ما لوساطة العذراء وشفاعتها من أثر في إنتصاره على الخطيئة والعالم والشيطان والشهوة.

الرهبانيّات المريميّة

إنّ عددًا كبيرًا من المؤسّسات الرهبانيّة قام على اسم العذراء وشفاعتها فوضع أتباعها تحت حمايتها أديارهم ورسالاتهم ومؤسّساتهم الخاصّة وأعمالهم الخيريّة. وقد فرضت عليهم القوانين والنظم الرهبانيّة أن يخصّصوا لمريم بعض الصلوات والعبادات اليوميّة. هذا ولمّا أرادت الكنيسة بسلطانها الأعلى أن تحدّد عقيدة انتقال البتول حاولت قبل ذلك أن تتعرّف إلى رأي الرهبان. فكانوا أوّل مَن ناشد الحبر الأعظم أن يعلنها عقيدة إيمانيّة على الملأ.

رهبان الشرق

ومن المعروف في الشرق أنّ الآباء والكتّاب ورجال الدين من بطاركة وأساقفة وكهنة كانوا مدى قرون عديدة من الرهبان. فهم الذين نشروا عبادة العذراء وكتبوا عنها مؤلّفات بقيت على مدى الأجيال مرجعًا يدلّل على عقيدة الكنيسة والتقليد المقدّس. وهم الذين صاغوا للبتول أجمل الأناشيد وأبدعها واعتُبروا أعمدة الكنيسة ودعائم الإيمان وأشهرهم: القدّيسون أفرام السوريّ وباسيليوس الكبير الذي إليه ينتمي أكثر رهبان الطقس البيزنطيّ وكيرلّس الأورشليميّ وغريغوريوس نيصص وكيرلّس الإسكندريّ وإبيفانيوس. كلّ هؤلاء كانوا من الرهبان ومارسوا عبادة مريم وقاموا بنشرها داخل الأديار أوّلاً ثمّ بين الشعوب. وبالإستناد إلى تعاليمهم وكتاباتهم أقامت الكنيسة الرتب الطقسيّة الخاصّة بأعياد البتول.

رهبان الغرب

وفي الغرب نخصّ بالذكر رهبانيّة القدّيس بندكتوس (+ ٥٤٧) الذي اشتهر بعبادته الخاصّة لمريم.

والقدّيس برنردس (+ ١١٥٣) الذي تفوّه بأجمل ما عرفت الكنيسة عن أمجاد مريم على مدى الأجيال.

ثمّ رهبانيّة الإنتقاليّين المنتمين إلى انتقال العذراء التي تأسّست عام ١٨٥٧. أمّا رهبانيّة الآباء الفرنسيسكان التي تأسّست عام ١٢٠٩ فقد كان أبناؤها أوّل مَن أكرم البتول البريئة من دنس الخطيئة الأصليّة، فنشروها بين المؤمنين ودعوا إلى تحديدها كعقيدة إيمانيّة. وقد اشتهر القدّيس أنطونيوس البدوانيّ في نشر عبادة العذراء بمواعظه.

ثمّ القدّيس بوناونتوره وبرنردان وسكوت وغيرهم كثيرون ممّن اعتمدت عليهم الكنيسة في تحديد العقائد الخاصّة بالبتول.

وفي العصور الحديثة نشأت رهبانيّة الآباء اليسوعيّين، وكان تأسيسها يوم عيد انتقال البتول ١٥ آب ١٥٣٤ بسعي القدّيس أغناطيوس دي لويولا، ولأبناء هذه الرهبانيّة يعود الفضل الكبير في نشر عبادات البتول في بلادنا، ولهم الفضل في ترجمة الصلوات والكتب الخاصّة بمريم. وإنّه لَمن دواعي الفخر لهذه الرهبانيّة أن يقوم فيها عدد كبير من علماء اللاهوت يؤيّدون بكتاباتهم امتيازات مريم وعبادتها.

ولا ننسى القدّيس فرنسيس السالسيّ (+ ١٦٢٢) والقدّيس ألفونس دي ليغوري (+ ١٧٨٧) مؤلّف كتاب أمجاد مريم.

الإخوة المريميّون

وفي معرض كلامنا عن المؤسّسات الرهبانيّة التي تحمل اسم العذراء يطيب لنا أن نذكر رهبانيّة الإخوة المريميّين التي أسّسها الطوباويّ شمبانياه في فرنسا عام ١٨١٧. وهي من الرهبانيّات التي أخذت على نفسها تثقيف الناشئة وقد انتشرت في بلاد الشرق كسوريا ولبنان واليونان ولها عدد من المدارس والمعاهد المحترمة. ولها مدرسة كبيرة في حلب نعمل فيها بصفة مرشد ومعلّم منذ عشر سنوات. وقد لاحظنا مدى اهتمام هؤلاء الرهبان بنشر عبادة مريم بين الطلاّب فهم يحتفلون دائمًا بأعياد السيّدة بنوع يمتاز عن سائر الأعياد، ويفرضون أن تكون الحصص المخصّصة لتعليم الديانة ثلاثًا في الأسبوع. وقد نشر أحدهم في لبنان كتابًا باللغة العربيّة عن عبادة العذراء، وهو يُستعمل ككتاب مدرسيّ في بعض الصفوف. وهنالك كتاب آخر من عمل أحد الإخوة المريميّين باللغة الفرنسيّة وهو أيضًا كتاب مدرسيّ، وكلّ محتوياته دروس عن العذراء، والغاية من الكتابَيْن تحبيب البتول إلى نفوس الأحداث.

وقد جاء في الكتاب الموضوع باللغة العربيّة الحديث التالي:

"**إنّ الوسيلة الوحيدة لخلاص النفوس وضمان الآخرة، هي عبادة العذراء**".

كان الطوباويّ شمبانياه، مؤسّس رهبنة الإخوة المريميّين ذا ميل خاصّ إلى نشر عبادة القدّيسة مريم العذراء. فرأى أنّ إطلاق اسم مريم على رهبنته كافٍ لأن يحمل كثيرًا من الشبّان على الإنخراط في سلكها، وهكذا كان فإنّ جمعًا غفيرًا من الشبّان دخلوا في رهبنته، مندفعين إليها، باسم مريم الجميل الذي يحملونه طوال حياتهم، وهو شعار خلاصهم، وجواز سفرهم، إلى السعادة الأبديّة.

وعدا ذلك، فإنّ الطوباويّ شمبانياه كان شديد التعطّش إلى تمجيد مريم، وخدمتها، ونشر عبادتها، وتحبيبها إلى الجميع. وعبادة مريم كانت الدافع القويّ إلى دعوة الترهّب في جمعيّته.

في ذات يوم مثل أمامه شابّ، وقال له: "**يا أبت الجليل، أريد أن أصير أخًا مريميًّا!**" فأجابه الأب "**لماذا فضّلت رهبنتنا على غيرها، فقد كان بإمكانك أن تجد جمعيّات أكثر**

ثروة، وأكبر عددًا، وأقدم عهدًا، وأكثر انتشارًا، من جمعيّتنا هذه" فقال الشابّ: **"لا أبت الجليل، لا حاجة لي إلى غيرها، أريد أن أصير أخًا مريميًّا"**.

فسأله الأب الجليل: **"ما الذي حملك على هذا التفضيل؟"** – قال: **"هو أنّ جمعيّتكم تحمل اسم ملكة السماء، وكم هو عذب وجليل الفائدة، أن يحمل الابن اسم أمّه!... وهكذا فقد أصبح الشابّ أخًا مريميًّا، وعاش متديّنًا، ومات ميتة القدّيسين"**.

ومن المقرّر بموجب آخر الإحصاءات المعروفة عن هؤلاء الرهبان أنّ عددهم يبلغ حاليًّا ١٢٠٠٠ تقريبًا. إنّهم لقوّة جبّارة بل أنّهم الصوت المنبعث من قلب وضمير الإنسانيّة لإكرام البتول، وأنّه لأجمل وأسمى إكرام يرتفع يوميًّا إلى السماء لتمجيد الملكة السماويّة.

الجزء الثالث عشر
من أفق بعيد

٨٠
سيّدة العالمين

لم نر بدًّا من أن نفسح المجال في كتابنا هذا لكلمة نضمّنها نظر الإسلام إلى مريم، إذ أنّنا نكتب في اللغة العربيّة لشعوب عربيّة. والعرب على اختلاف أديانهم يسمعون المقرئ يتلو من وراء المذياع سورة مريم وآل عمران. وكثيرًا ما نجد النساء المسلمات يتردّدن إلى الكنائس ويطلبن شفاعة مريم أمّ الرحمة **"وآية العالمين"**.

وقد اعتمد الإسلام في مصدرَيْه القرآن والحديث على الكتب المحرّفة التي نُقلت كلّها أو بعضها إلى اللغة العربيّة قبل البعثة النبويّة وأهمّها فيما يمتّ بصلة إلى مريم: إنجيل يعقوب وإنجيل ميلاد مريم وإنجيل متّى وتاريخ يوسف النجّار وإنجيل الطفولة. ولم يرجع الإسلام إلى كتبنا القانونيّة التي مهرتها الكنيسة بخاتمها للتدليل على اعترافها بصحّتها إلاّ في أشياء قليلة جدًّا.

وفي القرآن والحديث آيات وقصص تعظّم من شأن مريم وترفعها فوق الملائكة والبشر. وهي تتحدّث تارة عن حياة البتول، وطورًا عن بعض العقائد الخاصّة بشخصها.

أوّلاً- حياة مريم

لقد تعرّف القرآن إلى والدها فسمّاه **"عمران"** بيد أنّ ابن خلدون دعاه باسمه الحقيقيّ **"يواكيم"**: **"إنّ الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذريّة بعضها من بعض**..." (آل عمران: ٣٢- ٣٣). ويعرف المسلمون على العموم أنّ والدة مريم تُدعى **"حنّة"**.

وفي القرآن صدى للنذر الذي قدّمت به حنّة لله ابنتها وهي جنين فيضع على لسانها هذا الإبتهال: **"ربِّ، إنّي نذرت لك ما في بطني محرّرًا، فتقبّل منّي أنّك أنت السميع العليم"** (آل عمران: ٣٥) ويذهب البيضاويّ في تفسير هذه الآية فيقول: **"رُوي أنّها (أيّ**

امرأة عمران) كانت عاقرًا عجوزًا، وفيما هي في ظلّ شجرة إذ رأت طائرًا يزقّ فراخه فحنت إلى الولد وتمنّته فقالت: اللهمّ إنّ لك عليّ نذرًا، إنْ رزقتني ولدًا، أن أتصدّق به على بيت المقدس فيكون من خدمه، فحملت بمريم، وهلك عمران وهي حامل". ولمّا استجاب الله لصلاتها، وحملت، ووضعت، قالت: "ربّ، إنّي وضعتها أنثى! والله أعلم بما وضعت". (آل عمران: ٣٦).

أمّا عن حبل مريم الأطهر أيّ عصمتها من الخطيئة الأصليّة فيعتمد الإسلام على الآية القرآنية التالية: "**وإنّي (المتكلّم هو حنّة) أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم**" (آل عمران: ٣٦). فقال البيضاويّ: "**وعن النبيّ: ما من مولود يولد إلاّ والشيطان يمسّه حين يولد فيستهلّ صارخًا من مسّه، إلاّ مريم وابنها**".

وعلى ضوء هذه العصمة يتّضح معنى الآية: "**يا مريم، إنّ الله اصطفاك وطهّرك، واصطفاك على نساء العالمين**" (آل عمران: ٤٢).

ولمّا وضعت حنّة ولدها قالت: "**ربّ، إنّي وضعتها أنثى! وسمّيتها مريم**" (آل عمران: ٣٦).

وتُقدَّم مريم للربّ في هيكله (برًّا في نذر أمّها لها): فتقبّلها ربّها بقبول حسن، وأنبتها نباتًا حسنًا... وكفلها زكرّيا... و(كان) كلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقًا قال: "**أنّى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، إنّ الله يرزق مَن يشاء بغير حساب**". (آل عمران: ٣٧ وما بعدها).

فيؤخذ من ذلك كلّه أنّ الله تقبّل مريم في الهيكل وتعهّدها بعناية خاصّة ووكّل إلى زكريّا أن يهتمّ بشؤونها، وكانت تعال بمعجزة.

ولمّا كبرت مريم قبلت للخدمة. وإذ عجز زكريّا من إعالتها لشيخوخته عيّنت القرعة: راهبًا نجّارًا اسمه جريح للإهتمام بأمرها "**وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم**". وقد أغفل القرآن الإشارة إلى الأعمال التي كانت تقوم بها في الهيكل. غير أنّه أورد آية طلب فيها إلى مريم أن تتعبّد وأن تصلّي: "**اقنتي لربّك واسجدي واركعي مع الراكعين**" (آل عمران: ٤٣).

وأمّا عن علاقات يوسف بمريم فقد ورد عنها في القرآن الشيء الكثير. لقد أشار الله تعالى بأعجوبة خاصّة على يوسف ليكون زوجًا لمريم إذ انطلقت حمامة من عصاه فاعترف له بالوصاية على مريم فيأخذها "**شبه زوجة**" (أنبياء: ٩١).

ولمّا ظهرت دلائل الحبل على مريم نشبت في نفس يوسف مأساة مؤلمة وتشكّك: "**فقال لها: لقد عنّ لي أمر في شأنك وبذلت الوسع في كبته. ولكن... قالت: تكلّم. قال: وهل ينبت القمح بلا زرع؟ فقالت: أجل. فقال: وهل ينمو الشجر بلا مطر؟ قالت أجل. قال: وهل يكون ولد بدون أب؟ قالت أجل. أفلا تعلم أنّ الله أنبت القمح عندما خلقه، بغير زرع؟... وهل يعجز عن إنماء الشجر بغير مطر؟ أجاب: إنّ الله قدير، يقول للشيء كن! فيكون. فقالت ألا تعلم أنّ الله أوجد آدم وامرأته من غير أب ولا أمّ فقال: بلى. وإذ ذاك أدرك أنّ لله في الأمر يدًا ولم يستزد توضيحًا لأنّ الأمر سرّ. وعندئذ اهتمّ بشؤونها وأخذ على نفسه الخدمة التي كانت تقوم بها مريم في الهيكل**".

ويسرد القرآن حادث البشارة في آيات بديعة من النثر الموزون المسجّع، في الوقت الذي حدّده ظهور الملاك وبشّرها بالحبل على ثلاث مراحل يظهر الملاك فجأة ويعلن رسالته فتتوجّس مريم وتعترض. فيهدّئ الملاك روعها فيتمّ الحبل. وفيما يلي الآيات القرآنيّة التي وردت بهذا الصدد.

جاء في سورة مريم (١٥- ٢١) وهذا النصّ هو أقدم النصوص المريميّة في القرآن: **"واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًّا، فاتّخذت من دونهم حجابًا، فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشرًا سويًّا، قالت: إنّي أعوذ بالرحمن منك... إن كنت تقيًّا...، قال: إنّما أنا رسول ربّك لأهب (أو ليهب) لك غلامًا زكيًّا، قالت: أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر، ولم ؟؟؟ بغيًّا؟ قال: كذلك قال ربّك: هو عليّ هيّن، ولنجعله آية للناس ورحمة منّا، وكان أمرًا مقضيًا. فحملته فانتبذت به مكانًا قصيًّا"**.

وفي سورة آل عمران (٤٥- ٤٧) ما تتوضّح به كيفيّة المعجزة: **"إذ قالت الملائكة: يا مريم، إنّ الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم، وجيهًا في الدنيا والآخرة، ومن المقرّبين، ويكلّم الناس في المهد وكهلاً، ومن الصالحين. قالت: ربّ، أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر؟ قال: كذلك؟ الله يخلق ما يشاء: إذا قضى أمرًا فإنّما يقول له: كن! فيكون"**.

وفي سورة النساء (١٧٠) والأنبياء (٩١) ما يزيد المعجزة إيضاحًا: **"إنّما المسيح عيسى، ابن مريم، رسول الله وكلمته- ألقاها إلى مريم- وروح منه"** "... **فنفخنا فيها من روحنا، وجعلناها وابنها آية للعالمين"**.

من الآيات السالفة يتبيّن أنّ القرآن يعتقد اعتقادًا صريحًا بأنّ حبل مريم بابنها المسيح عيسى كان بقدرة الله، وإذن بدون مباشرة رجل. لأنّ المولود منها إنّما هو كلمة الله، هو روح الله ومسيحه، ورسول عظيم يكون للدنيا آية ورحمة، فضلاً عن وجاهته في الدنيا وفي الآخرة.

ويتولّى المفسّرون الحديث عن زيارة مريم لنسيبتها أليصابات وهي والدة يوحنّا المعمدان أو كما يسمّيه المسلمون يحيى الحصور فتطلعها أليصابات على أمرها فتقول: **"إنّي أشعر ما في بطني يسجد لِما في بطنك"**.

ويذكر القرآن حادث الولادة: **"فاجأها المخاض إلى جذع النخلة، قالت: يا ليتني متّ قبل هذا، وكنت نسيًا منسيًّا! فناداها من تحتها ألاّ تحزني! قد جعل ربّك تحتك سريًا (نبع ماء)، وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًا، فكلي واشربي وقري عينًا! فأما ترين من البشر أحدًا فقولي: إنّي نذرت للرحمن صومًا، فلن أكلّم اليوم أنسيًّا"** (مريم: ٢٢- ٢٥).

وتعود مريم بعد الولادة إلى ذويها فتقابل باللوم والتنكّر فلم تجب بل أشارت إلى الرضيع: **"فأتت به قومها تحمله، قالوا: يا مريم، لقد جئت، شيئًا فريًّا، يا أخت هارون، ما كان أبوك امرأ سوء، وما كانت أمّك بغيًّا! فأشارت إليه، قالوا: كيف نُكلّم؟ مَن كان في المهد صبيًّا؟!"** وإذا بالطفل يترك ثدي أمّه وينظر إليهم ويتّكئ على مرفقه ويرفع إصبعه شأن المعلّم ويقول: **"إنّي عبد الله، أتاني الكتاب وجعلني نبيًّا، وجعلني مباركًا**

أين ما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا و(جعلني) برًّا بوالدتي، ولم يجعلني جبّارًا شقيًّا، والسلام عليّ يوم وُلدتُ ويوم أموت ويوم أُبعث حيًّا" (مريم: ٢٩-٣٢).

وهكذا تظهر الأهميّة التي يوليها المسلمون لنطق المسيح في المهد بمعجزة مبرّئًا ساحة أمّه من كلّ تهمة. ويؤكّد القرآن أنّ أحد الأسباب التي جرّت على اليهود سخط الله هو افتراؤهم على مريم: **"وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا"** (نساء: ١٥٤-١٥٦).

ويُعنى الطبريّ المتوفّي عام ٩٢٣ بحلّ رموز الهدايا التي حملها المجوس لابن مريم: **"فالذهب سيّد المادّة، وهذا النبيّ سيكون سيّد الناس في زمنه، والمرّ لمعالجة الجراح والكسور، وهذا النبيّ سيشفي بإذن الله كلّ عليل ومريض، واللبان فدخّانه يبلغ السماء وما من دخان آخر يبلغها، كذلك هذا النبيّ فإنّ الله سيرفعه إلى السماء. ولن يرفع أحدًا غيره في عهده"**.

ويسرد القرآن الخوارق التي رافقت هجرة العائلة المقدّسة إلى مصر: **"إنّي قد جئتكم بآية من ربّكم: إنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، وأبرئ الأكمه والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم، إنّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين"** (آل عمران: ٤٩) وتقود مريم ابنها إلى معلّم في كتّاب وتطلب ألاّ يُضرب بتاتًا، ولمّا جاء المعلّم يلقنه الأبجديّة إذا بالطفل أطول منه باعًا في المعرفة ويبيّن له معنى كلّ حرف منها.

تلك هي الخطوط الكبرى عن حياة مريم يرسمها القرآن والحديث والكتّاب المسلمون وهي إنْ دلّت على شيء فعلى التقدير البليغ الذي يكنّه الإسلام لسيّدة العالمين وهي **"آية"** على مثال ما هو ابنها آية **"وجعلنا ابن مريم وأمّه آية للعالمين"** وهي الميزة التي رفعت مريم فوق نساء العالمين **"واصطفاك على نساء العالمين"**.

ثانيًا- العقائد الخاصّة بمريم

ولقد عالج الإسلام بعض القضايا العقائديّة التي تمّت إلى مريم أمّ يسوع بصلة. وكان موقف المسلمين منها موقف القرآن والحديث. لقد اعترف لها بميزات خاصّة استثنائيّة فريدة من نوعها لم يحصل عليها بشر. ولقد أُعجب الإسلام بها فجُعل من صاحبة تلك الإمتيازات النادرة سيّدة لا كباقي السيّدات وبشرًا لا كباقي البشر. فبحثوا في منزلتها السامية تلك وفي عصمتها من مسّ الشيطان.

يُسمّي القرآن السيّد المسيح **"ابن مريم"** ويدعوه **"كلمة الله"** و**"روح الله"** و**"المسيح"**.

وتلك أهمّ الآيات التي لها علاقة بالموضوع:

"ومريم ابنة عمران التي ... فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربّها وكتبه وكانت من القانتين" (سورة مريم).

"إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه" (سورة النساء).

"**إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيّدتك بروح القدس تُكلّم الناس في المهد**" (سورة المائدة).

"**فاتّخذت من دونهم حجابًا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًّا**" (سورة مريم).

وأمّا عن علاقة مريم بالثالوث الأقدس فقد ورد في القرآن عدد من الآيات: "**يا أهل الكتاب، لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلاّ الحقّ: إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه. فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا: ثلاثة! انتهوا خيرًا لكم. إنّما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد...**" وأيضًا "**لقد كفر الذين قالوا: إنّ الله ثالث ثلاثة!...**" (٧٣ المائدة) وأخيرًا، وبهذا النصّ يتكشّف الحجاب عن وجه الثالوث الذي يقاومه القرآن: "**يا عيسى ابن مريم، أأنت قلت للناس: اتّخذوني وأمي إلـهَيْن من دون الله؟!**".

ولا عجب أن يقف القرآن والمسلمون من بعد من ثالوث النصارى هذا الموقف العنيف لأنّ القرآن قصد مقاومة معتقد كفريّ بقدر ما تهيّأ له أن يطّلع على حقيقة هذا المعتقد.

فذكر الأوضاع النصرانيّة التي تعبّر عن الأقانيم الكريمة "**الله**" و"**الكلمة**" و"**الروح القدس**" ولكنّه لم يدرك مفهوم النصارى لهذه الأوضاع، ولا حقيقة الصلة التي تربط بعضها ببعض، أمّا أن يواصل المسلمون موقف العداء من ثالوث النصارى، وفي وسعهم أن يطّلعوا بسهولة على أنّ مفهوم هذا الثالوث هو غير ما فهم وقاوم القرآن، فذلك أمر لا يخرج عن نطاق الغرابة.

ومَن يقرأ الآيات السالفة بتجرّد يبصر جليًّا أنّ حملة القرآن على ثالوث النصارى لم تكن على "**الواقع العقائديّ المسيحيّ بعينه**" بل على ملابسات مبهمة حول الحقيقة، حاكها الجدل الطويل حتّى انتهت عند بعض الأفراد أو فئة من الهراطقة، إلى "**ثلاثيّة**" سمجة تُشدّد في شجبها أكثر من القرآن ومؤدّاها التهمة السخيفة: إنّ النصارى يعبدون من دون الله الحقّ الأوحد، عيسى ابن مريم، ومريم أمّ عيسى. فيكون من ثمّ أنّ الله له "**خليلة!!**" هي مريم، وكلاهما معًا أنجبا، عن طريق التناسل المعهود عند البشر، ولدًا هو المسيح عيسى ابن مريم!! فالثلاثيّة المقاومة إذن هي: "**الآب والابن**" **وزوج متتبّعة بينهما!!**".

ومثل هذا الثالوث يجرّ على نفسه حتمًا وبحقّ غضبة القرآن وسخطه. وإذ كان فهم القرآن لثالوث النصارى على هذا الوجه كان من الكفر الصارخ أن تُدعى مريم "**أمّ الله**" لِما في ذلك من التحدّي الفظيع لله عزّ وعلا، وللعقل البشريّ أيضًا. ولكنّ ثالوث النصارى غير هذه "**الثلاثيّة**" الفظّة الكفريّة. ومع ذلك فإنّ المسلمين يرفضون عقيدة الأمومة الإلهيّة على ما يفهم النصارى، لأنّهم لا ينفكّون يحاربون عقيدة التثليث مع العِلم بأنّ النصارى موحّدون أكثر ممّن وُحّد في الدنيا. ولا يتورّع المسلمون عن إسناد الجهل والجنون إلى كلّ مَن آمن بتلك العقيدة المريميّة العظيمة.

هذه هي مريم كما يراها الإسلام عظيمة الشأن جليلة القدر. وهي وإنْ تكن أمّ المسيح لا تقتصر أمومتها الروحيّة على المسيحيّين دون سواهم بل تشمل في الحبّ الواحد والعطف الواحد جميع الذين افتداهم ابنها الإلهيّ بدمه الكريم. ونحن نترقب ذلك اليوم الذي فيه توحّد هذه الأمّ السماويّة قلوب الشعوب والأمم في إيمان واحد ومحبّة واحدة وعبادة إله واحد هو إله الجميع وسيّدهم الأوحد.

٨١
رموز العهد القديم

قبل أن يبزغ فجر الخلاص على الأرض ويتمّ حادث البشارة، سبق الله فأعلن، على لسان الآباء والأنبياء، عن مجيء المخلّص وولادته من عذراء، وكشف لنا عن بعض صفاتها. ونحن نعتقد أنّ هذا الكتاب يكون ناقصًا إذا أغفلنا هذه الصفحة التي أنزلها الله وحيًا منذ مطلع الخليقة حتّى مجيء المخلّص. وهذه الصفحة لا تخلو من فوائد نظريّة يستنير بها العقل، ومن فوائد عمليّة تقودنا إلى تمجيد العذراء مريم بعد أن مجّدتها الأجيال السابقة.

إنّها رموز واضحة جليّة أو غامضة يكتنفها بعض الظلال، وقد فكّ معانيها الآباء القدّيسون أنفسهم في كتاباتهم ومواعظهم ووردت في الطقوس الكنسيّة أناشيد جميلة لإكرام مريم.

ومن الثابت أنّ حوادث العهد القديم ترمز من طرف خفيّ إلى أشخاص العهد الجديد وحوادثه، ذلك ما أجمع عليه الآباء والكنيسة.

١- **إنّها حوّاء الجديدة.** حوّاء تعني الحياة وهو الاسم الذي أطلقه آدم على زوجته لأنّها أمّ جميع البشر (تكوين: ٢٠).

وبما أنّ مريم العذراء هي أمّ جميع الذين تجري دماء الحياة الروحيّة في نفوسهم اعتبرها الآباء حوّاء الجديدة. مع الفارق أنّ حوّاء الأولى هي أمّ الأموات، أمّا مريم فهي أمّ الأحياء. وحوّاء الأولى، بانقيادها لإبليس وبانقياد آدم الإنسان الأوّل لها، سبّبت الموت للبشريّة، بينما حوّاء الثانية، بانقيادها وخضوعها التامّ لإرادة الله، سبّبت الحياة للبشريّة. ونحن ننشد لها في رتبة الاكاثستوس: **"السلام عليك يا مَن بها انحلّت لعنة الأمّ الأولى"**.

٢- **السلّم** التي رآها يعقوب في الحلم (تكوين ٢٨: ١٠). ومفاد ذلك أنّ يعقوب في طريقه إلى بيت خاله لابان حلم حلمًا فشاهد سلّمًا تستند في أسفلها إلى الأرض، ورأسها يبلغ السماء.

إنّ مريم، إذ تمّت إلى الأرض بطبيعتها البشريّة، تسمو حتّى حدود الألوهيّة بمواهبها الفريدة. وكما أنّ السلّم كانت تربط بين الأرض والسماء كذلك العذراء تربط بين البشر والله ولذا ينشد لها الطقس: **"السلام عليك يا سلّمًا رفعت الجميع بالنعمة من الأرض إلى العلاء"**؛ **"السلام عليك يا جسرًا ناقلاً من الموت إلى الحياة جميع الذين يسبّحونها"**؛ **"السلام عليك يا سلّمًا سماويًّا بها انحدر الإله"** (من رتبة الاكاثستوس). وكذلك مريم،

إذ ولدت كلمة الله المتأنّس، أصبح للبشر أن يصعدوا إلى السماء. إنّها الوسيطة بالأمس، واليوم وغدًا. وقد سمّاها الآباء: "**سلّم الخطأة**" و"**سلّم السماء**".

٣- **العوسجة الملتهبة** (خروج ٣: ٢). لقد رآها موسى النبيّ في حوريب يوم كان راعيًا عند حميه يترو "**فتجلّى له ملاك الربّ في لهيب نار من وسط العلّيقة فنظر فإذا العلّيقة تتوقد بالنار وهي لا تحترق**".

وفي الأودية الثامنة من الاكاثستوس جاء: "**لقد أدرك موسى في العلّيقة سرّ ولادتك العظيم أيّتها العذراء القدّيسة المنزّهة عن الفساد، وسبق الفتية فصوّروه تصويرًا جليًّا جدًّا لمّا انتصبوا في النار ولم يحترقوا**".

وفي الحقيقة أنّ مريم حبلت وولدت الكلمة الذي هو نار ملتهبة، ومع ذلك فلم تثلم البتوليّة ولم تفض البكارة.

٤- **تابوت العهد.** ذلك الصندوق الذي أنزل الله التفاصيل عن صنعه (؟؟؟ ٢٥: ١٠، ٢٢) فصنع من الخشب الثمين وصفّح من الخارج والداخل بالذهب. كان يحوي في البدء لوحي الوصايا وجرّة المنّ وعصا هارون المفرّعة. ولكن بعد بناء الهيكل، لم يبق فيه سوى لوحي الشريعة. وكلمة تابوت تعني صندوقًا أو خزانة. وكانت العادة قديمًا أن يكون في كلّ بيت صندوق تخزّن فيه الغلال أو مؤونة الشتاء أو توضع فيه الملابس الثمينة. وأنّ فنّ النجارة والحفر على الخشب ترك لنا في الشرق تحفًا رائعة من هذه الصناديق، تُرى إلى اليوم، محفوظة لدى بعض الأسر الغنيّة أو معروضة في المتاحف. فكلمة تابوت لا تعني الصندوق الذي يوضع فيه الميت لينقل به إلى مقرّه الأخير كما هو شائع اليوم، وإنّما تعني خزانة ثمينة تضمّ أشياء ثمينة.

أمّا أن تُسمّى العذراء مريم بتابوت العهد فذلك من باب الإستعارة.

المشبّه به هو مريم العذراء لأنّها حوت في حشاها المسيح مخلّص العالم، فهي إذًا الخزانة الثمينة.

والمشبّه هو تابوت العهد وقد ورد: "**تابوت الربّ**" و"**تابوت عهد الربّ**" و"**تابوت الله**" (الملوك الأوّل) وهو صندوق من خشب ثمين مصفّح بالذهب من الداخل والخارج يحجبه ملاكان بأجنحتهما عن الأنظار، تمّ صنعه بناء على أمر الربّ في سيناء (خروج ١٥: ١٠- ٢٣) وقد أُعدّ ليضمّ في داخله لوحي الشريعة وجرّة المنّ وعصا هارون.

آ- أمّا **اللوحان** فهما قطعتان من حجر كتب عليهما موسى وصايا الله العشر التي أملاها الربّ عليه في جبل سيناء حين خروج بني إسرائيل من مصر إلى أرض الموعد.

ب- ونقرأ قصّة **المنّ** في الفصل السادس عشر من سفر الخروج. حدث في اليوم التاليّ من خروج إسرائيل من أرض مصر أنّ الشعب جاع في البرّيّة فتذمّر على موسى وهارون فعطف الربّ على شعبه وأنزل عليه من السماء طعامًا لذيذًا، فكان يلتقط منه كلٌّ قدر حاجته في مساء كلّ ليلة عدا السبوت. وقد دام سقوط المنّ حول معسكر إسرائيل مدّة أربعين سنة حتّى يوم عبر يشوع معهم نهر الأردن فتوقفت الأعجوبة. وقد حفظوا منه جرّة ضمّت إلى لوحي الشريعة.

ج- أمّا قصّة **عصا هارون** فنقرأها في الفصل السابع عشر من سفر العدد، ومفادها أنّ الله كان قد أمر موسى النبيّ أن يأخذ من كلّ بيت عصا ويكتب عليها اسم كلّ رأس من بيته. وهكذا جمع اثنتي عشرة عصا ووضعها في خباء المحضر حيث كان لوحا الوصايا وجرّة المنّ. وفي الغد وُجدت عصا هارون قد أفرخت فأخرجت براعم وأزهرت وأنضجت لوزًا، فكان ذلك دليلاً على اختيار الله لهارون كاهنًا له، وأمر الله موسى أن يردّ عصا هارون إلى أمام الشهادة لتحفظ آية.

وكما أنّ تابوت العهد هو صندوق مقدّس حوى أشياء مقدّسة ثمينة، كذلك العذراء مريم هي صندوق مقدّس حوى قدّوس القدّيسين، مخلّص العالم، حينما حُبلت به، وحملته تسعة أشهر في أحشائها المباركة. وكما أنّ تابوت العهد يرمز إلى علاقة الله بالبشر وتجديد عهده لهم كذلك مريم العذراء تُعتبر تابوت العهد الجديد أيّ تجديد عهد الله للبشر.

وكان تابوت العهد يُعتبر كأنّه عرش الله.

إنّه مركز العبادة وقبلة الحجّاج، أمامه تقرّب القرابين وتقطّر الضحايا. وحوله يتجمّع الكهنة واللاويّون للقيام بمراسيم الطقوس الدينيّة وإنشاد المزامير. وقد بنى له سليمان الملك الهيكل الشهير وخصّص له قدس الأقداس في صدر الهيكل.

وهكذا أصبح تابوت العهد قلب أمّه، ورمز عهد بين الله وشعبه، ومصدر قوّة، وعنوان وفاء الله لشعبه ووفاء شعب لربّه.

ولمريم المزيّنة بجميع الفضائل والتي حملت في حشاها صانع الشريعة والمنّ السماويّ تنشد الكنيسة: **"افرحي يا تابوت العهد المقدّس". وفي طلبة العذراء نقول: "يا تابوت العهد صلّي لأجلنا"**.

٥- **جزّة جدعون** (قضاة ٦: ٣٧- ٣٨). إنّ هذا القاضي قبل أن ينازل أعداء إسرائيل طلب إلى الله أن يعطيه دليلاً. فقال لله: **"هاءنذا واضع جزاز صوف في البيدر فإذا سقط الندى على الجزاز وحده، وعلى سائر الأرض جفاف، علمت أنّك مخلّص إسرائيل على يديّ كما قلت، فكان كذلك. وبكّر في الغد وعصر الجزاز فخرج منه الماء ملء دلو. فقال جدعون لله: "لا تغضب عليّ فإنّي أتكلّم هذه المرّة فقط وأجرّب هذه المرّة أيضًا بالجزاز. ليكن على الجزاز وحده جفاف وعلى سائر الأرض ندى، فصنع الربّ كذلك في تلك الليلة فكان على الجزاز وحده الجفاف وعلى سائر الأرض ندى"**.

وقد رأت الكنيسة في الجزة رمزًا لمريم التي غمرها وابل النعم؛ خاصّة حينما حلّ الكلمة في حشاها. ونحن ننشد لها: **"السلام عليك يا جزة منداّة قد سبق جدعون وعاينها"** (الاكاثستوس).

٦- **عروسة نشيد الأناشيد**. لقد رأى كثير من الآباء في عروس نشيد الأناشيد رمزًا للعذراء مريم التي تتحلّى بالجمال والنقاء والحبّ. وأنّها هي بالذات رمز للكنيسة وللنفس الأمينة، إذ حينما نسمع صاحب نشيد الأناشيد يشبّه عروسه **"بزنبق بين الأشواك"** (٢، ٢)، أو يرفع إليها هذا المديح: **"كلّك جميلة ولا عيب فيك"** (٤، ٧)، تتبادر حالاً إلى أذهاننا قداسة مريم وحبلها المعصوم من دنس الخطيئة الأصليّة. وكذلك تخطر العذراء على بالنا حينما نسمعه يدعوها **"بالفجر الطالع"** (٦: ١٠) لأنّ مريم سبقت مجيء

الشمس الإلهيّة. وعندما نقول عنها أنّها: **"جميلة كالقمر ونقيّة كالشمس وكجيش مصطفّ يشدّ أزر بعضه بعضًا"**، نشعر بأن ليس كجمال مريم ولا كنقائها، وأنّها على استعداد دائم لأن تمدّنا بالعون. ونحن ننشد لها دائمًا في الصلوات الطقسيّة: **"افرحي يا عروسًا لا عروس لها"** ويُستثنى من ذلك الروح القدس الذي هو عروس كلّ نفس بارّة.

٧- **"جنّة مقفلة، ينبوع مقفل، وعين مختومة"** (نشيد الأناشيد ٤، ١٢). نعم إنّ العذراء هي هذه الجنّة المحاطة بالأسوار لتحميها من عبث العابثين، والتي يفوح منها نسيم معطّر، وقد حملت أشجارها الثمار الشهيّة المحفوظة للختن. وأنّها الينبوع المقفل والعين المختومة. وهذا تلميح إلى الحجر المستدير الذي كان يغطّي فم البئر وهو رمز إلى طهارة مريم. ورتبة الاكاثستوس تنشد لها: **"السلام عليك يا ينبوع الماء الحيّ الذي لاينضب"**. **"السلام عليك يا فردوسًا حيًّا يحوي في وسطه الربّ عود الحياة الذي يحي بحلاوته المتناولين منه بإيمان"**.

٨- **الحكمة**. الأمثال (٨: ٢٢- ٣٦) يصف لنا المرأة الحكيمة. وقد وجد آباء الكنيسة في هذا الوصف رمزًا للعذراء المجيدة. وهذا هو النصّ: **"الربّ حازني في أوّل طريقه قبل ما عمله منذ البدء. من الأزل مسحت من الأوّل من قبل أن كانت الأرض. ولدت حين لم تكن الغمار والينابيع الغزيرة المياه... فالآن أيّها البنون اسمعوا لي فطوبى للذين يحفظون طرقي. اسمعوا التأديب وكونوا حكماء ولا تهملوه. طوبى للإنسان الذي يسمع لي ساهرًا عند مصاريعيّ يومًا فيومًا حافظًا عضائد أبوابي فإنّه مَن وجدني وجد الحياة ونال مرضاة من الربّ ومَن أخطأني ظلم نفسه. كلّ مَن يبغضني يحبّ الموت"**.

٩- إنّ **النساء الشهيرات** رمز لسيّدتنا العذراء ومن بينهنّ:

آ- الأمّهات اللاتي كنّ عقيمات ثمّ يصبحن أمّهات بطريقة عجيبة: سارة، والدة إسحاق (تكوين ١٨: ٢١- ٢٢)،

ب- رفقة، والدة يعقوب التي ألبسته جلد الماعز كما لبس المسيح خطايا البشر (تكوين ٢٥: ٢١- ٢٣؛ ٢٧)،

ج- راحيل، والدة يوسف الذي سمّاه فرعون مخلّص العالم (تكوين ٣٠).

د- حنّة أمّ صاموئيل أحد الأنبياء، وقد أنشدت لله أنشودة خلّدها الكتاب المقدّس كأجمل ما تستطيع أمّ أن تنشده بعد عقم طويل.،

هـ- يهوديت، التي نالت النصر لشعبها (يهوذا ١٥ و١٦)،

و- أستير، التي نالت حظوة لدى الملك بسبب ما كانت تتمتّع به من جمال باهر. وكان الملك قد وضع شريعة بأنّ مَن يدخل عليه بدون عِلم سابق يتعرّض للموت. هذه الشريعة لم تكن لأستير لأنّها كانت تستطيع أن تدخل على الملك كلّما شاءت هي وشعبها (أستير ١١: ١٧؛ ٤: ١١؛٥: ١- ٨)،

ز- أمّ المكابين التي حضرت تعذيب أولادها وشجّعتهم على أن يموتوا في سبيل الله. إنّها رمز لمريم التي وقفت عند أقدام الصليب تقدّم ابنها ذبيحة لله.

١٠- **المدينة المقدّسة** أو صهيون أو الهيكل. ولعلّ هذه رمزت أفضل من سائر الرموز إلى مريم العذراء. وهي ترمز بالوقت نفسه حسب رأي الآباء القدّيسين، إلى الكنيسة عروس المسيح.

١١- **سفينة نوح** التي نجت من الطوفان ونجّت معها المخلّصين، ومنها يخرج نوح جديد للحياة (تكوين ٦، ٧، ٨، ٩) ولها ننشد في الصلوات الطقسيّة: "**السلام عليك يا مَن خلّصت العالم من طوفان الخطيئة**".

١٢- **الجرّة المذهّبة** (خروج ١٦: ٣٣- ٣٤) التي حوت المنّ ولها ننشد: "**السلام عليك يا جرّة تحوي المنّ المحلّي حواس الأتقياء**". "**السلام عليك يا غذاء يقوم بدل المنّ**" (من رتبة الاكاثستوس).

١٣- **المائدة** التي كان يوضع عليها خبز التقدمة (خروج ٢٥: ٢٣- ٣٠) ولها تنشد الكنيسة: "**السلام عليك يا مائدة حافلة بالغفران**" (من رتبة الاكاثستوس).

١٤- **المبخرة** حيث كان يشتعل الجمر والتي كانت وراء حجاب القبّة الثانيّ، كانت ترمز إلى العذراء الفائقة القداسة ولها تنشد الكنيسة: "**افرحي أيّتها المبخرة، افرحي يا مبخرة الصلاة المستحبّة**".

١٥- **منارة من الذهب** (خروج ٢٥: ٣١- ٣٩. ٣٧: ١٧- ٢٤).

١٦- **الغمامة** (أشعيا ٤٥: ٨) كانت تسير أمام الإسرائيليّين نهارًا وهم في طريقهم إلى أرض الميعاد تهديهم الطريق وتقيهم لفح أشعّة الشمس اللاهبة وتضيء لهم ليلاً وهم سائرون بقيادة موسى النبيّ. ومريم هي هذه السحابة التي حملت الإله وتقود البشر إلى أرض الميعاد الحقيقيّة التي هي ملكوت السماء. ولها ننشد "**السلام عليك يا غمامة وضّاءة تظلّل المؤمنين بلا انقطاع**" (الاكاثستوس).

١٧- **البحر الأحمر** (خروج ١٤: ٢٢ و٢٨) الذي جازه الإسرائيليّون على اليابسة ولمّا وصل جند فرعون غمرتهم اللجج. وهو رمز لمريم التي لم تبل زواجًا، والتي تهلك في اليمّ فرعون المتجبّر (إبليس) وتنجّي المؤمنين السائرين وراء المسيح ابنها.

١٨- **الصخرة** (خروج ١٧: ٦) التي فجّر منها موسى النبيّ المياه فارتوى الشعب العطشان. فالصخرة هي العذراء التي أروت المؤمنين من معين ابنها. وأنّ الطقس يحيّي العذراء: "**السلام عليك يا صخرة أروت العطاش إلى الحياة**" (الاكاثستوس).

١٩- **الثلاثة الفتية** (دانيال ٣) حننيا وعزريا وميصائيل الذين لم يوهن إراداتهم تهديد ملك بابل ولم يرضوا معبودًا يسجدون له دون الخالق فطُرحوا في الأتون المتّقدة وحُفظوا سالمين بقدرة الله. إنّهم رمز للعذراء التي حملت بارئ العالم ولم تحترق بالنار الإلهيّة. وأنّ طقس الكنيسة يردّد ذكرى الفتية القدّيسين في كلّ قانون من الصلوات الطقسيّة وفي رتبة الاكاثستوس الأودية الثامنة إذ يقول: "**إنّ ولادة والدة الإله وهي بعد في حيّز الرمز قد صانت الفتية القدّيسين في الأتون**".

٢٠- **يونان النبيّ** (يونان ١) الذي حُفظ سالمًا في جوف الحوت يرمز إلى العذراء التي حملت المخلّص وبقيت عذراء.

وهناك رموز عديدة تردّد تدريجيًّا في رتبة الاكاثستوس وفي قوانين أعياد البتول على مدار السنة.

وقد سبق الكتاب المقدّس فنوّه عن العذراء من قريب أو بعيد بآيات عديدة. منها:

١- الآية التي وردت في قصّة إغواء الحيّة للإنسان الأوّل: **"وأجعل عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، فهو يسحق رأسك وأنت ترصدين عقبه"** (تكوين ٣: ١٥) وقد رأى جميع الآباء والعدد الكبير من علماء اللاهوت المعاصرين وشرّاح الكتاب المقدّس في هذه الآية رمزًا للعذراء البتول التي تسحق رأس الشيطان وتخلّص جنس البشر. وقد سُمّي هذا النصّ بالإنجيل الأسبق لأنّه يكشف لنا مسبقًا عن دور العذراء مريم في سحق مكايد إبليس وتخليص البشر بولادتها مخلّص العالم.

٢- أشعيا النبيّ (٧: ١٠- ١٧): **"ها إنّ العذراء تحبل وتلد ابنًا ويُسمّى عمّانوئيل"**. وقد وجد القدّيس متّى في هذه الآية إشارة واضحة للعذراء المجيدة التي بشّرها الملاك جبرائيل بالحبل الإلهيّ (١: ١٨- ٢٣).

وليس من الغريب أن يجمع الآباء القدّيسون على تحيّة مريم بآية أشعيا النبيّ. ويمكن أن نقابل هذه الآية مع آية لميخا النبيّ (٥: ١- ٣) ومن المؤسف أن تبقى هذه النصوص الرائعة غامضة إلى اليوم عن عيون اليهود. وكان من الواجب أن تهديهم إلى المسيح الذي جاء يتمّم في ذاته كلّ هذه النبوءات.

٣- النبيّ داود سبق وتكلّم عنها مرّات عديدة في كتاب المزامير: **"قم يا ربّ إلى راحتك أنت وتابوت قدسك"** (مزمور ١٣١: ٨) **"كلّ مجد ابنة الملك في الداخل. قامت الملكة عن يمينك مرتدية بأثواب موشّاة بالذهب. كلّ مجد ابنة الملك في الداخل. تحضر إلى الملك في أثرها العذارى والمخلصات لها ليحضرن إليك"** (مزمور ٤٤: ١٤- ١٥).

هذا هو الحفل الكريم الذي يسير في مقدّمة ركب العذراء مبشّرًا بمجيئها وبصفاتها ورسالتها السامية.

٤- وفي العهد الجديد، كتاب الرؤيا (١٢) يري العذراء هكذا: **"وظهرت في السماء آية عظيمة امرأة ملتحفة بالشمس وتحت قدميها القمر وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكبًا وهي حُبلى تصيح وتتمخّض وتتوجّع لتلد"**.

ونحن نرى، تتمّة لِما سبق، أن نضيف صفحة تضمّ بعض ما ورد في تواريخ الشعوب القديمة من إشارات إلى مريم العذراء:

إنّ الوعد بالمخلّص تناقلته الشعوب عن آدم الأب الأوّل وكان موضوع عزاء لهم ما داموا عائشين في أسرة واحدة في البلاد التي كانت مهد البشريّة. فلمّا تفرّق الناس حملوا معهم، إلى البلاد الجديدة التي توطّنوا فيها، ذلك الأمل وتناقلوه بأمانة ميراثًا ثمينًا. حتّى أنّنا نشاهد لدى الشعوب القديمة كلّها الإيمان بفادٍ يأتي ليخلّص البشريّة. ولعلّ إلى هذه الفكرة تستند الخرافات التي أحاطت بالآلهة.

١- انتشرت لدى المصريّين منذ أقدم العصور فكرة تقول: إنّ روحًا ينحدر من العلاء وينفذ إلى غصن شجرة فيجعل الإلهة العذراء مثمرة ويضع في حشاها مخلّص العالم. وكانت العادة أن يعرض الكهنة داخل هياكلهم تمثال امرأة تحمل على ساعدها طفلاً. ولا

يستبعد أن تكون تلك الأفكار هي التي وصلت إلى ما وصلت إليه بمرور أزمان طويلة واتّخذت لها هذه الصورة بعد أن كانت في الأساس هي نفس ما ورد في الكتاب المقدّس عن العذراء مريم.

٢- وكان اليونان يعتقدون بأنّ الإله جوبتير سوف يضع يومًا يده بلطف على جبين عذراء وأنّها بهذه الملامسة الإلهيّة اللطيفة تصبح أمًّا وتلد ذلك الذي سوف يعيد العصر الذهبيّ إلى العالم. ومَن يقرأ كتاب أشيل يتبيّن له جليًّا أنّ تلك الرواية مأخوذة عن الكتاب المقدّس.

٣- أمّا الرومانيّون فكانوا مقتنعين بأنّ أيّام الإله زحل سوف تعود إلى العالم عن طريق العذراء.

٤- وقد شاعت أساطير عديدة في الشرق عن عذارى يختبئن في الهياكل وينتظرن مجيء الإله فيحملنَ منه مخلّصًا للعالم.

٥- أمّا الصابئة أو المجوس في بلاد الكلدانيّين، وهم كهنة علماء، فقد اكتشفوا في القبّة السماويّة رمزًا يشير إلى عذراء. وكان كهنة غاليه يشيّدون هياكل على شرف العذراء التي سوف تلد.

ففي كلّ الأزمان شاعت أساطير متنوّعة تتحدّث عن عذراء وعن مخلّص منتظر. وكانا كلاهما موضوع عبادة مشتركة. ولدى الأديان القديمة كلّها حيث وجد ذكر مخلّص منتظر، ذُكرت معه أمّه، وهذه الأمّ هي عذراء تتوقع الشعوب مجيئها كما تتوقع مجيء ابنها.

فإلى هذه الأمّ العذراء وابنها نقتطف النشيد التالي من عيد البشارة لنجعله خاتمة كتابنا هذا قائلين: "**لقد وافى جبرائيل إليك أيّتها الفتاة وكشف لك عمّا تقرّر قبل الدهور وسلّم عليك بلهجة طرب قائلاً: افرحي يا أرضًا غير منزرعة. افرحي يا علّيقة غير محترقة. افرحي يا عمقًا لا تدركه الأبصار. افرحي يا جسرًا ناقلاً إلى السماوات. افرحي يا سلّمًا مصعدة إلى العلاء. افرحي يا معيدة دعوة آدم. الربّ معك**".